

عندما يكون العم سام ناسكًا!

دراسة تحليلية نقدية لموقف مراكز البحوث الأمريكية من الصوفية

الإصدار (٣٦)



د. صالح عبد الله حسَّاب الغامدي



الإصدار (٣٦)



عندما يكون العم سام ناسكًا!

دراسة تحليلية نقدية
لموقف مراكز البحوث الأمريكية من الصوفية

هذا الكتاب يدور في مجمله حول مسألة «الإسلام الذي يريده الغرب»، وقد تناول حقيقة موقف أمريكا من الصُّوفية، وذلك بشكلٍ علمي وموثَّق؛ بحث في موقف مراكز البحوث الأمريكية من الصَّوفية، لأنَّ تلك المراكز شريكٌ - غير رسمي- في صنع السياسة الأمريكية؛ وحتى يكتمل تصور الموقف بشكل علمي بحث الكتاب أيضاً في موقف تلك المراكز من الدعوة السَّلفية؛ وواقع السَّلفية والصُّوفية بعد 11 سبتمبر 2001م.

المؤلف

الناشر



المملكة العربية السعودية

00966591104492

ص.ب 242193 الرمز البريدي 11322

daralwae@gmail.com

تصميم الغلاف



عندما يكون العم سام ناسكًا !!

دراسة تحليلية نقدية لموقف مراكز البحوث الأمريكية من الصوفية

عندما يكون العم سام.. ناسكًا !!

دراسة تحليلية نقدية لموقف مراكز البحوث الأمريكية من الصوفية

د. صالح بن عبدالله حسّاب الغامدي

فضيلة الشيخ
علوي بن عبدالقادر السقاف

فضيلة الشيخ
د.عبدالعزيز آل عبداللطيف

سعادة الدكتور
مازن مطبقاني

الطبعة الأولى

١٤٣٦هـ

ⓒ دار الوعي للنشر والتوزيع ، ١٤٣٦هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الغامدي ، صالح عبد الله مسفر
عندما يكون العم سام ناسكا: دراسة تحليلية نقدية لموقف مراكز البحوث الأمريكية من الصوفية / صالح عبد الله مسفر الغامدي- الرياض ، ١٤٣٦هـ
٥٣٦ ص ؛ .. سم
ردمك : ٩٧٨-٦٠٣-٩٠٥٤٠-٤-٧
١- الإسلام والمذاهب السياسية ٢- الإسلام والغرب أ.العنوان
ديوي ٢١٤.٣٢٠٥ ١٤٣٦/٤٢٩٥



مركز الفكر المعاصر

الطبعة الأولى

١٤٣٦هـ

markazfekr@hotmail.com

هاتف ٠٩٦٦٥٩١١٠٤٤٩٢

الموقع الإلكتروني www.al-fikr.com

ﷺ

أصل هذا الكتاب رسالة دكتوراه تقدم بها المؤلف إلى كلية الدعوة وأصول الدين، قسم الدعوة والثقافة الإسلامية، في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، وتكونت لجنة المناقشة من:

فضيلة *الدكتور مازن بن صلاح مطبّقاني*، أستاذ الاستشراق بقسم الثقافة الإسلامية بجامعة الملك سعود بالرياض، مشرفاً

فضيلة *الدكتور عبدالرحمن بن جميل قصّاص*، عضو هيئة التدريس في كلية الدعوة وأصول الدين بجامعة أم القرى بمكة المكرمة، عضواً

فضيلة *الدكتور فؤاد بن عبده البعداني*، عضو هيئة التدريس في كلية الدعوة وأصول الدين بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، عضواً

وذلك بتاريخ ٢٨/٦/١٤٣٥هـ، وقد نال بها المؤلف درجة الدكتوراه بامتياز مع مرتبة الشرف الأولى، والتوصية بطباعة الرسالة وتداولها بين الجامعات.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المُتكفِل بنُصرةِ دينه، وحفظ كتابه، وتأييد الصَّالحين من عباده، لك الحمد ربنا كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، والصلاة والسلام على نبيِّنا الأمين، المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فهذا الكتاب أيها القارئ الكريم يدور في مجمله حول مسألة «الإسلام الذي يريده الغرب»، وقد قصدت فيه تحديداً الوقوف على حقيقة موقف أمريكا من الصوفية،بشكل علمي وموثق؛ ولأجل تحقيق ذلك بحثت في موقف أبرز مراكز البحوث الأمريكية من الصوفية، لأنَّ تلك المراكز شريكٌ - غير رسمي- في صنع السياسة الأمريكية؛ وحتى يكتمل تصور الموقف بشكل علمي بحثت أيضاً في موقف تلك المراكز من الدعوة السَّلفية؛ ثم وجدت أيضاً أن مقصود الدراسة لن يتم إلا بالوقوف على واقع السَّلفية والصُّوفية بعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١م. وهذا ما تمَّ - بعد توفيق الله- في هذا الكتاب.

فأحمد الله أولاً وأشكره، وأُثني عليه الخير كله. وأُثنِّي بالشُّكر والدعاء للإخوة الكرام القائمين على مركز الفكر المعاصر بالرياض، فجزاهم الله عنِّي خير الجزاء.

اللهم اجعل عملي هذا خالصاً لوجهك الكريم،وألهمني بفضلك ما يرضيك عني، وجَنِّبْني برحمتك عثرات القلم واللسان، إنك سميع مجيب.

صالح بن عبدالله الحسَّاب

جدة

١٠/ ٢/ ١٤٣٦هـ

تقديم فضيلة الشيخ السَّيِّد علوي بن عبدالقادر السَّقَّاف

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على خاتِم الأنبياء والمرسَلين، نبيِّنا محمد وحبِيبنا وسيِّدنا وقُرة أعيننا محمَّد بن عبدالله وعلى آلِه وصحْبه وزوجاتِه أجمعين.

أمَّا بعدُ:

فقدْ تحدَّث كثيرون عن الصُّوفيَّة والتصوُّف، وأحسبُ أنَّ هذا الكتاب للدكتور صالح الحسَّاب الغامدي، هو أوَّل كتابٍ يَتحدَّث عن موقفِ مراكز البحوث الأمريكيَّة من التصوُّف والدُّور الاستشراقي المعاصر لها، والذي يقرأ الكتاب بتجرُّد يهولُه ما فيه من معلومات موثَّقة عن حِرص هذه المراكز واهتمامها -بل حرص الإدارة الأمريكيَّة نفسها- على التصوُّف ورموزه، ممَّا يُثير الاستغرابَ ويضعُ علاماتِ استفهامٍ كبيرة.

وهذه أسئلةٌ مشروعةٌ ومنطقيَّة، أضعها للقارئ الفطن، وجوابها عند كلِّ عاقل منصف، ومَن أعياه الجوابُ، أو شكَّ في مَغزى السؤال، فليقرأ الكتاب، فهو بين يديه:

١- لماذا تصِف مراكزُ البحوث الغربيَّة الدعوةَ السَّلفيَّة بالمتطرِّفة، بَيْنَما تصِفُ التيارات الصوفيَّة بالمعتدِلة؟!

٢-ولماذا تُحذِّر الإدارةُ الأمريكيَّة من الأُولى وتُحاربها، بَيْنَما تتعاون مع الثانية؟! (كما سيأتي).

٣- لماذا يَعتني كِبارُ المستشرقين، أمثال: نيكلسون، وماسينيون، وبلانيوس ، وأربري، وجولدتسيهر، ودي تاسي، وفالين، ومرجليوت ، ونللو، وغيرهم -لماذا يعتنون برموز الصوفيَّة الفلاسفة كالحلَّاج، وابن عربي، وابن الفارض، وابن الرومي، بتحقيق تُراثِهم وترجمتِه ونَشْره، والإعلاءِ مِن شأنهم؟!

٤- لماذا يَحظَى التصوُّفُ بدعمٍ كبيرٍ من كثيرٍ من الدول العربيَّة، في حين يُحارَبُ التوحيدُ والدَّعوات السلفيَّة في تلك الدُّول؟!

٥- لماذا تُحيي القنوات الفضائية الهابطة المناسباتِ الدينيَّة البِدعيَّة، والمهرجاناتِ الصوفيَّة؟!

٦- لماذا تهتمُّ المراكز البحثيَّة الغربيَّة -وبخاصَّة الأمريكيَّة، كمؤسَّسة راند، ومؤسَّسة كارنيغي، ومؤسَّسة التراث، ومعهد بروكنجز، ومركز نيكسون، ومعهد الشرق الأوسط وغيرها- لماذا يَهتمُّون بالجماعاتِ الصوفيَّة في العالم الإسلاميِّ، وبخاصَّة العربيِّ، ويحضُّون حُكوماتِهم على دَعْمها؟!

٧- ولماذا يُثنون على رموز الصوفيَّة المعاصرين، أمثال: فتح الله كولن التركي، مؤسِّس حركوك ولن الصوفية، والزعيم الأندونيسي عبدالرحمن وحيد، حفيد هاشم أشعري، مؤسِّس جمعية نهضة العلماء أشهر الجمعيات الصوفيَّة في أندونيسيا، وهِشام قباني الأمريكي، وعبدالهادي بالاتسي الإيطالي، وحمزة يوسف، وعبدالله بن بيَّه، وغيرهم؟!

٨- لماذا يُصرِّح أستاذُ الأديان في جامعة جورجيا بأمريكا ومدير «صوفيون دون حدود» البروفيسور «ألان جودلاس»، وينصح الولايات المتحدة بقوله: (الولايات التحدة ستُحسن صنعاً في دعْم محاولة كلِّ دولة لإحياءِ هُويَّتها الصوفيَّة المحلية وإدماجها مع الهُويَّة القوميَّة)؛ هل هو حبٌّ منه للإسلام الصافي النقيِّ؛ كي ينتشرَ في البلاد الإسلاميَّة؟ أم هو شيءٌ آخر؟!

٩- لماذا نجِد عشراتِ المقالاتِ، بل الكتُب والبحوث التي تكلَّمت عن مراكز البحوث الغربيَّة المشبوهة، وفضَحَتْ أهدافها وخُططها، ليس منها مقالاً واحداً لرمزِ من رموزِ الصُّوفيَّة؟ لماذا يا تُرَى؟!

١٠- لماذا تتعاطف موسَّسة خطيرة كمؤسَّسة «راند» مع الصوفيِّين، وتعدُّهم حلفاءَ للغرب بقولها في تقريرها الشَّهير: (ولأنَّ الصوفيِّين والتقليديِّين أصبحوا ضحايا للسلفيِّين والوهابيِّين؛ فإنَّ هذا يجعلهم حلفاءَ طبيعيِّين للغرب لدرجةِ أنَّه يمكن إيجادُ أرضية مشتركة معهم)، ماذا يَعني هذا التصريح؟!

١١- لماذا دعَمَ المستعمرُ الحركاتِ الصوفيَّةَ في الدُّول العربية، كدعم الطريقة التِّيجانية في الجزائر، والسمانية البكرية في مصر، والميرغانية الخاتميَّة في السودان، والقادريَّة في تونس وموريتانيا، والرِّفاعيَّة في العراق، والبريلوية في الهند، والنقشبندية في أفغانستان؟!

١٢- لماذا يهتمُّ الساسة الغربيُّون -والأمريكان خاصَّة- برموز الصوفيَّة المعاصرين غير السياسيِّين، ويقربونهم، ويستقبلهم كبارُ السياسيِّين منهم، بل يُستقبَلون في البيتِ الأبيض وتُقامُ لهم الحفلاتُ والولائم؟!

١٣- لماذا يُستقبل الشيخُ عبدالله بن بيَّه في البيت الأبيض، ويجتمع مع كِبار المسؤولين في الحُكومة الأمريكيَّة؟!

١٤- ولماذا يَختار البيت الأبيض الشيخَ حمزة يوسف ليُمثِّل مسلمي أمريكا، ويلتقي بالرئيسِ الأمريكي نفسِه؟!

١٥- ولماذا يجتمع الصوفيُّ الأمريكيُّ المشهور هشام قباني بالرئيس الأمريكي أكثرَ من مرَّة، بل يكون هو ضيفَ العشاء الرمضانيِّ السنويِّ في البيت الأبيض؟!

١٦- لماذا يَحرِص سفراءُ الغرب -وسفراء أمريكا خاصَّة- في بعض البلاد العربيَّة على حضورِ المناسبات الدينيَّة الصوفيَّة، كحضور احتفالات الطُّرق الصوفيَّة المصريَّة، بمولد السيِّد البدوي، وحضور احتفال الطَّريقة البودشيتيه بالمولد النبوي في الرِّباط، وغيرها؟!

١٧- وأخيراً لماذا يهتمُّ بالصوفيَّةِ الساسةُ الغربيُّون-والأمريكان خاصَّة- بل رُؤساؤهم، لدرجة أنَّ الحديث والدفاع عن الصوفيَّة والتصوُّف أصبح ضِمنَ فِقرات خطاباتِهم الرسميَّة؟! وهاهو الرئيس الأمريكي «باراك أوباما» يقول في خِطابه أمام الجمعيَّة العامَّة للأمم المتحدة عام ٢٠١٢م: (دعونا نُدين التحريضَ ضدَّ المسلمين الصوفيِّين)!!

هذه أسئِلة مشروعةٌ، على كلِّ عاقل أن يُفكِّر في أجوبتها. وإنِّي أنصح كلَّ صوفيٍّ مثقَّفٍ على وجه الأرض بِقراءةِ هذا الكتابِ بعَينٍ بصيرةٍ، وقلبٍ متجرِّدٍ من الهوى والتعصُّب، كما أَنصح كلَّ مثقَّف مُريد للخير للأمَّة الإسلاميَّة بِقراءته وتأمُّله، والله الهادي إلى سواءِ السَّبيل.

علوي بن عبدالقادر السَّقَّاف
المشرف العام على مؤسسة الدرر السنية
aasaggaf@gmail.com
٩/ ٢/ ١٤٣٦هـ

تقديم فضيلة الشيخ الدكتور عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف

الحمد لله رب العلمين، والصلاة والسلام على خاتم النبيين والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. وبعد:

التصوف الحاضر وثيق الصلة بالتصوف الراحل، والصوفية الباقية امتداد للصوفية البائدة، فشطحات الصوفية الأولى، ورميم أحوالهم وأذواقهم تعدّ جذوراً للصوفية المعاصرة.

كما في تسويغ الباطل، وتزيين الشرك، وإحياء ملة عمرو بن لحي، وعبادة الأضرحة، والتعبد بالمحدثات والبدع والضلالات، وموالاة أعداء الله ومظاهرة أهل الجحيم من المغضوب عليهم والضالين، وكراهية الجهاد في سبيل الله والنفرة منه ..إلخ

هذا الركام الهائل من الزندقة والابتداع لدى صوفية الأمس، لا يتكرر عند صوفية اليوم فحسب، بل يتضاعف ويتنامى -كما هو مبين في هذه الرسالة الماتعة-.

كان صوفي الأمس يأبى أن يجاهد التتار الأشرار، ويقول: أقاتل الله؟! فالعبد هو الرب، والتتار هم الله[1] -تعالى الله عما يقول الملحدون علواً كبيراً- ومنهم من قال كفراً، وأظهر نفاقاً فزعم أن أهل «الصفة» قاتلوا مع الكفار النبي ﷺ[2].

لقد اعتقد الصوفية الغابرون «الجبر» وأنكروا الشرع، فنظروا إلى القدر، لكنهم عطّلوا العبادة والدين، فسوّوا بين المؤمن والكافر، والموحد والمشرك، وجعلوا التتري الزنديّق كالمسلم والصديّق، وجعلوا المستعمر البغيض كالمؤمن الحبيب..

فالصوفي يُسلِّم إليه حاله! كما يُسلِّم الحال للمستعمر والمستبد والطاغية!

وهم يقولون: إن عصينا شرع الله، فقد وافقنا قدره ومشيئته!

فسوغوا اليهودية والنصرانية وسائر الملل والنحل.

---

(١) ينظر: الرد على البكري لابن تيمية ص١٩١، والفتاوى ٢/ ٣٠٩

(٢) ينظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية ١١/ ٤٧-٤٩

ولذا كان في الصوفية من يحرس ويحمي التتار، وفيهم من يحفظ خنازير النصارى، ثم يحتج بأن الله تعالى أمره بذلك[1]!

والحاصل أن ذلك الإرث الرديء لدى الصوفية الغلاة في القديم، قد سرى واستشرى لدى صوفية هذا الزمان، فمنافقة أعداء الله ومظاهرتهم مشهد مألوف ومكرور، يجاهر به شيوخ الصوفية بالغدو والآصال..

واشنع من ذلك سعيهم الحثيث في مناقضة أصليّ الدين: أن لانعبد إلا الله وحده، وأن لا نعبده إلا بما شرعه نبينا ﷺ.

وهذه الرسالة النافعة والموسومة بـ« الدور الاستشراقي المعاصر لمراكز البحوث الأمريكية/ موقفها من الصوفية أنموذجاً. دراسة وصفية تحليلية نقدية» قد كشفت عن حقائق مهمة ، وجمعت معلومات مفيدة عن مراكز البحوث الأمريكية، وجهودها في دعم التصوف، ورعاية الطرق الصوفية؛ من أجل مواجهة مذهب أهل السنة والجماعة، والذي أوجع الغرب والشرق بانتشاره وظهوره، وجهاده ونكايته فيهم.

وهذه المراكز البحثية تتفق تماماً مع كدح المستشرقين القدامى في الاحتفاء بالتصوف ونشره وتزيينه.

كما حوى البحث جملة شهادات لرموز صوفية معاصرة واعترافاتهم بأن الغرب يشجع التصوف ويحتفي به.

وقد بذل الباحث الدكتور صالح بن عبدالله الحسّاب الغامدي جهداً ظاهراً، وقدّم معلومات مهمة في هذا الشأن المستجدّ، وتعامل مع مراجع متعددة، ورسائل علمية كثيرة لم تطبع، وتواصل مع مواقع إلكترونية عربية وأجنبية، وراجع تقارير كثيرة، وأجرى لقاءات وحوارات متعددة .

فبارك الله في جهده وبحثه، ونفع الله به الباحثين والمنصفين.

ولعل هذا البحث خطوة كبيرة في استبانة سبيل المجرمين ومجاهدة الزائغين، ودعوة ورحمةً لعموم الصوفية بأن يتجردوا للحق والدليل، وأن يتحرروا عن الهوى والتقليد.

---

(١) ينظر: الفرقان بين الحق والبطلان (ت العصلاني) ص٦١٤-٦١٩

قال تعالى ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه : ١٢٣] ، قال ابن عباس رضي الله عنهما: تكفّل الله لمن قرأ القرآن، وعمل بما فيه ان لا يضل في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة.

والله حسبنا ونعم الوكيل .

عبد العبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف

أستاذ العقيدة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض سابقًا

١٠/ ٧/ ١٤٣٥هـ

تقديم سعادة الدكتور مازن بن صلاح مطبَّقاني

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله وعلى آله وصحبه أجمعين

كتابة مقدمة لرسالة علمية تقدّم نفسها ولا تحتاج حقيقة لمن يقدمها أمر ليس بالهين ولكنها رغبة الزميل (الآن) الدكتور صالح أن أكتب له بضعة أسطر فما ذا عساني أقول؟.

هذه الرسالة تناولت أمرين خطيرين وهما مراكز الفكر الأمريكية والأمر الثاني التصوف في دراسات هذه المراكز، وكلا الأمرين يستحق رسالة منفصلة ولكننا في عالمنا الإسلامي الذي لا يزال تصنع قراراته وسياساته في الخارج أو إن لم تصنع كلياً فللخارج ولهذه المراكز أثر كبير في صناعتها، وقد قام الأخ الزميل الدكتور صالح بهذا الأمر خير قيام.

ولا أجدني في وضع يسمح لي أن أحكم على الرسالة تماماً فأنا شريك معه في إيجابياتها وسلبياتها وهذا ما تعلمته من أستاذي الدكتور الحبيب الهيلة حين رغبت إليه أن يشرف على رسالتي عن الاستشراق الفرنسي والصراع الفكري في المغرب العربي فقال لي: «يا مازن الرسالة شرفي وشرفك وسأبحث معك كما تبحث، ولكنها ستكون باسمك»، فقلت في نفسي: لله درّك من أستاذ كريم، ولذلك فأنا شريك لا يحق لي أن أحكم على الرسالة ويكفي أنه ناقشها زميلين كريمين هما الأستاذ الدكتور عبد الرحمن قصاص والدكتور فؤاد البعداني. وأعود إلى مراكز الفكر التي انطلقت فكرتها على أساس أنها منظمات غير ربحية وغير حزبية ملتزمة بفهم متطور للسياسة الخارجية الأمريكية والشؤون الدولية عندما دُعي واحد وعشرون عضواً من مجموعة النخبة لمرافقة «ودرو ويلسون» لمؤتمر السلام عام ١٩١٩. انزعج هذا الوفد بسبب رفض ويلسون نصائحهم كما تعرضوا للتضليل بسبب الفقرات التي تضمنتها اتفاقية فرساي فقرروا بالاتفاق مع مثقفين وباحثين من بريطانيا بتأسيس معهد يجمع الشباب في باريس ليقدموا آراءهم ونتائج بحوثهم للرأي العام ولصانعي السياسة في بلادهم.

ولكن لم تستمر هذه المراكز حيادية نزيهة تماماً فدخل أصحاب المال وأرباب الأحزاب السياسية فتدخلوا في شؤونها وأصبحت ذات اتجاهات متعددة كما قسمها الخبير بمراكز الفكر «دونالد أبلسون» إلى عدة أنواع معتمداً على دراسة أجرها ويفر *Weaver* لهذه المراكز فمنها من يعتمد على الدعم الحكومي وأسماها (جامعات دون تلاميذ) مهمتها الأساسية القيام بالبحوث والدراسات الممولة حكومياً ، أما النوع الثاني فهي المراكز «الترويجية» وهي أكثر أنواع مراكز الفكر شيوعاً منذ بدايات السبعينيات في الولايات المتحدة وفي الديمقراطيات الغربية بما فيها كندا وبريطانيا العظمي، وأشار إليها «ويفر» بأنها المراكز الترويجية الدعائية. أما النوع الثالث فهي مراكز الفخر والغرور والمرشحين فهذه المراكز المؤسسة على الغرور والمرشحين قد أنشئت بالإيحاء إلى أصحاب المناصب (أو مؤيديهم) لتوليد أفكار يمكن للمرشح أن يبني عليها فيما بعد خلال حملته أو حملتها الانتخابية.

وقد كان التركيز في هذه الدراسة على المراكز الأكاديمية وإن كان بعض المراكز من التصنيفات الأخرى قد تنتج بين حين وآخر بحوثاً ودراسات ترقى إلى المستوى الأكاديمي الرصين.

أما الجانب الآخر في الدراسة فهو التصوف وقد أفاض الباحث في الحديث عن الصوفية من حيث تعريفها ونشأتها وأهدافها وأهم من ذلك كله ما دار ويدور في مراكز الفكر من دراسات ومخططات لنشر التصوف، وبخاصة التصوف الغارق في السلبية والخرافات، وهو أمر أدركه الغرب ومراكز الدراسات الاستشراقية من قديم حين احتلت بعض الدول الأوروبية بعض البلاد الإسلامية، حتى قال أحد القادة العسكريين الفرنسيين: «أعطني طريقة صوفية أحتل بلداً»، فاحتضنوا بعض الصوفية وفسحوا لهم المجال وها نحن في هذا الزمن بعد الربع الأول من القرن الخامس عشر الهجري وبداية القرن الواحد والعشرين الميلادي تجتهد مراكز الفكر الأمريكية في دعم الصوفية بشتى الوسائل مما بحثه الدكتور

صالح بحثاً واسعاً وعميقاً ودقيقاً فجلّى ما ينبغي للأمة أن تفعله لمواجهة خرافات الصوفية وتخطيط الدوائر الأجنبية.

سعدت بالتعامل مع الدكتور صالح الذي استجاب لكثير من إرشاداتي وكان مثالاً للباحث الجاد الذي لا يتوانى عن عمل كل ما يمكن لإخراج بحث أكاديمي متميز فكان بحثه مثالاً للبحوث العميقة التي أكدت على شخصيته الجادة في البحث وعمق اهتمامه بأمته ومصلحتها ومستقبلها، فأسأل الله عز وجل أن يزيده توفيقاً في حياته العملية والأكاديمية.

والله الموفق،،

مازن بن صلاح مطبقاني

أستاذ الاستشراق بجامعة الملك سعود بالرياض سابقاً، والمشرف على موقع المدينة المنورة لدراسات وبحوث الاستشراق

٦/ ١٠/ ١٤٣٥هـ

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، الذي هدانا صراطه المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم، فأكمله -سبحانه- لنا وأتمه، وأتمَّ به علينا النعمة، ورضيه لنا دينا، وجعلنا من أهله، وجعله خاتماً لكل دين وشرعة، ناسخاً لجميع الشرائع قبله، وبعث به خاتم أنبيائه ورسله محمداً ﷺ، وأمرنا سبحانه بالاستقامة على دينه، وحذرنا من السُبل المفرِّقة عنه، قال ﷻ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:١٥٣]. وجعل عاقبة طريق الاستقامة: رضوانه والجنة، فقال ﷻ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة:٧٢].

وأشهد أن محمداً عبده وسوله، وصفوته من خلقه، وخيرته من بريته، وأمينه على وحيه، وسفيره بينه وبين عباده، ابتعثه بخير ملَّة، وأحسن شرعة، وأظهر دلالة، وأوضح حجة، وأبين برهان، إلى جميع العالمين، إنسهم، وجنهم، عربهم، وعجمهم، حاضرهم، وباديهم، الذي بشَّرت به الكتب السالفة، وأخبرت به الرسل الماضية. وأصلي وأسلم عليه، وعلى آله الأطهار، وصحبه الأبرار، ما تعاقب الليل والنهار.

أما بعد:

ففي الوقت الذي هيأ الله لدينه الحق من يجدده، ويدعو إليه، وينفي عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، ويدفع عنه عاديات التغريب، وجهالات المفسدين، يرفع السلفية شعاراً، ويتمسك بالكتاب والسنة دثاراً؛ نجد من يسعى إلى هدم ذلك كله، والإجلاب عليه؛ لا بسيف الباطل والضلالة، وإنما بشعار الاتباع -زوراً وكذباً-، وهذا لعمر الله أشد من الصراع الظاهر بين الحق والباطل، كيف وقد لبِسَ الضُلاَّل في هذا الزمان ثياب الأخيار، ولبِسَ المفسدين للدين والدنيا -زوراً- لباس المصلحين!، كيف وقد بسط الكفر والفسق لهم يد المعونة والنصرة ضد

أهل الحق والإيمان؛ فخلعوا عليهم أعطر الألقاب، وصدّروهم في المجالس والإعلام. فتحالف المنحرف القريب مع الضال البعيد على حرب الدعوة السلفية المباركة بكل وسيلة.

ومن هنا، كان الخطب جلل، والمسؤولية على أهل العلم عظيمة، فكانت هذه الرسالة العلمية، التي تشرفت بإعدادها في رحاب أشرف جامعة، وفوق أشرف بقعة. ولقد انطلقت في هذه الرسالة، منذ أن كانت فكرة تدور في الرأس، من قول الحق ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾[الأنعام:٥٥]، ومن ﷻ أيضاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ﴾ [النساء : ٧١]، فاجتهدت في رسالتي هذا أن أستبين الحق على أصوله المرعية في مثل هذه الدراسات الأكاديمية الشرعية، ثم ما بان لي منه حقاً وخطراً فقد اجتهدت أن أزيده تحليلاً ونقداً وبياناً، لكي يَبِين للقارئ المسلم فيما بعد وجه الخطر، وطريق الحذر.

إن مما ذاع صيته، وشاع خبره في هذا الزمان تلك المراكز البحثية الأمريكية، والتي راج سوق أبحاثها عن العالم الإسلامي، وبلغت تلك الأبحاث الغاية في السوء، إذ لم تحفظ للمسلمين ديناً ولا كرامة، وراحت تبث الأفكار والتوصيات الموجهة لبني قومها حول كيفية ترويض المسلمين عبر تطويع الإسلام! فكان مما جادت به قريحة مكرهم التوصيةُ بدعم الصوفية في العالم، وإعادة اتخاذها حليفاً وشريكاً في الحرب ضد «الإرهاب»، زعموا! ويا له من خطب أن يتحالف البعيد الكاره، مع القريب الناقم!.

هذه التوصية الماكرة والتي باتت واقعاً على الأرض، هي ما وفقني الله لدراسته بشكل علمي موضوعي في هذه الرسالة؛ موثقاً ما أورده بالدليل، وموضحاً ما أذكره بالمثال، ولقد بذلت في طلب المعلومة من مصدرها ما وسعه جهدي؛ فسافرت إلى العديد من مدن المملكة، وسافرت أيضاً إلى: قطر والإمارات والبحرين وتركيا ومصر وتونس والمغرب وفرنسا، وكان ذلك السفر إما طلباً للقاء مَنْ في سماع رأيه وفكره إثراءً للرسالة، أو لزيارة جهة تضيف للرسالة جديداً أو مفيداً ، أو لشراء الكتب والمصادر العلمية. وأحمد الله أن وفقني للكثير مما قصدت، وأرجوه سبحانه أن أكون برسالتي

هذه قد قدمت لهذا الدين العظيم ما يحفظه، ويدفع عنه الضرر والمكر، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

- **أهمية البحث، وسبب اختياره:**

تتجلى أهمية موضوع البحث في عدة أمور، وهي:

الأول: تصاعد الحديث في الغرب عن وجوب تغيير الإسلام من داخله، وممن تولى تصعيد هذا الأمر وإصدار الأبحاث والتقارير التي تسنده؛ مراكز البحوث الأمريكية، وهي التي يصطلحون على تسميتها بـ *Think Tanks*.

الثاني: أن لمراكز البحوث الأمريكية دورٌ كبيرٌ وعلني في رسم سياسة الولايات المتحدة الأمريكية، وبالتالي فهي امتداد طبيعي لدوائر الاستشراق الغربية، ولا فرق بينهما في المضمون والأهداف، وإن كان ثمة فرق فهو في المسميات والأشكال.

الثالث: أن فترة ما بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م خلَّفت فترة عصيبة من تاريخ الأمة الإسلامية، فقد اجتمع عليها ضعفٌ وتفرقٌ وظلمٌ أمريكي سافر، يسعى فيما يسعى إلى التدخل في نسيجها الديني وثقافتها الإسلامية، بغية إحداث تغيير في الإسلام من داخله، وذلك عبر دعم وتقوية من يقوم بذلك التغيير، ومحاربة من يتصدى له بكل وسيلة. وقد تولت مراكز البحوث الأمريكية إعلام الإدارة الأمريكية بمن يجب أن يُدعم ومن يجب أن يُحارب، وذلك عبر تقاريرها وأبحاثها.

الرابع: تتحدث مراكز البحوث الأمريكية في الكثير من تقاريرها عن أن الصوفية يمثلون الإسلام المعتدل والمتسامح، والذي يجب على الغرب دعمه وتقويته، و على النقيض من ذلك تماماً؛ تتحدث تلك التقارير عن أن السلفية هي منبع الإرهاب والتطرف، وهي ما يَجب أن يُحارب.

الخامس: أن الصوفية المعاصرة تحمل إرثاً طويلاً وكبيراً من عداء الدعوة السلفية المعاصرة، منذ أن قام الشيخ محمد بن عبدالوهاب -رحمه الله- بدعوته التجديدية.

السادس: أن الكره الغربي (المصلحي) للدعوة السلفية، انتظم اليوم في

صف واحد مُعلن مع الكره الصوفي (العقدي) للدعوة السلفية، وهنا مكمن الخطر!

السابع: أن المؤمن مأمورٌ بأخذ الحذر وببذل السبب، وهذا الأمر: «التحالف الغربي الصوفي»، مما يجب الحذر منه، وبذل السبب لدفعه.

ولأجل ما سبق عزمت على اختيار هذا الموضوع للدراسة والبحث، راجياً من الله أن أكون قد وُفقت في الاختيار، وفيما توصلت إليه من نتائج، والحمد لله أولاً وآخراً.

- **أهداف البحث:**

أبرز أهداف هذه الرسالة العلمية ما يلي:

١- الإسهام في دراسة الاستشراق الحديث، والذي تمثله الآن مراكز البحوث والدراسات الغربية والأمريكية.

٢- معرفة تاريخ نشأة وتطور وأهداف مراكز البحوث الأمريكية، والوقوف عن كثب حول مكانتها وأهميتها في الولايات المتحدة الأمريكية.

٣- معرفة أوجه الشبه والفرق بين الاستشراق التقليدي ومراكز البحوث الأمريكية الحالية، فيما يتعلق بالموقف من الصوفية.

٤- معرفة وبيان موقف مراكز البحوث الأمريكية من السلفية، والدعوة إليها.

٥- بيان موقف مراكز البحوث الأمريكية من الصوفية بعقائده ورموزها.

٦- بيان التوصيات الخطيرة التي تتضمنها تقارير مراكز البحوث الأمريكية فيما يتعلق بالصوفية.

٧- الوقوف على بعض جوانب الدعم الأمريكي للصوفية بعد الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م

٨- الوقوف على أبرز جوانب الحراك والتغير في المسار الصوفي في الوقت المعاصر.

٩- بيان خطورة التحالف الأمريكي الصوفي على الإسلام والمسلمين.

- **خطة البحث:**

قمت بتقسيم هذه الرسالة إلى مقدمة، وتمهيد، وأربعة فصول، وخاتمة، وفهارس علمية، وتفصيل هذه البنود على النحو الآتي:

المقدمة:

وتحتوي على أهمية موضوع البحث، وسبب اختياره، وأهداف البحث، وخطته، والمنهج العلمي الذي سلكته فيه.

الفصل التمهيدي: التعريف بالاستشراق والتصوف، وبه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: تعريف موجز بالاستشراق وأهدافه.

المبحث الثاني: مراكز البحوث الأمريكية، نشأتها وتطورها.

المبحث الثالث: نبذة عن نشأة الصوفية وتطورها.

الفصل الأول: موقف المستشرقين من الصوفية، ونقده:

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول:موقف المستشرقين من تعريف التصوف ونشأته، ونقده.

المبحث الثاني: موقف المستشرقين من عقائد الصوفية، ونقده.

المبحث الثالث: موقف المستشرقين من مؤلفات الصوفية، ونقده.

المبحث الرابع: موقف المستشرقين من بعض رموز التصوف، ونقده.

الفصل الثاني: موقف الصوفية من بعض القضايا المهمة في العالم الإسلامي، ونقده وفيه خمسة مباحث:

المبحث الأول: موقف الصوفية من السلفية، ونقده.

المبحث الثاني: موقف الصوفية من العلمانية، ونقده

المبحث الثالث: الولاء والبراء عند الصوفية، ونقده.

المبحث الرابع: موقف الصوفية من الجهاد، ونقده.

المبحث الخامس: موقف الصوفية من الاستعمار الغربي، ونقده.

الفصل الثالث: موقف مراكز البحوث الأمريكية من السلفية والصوفية، ونقده، وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: السلفية في تقارير مراكز البحوث الأمريكية.
المبحث الثاني: مفهوم التصوف في تقارير مراكز البحوث الأمريكية، ونقده.
المبحث الثالث:موقف مراكز البحوث الأمريكية من رموز التصوف، ونقده
المبحث الرابع:توصيات المراكز الأمريكية المتعلقة بالصوفية، ونقدها.

الفصل الرابع: الحراك الصوفي المعاصر في العالم الإسلامي،

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: الدعم الأمريكي المعاصر للصوفية.
المبحث الثاني: الدعم الإعلامي للصوفية.
المبحث الثالث: الدعوة الصوفية المعاصرة.
المبحث الرابع: الواقع الصوفي السياسي المعاصر.

الخاتمة:

وتشمل: ملخص البحث، وأهم النتائج، والتوصيات.

الفهارس العلمية.

- المنهج العلمي الذي سلكته:

سلكت في إعداد هذه الدراسة عدة مناهج علمية، وأبرزها:

أولاً: المنهج التاريخي، وقد كان حاضراً طيلة هذه الدراسة، وبالأخص عند الحديث عن تاريخ الاستشراق، وامتداده اليوم، وكذلك تاريخ التصوف وتطوراته حتى يومنا هذا.

ثانياً: المنهج التحليلي: وذلك لأن هذه الدراسة تناولت العديد من التقارير والتصريحات الغربية، فكانت الحاجة إلى هذا المنهج، لتحليلها، وجمع المتشابه منها، وتمييز المختلف، وذلك للوصول إلى نتيجة علمية موثقة.

ثالثاً: المنهج الوصفي: وهذا المنهج أيضاً كان حاضراً وأساسياً في أجزاء هذا البحث، فاستخدمت هذا المنهج -على سبيل المثال- في وصف العلاقة بين مراكز البحوث الأمريكية والإدارة الأمريكية، وكذلك لوصف

موقف الصوفية من كثير من القضايا، وكذلك لوصف حقيقة العلاقة التي ربطت الفكر الغربي العلماني بالفكر الصوفي.

رابعـًا: المنهج النقدي: كان هذا المنهج ملازمـًا لهذه الدراسة من البدء وحتى النهاية، حيث أُتبع النتيجة الوصفية أو التحليلية بالنقد العلمي الموضوعي المتجرد.

هذا، وقد التزمت أثناء كتابة هذه الدراسة بعدة أمور، هي:

١- كتابة الآيات الكريمة بخط مصحف المدينة، مع عزو الآيات إلى سورها وأرقامها في المصحف الشريف.

٢- قمت بتخريج الأحاديث، بعزوها إلى مظانها في كتب الحديث، مع الحرص على نقل حكم أهل العلم فيما يتعلق بدرجة ذلك الحديث، صحة وضعفـًا.

٣- عند ورود مسألة شرعية فإني أحرص على ذكر أقوال علماء السلف فيها، وكذا من سار على نهجهم من أهل العلم إلى يومنا هذا. وإن كانت مسألة أو معلومة عامة فإني أحرص على الرجوع إلى مصدرها الأصلي، ولم أنقل عن مصدر وسيط إلا في بضعة مواطن، مع الإشارة إلى المصدر الأصلي.

٤- عند ورود المصدر لأول مرة في الحاشية، فإني أذكر جميع بيانات ذلك المصدر، ثم إذا تكرر وروده فإني أكتفي بإيراد اسم المؤلف واسم الكتاب ورقم الصفحة، مع الإشارة -إن طال الفصل أو لزم الأمر- بعبارة «مرجع سابق». وأما المعاجم والقواميس وما اشتهر من كتب الحديث فقد ذكرتها اختصاراً في كل المواضع، لشهرتها، وأثبت تفصيل بياناتها في قائمة المراجع والمصادر.

٥- حرصت على عزو كل رأي استفدت منه (بالنص أو المعنى) إلى قائله، مستحضراً في ذلك قول العلماء : (من بركة العلم عزو كل قول إلى قائله)[1] ، وقد استخدمت كلمة «يُنظر»، بدلاً من فعل الأمر «انظر»، وذلك للإحالة للاقتباس بالمعنى، وأما الاقتباس بالنص فإني أشير أولاً -في

---

(١) أورد هذه العبارة الشيخ الألباني -رحمه الله- في السلسلة الضعيفة، ١٤/ ٦٦

المتن- إلى قائله، ثم أنقله بنصه بين حاصرتين « »، ثم أحيل مباشرة في الحاشية إلى المصدر. ولم أدرج اقتباساً بين كلامي، دون الإشارة أولاً لقائله إلا فيما ندر (اضطراراً)، وذلك حفظاً لحقوق الآخرين وجهدهم، وتمييزاً لكلامهم عن كلامي.

٦- في الاقتباسات على نقلها مثل ما هي دون تعديل أو إضافة، إلا فيما ندر (وأُشير إلى ذلك)، وذلك حفظاً لأمانة النقل، وإذا أدرجت كلمة توضيحية إلى النص المقتبس، فإني أجعلها بين حاصرتين معقوفتين [ ].

٧- وضعت جميع أسماء الأعلام الغربيين بين حاصرتين صغيرتين « ».

٨- ترجمت فقط للأعلام الذين رأيت في ترجمتهم خدمة لمقصود الرسالة وإثراءً للمعلومة، وأعرضت عن الالتزام بالترجمة للجميع، وذلك خشية الإطالة، وإثقال الحاشية بما لا يخدم مقصود البحث.

٩- إن كان للعَلَم الوارد في الدراسة لقبٌ اشتهر به، أو درجة علمية معروفة، فإني أُثبت ذلك له، وما ذاك إلا رغبة في الإنصاف والموضوعية العلمية.

١٠- حرصت على إثبات مسميات مراكز البحوث الأمريكية باللغة العربية والإنجليزية، عند ورود ذكرها لأول مرة، وذلك تحرياً للدقة، ومنعاً للالتباس بين مراكز البحوث الأمريكية لكثرتها وتشابه أسماء بعضها عند الترجمة إلى العربية.

١١- حرصت أيضاً -قدر المستطاع- على إثبات التاريخ الهجري؛ كأصل في البحث. إلا أن هناك مواضع متفرقة من البحث وجدت أن الأولى هو إثبات التاريخ الميلادي فقط.

١٢- حرصت على إثبات الروابط الإليكترونية كاملة في الحاشية، مع تذييلها بتاريخ تصفُّحي لها.

والحمد لله توفيقه.

شكر وتقدير

الحمد لله حمداً كثيراً يليق بجلاله وعظيم سلطانه، وأشكره سبحانه على أن منَّ عليَّ بإتمام هذا الرسالة، وأثني عليه الخير كله. ثم أُثنِّي بعد شكر الله تعالى بالشكر لوالدتي حفظها الله ورزقها حسن الختام وطيِّب الجنان، فلقد كان لدعواتها طيلة فترة دراستي الأثر المعنوي الكبير عليَّ، كما لا أنسى في هذا المقام الدعاء لوالدي، رحمه الله وأسكنه الفردوس الأعلى.

هذا، وإن من تمام شكره -سبحانه وتعالى- شكر كل من أعانني أو أسدى إليَّ معروفاً طيلة مراحل إعداد هذه الرسالة، وفي مقدمة من لهم عليَّ حق الشكر والدعاء؛ الشيخ الدكتور سعيد أبو مدره، رئيس قسم الدعوة والثقافة الإسلامية سابقاً، والشيخ الفاضل السيد محمد بن عبدالله المقدي، وأخي الكبير مسفر بن عبدالله الحسَّاب، ورفيق دربي الدكتور محمد بن مشهور حمدي، فجزاهم الله عني خير الجزاء.

كما أتقدم بالشكر والامتنان لسعادة المشرف على هذه الرسالة العلمية الدكتور مازن بن صلاح مطبقاني، ، والذي تكرَّم بدايةً بقبول الإشراف على الرسالة، ثم كان لتوجيهاته وتصويباته وإلمامه بالاستشراق، وسعة صدره، وكريم أخلاقه؛ الأثر الإيجابي البالغ عليَّ أثناء مراحل كتابة هذه الرسالة، فجزاه الله خير الجزاء.

وكذلك أشكر كلاً من فضيلة شيخنا الدكتور عبدالرحمن قصاص، وفضيلة الدكتور فؤاد البعداني على تكرمهما بقبول قراءة الرسالة وتقويمها وتصويبها ومناقشتها، فجزاهما الله خير الجزاء، ونفع بهما وبعلمهما.

كما لا يفوتني هنا الشكر والدعاء لزوجتى الكريمة، والتي شاركتني الهمَّ، وحملت عني الأعباء، حتى أتفرغ لإنجاز هذه الرسالة، فجزاها المولى عني خير الجزاء.

وفي الختام أشكر جميع مشايخي الفضلاء، وأساتذتي النبلاء، ممن استفدت منهم علماً وخلقاً، سواء في رحاب هذه الجامعة المباركة أثناء الدراسة، أو خارج الجامعة، فاللهم أجزل مثوبتهم، وارفع درجتهم.

التمهيد

التعريف بالاستشراق والتصوف

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: تعريف موجز بالاستشراق وأهدافه.

المبحث الثاني: مراكز البحوث الأمريكية، نشأتها وتطورها.

المبحث الثالث: نبذة عن نشأة الصوفية وتطورها.

المبحث الأول
تعريف موجز بالاستشراق وأهدافه

المطلب الأول : معنى الاستشراق

كلمة «الاستشراق» مشتقة من الشرق، ومعناها بشكل عام -بالنسبة للغربيين- التوجه للشرق، وهي نابعة في الأصل من تقسيم الغربيين للعالم إلى شرق وغرب، وفي هذا يقول محمد محمد حسين-رحمه الله- «أما «الغرب» فهو اصطلاح حديث، جرينا فيه على ما اصطلح عليه الأوروبيون في عصور الاستعمار، من تقسيم العالم إلى «شرق» و«غرب»، يعنون بالغرب أنفسهم، ويعنون بالشرق أهل آسيا وإفريقية، الذين كانوا موضع استعبادهم واستغلالهم، وجرينا نحن من بعدُ على هذا الاستعمال. والكلمة وإن كانت حديثة اصطلاحاً واستعمالاً فهي قديمة في مفهومها ودلالتها»[1].

ولذا فإن مصطلح «الاستشراق» مصطلح حديث، غربي المنشأ، وهو ترجمة لكلمة (*Orientalism*) بالانجليزية، أو (*Orientalisme*) بالفرنسية، وأما كلمة «مستشرق» فهي ترجمة لكلمة (*Orientalist*) ويُقصد بها: الغربي المشتغل بالاستشراق، ومن هنا فإن هذا اللفظ يُعد من الألفاظ الحادثة الـمُعرَّبة، مثله مثل كلمة (*Fundamentalism*) التي تُرجمت إلى «الأصولية»، وكذا كلمة (*Secularism*) التي تُرجمت إلى «العلمانية»[2].

ولذلك فإن كلمة «الاستشراق» لم ترد في معاجم اللغة العربية القديمة، وأما في الحديثة منها فقد جاء في كتاب «متن اللغة» وهو من المعاجم الحديثة في اللغة العربية ما يلي: «استشرق: طلب علوم أهل الشرق ولغاتهم (مولدة عصرية)، يقال لمن يُعنى بذلك من علماء الفرنجة»[3]، ومع ذلك

---

(١) محمد محمد حسين، الإسلام والحضارة الغربية، دار الفرقان، ط بدون، ت بدون، ص٧.

(٢) تعريب كلمة (*Fundamentalism*) بالأصولية، وكذا تعريب كلمة (*Secularism*) بالعلمانية غير دقيق؛ فالأولى ترتبط في المفهوم الغربي بالتخلف والجمود والرجعية والحرفية ..الخ، والثانية يقصدون بها الدنيوية أو اللادينية، وليس لها علاقة بالعلم أو العالمية.

(٣) أحمد رضا، معجم متن اللغة/ موسوعة لغوية حديثة، دار مكتبة الحياة ببيروت، ط بدون، ١٣٨٠هـ-١٩٦٠م، ٣/ ٣١٠، مادة «ش ر ق».

فإن كثيراً ممن تصدوا لتعريف الاستشراق جعلوا له تعريفاً ومعنىً لغويا، وأعادوه إلى الجذر (شرق) الذي منه شرقت الشمس، وجهة الشرق، ..الخ! لكن الأولى -من وجهة نظري- التعامل مع هذا اللفظ على أنه تعريب للفظ غربي يحمل معنىً محدداً ومراداً، وهو الأقرب إلى فهم قصد واضعيه، إذ إن تحديد مفاهيم الكلمات ومعانيها الأصلية يُبعد الكثير من اللبس والخلط الذي قد يحصل نتيجة التعريب.

ومما يؤيد أن المعنى اللغوي لكلمة «الاستشراق» ليس مراداً بدقة، وأن هذه الكلمة ليست على إطلاقها؛ أن الموقع الجغرافي ليس مقصوداً بدقة في هذه التسمية، فعلى سبيل المثال دول أفريقيا تقع جغرافياً جنوب أوروبا، ومع ذلك فهي تقع -بالمفهوم الغربي- في نطاق الشرق. وحول هذا يقول الدكتور مازن مطبقاني: «لابد من الوقوف عند تعريف آخر للاستشراق لا يرى أن كلمة استشراق ترتبط فقط بالمشرق الجغرافي وإنما تعني أن الشرق هو مشرق الشمس ولهذا دلالة معنوية بمعنى الشروق والضياء والنور والهداية بعكس الغروب بمعنى الأفول والانتهاء، وقد رجع أحد الباحثين المسلمين وهو السيد محمد الشاهد إلى المعاجم اللغوية الأوروبية (الألمانية والفرنسية والإنجليزية) ليبحث في كلمة شرق *ORIENT* فوجد أنه يُشار إلى منطقة الشرق المقصودة بالدرسات الشرقية بكلمة تتميز بطابع معنوي وهي *Morgenland* وتعني بلاد الصباح، ومعروف أن الصباح تشرق فيه الشمس، وتدل هذه الكلمة على تحول من المدلول الجغرافي الفلكي إلى التركيز على معنى الصباح الذي يتضمن معنى النور واليقظة، وفي مقابل ذلك نستخدم في اللغة كلمة *Abendland* وتعني بلاد المساء لتدل على الظلام والراحة»[1].

وكما أن كلمة «الاستشراق»حديثة الاستخدام في اللغة العربية فهي كذلك بالنسبة لموطنها الغربي الذي ولدت فيه، وفي هذا يقول أحمد سمايلوفتش: «كلمتي «الاستشراق» و«المستشرق» علمياً حديثتا العهد

---

(١) مازن مطبقاني، معلومات أساسية عن الاستشراق، موقع مركز المدينة المنورة لدراسات وبحوث الاستشراق، الرابط: *http://www.madinacenter.com/post.php?DataID=1*

نسبياً في الإنجليزية والفرنسية، إذ تبنتها الأولى حوالي عام ١٧٧٩م وتبنتها الأخرى حوالي عام ١٧٩٩م، واعترفت بهما الأكاديمية الفرنسية المشهورة بالحيطة في إدخال الكلمات الجديدة إلى اللغة الفرنسية فأدخلتها إلى معجمها المشهور عام ١٨٣٨م»[١].

وبناءً على ما سبق فلن أتعرض لمعنى الاستشراق من الناحية اللغوية، لأنه-كما سبق- ترجمةٌ للفظٍ غربي المولد، وسأكتفي بمحاولة بيان المعنى المقصود من هذا المصطلح، ولكن قبل ذلك ثمة أمر آخر جدير بالتنبيه؛ ألا وهو أن الاستشراق غير واضح المعالم سواءً من حيث النشأة والبداية أو من حيث الدوافع والأهداف، أو كذلك من حيث المجالات، ففيه يُحشر علم الآثار والأدب، ويُقرن علم الاجتماع بالإسلاميات، دون مراعاة الفروق الجوهرية بينها[٢].

فمن حيث النشأة نجد أن ثمة آراء كثيرة في تحديد بدء حركة الاستشراق، يعود به بعضها إلى زمن النبي ﷺ، ولكن أشهر تلك الآراء - والذي يردده الكثير ممن كتبوا في نشأة الاستشراق- هو أن الاستشراق بدأ سنة ٧١٢هـ (١٣١١-١٣١٢م)، حينما عُقد مؤتمر فيينًا وأمر فيه «البابا أكليمنضس الخامس»[٣] بإنشاء كراسي للعبرية والعربية والكلدانية في أربع جامعات رئيسية بأوروبا وهي: باريس، وأكسفورد، وبولونيا، وصلمنكه (مدينة أسبانية)، وكذلك أمر بتنصيب أستاذين لكل من هذه اللغات الثلاث في كل كرسي، وقد ظل هذا القرار أصلاً من أصول القانون الكنسي لأكثر من خمسمائة عام[٤]، وتم إنشاء تلك الكراسي، ونشطت الدراسات

---

(١) أحمد سمايلوفتش، فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، ط بدون، ت بدون، ص٢٦

(٢) يُنظر: علي بن إبراهيم النملة، ظاهرة الاستشراق/ مناقشات في المفهوم والارتباطات، ط بدون، الرياض، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م، ص١٥-١٦

(٣) البابا أكليمنضس الخامس *Pope Clement V*: واسمه برانراند دي غوت، ولد في فرنسا عام ١٢٦٤م، وتوِّج للبابوية عام ١٣٠٥م، وكان ذلك في فرنسا بسبب الفوضى التي كانت تعم إيطاليا في ذلك الوقت، واستمر في منصبه حتى وفاته عام ١٣١٤م. يُنظر: الموقع الإليكتروني للموسوعة العربية المسيحية: *http://www.christusrex.org/www1/ofm/1god*

(٤) يُنظر: نجيب العقيقي، المستشرقون، دار المعارف بمصر، ط٣، ١٩٦٤م، ١/ ١٣٤

الاستشراقية، فدُرِّست العربية وعلوم المسلمين، وتُرجمت الكتب من العربية إلى اللاتينية.

أما من حيث تنوع الدوافع والأهداف وتعددها، فسيأتي الكلام عنها في المطلب القادم.

ومن هنا فقد تعددت وتنوعت تعريفات الاستشراق، بل إن الكاتب الواحد تجده يعرِّف الاستشراق بعدة تعريفات، ولا غرابة في ذلك طالما أن الاستشراق واسع الحدود والمعالم -كما ذكرت آنفاً-، ومن أولئك الكُتَّاب -على سبيل المثال- إدوارد سعيد الذي أورد في كتابه «الاستشراق» ثلاثة تعريفات للاستشراق، وعلَّق على ذلك التعدد بأن الاستشراق عبارة عن عدة أمور يعتمد بعضها على بعض وتبدو مترابطة[1]، فعرف الاستشراق بأنه: «مبحث أكاديمي»[2]، وعرفه كذلك بأنه: «أسلوب تفكير يقوم على التمييز الوجودي والمعرفي بين ما يسمى «الشرق» وبين ما يسمى (في معظم الأحيان) «الغرب»»[3]، وعدَّ الاستشراق في التعريف الثالث: «أسلوباً غربياً للهيمنة على الشرق، وإعادة بنائه، والتسلط عليه»[4].

وثمة أمر آخر له ارتباط بتنوع تعريفات الاستشراق، وهو تحديد من هو المستشرق؛ فبعض الباحثين يرى أنه الغربي غير المسلم فقط، والبعض الآخر يُدخل فيه أيضاً الشرقي غير المسلم المشتغل بدراسة الشرق، ومثال من نحى المنحى الأول الدكتور إسماعيل علي محمد؛ الذي عرف الاستشراق بأنه: «طلب علوم الشرق وآدابه، واستشرق أي: طلب وأراد تعلم ودراسة علوم الشرق وآدابه، والمستشرقون هم قوم من غير الشرقيين أو هم الغربيون الذين تخصصوا في دراسة الشرق من كافة جوانبه؛ علومه، تاريخه، أديانه، شعوبه، لغاته وآدابه..إلخ، لأهداف مختلفة ودوافع شتى»[5].

---

(١) يُنظر: إدوارد سعيد، الاستشراق/ المفاهيم الغربية للشرق، ترجمة: محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٠٦م، ص٤٤

(٢) المرجع نفسه، ص٤٤

(٣) المرجع نفسه، ص٤٥

(٤) المرجع نفسه، ص٤٥-٤٦

(٥) إسماعيل علي محمد، الإستشراق بين الحقيقة والتضليل/ مدخل علمي لدراسة الاستشراق، دار الكلمة، ط٣، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م، ص١١

وأما الدكتور علي النملة[1] فقد نحى المنحى الثاني؛ حيث يرى دخول الشرقيين -المشتغلين بدراسة الشرق- من غير المسلمين في مسمى المستشرقين حيث عرَّف الاستشراق بأنه: «ظاهرة محددة بدراسة علوم المسلمين من غير المسلمين، بغض النظر عن الوجهة التي ينطلق منها المستشرق، سواء أتى من الغرب أم من الشرق»[2]. وأما الدكتور مازن مطبقاني[3] فقد أضاف إلى ذلك أيضاً تلاميذَ المستشرقين من المسلمين، إذ يقول في تعريفه للاستشراق: «هو كل ما يصدر عن الغربيين والأمريكيين من إنتاج فكري وإعلامي وتقارير سياسية واستخباراتية حول قضايا الإسلام والمسلمين في العقيدة، وفي الشريعة، وفي الاجتماع، وفي السياسة أو الفكر أو الفن، ويمكننا أن نلحق بالاستشراق ما يكتبه النصارى العرب من أقباط ومارونيين وغيرهم ممن ينظر إلى الاسلام من خلال المنظار الغربي، ويلحق به أيضاً ما ينشره الباحثون المسلمون الذين تتلمذوا على أيدي المستشرقين وتبنوا كثيراً من أفكار المستشرقين»[4].

وثمة من تعرض لتعريف الاستشراق دون التعرض لطبيعة المستشرق وانتمائه، ومثال ذلك الدكتور عدنان الوزان[5] الذي عرَّف الاستشراق بأنه: «مصطلح أو مفهوم عام يطلق عادة على اتجاه فكري يُعْنى بدراسة الحياة الحضارية للأمم الشرقية بصفة عامة، ودراسة حضارة الإسلام والعرب

---

(١) علي بن إبراهيم النملة، مؤلف سعودي، يعمل حالياً أستاذاً بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، وشغل قبلها منصب وزير الشؤون الاجتماعية، له العديد من المؤلفات حول الاستشراق، منها: «ظاهرة الاستشراق: مناقشات في المفهوم والارتباطات»، و«الاستشراق والدراسات الإسلامية»، و «الاستشراق في لأدبيات العربية»، وغيرها.

(٢) علي بن إبراهيم النملة، المستشرقون ونشر التراث، ط بدون، الرياض ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م، ص١٥

(٣) مازن بن صلاح مطبقاني، مؤلف سعودي، عمل أستاذاً بجامعة الملك سعود بالرياض، تخصص في دراسة الاستشراق، وله في ذلك العديد من المؤلفات والأبحاث المنشورة، وأنشأ كذلك موقعاً إليكترونياً متخصصاً في الاستشراق، وهو «مركز المدينة المنورة لدراسات وبحوث الاستشراق».

(٤) مازن مطبقاني، معلومات أساسية عن الاستشراق، موقع مركز المدينة المنورة لدراسات وبحوث الاستشراق الإليكتروني، مرجع سابق.

(٥) عدنان بن محمد الوزان، مؤلف سعودي، عمل أستاذاً بجامعة أم القرى بمكة المكرمة، ثم مديراً لها، وتقلَّد العديد من المناصب العلمية والإدارية. له العديد من المؤلفات، منها: الاستشراق والمستشرقون: وجهة نظر، وموسوعة حقوق الإنسان وغيرها.

بصفة خاصة»[1]، وكذلك الموسوعة العربية العالمية التي عرفت الاستشراق بأنه: «حقل معرفي وإبداعي ضخم نشأ في الغرب (أوروبا وأمريكا الشمالية) لدراسة الثقافات الشرقية (الآسيوية غالباً) وتمثلها في الفنون المختلفة»[2].

والذي أراه أقرب للصواب هو عدم دخول الشرقيين المشتغلين بدراسة الشرق في مسمى المستشرقين، سواء أكانوا مسلمين أم غير مسلمين، وذلك للأسباب التالية:

١- أن القبول بلفظ «الاستشراق» وصفاً لاشتغال الغربيين بدراسة الشرق، يقتضي بديهياً أن يكون اللفظ المشتق منه (مستشرق) خاصٌ بذلك الغربي، فالدقة والموضوعية -التي تتماشى مع قبولنا لهذا اللفظ- تقتضي أن نَصِف الشرقي بالشرقي والغربي بالغربي.

٢- أن اعتبار الدقة في وصف الظواهر والأشياء أمرٌ مطلوب شرعاً وعقلاً، ولغتنا العربية قادرة على ذلك، فوصف السائر على نهج الغربيين في دراسة الشرق من الشرقيين بالتغريبي[3] أولى وأدق في الوصف من كلمة مستشرقين.

٣- أن وصف الشرقي الدارس لعلوم الشرق على نهج المستشرقين بالمستشرق يحمل -مؤخراً- قدراً من الانتقاص والذم، سيما وأن الاستشراق ارتبط -بشكل عام- في الذهنية الشرقية بالذم والانتقاص[4]، ولا شك أن الإنصاف والموضوعية تقتضي النظر في مضمون إنتاج

---

(١) عدنان محمد الوزان، الاستشراق والمستشرقون/ وجهة نظر، ط بدون، ت بدون، ص١٥

(٢) الموسوعة العربية العالمية، مادة (الاستشراق)، الموقع الرسمي الإليكتروني للموسوعة على شبكة الإنترنت: www.mawsoah.net

(٣) ظهر مؤخراً بين الباحثين العرب مصطلحٌ موازٍ للاستشراق، وهو مصطلح «الاستغراب» ويعنون به: العناية بدراسة وفهم الغرب. وفرقٌ بين التغريبي والمستغرب.

(٤) لقد أدرك المستشرقون الغربيون هذه النظرة الطبيعية التي التصقت بهم وبعملهم، ولذلك بدأوا يهربون في الغالب من تسمية «الاستشراق» أو «المستشرق»، وأبرز الأمثلة على ذلك تخليهم بالإجماع في مؤتمرهم العالمي الذي عقد بباريس عام ١٩٧٣م عن مُسمَّى «الاستشراق». يُنظر: مازن مطبقاني، «حقيقة نهاية الاستشراق»، مقال منشور بالموقع الرسمي لمركز المدينة المنورة لدراسات وبحوث الاستشراق: madinacenter.com

الدارسين لعلوم الشرق بعين التمييز والإنصاف، فما كان منه حقاً قبلناه وما كان منه باطلاً رددناه[1].

وبعد، فمن خلال العرض السابق للاستشراق يمكن القول أن الاستشراق بشكل عام هو: اشتغال الغربيين (الأوروبيين والأمريكيين) بدراسة العالم الإسلامي دينياً وثقافياً وسياسياً واقتصادياً وجغرافياً، إلى غير ذلك من أمور العالم الإسلامي. وأما المستشرق فهو الغربي (الأوروبي والأمريكي) المشتغل بدراسة أمور العالم الإسلامي هذه.

وقد عبَّرت -آنفاً- بالعالم الإسلامي بدلاً من كلمة (الشرق) لأن هذا هو الأدق في توصيف الاستشراق، فكلمة (الشرق) تتسع للعالم الإسلامي ولغيره، ومن المعلوم أن مدار الاستشراق إنما هو العالم الإسلامي، ويؤكد ذلك أن كل من تحدثوا عن الاستشراق لم يتعدوا في -في الغالب- نطاق العالم الإسلامي.

وبما أن العالم (شرقيه وغربيه) قد تغير اليوم؛ علمياً واقتصادياً وسياسياً، فمما لا شك فيه أن الاستشراق قد طاله شيءٌ من ذلك التغيّر، سواء في الشكل أم في المضمون، وسوف أُرجئ الحديث عن هذا التغير في الاستشراق إلى المبحث التالي المعنون بـ(مراكز البحوث الأمريكية، نشأتها وتطورها)، وبالله التوفيق.

---

(١) ومن الإنصاف هنا الإشارة إلى أن للاستشراق -عبر تاريخه- العديد من الإيجابيات التي أفادت الشرق المسلم، كالمحافظة على المخطوطات، وتأليف الفهارس، وغير ذلك مما لم يُغفل ذكره من كتب بالتفصيل عن مسألة الاستشراق. مع التحفظ على الأهداف الحقيقية وراء ذلك.

المطلب الثاني : دوافع الاستشراق وأهدافه

لا تكاد تخلو جميع الكتب التي تناولت الاستشراق من الحديث عن دوافع الاستشراق وأهدافه، وقد تنوعت أساليب تلك الكتب في عرض تلك الدوافع والأهداف؛ فبعضها تناول الدوافع دون ذكرٍ للأهداف[1]، وبعضها على العكس من ذلك تناول الأهداف دون ذكرٍ للدوافع[2]، والبعض الآخر تحدث عن الدوافع وأتبعها بالحديث عن الأهداف[3]، ومردُّ ذلك -بشكل عام- إلى أن الدوافع تكاد تكون أهدافاً والعكس صحيح، فالدافع هو الباعث للوصول إلى غاية، والهدف هو الغاية، فبينهما -في مسألة الاستشراق- خيط رفيع يكاد يظهر حيناً ويختفي أحياناً أخرى، وعليه فالاختلاف إذاً بين أساليب تلك الكتب التي تناولت دوافع وأهداف الاستشراق إنما هو اختلافٌ في الظاهر، لأن الناظر في المضمون لا يجد فيما بينها فرقاً كبيراً، ولذلك تجد في بعض تلك الكتب تكراراً لذات الدافع ولكن تحت مسمى الهدف، ولا تجد عند التدقيق أن ثمة فرقٌ بَيِّن بينهما، فتجده -مثلاً- يقول: الدافع الديني، وعند الأهداف يقول: الهدف الديني، ولا يكاد القارئ يجد فرقاً بين المضمونين.

وقد ذهب بعض الباحثين إلى أسلوبٍ آخر؛ وهو محاولة التقريب والدمج بين دوافع الاستشراق وأهدافه، مثل الشيخ عبدالرحمن حبنكة -رحمه الله-، حيث أتبع كل دافعٍ أورده ببيان الهدف منه، وعلل ذلك: «بأن الدوافع تلتقي مع الأهداف، باعتبار أن الدافع يمثل المحرّض النفسي لاتخاذ الوسائل التي توصل إلى الأهداف الغائية من العمل»[4]، وكذلك الباحثة فاطمة نجا في كتابها

(١) يُنظر -على سبيل المثال-: طارق سري، المستشرقون ومنهج التزوير والتلفيق في التراث الإسلامي، مكتبة النافذة- القاهرة، ط١، ٢٠٠٦م، ص٣٠-٤٧

(٢) يُنظر -على سبيل المثال-: محمود حمدي زقزوق، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، دار المعارف- القاهرة، ط بدون، ت بدون، ص٧٣-٧٨

(٣) يُنظر -على سبيل المثال-: مصطفى السباعي، الاستشراق والمستشرقون (ما لهم وما عليهم)، دار الوراق للنشر والتوزيع، ط بدون، ت بدون، ص٢٠-٣١

(٤) عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني، أجنحة المكر الثلاثة، دار القلم دمشق، ط٨، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م، ص١٢٧

«نور الإسلام وأباطيل الاستشراق»[1]، وغيرهما.

وهناك من الباحثين من يرى أن ثمة فرقاً بين دوافع الاستشراق وأهدافه، إذ الدوافع منطلقات، والأهداف غايات، وقد لا تصل قوة الاندفاع إلى الغاية ذاتها المقابلة لهذا الاندفاع، بل قد تصل إلى غاية مناقضة للدافع أو مغايرة له[2]، ولعل هذا الرأي يتجه تماماً إذا طبقناه في غير مجال الاستشراق، والذي تتعددت الآراء -كما مر آنفاً- حول مفهومه وتأريخ نشأته، فكيف يمكن والحالة هذه أن تتفق تلك الآراء على خط فاصل بين دوافعه وأهدافه!

بناءً على ما سبق يمكن القول بأن مصطلحي الدوافع والأهداف - بالنسبة للاستشراق- إذا افترقا اجتمعا وإذا اجتمعا افترقا، بمعنى أنه ذكر أحدهما يُغني عن ذكر الآخر، وإذا ذكرا معاً فلا بد من محاولة التفريق بينهما في المعنى، وعليه فلا تثريب على من أوردهما معاً، أو من اكتفى بواحدٍ منهما عن ذكر الآخر.

لقد تنوعت وتعددت الأهداف التي ذكرها الباحثون للاستشراق، وقد أوصلها أحمد سمايلوفتش إلى سبعة؛ (نفسية، تاريخية، اقتصادية، أيديولوجية، دينية، استعمارية، علمية)[3]، وهذا التنوع والتعدد مرده إلى عدم وضوح ملامح الاستشراق؛ سواء في ماهيته أو في تأريخ بدئه. ومن جهة ثانية فإن هذا التنوع والتعدد في الأهداف لا يمكن ربطه مُجتمِعاً ببدء الاستشراق (المختلف على توقيته) ولكن الأقرب -بشكل عام- أن هذا التنوع يتماشى مع مسيرة الاستشراق الطويلة زمنياً، فعلى سبيل المثال لا يمكن التسليم أن من أهداف الاستشراق الرئيسة حينما بدأ هو الاستعمار (أي خدمة الاستعمار)، لأن غالب الآراء تؤرخ لبدء الاستشراق قبل حقبة الاستعمار بكثير، وهكذا.

---

(١) يُنظر: فاطمة هدى نجا، نور الإسلام وأباطيل الاستشراق، دار الإيمان -لبنان، ط١، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م، ص٥٣-١٥١

(٢) يُنظر: علي النملة، ظاهرة الاستشراق، مرجع سابق، ص١٦-١٧

(٣) يُنظر: أحمد سمايلوفتش، فلسفة الاستشراق، مرجع سابق، ص٤٠-٥٣

ولكن ثمة دافعٌ يكاد يكون مُجمعاً على أنه الباعث على نشوء الاستشراق وهو «الدافع الديني»، وفي هذا يقول محمد الزيادي: «يكاد يُجمع جمهور الباحثين في موضوع الاستشراق على أنه بدأ بهدف ديني محض، نشأ إثر شعور المسيحيين بالخطر نتيجة الانتشار السريع والواسع للإسلام، ثم ازداد هذا الشعور قوة إثر فشل الصليبيين في حملاتهم العسكرية ضد المسلمين، الأمر الذي جعلهم يفكرون في غزوٍ من نوع آخر، يثأرون به لهزيمتهم العسكرية، ويحققون به سيطرة فكرية من شأنها أن تساعد في وقف التيار الإسلامي، وذلك عن طريق إعطاء صورة خاطئة عن الإسلام تشكك المسلم في دينه، وتبعد المسلم عن التفكير في اعتناق الإسلام»[1].

وذكر أيضاً عبدالعظيم الديب بأن الإنتاج الاستشراقي عن الإسلام بلغ في الفترة ما بين منتصف القرن التاسع عشر ومنتصف القرن العشرين ستين ألف كتاب؛ عن عقائد الإسلام وتاريخه وفقهه.. إلخ، ثم بيَّن أن الاستشراق يرمي من وراء هذا الاهتمام إلى غايتين؛ الأولى: حماية الإنسان الغربي من نور الإسلام، والثانية: معرفة بلاد الإسلام ليتسنى السيطرة عليها، خاصة بعدما فشلت الحروب الصليبية[2]، ولهذا نجد في تاريخ الاستشراق الطويل التلازم الكبير بين الكنيسة المسيحية وبين الاستشراق، وقد مرَّ في المطلب الأول ذكر مؤتمر فيينا الكنسي (١٣١٣م)، والذي يؤرخ به كثير من الباحثين لبداية الاستشراق عملياً، وأيضاً نرى في مسيرة الاستشراق التلازم الكبير بين الاستشراق والتنصير، حتى لكأنهما في بعض الأحيان شيءٌ واحد؛ فكلاهما -كما يصفهما محمد البهي- دعامة للاستعمار، وكلاهما دعوة إلى توهين القيم الإسلامية، والغض من اللغة العربية الفصحى، وتقطيع أواصر القربى بين الشعوب العربية وكذا بين الشعوب الإسلامية، والتنديد بحال الشعوب الإسلامية[3].

---

(١) محمد فتح الله الزيادي، ظاهرة انتشار الإسلام وموقف بعض المستشرقين منها، المنشأة العامة للنشر والتوزيع- ليبيا، ط١، ١٩٨٣م، ص٧٦

(٢) يُنظر: عبدالعظيم الديب، المنهج عند المستشرقين، ط بدون، ت بدون، ص٣٣٨-٣٣٩

(٣) يُنظر: محمد البهي، الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، مكتبة وهبة- القاهرة، ط١٤، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م، ص٤١٧

ومن هنا يمكن القول بأن «الدافع الديني» -الذي يكاد يجمع الباحثون على أنه وراء قيام حركة الاستشراق- يهدف إلى تحقيق ما يلي:

١- حماية أوروبا المسيحية من رسالة الإسلام.

٢- تشويه الإسلام، وتشكيك أتباعه فيه.

٣- تنصير المسلمين.

٤- محاولة بسط النفوذ المسيحي في بلاد المسلمين، وقد نجحوا! وما حقبة الاستعمار الأوروبي العسكري لبلاد المسلمين إلا خير دليل على ذلك.

وأما عن بقية الأهداف؛ كالاستعماري والتجاري والسياسي والعلمي وغيرها[١] فربطها بمسيرة وتطور الاستشراق أولى من ربطها بمسألة نشوء الاستشراق.

وبما أن مسيرة الاستشراق لا تزال ممتدة إلى يومنا الحاضر وإن تبدلت المسميات، فيمكن أن نضيف هدفاً جديداً للاستشراق المعاصر هو «الهدف الفكري»، فالغرب اليوم -وبخاصة أوروبا- لم يعد لديه القدرة العسكرية الاستعمارية السابقة، ولكنه بات يملك آلة إعلامية كبرى، لا تقل في خطرها على الإسلام والمسلمين عن القوة العسكرية. وبعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م زاد توجس الغرب من الإسلام وبدأت الأصوات تتعالى ضد الإسلام وتطالب الساسة بالحلول، فبدأت المؤسسات الاستشراقية المعاصرة وعلى رأسها مؤسسة راند بإمداد الساسة الغربيين بما يتوجب عليهم فعله تجاه الإسلام والمسلمين، وبما أنهم يدركون أنهم لن يستطيعوا القضاء على الإسلام فقد طرحوا فكرة تغيير الإسلام من داخله وفي عقر داره، وذلك عبر البحث عن المعتدلين -بحسب مقاييسهم- داخل النسيج الإسلامي وتحديدهم[٢]، وبالتالي

---

(١) لم أفصِّل القول في هذه الدوافع لأنها بُحثت كثيراً، فآثرت البعد عن التكرار، والاكتفاء هنا بالإشارة إليها.

(٢) وضعت مؤسسة راند أحد عشر سؤالاً يمكن عن طريقها -كما تزعم- تمييز المسلم المعتدل من غير المعتدل! ومنها على سبيل المثال: هل تؤمن بأن تغيير الديانة حق من حقوق الأفراد؟ هل قمت بدعم العنف أو التسامح مع من يقوم به؟ هل تدعم الديمقراطية؟ هل تعتقد أن الدولة يجب أن تطبق القانون الجنائي للشريعة الإسلامية؟..الخ. يُنظر: مؤسسة راند، تقرير «بناء شبكات مسلمة معتدلة» ٢٠٠٧م، ترجم بواسطة الباحث، ص٨٩-٩٠

دعمهم وإبراز آرائهم ونشرها وتطبيقها، وفي المقابل إقصاء المتشددين - بحسب مقاييسهم- ومواجهتهم والتضييق عليهم، وقد شبَّهت مؤسسة راند في تقريرها «بناء شبكات مسلمة معتدلة» حالة المواجهة الأمريكية الحالية مع العالم الإسلامي بالمواجهة الأمريكية التي كانت مع الاتحاد السوفييتي، والتي كانت تسمى آنذاك بالحرب الباردة[1]، والتي بذلت فيها أمريكا جهدها للتأثير على شعوب الاتحاد السوفييتي عبر إذاعة «أوروبا الحرة». وهاهو التاريخ اليوم يعيد نفسه مع «قناة الحرة» الفضائية وإذاعة «راديو سوا» التي أنشأتهما الحكومة الأمريكية (علناً) للتأثير في شعوب العالم الإسلامي بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م!.

وتقول مؤسسة راند حول هذه «الحرب الفكرية» الجديدة مع العالم الإسلامي: «الولايات المتحدة في حربٍ؛ هي حربُ أسلحة وحرب أفكار في نفس الوقت، وهي الحرب التي سوف يتم تحقيق النصر النهائي فقط عندما يتم رفض أيديولوجيات المتطرفين في عيون شعوبهم والداعمين لهم»[2].

وفي مجلة «يو إس نيوز» يقول «دايفيد كابلان»[3]: «تقوم واشنطن بزرع عشرات الملايين من الدولارات في حملة لا تهدف إلى التأثير على المجتمعات المسلمة وحدها، بل تسعى للتأثير على الإسلام نفسه»[4].

ومن هنا يمكن القول أن هذا الدافع الاستشراقي المعاصر «الدافع الفكري» يهدف إلى التأثير على أفكار المسلمين ومعتقداتهم، لجعلها متوائمة مع المصالح الغربية، وذلك بواسطة أيادي مسلمة تعيش وسط المسلمين، ولعل هذا البحث -بعون الله وتوفيقه- يزيد هذا الدافع الجديد

---

(١) يُنظر: مؤسسة راند، تقرير «بناء شبكات مسلمة معتدلة»، مرجع سابق، الفصل الرابع وعنوانه (تجربة الحرب الباردة)، ص٣٧-٦١

(٢) مؤسسة راند، تقرير «بناء شبكات مسلمة معتدلة»، مرجع سابق، ص٦٣

(٣) ديفيد كابلان (*David E. Kaplan* (1955، كاتب ومحقق صحفي أمريكي. مدير مركز النزاهة العامة للاتحاد الدولي للمحققين الصحفيين، ويعمل مع مجلتي «يو إس نيوز» و«وورلد ريبورت». انظر: موسوعة ويكيبيديا، مادة: *David Kaplan*

(٤) مجلة أخبار أمريكا *U.S News*، تقرير «القلوب والعقول والدولارات»، في ١٧/ ٤/ ٢٠٠٥م، ترجمة موقع إسلام ديلي، رابط التقرير في موقع مجلة أخبار أمريكا: *http://www.usnews.com/usnews/news/articles/050425/25roots.htm*، رابط التقرير مترجماً: *http://www.islamdaily.org/ar/general/2964.article.htm/*

للاستشراق المعاصر بياناً وكشفاً؛ وذلك عبر النظر الدقيق والموضوعي في أحد أجندة هذا المشروع الفكري الجديد وهو «تبني الصوفية في العالم الإسلامي ودعمها»؛ ذلك لأن الغرب اليوم بات يضع الصوفية في خانة الاعتدال المتوائم مع مصالحة.

وبعد، فيمكن القول -بشكل عام- أن الاستشراق واكب في نشوئه وتطوره الثورة الفكرية والعلمية التي مرت بها أوروبا، ومن هناك توجَّه الغربيون لفهم الشرق الإسلامي، لأسباب ودوافع شتى، لا زالت تتجدد إلى يومنا هذا، وهي متنوعة ومتعددة ولا يمكن أن تجتمع إلا في أمر واحد وهو «المصلحة الغربية»، سواءٌ أكانت شكلاً دينياً أو علمياً أو اقتصادياً أو سياسة أو غيرها من الأشكال مما يصب في تلك المصلحة.

وفي ختام هذا المبحث تتضح عدة أمورٍ يمكن إجمالها فيما يلي:

١ - أن كلمة (*Orientalism*) تُعد حديثة الاستعمال غربياً.

٢- أن كلمة (الاستشراق) التي هي تعريب كلمة (*Orientalism*) تُعد أيضاً حديثةً في اللغة العربية، ولم ترد في معاجم اللغة العربية القديمة.

٣- أن الاستشراق لا حدود له تحده؛ سواء في مجالاته العلمية أو العملية، أوفي دوافعه وأهدافه، ولذلك تنوعت تعريفاته وتعددت، ومردُّ ذلك في الغالب إلى الزاوية التي ينظر بها الباحث إلى الاستشراق.

٤- أن الاستشراق لا يزال حياً، وإن تنصل المستشرقون من لفظ الاستشراق، والواقع العلمي والعملي الحالي لدراسات العالم الإسلامي خير شاهد على ذلك، وسيأتي تفصيل هذه النقطة في المبحث التالي.

٥- أن الاستشراق يُعد علماً مستقلاً بذاته؛ له تخصصاته ومجالاته، وأقسامه الأكاديمية وغير الأكاديمية.

٦- أن «الدافع الديني» هو الباعث الرئيس على نشوء الاستشراق، وهذا ما يكاد يُجمع عليه الباحثون في مسألة الاستشراق.

٧- أن للاستشراق المعاصر دافعاً جديداً، وهو: «الدافع الفكري»، والذي يهدف إلى تغيير أفكار المسلمين عبر التأثير على الإسلام مباشرة، بواسطة بعض منتسبيه المقبولين لدى الغرب.

المبحث الثاني

مراكز البحوث الأمريكية، نشأتها وتطورها

المطلب الأول : نشأة وتطور مراكز البحوث الأمريكية

المقصود هنا تحديداً بـ«مراكز البحوث الأمريكية» هي المراكز البحثية الأمريكية التي تُعنى بشؤون العالم الإسلامي بحثاً ودراسة، سواءٌ أكانت تأخذ شكل مركز أو مؤسسة أو معهد أو وقفية أو غير ذلك من الأشكال، وتجدر الإشارة هنا إلى أمرين:

الأول: أن دراسة العالم الإسلامي لم تعد مقتصرة في أمريكا على المؤسسات الأكاديمية والكراسي العلمية في الجامعات، بل غدت اليوم مجالاً للتنافس والتسابق بين مراكز البحوث والدراسات المنتشرة في طول أمريكا وعرضها.

الثاني: أن كثيراً من تلك المراكز البحثية الأمريكية التي تهتم بالعالم الإسلامي تعمل تحت مسمياتها الخاصة بها، ولم تعد تكترث بإضافة وصف «الشرق» -مثلاً- في مسمياتها، وعليه فلن تجد -في الغالب- في أسمائها ما يوحي باهتمامها بالعالم الإسلامي أو بالاستشراق.

وهناك تسمية تكاد تكون قاسماً مشتركاً بين تلك المراكز والمؤسسات البحثية وهي: *Think Tanks*، والتي باتت تعني «مراكز التفكير»[١]، وعلى الرغم من شهرة هذه التسمية (الوصف) إلا أن بعض تلك المراكز والمؤسسات الأمريكية لا تُعرب عن نفسها بأنها *Think Tank* في وثائق تعريف هويتها، وإنما تعلن عن نفسها كمنظمات غير حكومية أو منظمات غير ربحية[٢]، أو تختصر ذلك بكتابة الرمز ٥٠١(C)، والذي يشير إلى أنها

---

(١) *Think Tanks* تعني: «مراكز التفكير»، أو «مراكز الفكر والرأي»، أو «مراكز البحوث الأمريكية»، ولا تُترجم حرفياً بصهاريج أو محاضن أو دبابات الفكر، كما يفعل البعض!

(٢) يُنظر: هشام صالح، تقرير واشنطن، مقال بعنوان: مراكز الأبحاث (*Think Tanks*) وصنع السياسة في القرن الحادي والعشرين، ٣/٦/٢٠٠٥م. وتقرير واشنطن هو خدمة إخبارية ومعلوماتية دولية مجانية تقدم أخباراً وتحليلات وتحقيقات من داخل الولايات المتحدة، *www.taqrir.org*

غير ربحية[١]، وقد عرَّف هشام صالح «مراكز الفكر» على أنها «أيُّ منظمةٍ تقوم بأنشطة بحثية سياسية تحت مظلة تثقيف وتنوير المجتمع المدني بشكل عام، وتقديم النصيحة لصناع القرار بشكل خاص»[٢]، وعرَّفها قاموس أكسفورد بأنها: «هيئةٌ من الخبراء تقدم المشورة والأفكار بشأن مشاكل سياسية واقتصادية محددة»[٣].

وثمة أيضاً تسمية أخرى بات يطلقها بعض الباحثين المسلمين على أعضاء مراكز البحوث الأمريكية؛ وهي: «المستشرقون الجدد»، وهذه التسمية نابعة من التشابه الكبير بين ما خطته أقلام الاستشراق القديم وبين ما تخطه اليوم أقلام أعضاء مراكز البحوث الأمريكية عن الإسلام والمسلمين؛ سواءٌ في المضمون أم في الأهداف. تقول آمنة الجبلاوي: «ورغم حديث إدوارد سعيد عن موت الاستشراق الكلاسيكي، فإن المواقف والتوجهات التي نشأت مع الأجيال الأولى للمستشرقين ما زالت تحكم آليات الكتابة الاستشراقية المعاصرة»[٤].

وبناءً على ما سبق نستنتج أنه لا توجد تسمية متفق عليها لتلك المراكز الأمريكية التي تهتم حالياً بشؤون العالم الإسلامي، ولذلك -وكما في عنوان البحث- فسوف أسير فيما سيأتي -بعون الله- على تسمية المراكز والمؤسسات الأمريكية التي تُعنى بدراسة العالم الإسلامي حالياً بـ«مراكز البحوث الأمريكية»، ويخرج بذلك -بطبيعة الحال- المراكز والمؤسسات البحثية الأمريكية التي تعنى بشؤون أخرى غير العالم الإسلامي.

---

(١) ٥٠١(c)، هو رقم المادة القانونية الخاصة بالإعفاء من ضرائب الدخل، في قانون الإيرادات الداخلية في الولايات المتحدة. ويضاف أيضاً إليه رقم آخر ضمن تسلسل في القانون يميز به طبيعة عمل تلك المنظمة غير الربحية، فمثلاً المنظمات الدينية والتعلمية والخيرية والعلمية والأدبية رقمها في القانون (٣)، ولذلك فإن بعض المراكز البحثية الأمريكية تكتفي أثناء التعريف بنفسها بكتابة ٥٠١(c) (٣). يُنظر: موسوعة ويكيبيديا، مادة: ٥٠١(c) organization

(٢) هشام صالح، تقرير واشنطن، مرجع سابق.

(٣) قاموس أكسفورد، الموقع الإليكتروني للقاموس، مادة: Think Tank، oxforddictionaries.com

(٤) آمنة الجبلاوي، الإسلام المبكر/ الاستشراق الأنجلوسكسوني الجديد، منشورات الجمل، ألمانيا، ط١، ٢٠٠٨م، ص١٣

لقد كانت نشأة مراكز البحوث الأمريكية وتطورها -بشكل عام- متماشية مع نشأة وتطور القوة الأمريكية، ويمكن القول أن نهاية الحرب الأهلية الأمريكية عام ١٨٦٥م يعتبر نقطة بداية صعود القوة الأمريكية، وفي ذات الوقت نقطة بداية لمراكز التفكير الأمريكية، وفي هذا يقول «ستيفن بوشيه» و«مارتين رويو»: «لم تنشأ مراكز الفكر بدون سبب، فقد خُلقت كرد على أزمات خطيرة لم يبدُ أن الحكومات قادرة لوحدها على حلها»[١]، ثم قسَّما تطور مراكز البحوث الأمريكية إلى أربعة مراحل تزامنت مع أربع أزمات سياسية أو اقتصادية، وهذه المراحل الأربع هي:

المرحلة الأولى: قبيل وأثناء الحرب العالمية الأولى.

المرحلة الثانية: بعد الحرب العالمية الثانية.

المرحلة الثالثة: مرحلة السبعينيات من القرن العشرين، والمرتبطة في ذاك الوقت بصدمات النفط.

المرحلة الرابعة: مرحلة ما بعد سقوط الاتحاد السوفيتي مطلع تسعينيات القرن العشرين[٢].

ولا يَبعد كثيراً عن هذا التقسيم ما ذهب إليه الدكتور «دونالد أبلسون»، إذ قسَّم تطور مراكز الفكر الأمريكية إلى أربعة مراحل أو موجات، أرَّخَ لها بحسب الأعوام، وهي: (١٩٠٠-١٩٤٥)، (١٩٤٦-١٩٧٠)، (١٩٧١-١٩٨٠)، (١٩٨١-٢٠٠٤)[٣].

وقد ذهب الدكتور باسل الخطيب إلى تقسيم مراحل تطور مراكز البحوث الأمريكية إلى خمس مراحل، وهي:

المرحلة الأولى (١٨٦٥-١٩٠٠م):

وهذه المرحلة هي التي أعقبت الحرب الأهلية الأمريكية، وتميزت بالبحوث المتخصصة في العلوم الاجتماعية، وذلك بهدف مساعدة

---

(١) ستيفن بوشه ومارتين رويو، مراكز الفكر أدمغة حرب الأفكار، ترجمة: ماجد كنج، دار الفارابي، ط١، ٢٠١٠م، ص٩٠

(٢) يُنظر: المرجع نفسه، ص٩٠-١٠٨

(٣) يُنظر: دونالد أبلسون، مراكز الفكر والسياسة الخارجية الأمريكية، جامعة ماكجيل كوين، ٢٠٠٦م، ترجمة: مازن مطبقاني، ص٢

الحكومة في الإصلاحات اللازمة للمجتمع الأمريكي. وأبرز مراكز البحوث في هذه المرحلة:

- اللجنة الصناعية الأمريكية *The U.S Industrial Commission*، 1898م.
- الاتحاد المدني الوطني *The National Civic Federation*، 1900م.

المرحلة الثانية (١٩٠١-١٩٤٥م):

ونشأ في هذه الفترة التي تخللتها الحرب العالمية الأولى العديد من مراكز البحوث التي لم تقتصر في بحوثها على الجوانب الاجتماعية بل تعدتها إلى الاقتصادية والسياسية، ومن المراكز البارزة التي ظهرت في هذه المرحلة:

- مؤسسة رسل سيج *Russell Sage Institute*، 1907م.
- مؤسسة كارنيجي الوقفية للسلام الدولي.
The Carnegie Endowment for International Peace، 1910م.
- معهد هوفر للحرب والثورة والسلام.
The Hoover Institution on War, Revolution and Peace، 1919م.
- مجلس العلاقات الخارجية *The council on Foreign Relations*، 1921م.
- معهد بروكنجز *The Brookings Institute*، 1927م.
- معهد المشروع الأمريكي *The American Enterprise Institute*، 1943م.

المرحلة الثالثة (١٩٤٦-١٩٧٠م):

وفي هذه المرحلة التي أعقبت الحرب العالمية الثانية زاد أيضاً عدد مراكز البحوث الأمريكية والتي أصبح لها نفوذٌ عالمي كبير. وتميزت بحوث ودراسات هذه الفترة بالبعد الاستراتيجي والعسكري، كدراسة (مشروع منهاتن) التي أنتجت القنبلة النووية، ودراسات الاتحاد السوفيتي التي ساعدت الولايات المتحدة في الحرب الباردة، ومن أبرز المراكز التي نشأت في هذه الفترة:

- مؤسسة راند *RAND Corporation*، 1945م.
- معهد هدسون *Hudson Institute*، 1961م.
- المعهد المدني *Urban Institute*، 1968م.

المرحلة الرابعة (١٩٧١-١٩٩١م):

مع بداية هذه المرحلة لم يكن عدد المراكز البحثية في أمريكا يتجاوز ٢٥ مركزاً، ولكن هذا العدد تصاعد بشكل كبير نتيجة المنافسة الفكرية المحمومة داخل أمريكا بين التيار المحافظ والقوى الليبرالية واليسارية، وكان يُطلق على تلك المنافسة «حرب الأفكار».

ونتيجة لهذه المنافسة؛ أخذت دراسات وبحوث هذه المرحلة تهدف إلى الإقناع، بدلاً من تقديم المشورة والتثقيف التي ميّزت أهداف المراحل السابقة، فأصبح الجيل الجديد من المراكز يتبنى العقائد اليمينية أو اليسارية، بدلاً من أن يكون مستقلاً عن هذه التوجهات، وقد أدّت المراكز البحثية في هذه المرحلة دوراً رئيسياً في رسم الإطار العقائدي للسياسة الخارجية الأمريكية، وخصوصاً في عهد الرئيس «رونالد ريغن»[١].

وأبرز المراكز البحثية التي نشأت في هذه المرحلة:

- مؤسسة التراث ***Heritage Foundation***، 1973م.
- مؤسسة الكونجرس الحر ***Free Congress Foundation***، 1974م.
- معهد كاتو ***The Cato Institute***، 1977م.
- معهد مانهاتن ***Manhattan Institute***، 1978م.

المرحلة الخامسة (١٩٩٢- الوقت الحاضر):

وهذه المرحلة بدأت بنهاية الحرب الباردة أواخر عام ١٩٩١م وما صاحب ذلك من تفكك الاتحاد السوفيتي ونشأة (استقلال) العديد من الدول في أوروبا الشرقية وأواسط آسيا؛ مما أعطى المراكز الأمريكية على

---

(١) ريغن، رونالد (١٩١١-٢٠٠٤م) سياسي أمريكي، من أركان الحزب الجمهوري. الرئيس الأربعين للولايات المتحدة الأمريكية (١٩٨١- ١٩٨٩م) خلفاً للرئيس كارتر، عُرف بنزعته اليمينية، ويعدائه للشيوعية، بدأ حياته ممثلاً سينمائياً، فظهر في نحو خمسين فيلماً وتميّز بأداء أدوار رعاة البقر، ثم خاض المعترك السياسي فكان عند انتخابه للرئاسة حاكماً لولاية كاليفورنيا. يُنظر: معجم أعلام المورد، ص٢١٦

وجه الخصوص مناسبةً مهمة لتوسيع أعمالها واستشاراتها فيما يتعلق بتعزيز الديمقراطية بعد موجات الاستقلال تلك، وتميزت هذه الفترة بثلاثة أمور:

الأول: قوة نفوذ المراكز البحثية داخل الميدان السياسي، وخصوصاً تلك التي تتبع لتيار المحافظين.

الثاني: ازدياد عدد المراكز البحثية بشكل كبير جداً.

الثالث: أصبحت المراكز البحثية أكثر هجوميةً وتعقيداً في نشاطاتها على كافة المستويات، وذلك نتيجة لإيمانها بأهمية التخصص والتمويل والإعلام، وتأثير ذلك كلّه على استمرارها وبقائها.

أما أبرز وأهم المراكز البحثية التي أُنشئت في هذه المرحلة فهي:

- مشروع القرن الأمريكي الجديد *Project for the New American Century*، 1997م[1].

يتضح مما سبق أن الفرق بين التقسيمات الثلاثة هو في الفترة ما بين انتهاء الحرب الأهلية الأمريكية وبداية الحرب العالمية الأولى (١٨٦٥-١٩١٤م)، حيث جُعلا في تقسيم «بوشه-رويو» و «أبلسون» مرحلةً واحدة، وفي تقسيم باسل الخطيب مرحلتان، والذي يبدو أن تقسيم الخطيب هو الأقرب للصواب، لأنه في الفترة ما بعد الحرب الأهلية الأمريكية كان اهتمام مراكز البحوث منصباً على القضايا الاجتماعية، وأما قُبيل وبعد الحرب العالمية الأولى تعدى ذلك إلى الاهتمام بالقضايا السياسية والاقتصادية، وبهذا تكونان مرحلتان باعتبار اختلاف نشاط المراكز البحثية فيهما.

ما سبق من مراحل يقع -بشكل عام- ضمن إطار التطور الكمي لمراكز البحوث الأمريكية، وأما التطور في الكيف والأداء والتأثير فيمكن القول بأن مراكز البحوث الأمريكية مرَّت بمرحلتين رئيسيتين، هما:

---

(١) يُنظر: باسل رؤوف الخطيب، المراكز الفكرية في الولايات المتحدة الأمريكية، نشر مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، ١٤٢٨هـ ص١٠-٢٥

المرحلة الأولى: مرحلة ما قبل الحرب العالمية الثانية، وفيها كان دور تلك المراكز -بشكل عام- يقتصر على إسداء النصح والمشورة للعامة أو للسياسيين.

المرحلة الثانية: مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية إلى يومنا هذا، وفي هذا المرحلة أصبحت مراكز البحوث الأمريكية تشكل أداة مهمة من أدوات المشهد الاجتماعي والسياسي والاقتصادي الأمريكي، وفي هذه المرحلة وقعت ثلاثة أحداث مهمة عززت من مكانة تلك المراكز، وزادت من دورها على الساحة الأمريكية وخصوصاً في الجانب السياسي، وهذه الأحداث هي:

١- انتهاء الحرب العالمية الثانية، وصعود نجم الولايات المتحدة الأمريكية كقوة عالمية جديدة؛ حلت محل القوة الأوروبية التي بدأت حينها في الأفول.

٢- انهيار «الاتحاد السوفيتي»؛ المنافس اللدود لأمريكا، وذلك مطلع تسعينيات القرن الميلادي المنصرم، الأمر الذي أدى إلى تربع أمريكا على عرش الهيمنة العالمية.

٣- أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م، والتي أعطت لأمريكا فرصة تاريخية لاستكمال سيطرتها على العالم، وخاصة في منطقة العالم الإسلامي.

وبيان تأثير هذه الأحداث أنه أثناء وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية لعبت مراكز البحوث -وعلى رأسها «مؤسسة راند»- دوراً كبيراً في تطوير الآلة العسكرية الأمريكية وتعزيز سيطرتها العالمية.

وأثناء الحرب الباردة بين أمريكا والاتحاد السوفيتي لعبت أيضاً مراكز البحوث الأمريكية دوراً بارزاً في هذه الحرب، حتى إن الزعماء السوفييت أبدوا قلقهم (علناً) من دور تلك المراكز في توجيه السياسة الخارجية الأمريكية، فقد قال الزعيم السوفيتي «ميخائيل غورباتشوف»[1] ذات مرة -

(١) ميخائيل سيرغيفيتس غورباتشوف، ولد في ١٩٣١م، رئيس الاتحاد السوفيتي (١٩٨٨-١٩٩١م)، رئيس الحزب الشيوعي السوفيتي بين عامي ١٩٨٨و١٩٩١م. يُنظر: موسوعة ويكيبيديا الإليكترونية، مادة: ميخائيل غورباتشوف.

معلقاً بامتعاض على أحد تقارير «معهد هوفر»-: «لقد قرأنا هذا الكتاب وتيقنا أن حكومة ريجان أقرت كل برامجه»[1]، وأضاف أيضاً: «يقول معهد هوفر لديكم: إن مجتمعنا في حالة تداعي ودعوني أقول لكم: إنكم الوحيدين الذين لديهم عجز وليس نحن»[2].

وأما ما بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م فقد انهالت تقارير مراكز البحوث الأمريكية على الساسة الأمريكان فيما يتعلق بالحل الأمثل للتعامل مع العالم الإسلامي، والذي بات «بأكمله» في قفص الاتهام الأمريكي بعد تلك الأحداث، ولا يزال كذلك إلى يومنا هذا! ولعل هذه الدراسة تكشف ولو شيئاً يسيراً عن الدور الخطير الذي تلعبه مراكز البحوث الأمريكية حالياً في توجيه دفة السياسة الخارجية الأمريكية نحو تغيير العالم الإسلامي.

والخلاصة أن الولايات المتحدة الأمريكية شهدت عبر ما يقارب القرن والنصف من الزمان (١٨٦٥م-٢٠١١م) نشأة وتطور مراكز بحوثٍ بدأت على شكل اتحادات ولجان لتقديم النصح والمشورة، وغدت اليوم أشبه بالمنظومات الفكرية التنفيذية، حيث تَصنع الأفكار وتسعى في ذات الوقت إلى تطبيقها على أرض الواقع.

وفي هذا يقول «جيمس ماكقان»[3]: «لقد ولىَّ الزمن الذي كان فيه شعار مراكز الفكر: «لنبحث، لنكتب، وسيجدون ما نقوم به»[4]، وتصف أيضاً مجلة «ذا إيكونومست» هذا الواقع قائلة: «إن مراكز الفكر الجيدة هي تلك التي تستطيع أن تؤلف بين العمق الفكري والتأثير السياسي والحس الدعائي، وأن تجد لنفسها محيطاً ملائماً وهامشاً من التميز»[5].

---

(١) جيمس الآن سميث، سماسرة الأفكار، ترجمة مجدي عبدالكريم، مكتبة مدبولي-القاهرة، ط١، ١٩٩٤م، ص٣٤٧

(٢) المرجع نفسه، ص٣٤٧

(٣) جيمس ماكقان، *James G McGann*، زميل أول بمعهد بحوث السياسة الخارجية *FPRI*، ومدير برنامج المجتمعات المدنية بالمعهد، وهو أيضاً مدير وأحد مؤسسي برنامج «شركاء ماكقان» لبحث التحديات التي تواجه مراكز الفكر. يُنظر: موقع *FPRI* على الشبكة الاليكترونية: *http://www.fpri.org*

(٤) جيمس ماكقان، تقرير «مراكز الفكر وبرنامج المجتمعات المدنية»، ترجمة: محمد سليم قلاقلة، والتقرير من إصدارات معهد البحوث في السياسات الخارجية، ٢٠٠٧م، ص٢٠

(٥) نقلاً عن: المرجع نفسه، ص٢٠

أما عن أعداد تلك المراكز البحثية الأمريكية فقد ذكر أيضاً «جيمس ماكقان» أن عددها في أمريكا الشمالية بلغ (١٩٢٤) مركزاً، من أصل (٥٠٨٠) مركزاً موزعاً على باقي أنحاء العالم، أي أن أمريكا الشمالية بها نسبة ٣٧.٨٧٪ من إجمالي المراكز البحثية في العالم، وبطبيعة الحال فللولايات المتحدة نصيب الأسد من هذه المراكز، حيث تبلغ فيها ١٧٧٦ مركزاً[١]. ويوضح «دونالد أبلسون»[٢] طبيعة البيئة الأمريكية التي ساعدت على انتشار وتكاثر مراكز البحوث حيث يقول: «في ظل حكومة تقوم على فروع منفصلة تتقاسم السلطة، ونظام حزبي يتمتع فيه أعضاء الكونجرس بحرية التصويت كما يرغبون، وعدد متزايد من مرشحي الرئاسة الذين يحاولون تطوير أفكار جديدة تجد المؤسسات البحثية فرصاً وفيرة لتشكيل الرأي العام والسياسة العامة»[٣]. فهذا الواقع (المغري) بالإضافة إلى التسهيلات الحكومية كالإعفاء من الضرائب جعل أمريكا تحتل الصدارة في أعداد مراكز البحوث.

وأما عن مكانة مراكز البحوث الأمريكية والدور الذي تلعبه في رسم السياسة الخارجية الأمريكية، فيذكر العضو السابق في شعبة التخطيط السياسي بوزارة الخارجية الأمريكية «جون ألترمان» أثناء حديثة عن بُنية السياسة الخارجية الأمريكية بأن هناك منظمات عديدة غير رسمية تؤثر في السياسة الأمريكية، وذكر منها «مؤسسات الفكر والرأي»، وجماعات الضغط (اللوبيات)[٤].

---

(١) يُنظر: المرجع نفسه، ص٥

(٢) دونالد إ. أبلسون، *Donald E. Abelson*، أستاذ العلوم السياسية، ومدير مركز الدراسات الأمريكية *Center for American Studies* في جامعة غرب أونتاريو، يعمل بالتدريس والبحث في موضوعات تتعلق بالسياسات الأمريكية، وجماعة المصالح، والمؤسسات البحثية، وقد عمل مستشاراً لعدد من المؤسسات البحثية والمنظمات الدولية مثل البنك الدولي. يُنظر: نبذة عن المؤلف في كتاب «هل هناك أهمية للمؤسسات البحثية؟».

(٣) دونالد أبلسون، هل هناك أهمية للمؤسسات البحثية؟ تقويم تأثير معاهد السياسة العامة، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، ط١، ٢٠٠٧م، ص٨٦

(٤) يُنظر: موقع وزارة الخارجية الأمريكية، موضوع بعنوان «جون ألترمان يوضح كيفية صياغة السياسة الأمريكية لمستمعين عرب»، في ٤/ ٢/ ٢٠٠٤م، الرابط: *http://iipdigital.usembassy.gov/st/arabic/texttrans/2004/03/20040304151550liameruoy0.8990595.html#axzz2r9PKwx2E*

ومن هنا فإن مراكز البحوث الأمريكية تحتل منزلة كبيرة ورفيعة لدى السياسيين الأمريكيين، إذ إنها بمثابة الملجأ الراقي الذي يأوي إليه الكثير من السياسيين الأمريكان بعد انتهاء فترة عملهم في الحكومة، والذي منه أيضاً قد يشقون طريقهم تارة أخرى إلى أروقة الحكومة، فالمراكز البحثية تُعد الوجهة الأولى التي يلتفت إليها الرؤساء المنتخبون في أمريكا لملء إداراتهم بالعقول الملائمة لسياستهم.

وأضرب لهذا مثلاً بالمركز البحثي التابع «للمحافظين الجدد»[(١)] والمسمَّى بـ«مشروع القرن الأمريكي الجديد»[(٢)] *Project for the New American Century* حيث امتدحه الرئيس «بوش الابن»[(٣)] قائلاً: «إنكم تبلون حسناً لدرجة أن إدارتي استعارت عشرين من رؤوسكم المفكرة»[(٤)]. وبالفعل فإن «مشروع القرن الأمريكي الجديد» يُعتبر المُخطِط للحرب على العراق[(٥)]، حيث طبَّق «بوش الابن» الرؤى التي جاءت بها رؤوس هذا المركز البحثي، وعلى رأسها ما يُسمَّى بـ«الحرب الوقائية ضد الدول المارقة»؛ وقد كان من ثمرات تلك الرؤى المتطرفة احتلال أفغانستان والعراق، والكثير من السياسات الظالمة للإسلام والمسلمين.

وبعد، فهذا المثال -وثمة الكثير غيره- يُبرهن على المكانة الرفيعة والخطيرة التي تبوأتها مراكز البحوث في صنع السياسة الأمريكية؛ وإلى هذه

---

(١) المحافظون الجدد، مجموعة سياسية أمريكية من اليمين المسيحي المتطرف، تؤمن بقوة أمريكا وهيمنتها على العالم، وتتألف هذه المجموعة من سياسيين ومفكرين ومثقفين ومحاربين قدامى. يُنظر: موسوعة ويكيبيديا الاليكترونية، مادة: *Neo-conservatism*

(٢) تأسس عام ١٩٩٧م على يد اثنين من المحافظين اليمينيين؛ وهما: «ويليام كريستول» *Wiliam Kristol* و«روبرت كيجن» *Robert Kagan*، وأغلق أبوابه عام ٢٠٠٦م دون إبداء أسباب واضحة سوى القول بأنه قد حقق الأهداف التي أُنشئ من أجلها. يُنظر: موقع «مشروع القرن الأمريكي الجديد»: *www.newamericancentury.org*، ويُنظر أيضاً: موسوعة ويكيبيديا، مادة: *Project for the New American Century*

(٣) جورج واكر (دبليو) بوش *George W. Bush* 1946م–)، رئيس الولايات المتحدة الأمريكية الثالث والأربعون، من ٢٠٠١م وحتى ٢٠٠٩م، حاكم ولاية تكساس (١٩٩٥-٢٠٠٠م). قبل دخوله السياسة كان مشتغلاً مع عائلته بالتجارة في مجال النفط. في فترة رئاسته وقعت أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م، واحتلال أفغانستان في نفس العام، واحتلال العراق في ٢٠٠٣م. يُنظر: موسوعة ويكيبيديا، مادة: *George W. Bush*

(٤) نقلاً عن: ستيفن بوشيه ومارتن رويو، مراكز الفكر أدمغة حرب الأفكار، مرجع سابق، ص٣١

(٥) يُنظر: ستيفن بوشيه ومارتن رويو، مراكز الفكر أدمغة حرب الأفكار، مرجع سابق، ص٢٠-٣٠

النتيجة يشير الدكتور مصطفى عبدالغني إلى أصبح هناك أشبه ما يكون بالاستعداد الفطري من قبل صانعي القرار الأمريكي للجوء إلى مراكز البحوث، وذلك من أجل الحصول على استشارات ونصائح حول السياسة المحلية والخارجية[1].

المطلب الثاني :اهتمام مراكز البحوث الأمريكية المعاصرة بالعالم الإسلامي

إن النشاط المعاصر لمراكز البحوث الأمريكية فيما يتعلق بالعالم الإسلامي ما هو إلا وجه جديد وحالة متطورة للاستشراق التقليدي الأمريكي، خاصة في جانب القضايا السياسية والاقتصادية، وهذا النشاط يسير جنباً إلى جنب مع الاستشراق الأمريكي التقليدي الذي لا يزال مستمراً وموجوداً في الأقسام الجامعية وكراسيها ومراكزها العلمية، وقد ذكر الدكتور مازن مطبقاني في كتابه «بحوث في الاستشراق الأمريكي المعاصر»[2] نماذج كثيرة من النشاطات الاستشراقية المعاصرة في الجامعات الأمريكية، والتي تتنوع ما بين أقسام علمية ومواد دراسية ومؤتمرات وندوات وغير ذلك.

وفي «دليل برامج الدراسات العربية والإسلامية والشرق أوسطية بالجامعات الأمريكية» الذي أصدرته الملحقية الثقافية بالسفارة السعودية بواشنطن عام ١٤١١هـ وصل عدد المعاهد والمراكز المهتمة بالدراسات العربية والإسلامية إلى مائة وثلاثين مركزاً وقسماً[3]، ويقول محمد زماني واصفاً الاستشراق الأمريكي المعاصر: «أدى إيفاد الباحثين تحت ستار السياحة، والموظفين الإداريين في السفارات الأمريكية في الدول الشرقية، والأساتذة الزائرين إلى جامعات البلدان الشرقية، وأمثال ذلك، وخاصة في القرن الأخير (العشرين)، إلى دخول أمريكا إلى ساحة الاستشراق

---

(١) يُنظر: مصطفى عبدالغني، المستشرقون الجدد/ دراسة في مراكز الأبحاث الغربية، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٤٢٨هـ ص١٨

(٢) يُنظر: مازن مطبقاني، بحوث في الاستشراق الأمريكي المعاصر، ط١، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م، ص٥١-١٢٣

(٣) لم أعثر على هذا الدليل، ونقلت هذه المعلومة عن: علي النملة، الاستشراق والدراسات الإسلامية، مكتبة التوبة، ط١، ١٤١٨هـ-١٩٩٨م، ص٧٤

والدراسات الإسلامية بشكل جدي، وأدى تأسيس أقسام للاستشراق والدراسات الإسلامية والدراسات الشيعية في الولايات الأمريكية اليوم إلى أن تصبح أمريكا واحدة من مراكز الاستشراق والدراسات الإسلامية المهمة»[1].

ومن هنا، فلا مجال للشك بأن الاستشراق التقليدي لم ينته في أمريكا كما ذهب بعض الباحثين، ولكنه في الواقع بات -نسبياً- أقل حضوراً في المشهد السياسي الأمريكي، لسببين؛ أولهما: وجود فجوة في العلاقة -بشكل عام- بين الأكاديميين المشتغلين بالشرق وبين السياسيين، وثانيهما: العلاقة القوية بين خبراء مراكز التفكير *Think Tanks* وبين السياسيين الأمريكيين للأسباب التي مضت في المطلب الأول.

بشكل عام يمكن القول بأن ثمة خطين متوازيين لدراسات العالم الإسلامي في أمريكا، الخط الأول يمثله المستشرقون التقليديون والأكاديميون، وهؤلاء في الغالب أقل حِدَّة من غيرهم على العالم الإسلامي. وأما الخط الثاني فيمثلهم خبراء مراكز البحوث، والذين ينعتهم بعض الباحثين بالمستشرقين الجدد، وهم المعنيون بالدرجة الأولى في هذا البحث.

والاختلاف بين هذين الخطين إنما هو في آلية التعاطي مع العالم الإسلامي، وخاصة فيما بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م، وإلا فكلاهما يحمل ذات الإرث التاريخي الاستشراقي السلبي تجاه العالم الإسلامي، والذي يصفه «دوجلاس ليتل»[2] في كتابه «الاستشراق

---

(١) محمد حسن زماني، الاستشراق والدراسات الإسلامية لدى الغربيين، ترجمة: محمد نور الدين عبدالمنعم، المركز القومي للترجمة-القاهرة، ط١، ٢٠١٠م، ص٣١٥. وتجدر الإشارة هنا إلى أن السفارات والقنصليات الأمريكية تستضيف الكثير من الباحثين ورجال الثقافة والفكر وأساتذة الجامعات والصحفيين وغيرهم في الدول العربية والإسلامية؛ وذلك للعمل على عقد الصلات الثقافية معهم، ولمحاولة تحسين صورة أمريكا، وأيضاً للقيام بالترويج لمواقف الحكومة الأمريكية الرسمية.

(٢) دوجلاس ليتل، *Douglas Little*، أستاذ التاريخ بجامعة كلارك، متخصص في التاريخ السياسي الأمريكي، وباحث في العلاقات الأمريكية الشرق أوسطية، له العديد من المؤلفات، منها: الأبرياء في الخارج/ الاستشراق والإمبراطورية الأمريكية في الشرق الأوسط، والمهمة المستحيلة/ المخابرات الأمريكية والعمل السري في الشرق الأوسط. يُنظر: موقع جامعة كلارك في شبكة الانترنت: *http: //www.clarku.edu*

الأمريكي» قائلاً: «إن نظرة سريعة على ثقافة القرنين الثامن عشر والتاسع عشر تبين أن المسلمين واليهود ومعظم الشعوب الأخرى في الشرق الأوسط كانوا يوضعون في إطار إستشراقي مع اعتبارهم شعوباً متخلفة ومتفسخة وغير جديرة بالثقة، وفي سنة ١٩٠٠م كانت مشاعر العداء للسامية وللإسلام مشاعر أمريكية... مثل فطيرة التفاح. وفي أوائل القرن العشرين كان رجال الأعمال وعلماء الآثار والبعثات التبشيرية يعمقون هذه النظرة الاستشراقية بمساعدة المجلات المنتشرة مثل «ناشونال جيوجرافيك»- *National Geographic*، ومع قدوم الحرب العالمية الثانية والهولوكوست وقيام دولة إسرائيل خمدت حدة معاداة السامية نوعاً ما وأصبحت النظرة إلى اليهود «نظرة غربية» بينما ظلت صورة العرب شيطانية باعتبارهم إرهابيين معادين للغرب.

وفي أواخر التسعينيات كانت هذه الرسائل الاستشراقية الأكثر تعقيداً تنعكس ليس فقط على شاشات السينما الأمريكية من خلال أفلام ضخمة مثل «قائمة شندلر» و«أكاذيب حقيقية» فحسب؛ وإنما كانت تجد طريقها إلى غرفة المعيشة الأمريكية عبر أشرطة الأخبار التليفزيونية التي كانت تقارن المعتدلين الإسرائيليين بالعرب القساة أو الأغنياء أو الراديكاليين لإبراز الفرق»[1].

ومن هنا يمكن القول أن أمريكا ورثت النظرة السلبية الاستشراقية الأوروبية، وخاصة بعد الحرب العالمية الثانية، ويُعد المستشرق اليهودي البريطاني «برنارد لويس»[2] من الآباء المؤسسين لدراسات الشرق الأوسط

---

(١) دوجلاس ليتل، الاستشراق الأمريكي/ الولايات المتحدة والشرق الأوسط منذ ١٩٤٥م، ترجمة: طلعت الشايب، المركز القومي للترجمة-القاهرة، ط١، ٢٠٠٩م، ص٤٩. وتجدر الإشارة هنا إلى أن الإعلام الأمريكي لا يزال يساهم في رسم الصورة السيئة عن العرب والمسلمين، ومن أمثلة ذلك فيلم الحصار *The Siege* الذي أنتج عام ١٩٩٨م، وفيلم رجل الزئيس: المنصة صفر *The President's Man: Ground Zero* والذي أنتج عام ٢٠٠١م وكلاهما يعرض العربي المسلم للمشاهد الأمريكي بصورة سيئة.

(٢) برنارد لويس *Bernard Lewis*، (١٩١٦-)، ولد في لندن، وحصل على الدكتوراه من مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية بجامعة لندن في ١٩٣٩م وعمل أستاذاً بتلك المدرسة ثم رئيساً لقسم التاريخ بها، عاش في بريطانيا حتى عام ١٩٧٤م، ثم انتقل إلى أمريكا ليعمل أستاذاً في

في الجامعات الأمريكية، ومن الناقلين لذلك الإرث الاستشراقي الأوروبي إلى أمريكا، وهو من أوائل من بدأ بالحديث عن صراع الحضارات بين الغرب والعالم الإسلامي وكان ذلك في ستينيات القرن المنصرم في جامعة أوكلاهوما[1]، وقد أصدر كتاباً في خريف ٢٠٠١م بعنوان «أين الخطأ؟ التأثير الغربي واستجابة المسلمين» ضمنه الفكرة التي طالما كان يدعو إليها ويحذر منها وهي أن العرب لديهم عقدة النقص ويلقون بتبعة ذلك على الغرب. ومما جاء في كتابه قوله: «وكان في جعبة الزمان ما هو أسوأ: فلم يقتصر الأمر على أن يشعر المسلمون أنهم ضعفاء وفقراء بعد قرون من الثراء والقوة، وأن يفقدوا الريادة والزعامة التي كانوا يعتبرونها حقاً من حقوقهم، وأن يهبطوا إلى موقع التابع للغرب، بل إن القرن العشرين، خصوصاً في نصفه الثاني، قد أتى بالمزيد من الإذلال- ألا وهو أنهم أدركوا أنهم لم يعودوا أول التابعين، وأنهم يتقهقرون إلى الصفوف الخلفية في الحشد المتزايد من المتحمسين والناجحين في الأخذ بطرائق الغرب»[2].

العجيب أنه في كتابه هذا تفنن في إلباس المسلمين ثوب العاجز الضعيف، وفي ذات الوقت تفنن في تبرئة ساحة الغرب من أن يكون له يد فيما يحدث في العالم الإسلامي، حتى إنه لم يصف الاستعمار الأوروبي بوصف «الاستعمار» بل وصفه بالسيادة حيث قال: «وأدت السيادة الفرنسية والبريطانية على معظم مناطق العالم العربي في القرنين التاسع عشر والعشرين إلى ظهور كبش فداء جديد وأقرب للمنطق -ألا وهو الإمبريالية

جامعة برنستون، وحصل على الجنسية الأمريكية عام ١٩٨٢م، وبعد تقاعده من الجامعة في ١٩٨٦م عُين مديراً لمعهد اتنبرج للدراسات اليهودية ودراسات الشرق الأدنى بمدينة فيلادلفيا، وقد عُرف عن لويس عمق ارتباطه بالحركة الصهيونية. من أشهر كتبه «العرب في التاريخ» و«الغرب والشرق الأوسط» و«اللغة السياسية في الإسلام»، ويعتبر برنارد لويس في الوقت الراهن من أبرز خبراء الشرق الأوسط في الولايات المتحدة الأمريكية. وللمزيد حول نشأة هذا المستشرق وآرائه، يُنظر: مازن مطبقاني، الاستشراق والاتجاهات الفكرية في التاريخ الإسلامي/ دراسة تطبيقية على كتابات برنارد لويس، نشر مكتبة الملك فهد الوطنية-الرياض، ١٤١٦هـ-١٩٩٥م، ص٦٩-١٢٤

(١) يُنظر: مازن مطبقاني، وضعية دراسات الشرق الأوسط في الجامعات الأمريكية بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م، ط بدون، ت بدون، ص١٠

(٢) برنارد لويس، أين الخطأ؟ التأثير الغربي واستجابة المسلمين، ترجمة: محمد عناني، إصدارات سطور، ط١، ٢٠٠٣م، ص٢٣٨

الغربية-، وبرزت في الشرق الأوسط أسباب قوية لإلقاء التبعة عليه»[1]، ويا ليت «برنارد لويس» عدَّ لقرائه بعضاً من الخير والفوائد التي جلبها ذلك السيد (المستعمر) البريء!!

هذا أنموذجٌ واحدٌ لمغالطات المستشرقين، وإلا فثمَّ العديد من المستشرقين التقليديين الذين لا يزالون يُورِّثون هذه النظرة الاستشراقية السلبية عن العالم الإسلامي، وذلك عن طريق التأليف والتدريس وإلقاء المحاضرات وغيرها من الوسائل.

والأكثر عجباً هو أن المستشرقين التقليديين (الأكاديميين) واجهوا في أمريكا حملة شرسة بعد أحداث ١١ سبتمر ٢٠٠١م، وذلك من قِبل خبراء مراكز البحوث، واتُهموا فيها بأنهم لم يتنبؤا بالخطر الإسلامي كما يجب، وأن نظرتهم إلى الشرق ليست دقيقة كما يجب، وواجهوا سيلاً من الإقصاء والتضييق والتهديد، خاصة من المراكز البحثية التي تتبع لليمين المحافظ[2]، ووجه العجب أنَّ كلا الطرفين لم يكن يحمل نظرة إيجابية عن العالم الإسلامي قبل ١١ سبتمر، ولم يكن الأكاديميون موضوعيين - بشكل عام- تجاه العالم الإسلامي، بل كانوا يرددون صدى الاستشراق الأوروبي ويعلمونه طلابهم! ولذا يصفهم إدوارد سعيد قائلاً: «لا يمكننا أن نقول إن دراسة الإسلام اليوم «حرة» أو «بريئة» في أي جانب من جوانبها تقريباً أو إن الضغوط المعاصرة الملحة والعاجلة لا تحدد مسارها. وما أبعد هذا عن الموضوعية غير السياسية التي يصف بها الكثيرون من الباحثين في مجال الاستشراق عملهم»[3].

والذي يبدو من هذه الحملة أن خبراء مراكز البحوث وجدوها فرصة عظيمة في أن يتسنَّموا هرم المعرفة بالعالم الإسلامي، وليكسبوا ثقة

---

(١) المرجع نفسه، ص٢٣٩-٢٤٠

(٢) يُنظر، مازن مطبقاني، وضعية دراسات الشرق الأوسط في الجامعات الأمريكية بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م، مرجع سابق، ص١٢-١٧، وقد ضرب الدكتور مازن صوراً كثيرة لذلك التضييق على الأكاديميين، والذي وصل إلى حد إنشاء موقع إليكتروني باسم مراقبة الحرم الجامعي *Campus-watch*، حيث ينشرون فيه أسماء كل من يتعاطف مع العرب أو يعادي السامية بزعمهم!.

(٣) إدوارد سعيد، تغطية الإسلام، ترجمة: محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٠٥م، ص٢٨٨

السياسي الأمريكي، الذي وجد فيهم -خاصة في فترة «بوش الابن»- التطرف الذي يريده.

وأضرب مثالاً لهذه الهجمة التي لم يسلم منها حتى «برنارد لويس» نفسه؛ ففي كتاب نهاية الشر هاجم «ديفيد فروم»[1] و«ريتشارد بيرل»[2] من يدعو إلى الديمقراطية في العالم الإسلامي، وكان مما قالاه: «إذن من هم هؤلاء المجانين الذين يدافعون عن ديمقراطية أفضل في الشرق الأوسط؟ يشملون أشخاصاً مثل العلامة البارز في علم الحضارة الإسلامية «برنارد لويس..»[3]، وبطبيعة الحال ذكرا وصفةً ديمقراطيةً بلا صناديق اقتراع، قالا أنه يمكن تطبيقها في «الشرق الأوسط»[4]، وبررا ذلك بأن صناديق الاقتراع يمكن أن تأتي بالإسلاميين المتشددين كما حصل في الجزائر عام ١٩٩٥م[5]!.

بناءً على ما سبق؛ يتضح أن خبراء مراكز البحوث الأمريكية (المستشرقون الجدد) يتفقون مع الاستشراق الأمريكي التقليدي في النظرة الدونية للعالم الإسلامي، ويتفقون معه أيضاً في السعي لخدمة المصلحة الأمريكية في العالم الإسلامي، ويتميزون عنه بعلاقتهم الوطيدة بالبيت

---

(١) ديفيد فروم *David J. Frum*، ولد في تورنتو بكندا عام ١٩٦٠م لعائلة يهودية. صحفي أمريكي محافظ، كاتب الخطب الاقتصادية للرئيس «بوش الابن»، من المؤيدين بقوة لغزو العراق، دعا إلى تغيير نظامي سوريا وإيران، وإلى تشديد الموقف الأمريكي ضد المملكة العربية السعودية. يُنظر: موسوعة ويكيبيديا، مادة: *David Frum*

(٢) ريتشاد نورمان بيرل *Richard Perle*، ولد عام ١٩٤١م، سياسي يهودي أمريكي، أحد أقطاب المحافظين الجدد، مساعد وزير الدفاع في حكومة ريغن، ورئيس لجنة الدفاع عن سياسة المجلس الاستشاري في حكومة بوش، وأحد أهم منظري السياسة العدائية للعرب ومن أبرز الداعين لاحتلال العراق. يُنظر: موسوعة ويكيبيديا، مادة: *Richard Perle*

(٣) ديفيد فروم وريتشارد بيرل، نهاية الشر/ كيفية الانتصار على الإرهاب، ترجمة: فؤاد السروجي، الأهلية للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٠٤م، ص١٥٩-١٦٠

(٤) الشرق الأوسط *(Middle-East)* كما يقول عبدالوهاب الكيالي: «مصطلح غربي استعماري، كثر استخدامه إبان الحرب العالمية الثانية، وليس له ما يبرره في التاريخ ولا في التركيب العرقي والقومي والحضاري والاجتماعي، والمقصود من استخدامه تجنب استخدام مصطلحات مثل المنطقة العربية أو الوطن العربي» أ.ه، وهذا المصطلح أيضاً تبريرٌ لوجود دولة لليهود وسط العرب والمسلمين. واستخدامي له في هذا البحث لا يعني القبول به، وإنما يعود إلى شيوعه وانتشاره. يُنظر: عبدالوهاب الكيالي، موسوعة السياسية، ٣/ ٤٥٦

(٥) يُنظر: ديفيد فروم وريشارد بيرل، ص١٦٢

السياسي الأمريكي، فلا تعجب إن رأيت الباحث الخبير في مركزه البحثي اليوم، وغداً تراه مسؤولاً في الحكومة لأمريكية، ليُنفِّذ حينها أفكاره التي صاغها بالأمس، وهكذا[1].

وأضرب لهذا الأمر مثالاً واحداً وهو «جيمس غلاسمان»[2] وهو أحد باحثي معهد المشروع الأمريكي *American Enterprise Institute* وقد تولى منصب وكيل وزارة الخارجية للدبلوماسية العامة، حيث يقول في أحد مقالاته الصحفية: «عندما عملت كوكيل لوزارة الخارجية للدبلوماسية العامة حاولنا أن نحقق أهدافنا المتعلقة بحرب الأفكار بطريقتين: الأولى، من خلال تخذيل وتقويض الأيدلوجية التي تقف وراء التطرف العنيف، وفي نفس الوقت توضيح ودعم البدائل الحرة، والطريقة الثانية هي من خلال تحويل الشباب من اتباع الطريق الذي يؤدي إلى التطرف العنيف»[3].

وثمة أمرٌ آخر يُميِّز بينهما وهو أن حجة «المعرفة من أجل المعرفة» التي يتلبَّس بها العديد من المستشرقين التقليديين لا يمكن أن يتلبَّس بها خبرا المراكز البحثية، والذين يتسابقون ويتنافسون علناً في تقديم التقارير والدراسات والأفكار عن العالم الإسلامي للسياسي الأمريكي، بغية أن تجد طريقها إلى حيِّز التنفيذ الفعلي.

---

(١) يُشَبِّه «ريتشارد هاس» هذا المشهد بالباب الدوار، ويرى تفرد الولايات المتحدة به. يُنظر: مجلة أجندة السياسة الخارجية الأمريكية، عدد نوفمبر ٢٠٠٢م، مقال بعنوان «مؤسسات الفكر والرأي وسياسة الولايات المتحدة الخارجية: وجهة نظر أحد صانعي السياسة» بقلم ريتشارد هاس. و«ريتشارد هاس» من خبراء مراكز البحوث الأمريكية الذين سلكوا ذلك الباب الدوار، فقد تنقل مراراً ما بين أروقة السياسة وما بين مراكز البحوث، فله مشاركاته الفكرية مع العديد من مراكز البحوث ومنها رئاسته «مجلس العلاقات الخارجية»، وهو من أعرق مراكز البحوث الأمريكية، وكذلك له مشاركاته السياسية؛ ومنها مدير دائرة تخطيط السياسة العامة في وزارة الخارجية الأمريكية. يُنظر: موسوعة ويكيبيديا الاليكترونية، مادة: *Richard N Hass*

(٢) جيمس غلاسمان *James K. Glassman* ولد في ١٩٤٧م بواشنطن، وينتمي إلى المحافظين الجدد، عمل في حقل الصحافة والإعلام وكذلك السياسة، زميل معهد المشروع الأمريكي، وفي ٢٠٠٨م عينه بوش الابن وكيلاً لوزارة الخارجية للدبلوماسية العامة. يُنظر: موسوعة ويكيبيديا الاليكترونية، مادة: *James K. Glassman*

(٣) جيمس غلاسمان، مجلة السياسة الخارجية، مقال بعنوان: «كيف ننتصر في حرب الأفكار *How to Win the War of Ideas*» بتاريخ ١٠/٣/٢٠١٠م، وقد ترجمه إلى العربية مركز الشرق العربي، تحت عنوان (كيف نكسب معركة الأفكار). الرابط:
http://www.asharqalarabi.org.uk/markaz/m_mutabaat-29-03-2010.htm

لقد نشطت مراكز البحوث الأمريكية في دراسة العالم الإسلامي منذ منتصف القرن العشرين، حينما برزت القوة الأمريكية بعد الحرب العالمية الثانية، فمثلاً تجد أنَّ مؤسسة راند أصدرت عام ١٩٧٠م تقريراً بعنوان: «سياسة الولايات المتحدة في الشرق الأوسط/ القيود والخيارات»، وأصدرت عام ١٩٧٨م تقريراً بعنوان: «الإمكانات الاقتصادية في الدول العربية».

وهكذا يمكن القول بأن قُرب خبراء مراكز البحوث من الساسة الأمريكان أثَّر في ازدياد نشاط تلك المراكز، بل وحتى على تكاثرها وانتشارها، وبعد أحداث ١١سبتمر ٢٠٠١م هاجت القوة الأمريكية على العالم الإسلامي، وكان مُؤجِّجو ذلك الهياج (من خلف الستار) هم خبراء مراكز البحوث.

الجدير بالإشارة هنا أن مراكز البحوث الأمريكية منها ما هو متخصص في شؤون العالم الإسلامي مثل: معهد الشرق الأوسط *Middle East Institute* الذي تأسس عام ١٩٤٦م، ومعهد واشنطن لسياسة الشرق الأدنى *Washington Institute For Near East Policy* الذي تأسس عام ١٩٨٥م، ومنها ما يقع الاهتمام بالعالم الإسلامي من ضمن نشاطاتها الرئيسية، مثل معهد بروكنجز *Brookings Institute* الذي تأسس عام ١٩٧٢م، ومؤسسة راند *RAND Corporation* التي تأسست عام ١٩٤٥م.

وأما أبرز مراكز البحوث في أمريكا فقد أورد «جيمس ماكقان» في تقرير له بعنوان «مراكز الفكر وبرنامج المجتمعات المدنية» اسم ثلاثين مركزاً من مراكز البحوث الأمريكية، اعتبرها -بناءً على استبيان قام به عام ٢٠٠٦م- أكبر المراكز الفكرية في أمريكا، وهي:

١ - معهد المشروع الأمريكي *American Enterprise Institute*

٢- معهد بيكر للسياسات العامة *Baker Institute of Public Policy*

٣- مؤسسة كارنيغي للسلام الدولي

Carnegie Endowment for International Peace

٤- مركز كارتر *Carter Center*

٥- معهد كاتو *Cato Institute*

٦- مركز التقدم الأمريكي *Center for American Progress*

٧- مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية

Center for Strategic and International Studies

٨- مركز الميزانية وأولويات السياسة

Center on Budget and Policy Priorities

٩- مجلس العلاقات الخارجية *Council on Foreign Relations*

١٠- مجلس السياسات الاقتصادية *Economic Policy Institute*

١١- مركز هنري سمسون *Henry L. Stimson Center*

١٢- مؤسسة هيريتاج *Heritage Foundation*

١٣- معهد هوفر *Hoover Institution*

١٤- معهد هدسون *Hudson Institute*

١٥- معهد الاقتصاد الدولي *Institute for International Economics*

١٦- مركز الدراسات السياسية والاقتصادية

Joint Center for Political and Economic Studies

١٧- معهد منهاتن *Manhattan Institute*

١٨- المركز الوطني للتحليل السياسات

National Center for Policy Analysis

١٩- المؤسسة الأمريكية الجديدة *New American Foundation*

٢٠- معهد السياسة التقدمية *Progressive Policy Institute*

٢١- مركز نيكسون *Nixon Center*

٢٢- المكتب الوطني للبحث الاقتصادي

National Bureau of Economic Research

٢٣- مؤسسة راند *RAND Corporation*

٢٤- مصادر المستقبل *Resources for the Future*

٢٥- المعهد المدني *Urban Institute*

٢٦- معهد الولايات المتحدة للسلام *United State Institute of Peace*

٢٧- معهد ويدرو ويلسن الدولي للعلماء

Woodrow Wilson International Center For Scholar

٢٨- المعهد العالمي للمصادر *World Resources Institute*

٢٩- مؤسسة بروكنجز *Brookings Institution*

٣٠- مركز التنمية الشاملة *Center for Global Development*

وقد تعددت وتنوعت نشاطات مراكز البحوث الأمريكية حول العالم الإسلامي ، وتحديداً بعد أحداث ١١سبتمبر، وذلك ما بين إصدار تقارير وبحوث، وإقامة مؤتمرات ولقاءات إعلامية، وافتتاح فروع في العالم الإسلامي، إلى غير ذلك من النشاطات، وسوف أذكر هنا أمثلة لبعض تلك النشاطات:

أولاً: افتتاح فروع في العالم الإسلامي:

١- في عام ٢٠٠٣م افتتحت مؤسسة راند فرعـاً لها في الدوحة، باسم «معهد راند-قطر للسياسات»، وهو نتيجة تعاون مشترك بين مؤسسة قطر وبين مؤسسة راند، وأبرز اهتمامات هذا الفرع تطوير التعليم والصحة في قطر[١].

٢- في عام ٢٠٠٦م افتتحت مؤسسة كارنيغي فرعـاً لها في بيروت، باسم «مركز كارنيغي للشرق الأوسط»، وقد نشر هذا الفرع العديد من الدراسات بشأن القضايا السياسية والاقتصادية في المنطقة، ونظّم عشرات الاجتماعات وورش العمل في مختلف أنحاء الشرق الأوسط[٢].

٣- في عام ٢٠٠٨م افتتحت مؤسسة بروكنجز فرعـاً لها في الدوحة،

---

(١) يُنظر: موقع المعهد على شبكة الانترنت:

http://www.rand.org/qatar.html ، وقد زرت هذا الفرع عام ٢٠٠٨م، والتقيت بمديره آنذاك الدكتور بروس ناردولي (*Bruce Nardulli*). وقد أغلق هذا الفرع بنهاية عام ٢٠١٣م بعد انتهاء عقد شراكته مع مؤسسة قطر، والذي امتد لعشر سنوات.

(٢) يُنظر: موقع المركز على شبكة الانترنت: *http: //arabic.carnegieendowment.org*

باسم «مركز بروكنجز الدوحة»، وهو -بحسب وصف بروكنجز- منبر مؤسسة بروكنجز في المنطقة، وقد أنشأ المركز مجلساً سمَّاه «المجلس الاستشاري الدولي»؛ كجهة استشارية له، ويضم في عضويته أسماء كثيرة منها: الشيخ حمد بن جبر آل ثاني وزير خارجية قطر سابقاً، و«مادلين أولبرايت» وزيرة خارجية أمريكا سابقاً، وزبغنيو بريجينسكي مستشار الأمن القومي في حكومة كارتر، وغيرهم[١].

٤- في عام ٢٠١٠م افتتحت مؤسسة راند فرعاً لها في أبوظبي، ويقع -بحسب المؤسسة- ضمن استراتيجيتها لتقديم البحوث والتحليلات لصناع القرار في الشرق الأوسط[٢]، وقد وقَّع الفرع مؤخراً اتفاقيةً مع شرطة بشأن تقديم خدمات استشارية لتطوير قدرات البحوث والدراسات الأمنية[٣].(تم إغلاق هذا المكتب من قبل حكومة الإمارات في شهر من عام ٢٠١٢م من دون ذكر سبب ذلك)[٤]

ثانياً: إصدار الكتب والتقارير عن العالم الإسلامي:

وتتناول إصدارات مراكز البحوث الأمريكية موضوعات شتى عن العالم الإسلامي؛ كالسياسة، والأمن، والديمقراطية، و «التطرف»[٥]، والحركات الإسلامية[٦]، ومستقبل العالم الإسلامي كما تراه أو تتمناه تلك

---

(١) يُنظر: موقع المركز على شبة الانترنت: http: //www.brookings.edu

(٢) يُنظر: موقع مؤسسة راند على شبكة الانترنت: http: //www.rand.org

(٣) يُنظر: جريدة الخليج (الإماراتية)، الأربعاء ١٤/ ٩/ ٢٠٠١م.

(٤) يُنظر: جريدة الحياة، في ٨/ ٢/ ١٤٣٤هـ- ١٢/ ١٢/ ٢٠١٢م.

(٥) ومن أمثلة التقارير في هذا الجانب: تقرير «المعارضة والإصلاح في العالم العربي/ تمكين الديمقراطية، معهد المشروع الأمريكي، ٢٠٠٨م»، وتقرير «سقوط وصعود الدولة الإسلامية»، مجلس العلاقات الخارجية، ٢٠٠٨، وقد حاز لقب«كتاب السنة» في مجلة «ذا إيكونومست» عام ٢٠٠٨م»، وتقرير «بناء الأمن في الخليج الفارسي، مؤسسة راند، ٢٠١٠م»، وتقرير «العرب في الحرب، مجلس العلاقات الخارجية، ٢٠٠٢م»، وتقرير «الوقت المناسب لاتخاذ القرارات الصعبة/ المعضلات التي تواجه علاقات الولايات المتحدة مع العالم الإسلامي، مؤسسة بروكنجز، ٢٠٠٢م»، وتقرير «الولايات المتحدة والشرق الأوسط، السياسات المعضلات، معهد بيكر للسياسات العامة، ٢٠٠٣م»، وتقرير «نهاية التاريخ الحديث في الشرق الأوسط، تأليف برنارد لويس، مؤسسة هوفر، ٢٠١١م»، وتقرير «قواعد الإسلام الراديكالي، مؤسسة هدسون، ٢٠٠٥م».

(٦) ومن أمثلة التقارير في هذا الجانب: تقرير «الحركات الإسلامية والعملية الديمقراطية في الشرق الأوسط، مؤسسة كارنيغي، ٢٠٠٧م»، وتقرير «جماعة الإخوان المسلمين المصرية: مشاركة الإسلاميين في بيئة سياسية مغلقة، مؤسسة كارنيغي، ٢٠١٠م».

المراكز[1]، أو الكتابة عن مناطق محددة، أو دول بعينها[2]، ومؤخراً توالت إصدارات تلك المراكز الفكرية عن الثورات العربية[3]، وبالجملة فإن إصدرات تلك المراكز البحثية تحمل وجهة نظر كل مركز، وهي وإن اختلفت وتنوعت إلا أنها تتفق على هدف واحد وهو خدمة المصلحة الأمريكية.

ثالثاً: النشاطات الإعلامية، وأبرزها ما يلي:

١- إجراء اللقاءات التلفزيونية والصحفية، ولم يعد هذا الأمر منحصراً في الإعلام الأمريكي بل امتد إلى وسائل الإعلام في العالم الإسلامي، فعلى سبيل المثال شارك باحثو «مركز كارنيغي الشرق الأوسط» ببيروت في مئاتٍ من المقابلات الإعلامية كمحللين ومعلقين[4].

٢- عقد المؤتمرات واللقاءات، لمناقشة أوضاع العالم الإسلامي أو ما يسمونه بالشرق الأوسط، وهذه الفعالية لا يكاد يخلو منها مركز بحثي أمريكي.

٣- الإفادة من شبكة الانترنت، حيث لا تكاد تجد مركز أبحاث أمريكي إلا وله موقع على شبكة الإنترنت، بل إن بعضها أضاف اللغة العربية إلى موقعه؛ مثل مؤسسة كارنيغي، وبروكنجز، ومعهد واشنطن لسياسة الشرق الأدنى، وموقع نشرة الإصلاح العربي «صدى» التابع لمركز كارنيغي،

---

(١) ومن أمثلة التقارير في هذا الجانب: تقرير «إسلام حضاري ديمقراطي/ شركاء وموارد واستراتيجيات، مؤسسة راند، ٢٠٠٣م»، وتقرير«العالم بعد ١١ سبتمبر، مؤسسة راند، ٢٠٠٤م»، وتقرير «بناء شبكات مسلمة معتدلة، مؤسسة راند ٢٠٠٧م».

(٢) ومن أمثلة التقارير في هذا الجانب: تقرير «العراق وجيرانه والولايات المتحدة، معهد الولايات المتحدة للسلام، ٢٠٠١م.»، وتقرير «كيفية بناء عراق جديد بعد صدام، معهد واشنطن لسياسة الشرق الأدنى، ٢٠٠٢م»، وتقرير «السعودية، مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية، ٢٠٠٩م»، وتقرير «الحرية الدينية في مصر، مؤسسة هيريتاج، ٢٠١٠م».

(٣) ومن أمثلة التقارير في هذا الجانب: تقرير«الثورة العربية الجديدة، مجلس العلاقات الخارجية، ٢٠١١م»، وتقرير «بين الاحتجاجات والسلطة/ تغيير الشرق الأوسط ومصالح الولايات المتحدة، معهد واشنطن لسياسة الشرق الأدنى، ٢٠١١م»، وتقرير «الأزهر في حقبة ما بعد الثورة، مؤسسة كارنيغي، ٢٠١١م»، وتقرير «الصحوة العربية/ أمريكا والتحول في الشرق الأوسط، مؤسسة بروكنجز، ٢٠١١م».

(٤) يُنظر: موقع مؤسسة كارنيغي على شبكة الانترنت: *carnegieendowment.org*

وكذلك موقع «الفترة الانتقالية» المهتم فقط بالانتخابات المصرية بعد سقوط نظام حسني مبارك، وهو أيضاً يتبع لمؤسسة كارنيغي.

وبعد، فمن خلال ما مضى في المطلبين السابقين يمكن أن نستنتج ما يلي:

أولاً: أن نشأة مراكز الفكر والبحوث الأمريكية كان متزامناً إلى حد كبير مع نشأة وتطور الولايات المتحدة الأمريكية.

ثانياً: أن عوامل مثل نتائج الحرب العالمية الثانية وسقوط الاتحاد السوفيتي وأحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م ساعدت إلى حد كبير في تطور وازدهار مراكز الفكر والبحوث الأمريكية.

ثالثاً: أن مراكز البحوث الأمريكية تفوق في تأثيرها العملي مراكز الاستشراق التقليدية، نظراً لقرب الأولى من مركز صناعة القرار الأمريكي.

رابعاً: أن مراكز البحوث الأمريكية ومراكز الاستشراق التقليدية تتفق في النظرة السلبية للعالم الإسلامي، وتتفق كذلك في سعيها لخدمة المصلحة الأمريكية.

خامساً: أن مراكز البحوث الأمريكية تعتبر أداة (شبه خفية) من أدوات الحرب الفكرية التي تشنها أمريكا بعد ١١ سبتمبر على العالم الإسلامي.

سادساً: أن نشاطات مراكز البحوث الأمريكية تطورت وتنوعت تجاه العالم الإسلامي بعد ١١ سبتمر، حتى وصلت إلى افتتاح فروع لها في العالم الإسلامي، وتدشين مواقع لها في الانترنت باللغة العربية، وإصدار بعض التقارير والأبحاث باللغة العربية، وإقامة المؤتمرات والمنتديات، إلى غير ذلك من صور الحراك المباشر لها في العالم الإسلامي.

المبحث الثالث

نبذة عن نشأة الصوفية وتطورها

مدخل:

يُعد لفظ التصوف من أكثر الألفاظ التي اختلفت حوله الآراء وتباينت، سواءً فيما يتعلق بأصله واشتقاقه، أو في حدِّه ومعناه، وكذا في نشأته ومصادره، وأما ما يتعلق به كفكرة متكاملة تعالج طبيعة العلاقة بين المخلوق والخالق -سبحانه وتعالى- فإن له بناءه الواضح ومعالمه التي تميزه، إذ إن له مراجعه المكتوبة وشخوصه المعلومة، وهذا ما يدعوني في هذا المبحث -وفيما سيأتي أيضاً بين ثنايا هذا البحث- إلى الحديث عن التصوف بشيء من التفصيل، وذلك بغية الوقوف على حقيقة التصوف مهما اختلفت حوله الآراء، فالحقيقة هي غاية ما يرجوه الباحث، ومن الله أستمد العون على ذلك.

المطلب الأول : اشتقاق لفظ التصوف

تعددت أراء الباحثين والمتصوفة أنفسهم في أصل اشتقاق لفظ التصوف، ولا يزالون مختلفين إلى يومنا هذا، ولذلك سأعود إلى كتب المتقدمين من المتصوفة لتلمُّس بعض تلك الآراء حول اشتقاق لفظ التصوف.

يقول أبو نصر السرَّاج[1] في كتابه «اللُّمع» والذي يُعد أول المراجع في التصوف[2]: «وقد قيل: كان في الأصل «صفوي» فاستُثقِل ذلك فقيل:

---

(١) هو عبدالله بن علي بن محمد بن يحي، أبو نصر السراج الطوسي الصوفي، مصنِّف كتاب «اللمع» في التصوف، قال السُّلمي :«كان أبو نصر من أولاد الزهاد، وكان المنظور إليه في ناحيته في الفتوَّة ولسان القوم، مع الاستظهار بعلم الشريعة، وهو بقية مشايخهم اليوم»، توفي سنة ٣٧٨هـ. يُنظر: الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: بشار معروف، دار الغرب الإسلامي-بيروت، ط١، ٢٠٠٣م، ٨/ ٤٥٢

(٢) يقول محققا كتاب اللُّمع، وهما شيخ الأزهر سابقاً عبدالحليم محمود وطه عبدالباقي في مقدمته: «وإننا ليسعدنا اليوم أن نقدم لقرائنا في العالمين العربي والإسلامي أكبر موسوعة صوفية عرفها التاريخ. نقدم كتاب «اللُّمع» لأبي نصر السرَّاج الطوسي، أعظم مؤرخ صوفي في تاريخنا قديمه وحديثه». أبو نصر السراج الطوسي، اللمع، تحقيق: د.عبدالحليم محمود، وطه عبدالباقي سرور، دار الكتب الحديثة بمصر، ط بدون، ١٣٨٠هـ-١٩٦٠م، ص٤

صوفي. وسئل أبو الحسن القناد رحمه الله عن معنى الصوفي فقال: مأخوذ من الصفاء وهو القيام لله عز وجل في كل وقت بشرط الوفاء..

وسئل آخر عن معنى الصوفي فقال: معناه أن العبد إذا تحقق بالعبودية وصافاه الحق حتى صفا من كدر البشرية نزل منازل الحقيقة وقارن أحكام الشريعة، فإذا فعل ذلك فهو صوفيٌّ، لأنه قد صُوفي»[1].

«وقال القناد -رحمه الله-: التصوف اسم قد وقع على ظاهر اللبسة، وهم متفاوتون في معانيهم وأحوالهم.

وسئل الشِبلي رحمه الله: لِمَ سُمِّيت الصوفية بهذا الاسم؟ فقال: لبُقيا بقيت عليهم من نفوسهم، ولولا ذلك لما لاقت بهم الأسماء، ولا تعلقت بهم.

وقد قيل أيضاً: إن الصوفية هم بقية من بقايا أهل الصُّفة.

وأما من قال: إنه اسم واقع على ظاهر اللبسة فقد روي في ذلك أخبار في ذكر من لبس الصوف، واختار لبسه من الأنبياء والصالحين وذكره يطول»[2].

وأما تلميذه القشيري (ت ٤٦٥هـ) فقد قال في رسالته: «وليس يشهد لهذا الاسم من حيث العربية قياس ولا اشتقاق. والأظهر فيه: أنه كاللقب، فأما قول من قال: إنه الصوف، ولهذا يقال: تصوف إذا لبس الصوف كما يقال: تقمص إذا لبس القميص، فذلك وجه. ولكن القوم لم يخصوا بلبس: الصوف.

ومن قال: إنهم منسوبون إلى صُفة مسجد رسول الله ﷺ ، فالنسبة إلى الصُّفة لا تجئ على النحو الصوفي.

ومن قال: إنه مشتق من الصفا، فاشتقاق الصوفي من الصفا بعيدٌ في مقتضى اللغة.

وقول من قال: إنه مشتق من الصف، فكأنهم في الصف الأول بقلوبهم فالمعنى صحيح، ولكن اللغة لا تقتضي هذه النسبة إلى الصف.

---

(١) أبو نصر السراج، اللمع، ص٤٦-٤٧

(٢) المرجع نفسه، ص٤٧

ثم إن هذه الطائفة أشهر من أن يحتاج في تعيينهم إلى قياس لفظ واستحقاق اشتقاق»[1].

وقد رجح شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- النسبة إلى لباس الصوف، وقال في ذلك: «واسم «الصوفية» هو نسبة إلى لباس الصوف؛ هذا هو الصحيح، وقد قيل إنه نسبة إلى صفوة الفقهاء، وقيل إلى صوفة بن أد بن طانجة قبيلة من العرب كانوا يُعرفون بالنسك، وقيل إلى أهل الصفة، وقيل إلى الصفا، وقيل إلى الصفوة وقيل إلى الصف المقدم بين يدي الله تعالى، وهذه أقوال ضعيفة، فإنه لو كان كذلك لقيل صفي أو صفائي أو صفوي أو صفي، ولم يقل صوفي»[2].

وقال أيضاً -رحمه الله-: «أما لفظ «الصوفية» فإنه لم يكن مشهوراً في القرون الثلاثة، وإنما اشتهر التكلم به بعد ذلك»[3].

والخلاصة، أن الأقوال في اشتقاق لفظ «التصوف» متعددة، وبالرغم من ترجيح القشيري -وهو من متقدمي المتصوفة- أن التصوف كاللقب؛ لا قياس له ولا اشتقاق، إلا أن تعدد الآراء حول اشتقاق «التصوف» لا زالت حاضرة إلى يومنا هذا، ولم يُتفق فيها على رأي واحد!.

المطلب الثاني : تعريف التصوف

تعددت آراء المتصوفة أيضاً في تحديد ماهية التصوف، كما هو الحال سابقاً في اشتقاق لفظ التصوف! يقول شهاب الدين السهروردي: «وأقوال المشايخ في ماهية التصوف تزيد على ألف قول»[4]، بل إن بعضهم أوصلها إلى قرابة الألفي تعريف[5]، وسأذكر فيما يلي بعضاً من تلك التعريفات

---

(١) أبو القاسم عبدالكريم القشيري، الرسالة القشيرية، تحقيق: د. عبدالحليم محمود، ود. محمود بن الشريف، دار المعارف-القاهرة، ط بدون، ت بدون، ٢/ ٤٤٠

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع وترتيب: عبدالرحمن بن قاسم، دار عالم الكتب-الرياض، ط بدون، ١٤١٢هـ-١٩٩١م، ١١/ ١٩٥

(٣) المرجع نفسه، ص٥

(٤) شهاب الدين السهروردي، عوارف المعارف، المكتبة العلامية-القاهرة، ط بدون، ١٣٥٨هـ-١٩٣٩م، ص٤٤

(٥) يُنظر: إحسان إلهي ظهير، التصوف المنشأ والمصدر، إدارة ترجمان السنة -باكستان، ط١، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م، ص٣٧

مقتصراً على النقل من كتابي «اللُّمع» للطوسي، و«الرسالة» للقشيري، باعتبار أنهما من أبرز المراجع في التصوف إلى يومنا هذا، وأنهما أيضاً ممن عاصر التصوف في مراحله الأولى.

يقول الطوسي في كتابه «اللمع»: «فأما التصوف ونعته وماهيته فقد سُئل محمد بن علي القصاب، وهو أستاذ الجنيد رحمه الله عن التصوف: ما هو؟ قال أخلاق كريمة ظهرت في زمان كريم من رجل كريم مع قوم كرام.

وسُئل الجنيد رحمه الله عن التصوف، فقال: أن تكون مع الله تعالى بلا علاقة.

وسُئل رويم بن أحمد رحمه الله عن التصوف، فقال: أن لا تملك شيئاً ولا يملكك شيء.

وسُئل أبو محمد الجريري رحمه الله عن التصوف، فقال: الدخول في كل خُلق سَني والخروج من كل خلق دني.

وسئل عمرو بن عثمان المكي رحمه الله عن التصوف، فقال: أن يكون العبد في كل وقت بما هو أولى في ذلك الوقت.

وسُئل علي بن عبدالرحيم القناد رحمه الله عن التصوف، فقال: نشر مقام واتصال بدوام..»[1].

وبعد أن ساق الطوسي أقوالاً أخرى -غير هذه- قال: «وقد أجاب عن التصوف: ما هو؟ جماعة بأجوبة مختلفة، منهم إبراهيم بن المولد الرقي، قد أجاب عنها بأكثر من مائة جواب، وفيما ذكرناه كفاية»[2].

وأما عن الصوفية فقال الطوسي: «قيل لعبد الواحد بن زيد..: من الصوفية عندك؟ فقال: القائمون بعقولهم على همومهم والعاكفون عليها بقلوبهم، والمعتصمون بسيدهم من شر نفوسهم، هم الصوفية.

وسُئل ذو النون المصري رحمه الله عن الصوفي، فقال: هو الذي لا يُتعبه طلب ولا يزعجه سلب، وقال أيضاً: هم قوم آثروا الله تعالى على كل شيء فآثرهم الله على كل شيء..

---

(١) أبو نصر السراج الطوسي، اللمع، ص٤٥

(٢) المرجع نفسه، ص٤٧

وسُئل الجنيد بن محمد رحمه الله عن الصوفية، من هم؟ فقال: أثرة الله في خلقه يخفيها إذا أحب ويظهرها إذا أحب.

وقيل لأبي الحسين أحمد بن محمد النوري رحمه الله: من الصوفي؟ فقال: من سمع السماع وآثر بالأسباب..»[1].

وهكذا سار القشيري في رسالته على نهج الطوسي، فقد نقل بعض هذه المقولات عن الطوسي، وزاد عليها غيرها، سواءٌ فيما يتعلق بمعنى التصوف أو الصوفية[2]، وعلق على كثرة معانيهما بقوله: «وتكلم الناس في التصوف: ما معناه؟ وفي الصوفي: من هو؟، فكلٌ عبَّر بما وقع له»[3].

وهكذا حال المتصوفة في تعريف التصوف والمتصوفة إلى يومنا هذا، لم يتفقوا على معنى واحد يُعبَّر به عن حقيقة التصوف والمتصوفة، بالرغم من أن التصانيف في شأن التصوف تترا منذ الطوسي وحتى يومنا هذا!

وثمة أمرٌ جدير بالملاحظة هنا؛ وهو أن المتصوفة يميزون في تعريفاتهم الكثيرة بين التصوف والصوفي -كما هو ملاحظ مما نقلته آنفاً من كلام الطوسي-، مع أن مقتضى العقل أن المتلبس بفكرة أو دين ينسب إليهما دونما الحاجة إلى تعريفه بجزء من تلك الفكرة أو ذلك الدين، كأن نعرِّف المسلم بأنه الذي يصلي بخشوع! فهذا وإن كان صحيحاً إلا أنه لا يعبر عن حقيقة المسلم المتبع لدين الإسلام، والذي كان يغنينا -مثلاً- أن نقول بكل بساطة: المسلم هو المتبع لدين الإسلام؛ فمقتضى العقل -والحالة هذه- أن نقول أن الصوفي هو المتبع لنهج التصوف أو لعقائد التصوف، أو نحو هذا.

ومن هنا، فهذا التفريق -في التعريف- بين التصوف والصوفي لم يُضف إلى التصوف إلا مزيداً من الغموض والتشتيت، حتى حادَ التصوف عن جادة الطريق، ودخل فيه ما ليس منه، وبات في أحسن أحواله -على مرِّ القرون- متلبساً بالبدع والخرافات، وسيأتي مزيد بيان لهذا الأمر في الفصل الثاني إن شاء الله.

---

(١) المرجع نفسه، ص٤٥-٤٦

(٢) يُنظر: أبو القاسم القشيري، الرسالة القشيرية، ص٤٤٠-٤٤٤

(٣) المرجع نفسه: ص٤٤٠

وقبل الانتهاء من هذا المطلب حاولت جاهداً الوقوف على تعريف يتناسب وحال التصوف قديماً وحديثاً فوجدت أنَّ أجمع تعريف هو تعريف الموسوعة الميسرة في الأديان، حيث عُرِّف التصوف فيها بأنه: «حركة دينية انتشرت في العالم الإسلامي في القرن الثالث الهجري كنزعات فردية تدعو إلى الزهد وشدة العبادة وتعبيراً عن فعل مضاد للانغماس في الترف الحضاري، ثم تطورت النزعات بعد ذلك حتى صارت طرقاً مميزة معروفة باسم الصوفية، ويتوخى المتصوفة تربية النفس، والسمو بها بغية الوصول إلى معرفة الله تعالى بالكشف والمشاهدة لا عن طريق اتباع الوسائل الشرعية، ولذا جنحوا في المسار حتى تداخلت طريقتهم مع الفلسفات الوثنية: الهندية والفارسية واليونانية المختلفة»[1].

ثم تضيف الموسوعة: «ويلاحظ أن هناك فروقاً جوهرية بين مفهومي الزهد والتصوف، أهمها: أن الزهد مأمور به، والتصوف جنوح عن الطريق الحق الذي اختطَّه أهل السنة والجماعة»[2].

وبعد، فإن هذا الاختلاف في الآراء سواء في أصل الاشتقاق أو في التعريف بالتصوف لا يؤثر في إدراك حقيقة التصوف؛ لأن حقيقته -كفكرة ومذهب- معلومة مرقومة في مراجع كبار المتصوفة الأقدمين والمعاصرين، والمقصود من النظر في أصل الاشتقاق والتعريف والنشأة -كما سيأتي- إنما هو لمحاولة فهم وتفسير حقيقية التصوف، وفصلها عن أحوال المتصوفة، إذ إن الخلط بين أحوال المتصوفة وحقيقة التصوف أدى إلى الاختلاف حتى في تقييم التصوف ذاته؛ ما بين قادح ومادح، ومعلوم أن الحكم على أيّ فكرة يأتي بالنظر إليها لا بالنظر إلى أتباعها؛ لأن الأتباع منهم من يكون متحققاً بها بالكُليَّة، ومنهم من يكون آخذاً ببعضها فقط، ومنهم من ليس له منها إلا الاسم فقط، وهكذا.

ولعل ما سيأتي من مطالب ومباحث سيجلي الصورة- بإذن الله- عن حقيقية التصوف، ولماذا اختلفت آراء الكثيرين حول تقييم التصوف. وبالله التوفيق.

---

(١) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، دار الندوة العالمية للطباعة والنشر، ط٥، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م، ص٢٤٩

(٢) المرجع نفسه، ص٢٤٩

المطلب الثالث: نشأة التصوف ومصادره

وصف ابن الجوزي بإسهاب في كتابه «تلبيس إبليس» تطور فكرة التصوف وتدرجها من إعجابٍ بالزهد إلى إيغالٍ في البدع والخرافات؛ بلغت في بعضها حدَّ الكفر، والعياذ بالله. وقد اخترت من وصفه -رحمه الله- قوله: «والتصوف طريقة كان ابتداؤها الزهد الكلي ثم ترخص المنتسبون إليها بالسماع والرقص فمال إليهم طلاب الآخرة من العوام لما يظهرونه من التزهد، ومال إليهم طلاب الدنيا لما يرون عندهم من الراحة واللعب»[1].

وقال أيضاً: «كانت النسبة في زمن رسول الله ﷺ إلى الإيمان والإسلام، فيقال مسلم ومؤمن، ثم حدث اسم زاهد وعابد، ثم نشأ أقوام تعلقوا بالزهد والتعبد فتخلوا عن الدنيا وانقطعوا إلى العبادة واتخذوا في ذلك طريقة تفردوا بها، وأخلاقاً تخلقوا بها..»[2].

ثم وصف لفظ «التصوف» قائلاً: «وهذا الاسم ظهر للقوم قبل سنة مائتين ولما أظهره أوائلهم تكلموا فيه وعبروا عن صفته بعبارات كثيرة وحاصلها أن التصوف عندهم رياضة النفس، ومجاهدة الطبع برده عن الأخلاق الرذيلة، وحمله على الأخلاق الجميلة من الزهد والحلم والصبر والإخلاص والصدق إلى غير ذلك من الخصال الحسنة التي تكسب المدائح في الدنيا والثواب في الأخرى... وعلى هذا كان أوائل القوم فلبَّس إبليس عليهم في أشياء ثم لبَّس على من بعدهم من تابعيهم، فكلما مضى قرن زاد طمعه في القرن الثاني فزاد تلبيسه عليهم إلى أن تمكن من المتأخرين غاية التمكين، وكان أصل تلبيسه عليهم أنه صدهم عن العلم وأراهم أن المقصود العمل، فلما أطفأ مصباح العلم عندهم تخبطوا في الظلمات»[3].

ثم ذكر ابن الجوزي صوراً كثيرة لتلك الظلمات التي وقعوا فيها، فقال: «فمنهم من أراه أن المقصود من ذلك ترك الدنيا في الجملة،

---

(١) ابن الجوزي، تلبيس إبليس، مؤسسة الكتب الثقافية -بيروت، ط٢، ١٤١٣هـ-١٩٩٢م، ص١٤٥

(٢) المرجع نفسه، ص١٤٥

(٣) المرجع نفسه، ص١٤٧

فرفضوا ما يُصلح أبدانهم وشبهوا المال بالعقارب، ونسوا أنه خلق للمصالح، وبالغوا في الحمل على النفوس، حتى أنه كان فيهم من لا يضطجع.. ثم جاء أقوام فتكلموا لهم في الجوع والفقر والوساوس والخطرات وصنفوا في ذلك كالحارث المحاسبي، وجاء آخرون فهذبوا مذهب التصوف وأفردوه بصفات ميزوه بها من الاختصاص بالمرقعة والسماع والوجد والرقص والتصفيق وتميزوا بزيادة النظافة والطهارة، ثم ما زال الأمر ينمي والأشياخ يضعون لهم أوضاعاً ويتكلمون بواقعاتهم. ويتفق بُعْدُهم عن العلماء لا بل رؤيتهم ما هم فيه أو في العلوم حتى سموه علم الباطن، وجعلوا علم الشريعة: العلم الظاهر، ومنهم من خرج به الجوع إلى الخيالات الفاسدة فادعى عشق الحق والهيمان فيه، فكأنهم تخايلوا شخصاً مستحسن الصورة فهاموا به، وهؤلاء بين الكفر والبدعة، ثم تشعبت بأقوام منهم الطرق، ففسدت عقائدهم، فمن هؤلاء من قال بالحلول، ومنهم من قال بالاتحاد.. وصنف لهم أبو السراج كتاباً أسماه لمع الصوفية ذكر فيه من الاعتقاد القبيح والكلام المرذول ما سنذكره إن شاء الله تعالى، وصنف لهم أبو طالب المكي قوت القلوب فذكر فيه الأحاديث الباطلة وما لا يستند فيه إلى أصل من صلوات الأيام والليالي، وغير ذلك من الموضوع وذكر فيه الاعتقاد الفاسد، وردد فيه قول «قال بعض المكاشفين»، وهذا كلام فارغ وذكر فيه عن بعض الصوفية أن الله عز وجل يتجلى في الدنيا لأوليائه.. وجاء أبو نعيم الأصبهاني فصنف لهم كتاب الحلية، وذكر في حدود التصوف أشياء منكرة قبيحة ولم يستح أن يذكر في الصوفية أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً وسادات الصحابة رضي الله عنهم،.. وصنف لهم عبدالكريم بن هوازن القشيري كتاب الرسالة فذكر فيها العجائب من الكلام في الفناء والبقاء والقبض والبسط والوقت والحال والوجد والتجلي والمحاضرة والمكاشفة.. إلى غير ذلك من التخليط الذي ليس بشيء وتفسيره أعجب منه، وجاء محمد بن طاهر المقدسي فصنف لهم صفوة التصوف فذكر فيه أشياء يستحي العاقل من ذكرها،.. وقد كان

أوائل الصوفية ينفرون من السلاطين والأمراء فصاروا أصدقاء»[1].

والتساؤل الذي يتبادر إلى الذهن -بعد التأمل في كلام ابن الجوزي- هو: من أين جاء القوم بهذه المعتقدات والسلوكيات حتى إنهم جمعوها في مصنفات كلمع الطوسي ورسالة القشيري وحلية الأصبهاني وغيرها؟

لقد انبرى للتنقيب عن جواب هذا التساؤل الكثير من علماء الإسلام وباحثيهم، وقد وقع أيضاً الخلاف بينهم في نشأة ومصدر عقائد التصوف، كما هو الحال في حَدِّه واشتقاقه، فمِنْ قائل أن التصوف إسلاميٌ بحتٌ في شكله ومضمونه، ومِنْ قائل ألاَّ علاقة له بالإسلام البتة، وبين هذين القولين أقوال أخرى أعرضت عنها رغبة في الاختصار وطلباً للفائدة؛ والفائدة هنا تكمن في الوقوف قليلاً عند سبب منشأ هذا الخلاف؛ وهو وجود تشابه كبير لا تكاد تخطئه عين الباحث بين عقائد التصوف وعقائد وفلسفات الأمم الأخرى؛ كالهندية والفارسية واليونانية وغيرها، فكانت عند كثير من الباحثين بمثابة المصادر التي تأثر بها الصوفية، خاصة بعد انتشار رقعة الإسلام شرقاً وغرباً ودخول غير العرب في الإسلام، وكانت عند آخرين مجرد تشابه فقط، وهكذا.

وفي هذا يقول أحمد أمين: «ضاع استقلال الفرس بالفتح الإسلامي كما أسلفنا، وأصبحت ولاية إسلامية، ووقع كثير من الفرس في أيدي العرب أسرى، واستُرق بعضهم ووزِّع على العرب، ودخل كثير من الفرس في الإسلام، وتعلم كثير منهم العربية، حتى كان منهم في الجيل الثاني، من يتكلم العربية كأحد أبنائها؛ ولكنهم برغم هذا كله لم يصبحوا في جملتهم كالعرب في عقيدتهم، ولا كالعرب في مطامعهم وطموحهم ونزعاتهم، ولا كالعرب في عقليتهم، بل اعتنقوا الإسلام وصبغوه بالفارسية، ولم يتجردوا من كل عقائد الدين القديم وتقاليده، ففهموا الإسلام بالقدر الذي يسمح به دين قديم اعتنقه قومه أجيالاً، ونشأ فيه ناشئهم وشب عليه؛ كذلك تعلم كثير منهم العربية، ولكن لم يترك خياله الفارسي، ولم ينس ما كان لقومه من شعر ومثل وحكمه. كان من أثر ذلك طبيعياً أن تدخل تعاليم في

---

(١) المرجع نفسه، ص١٤٧-١٤٩، -بتصرف يسير-.

الإسلام جديدة، ونزعات دينية جديدة، ظهر أثرها فيما بعد، وأظهرها في الإسلام التشيع والتصوف»[1].

ويقول إحسان إلهي ظهير[2]: «عندما نتعمق في تعاليم الصوفية الأوائل والأواخر، وأقاويلهم المنقولة منهم، والمأثورة في كتب الصوفية، القديمة والحديثة نفسها، نرى بوناً شاسعاً بينهما وبين تعاليم القرآن والسنة، وكذلك لا نرى جذورها وبذورها في سيرة سيد الخلق محمد صلوات الله وسلامه عليه وأصحابه الكرام البررة خيار خلق الله وصفوة الكون، بل بعكس ذلك نراها مأخوذة مقتبسة من الرهبنة المسيحية، والبرهمة الهندوكية، وتنسك اليهود، وزهد البوذية، والفكر الشعوبي الإيراني المجوسي عند الأوائل، والغنوصية اليونانية والأفلاطونية الحديثة لدى من جاءوا بعدهم»[3].

ورغبة في الاختصار سأكتفي هنا بإيراد بعض أحوال وسلوكيات المتصوفة والتي لها ما يماثلها في عقائد وفلسفات الأمم الأخرى:

أولاً: التزام المتصوفة لبس الصوف وجعله شعاراً وعلامة لهم، وهذا مأخوذ من رهبنة المسيحية، حيث كان زي الرهبان[4].

ثانياً: اتخاذهم الخانقاوات والتكايا والزوايا، وانعزالهم عن الدنيا، وهي كذلك مأخوذة من الرهبنة المسيحية، وهي تشبه تماماً أديرة الرهبان النصارى ذات الأسوار العالية البعيدة عن عالم الناس والعمران؛ هروباً -كما يزعمون- من الترف المادي إلى الترف الروحي[5].

ثالثاً: استعمالهم لمصطلحات روجوها بين الناس، ولا يشك أحد في

---

(١) أحمد أمين، فجر الإسلام، دار الكتاب العربي-بيروت، ط١٠، ١٩٦٩م، ص٩٨.

(٢) كان الشيخ إحسان إلهي ظهير من المتخصصين في كشف حقيقة التصوف والتشيع، فاستُهدف عام ١٤٠٧هـ بقنبلة دُسَّت في مزهرية وُضعت أمامه أثناء إلقائه إحدى المحاضرات بندوة للعلماء في مدينة لاهور، فأصيب بإصابات بالغة، أدَّت إلى وفاته بعد أيام في مشفىً بالرياض، فرحمه الله، وأسكنه الفردوس الأعلى.

(٣) إحسان إلهي ظهير، التصوف المنشأ والمصدر، مرجع سابق، ص٥٠

(٤) يُنظر: المرجع نفسه، ص٨٠-٨٥، وقد ذكر الشيخ إحسان نقولاتٍ كثيرة عن المتصوفة، وبعض علماء السلف، والمستشرقين حول وجه الشَّبه هذا وما يليه من أوجه.

(٥) يُنظر: المرجع نفسه، ص٨٥-٩٢

كونها أجنبية عن الإسلام وعن لغة القرآن، بل هي مقتبسة من المسيحية بحروفها وألفاظها، ومعانيها ومدلولاتها، مثل: ناموس، رحموت، رهبوت، لاهوت، جبروت، روحاني، نفساني، جثماني، شعشعاني، وحدانية، فردانية، كيفوفية، وغيرها[1].

رابعاً: أن كثيراً من تعاليم التصوف وفلسفته وأوراده وأذكاره وطرق الوصول إلى المعرفة المؤدية إلى الفناء-بزعمهم- مأخوذة ومستقاة من المذاهب الهندية والمانوية والزرادشتية والبوذية والجينية، وهذا ما يذكره كبار الكُتَّاب من المسلمين والمستشرقين عن التصوف، بل حتى بعض المتصوفة لا يتحرج من إثبات ذلك. ومن التعالم والفعال على سبيل المثال: تعذيب النفس، وتحمل المشاق، والتجويع، وحبس النفس، وإماتة الشهوات، والهروب عن الأهل والأولاد، والجلوس في الخلوات، وطرق الذكر، والتعري، والتسول، والفناء وهو الذي يشبه عقيدة بوذية تسمى سمادهي *Samadhi* وهذه آخر درجات الذاكر التي يُفني فيها ذاته في الذات الآلهية! وكذلك قضية وحدة الوجود؛ فهي مقتبسة بتمامها من «فيدانتا» الهندية[2].

خامساً: أخذ كثير من المتصوفة -وخاصة القائلون منهم بوحدة الوجود[3]- عن الأفلاطونية الحديثة نظريات عديدة كالفيض والمحبة والمعرفة والإشراق وغيرها[4]، وفي هذا يقول عبدالرحمن بدوي[5]: «إن هناك فصولاً منحولة لأفلاطون وسقراط وغيرهما من الفلاسفة اليونان

(١) يُنظر: المرجع نفسه، ص٩٣

(٢) يُنظر: المرجع نفسه، ص٩٧-١٢٠

(٣) سيأتي في المطلب التالي مزيد بيان عن وحدة الوجود.

(٤) يُنظر: المرجع نفسه، ص١٢٠-١٣٥

(٥) الدكتور عبدالرحمن بدوي (١٩١٧-٢٠٠٢م)، من أشهر الفلاسفة الوجوديين العرب، تعمَّق في دراسة التصوف لاعتقاده أنه الطريق الصحيح لنشر الوجودية التي كان يؤمن بها، وبالرغم من الافتراق بين التصوف والوجودية إلا أنه أوجد صلات دقيقة بينهما ليس هذا موضع بسطها، وقد رجع قبل وفاته بشهر واحد عن آرائه الإلحادية، بعد أن تقلب في إلحاد الفلسفة الوجودية عقوداً طويلة، فرحمه الله وغفر له. للمزيد يُنظر: عبدالخالق الغامدي، عبدالرحمن بدوي ومذهبه الفلسفي ومنهجه في دراسة المذاهب، مكتبة الرشد، ط١، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م، ص٦٥ و٥٦٧-٥٨٦

معظمها آداب وأقوال.. وكلها تتشابه في بعض آرائها مع الأقوال المنسوبة إلى كبار الصوفية المسلمين في كتب طبقات الصوفية المختلفة (القشيري، السلمي، الشعراني، الهروي، «طبقات الصوفية» للعطار، «نفحات الأنس لجامي، الخ الخ»[1].

سادساً: يُعد التَشيُّع من المصادر التي أخذ عنها المتصوفة بعض عقائدهم، مثل: نفي ختم النبوة، وأن الملائكة تتنزل على الأولياء كما الأنبياء، والمساواة بين النبي والولي، بل فضلوا الأولياء على الأنبياء والمرسلين! وادَّعوا لهم العصمة. وأيضاً لا يخفى من تاريخ التصوف أن بعض أوائل المتصوفة كانوا من أهل التشّيع، مثل: جابر بن حيان، وعبدك الصوفي[2].

وبعد، فيتضح مما سبق أن التصوف بات مذهباً وفكراً قائماً بذاته، صُنِّفت فيه المصنَّفات، كما بين ذلك ابن الجوزي -رحمه الله-، وكذلك تبين أنه بسبب وجود التشابه الكبير بين ما تضمَّنه التصوف وبين ما عند الأمم الأخرى من عقائد وفلسفات فقد ذهب الكثير من الباحثين إلى القول بأجنبية التصوف عن الإسلام، وهذا التشابه لا ينكره حتى المتصوفة أنفسهم. وسيأتي مزيد تفصيل لهذا الأمر في الفصل القادم، وبالله التوفيق.

(١) عبدالرحمن بدوي، تاريخ التصوف الإسلامي، وكالة المطبوعات- الكويت، ط٢، ١٩٧٨م، ص٤٢

(٢) يُنظر: المرجع نفسه، ص١٣٧-٢١٥

المطلب الرابع : مراحل تطور التصوف وأبرز طرقه المعاصرة

سيكون الحديث في هذا المطلب من خلال مسألتين؛ الأولى سأتناول فيها مراحل تطور التصوف، والثانية ستكون عن أبرز طرق التصوف المعاصرة. وذلك على النحو الآتي:

المسألة الأولى: مراحل تطور التصوف

لقد مر التصوف عبر قرونه العديدة بمراحل وأدوار حتى وصل إلينا في صورته اليوم على شكل طرق شتى؛ تنتشر عبر أرجاء العالم، بل تزداد وتتوالد دون توقف، ويمكن القول بأن التصوف منذ نشأته مرَّ بثلاث مراحل[1]، وتفصيلها على النحو الآتي:

المرحلة الأولى (النشأة الأولى)

وتشمل القرنين الأول والثاني من الهجرة؛ وشهدت هذه الفترة الزمنية ظهور عُبَّاد وزُهَّاد ونُسَّاك؛ كعامر بن عبدالله بن الزبير، وصفوان بن سليم، وطلق بن حبيب العنزي، والأسود بن يزيد بن قيس، وقد كانت السمة البارزة فيهم التمسك بالمنهج الرباني، والسير على نهج المصطفى ﷺ، عدا بعض المغالاة والتشدد الذي ظهر من البعض. ولم ينته القرن الثاني حتى شهد نوعاً آخر من الزهد نادى به جَمعٌ من خواص المسلمين في البصرة والكوفة ومصر والشام ونيسابور، وهذا الزهد انتهى بأصحابه إلى نوع من العبادات فيها تشدد وإسراف وغلو وإفراط، وبرزت ظاهرة اجتماعية منظمة في صوامع وَرُبطٍ لم يدع الإسلام إليها ولم يرغب فيها، فمهَّد هذا الأمر إلى بذر بذور التصوف في تلك الفترة، والتي بدأت طلائعه في الظهور؛ كالترهبن، والتشدد في العبادة، ومخالفة السنة في بعض الأمور، وهذا يمثل مرحلة انتقالية تطور فيها الزهد إلى التصوف، وأصبحت صورته واضحة عند أمثال: داود الطائي،

---

(١) سرتُ في تقسيم مراحل التصوف على ما ذهب إليه الدكتور محمد الجوير من جعلها ثلاث مراحل، وهناك من جعلها أربع؛ كالسيد محمد المقدي في كتابه «التيه الدلالي»، وبما أنه لا خلاف بين الجميع في أن التصوف تطور عبر القرون المتطاولة؛ فلا أثر لهذا الاختلاف في عدد المراحل، لأنه عائد إلى نظر الباحث واجتهاده في تمحيص تلك الأطوار.

وعبدالواحد بن زيد، ورابعة العدوية التي تعتبر أول من تَغنَّى بالحب والعشق الإلهي[1].

ويمكن القول بأن هذه المرحلة تعد النشأة الأولى لظهور التصوف فيما بعد، وذلك أن البعض قرن زهده بالمغالاة والتشدد في العبادة والسلوك.

يقول السيد محمد المقدي:«في هذه المرحلة كان زهداً عملياً مرتبطاً بالجانب العملي السلوكي مع صواب الاعتقاد جملة؛ فلا أثر للشطحات ولا للنظر الفلسفي ولا للسكر والصحو والمحو، فالناسك في هذه المرحلة كان يعتزل لأجل التعبد والارتباط بذكر الله، في مرحلة قادمة تطور هذا التعبد إلى خلوة لأجل تلقي خبر السماء!»[2]، وأضاف أيضاً:«وبالجملة فلا أثر للتصوف –بالمفهوم النهائي للتصوف- بل هو غلو في التعبد مع صحة اعتقاد من حيث الجملة»[3].

المرحلة الثانية:

وتشمل هذه المرحلة القرون: الثالث والرابع والخامس من الهجرة، وهي بلا شك امتدادٌ لأفكار المرحلة الأولى، ولكنها تميزت بعناية المتصوفة بالبحث والدراسة، حيث اتجهت أفكارهم للتعمق في دراسة النفس بكشف أسرارها، فأظهروا كلاما كالمقامات والأحوال والعشق والشوق والخوف والرجاء والحب والوجد والغيبة والحضور والفناء والبقاء، فعظُمت الشطحات الصوفية وظهر التفريق بين الحقيقة والشريعة، ودعاوى العلم اللَّدُنِّي، والتلقي من غير الشرع، واختلط التصوف بالفلسفة، واستعملت لغة الرموز والغموض، وظهرت ألفاظٌ تمهد لظهور الطرق؛ مثل قول بعضهم: عِلمُنا، مَذهبُنا، طريقتنا، أُصولنا..الخ[4].

---

(١) يُنظر: محمد بن أحمد الجوير، جهود علماء السلف في القرن السادس الهجري في الرد على الصوفية، مكتبة الرشد، ط١، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م، ص١٥١-١٥٨

(٢) محمد بن عبدالله المقدي، التيه الدلالي، بحث غير مطبوع، ت بدون، ص: ١٧، وقد حصلت على نسخة منه من المؤلف.

(٣) المرجع نفسه، ص: ١٨

(٤) يُنظر: محمد الجوير، جهود علماء السلف في القرن السادس الهجري في الرد على الصوفية، مرجع سابق، ص:١٥١-١٥٨

وفي هذا المرحلة أخذ المتصوفة يصنفون الكتب في التصوف، فصُنِّفت الكتب في أخبار الزهد والزهاد، وتكلَّم أصحابها عن الخطرات والوساوس، وخلطوا التصوف بعلم الكلام، حتى باتت العقيدة الأشعرية هي المعتمدة والمتبعة عند المتصوفة، وقد كان القشيري من أبرز المدافعين عن الأشاعرة وعن أبي الحسن الأشعري، ويظهر ذلك في كتابه «الشكاية»، وحينما ألف كتابه الشهير في التصوف «الرسالة» زعم فيه أن عقيدة أعلام التصوف هي عقيدة الأشاعرة[1].

وشهدت هذه المرحلة الزمنية أيضاً بزوغ فجر الطرق الصوفية في صورتها الأولى؛ كالملامتية، والطيفورية، والخرَّازية، والنورية، والحلاَّجية، والتي يزعم أصحابها أنها تقدم منهجاً إرشادياً للنفس والخلق من خلال تربية الشيخ للمريد، وفي هذه المرحلة أيضاً انتشرت المصطلحات الصوفية الغامضة المبهمة؛ كالغَيبة والحضور والسكر والصحو والجمع والفرق والفناء والبقاء، وغيرها. ومن أبرز رموز التصوف في هذه المرحلة: الحارث المحاسبي، وأبو يزيد البسطامي، والحلاج، وأبو نعيم الأصبهاني، والقشيري، وكذلك الغزالي؛ الذي تزعَّم مدرسة الكشف في هذه الحقبة من الزمن[2].

ومن هنا يمكن القول بأن القرن الثالث والرابع من الهجرة يمثلان طوراً مهماً من أطوار التصوف، وتتجلى تلك الأهمية في أمرين، أولهما: كثرة التصانيف في التصوف، والتي شُحنت بمصطلحاته وأحواله. وثانيهما: ارتباط التصوف بالعقيدة الأشعرية[3]. وأما القرن الخامس فيعد امتداداً لأفكار القرون التي سبقته.

المرحلة الثالثة:

وتشمل القرنين السادس والسابع من الهجرة وما بعدهما، وفي هذه المرحلة نَحَى التصوف منحىً خطيراً عندما مزج أفكاره بالفكر الفلسفي؛ فعبَّر المتصوفة عن أذواقهم الصوفية بالمصطلحات الفلسفية، وفي هذه

---

(١) يُنظر: عبدالرحمن المحمود، موقف ابن تيمية من الأشاعرة، طبعة الرشد الأولى ١٥-٩٥، ص٢/ ٥٩٢-٥٩٦

(٢) يُنظر: محمد الجوير، ص:١٥٨-١٦٥

(٣) سيأتي في الفصل القادم تفصيل مسألة ارتباط التصوف بالعقيدة الأشعرية.

المرحلة، وبالأخص في القرن السادس، وصل التصوف إلى ذروة تطوره؛ حتى لقد ابتلي به كثيرون من المنتسبين إلى السنة، وفي هذا القرن بدأ ظهور وانتشار الطرق الصوفية؛ حيث ظهرت الطرق: القادرية، والرفاعية، والسهروردية، ثم تتابع ظهورها في القرن السابع الهجري، فظهرت أيضاً الطرق: الشاذلية، والأحمدية، والبرهامية. وظهرت في فارس الطريقة الكبراوية، والششتية. وفي القرن الثامن، ظهرت الطريقتين النقشبندية والبكتاشية، وفيما بعد ظهرت الطريقة التجانية، إلى أن عمت الطرق الصوفية أرجاء العالم الإسلامي.

وكان لكثيرٍ من هذه الطرق الصوفية التأثير على مريديها عبر مجالس سماع ورقص، فيها أطرب الأصوات وألطف الرقص، وأغرى الأشعار الغرامية؛ وكل ذلك يجري تحت مسمى الذكر والعبادة!

ومن أبرز ملامح هذه هذه المرحلة، وبخاصة في القرن السابع منها، الانحرافات والكفريات التي نادى بها أصحابها؛ كالقول بوحدة الوجود(١)، والوحدة المطلقة(٢)، ولذا أُعتبِر هذا القرن قِمّة الانحراف الصوفي، ومن أبرز رموز التصوف فيه: السهروردي، وابن عربي الذي اكتملت على يده فكرة وحدة الوجود(٣)، وابن سبعين صاحب فكرة الوحدة المطلقة، وتابعهم بعض شعراء الفرس أمثال: فريد الدين العطار، وجلال الدين الرومي، وابن الفارض(٤).

---

(١) وحدة الوجود: عقيدة إلحادية هندية، قال بها أيضاً فلاسفة اليونان القدماء، وتقوم هذه المقولة على الوحدة الذاتية لجميع الأشياء، مع تعدد صورها في الظاهر، فكل شيء هو الله، واختلاف الموجودات هو اختلاف الصور والصفات مع توحد في الذات. تعالى الله عما يقولون علواً كبيرا. يُنظر: الموسوعة الميسرة في الأديان، ٢/١١٦٨.

(٢) الوحدة المطلقة هي فلسفة ابن سبعين للوجود، إذ يرى أنْ لا وجود في الكون إلا لله، وأن الموجودات فاضت عن الله! وهذه الفلسفة تفوق في ضلالها وانحرافها فلسفة وحدة الوجود. وللمزيد عن فلسفة الوحدة المطلقة عند ابن سبعين يُنظر: أبو الوفا الغنيمي التفتازاني، ابن سبعين وفلسفته الصوفية، دار الكتاب اللبناني-بيروت، ط١، ١٩٧٣م، ص١٩٨-٢٤٩، ومحمد ياسر شرف، فلسفة التصوف السبعيني، منشورات وزارة الثقافة السورية، ط١، ١٩٩٠م، ص١٠٩-١٢٠.

(٣) سيأتي في الفصل الأول مزيد بيانٍ عن منزلة وحدة الوجود في التصوف.

(٤) يُنظر: محمد الجوير، جهود علماء السلف في القرن السادس الهجري في الرد على الصوفية، ص١٦٥-١٧٠.

ومن هنا فقد عُدَّت هذه المرحلة من أخطر مراحل التصوف، وأما القرون التالية فما هي إلا تفريعاتٌ وشروحٌ لكتب رموز التصوف، كشرح الكاشاني لكتاب «فصوص الحكم» لابن عربي، و«الغاية الكبرى» لابن الفارض. وازد الاهتمام كذلك بالتصنيف في أعلام التصوف، وأشهر كتاب في ذلك «الطبقات الكبرى» للشعراني، وبعد ذلك اختلط الأمر على الصوفية وانتشرت الفوضى بينهم، وبدأت مرحلة الدراويش، وظهرت ألقاب جديدة؛ كشيخ السجادة[1]، وشيخ مشايخ الطريقة الصوفية، والخليفة، وعَمَّت الفوضى بين الشيوخ والمريدين، واستحال التصوف في بعض مظاهره إلى شيءٍ من الشعوذة والدجل[2].

من خلال ما سبق يتضح أن التصوف منقطع النسب إلى الرسول ﷺ، وإلى الصحابة الكرام ﵃، وأنه إنما بدأ بعدهم في ثوبٍ من الزهد الذي لم يَذمُّه أحد، والذي ما لبث أن تطور بعد ذلك إلى مقامات وأحوال باطلة، بل إلى عقائد باطلة يتعبدون بها، كما سيأتي بيان ذلك إن شاء الله.

المسألة الثانية: أبرز طرق التصوف المعاصرة

بما أن التصوف -كما مضى- اتخذ في طوره الثالث طرقاً متعددة يصعب حصرها، فسأورد فيما سيأتي أبرز طرق التصوف المشتهرة حالياً في العالم الإسلامي، مع الإشارة إلى أبرز بدع كل طريقة. وتحسن الإشارة قبل البدء إلى أمرين، هما:

الأول: أن بدع التصوف منها ما هو علمي يتصل بالعقيدة، ومنها ما هو عملي يتصل بالسلوك، وكذلك من بدعهم ما يصل إلى حد الكفر والشرك بالله -والعياذ بالله-، ومنها ما هو دون ذلك.

الثاني: أن مصادر التلقي الرئيسية عند أهل السنة والجماعة، كما هو معلوم، الكتاب والسنة، بينما في التصوف هناك ثلاثة مصادر أخرى رئيسية

---

(١) يُطلِق الصوفية لفظ السُّجادة على الطريقة، فيقولون -مثلاً-: شيخ السجادة الرفاعية، ويعنون بذلك شيخ الطريقة الرفاعية. ويُطلقون أيضاً لفظ السجادة على مَنْ يستقيمُ -بحسب تعبيرهم- على الشريعة والطريقة والحقيقة! يُنظر: عبدالمنعم الحفني، معجم مصطلحات الصوفية، دار المسيرة-بيروت، ط٢، ١٤٠٧هـ-١٩٧٨م، ص١٢٨

(٢) يُنظر: محمد الجوير، ص١٧١-١٧٦

للتلقي وهي: الكشف والذوق والوجد[1].

ويعنون بالكشف: «الاطلاع على ما وراء الحجاب من المعاني الغيبية، والأمور الحقيقية، وجوداً وشهوداً»[2].

ويعنون بالذوق: «نور عرفاني يقذفه الحق بتجَلِّيه في قلوب أوليائه، يفرقون به بين الحق والباطل من غير أن ينقلوا ذلك من كتاب أو غيره، وهو كالشراب، لكن الشراب لا يستعمل إلا في الراحات، والذوق يلائم الراحات والمتاعب، وأول التجليات الذوق، ثم الشرب»[3].

ويعنون بالوجد: «خشوع الروح عند مطالعة سر الحق، وقيل عجز الروح من احتمال غلبة الشوق عند وجود حلاوة الذكر، وقيل مصادفة الباطن من الله تعالى وارداً يورث فيه حزناً أو سروراً أو يغيره عن هيئته ويغيبه عن أوصافه بشهود الحق»[4].

يقول الباحث صادق سليم معلقاً على مصادر التلقي عند الصوفية: «وقد خالفت الصوفية بهذه المصادر كتاب الله سبحانه وتعالى وسنة الرسول ﷺ، وقدموها عليهما عند التعارض، مرتكبين لذلك مسالك التأويل، وممتطين مطايا الجدال بالباطل، حتى أفقد هذا الصنيع الثقة عن تصريحهم باتباع الكتاب والسنة في أقوالهم، وأن علمهم هذا -يعني التصوف- مقيد بالكتاب والسنة.. وقد بلغ الشطط ببعضهم مبلغاً ادعى معه الاستغناء عن التلقي من الكتاب والسنة، زعماً منه الأخذ عن الله تعالى إلهاماً، أو مناماً، أو بعروج روحه إليه -عز وجل-، أو يدعي سماع خطاب الله تعالى كما سمعه موسى بن عمران كليم الرحمن، أو يدعي أخذ الشريعة عن النبي ﷺ يقظة أو مناماً»[5]!!

(١) يُنظر: صادق سليم صادق، المصادر العامة للتلقي عند الصوفية/ عرضاً ونقداً، مكتبة الرشد، ط١، ١٤١٥هـ-١٩٩٤م، ص١٨٣

(٢) عبدالمنعم الحفني، معجم مصطلحات الصوفية، ص٢٢٥

(٣) المرجع نفسه، ص١٠٤، والشَراب في المصطلح الصوفي: العشق، والشُرْب: تلقّي الأرواح والأسرار الطاهرة لما يَرِد عليها من الكرامات. يُنظر: المرجع نفسه، ص١٤٠

(٤) المرجع نفسه، ص٢٦٤

(٥) يُنظر: صادق سليم صادق، المصادر العامة للتلقي عند الصوفية، مرجع سابق، ص١٨٣

وفيما يلي عرضٌ لأبرز طرق التصوف المعاصرة:

أولاً: الطريقة القادرية

تَنتسِب هذه الطريقة للشيخ عبدالقادر الجيلاني المتوفى سنة ٥٦١هـ وهو المؤسس لها، وقد كانت في أصلها تعتمد على الكتاب والسنة، حتى إن الجيلاني انتقد بعض البدع العملية مثل الأوراد والسماع والتوكل الصوفي والفقر، فامتاز -رحمه الله- بسلامة الاعتقاد والرد على أهل البدع، ولعل جَمعه بين التصوف والعلم الشرعي يرجع إلى أنه نشأ في أسرة علم وفضل، وإلى احتكاكه -بعد أن انتقل إلى بغداد- بالأجواء الصوفية وعدم ارتياحه في ذات الوقت إلى سلوك بعض فقهاء زمانه الذين كانت تحكمهم الأهواء والمنافع الشخصية والتكسُّب بالدين، مما جعله يسلك سبيل الصوفية مع سلامته من بدعهم؛ كالكشف والذوق والإلهام وغيرها[1].

أما أتباع الطريقة القادرية فقد ابتعدوا عن منهج شيخهم، ولم يتمسكوا بالكتاب والسنة، وربطوا بين العقائد الكلامية والتصوف، ونسبوا للجيلاني الكثير من الأقوال والكرامات التي فيها غلوٌّ كبير، وتصل إلى الشرك في الربوبية والألوهية؛ فنسبوا إليه قصائد شركية فيها دعوى الربوبية؛ كالقصيدة العينية التي تضمنت عبارات تدل على وحدة الوجود، وكذلك وِرْدُ الجلالة، ودعاء الجلالة، وفيهما أيضاً أسماء أعجمية يُدعى بحقها وعبارت تدل على وحدة الوجود. وقد صرح عبد الغني النابلسي من القادرية بعقيدة وحدة الوجود وملأ بها كتبه.

وللقادرية فروعٌ في اليمن والصومال والمغرب والسودان ومصر والهند، ومن أسماء فروعها: اليافعية، والنابلسية، والرومية، والعروسية[2].

ثانياً: الطريقة الشاذلية

تَنتسِب هذه الطريقة لأبي الحسن علي بن عبدالله المغربي الشاذلي، المتوفى سنة ٦٥٦هـ، وهو من كبار الصوفية وله أتباع كُثُر، وقد نزل

---

(١) يُنظر: سعيد بن مسفر القحطاني، الشيخ عبدالقادر الجيلاني وآراؤه الاعتقادية والصوفية، ط١، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م، ص٥١٦-٥١٨

(٢) يُنظر: عبدالله دجين السهلي، الطرق الصوفية/ نشأتها وعقائدها وآثارها، دار كنوز إشبيليا-الرياض، ط١، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م، ص٨٤-٨٥

الإسكندرية قادماً من تونس. وللشاذلي وِرْدٌ مشهور، اسمه «الحزب الكبير» أو «الورد الكامل»، وقد زعم أنه ما كَتَبَ فيه حرفٌ إلا بإذن من الله ورسوله!!، وأما أتباعه فقد وقعوا في الشرك بعبادتهم قبر الشاذلي، ولهم أدعية يتوسلون فيها بغير الله، والشاذلية يتّبعون في الاعتقاد مذهب الأشعرية الكلابية، ويدَّعون أن الأولياء يَعلَمون الغيب، ويدَّعون رؤية الله تعال في الدنيا، ويحث الشاذلية على اللباس الحسن وترك المرقع. وذهب بعض الباحثين إلى أن الطريقة الشاذلية هي أكثر الطرق انتشاراً، وأكثرها أتباعاً، وكثير من أعلام الصوفية المتأخرين يُنسَبون إلى الشاذلية. ومِنْ أسماء فروعها: الحصَّافية، والفيضية، والسالمية، وغيرها[1].

ثالثاً: الطريقة الرفاعية

تُنسَب الرفاعية إلى أحمد بن علي الرفاعي المغربي، المتوفى سنة ٥٧٨هـ بالعراق، وتسمى البطائحية نسبة للبطائح. وقد انتشر الشرك عند الرفاعية كغيرهم من الصوفية، حتى قال أحدهم -وهو الصيادي الرفاعي- عن قبر الرفاعي:

بيتان حَجَّ العارفون إليهما ... بيت الرسول وشِبلةُ ببطاح
أعني به المولى الرفاعي والذي ... خُلقت أنامله من الأرياح[2]

ووافق متأخرو الرفاعية أهل وحدة الوجود ودافعوا عنهم، وقد ورد عن الرفاعي أقوال في التزام السنة، وفضل العلم، والتزام حدود الشرع، ولكن لم يأخذ بها أتباعه. وقد اشتهر عن الرفاعية أحوال ومخاريق؛ مثل أكل الحيَّات، وملامسة النار، وإظهار الدم، وغير ذلك، ولم تُعرَف عنهم إلا بعد الغزو المغولي، وكلها حيل بَيَّن شيخ الإسلام ابن تيمية بطلانها في مناظرته لهم. ومن أسماء فروعها الرفاعية: البازية، والملكية، والحبيبية، وغيرها[3].

رابعاً: الطريقة النقشبندية

تُنسَب النقشبندية لمحمد بهاء الدين النقشبندي البخاري، المعروف بشاه نقشبند، المتوفى سنة ٧٩١هـ ويُصَّرح أتباعها بالشرك في الربوبية

(١) يُنظر: المرجع نفسه، ص٨٦-٨٨
(٢) المرجع نفسه، ص٨٩
(٣) يُنظر: المرجع نفسه، ص٩٠، و يُنظر: مجموع الفتاوى، ١١/ ٤٤٥-٤٧٥

والالوهية، ويقولون بوحدة الوجود، أو يميل إليها كثير منهم، ويقولون كغيرهم من الصوفية بالحقيقة المحمدية، وأن الولي يقول للشيء كُنْ فيكون! ويقولون بورؤية الله ومخاطبته في اليقظة، تعالى الله عمَّا يزعمون. وتتفق النقشبندية مع غيرها من الطرق في الخلوة والفقر، وغير ذلك من السلوكيات. وللنقشبندية فروع في الصين وتركيا، ومن أسماء فروعها: الصديقية، والخوجكانية[1].

خامساً: الطريقة الختمية

مؤسسها عثمان بن محمد أبو بكر الميرغني المحجوب ويلقب بالختم، أي خاتم الأولياء، ومنه اشتق اسم الطريقة، كما تسمى أيضاً بالطريقة الميرغنية، من أعلامها ابن المؤسس الحسن بن محمد عثمان، حيث أصبح شيخ الطريقة في السودان، وفاقت مكانته مكانت والده، وأسس قرية الختمية في شرق السودان كمركز للطائفة الختمية، وتوالى عليها أحفاد هذه الأسرة، وزعيم الختمية اليوم هو محمد عثمان بن علي الميرغني، زعيم الحزب الاتحادي الديمقراطي في السودان، والذي يضم بين صفوفه نصارى وعلمانيين وغيرهم من المحاربين للإسلام، وهو حزب معاد للإسلام ويرفض تحكيم الشريعة. وقد حظيت الختمية برعاية الدولة العثمانية، ولما قامت الحركة المهدية ساندت الختميةُ الدولة العثمانية ضدها، حتى هُزمت الختمية وفرَّ رئيسها آنذاك محمد عثمان سر الختم إلى مصر، ثم عاد صحبة الجيش الانجليزي في حملته لاستعمار السودان!

ولا تختلف الختمية عن باقي الطرق الصوفية في العقائد، وقد ذكر مؤسسها أنها خلاصة الطرق الأخرى، والغالب عليها الطريقة النقشبندية. ويعظم الختمية ابن عربي، ويقولون بوحدة الوجود، ويزعمون أن شيوخهم يُغيثون من يلتجئ بهم، ويزيلون الكربات، ويزعمون استمرار الوحي، وأن كل كتبهم من إملاء الرسول ﷺ، وأنهم تلقوا أسس طريقتهم عنه ﷺ، وقد تابعوا الرافضة في دعوى ولاية أهل البيت وسب الصحابة واتهامهم بكتم الولاية، لكنهم يثبتون ولاية الخلفاء الراشدين، حيث يعتبرون أنفسهم

---

(١) يُنظر: المرجع نفسه، ص٩١-٩٢

امتداداً لولاية أهل البيت، ولذلك يدعون للتقارب مع الرافضة ومناصرتهم والدعوة لهم. ومما اشتهر عنهم السحر واستخدام الجن، وتنتشر الطريقة الختمية في شمال السودان وشرقه وجنوب مصر والحجاز[1].

سادساً: الطريقة البكتاشية

تَنتسِب هذه الطريقة إلى خنكار الحاج محمد بكتاش الخرساني النيسابوري، وينسب خنكار نفسه إلى نسل على بن أبي طالب ﷺ. والطريقة البكتاشية طريقة صوفية شيعية الحقيقة والمنشأ، ومع ذلك فقد تربت وترعرعت في بلاد أهل السنة في تركيا ومصر. وبعد قرار إلغاء الطرق الصوفية في تركيا عام ١٩٢٥م، انتقل زعيمها آنذاك إلى ألبانيا، وبعد أن دخل البلاشفة ألبانيا عام ١٩٤٩م انتقلت إلى مصر، ومنذ ذلك الوقت أصبحت القاهرة المركز الرئيس لها بعد تركيا وألبانيا، وحظيت في مصر بعناية الخديوي إسماعيل وأسرته، ولها أوقاف شائعة في تركيا.

تحمل الطريقة البكتاشية عقائد رافضية ونصرانية، فيغلون في آل البيت، ويُحلّون علي بن أبي طالب ﷺ مكان عيسى ﷺ، ويحتفلون بما يُشبه العشاء الرباني عند النصارى. ويدعون أولياءهم، ويعترفون لديهم بخطاياهم ويغفرون لهم، ويقولون بوحدة الأديان، ويتهاونون في أداء الفرائض؛ كالصوم والصلاة والحج والزكاة والجهاد، ويستبيحون شرب الخمر، ولا يتحجب نساؤهم، ويوم ١٦ آب هو عيدهم الذي يستمر ثلاثة أيام، فيجتمعون فيه بالآلاف ويطوفون حول القبر المقدس في نوشهر بتركيا، ويقيمون الأذكار والرقصات الخاصة بهم التي يسمونها: الحضرة[2].

سابعاً: الطريقة التجانية

أسسها أبو العباس أحمد بن المختار التجاني المتوفى سنة ١٢٣٩هـ ويزعم كباقي مشايخ الصوفية الانتساب لآل البيت، وادَّعى أن أتباعه يدخلون الجنة مهما عصوا. وتنتشر التجانية في شمال أفريقيا وغربها،

(١) يُنظر: المرجع نفسه، ص٩٢-٩٤

(٢) يُنظر: المرجع نفسه، ص٩٤-٩٥، ويُنظر: عبدالرحمن عبدالخالق، الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة، مكتبة ابن تيمية-الكويت، ط٢، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م، ص٤٠٩-٤٢٢

ويُسَمِّي أتباعها أنفسهم بالأحباب، ومن أبرز عقائدهم الشرك في أوليائهم، فيحجون إلى فاس -حيث قبر شيخهم- قبل توجههم إلى مكة، ويقولون بوحدة الوجود، واستمرار النبوة والوحي لشيخهم، وزعموا أن كتبهم من إملاء الرسول ﷺ، ويقولون بالحقيقة المحمدية، والنور المحمدي، وأن صلاة الفاتح أفضل من القرآن الكريم وصيغتها: «اللهم صل على سيدنا الفاتح لما أُغلق، والخاتم لما سبق، ناصر الحق بالحق، الهادي إلى صراطك المستقيم، وعلى آله حق قدره ومقداره العظيم»!

ويكثر في الطريقة التجانية استخدام السحر، وكان لها تعاون كبير مع الاحتلال الفرنسي[(١)].

وبعد، فيتضح مما مضى ما يلي:

أولاً: كثرة الطرق الصوفية وانتشارها في أرجاء العالم الإسلامي، بل حتى بين الشعوب المسلمة خارج حدود العالم الإسلامي أيضاً.

ثانياً: التشابه بين عقائد وطقوس بعض الطرق الصوفية المشهورة وبين ما عند الرافضة والنصارى.

ثالثاً: حَظْوة الطرق الصوفية لدى السَّاسة في تاريخنا المعاصر؛ كتقريب الخديوي للبكتاشية، والدولة العثمانية للختمية، ومن بعدها الاستعمار البريطاني في السودان، وكذلك حظوة التجانية لدى الاستعمار الفرنسي..الخ

رابعاً: كثرة وتنوع البدع والشركيات والكفريات التي يعتقدها المتصوفة؛ علماً وسلوكاً، فتجدها ما بين بدعٍ كالطقوس والأذكار الفارغة التي لا أصل لها، وكفرٍ كالقول بوحدة الوجود، وشركٍ بالله كالذي يفعلونه لأوليائهم الأحياء والأموات ورفعهم فوق منزلة رسل الله عليهم السلام، إلى غير ذلك، ويمكن تلخيص أبرز تجاوزات الصوفية -بشكل عام- فيما يلي:

---

(١) يُنظر: عبدالله السهلي، الطرق الصوفية، مرجع سابق ص٩٥-٩٧. ويُنظر: عبدالرحمن عبدالخالق، الفكر الصوفي، مرجع سابق، ص٣٥١-٣٦٤

١- القول بوحدة الوجود.

٢- القول بالحلول والاتحاد.

٣- الغلو في الرسول ﷺ.

٤- الادعاءات الكثيرة المخالفة للكتاب والسنة؛ كادِّعاء استمرار الوحي، وادِّعاء ما لهم من مميزات في الدنيا والآخرة، وغيرها من الادِّعاءات الكثيرة الباطلة.

٥- التهاون في التزام أحكام الشرع.

٦- طاعة المشايخ والخضوع لهم والاعتراف بالذنوب بين أيديهم والتمسح بأضرحتهم بعد مماتهم.

٧- ابتداع الأذكار التي ما أنزل الله بها من سلطان، وأداؤها بهيئة مُعيَّنة، بهز البدن يميناً وشمالاً، وذكر كلمة الله مجردة أو اسم الإشارة «هو»[1].

هذا، ويجدر التنبيه في ختام هذا المبحث إلى أمر مهم، وهو أن الحديث عن التصوف شيء، والحديث عن المتصوفة شيءٌ آخر، إذ إن المتصوفة ليسوا سواء، فهم درجاتٌ في التمسك بعقائد التصوف، ولذا فمن الخطأ الحكم على التصوف بالنظر إلى أتباعه، بل الصحيح الحكم عليه بما استقرت عليه الفكرة الصوفية ذاتها، وفي هذا يقول الدكتور لطف الله خوجه: «المنهج الصحيح هو التفريق بين الفكرة والمتنسبين إليها؛ فالفكرة الصوفية باطناً وظاهراً مخالفة للإسلام، وأما المتنسبون: فمنهم كذلك، ومنهم دون ذلك، ومنهم من ليس كذلك، معذور بالجهل، أو قلة البصيرة وإدراك شبهة، ونحو ذلك. وعلى ذلك فلا يصح الاحتجاج بأحوال المتصوفة لتزكية التصوف؛ كأن يقال: هذا إمام صوفي كان مجاهداً، وهذا كان محدثاً، وهذا نصر الله به الإسلام، وهذا قال كذا من الحق.. الخ. فكيف تذمون التصوف؟!. فكل هذه الأخبار صحيحة، وفي الطوائف الأخرى أمثلة مثلها. لكن ليس هذا هو محل النزاع، إنما النزاع في الفكرة ذاتها، فهل الإسلام يقبل أن يضم إلى أصوله القول بالحلول والاتحاد والوحدة، تحت أي

---

(١) يُنظر: الموسوعة الميسرة في الأديان، مرجع سابق، ١/ ٢٧٠

ظرف كان؟»[1].

ويقول أيضاً: «فالإسلام مثلاً: لا تُعرف حقيقته كما هي إلا من خلال القرآن والسنة، أما محاولة معرفة ذلك من خلال ما يصدر من المسلمين فهو محض الخطأ، فليسوا كلهم يُطبقون الإسلام كما هو، وليس كل ما يصدر عنهم بالضرورة يكون عن تطبيقٍ لتعاليم الإسلام؛ إذ الإنسان في طبعه اقتراف الحسنة والسيئة، وكذلك التصوف لا يمكن معرفة حقيقته كما هي إلا بالوقوف على مصادره الأصلية»[2].

هذا، وسوف يأتي في الفصل الثاني مناقشة العديد من عقائد التصوف، والتي ستُبيِّن لنا بوضوح حقيقية التصوف، وبالله التوفيق.

---

(١) لطف الله خوجه، الإنسان الكامل في الفكر الصوفي، دار الهدي النبوي ودار الفضيلة، ط١، ١٤٣٠هـ ص٤-٥

(٢) المرجع نفسه، ص٤

الفصل الأول

موقف المستشرقين من الصوفية، ونقده

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: موقف المستشرقين من تعريف التصوف ونشأته، ونقده.

المبحث الثاني: موقف المستشرقين من عقائد الصوفية، ونقده.

المبحث الثالث: موقف المستشرقين من مؤلفات الصوفية، ونقده.

المبحث الرابع: موقف المستشرقين من بعض رموز التصوف، ونقده.

المبحث الأول

موقف المستشرقين من تعريف التصوف ونشأته، ونقده

المطلب الأول: عناية المستشرقين بالتصوف

إن مما لا تخطئه عين الناظر في دراسات المستشرقين هو اهتمامهم البالغ وعنايتهم بالتصوف والمتصوفة، ويكفي في ذلك مثالاً واضحاً دائرة المعارف الإسلامية[1] -التي ألفها جمهرةٌ من المستشرقين- حيث شُحِنت بالحديث عن التصوف والمتصوفة؛ سواءٌ أكان ذلك بشكل مباشر؛ كما فعلوا -مثلاً- عند تناولهم لمادة «تصوف» أو «طريقة»، أو عن طريق تعريفهم بالعديد من الفرق الصوفية؛ كالتجانية والجلوتية والدرقاوية والبيومية والسالمية والسعدية وغيرها، أو الترجمة لرموز التصوف؛ كابن عربي، وابن الفارض، والحلاَّج، والرفاعي، والدسوقي، والسهروردي المقتول[2]، وغيرهم، هذا بالإضافة إلى الإكثار من إيراد مصطلحات التصوف؛ كالبقاء، والفناء، والحضرة، والحال، والحقيقة، والخرقة، والدوسة، والسماع، والدرويش، وغيرها[3].

وفي هذا يقول الدكتور خالد القاسم: «إن المطلع على الدائرة ليظن أن التصوف جزء من الإسلام لا يتم بدونه، فنجد المواد الكثيرة والتفصيلات الدقيقة عن التصوف التي لا وزن لها، وبالرغم من ذلك يُفردُ لها المواد

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية *Encyclopedia of Islam* هي مجموعة من المقالات والأبحاث المتعلقة بالإسلام والمسلمين التي كُتبت بأقلام كبار المستشرقين، وقد بدأت فكرتها عندما شعروا في مؤتمراتهم الدولية بحاجتهم إلى دائرة معارف تجمع شتات دراساتهم عن الإسلام والمسلمين باللغات الثلاث: الألمانية والفرنسية والإنجليزية، فدعوا إليها سنة ١٨٩٥م، وكلَّفُوا المستشرق الهولندي «هوتسما» بإنشائها ومطبعة ليدن بإصدارها، وتولى نشرها دار بريل الهولندية. صدرت الطبعة الأولى منها خلال الأعوام (١٩١٣-١٩٣٨م)، والثانية خلال (١٩٥٤-١٩٧٧م)، وهناك إصدار ثالث تم البدء فيه عام ٢٠٠٧م. يُنظر: خالد القاسم، مفتريات وأخطاء دائرة المعارف الإسلامية (الاستشراقية)، دار الصميعي-الرياض، ط١، ١٤٣١هـ/١/ ٥٤-٥٦

(٢) تقييد السهروردي هذا بالمقتول لتمييزه عن السهروردي الآخر صاحب كتاب «عوارف المعارف»، وكلاهما من أهل التصوف، ولكن هذا قتله الملك الظاهر غازي بعد أن أفتى العلماء بقتله، لزندقته. يُنظر: الأعلام للزركلي، ٨/ ١٤٠

(٣) يُنظر: خالد القاسم، مفتريات وأخطاء دائرة المعارف الإسلامية، ٢/ ١١٢٢-١١٢٥

والصفحات الكثيرة، ويتجلى ذلك في كثرة المواد المعنونة بمصطلحات التصوف، كما يوجد عند ذكر تراجم أعلامها، بل تعدى الأمر إلى غلبة عادات التصوف على الحقائق الشرعية في بعض المواد»[١].

لقد آثار التصوف انتباه الأوروبيين -من مستشرقين وعلماء تاريخ وأديان واجتماع وغيرهم- منذ القرن التاسع عشر[٢]، فَعنِي المستشرقون به عناية بالغة؛ فبحثوا في جذوره وتاريخه، وبحثوا كذلك في رموز المتصوفة وألَّفوا فيهم، بل إن لهم قدم السبق على معاصريهم من المتصوفة في تحقيق ونشر الكثير من تراث التصوف. ويذكر الدكتور محمد الشرقاوي أن أول كتاب نشره المستشرقون عن التصوف كان عام ١٨٢١م للألماني «ثولك»[٣]، بينما بدأ الباحثون المسلمون في ذلك في الربع الأول من القرن العشرين، متلمذين على بحوث الغربيين بصورة مباشرة أو غير مباشرة[٤].

وحول هذا الأمر يقول الدكتور محمد مصطفى حلمي (ت١٩٦٩م) في مقدمة كتابه «الحياة الروحية في الإسلام»: «ولعلني بهذا الكتاب أكون قد وفقت بعض التوفيق إلى سد الفراغ الذي يوجد في المكتبة العربية، ويرجع وجوده إلى أن أكثر ما كتب في هذه الناحية إنما كتبه المستشرقون أمثال الأستاذ ماسينيون في الفرنسية، والأستاذ رينولد نيكولسن في الإنجليزية، وما كتبه غير هذين العالمين الجليلين في غير الفرنسية والانجليزية من اللغات الأوروبية. أما ما كتب في العربية عن هذه الناحية الروحية للحياة الإسلامية فلا يكاد يكون شيئاً يُذكر بالقياس إلى هذه الأسفار الضخمة والبحوث القيمة التي أخرجها علماء الإسلاميات من المستشرقين»[٥].

---

(١) المرجع نفسه، ٢/ ١١٢٥

(٢) يُنظر: علي سامي النشار، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، دار المعارف-القاهرة، ط٨، ت بدون، ٣/ ٢١

(٣) أوقست ثولك، *August Tholuk (1799-1877)*، لاهوتي بروتستانتي ألماني، وزعيم كنيسة، واسم كتابه الذي تحدث فيه عن التصوف ووحدة الوجود الفارسية هو: *Sufismus Sive Theologie Persica Pantheistica*، يُنظر: موسوعة ويكيبيديا، مادة: *August Tholck*

(٤) يُنظر: محمد عبدالله الشرقاوي، الاتجاهات الحديثة في دراسة التصوف الإسلامي، دار الفكر العربي-القاهرة، ط بدون، ت بدون، ص٧-١٣

(٥) محمد مصطفى حلمي، الحياة الروحية في الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٢، ت بدون، ص٥-٦

وأما عن طبيعة هذه العناية الاستشراقية بالتصوف فيقول الدكتور محمود حمدي زقزوق: «يؤكد الاستشراق بوضوح ظاهر على أهمية الفرق المنُشَقة عن الإسلام كالبابية، والبهائية، والقاديانية، والبكداشية، وغيرها من فرق قديمة وحديثة، ويعمل على تعميق الخلاف بين السنة والشيعة. والمستشرقون يعدون المنُشَقين عن الإسلام على الدوام أصحاب فكرٍ ثوريٍ تحرري عقلي، ودائماً يهتمون بكل غريب وشاذ، ودائماً يقيسون ما يرونه في العالم الإسلامي على ما لديهم من قوالب مصبوبة جامدة. وقد أشار المستشرق «رودنسون»[(١)] إلى شيء من ذلك حين قال: ولم ير المستشرقون في الشرق إلا ما كانوا يريدون رؤيته، فاهتموا كثيراً بالأشياء الصغيرة والغريبة، ولم يكونوا يريدون أن يتطور الشرق ليبلغ المرحلة التي بلغتها أوروبا، ومن ثم كانوا يكرهون النهضة فيه»[(٢)].

وأما عن المستشرقين أنفسهم فمنهم من تخصص في التصوف وبات مرجعاً للغرب فيه، وأبرزهم في ذلك المستشرق الفرنسي «ماسنيون»[(٣)]

---

(١) رودنسون *Rodinson,M*. مستشرق فرنسي، ولد عام ١٩١٥م، من أساتذة مدرسة الدراسات العليا بباريس، ثم مديراً لها. يُنظر: المستشرقون للعقيقي، ١/ ٣٢٨. وقد توفي هذا المستشرق عام ٢٠٠٤م، ومن أبرز مؤلفاته كتاب «محمد» (١٩٦١م)، و«عظمة الإسلام» (١٩٨٠م).

(٢) محمود حمدي زقزوق، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، دار المعارف- القاهرة، ط بدون، ت بدون، ص١٢٣، والنقل عن «رودنسون» -بحسب د. زقزوق- من محاضرة ألقاها في القاهرة بعنوان: (رؤية أوروبا للعالم الإسلامي) ونشرتها جريدة الأهرام في ٢٩/ ١٢/ ١٩٦٩م.

(٣) ماسينيون (لويس) *Massignon,L.* (1883-1962م)، مستشرق فرنسي، ولد وتوفي بباريس، تعلم العربية والفارسية والتركية والألمانية والإنكليزية، كان في شبابه من موظفي وزارة المستعمرات، وظل مستشاراً لها بقية حياته، عني بالآثار وكان له دور في اكتشاف قصر الأخيضر بالعراق، طاف العالم الإسلامي، وتعلم في الأزهر، واهتم بالنظم الاجتماعية في الإسلام، وبالفلسفة، ودرس التشيع، ولكنه عَني بالتصوف حتى بات مرجعاً للفرنجة فيه، وعَني بشخصية الحلاَّج خاصة، حتى إنه شبهه في بالمسيح ﷺ! وكانت رسالته في الدكتوراه عن الحلاَّج، واشتغل بالتدريس في الإسلام والمذاهب الإسلامية في الكوليج دي فرانس وكذلك في الجامعة المصرية (القاهرة الآن)، وكان من طلابه طه حسين، وممن تأثر بتوجهاته زكي مبارك، وعبدالحليم محمود، وعبدالرحمن بدوي، وآخرون. آثاره تربو على ٦٥٠ أثراً، من أبرزها: «عذاب الحلاَّج، شهيد التصوف في الإسلام»، و«نشأة المصطلح الفني للتصوف في الإسلام»، وكَتَب أيضاً في دائرة المعارف الإسلامية عن التصوف، والنصيرية، والقرامطة والكندي، وفلسفة ابن سينا، وغير ذلك. يُنظر: المستشرقون للعقيقي، ١/ ٢٨٧، وموسوعة المستشرقين، ص٥٢٩، والموسوعة الصوفية، ص٣٤٥، والأعلام للزركلي، ٥/ ٢٤٧

والذي قضى جزءاً كبيراً من حياته في دراسة التصوف، وتأثر به تأثراً كبيراً. وكذلك المستشرق الانجليزي «نيكلسون»[1]، والذي تخصص أيضـًا في التصوف وصنف فيه[2]، ومنهم من كان التصوف أحد اهتماماته -وهم كُثر-؛ كما سيتضح فيما سيأتي.

وبعد، فمن ما مضى نستنتج بأن أبرز جوانب اهتمام المستشرقين بالتصوف يمكن ملاحظتها فيما يلي:

أولاً: التعريف بالتصوف عبر نشر مصنفاته، والكتابة فيه، وفي رموزه؛ كما مرَّ آنفـًا في مثال دائرة المعارف الإسلامية.

ثانيـًا: اهتمام طائفة كبيرة من المستشرقين بالتصوف، بل إن بعضهم تَخصَّص في العناية به، وتعمَّق في دراسته، كما هو حال المستشرَقَين: «ماسينيون» و«نيكلسون».

ثالثـًا: إعادة نشرهم للتراث الصوفي، ويتضمن ذلك التحقيق، والشرح، والتعليق، والترجمة،..الخ

رابعـًا: نشر ترجماتٍ وسيرٍ لرموز التصوف؛ كالحلاّج، وابن عربي، وغيرهما.

خامسـًا: ثناؤهم على التصوف، واعتباره الوجه الحقيقي للإسلام المعاصر. وأضرب لهذا مثلاً بالمستشرق «ولفريد كانتويل»[3] في كتابه

---

(١) رينولد ألن نيكلسون *Nicholson, R.A.* (1868-1945م)، مستشرق انجليزي، يُعدُّ -بعد ماسينيون- أكبر الباحثين في التصوف الإسلامي، أستاذ العربية والفارسية بجامعة كمبردج، من أعماله: نشر ديوان «مثنوي معنوي» لجلال الدين الرومي مع الشرح والترجمة في ٨ مجلدات، وحقق ونشر أيضـًا: تذكرة الأولياء للعطار، واللّمع لأبي نصر السَّراج، وترجمان الأشواق لابن عربي، وله أيضـًا من الكتب: «في التصوف الإسلامي»، و«فكرة الشخصية في التصوف الإسلامي»، وغيرها. يُنظر: المستشرقون للعقيقي، ٢/ ٥٢٥، وموسوعة المستشرقين، ص٥٩٣، والموسوعة الصوفية، ص٣٩٩، والأعلام للزركلي، ٣/ ٣٩

(٢) سيلحظ القارئ تركيز الباحث على رأي هذين المستشرقين (نيكلسون وماسينيون)، والسبب يعود إلى كونهما الحُجَّة في التصوف لدى المستشرقين -كما يصرح بذلك الكثير منهم-، وأيضـًا لأنهما عاشا ودرسا التصوف في النصف الأول من القرن العشرين، وتلك كانت من الفترات العصيبة في تاريخ انحطاط العالم الإسلامي، وتكالب الاستعمار الغربي عليه.

(٣) ولفريد كانتويل سميث *Smith, W. K* مستشرق أمريكي، تخرج في جامعة برنستون برسالة عن مجلة الأزهر، نزل بباكستان، وطوّف في البلاد الإسلامية مراراً، وكتب الكثير عنها. من أبرز مصنفاته كتاب «الإسلام في العصر الحديث» (١٩٦٢م). يُنظر: المستشرقون للعقيقي، ٣/ ١٠٢٤. وقد مات هذا المستشرق عام ٢٠٠٠م.

«الإسلام في العصر الحديث»، حيث أثنى فيه كثيراً على التصوف، زاعماً أنه في جوهره هو الدين مجرداً من النظم والأنماط، وأنه يلتقي مع المسيحية في ترك تنظيم الشؤون الدينية لمن بيدهم مقاليد السياسة والسلطان[1].

هذه النقاط الخمس تحرِّك بلا شك تساؤلاً مشروعاً عن سبب كل هذا الاهتمام الاستشراقي بالتصوف!؟

جواب هذا التساؤل هو ما سنناقشه بالتفصيل وبموضوعية علمية فيما سيأتي، وبالله التوفيق.

المطلب الثاني : تعريف التصوف عند المستشرقين

مضى في التمهيد الحديث عن ماهية التصوف واشتقاقه، وتبين كثرة آراء المتصوفة المتقدمين في ذلك، وهذا الأمر يبدو أنه انعكس أيضاً على الباحثين في التصوف من المستشرقين، إذ تعددت أقوالهم وآراؤهم حول اشتقاق التصوف وماهيته؛ كونها في الأصل مبنية على أقوال المتصوفة.

فأما اشتقاق كلمة التصوف فيقول عنه «نيكلسون»[2]: «واشتقاقها لا يزال -حتى الآن- موضع خلاف، فأكثر الصوفية يشتقونها -غير عابئين بقواعد التصريف والاشتقاق- من (الصفاء). ومعنى هذا أن يكون الصوفي هو «الصافي القلب»، أو هو «المصطفى»»[3]. ثم يقول -مضيفاً رأياً آخر-: «وبعض الباحثين من الأوروبيين يردها إلى الكلمة الإغريقية «سوفوس» بمعنى «ثيو صوفي»»[4]، بينما نجد عند التحقيق أن أول من قال بهذا الرأي هو أبو الريحان البيروني (ت ٤٤٠هـ)، حيث قال عند حديثه عن معتقدات اليونانيين المشابهة لما عند الهند: «ومنهم مَنْ كان يرى الوجود الحقيقيّ للعلّة الأولى فقط لاستغنائها بذاتها فيه وحاجةِ غيرها إليها، وأنَّ ما هو مفتقر في الوجود إلى غيره فوجوده كالخيال غيرُ حقّ والحقّ هو الواحد الأوّل

---

(١) يُنظر: محمد محمد حسين، الإسلام والحضارة الغربية، دار الفرقان، ط بدون، ت بدون، ص١٥٩

(٢) سبق ترجمته.

(٣) نيكلسون، الصوفية في الإسلام، ترجمة: نور الدين شريبه، مكتبة الخانجي-القاهرة، ط٢، ١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م، ص١١

(٤) المرجع نفسه، ص١١

فقط، وهذا رأي السوفيّة وهم الحكماء فإن «سُوف» باليونانية الحكمة وبها سمّي الفيلسوف «پيلاسوپا» أي محبّ الحكمة. ولما ذهب في الإسلام قوم إلى قريب من رأيهم سُمُّوا باسمهم، ولم يعرف اللقب بعضُهم فنسبهم للتوكّل إلى «الصُفّة» وأنّهم أصحابها في عصر النبيّ ﷺ، ثمّ صحّف بعد ذلك فصيّر من صوف التيوس»[1].

ولكن يبدو أن «نيكلسون» يميل إلى ترجيح أن التصوف مشتق من الصوف ولذلك استشهد برأي المستشرق «نولدكه»[2] في ذلك، حيث قال: «ولكن نولدكه *Noldeke* بين في يقين في مقال نشر سنة ١٨٩٤م أن الكلمة مشتقة من «الصوف»، وأنها كانت في الأصل موضوعة لزهاد المسلمين، الذين تشبهوا برهبان النصارى، في ارتداء غليظ الصوف، دليل ندمهم على ما أسلفوا، وعلى اطراحهم متاع الحياة الدنيا»[3].

وهذا الرأي أيضاً (اشتقاق التصوف من الصوف) هو الذي رجحه المستشرق «ماسينيون» حيث قال عند تحريره لمادة «تصوف» في دائرة المعارف الإسلامية: «التصوف مصدر الفعل الخماسي المصوغ من «صوف» للدلالة على لبس الصوف، ومن ثم كان المتجرد لحياة الصوفية يسمى في الإسلام صوفياً. وينبغي رفض ما عدا ذلك من الأقوال التي قال بها القدماء والمحدثون في أصل الكلمة»[4]، وأشار أيضاً إلى تضعيف «نولدكه» لاشتقاق «التصوف» من اليونانية «سوف»[5].

وأما عن تعريف التصوف فقد حارت فيه أقلام المستشرقين، لكثرة ما ذكره المتصوفة عن ماهيته، ولذلك نجد أن حجتهم في التصوف

---

(١) أبو الريحان محمد البيروني، تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، مطبوعات دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن-الهند، ط بدون، ١٣٧٧هـ-١٩٥٨م، ص٢٤-٢٥

(٢) نولدكه *Noldeke,Th* (1836-1930م)، مستشرق ألماني، أستاذ اللغات الشرقية في العديد من الجامعات الألمانية، من آثاره: «تاريخ النص القرآني» و«سيرة محمد»، ونشر وترجم العديد من المخطوطات والأشعار الإسلامية. يُنظر: المستشرقون للعقيقي، ٢/ ٧٣٨.

(٣) نيكلسون، الصوفية في الإسلام، مرجع سابق، ص١١-١٢

(٤) دائرة المعارف الإسلامية، الجزء ١٦ (التصوف)، تحرير: لويس ماسينيون ومصطفى عبدالرازق، ترجمة: إبراهيم خورشيد وعبدالحميد يونس وحسن عثمان، دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة، ط١، ١٩٨٤م، ص٢٥

(٥) يُنظر المرجع نفسه، ص٢٦

«ماسينيون» ناقش في دائرة المعارف الإسلامية أصل كلمة التصوف ولكنه لم يتحدث عن ماهية التصوف! وأما «نيكلسون» فيقول الدكتور عرفان عبدالحميد: «حاول الأستاذ نيكلسون أن يجمع ما يربو على مائة تعريف للتصوف، ورجا من ذلك أن تدلّه التعاريف -بعد ترتيبها الزمني- على تطورات التصوف الإسلامي فلم يأت عمله بنتيجة قيمة، وقد أحس هو نفسه بعقم الاتجاه الذي اتجهه»[١].

وقد صرَّح «نيكلسون» بذلك قائلاً: «والتَعارِفُ المتعددة للصوفية التي وردت في الكتب العربية والفارسية وإن كانت ذات فائدة تاريخية فإن أهميتها الرئيسية في أنها تعرض الصوفية على أنها غير ممكن تحديدها، وقد قص جلال الدين الرومي في كتابه «المثنوي» قصة عن فيل عرضه بعض الهندوسيين في حجرة مظلمة فتجمع الناس ليروه ولكن ظلام المكان منعهم أن يبصروه، فلمسوه بأيديهم ليعلموا على أي مثال هو، فلمس بعضهم خرطومه، فقال: إنه يشبه أنبوبة الماء، وبعضهم أذنه، فقال: لا بد أن يكون كمروحة كبيرة، وآخر رجله فحسب أن كالسارية، ولمس بعضهم ظهره فأعلن أن الحيوان يشبه العرش العظيم، وكذلك حال الذين يعرضون للتصوف بالتعريف لا يستطيعون إلا أن يحاولوا التعبير عما أحسته نفوسهم»[٢].

وإلى هذا المعنى أيضاً أشارت المستشرقة «آنا ماري شيمل»[٣] عند حديثها عن مفهوم التصوف، إذ قالت: «ظاهرة ما يسمى بالتصوف ظاهرة متسعة المجال، شاسعة الأبعاد، بحيث لم يستطع أحد أن يصل إلى أن يحيط بها وصفاً»[٤].

---

(١) عرفان عبدالحميد فتاح، نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها، دار الجيل-بيروت، ط١، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م، ص١٣١

(٢) نيكلسون، الصوفية في الإسلام، مرجع سابق، ص٣٤

(٣) آنا ماري شيمل (1922-2003) *Annemarie Schimmel*، مستشرقة ألمانية، أستاذة اللغات الشرقية في جامعة بون، وعملت كذلك في جامعة أنقره، وأستاذة الثقافة الهندية في جامعة هارفارد، اشتغلت كثيراً بالتصوف، حتى ظن البعض بأنها اعتنقت الإسلام، يُنظر: المستشرقون للعقيقي، ٢/ ٤٨٢، وموسوعة ويكيبيديا، مادة: *Annemarie Schimmel*

(٤) آنا ماري شيمل، الأبعاد الصوفية في الإسلام وتاريخ التصوف، ترجمة: محمد إسماعيل السيد و رضا حامد قطب، منشورات الجمل-المانيا، ط١، ٢٠٠٦م ص٧

وعلى ضوء على ما سبق، يمكن الوصول إلى النتائج التالية:

أولاً: أن المستشرقين لم يأتوا بجديد فيما يتعلق بالبحث في كلمة «تصوف» لا من حيث الاشتقاق ولا من حيث المعنى، بل ساروا في ذلك على أقوال المتصوفة.

ثانيًا: رجَّح المستشرقون أن اشتقاق التصوف من الصوف، وضعفوا ما عداه من الأقوال، وخاصة القول باشتقاقها من «سوف» اليونانية، وهذا ما اعتمده «ماسينيون» في دائرة المعارف الإسلامية.

ثالثًا: أن المستشرقين لم يذكروا تعريفـًا محدداً للتصوف، بل نقلوا عن المتصوفة تعاريفهم، مع اعترافهم في ذات الوقت بسعة مفهوم التصوف وأنْ ليس ثمة تعريفٌ أو وصفٌ جامع له.

وأختم هنا بالتنبيه إلى أن ترجيح المستشرقين للرأي القائل باشتقاق التصوف من الصوف على الرغم من قوة الرأي الآخر القائل باشتقاقها من «سوف» له مدلوله! وهذا المدلول سيتضح أكثر حينما نناقش -فيما سيأتي- موقف المستشرقين من نشأة التصوف.

المطلب الثالث : نشأة التصوف في المفهوم الاستشراقي

سار عامة المستشرقين في بداية تناولهم للتصوف على أنه نشأ من مصادر أجنبية عن الإسلام، وفي هذا يقول الدكتور سامي النشار: «إن الأبحاث التي قامت بها المدارس الأوروبية في دراسة التصوف الإسلامي اتجهت إلى تتبع مصادر التصوف في مختلف الثقافات التي أحاطت بالمسلمين»[1]. وبعد أن قسَّم النشارُ تلك الأبحاث إلى مدارس قال: «فالمدرسة الإنجليزية -لمشابهةٍ عرضية- حاولت أن تتلمس أصول التصوف في المسيحية وفي الأفلاطونية المحدثة، وحاولت المدرسة الفرنسية أن تبحث عن أصله في المسيحية، والألمانية حاولت خلال تحليلاتها اللغوية أن تبحث عن أصله في البوذية وفي المدارس الإيرانية، وكذلك فعلت المدرسة الإسبانية -وهي كما قلت- شُغلت كاملاً بفكرة

---

(١) علي سامي النشار، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، مرجع سابق، ٣/ ٢٩

التأثير والتأثر والمؤثر، فالتصوف تأثر بالمسيحية ثم أثَّر فيها»[1].

وسأورد فيما يلي الأصولَ الأجنبية عن الإسلام التي ذكرها المستشرقون عند حديثهم عن نشأة التصوف، حيث أرجعوا نشأته في الإسلام إلى التأثر بها، وهي:

أولاً: الأصل الهندي، وممن قال به من المستشرقين: «وليم جونز»[2]، و«ثولك»[3]، و«فون كريمر»[4]، و«هارتمان»[5]، و«هورتن»[6]، و«دي بوير»[7]، و«ماسينيون»[8]، وغيرهم[9]، وهؤلاء ربطوا بين «وحدة الوجود» في التصوف وبين مذهب الفيدانتا الهندي، وكذلك ربطوا بين قصائد جلال الدين الرومي وحافظ الشيرازي وبين الجيتا جوفندا الهندية[10].

---

(١) المرجع نفسه، ٣/ ٢٩

(٢) وليم جونز(William Jones (1746-1794م)، مستشرق وفقيه قانوني بريطاني، أتقن العربية والفارسية والتركية، اهتم بالنشر والترجمة، فترجم المعلقات السبع، ونشر «الفرائض السراجية» لأبي طاهر السجاوندي الحنفي، وغيرها وله كتاب «نحو اللغة الفارسية»، وغيره. يُنظر: موسوعة المستشرقين، ص٢٠٧

(٣) سبق ترجمته.

(٤) البارون فون كريمر(Kremer, A.Von (1828-1889، مستشرق نمساوي، عُرف بجده السياسي ونشاطه الاستشراقي، عمل قنصلاً لبلاده في مصر وبيروت، من آثاره: «تاريخ الفرق في الإسلام» و«تاريخ الحضارة في المشرق تحت حكم الخلفاء» و«آثار اليمن»، وغيرها. يُنظر: المستشرقون للعقيقي، ٢/ ٦٣٠

(٥) هارتمان (Martin Hartmann (1851-1918، مستشرق ألماني، حصل على الدكتوراه في اللغة العربية، وعمل مترجماً في القنصلية الألمانية ببيروت، أسس معهد اللغات الشرقية ببرلين لغرض إعداد موظفي وزارة الخارجية لأداء وظائفهم بالشرق، من آثاره: «رسائل من تركيا» و«المسألة العربية»، وغيرهما. يُنظر: موسوعة المستشرقين، ص٦٠٧

(٦) هورتن(Max Horten (1874-1945، مستشرق ألماني، عني بالفلسفة وعلم الكلام في الإسلام، من آثاره: ترجمة وشرح قصائد لابن عربي، وفلسفة الإشراق للسهروردي، وله مصنفات عديدة مثل: «الفكر الديني عند العامة في الإسلام في العصر الحاضر» و«الفكر الديني عند المسلمين المتعلمين في العصر الحاضر»، وغيرها. يُنظر: موسوعة المستشرقين، ص٦١٨

(٧) دي بوير(Boer,T.J.de (1866-1942، مستشرق هولندي، أستاذ الفلسفة في جامعة أمستردام، من آثاره: «الغزالي وابن رشد» و«دراسة عن الكندي» و«تاريخ الفلسفة في الإسلام»، وغيرها، وله في دائرة المعارف الإسلامية مقالة عن ابن «سينا» و«نور» و«خلق». يُنظر: المستشرقون للعقيقي، ٢/ ٦٦٨

(٨) سبق ترجمته.

(٩) يُنظر: الأمير سعد علي البرعي، التصوف الإسلامي في الفكر الاستشراقي، رسالة علمية (ماجستير)، غير مطبوعة، كلية أصول الدين- جامعة الأزهر، ص٤٨، ومحمد مصطفى حلمي، الحياة الروحية في الإسلام، مرجع سابق، ص٤٤

(١٠) يُنظر: عبدالرحمن بدوي، تاريخ التصوف الإسلامي، ص٣٥

ثانيًا: الأصل الفارسي، وممن قال به من المستشرقين: «ثولك»، و«كوربان»[1]، «رينان»[2]، و«بلوشه»[3]، و«هارتمان»، و«أوليري»[4]، وغيرهم[5].

وهؤلاء يرون أن ما نشأ في داخل الأديان من تصوف إنما يرجع إلى رد فعل عنصري ولغوي وقومي من جانب الشعوب المقهورة التي غلب عليها سلطان الساميين، هذا بالإضافة إلى ربطهم بين تصوف السهروردي المقتول وبين الزرادشتية الفارسية[6].

ثالثًا: الأصل المسيحي والعبراني، وممن قال به من المستشرقين: «فون كريمر»[7]، و«آسين بلاثيوس»[8]، و«نيكلسون»[9]، و«فلهوزن»[10]،

---

(١) كوربان هنري(*Henry Corbin* (1903-1978، مستشرق فرنسي، أُولع بالسهروردي المقتول، كولع «ماسينيون» بالحلاَّج، فترجم كتبه ورسائله وحاضر عنه ونشر له، من أشهر أعماله كتاب «في الإسلام الإيراني»، وقد خصص الجزء الثاني منه عن السهروردي المقتول. يُنظر: موسوعة المستشرقين، ص٤٨٢

(٢) رينان(*Ernest Renan* (1823-1892، مستشرق وفيلسوف فرنسي، نزل بلبنان، ولم يتقن اللغة اللغة العربية، وفي عام ١٨٨٣م اتهم الإسلام في مقالة له باضطهاد العلماء؛ فانهالت عليه ردود علماء المسلمين، من أعماله كتاب «ابن رشد والرشيديين». يُنظر: المستشرقون للعقيقي، ١/ ٢٠٢، وموسوعة المستشرقين، ص٣١١

(٣) بلوشه(*Blochet,E* (1870-1937، مستشرق فرنسي، أمين المخطوطات الشرقية في المكتبة الوطنية بباريس، ترجم ونشر العديد من المخطوطات الإسلامية، ومن دراساته: «أثر النصرانية والبوذية في الإسلام»، و«التفكير اليوناني في التصوف الشرقي»، و«السِّر في العقيدة الإسلامية»، وغيرها. يُنظر: المستشرقون للعقيقي، ١/ ٢٤٦

(٤) أوليري(*O'Leary, D.L.* (1872-1947، مستشرق انجليزي، عمل أستاذاً في جامعة برستول، من من آثاره: «الجزيرة العربية قبل محمد»، و«كيف تسربت الثقافة اليونانية إلى العرب»، وغيرها. يُنظر: المستشرقون للعقيقي، ٢/ ٥٢٣، وموسوعة ويكيبيديا، مادة: *De lacy O'Leary*.

(٥) يُنظر: الأمير سعد علي البرعي، التصوف الإسلامي في الفكر الاستشراقي، مرجع سابق، ص٥٨

(٦) يُنظر: عبدالرحمن بدوي، تاريخ التصوف الإسلامي، ص٣١-٣٢

(٧) سبق ترجمته.

(٨) الأب آسين بلاثيوس(*Asin Palacios,P.M* (1871-1944 ، مستشرق أسباني، مثَّل بلاده في معظم مؤتمرات المستشرقين، عني بابن عربي عناية شديدة، فنشر له وصنف فيه، من آثاره: «العقيدة والأخلاق والتصوف لدى الغزالي»، و«المتصوف ابن عربي»، و«الآيات الإسلامية في الكوميديا الإلهية»، وغيرها. يُنظر: المستشرقون للعقيقي، ٢/ ٥٩٦

(٩) سبق ترجمته.

(١٠) فلهوزن يوليوس(*Julius Wellhausen* (1918-1844 ، مستشرق ألماني، من آثاره: «أحزاب المعارضة السياسية الدينية في صدر الإسلام» و«الدولة العربية وسقوطها» و«المدينة قبل الإسلام»، وغيرها. يُنظر: موسوعة المستشرقين، ص٤٠٨

و«بكر»[1]، و«فنسنك»[2]، و«آندراي»[3]، وغيرهم[4]، وساقوا للدلالة على على هذا التأثر أدلة منها:

١- التشابه في بعض المظاهر؛ مثل استعمال الخِرقة، في مقابل ما يستعمله الرهبان من ثوبٍ على الكتفين.

٢- التشابه في بعض الموضوعات؛ كمحاسبة النفس مثلاً.

٣- التشابه في بعض المفردات، مثل: ناسوت، رحموت، رهبوت، لاهوت، نفساني، روحاني، جثماني، كيفوفية، وغيرها.

٤- الاختلاط بين المسلمين والنصارى العرب في الحيرة ودمشق والكوفة وغيرها[5].

رابعـًا: الأصل اليوناني:

وممن قال به من المستشرقين: «أوليري»[6]، «نيكلسون»[7]، «جولد تسيهر»[8]،

---

(١) بكر كارل هينرش(*Karl Heinrich Bekker* (1876-1933، مستشرق وسياسي ألماني، عمل أستاذا في معهد همبرج الاستعماري، ثم وزيراً للمعارف، وغيرها من الأعمال، من أهم أبحاثه كتاب «دراسات إسلامية». يُنظر: موسوعة المستشرقين، ص١١٣

(٢) فنسنك،(*Arent Jan Wensinck* (1882-1939، مستشرق هولندي، أشهر أعماله مشروع المعجم المفهرس لألفاظ الحديث الشريف، واستعان فيه بثمانية وثلاثين باحثـًا، وله من الكتب: «محمد واليهود في المدينة»، و«فكر الغزالي»، وغيرهما. يُنظر: موسوعة المستشرقين، ص٤١٧

(٣) آندراي(*Andrae,T.* (1885-1947، مستشرق سويدي، أستاذ العلوم الدينية في جامعة استوكهلم، من آثاره: «القصص في الإسلام»، و«الصوفية»، و«النصرانية والإسلام»، وغيرها. يُنظر: المستشرقون للعقيقي، ٣/ ٨٩٥

(٤) يُنظر: الأمير سعد علي البرعي، التصوف الإسلامي في الفكر الاستشراقي، مرجع سابق، ص٦٧

(٥) يُنظر: عبدالرحمن بدوي، تاريخ التصوف الإسلامي، ص٣٢-٣٥

(٦) سبق ترجمته.

(٧) سبق ترجمته.

(٨) جولد تسيهر أو جولد صيهر(*Goldziher,Y.* (1850-1921، مستشرق مجري، ولد في بودابست لأسرة يهودية، رحل إلى سوريا وفلسطين، وأقام مدة بالقاهرة، ويعده المستشرقون من أعلامهم، من آثاره: «محاضرات في الإسلام» و«دراسات إسلامية» و«اتجاهات تفسير القرآن عند المسلمين» وغيرها. يُنظر: المستشرقون للعقيقي، ٣/ ٩٦٠، وموسوعة المستشرقين، ص١٩٨.
وتجدر الإشارة هنا إلى أن مؤلفات هذا المستشرق حفلت بالافتراءات الكثيرة على القرآن الكريم والسنة النبوية، وقد تصدى لها العديد من علماء المسلمين وباحثيهم من أمثال الشيخ مصطفى السباعي في كتابه: السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، والشيخ محمد حسن جبل في كتابه: الرد على جولدتسيهر في مطاعنه على القراءات القرآنية.

«هامر فون»[1]، وغيرهم[2]، إذ يرون أن الجانب السحري والصّنعوي في التصوف، إلى جانب الأفكار الميتافيزيقية، والغنوصية، والأفلاطونية المحدثة مما يُرد إلى الأصل اليوناني[3].

وقد مضى في التمهيد ذِكرُ طرفٍ من عقائد التصوف والتي لها ما يماثلها في هذه الأصول الأربعة، ولذلك فإن من الإنصاف هنا القول بأن المستشرقين لم يفتروا زوراً حينما أرجعوا عقائد وسلوكيات التصوف إلى أصول أجنبية عن الإسلام، وذلك لوجود الشبه الكبير -كما بيَّنت في التمهيد- بينهما، بل إن المتصوفة أنفسهم لا ينكرون وجود الشبه بين التصوف وبين ما عند الأمم الأخرى، ومنهم -على سبيل المثال- الدكتور محمد مصطفى حلمي ، والذي ناقش وأنكر في كتابه «الحياة الروحية في الإسلام» أن يكون للتصوف مصادر من غير الإسلام، مع اعترافه في ذات الموضع بوجود تشابه بين عقائد التصوف وبين ما عند الأمم الأخرى من عقائد وأفكار[4]!! ومن ذلك قوله بعد مناقشة المصدر الهندي: «وهذا ينتهي بنا إلى أنه إذا كان ثمة تشابه بين التصوف الإسلامي في أية صورة من صوره الأولى وبين بعض التعاليم البراهمية والبوذية فليس معنى هذا أن الصوفية أخذوا عن هذه أو تلك..»[5]!

ويقول أيضـاً عند مناقشة المصدر الفارسي: «على أن ثمة شبهـاً ظاهراً بين العقائد والنزعات الفارسية القديمة وبعض التعاليم والمذاهب الصوفية الإسلامية: فالزهد في التصوف الإسلامي يشبه الزهد والرهبنة في الديانة المانوية، كما يشبه الزهد والقناعة والنهي عن ذبح الحيوان في الديانة

---

(١) هامر بورجشتال فون(*Hammer-Purgstall, J. Von* (1774-1856، مستشرق نمساوي، أتقن العربية والفارسية والتركية، تقلب في المناصب السياسية حتى وصل مستشاراً للإمبراطور، له مصنفات وتراجم كثيرة، من أبرز أعماله: «تاريخ الدولة العثمانية» في عشرة مجلدات، وترجمة تائية ابن الفارض. يُنظر: المستشرقون للعقيقي، ٢/ ٦٢٩

(٢) يُنظر: الأمير سعد علي البرعي، التصوف الإسلامي في الفكر الاستشراقي، مرجع سابق، ص٧٨

(٣) يُنظر: عبدالرحمن بدوي، تاريخ التصوف الإسلامي، ص٤٠

(٤) يُنظر: محمد مصطفى حلمي، الحياة الروحية في الإسلام، ص٣٣-٧٩

(٥) يُنظر: المرجع نفسه، ص٤٨

المزدكية. وعقائد الشيعة وغلاتهم في حق الملك الإلهي، وفي حلول الله في الإمام، تكاد تكون صوراً جديدة لعقائد فارسية قديمة. ولقد شاعت هذه العقائد فيما شاع بين المسلمين من تراث الفرس القديم، ووجدت من الشيعة من اعتنقها وتعصب لها، ومن الصوفية من تلقاها بالقبول، وتأثر بها عن قصد أو عن غير قصد. ومذهب الصوفية في الحقيقة المحمدية، وأنها أول مخلوق خلقه الله، ومنه تفرعت كل المخلوقات الأخرى علوية وسفلية، تشبه إلى حد بعيد ما ورد في الكتاب الزرادشتي المعروف باسم (زند أفستا) وهو أنه رمز إله الخير في ديانة زرادشت لم يخلق الكون بما فيه من كائنات روحية ومادية خلقاً مباشراً، بل خلقه بواسطة الكلمة الإلهية. ومع هذا كله، فإن أياً من ألوان هذا التشابه لا يدل دلالة قوية على أن المصدر الأول للتصوف الإسلامي كان فارسياً»[1]!

وقال أيضاً عند مناقشة المصدر النصراني: «على أننا وإن كنا لا ننكر ما يوجد من أوجه الشبه بين حياة الزهاد ولباسهم وبعض تعاليم الصوفية وطرقهم في العبادة ومذاهبهم في الحب الإلهي، وبين حياة الرهبان ولباسهم وبعض ما أثر عن المسيح وحوارييه من أقوال في المحبة وغير المحبة في شؤون الحياة، فإننا لا نستطيع من ذلك أن نتخذ من أوجه الشبه هذه دليلاً على أن مصدر الحياة الروحية في جملتها وتفاصيلها نصراني»[2]!

وأضاف عند مناقشته للمصدر اليوناني: «على أننا وإن كنا نعترف للفلسفة اليونانية عامة، والأفلاطونية الجديدة خاصة بهذا الأثر الخصب المنتج في تاريخ التصوف الإسلامي، فإننا لا نستطيع مع ذلك أن نقرر أن هذا الأثر قد بدأ يعمل عمله في أول عهد التصوف بالظهور»[3]!

وتابعه من بعده في ذلك الشيخ محمد أبو الوفاء التفتازاني شيخ مشائخ الطرق الصوفية بمصر (في الفترة ١٩٨٣-١٩٩٤م)، والذي ناقش أيضاً وأنكر في كتابه «مدخل إلى التصوف الإسلامي» مسألة المصدرية الأجنبية

---

(١) يُنظر: المرجع نفسه، ص٥٢-٥٣
(٢) يُنظر: المرجع نفسه، ص٥٦
(٣) يُنظر: المرجع نفسه، ص٧١

مع إقراره في ذات الوقت بوجود التشابه![1]، فمما قاله الشيخ التفتازاني: «ونحن وإن كنا لا ننكر وجه الشبه بين الزهد والتصوف الإسلاميين وبين ما يقابلهما عند المسيحيين من زهد وتصوف، إلا أن وجه الشبه وحده لا ينهض دليلاً على أن الزهد أو التصوف الإسلامي من مصدر مسيحي»[2].

وقال في موضع آخر: «ويُرد على أصحاب نظرية المصدر الهندي بما قاله نيكلسون، وهو أن التشابه بين مذهب (أ) ومذهب (ب) لا يعني بالضرورة أخذ أحدهما عن الآخر فالوصول إلى نتيجتين متشابهتين قد يأتي نتيجة لتطبيق نفس المنهج، أو الخضوع لظروف نفسية واحدة»[3].

وقال أيضاً: «ونحن لا ننكر الأثر اليوناني على التصوف الإسلامي، فقد وصلت الفلسفة اليونانية عامة، والأفلاطونية خاصة إلى صوفية الإسلام عن طريق الترجمة والنقل، أو الاختلاط مع رهبان النصارى في الرها وحران»[4].

وقد جاء بعدهما أيضاً الدكتور محمد الشرقاوي في تسعينيات القرن الميلادي المنصرم فناقش في كتابه «الاتجاهات الحديثة في دراسة التصوف الإسلامي» هذه المسألة، ولم يأت فيها بجديد على ما جاء به «التفتازاني» و«محمد مصطفى حلمي»، فأثبت التشابه وأنكر المصدرية! بل إنه ذهب إلى أبعد من ذلك فحاول إثبات أن التصوف «الإسلامي» هو الذي أثر في التصوف الهندي والمسيحي!![5].

ومن هنا يتضح لنا ظهور التشابه الكبير بين المصادر الأجنبية وبين التصوف، حتى إن المتصوفة أنفسهم لم يستطيعوا إنكاره، ودافعوا فقط بحجة واهية وهي أن التشابه لا يقتضي المصدرية!، ولذلك فإن

---

(١) يُنظر: أبو الوفاء الغنيمي التفتازاني، مدخل إلى التصوف الإسلامي، دار الثقافة للنشر والتوزيع-القاهرة، ط٣، ت بدون، ص٢٥-٣٧

(٢) المرجع نفسه، ص٢٩

(٣) المرجع نفسه، ص٣٢

(٤) المرجع نفسه، ص٣٣

(٥) يُنظر: محمد عبدالله الشرقاوي، الاتجاهات الحديثة في دراسة التصوف الإسلامي، ص١٠٤-١٢٨

المستشرقين حال بحثهم في التصوف أدركوا ذلك التشابه، وقالوا بلا تردد بأن التصوف يعود لمصادر أجنبية عن الإسلام.

ولكن ثمة أمران جديران بالملاحظة في هذا المقام، وهما:

الأمر الأول: أن الحديث عن نشأة التصوف -بشكل عام- من مصادر أجنبية عن الإسلام جاء ابتداءً من قبل المستشرقين، ولم يُسبقوا إلى ذلك، وأما أقوال البيروني أو غيره من العلماء إنما كانت لوصف أحوال معينة أو سلوكيات محددة للمتصوفة، ولم يكن حديثهم عن نشأة التصوف من مصادر أجنبية. ومن هنا يُلاحظ أن كُتب المتصوفة التي ناقشت هذه المسألة لا تخلو من ذكرٍ للمستشرقين، لأنهم أول من أثار هذه المسألة، وفي ذات الوقت لا تجد في كُتب المستشرقين الذي تناولوا هذه المسألة إحالة لأحدٍ قبلهم، على العكس -مثلاً- في مسألة تعريف التصوف والتي لم يأت المستشرقون فيها بجديد، بل نقلوا أقوال المتصوفة فيها.

الأمر الثاني: أن أبرز شخصيتين استشراقيتين باحثتين في التصوف وهما «نيكلسون» و«ماسينيون» لهما رأيين في مسألة المصدرية، قديمٌ وجديد؛ ففي القديم قالا بأن التصوف نشأ من مصادر أجنبية -كما مرَّ آنفاً-. وأما في رأيهما الجديد فقالا بأن التصوف نشأ من مصادر إسلامية أصيلة!

وحول هذا الأمر يقول أبو العُلا عفيفي: «ولكنا نجد تحولاً ظاهراً في نظرية نيكلسون في المقال الذي نشره سنة ١٩٢١م في دائرة معارف الدين والأخلاق تحت عنوان «التصوف»، فإنه يعترف صراحة بمنزلة العامل الإسلامي من بين العوامل التي ساعدت على نشأة التصوف»[(١)].

وقد عَدَّ عبدالرحمن بدوي في كتابه «تاريخ التصوف الإسلامي» هذا التراجع من «نيكلسون» تراجعاً خفيفاً وعلى استحياء[(٢)]، وأعقب ذلك بقوله: «ثم جاء الأستاذ لويس ماسينيون، أعظم باحث في التصوف الإسلامي على الإطلاق فخطا خطوة واسعة جداً وجّهت الدراسات

---

(١) يُنظر: مقدمة أبو العلا عفيفي لكتاب: نيكلسون، في التصوف الإسلامي وتاريخه، لجنة التأليف والترجمة والنشر-القاهرة، ط بدون، ١٣٨٥هـ-١٩٦٩م، ص: صس-ع

(٢) ينظر: عبدالرحمن بدوي، تاريخ التصوف الإسلامي، ص٤٥-٤٦

توجيهاً جديداً تماماً، فقرر بعد دراسته المحكمة الدقيقة لما قيل من آراء في تأثر نشأة التصوف الإسلامي بعوامل أجنبية أن هذه الدراسة الطويلة تمكّن من أن نؤكد أن التصوف الإسلامي في أصله وتطوره صدر عن إدامة تلاوة القرآن والتأمل فيه وممارسته»[1].

ثم ينقل بدوي من دراسةٍ لماسينيون نشرت بالفرنسية عام ١٩٢٢م تحت عنوان «بحث في المصطلح الفني للتصوف الإسلامي» قول «ماسينيون» : «لقد قام التصوف الإسلامي على أساس التلاوة المستمرة والقراءة الشاملة لهذا النص المعتبر مقدساً. ومنه استمد خصائصه المميزة: التلاوة المشتركة وبصوت مرتفع (الذكر، رفع الصوت)، وإقامة مجالس الذكر المنتظمة، والتي فيها تتلى آيات من القرآن، وموضوعات للتأمل مناسبة ومنثورة»[2].

وفي كتاب آخر يقول عبدالرحمن بدوي: «ولهذا فإن للمرحوم الأستاذ ماسينيون الفضل العظيم في تفسير نشأة التصوف الإسلامي ونموه -على الأقل في القرون الثلاثة الأولى- تفسيراً مستمداً من أصول إسلامية خالصة، ومن الكتاب والسنة على وجه التخصيص»[3].

وبعد، فإن هذا التراجع من قبل قُطبي البحث في التصوف «نيكلسون» و«ماسينيون» عن القول بالمصدرية الأجنبية للتصوف إلى القول بأصالة نشأة التصوف في الإسلام له أيضاً مدلولاته ومراميه، وبخاصةٍ إذا أضفنا إليها مسألة الاشتقاق، السابقة والتي رجّحا فيها اشتقاق التصوف من كلمة «صوف» العربية!

وبما أن الحديث عن موقف المستشرقين لم يتمَّ بعد؛ فسأترك الحديث عن هذه المرامي والمدلولات إلى نهاية هذا الفصل، وذلك حينما يكتمل التصور عن موقف المستشرقين من التصوف بدءاً من اشتقاقه ونشأته، وانتهاءً برموزه ومؤلفاتهم، وبالله التوفيق.

---

(١) المرجع نفسه، ص٤٧

(٢) المرجع نفسه، ص٤٧

(٣) عبدالرحمن بدوي، دراسات إسلامية/ شخصيات قلقة في الإسلام، دار النهضة العربية- القاهرة، ط٣، ١٩٦٤م، ص: يج.

المبحث الثاني

موقف المستشرقين من عقائد الصوفية، ونقده

تبين من خلال ما سبق مدى اهتمام المستشرقين بالتصوف، إذ تناولوا البحث فيه ابتداءً من اشتقاقه اللغوي، ومضى أيضاً موقفهم من نشأة التصوف حيث إنهم ربطوا بين عقائد التصوف وبين ما لدى الأمم الأخرى، فاستنتجوا أنهما شيءٌ واحد، ولذلك رأو أنَّ التصوف إنما هو تصوف الأمم الأخرى ولكن بثوب إسلامي، ولكنهم ما لبثوا أن تراجعوا (في غالبهم) عن هذا الرأي بناءً على ما توصل إليه مرجعهم في التصوف «ماسينيون» من أن التصوف مصدره إسلامي، وفي هذا المبحث سنلقي الضوء على جانب آخر من جوانب الاهتمام الاستشراقي بالتصوف وهو موقف المستشرقين تحديداً من عقائد التصوف تلك؛ لا من حيث المصدرية، بل موقفهم منها قبولاً ورفضاً، مدحاً وذماً، وهكذا..

وقبل الوقوف على حقيقة موقف المستشرقين من عقائد الصوفية لا بد من التذكير بأربعة مقدمات مهمة، وهي:

المقدمة الأولى: أن عقائد الصوفية كثيرة ومتنوعة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى تنتظم هذه الكثرة مع اعتماد المتصوفة على الرمز والإشارة في تفسير عقائدهم! وكذلك تواصي كبارهم بكتم سرٍّ عقدي لا يمكن البوح به! وفي هذا يقول أبو بكر الكلاباذي (ت٣٨٠هـ): «فلما كان الأمر كذلك اصطلحت هذه الطائفة على ألفاظ في علومها تعارفوها بينهم ورمزوا بها..»[1]. وأضاف أيضاً: «قال بعض المتكلمين لأبي العباس بن عطاء: ما بالكم أيها المتصوفة قد اشتققتم ألفاظاً أغربتم بها على السامعين، وخرجتم عن اللسان المعتاد؟ هل هذا طلبٌ للتمويه أو ستر لعوار المذهب؟ فقال أبو العباس: ما فعلنا ذلك إلا لغيرتنا عليه لِعزَّته علينا، كيلا يشربها غير طائفتنا»[2].

---

(١) أبو بكر الكلاباذي، التعرف لمذهب أهل التصوف، تحقيق أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية-بيروت، ط١، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م، ص١٠٢

(٢) المرجع نفسه، ص١٠٢

وقال أبو حامد الغزالي: «وقال بعض العارفين: إفشاء سر الربوبية كفر، وقال بعضهم: للربوبية سر لو أُظهر لبطلت النبوة، وللنبوة سر لو كشف لبطل العلم، وللعلماء سر لو أظهروه لبطلت الأحكام..»[1].

بل إنهم يحذرون في كتبهم من كشف هذا السر، وأن عاقبته الرمي بالكفر والقتل، وفي ذلك يقول ابن خلدون: «قُتل الحلاج بفتوى أهل الظاهر، وأهل الباطن: أهل الشريعة وأهل الحقيقة، لأنه باح بالسِّر؛ فوجبت عقوبته»[2].

ويضيف ابن عجيبة (ت١٢٢٤هـ) تعليقاً على كلام ابن خلدون: «وممن أفتى بقتله: الجنيد والشبلي، غيرة على السر أن يُفشى لغير أهله، فالواجب كتم الأسرار، وإظهار شريعة النبي المختار»[3].

ويعلق أيضاً عبدالرحمن بدوي على موقف الشبلي قائلاً: «وليس من المستبعد أن يكون الشبلي أول من نبه الصوفية إلى وجوب عدم الإباحة بهذه الأسرار، لأنه -وقد كان صديق الحلاج الحميم، وشاهدَ مصيره فأثَّر في نفسه أبلغ تأثير وأعمقه- آثر طمعاً في السلامة أن يُدخِل هذه الفكرة ويدعو هذه الدعوة»[4].

فيا ترى ما هذه العقيدة (السِّرية) التي يتواصى بكتمها المتصوفة؟! لعل الجواب يتضح فيما سيأتي.

المقدمة الثانية: أن عقائد الصوفية بالرغم من كثرتها وتشكلها في طرائق كثيرة؛ إلا أن المتصوفة يتكلمون عن غاية واحدة تلتقي فيها تلك الطرائق، وتنتهي إليها، فالغاية عندهم واحدة وإن تعددت الطرائق[5]،

(١) أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، مكتبة كرياطة فوترا-اندونيسيا، ط بدون، ت بدون، ١/٩٩-١٠٠

(٢) نقلاً عن: أحمد بن عجيبة الحسني، الفتوحات الإلهية، تحقيق: عبدالرحمن حسن محمود، عالم الفكر-القاهرة، ط بدون، ت بدون، ص٢٥٩

(٣) المرجع نفسه، ص٢٥٩

(٤) عبدالرحمن بدي، شطحات الصوفية، وكالة المطبوعات-الكويت، ط بدون، ت بدون، ص٢٣

(٥) أنبِّه هنا فقط إلى أن طرق التصوف من الكثرة بحيث لا يوجد حصرٌ لعددها، وذلك لتوالدها المستمر إلى يومنا هذا! ومن الطرق الحديثة للتصوف الطريقة العزمية، والتي تأسست بمصر عام ١٣٥٣هـ/ ١٩٣٤م، ويُلاحظ في رسالة مؤسِّسها محمد ماضي أبو العزائم إلى شيخ مشايخ الطرق الصوفية وقتئذٍ -لكي يستأذنه فيها تأسيسَ طريقته- زعمه بأنه تلقي أسرار الطريق عن أحد مشايخه، وأذن له بالنقل عنه!. يُنظر: الموقع الاليكتروني المسمَّى «العارف بالله الإمام المجدد السيد محمد ماضي أبو العزائم»: www.mohamedmadyabuelazayem.com

وهي «وحدة الوجود»[1].

وفي هذا يقول شيخ الأزهر عبدالحليم محمود وطه سرور في تقديمهما لكتاب «التعرف لمذهب أهل التصوف»: «وفي الناس من يرى أن التصوف مذاهب وفرق وطوائف، ولكن هذا التفكير المنحرف تأتّى إلى القائلين به من نظرتهم إلى علم الكلام وإلى الفلسفة؛ ففي علم الكلام: أشاعرة ومعتزلة ومشبهة؛ وفي الفلسفة: أرسطيون وأفلاطونيون وديكارتيون.. والنفوس مهيأة لقبول فكرة الطوائف في جميع العلوم النظرية، ولقد خلط الكاتبون بين هذه الدراسات والتصوف، فزعموا أن في التصوف مذاهب وفرقاً وطوائف. ولو أنعموا[2] النظر لعرفوا أن التصوف تجربة روحية، وليس نظراً عقلياً، وإذا كان النظر العقلي يفرق بين الناظرين إلى طوائف وفرق فإن التجربة لا يختلف فيها اثنان، وإذا كانت الفلسفة لأنها نظر عقلي مذاهب متعددة فإن التصوف وهو تجربة مذهب واحد لا تعدد فيه ولا خلاف. وكما أنه لا يستساغ الخلط بين الوسائل والغايات في أي ميدان من الميادين، فإنه لا يستساغ الخلط بين طرق التصوف، وهي وسائل، وبين الغاية، وهي التصوف نفسه، فطرق التصوف متعددة مختلفة، وبعضها أوفق من بعض، وبعضها أسرع من بعض، ولكنها على اختلافها وتعددها تؤدي إلى هدف واحد وغاية واحدة. التصوف إذن مذهب بصيغة الإفراد لا مذاهب بصيغة الجمع»[3].

وهذه الغاية تتضح أيضاً فيما ذكره عبدالرحمن بدوي في كتابه «تاريخ التصوف الإسلامي»، إذ يقول: «والحق أن التصوف يقوم في جوهره على أساسين:

١ - التجربة الباطنة المباشرة للاتصال بين العبد والرب.

٢- إمكان الاتحاد بين الصوفي وبين الله»[4].

---

(١) سبق التعريف بوحدة الوجود في التمهيد.

(٢) عبارة «أنعم النظر» صحيحة مثل قول: «أمعن النظر»، قال ابن منظور: «أنعم النظر في الشيء إذا أطال الفِكْرة فيه». لسان العرب، مادة «نعم»، ١٢/ ٥٨٦

(٣) مقدمة كتاب: الكلاباذي، التعرف لمذهب أهل التصوف، تحقيق: عبدالحليم محمود وطه عبدالباقي سرور، طبعة عيسى الحلبي - القاهرة، ١٩٦٠م، ص١٢-١٣

(٤) عبدالرحمن بدوي، تاريخ التصوف الإسلامي، ص١٨

ثم يقول في توضيح الأساس الثاني: «أما الأساس الثاني فضروريٌ جداً في مفهوم التصوف، وإلا لكان مجرد أخلاق دينية، ويقوم في توكيد المطلق، أو الوجود الحق، أو الموجود الواحد الأحد الذي يضم في حضنه كل الموجودات، وفي إمكان الاتصال به اتصالاً متفاوتاً في المراتب حتى يصل المرء إلى مرتبة الاتحاد التام، بحيث لا يبقى ثَمَّ إلا هو، ومن هنا كان طريق التصوف سُلَّماً صاعداً ذا درجاتٍ نهايتها عند الذات العلية، وكان سَفَراً يرقى في معارج حتى ذروة الاتحاد»[1].

ويقول الدكتور أحمد القصيِّر: «وحدة الوجود عقيدة كبرى من عقائد الصوفية، تعني -بأوجز عبارة-: أن الله تعالى والعالم شيء واحد!»[2].

ويقول أيضاً: «الطرق الصوفية المتعددة مختلفة في بعض الشعارات والطقوس الظاهرة، ولكنها متفقة في الغاية والنهاية، وهي إيصال المريد إلى وحدة الوجود»[3].

وحدة الوجود إذاً هي حقيقة التصوف (غايته)، وهي السر (المعلوم) المتواصى بكتمه، أو بعبارة أدق: المتواصى بعدم التصريح به حتى لا يتضرر قائله!

المقدمة الثالثة: أن غاية التصوف هذه (أي: وحدة الوجود) يُدركها المستشرقون تماماً ويعرفون كنهها؛ فعلى سبيل المثال يقول «جولد تسيهر»[4] عن هذه الغاية: «فمحبة الله هي إذن خلاصة ما ينتهي إليه هذا المجهود المركز الذي بذلته أرواح الصوفيين، لكي يفنى خيال الوجود الشخصي في حقيقة الكائن الإلهي الشاملة لكل شيء»[5]، ويضيف أيضاً: «ومهما تباينت معالم الطريق عند البوذيين والصوفيين فهما يشتركان في

(١) المرجع نفسه، ص١٩
(٢) أحمد القصيِّر، عقيدة الصوفية وحدة الوجود الخفية، مكتبة الرشد-الرياض، ط١، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م، ص٢٨
(٣) المرجع نفسه، ص٦٥٧
(٤) سبق ترجمته.
(٥) جولد تسيهر، العقيدة والشريعة في الإسلام، ترجمة: محمد موسى وعلي حسن وعبدالعزيز عبدالحق، دار الكتب الحديثة بمصر، ط٣، ت بدون، ص١٥٦

صدورهما عن مبدأ واحد، ويتفقان في أن التأمل -ويسمى عند الصوفيين «المراقبة» أو«الديانة»- يشغل مكاناً مهماً كمرحلة إعدادية للسير نحو أعلى مراتب الكمال، وذلك حينما يصبح المتأمل وموضع التأمل شيئاً واحداً. هذا هو الشعور الذاتي بالوحدانية، وهو غاية التوحيد عند الصوفيين، ويختلف اختلافاً جوهرياً عن عقيدة الوحدانية في الإسلام العادي»[١].

وتساءل «نيكلسون»[٢] -الذي خبر عقائد التصوف- كيف تم قبول التصوف ضمن الإسلام، إذ يقول: «ولعله أن يقال: كيف لدين أقامه محمد على التوحيد الخالص المتشدد، أن يصبر على هذه النِّحل الجديدة، بله أن يكون معها على وفاق؟ وإنه ليبدو أن ليس في الوسع التوفيق بين «الشخصية الإلهية المنزهة *Transcendent Personality of Allah*» وبين «الحقيقة الباطنة الموجودة في كل شيء *The Immanent Reality*» التي هي حياة العالم وروحه. وبرغم هذا فالصوفية بدل أن يطردوا من دائرة الإسلام قد تقبلوا فيها، وفي (تذكرة الأولياء) شواهد على الشطحات الغالية للحلولية الشرقية»[٣].

ويتعجب أيضاً «ماسنيون»[٤] في دائرة المعارف الإسلامية قائلاً: «وقد حار علماء الإسلاميات الأُوَل في تعليل ذلك الخلاف الكبير في العقيدة بين مذهب الوحدة الحالي ومذهب أهل السنة الصحيح، فذهبوا إلى أن التصوف مذهب دخيل في الإسلام»[٥]. ويقول «فيليب حتى»[٦]: «وكل متصوف -أكان من أتباع موسى أو عيسى أو محمد [عليهم السلام]- فإنه

(١) المرجع نفسه، ص١٦٢

(٢) سبق ترجمته.

(٣) نيكلسون، الصوفية في الإسلام، ص٣١

(٤) سبق ترجمته.

(٥) دائرة المعارف الإسلامية، الجزء ١٦ (التصوف)، ص٤٧-٤٨

(٦) فيليب حتي *Hitti, P.K* (1886-1978م)، مستشرق أمريكي، لبناني الأصل، أستاذ التاريخ العربي العربي واللغات الشرقية في عدد من الجامعات الأمريكية، من آثاره: «تاريخ العرب»، و«أصول الدولة الإسلامية»، و«أصول الشعب الدرزي وديانته»، وغيرها. يُنظر: المستشرقون للعقيقي، ٣/ ١٠١٠

يُسمي حياته الروحية «سَفَراً». والهدف الأسمى لهؤلاء جميعاً يكاد يكون واحداً: الاتحاد بالله (أو الوصول إليه أو مشاهدته))»[1].

المقدمة الرابعة: أن أبحاث المستشرقين التالية لما قرره وانتهى إليه «ماسينيون» من أن مصدر التصوف إسلامي،لم تخرج بعد ذلك عن تقريره ذلك؛ كونه عندهم الحجة في التصوف، وفي هذا يقول المستشرق «دومينيك سورديل»[2]: «والصوفية، بذاتها، قد تضمنت بالتأكيد معلومات جاءتها من عقائد غريبة. ولكن منذ أن حرص لويس ماسينيون، بصورة خاصة على إبراز «الجذور القرآنية» للحركة الصوفية قلما نازع أحد بعد ذلك في أصالة هذه المدرسة الروحانية الخاصة بالإسلام، والتي يتطلب دَرْسُها اليقظة؛ لأن أهلها كانوا يعلمون عقائد في الغالب يصعب تأويلها، ويتميز بعضها عن بعض بمعان دقيقة»[3].

وبعد، فيتضح من خلال هذه المقدمات الأربع أمرين رئيسيين؛ أولهما: أن التصوف عقائد وطرائق شتى ولكنه شيءٌ واحد بالنظر إلى الحقيقة التي يسير لإدراكها وتحقيقها؛ وهي «وحدة الوجود». وثانيهما: أن المستشرقين يدركون تماماً هذه الحقيقة، بل يدركون أيضاً -كما مر آنفاً- أنها تتعارض مع الدين الخالص الذي جاء به نبينا الكريم ﷺ.

وهذا الإدراك من المستشرقين لحقيقة التصوف هو ما يفسر لنا أمرين مهمين:

الأول: أنك لا تكاد تجد ذماً أو انتقاصاً للتصوف من قبل المستشرقين، وخاصة من كبار باحثيهم في التصوف.

الثاني: أن إحياء التصوف في العالم الإسلامي، منذ القرن التاسع عشر، سواء بالكتابة فيه أو بإعادة تحقيق مصادره ونشرها، ..الخ، إنما كان على يد

---

(١) فيليب حتي، الإسلام منهج حياة، ترجمة: عمر فروخ، دار العلم للملايين-بيروت، ط١، ١٩٧٢م، ص١٢٦

(٢) دومينيك سورديل(..- 1921) *Sourdel,D.*، مستشرق فرنسي، من آثاره: «أساتذة المدرسة في حلب في القرنين الثاني عشر والثالث عشر»، ونَشْرُ كتاب «الكتاب وصفة الدواة والقلم وتعريفهما» لأبي القاسم البغدادي النحوي، وغير ذلك. يُنظر: المستشرقون للعقيقي، ١/ ٣٢٩

(٣) دومينيك سورديل، الإسلام/ العقيدة.. السياسة.. الحضارة، ترجمة: علي مقلد، دار التنوير-لبنان، ط٢، ١٩٩٨م، ص١٠٩-١١٠

لمستشرقين، وبذلك يشهد حتى المتصوفة أنفسهم، وقد نقلت بعض أقوالهم في هذا فيما مضى.

ولذلك نعود هنا لمناقشة النتيجة المهمة التي كانت في المبحث السابق، وهي أن قُطبي البحث في التصوف (ماسنيون ونيكلسون) تراجعا عن القول بأجنبية مصادر التصوف إلى القول بأصالة التصوف في الإسلام. فنقول بما أن المسألة التي بين أيدينا الآن هي عن موقوف المستشرقين من مضمون التصوف (عقائده)، فهل كان لمضمون التصوف الأثر في ذلك التراجع المهم؟

يمكن أن يُجاب عن هذا التساؤل بأن المستشرقين في بدايات دراستهم للتصوف قالوا بأجنبية مصدرية التصوف عن الإسلام، وذلك لوجود تشابه ظاهر بين التصوف وما في الديانات الأخرى لا يمكن لأحدٍ أن يتجاوزه أو ينكره. وهذا القول الصريح المطابق للواقع منهم يندرج تحت توجهات المستشرقين العديدة، ومنها -على سبيل المثال-:

التوجه الأول: أن من رأى منهم بأن التصوف هو الإسلام وجد في ذلك التشابه الحقيقي بين التصوف وما في الديانات الأخرى فرصة للهجوم على الإسلام والانتقاص منه، فقال بأجنبية مصادر التصوف ظناً منه أنه قد نال من الإسلام!

التوجه الثاني: أن بعض المستشرقين رأى في التصوف حركة روحية سامية لا يمكن أن تنبع من دين الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ، فعد التصوفَ حركة طارئة عليه من أصول أجنبية.

التوجه الثالث: الموضوعية البحثية لدى بعضهم، والتي جعلتهم يحكون الواقع كما هو.

هذه التوجهات الاستشراقية كانت تقريباً في بدايات تناول المستشرقين للتصوف، وإلى هذه الحقبة الأولى تشير المستشرقة «آنا ماري شيمل»[1] قائلة: «وتم في القرن التاسع عشر طبع العديد من الأعمال والمصادر

---

(١) سبق ترجمتها.

التاريخية عن تاريخ الصوفية، مما ممكن العلماء تدريجياً من الحصول على تصور أفضل عن بدايات وتطور التصوف الإسلامي، لكن معظم المصادر الأولى التي تمت طباعتها كانت تقريباً من حقب متأخرة ونادراً ما كانت تتضمن معلومات أكيدة عن أول ظهور للحركات الصوفية، لذلك اتفق معظم العلماء على أن التصوف نبتة غريبة في صحراء الإسلام لأن حقيقة الدين الإسلامي لم تكن معروفة بشكل جيد ولم تُقدَّر حق قدرها، فلم يكن أحد يستطيع أن يتصور أن تخرج من عباءة الإسلام حركة روحية سامية»[1].

وأما في المنتصف الأول من القرن العشرين، والذي يُعد الفترة الذهبية للاحتلال الغربي للعالم الإسلامي، فقد جَهِد كبار باحثي التصوف من المستشرقين إلى رد التصوف إلى مصادر إسلامية، وربطه بالإسلام الحقيقي الذي جاء به النبي الكريم ﷺ، بدءاً من اشتقاق كلمة «التصوف» كما فعل «نولدكه» الذي أنكر اشتقاقها من (سوف) اليونانية، واجتهد في إثبات اشتقاقها من (صوف) العربية[2]، وانتهاءً بما أثاره «نيكلسون» من رد التصوف إلى مصادر إسلاميه، ومن ثمّ تقرير «ماسينيون» لذلك باعتباره نقطة النهاية في بحث مصدرية التصوف.

إذاً فثمة شبهة تواطؤ بين المستشرقين وبين الاستعمار في مسألة التصوف، فيا ترى إلى أي مدى بلغ ذلك التواطؤ؟!

إنه وبنظرة سريعة إلى بعض عقائد التصوف تتضح بشكل كبير أبعاد هذا الموقف الاستشراقي الاستعماري من التصوف؛ فمثلاً: عقيدة الرضا بالقدر في المفهوم الصوفي تُنتج السكون العام لدى مُعتقِدها، والرضا بالواقع المقدور مهما كانت مرارته. وعقيدة وحدة الوجود (لب الفكر الصوفي) تُنتج وحدة الأديان، وبالتالي لا فرق بين دين وآخر، فالجميع عندهم سائرون إلى الله وإن اختلفت الأديان والعقائد[3].

---

(١) آنا ماري شيمل، الأبعاد الصوفية في الإسلام وتاريخ التصوف، ص١٣

(٢) يُنظر: عبدالرحمن بدوي، تاريخ التصوف الإسلامي، ص١٠

(٣) بما أن «وحدة الوجود» هي لب التصوف وغايته؛ فسيأتي ذكرها في مواطن عديدة قادمة في هذه الدراسة.

فهذا القبول بالكفار وذاك السكون هما من أعظم ما ينشده مستعمرٌ غربي لبلد مسلم! وهذا ما أدركه المستشرقون تماماً! يقول المستشرق «نيكلسون»: «وقد لزم عن القول بوحدة الوجود، أي القول بأن كل وجود وكل فكر وعمل هو في الحقيقة لله، لوازم لم يتحرج الصوفية من التسليم بها»[1]، وأضاف أيضاً: «ومن لوازم مذهبهم في وحدة الوجود أيضاً قولهم بصحة جميع العقائد الدينية أياً كانت، فإن الحق كما يقول ابن عربي لا تحصره عقيدة دون أخرى»[2]، ويقول المستشرق «جولد تسيهر»[3]: «ومهما تظاهر الصوفيون بتقدير الإسلام السني تقديراً عالياً، فلغاليبتهم نزعة مشتركة إلى محو الحدود التي تفصل بين العقائد والأديان، وعندهم أن هذه العقائد كلها لها نفس القيمة النسبية إزاء الغاية المثلى التي ينبغي الوصول إليها، كما أن هذه الأديان جميعاً تتجرد عن هذه القيمة إذا لم تنتج المحبة الإلهية، وهذه المحبة هي التي يمكن أن تعتبر مقياساً موحداً ثابتاً لتقدير الأديان»[4].

بل إن المستشرقين يدركون أبعد من ذلك عن التصوف؛ فهم يدركون أن التصوف (تاريخياً) كان سبباً من أسباب ضعف المسلمين وتدهور حضارتهم، فها هو «جولد تسيهر» يقول أيضاً في معرض حديثه عن التصوف: «ومع ذلك فلنا أن نتساءل: كيف استطاعت نزعة النسك والتصوف هذه أن تصادف قبولاً واستحساناً في مجتمع ديني شارف أوج عظمته، وبلغ أقصى ما يصبو إليه من توسع وفتح، ولم يترك عهد البداوة إلا منذ زمن وجيز لينعم برغد العيش في المدن المترفة القديمة في البلاد المفتوحة؟»[5].

وصدق «تسيهر» في تساؤله هذا، إذ هو يدرك تماماً أن بناء الحضارة والقوة يتعارض مع حقيقة التصوف السلبية.

---

(١) نيكلسون، في التصوف الإسلامي وتاريخه، ص٨٨

(٢) المرجع نفسه، ص٨٨

(٣) سبق ترجمته.

(٤) جولد تسيهر، العقيدة والشريعة في الإسلام، ص١٧٠

(٥) جولد تسيهر، العقيدة والشريعة في الإسلام، ص١٥٢

ويقول أيضاً المستشرق «الفرد بل»[١]: «ومثل هذه النزعة في التصوف بتصوراتها القدرية كان حتماً أن تؤدي إلى انحطاط الدراسة، والعلوم والفنون، وبالجملة إلى انحطاط الحضارة الإسلامية، وفي رأينا أن هذا أحد الأسباب الرئيسية في الانحلال الذي غزا الإسلام كله وبخاصة في المغرب، ابتداءً من القرن الرابع عشر، والذي تزايد في القرن الخامس عشر وفي القرون التالية»[٢].

وبما أنهم يدركون كل هذا وأكثر عن التصوف فهم أيضاً يدركون موقف أهل السنة من نتائج هذه العقائد بل ومن أَتْبَاعها، ولذلك يقول «جولد تسيهر»: «وينبغي أن نتوقع مجافاة أهل السنة للصوفيين، وعدم انطواء نفوسهم على نية حسنة لهم»[٣].

إن مما يزيد تأكيد هذا التواطؤ المقيت بين المستشرقين والاستعمار في نشر التصوف وإحيائه في العالم الإسلامي[٤] أن «لويس ماسينيون» (وهو الحُجَّة في التصوف عند المستشرقين) كان له مشاركات فعلية مع المستعمر الفرنسي، فقد شارك بوصفه ضابط مشاة في معركة الدردنيل ضد العثمانيين، وشارك بوصفه ضابطاً ملحقاً بمكتب المندوب السامي الفرنسي في سوريا وفلسطين، وكان من ضمن الجيش الذي دخل القدس في ١٩١٧م[٥] بقيادة «أللنبي»[٦]، وكان عضواً مشاركاً في اللجنة الفرنسية لاتفاقية «سايكس

---

(١) الفرد بل *Bel,A.O.* (1873-1945م)، مستشرق فرنسي، أقام ردحاً من الزمن في شمال أفريقيا مديراً لمدرسة تلمسان، نشر وترجم العديد من المخطوطات الإسلامية، ومن آثاره: «قصة الفن الإسلامي»، و«نظرة الإسلام عند قبائل البربر»، و«التصوف في المغرب الإسلامي»، وغيرها. يُنظر: المستشرقون للعقيقي، ١/ ٢٥٦

(٢) الفرد بل، الفرق الإسلامية في الشمال الأفريقي من الفتح العربي حتى اليوم، ترجمة: عبدالرحمن بدوي، دار الغرب الإسلامي، ط٣، ١٩٨٧، ص٤٠٥

(٣) جولد تسيهر، العقيدة والشريعة في الإسلام، ص١٧٣

(٤) سيأتي مزيد بيان لهذه المسألة عند الحديث عن موقف الصوفية من الاستعمار الغربي والجهاد في الفصل القادم.

(٥) يُنظر: موسوعة المستشرقين، ص٥٣٢

(٦) أللنبي أدموند *Edmund Allenby* (1861-1936م) مارشال انجليزي، تولى قيادة القوات البريطانية في مصر وفلسطين (١٩١٧-١٩١٨م) خلال الحرب العالمية الأولى، احتل القدس عام١٩١٧م، وبعد الحرب شغل منصب المندوب السامي البريطاني في مصر (١٩١٩-١٩٢٥م). يُنظر: معجم أعلام المورد، ص٦٤

بيكو» (الفرنسية/الإنجليزية)[1]، والتي بموجبها اتفقت فرنسا وبريطانيا على مناطق نفوذهما الاستعماري في غربي آسيا، بعد انحسار الدولة العثمانية.

ويقول «جان موريون» في كتابه عن «ماسينيون»: «تمت في ١٥ آذار من العام ١٩١٥م تعبئته وتجنيده في الزواوي الأول (جندي فرنسي بلباس أهل المغرب والجزائر) وأُلحق بحملة الدردنيل العسكرية، ثم عُيِّن ضابطاً مترجماً ونائب الرئيس في المكتب الثاني في القيادة العامة للفرقة السابعة عشرة، ثم نُقل بناء لطلبه إلى الجيش وعُيِّن برتبة ملازم في فرقة المشاة السادسة والخمسين في ١٦ تشرين الأول ١٩١٦م وقد حصل على تنويهين وعلى وسام صربيا الذهبي تقديراً لشجاعته. ثم أُلحق بوزارة الشؤون الخارجية بصفته ضابطاً مساعداً في المفوضية الفرنسية العليا في سوريا وفلسطين وكيليكية في الفترة الممتدة من ٢٧ آذار ١٩١٧ و ٢٨ نيسان ١٩١٩م، ورقيّ لرتبة نقيب بصورة مؤقتة ودُعي للمساهمة في المهمة الفرنسية البريطانية؛ مهمة سايكس-بيكو *Sykes-Picot* وتطبيق الاتفاقيات الموقعة في لندن لتحديد مناطق النفوذ الفرنسية والانكليزية في الشرق الأوسط. ويقول ماسينيون: لقد اتخذني بيكو مساعداً له بوصفي خبيراً في الشؤون العربية والإسلامية»[2].

ويقول عنه الدكتور محمد بن عبود: «كان مستعمراً نشطاً يؤمن بالسياسة الاستعمارية للمارشال لويتي في المغرب، وعمل على تنفيذها لتأييد سياسته «البربرية» في مراكش بعد أن وجد ما يسوغها من الناحية الفكرية ليس هذا فحسب بل بتأييد الاستراتيجية الفرنسية لدمج المغرب مع فرنسا»[3].

---

(١) يُنظر: صابر عبده أبا زياد، لويس ماسينيون وجهوده في الفكر الفلسفي الإسلامي، دار الوفاء لدنيا الطباعة-الإسكندرية، ط بدون، ٢٠٠٤م، ص١٩

(٢) جان موريون، لويس ماسينيون، ترجمة منى النجار، المؤسسة العربية للدراسات والنشر-بيروت، ط١، ١٩٨١م، ص٢٨

(٣) بحث للدكتور محمد بن عبود ضمن كتاب: مناهج المستشرقين في الدراسات الإسلامية، من إصدارات المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ومكتب التربية العربي لدول الخليج، تونس، ١٩٨٥م، ١/ ٣٦٥

وأما الدكتور نذير حمدان فيقول عن «ماسينيون»: «تميزت شخصيته بالسياسة فهو مستشار وزارة المستعمرات الفرنسية في شمال أفريقيا..، وبالعسكرية فهو خدم بالجيش الفرنسي خمس مرات في الحرب العالمية الأولى. ولكن أبرز طوابع هذه الشخصية الطابع التنصيري فهو الراعي الروحي للجمعيات التبشيرية الفرنسية في مصر، ووضع اتجاهه التنصيري البارز في خدمة السياسة الاستعمارية الفرنسية حينذاك، وما تخصصه في الفلسفة والتصوف (الحلاجي) وتأليفه فيهما سوى توظيفهما في النشاط التنصيري السياسي الظاهر والخفي، فقد كتب عن الحلاج المقتول (٣٠٩)، ومذهب الحلاجية (١٩٠٩)، والحلاج والشيطان في نظر الزيدية، وكتابا الزيدية المقدسان (١٩١١)، وتاريخ تأليف رسائل إخوان الصفا (١٩١٣)، وأربعة نصوص متعلقة بالحلاج (١٩١٤)..»[1]. وأضاف أيضاً: «ومثل منصبه في وزارة المستعمرات كمستشار تزدوج فيه اهتماماته الدرسية والسياسية إلى سمعته الغالبة في الاتجاه التنصيري الصوفي لتكوّن منه الفرنسي المخلص لدولته، والكاثوليكي اليسوعي الواهب نفسه لها والذي استغل انتشار الصوفية وطرقها في الشمال العربي فعنى بها سلوكاً وكتابة»[2].

وأما المستشرق «نيكلسون» -الذي يأتي في المرتبة الثانية بعد «ماسنيون» في بحث التصوف- فيقول عن نفسه في برنامج إذاعي أثناء الحرب العالمية الثانية: «من المعروف جيداً أن مذاهب الصوفية المسلمين وتأملاتهم أثرت في الإسلام تأثيراً قوياً. وإلى حد ما فإنها توفر أرضاً مشتركة يمكن أن يلتقي فيها أناس من ديانات مختلفة، مع بقائهم مخلصين للديانة التي يؤمن بها كل واحدٍ منهم، يلتقون بروح التسامح والتفاهم المتبادل، وعن هذا الطريق يتعلمون أن يعرف بعضهم بعضاً ويحبه. فإن كان عملي قد أعان على أي نحو في هذا التفاهم، فلن يكون قد أُنجز عبثاً»[3].

---

(١) نذير حمدان، مستشرقون سياسيون- جامعيون- مجمعيون، مكتبة الصديق-الطائف، ط١، ١٤٠٨-١٩٨٨م، ص١٩٤

(٢) المرجع نفسه، ص١٩٥

(٣) موسوعة المستشرقين، ص٥٩٣

وبعد، فيمكننا القول الآن بأن موقف المستشرقين من عقائد التصوف كان موقفاً إيجابياً، بل إن إدراكهم لحقيقة تلك العقائد ونتائجها هو ما جعلهم يتراجعون عن القول بأجنبية مصادر التصوف عن الإسلام ويقولون بأصالته في الإسلام، ولذلك لم يؤثر عنهم ذم عقائد التصوف أو معارضتها. وهذا الموقف منهم يأتي منسجماً مع مصلحة الغرب الاستعمارية، والتي قبلت التصوف وساندته بعد أن وجدت أنه يهزم روح المقاومة والبناء لدى أتباعه، بل إنه يجعل من جميع الأديان شيئاً واحداً؛ كنتيجة طبيعية لعقيدة وحدة الوجود، والتي هي سِّرُ التصوف وغايته.

هذا، وسوف يأتي مزيد بيان عن موقف المستشرقين من مؤلفات الصوفية ورموزهم، مما سيزيد الأمر بياناً، بإذن الله.

المبحث الثالث

موقف المستشرقين من مؤلفات الصوفية، ونقده

لقد كان موقف المستشرقين من مؤلفات الصوفية منسجماً تماماً مع موقفهم الإيجابي من عقائد التصوف، والتي وجدوا فيها -كما مرّ آنفاً- مادة لإضعاف الإسلام، الذي يَعدُّونه بحضارته المنافس الحقيقي لهم، والخطر القائم على شعوبهم، ولذلك فقد اجتهد المستشرقون في تحقيق ونشر تراث التصوف؛ فكان لهم قصب السبق في ذلك، وفاقوا المتصوفة أنفسهم في ذلك.

وقد كانت ريادة ذلك الجانب أيضاً بين المستشرقين للمستشرقَين - «نيكلسون» و«ماسنيون»، وفيهما يقول المستشرق «كاسبر»[1]: «لقد اهتما أولاً وقبل كل شيء بالبحث عن النصوص الصوفية التي كان معظمها لا يزال مخطوطاً ونشراها، وقد ازداد نشر مثل هذه الأعمال تدريجياً مع مر السنين، وهكذا ظهرت إلى الوجود مجموعة نصوص صوفية كبيرة، وأضحى من الممكن الحصول عليها بسهولة؛ مطبوعة طباعة جيدة غالباً، ومحققة تحقيقاً علمياً نقدياً في بعض الأحيان»[2].

وفيما يلي سأورد نماذج من جهود عددٍ المستشرقين في هذا الجانب؛ والتي تتنوع ما بين تحقيقٍ وترجمةٍ ونشرٍ للتراث الصوفي، وكذلك التأليف في التصوف وفي رموزه.

نماذج من عناية المستشرقين بالتصوف:

١ - «ماسينيون»: اعتنى ماسينيون بالحلاج عناية فائقة؛ فنشر كتاب الحلاج «الطواسين»، وحقق كثيراً من أخباره، حتى إنه قرر أن يكون الحلاج موضوع رسالته للدكتوراه، وبعد أن شرع فيها بدأت الحرب العالمية الأولى ففقد مخطوطها، فشرع في أخرى واستطاع في ذات الوقت

---

(١) كاسبر *R. Casper* مستشرق فرنسي. لم أقف له على ترجمة.

(٢) كاسبر، اتجاهات غربية معاصرة في دراسة التصوف الإسلامي، ترجمة محمد الشرقاوي، وهذا البحث ملحقٌ بكتاب: محمد عبدالله الشرقاوي، الاتجاهات الحديثة في دراسة التصوف الإسلامي، ص١٨٦ . وقد نُشِر الأصل منه في عام ١٩٦٢م.

أن يكتب أخرى ونوقشتا معاً؛ الأولى بعنوان: «عذاب الحلاج، شهيد التصوف في الإسلام»، وتقع في أكثر من ألف صفحة، والثانية بعنوان: «بحث في نشأة المصطلح الفني في التصوف الإسلامي»، وفيه قرر «ماسينيون» أن التصوف نشأ عن أصول إسلامية خالصة مستمدة من القرآن الكريم وسنة الرسول ﷺ وحياته، وكتب في دائرة المعارف الإسلامية مباحث كثيرة حول التصوف؛ منها مواد: تصوف- زهد- المحاسبي- نور محمدي- سهل التستري -شطح- طريقة، وغيرها[1]، وله من التآليف أيضاً: «أسطورة الحلاج في بلاد الأتراك» و«حياة الحلاج بعد وفاته» و«آلام الحلاج ومذهب الحلاجية»، و«التجربة الصوفية والأساليب الأدبية»، و«ابن سبعين والنقد النفساني»، وغيرها[2].

٢- «نيكلسون»: يذكر أبو العلا عفيفي أن أول خطوة قام بها «نيكلسون» في دراسته للتصوف هي تحقيق وترجمة ونشر مصادر التصوف، فترجم ونشر من الأصول العربية والفارسية كتاب اللُّمع لأبي نصر السَّراج، وكشف المحجوب للهجويري، وتذكرة الأولياء لفريد الدين العطار، وترجمان الأشواق لابن عربي، وبعض قصائد ابن الفارض، وديوان جلال الدين الرومي[3]، وكذلك لباب الألباب واللزوميات للمعري، وفارسنامه لابن البلخي، وله أيضاً في التصوف كتاب «التصوف الإسلامي» ويقع في ثمانية مجلدات، وبه-كما يذكر العقيقي- عُدَّ «نيكلسون» حُجةً في التصوف الإسلامي، وله أيضاً: «دراسات في التصوف الإسلامي» و«فكرة الشخصية في الصوفية»، وله في مجلة الجمعية الملكية الآسيوية وغيرها مباحث كثيرة جداً حول التصوف[4].

٣- «بلاثيوس»[5]: اعتنى بدراسة التصوف وفلاسفة الصوفية، وبخاصة الغزالي وابن عربي، ونشر بحوثاً عديدة عنهما، وترجم في التصوف فصولاً

---

(١) يُنظر: عبدالرحمن بدوي، شخصيات قلقة في الإسلام، ص: يا- يج
(٢) يُنظر: المستشرقون، للعقيقي، ١/ ٢٨٧
(٣) يُنظر: مقدمة أبو العلا عفيفي لكتاب «نيكلسون» في التصوف الإسلامي وتاريخه، ص: ل-م
(٤) يُنظر: المستشرقون، للعقيقي، ٢/ ٥٢٥
(٥) سبق ترجمته.

من كتاب الإحياء[1]، ونصوصاً مختارة من كتب ابن عربي[2]، وله أيضاً كتاب «ابن عربي حياته ومذهبه»[3].

٤- «أربري»[4]: نشر في التصوف كتاب «التعرف لمذهب أهل التصوف» للكلاباذي، و«اللُّمع» لأبي نصر السَّراج، و«المواقف والمخاطبات» للنِفري، و«التوهم» للمحاسبي، و«الصدق» لأبي سعيد الخراز، وله من التآليف: «المدخل لتاريخ التصوف»، «والتصوف الإسلامي في الدراسات البريطانية»، وغيرها[5].

٥- «جولدتسيهر»[6]: كتب في التصوف رسالة الحسين بن منصور الحلاج، الحلاج، نقد فيها كتاب الطواسين لماسينيون، وله دراسة عن الأولياء وتكريمهم في الإسلام، ودراسة أخرى عن الزهد الصوفي، وعن الصوفية[7].

٦- «دي تاسي»[8]: له في التصوف ترجمة «منطق الطير» للشاعر

---

(١) يقول ابن تيمية -رحمه الله- في جواب له عن كتاب «إحياء علوم الدين» للغزالي -رحمه الله-: «و«الإحياء» فيه فوائد كثيرة؛ لكن فيه مواد مذمومة، فإن فيه مواد فاسدة من كلام الفلاسفة تتعلق بالتوحيد والنبوة والمعاد، فإذا ذكر معارف الصوفية كان بمنزلة من أخذ عدواً للمسلمين ألبسه ثياب المسلمين، وقد أنكر أئمة الدين على «أبي حامد» هذا في كتبه، وقالوا: مرضه الشفاء، يعني شفاء ابن سينا في الفلسفة، وفيه أحاديث وآثار ضعيفة؛ بل موضوعة، وفيه أشياء من أغاليط الصوفية وتُرّهاتهم، وفيه مع ذلك من كلام المشايخ الصوفية العارفين المستقيمين في أعمال القلوب الموافق للكتاب والسنة، ومن غير ذلك من العبادات والأدب ما هو موافق للكتاب والسنة، ما هو أكثر مما يُرد منه، فلهذا اختلف فيه اجتهاد الناس وتنازعوا فيه». مجموع الفتاوى، ١٠/ ٥٥١-٥٥٢

(٢) يُنظر: الموسوعة الصوفية، ص٦٩

(٣) نقله إلى العربية عبدالرحمن بدوي.

(٤) آرثر جون أربري(Arberry,A.J (1969-1905، مستشرق انجليزي، برز في التصوف والأدب الفارسي، يتقن العربية، تقلد مناصب عدة منها: رئيس قسم الدراسات القديمة بالجامعة المصرية (القاهرة الآن)، ورئيساً لقسم الشرق الأوسط بمدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية، وعمل في وزارة الإعلام البريطانية لأربع سنوات إبان الحرب العالمية الثانية، لإصدار نشرات دعائية للبريطانيين عن الشرق الأوسط. يُنظر: المستشرقون للعقيقي، ٢/ ٥٥٦، وموسوعة المستشرقين، ص٥

(٥) يُنظر: الموسوعة الصوفية، ص٢٠

(٦) سبق ترجمته.

(٧) يُنظر: الموسوعة الصوفية، ص١١٣

(٨) دي تاسي(Tassyy,Garcin.de (1794-1878، مستشرق فرنسي، تولى تحرير المجلة الأسيوية بعد دي ساسي، ومن أعماله شرح السورة المجهولة (سورة النورين)! والتي لا وجود لها إلا في نسخة الشيعة!. يُنظر: المستشرقون للعقيقي، ١/ ١٩٦

الصوفي الفارسي فريد الدين العطار، وكذلك ترجمة «الرباعيات» للخيام[١].

٧- «دي ساسي»[٢]: ترجم للشاعر الصوفي الفارسي فريد العطار، ونشر ونشر منتخبات من شعر ابن الفارض الصوفي، وترجم قصيدة البردة للبوصيري، وله تعليقات على كتاب البرق اليماني في الفتح العثماني لشيخ الصوفية عمرو المكي، وقدم لكتاب نفحات الأنس لعبدالرحمن جامي بدراسة شاملة للتصوف[٣].

٨- «دي كورتاي»[٤]: من ترجماته في الصوفية: تذكرة الأولياء لفريد الدين العطار[٥].

٩- «دي ماتيو»[٦]: كان شديد الاهتمام باللغة العربية والتصوف وتاريخه، ترجم التائية الكبرى لابن الفارض، وله كتاب «تفسير ابن الفارض للتصوف ومصطلحاته»، وله أيضاً بحوثٌ مقارنة عن الروحانية في الإسلام والنصرانية[٧].

١٠- «دي مينار»[٨]: من أعماله: ترجمة المنقذ من الضلال للغزالي، وبستان السعدي للشاعر الفارسي[٩].

---

(١) يُنظر: الموسوعة الصوفية، ص١٦١. والمستشرقون للعقيقي، ١/ ١٩٦

(٢) البارون دي ساسي (1758-1838م Sacy,S.de) مستشرق فرنسي، أتقن العربية والعبرية والعديد من اللغات الأوروبية، عضو جمعية نشر كنوز المخطوطات الشرقية في مكتبة باريس الوطنية بأمر من الملك، وانتدب كذلك أستاذاً للغة العربية في مدرسة اللغات الشرقية، أنشأ مع تلاميذه الجمعية الآسيوية، وأسّس مجلتها ورأس تحريرها. يُنظر: المستشرقون للعقيقي، ١/ ١٧٩

(٣) يُنظر: الموسوعة الصوفية، ص١٦١

(٤) دي كورتاي (1821-1889م de Courteille,A.Pavet.) مستشرق فرنسي، حفيد دي ساسي، تعلم اللغات الشرقية في مدرسة شباب اللغات بباريس، انتخب عضواً في مجمع الكتابات والآداب، وعضواً لمجمع العلوم في بطرسبرج. يُنظر: المستشرقون للعقيقي، ١/ ٢٠١

(٥) يُنظر: الموسوعة الصوفية، ص١٦٢

(٦) دي ماتيو (1872-1948م Matteo,Ignazioi,de) مستشرق إيطالي، اشتغل إضافة إلى التصوف التصوف باللغة العربية، وتارخ الجدل بين المسيحين والمسلمين. يُنظر: المستشرقون للعقيقي، ١/ ٣٨٤

(٧) يُنظر: الموسوعة الصوفية، ص١٦٢

(٨) دي مينار (1827-1908م Meynard,Barbier.de)، مستشرق فرنسي، أتقن العربية والفارسية والتركية، أُلحِق بقنصلية فرنسا في القدس، وعُيِّن أستاذاً للعربية في مدرسة اللغات الشرقية والعربية بباريس، ورأس المجلة الآسيوية. يُنظر: المستشرقون للعقيقي، ١/ ٢١٤

(٩) يُنظر: الموسوعة الصوفية، ص١٦٣

١١- «فالين»[١]: ترجم الكثير من النصوص الصوفية، وأهمها ترجمته لشرح الشيخ عبدالغني النابلسي لتائية ابن الفارض، وله مذكرات عن حياته الروحية وإقامته بين المسلمين وتجاربه الصوفية معهم[٢].

١٢- «مرجليوت»[٣]: له في التصوف كتاب «سيرة عبدالقادر الجيلاني»، الجيلاني»، وكتب أيضاً في سِيَرِ بعض الصوفية[٤].

١٣- «مورنيو»[٥]: كان شديد الاهتمام بالتصوف، وكتب عن التصوف العربي والتصوف الهندي، وهو بحث مقارن نشره في حوليات لاتزان عام ١٩٤٦م، وكتب أيضاً: «مختارات من التصوف العربي والفارسي»، ونشره بباريس عام ١٩٥٥م[٦].

١٤- «نلليو»[٧]: نشر كتاب «البيان» لابن رشد، و«قصة سلمان وأبسال» وأبسال» و«الفلسفة الإشراقية» لابن سينا، وله أيضاً: «شعر ابن الفارض والتصوف الإسلامي»، وكتب في دائرة المعارف الإيطالية عن ابن رشد، وابن سينا، والغزالي، وابن جابر، وإخوان الصفا، والإباضية[٨].

---

(١) فالين أو والين (1811-1852م *Wallin,G.A*) مستشرق فنلندي، تعلم العربية، ورحل إلى الشرق الشرق وطاف به متزيياً بزي البدو، مُتسمياً باسم عبدالولي، حاملاً معه حقيبةً مملوئة بالعقاقير؛ فأحبته القبائل ويَسَّرت له دراسة عاداتها ولهجاتها، سكن لندن واشترك في إعداد خريطةٍ لبلاد العرب، عُيِّن أستاذاً للعربية في كلية هلسنكي. يُنظر: المستشرقون للعقيقي، ٣/ ١٠٤٠

(٢) يُنظر: الموسوعة الصوفية، ص٣١٥

(٣) مرجليوت (1858-1940م *Margoliouth,D.S.*)، مستشرق انجليزي، أتقن العربية، ويُعد من أشهر أساتذتها في جامعة أكسفورد، رأس تحرير مجلة الجمعية الملكية الآسيوية، وكان عضواً في المجمع العلمي العربي بدمشق. يُنظر: المستشرقون للعقيقي، ٢/ ٥١٨

(٤) يُنظر: الموسوعة الصوفية، ص٣٦٢

(٥) مورنيو (1892م -..) *Martino, Moreno*، مستشرق إيطالي، رحل إلى ليبيا ومصر والسودان والعراق، وأتقن العربية بها، من كبار موظفي إدارة الصحافة الإيطالية. يُنظر: المستشرقون للعقيقي، ١/ ٣٩٢

(٦) يُنظر: الموسوعة الصوفية، ص٣٨٠

(٧) كارلو نلليو (1872-1983م *Nallion, Carlo Alfonso*)، مستشرق إيطالي، أستاذ العربية في المعهد العلمي الشرقي بنابولي، أستاذ التاريخ والدراسات الإسلامية بجامعة رومة، وأستاذ زائر بالجامعة المصرية، تولى الإشراف على مجلتي الدراسات الشرقية، والشرق الحديث. يُنظر: المستشرقون للعقيقي،١/ ٣٧٧

(٨) يُنظر: الموسوعة الصوفية، ص٣٩٦

١٥- «هيار»[1]: كان مهتماً بالطرق الصوفية، وخاصة البكتاشية والمولوية، وله كتاب «القيمة التاريخية لدراسة الدراويش»، وترجم منتخبات من الشعر الصوفي لعفيف الدين التلمساني، وكتاب «مناقب العارفين» لشمس الدين الفلكي[2].

وبعد، فما مضى إنما هي نماذج لجهود بعض المستشرقين في خدمة التراث الصوفي؛ تحقيقاً وترجمة ونشراً وتأليفاً، وهذا الجهد كما أشرت في البدء يأتي متسقاً مع الموقف الإيجابي للمستشرقين من عقائد التصوف، وهو بحق ترجمة علمية عملية لذلك الموقف، والذي من الصعب أن يقول قائل -بعد هذا- إنما هو نابع من الإعجاب الشخصي، أو التأثر الروحي لدى بعض المستشرقين بالتصوف، بل إن الأمر أبعد من ذلك بكثير.

ونتيجة لهذا الإحياء الكبير الذي قام به المستشرقون لتراث التصوف؛ وجَدَت مؤلفات الصوفية طريقها إلى الجامعات ومعاهد التعليم سواء في العالم الإسلامي أو في الغرب، وفي هذا يقول «كاسبر»: «ويبدو في الحقيقة أن اهتمام المستشرقين بالصوفية العظام قد أبان قيمتهم الحقيقية للمثقفين المسلمين، ونتيجة لذلك فإن كتابات أولئك الصوفية التي كانت مستهجنة من قبل، قد وجدت طريقها إلى البرامج الدراسية للجامعات؛ حيث احتلت هذه الكتابات الصوفية مكاناً مرموقاً فيها، وكُتبت الدراسات العلمية والرسائل الأكاديمية للحصول على درجات الشرف المتنوعة عن التصوف والصوفية بشكل خاص»[3].

وحتى يكتمل التصور عن موقف المستشرقين من التصوف بقي أن نرى موقفهم من رموزه، وهذا ما سيأتي في المبحث التالي، وبالله التوفيق.

---

(١) هيار(1854-1927) *Huart, Cl.*، مستشرق فرنسي، تقلد العديد من الوظائف القنصلية في الشرق، أستاذ العربية والفارسية والتركية في مدرسة اللغات الشرقية بباريس. أدار مدرسة الدراسات العليا، ورأس مجمع الكتابات والآداب. يُنظر: المستشرقون للعقيقي،١/ ٢٣٠

(٢) يُنظر: الموسوعة الصوفية، ص٤٠٥

(٣)كاسبر، اتجاهات غربية معاصرة في دراسة التصوف الإسلامي، ص١٩٠

المبحث الرابع

موقف المستشرقين من بعض رموز التصوف، ونقده

مضى في التمهيد بيان أن ثمة فرقاً بين التصوف (عقيدةً) وبين المتصوفة؛ إذ إن المتصوفة ليسوا سواء؛ فمنهم المتحقق بتلك العقيدة التي غايتها «وحدة الوجود»، ومنهم من ليس له من التصوف سوى الاسم، ومنهم ما بين ذلك.

وعند التأمل في موقف المستشرقين من المتصوفة نجد أنهم في الغالب تناولوا بالبحث المتحققين من المتصوفة بالتصوف كالحلاج، وابن عربي، والسهروردي المقتول، وابن الرومي، وغيرهم.

ويمكن تلخيص موقف المستشرقين من رموز المتصوفة في أمرين:

الأول: تحقيق وترجمة ونشر كتبهم.

الثاني: التأليف عنهم، ونشر سِيَرهم.

فأما الأمر الأول فواقع المستشرقين فيه خير دليل على ذلك، وقد أوردت في المبحث السابق نماذج من عناية المستشرقين بتحقيق ونشر كتب رموز التصوف، كالحلاج وابن الفارض وغيرهما. وفي نموذج استقصائي مبسط أجراه الدكتور عبدالعظيم الديب عبر دراسة اثنين فقط من فهارس التراث الإسلامي؛ وهما الأجزاء الثلاثة الأولى من معجم المخطوطات المطبوعة للدكتور صلاح الدين المنجد[1]، وذخائر التراث العربي (الجزء الأول)[2] للدكتور عبدالجبار عبدالرحمن، وكان من أهداف تلك الدراسة معرفة اتجاهات النشر عند المستشرقين، ففي المعجم كانت النتيجة الأعلى لفن التصوف والفلسفة وعلم الكلام، أي بنسبة ٤٣٪ من مجموع المخطوطات التي أسهموا في نشرها؛ كأعلى نسبة مئوية، وفي ذخائر التراث كانت نسبة ما نشروه في فن التصوف والأخلاق ١٢.٥٪، ويقول الدكتور

---

(١) تحوي هذه الأجزاء الثلاثة من معجم المخطوطات ما مجموعه (١١٩٦) عنواناً مطبوعاً.

(٢) يُسَجل هذا الكتاب ما طبع من المخطوطات التي صنفها المؤلفون العرب منذ بدء التدوين وحتى نهاية القرن الثاني عشر الهجري.

عبدالعظيم الديب معلقاً على هذه النتيجة: «ولعل هذه النتائج ليست في حاجة إلى نظر أو تأمل، فهي تنطق باتجاهات القوم في النشر بوضوح، وتكشف عن أهدافهم بجلاء، فالتصوف والفلسفة وعلم الكلام (وهو الاتجاه الأول عندهم) ليعرفوا السلوك، والفكر، والعقيدة، ويا ويل من عرف عدوُّه سلوكَه ونفسَه، وحقائقَ فكرِه، ومناحي آرائه، ومكامن عقيدته، وخفايا قلبه»[1].

وأضاف أيضاً: «فهذا الولوع العجيب الغريب بدراسة هذه العلوم، ونشر مؤلفاتها، لا تفسير له إلا في ضوء أهدافهم، فهم يتعرفون على هذا اللون من الفكر- ويتبعون شطحاته وانحرافاته، وكيف تقعد بالناس عن الجهاد، بل عن العمل، أيِّ عمل، ويرون كيف يقوم لهم هذا -إذا روَّجوه- بمهمة أكبر من مهمة الجيوش، إذ يشُلُّ حركة الأمة، ويُقعدها عن المقاومة، بل يزين لها الاستسلام»[2].

وأثناء مناقشة الدكتور علي النملة مسألة إسهامات المستشرقين في نشر التراث الإسلامي أورد الرأي الذي يقول بأن الحركة الاستشراقية حقَّقت ونشرت من تراث المسلمين ما تستفيد منه في تحقيق أهدافها الدينية أو العسكرية أو السياسية أو الأيديولوجية، ثم قال: «ويؤيد هذا أن بعض المستشرقين قد ركّزوا في اهتمامهم بالتراث على الحركات التي تمردت على التوجه السائد في المجتمع العربي المسلم، واعتبروا المنشقين أصحاب فكر ثوري تحرري عقلي، فأعطوا هذه الحركات أهمية لم تكن تنالها لو لم يهتموا بها هذا الاهتمامَ الذي قاد بعض مفكرينا من العرب إلى التفكير بأن هذه الحركات هي التي استخدمت العقل ووظفته في أمور لا مجال فيها لإعمال العقل كالعبادات التوقيفية وأمور العقيدة والتوحيد وأصول الدين، وذلك مثل الفرق التي ظهرت في العصرين الأموي والعباسي من تاريخ الإسلام فقيل عنها إنها الفرق الإسلامية كالمعتزلة

(١) عبدالعظيم الديب، المستشرقون والتراث، دار الوفاء-المنصورة، ط٣، ١٤١٣هـ-١٩٩٢م، ص١٦-١٧

(٢) المرجع نفسه، ص١٧

والصوفية المغرقة والمتكلمة والمتفلسفة وأهل الباطن، بل ربما أعطيت أهمية لأولئك الذين تمردوا على الدين من الزنادقة والملحدين، وممن ارتدوا عنه من أمثال مسيلمة الكذاب، ومن شاكله من مدَّعي النبوة»[1].

ويقول أيضاً الدكتور محمود زقزوق: «يخلط الاستشراق كثيراً بين الإسلام كدين وتعاليم ثابتة في القرآن الكريم والسنة الصحيحة وبين الوضع المتردي للعالم الإسلامي في عالم اليوم، فإسلام الكتاب والسنة يُعد في نظر مستشرق معاصر مثل «كيسلنج» إسلاماً ميتاً، أما الإسلام الحي الذي يجب الاهتمام به ودراسته فهو ذلك الإسلام المنتشر بين فرق الدراويش في مختلف الأقطار الإسلامية، هو تلك الممارسات السائدة في حياة المسلمين اليوم بصرف النظر عن اقترابها أو ابتعادها من الإسلام الأول»[2].

وأما الأمر الثاني؛ وهو ما يتعلق بعناية المستشرقين برموز التصوف المتحققين به كالحلاج وابن عربي وغيرهما؛ فهي بادية للعيان بشكل سافر، ضاربين بعرض الحائط رأي غالبية المسلمين فيهما وفي غيرهما ممن جعلوا وحدة الوجود غاية الإسلام، فرفعوا من شأنهم، وأحيوا ذكرهم بكل وسيلة استطاعوها، وبما أن المقام هنا ليس استقصاء كل ذلك، فسأورد فيما يلي أمثلة جلية واضحة لبعض رموز التصوف، وكيف تعامل معها المستشرقون.

أمثلة على موقف المستشرقين من بعض رموز التصوف

المثال الأول: الحلاج (ت٣٠٩هـ)

وهو الحسين بن منصور بن محمي، ولد في مدينة البيضاء ببلاد فارس، وكان جده محمي مجوسياً[3].

يقول الذهبي -رحمه الله- بعد أن سرد الكثير من سيرة الحلاج: «فتدبر -يا عبدالله- نِحلة الحلاج الذي هو من رؤوس القرامطة، ودعاة الزندقة،

---

(١) علي النملة، إسهامات المستشرقين في نشر التراث العربي الإسلامي، ط١، ١٤١٧هـ-١٩٩٦م، ص٢٩-٣٠

(٢) محمود حمدي زقزوق، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، ص١٢٣

(٣) يُنظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ١٤/ ٣١٣

وأنصِف وتورع واتق ذلك، وحاسب نفسك، فإن تبرهن لك أن شمائل هذا المرء شمائل عدو للإسلام، محب للرئاسة، حريص على الظهور بباطل وبحق، فتبرأ من نِحلته، وإن تبرهن لك -والعياذ بالله- أنه كان -والحالة هذه- محقاً هادياً مهدياً، فجدد إسلامك واستغث بربك أن يوفقك للحق، وأن يثبت قلبك على دينه، فإنما الهُدى نور يقذفه الله في قلب عبده المسلم، ولا قوة إلا بالله»[1].

وقال ابن تيمية -رحمه الله-: «من اعتقد ما يعتقده الحلاج من المقالات التي قتل الحلاج عليها فهو كافر مرتد باتفاق المسلمين؛ فإن المسلمين إنما قتلوه على الحلول والاتحاد، ونحو ذلك من مقالات أهل الزندقة والإلحاد، كقوله: أنا الله. وقوله: إله في السماء وإله في الأرض»[2].

هذا الحلاج الذي هذه صفته وحاله وحكمه عند المسلمين؛ لقي من التقدير ورفع الذكر عند المستشرقين الشيء العظيم؛ بالرغم من اعترافهم في دائرة المعارف الإسلامية أن غالب الفقهاء والمتكلمين والمشايخ المتقدمين قد كفروه وتبرءوا منه![3].

ويكفي للتدليل على مكانة الحلاج عند المستشرقين أن «ماسينيون» - وهو الحجة عندهم في التصوف- قد أفنى سنين طويلة من حياته في تتبع أخبار الحلاج والتأليف فيه، حتى إن رسالته للدكتوراه كانت عن الحلاج - كما مرّ آنفاً-، بل إنه شبه الحلاج بالمسيح عيسى ابن مريم عليه السلام (المصلوب كما يزعم النصارى)، وخلع عليه لقب شهيد التصوف!

هل كان «ماسينيون» ضعيفاً في تمسكه بالنصرانية، فوجد في شخص الحلاج ما يظنه دين الإسلام الحق؟! الجواب: لا، بل كان «ماسينيون» كاثوليكياً تبشيرياً، حتى إنه تبوأ منصب الراعي الروحي للجمعيات التبشيرية الفرنسية في مصر[4].

---

(١) المرجع نفسه، ١٤/ ٣٤٥

(٢) مجموع الفتاوى، ٢/ ٤٨٠

(٣) يُنظر: خالد القاسم، مفتريات وأخطاء دائرة المعارف الإسلامية، ٢/ ١٠٩٣-١٠٩٤

(٤) يُنظر: لطفي حداد، الإسلام بعيون مسيحية، الدار العربية للعلوم-بيروت، ط١، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م، ص١٧٤. ونذير حمدان، مستشرقون سياسيون- جامعيون- مجمعيون، ص١٩٤

إذاً لم يأت تبني «ماسينيون» للحلاج جهلاً منه بالنصرانية أو بالإسلام؛ فهو تبشيريٌ في ديانته، ويعلم أيضاً أن علماء المسلمين كفروا الحلاج لأتيانه بما يُناقض الإسلام- كما خط ذلك بنفسه في دائرة المعارف-. وطبقاً لأطروحته عن الحلاج -كما يقول عنه صابر أبا زياد-: «فإن الحلاج لم يكن زنديقاً مرتداً أو حلولياً واتحادياً كما اتهمه أعداؤه ومنتقدوه من الفقهاء المسلمين، وكذلك لم يكن مسيحياً مستتراً كما حاول أن يبرهن بعض الباحثين الأوربيين للفكر الإسلامي»[1]، ويضيف أيضاً: «وبرأي ماسينيون فإن الحلاج الملتزم بالعقيدة الصحيحة للإسلام كان أقرب شخصٍ مسلم إلى فكرة المسيحية حول وحدة اللاهوت والناسوت»[2].

ولعل هذا هو سرّ إعجاب «ماسينيون» بفكر الحلاج، والذي سيعود على مجتمعه الغربي بالخير، وهذا ما يؤكده أيضاً قول «أبا زياد»: «يعتقد ماسينيون أن متابعة بحث تلك المصطلحات المشتركة بين الديانتين من شأنها تهيئة الأرضية الطيبة لحوار لاهوتي مثمر بين المسيحية والإسلام»[3].

ومن هنا يمكننا القول بأن المستشرق التنصيري والضابط الاستعماري «ماسينيون» وجد في شخص الحلاج نقطة انطلاق رائعة؛ لهدم العقيدة الإسلامية، ولتغيير فكر المسلمين وإخضاعهم طواعيةً للغرب المستعمر، كنتيجة طبيعية لفكر الحلاج الصوفي، بل وإبعاده عن الجهاد الذي لم يُخف «ماسينيون» قلقه منه، إذ يقول في مقالة له في كتاب (وجهة الإسلام): «يجب أن نجعل هذه الحقائق نصب أعيننا إذا أردنا أن ندرك أي أساس واهٍ تقوم عليه المنشآت الأوروبية في بلاد الإسلام، فبعد أعوام من السكينة ربما تندلع بغتة نار الدعوة إلى الجهاد أبعد ما نكون توقعاً لها، وقد لا يكون هناك مجال نقد فكرة الجهاد في ذاتها بما يتفق مع وجهة نظر دعاة السلم..»[4].

---

(١) صابر عبده أبا زياد، لويس ماسينيون وجهوده في الفكر الفلسفي الإسلامي، ص٥٢

(٢) المرجع نفسه، ص٥٢

(٣) المرجع نفسه، ص٥٤

(٤) هاملتون جب وماسينيون وآخرون، وجهة الإسلام، ترجمة: محمد عبدالهادي أبو ريدة، المركز القومي للترجمة-القاهرة، ط بدون، ٢٠٠٩م، ص٥٥

هذا ولا يزال هذا التجديد الحلاجي الذي تبناه «ماسينيون» قائماً إلى يومنا هذا، ولعل تبني وزارة الخارجية الفرنسية لطباعة النسخة العربية من كتاب «ماسينيون» (آلام الحلاج: شهيد التصوف الإسلامي) خير مثال على ذلك.[1]

المثال الثاني: ابن عربي (ت٦٣٨هـ)

وهو محي الدين أبو بكر محمد بن علي بن أحمد الطائي الحاتمي المرسي ابن العربي، نزيل دمشق، تزهد وتفرّد، وتعبد وتوحد، وسافر وتجرد، وعلق شيئاً كثيراً في تصوف أهل الوحدة[2]. يقول الذهبي -رحمه الله-: «ومِنْ أردأ تواليفه كتاب «الفصوص» فإن كان لا كفر فيه، فما في الدنيا كفر، نسأل الله العفو والنجاة، فواغوثاه بالله!»[3]، ويضيف الذهبي بسنده أن الشيخ عز الدين بن عبدالسلام قال في ابن عربي «شيخ سوء كذاب، يقول بقدم العالم ولا يُحرِّم فرجاً»[4].

ثم يقول الذهبي: «إن كان محيي الدين رجع عن مقالاته تلك قبل الموت فقد فاز، وما ذلك على الله بعزيز»[5]. وقد رد ابن تيمية -رحمه الله- على ابن عربي وبيَّن أن ما قاله في وحدة الوجود كفرٌ عظيم، أعظم من كفر اليهود والنصارى[6]. وقال إبراهيم البقاعي -رحمه الله- (ت٨٨٥هـ): «وقد «وقد صرح بكفر هذا الرجل، ومن نحا نحوه في مثل هذه الأقوال ظاهرة في الضلال جماعة من الأعلام مشايخ الإسلام»[7]، وقد ذكر ابن طولون الحنفي خلقاً لا يحصيهم إلا الله ممن حكموا بكفر وإلحاد ابن عربي،

---

(١) يُنظر: الغلاف الداخلي لكتاب ماسينيون: آلام الحلاج: شهيد التصوف الإسلامي، شركة قدمس للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٠٤م، وقد كتب عليه: «يصدر هذا الكتاب بدعم من وزارة الخارجية الفرنسية والسفارة الفرنسية بلبنان قسم التعاون والعمل الثقافي».

(٢) يُنظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٢٣/ ٤٨

(٣) المرجع نفسه، ٢٣/ ٤٩

(٤) المرجع نفسه، ٢٣/ ٤٩

(٥) المرجع نفسه، ٢٣/ ٤٩

(٦) يُنظر: الفتاوى، ٢/ ٢٩٤-٢٩٦

(٧) إبراهيم بن أبي بكر البقاعي، مصرع التصوف أو تنبيه الغبي إلى تكفير ابن عربي، تحقيق: عبدالرحمن الوكيل، مكتبة عباس أحمد الباز، مكة المكرمة، ط بدون، ت بدون، ص١٥٠-١٥١

وهذا يقضي على جميع من عذّله أو لم يعرف أو لم يطلع على أحواله وظروفه وعقيدته الشركية[1].

هذا ابن عربي الذي هذا حاله وحكمه عند علماء الإسلام من معاصريه ومَنْ بعدهم لقي من عناية المستشرقين الشيء الكثير، سواء في التأليف فيه؛ كما فعل «بلاثيوس» صاحب كتاب «ابن عربي حياته ومذهبه»، و «نيكلسون» صاحب كتاب «سيرة ابن عربي»، أو بالثناء عليه والإشادة به، كما وقع في دائرة المعارف الإسلامية؛ إذ جاء فيها عن «ابن عربي»: «أما فيما يختص بالعقائد الدينية فقد كان باطنياً، وابن عربي مع قيامه بفرائض الإسلام وتمسكه بعقائده، كان رائده الوحيد هو ذلك النور الباطني الذي أفاضه الله عليه على ما كان يعتقد. وذهب ابن عربي إلى أن الوجود كله واحد، وأنه ليس إلا مظهراً للذات الإلهية، وعلى ذلك فالأديان كانت في نظره متكافئة»[2].

ولعل هذه العبارة الأخيرة تُغنينا عن البحث والتنقيب في سِّر عناية المستشرقين بابن عربي!

المثال الثالث: ابن الفارض (ت٦٣٢هـ)

هو شرف الدين عمر بن علي بن مرشد الحموي ثم المصري، صاحب الاتحاد الذي ملأ به قصيدته التائية[3]، والمسماة «نظم السلوك». يقول الذهبي -رحمه الله-: «فإن لم يكن في تلك القصيدة صريح الاتحاد الذي لا حيلة في وجوده، فما في العالم زندقة ولا ضلال، اللهم ألهمنا التقى، وأعذنا من الهوى، فيا أئمة الدين ألا تغضبون لله؟! فلا حول ولا قوة إلا بالله»[4]، وقال عنه ابن تيمية -رحمه الله-: «وابن الفارض من -متأخري الاتحادية- صاحب القصيدة التائية المعروفة «بنظم السلوك» وقد نظم فيها الاتحاد نظماً رائق اللفظ، فهو أخبث من لحم خنزير في صينية من ذهب. وما

(١) يُنظر: عبدالقادر حبيب الله السندي، كتاب ابن عربي الصوفي في ميزان البحث والتحقيق، دار البخاري-المدينة المنورة، ط١، ١٤١١هـ-١٩٩١م، ٢/ ١١١

(٢) نقلاً عن: خالد القاسم، مفتريات وأخطاء دائرة المعارف الإسلامية، ٢/ ١٠٨٥

(٣) يُنظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٢/ ٣٦٨

(٤) المرجع نفسه، ٢٢/ ٣٦٨

أحسن تسميتها بنظم الشكوك!»[1].

وقد اعتنى المستشرقون بابن الفارض وتائيته، فعلى سبيل المثال-: ألف فيه «دي ماتيو»[2] كتاب «تفسير ابن الفارض للتصوف ومصطلحاته»، وترجم كذلك تائيته، وألف أيضاً «نلليو» كتاب «شعر ابن الفارض والتصوف الإسلامي»، وممن حقّق ونشر أيضاً أشعار ابن الفارض: «نيكلسون» و«دي ساسي»، و ترجم «فالين» شرح عبدالغني النابلسي لتائية ابن الفارض، وغيرها من صور العناية بابن الفارض وأشعاره، وقد هاجم المستشرقون في دائرة المعارف ابن تيمية -رحمه الله- لأنه -بزعمهم- هاجم ابن الفارض[3].

المثال الرابع: جلال الدين الرومي (ت ٦٧٢هـ)

هو محمد بن محمد بن الحسين البلخي القونوي الرومي، عالم بفقه الحنفية، ثم متصوف، وهو صاحب الطريقة «المولوية»، وقد ترك التدريس والتصنيف والدنيا وتصوف، واشتغل بالرياضة وسماع الموسيقى ونظم الأشعار وإنشادها، ونظم كتابه «المثنوي» بالفارسية، ثم تُرجم إلى التركية والعربية، وهو منظومة صوفية فلسفية في ٢٥٧٠٠ بيت، ويقع في ستة أجزاء. توفي بقونية، وقبره معروف اليوم في تكية بتركيا باتت متحفا[4]، ويذكر صاحب كتاب (أخبار جلال الدين الرومي) أنه لم يقف على كلام لابن تيمية عن الرومي لأنه كان لا يتقن لسان الفرس، وكذلك لم يقف له على ترجمة عند أئمة التاريخ والجرح والتعديل؛ كالذهبي وابن حجر والعسقلاني وابن كثير وأمثالهم، لنفس العلة[5]، وقد خلص صاحب إلى أن الرومي من كبار دعاة مذهب وحدة الوجود، وكتابه المثنوي إنما نَظَمه لأجل تثبيت تلك العقيدة[6]. وقد ذكر بدر الدين العيني (ت ٨٥٥هـ)

---

(١) مجموع الفتاوى، ٤/ ٧٣-٧٤

(٢) سبق ترجمته.

(٣) يُنظر: خالد القاسم، أخطاء ومفتريات دائرة المعارف الإسلامية، ٢/ ٩٨٥

(٤) يُنظر: الزركلي، الأعلام، ٧/ ٣٠

(٥) يُنظر: أبو الفضل محمد بن عبدالله القونوي، أخبار جلال الدين الرومي، ط١، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م، ص٣٠-٣٢

(٦) يُنظر: المرجع نفسه، ص٣٨-٤٢

في تاريخه «عقد الجُمّان» طرفـًا من سيرة جلال الدين الرومي، ومما جاء فيها قوله:«ثم إن جلال الدين المذكور ترك الاشتغال وانقطع، وترك أولاده ومدرسته وساح في البلاد، واشتغل بالأشعار، غالبها بالفارسية، وألّف كتابـًا وسماه المثنوي، وفيه كثير مما يرده الشرع والسنة الطاهرة، وضلّت بسببه طائفة كثيرة، ولا سيما أهل الروم»[1]. وصدق -رحمه الله- فقد نال جلال الدين الرومي عناية المستشرقين، واهتمامهم، وقد ترجم «نيكلسون» كتاب المثنوي إلى الانجليزية، ونشر أيضـًا قصائد مختارة مع ترجمتها من ديوان الرومي «شمس تبريز»، ونشر كذلك العديد من الأبحاث والمقالات عن الرومي. وقد ترجم أيضـًا الشاعر الأمريكي المعاصر «كولمان باركس»[2] جميع أعمال جلال الدين الرومي.

هذا، وقد تُوِّج هذا الإحياء الكبير لهذا لتراث هذا الرمز الصوفي بأن خصَّصت منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (اليونسكو) عام ٢٠٠٧م للاحتفال بالمئوية الثامنة لميلاد جلال الدين الرومي[3]، بل إن المنظمة ابتدعت ميدالية أسمتها «ميدالية مولانا جلال الدين الرومي»، وكان ممن قلّدته المنظمةُ هذه الميدالية الرئيس الأفغاني المُعيَّن من الاحتلال الأمريكي «حامد كرزاي»![4]، وقد كتبت جريدة الشرق الأوسط تعليقـًا على خبر اختيار اليونسكو لجلال الدين الرومي، وجاء فيه ما يلي:«ومثل هذا الاختيار هو نتيجة لجهود بعض المستشرقين الذين نجحوا في نقل مقولات الرومي، إلى درجة أنه في إنجلترا بيعت قرابة مليون نسخة من أشعاره...، وهو أيضـًا [أي الرومي] وثيق الصلة بوحدة الوجود. فشعره إنساني أخلاقي يتناول في جانب كبير منه الإنسان ومنزلته العظيمة في الكون

---

(١) بدر الدين محمود العيني، عقد الجُمّان في تاريخ أهل الزمان/ عصر سلاطين المماليك، تحقيق: محمد محمد أمين، دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة، ط بدون، ١٤٣١هـ-٢٠١٠م، ٢/ ١٢٨-١٢٩.

(٢) كولمان باركس *Coleman Barks* شاعر أمريكي، ولد سنة ١٩٣٥م، وبدأ اهتمامه بالتصوف منذ عام ١٩٧٧م، يُنظر: موقعه الشخصي على الإنترنت: *www.colemanbarkc.com*

(٣) يُنظر: جريدة الشرق الأوسط، العدد: ١٠٤٦٣، في ٢٢/ ٧/ ٢٠٠٧م

(٤) يُنظر: موقع منظمة اليونسكو الإليكتروني: *www.unesco.org*

ويرسم المثل العليا للحياة الإنسانية في هذا العالم»[1]. ولا يخفى ما في هذا الكلام من انسجام هذه الجريدة مع التوجه الصوفي. وسيأتي في الفصل الرابع -إن شاء الله- مزيد بيان عن موقف الصحافة من الصوفية.

هذه النماذج الأربعة تبين بوضوح مدى اهتمام المستشرقين برموز التصوف، وتحديداً المجاهرين منهم بعقيدة وحدة الوجود منهم، وقد نجحوا إلى حد كبير في إحياء ذكرهم ونشر تراثهم، كل ذلك بلا شك خدمة لأهدافهم التي ترى في تلك العقيدة خدمة للمصالح الغربية، فهي تُذيب الشخصية الإسلامية المعتدَّة بدينها وأخلاقها لتصبح شخصية هلامية، لا ترى فرقاً بين دين وآخر، ولا تميز بين عدو وصديق، فالجميع سواء، والوجود واحد!، يقول الدكتور محمد البهي: «نلاحظ أن المستشرقين يسرفون في تمجيد (التصوف الإسلامي) في فترته الأخيرة التي يدعو فيها إلى عقيدة الحلول والفناء في (الحب الإلهي)، وذلك لأنهم يرون في مثل هذا الانحدار صرفاً للمسلمين عن (الجهاد في سبيل الله)، فالاعتقاد بـ(الحلولية) يُسقط التكاليف كلها، ومن بينها الجهاد، و(الحب الإلهي) على نحو (الحب الهندوكي) -وهو حب الفناء- يصرف الوالهين والعاشقين عن الاحتفاظ بما يُسمى (الجماعة) الإسلامية، التي يدعوها الإسلام -قصد صيانتها ودفع الاعتداء عليها- إلى الكفاح والجهاد!! و(الرهبنة) المسيحية التي تقوم على هذا (الحب الإلهي) تناقض فكرة (الجهاد في سبيل الله) تماماً، كما تعارض مبدأ الزواج وتكوين الأسرة لمن يسلك طريق «الرهبنة»!»[2].

ولعل من أبرز ثمار تلك العملية الإحيائية للتصوف التي قام بها المستشرقون أن أصبح التصوف اليوم مادة تدرس في الجامعات الغربية -التي تتناول الإسلام في دراساتها-، وبين مفردات تلك المادة تجد أسماء الحلاج وابن عربي والرومي وغيرهم[3].

---

(١) جريدة الشرق الأوسط، العدد: ١٠٤٦٣، في ٢٢/ ٧/ ٢٠٠٧م

(٢) محمد البهي، الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، مكتبة وهبة-القاهرة، ط١٤، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م، ص١٧٢

(٣) يُنظر: محمد وقيع الله أحمد، الإسلام في المناهج الغربية المعاصرة، ط١، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م، ص٣٣٩-٣٥٦

وبعد، فمن خلال ما مضى في هذا الفصل عن موقف المستشرقين من الصوفية يمكننا أن نخلص إلى هذه النتائج:

أولاً: أن المستشرقين بدأوا منذ وقت مبكر (أوائل القرن ١٩م) في بحث التصوف والاهتمام به، وكان أول كتاب صدر لهم عن التصوف في عام ١٨٢١م.

ثانياً: أن المستشرقين أرجعوا التصوف إلى أصول أجنبية عن الإسلام في أول أمرهم، ثم اتفقوا على ما قرره مرجعهم في التصوف «ماسينيون» من أن التصوف مصدره إسلامي، وأنه مشتق لغوياً من كلمة (صوف) العربية، وكان ذلك في الربع الأول من القرن العشرين الميلادي.

ثالثاً: أن المستشرقين لهم قدم السبق في تحقيق ونشر تراث التصوف، سابقين بذلك حتى متصوفة القرنين التاسع عشر والعشرين الميلادي.

رابعاً: أن المستشرقين أحيوا ذكر رموز التصوف (الوجودي) كالحلاج وابن عربي وغيرهم، وذلك بنشر كتبهم وأشعارهم، والكتابة عنهم.

خامساً: أن عناية المستشرقين بالتصوف ليست (في غالبها) علمية بحته، وإنما تندرج تحت خدمة الأهداف الاستعمارية للغرب، والذي وجد في التصوف مادة لخدمة أهدافه الاستعمارية.

سادساً: أن نتاج العملية الإحيائية للتصوف التي قام بها المستشرقون لا زال باقياً ومؤثراً حتى يومنا هذا، في العالم الإسلامي وفي الغرب كذلك؛ سواء أكان ذلك النتاج كتبَ أهل التصوف التي حققوها وترجموها ونشروها، أم كان تآليفهم وآراؤهم في التصوف وفي رموزه؛ والتي نشروها في كتب وأبحاث ومقالات، وبثوها أيضاً في موسوعاتهم.

وختاماً، يمكن القول بأن المستشرقين -خلال القرنين الميلاديين المنصرمين- كان لهم الدور البارز والكبير في دعم التصوف وإحياء ذكره وتراثه؛ في العالم الإسلامي، وفي الغرب كذلك.

الفصل الثاني

موقف الصوفية من بعض القضايا المهمة في العالم الإسلامي، ونقده

وفيه خمسة مباحث:

المبحث الأول: موقف الصوفية من السلفية، ونقده.

المبحث الثاني: موقف الصوفية من العلمانية، ونقده

المبحث الثالث: الولاء والبراء عند الصوفية، ونقده.

المبحث الرابع: موقف الصوفية من الجهاد، ونقده.

المبحث الخامس: موقف الصوفية من الاستعمار الغربي، ونقده.

المبحث الأول

موقف الصوفية من السلفية، ونقده

مدخل:

قبل الوقوف على حقيقية موقف الصوفية من السلفية لا بد أولاً من الوقوف على حقيقية مفهوم السلفية؛ هل هي منهج أم مذهب؟ وما هي أهدافها؟ وإلى أي شيء يدعو أتباعها؟ وما حقيقة موقف المتصوفة من السلفية؟.

ومن هنا، ولإيفاء هذه المسألة حقها؛ عرضاً ونقداً ونقاشا، فقد قسَّمتُ هذا المبحث إلى مطلبين، هما:

المطلب الأول: مفهوم مصطلح السلفية.

المطلب الثاني: الموقف الصوفي المعاصر من السلفية. وبالله التوفيق،،

المطلب الأول : مفهوم مصطلح السلفية

السلف في اللغة يأتي بمعنى التقدم والسبق، ففي معجم مقاييس اللغة: «السين واللام والفاء أصل يدل على تقدم وسبق. من ذلك السلف: الذين مضوا. والقوم السُّلاَّف: المتقدِّمون»[1]، وفي لسان الميزان: «السَّلَفُ والسَّلِيفُ والسُّلفَةُ: الجماعة المتقدمون»[2]، وقد وردت هذه اللفظة بهذا المعنى في القرآن الكريم، كما في قوله تبارك وتعالى: ﴿فَجَعَلْنَـٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْـَٔاخِرِينَ﴾ [الزخرف: ٥٦].

ومن معاني السلف أيضاً كل عمل صالح قدَّمته[3]، وكذلك كل من تقدمك من آبائك وقرابتك[4]، وفي هذا يقول ابن الأثير: «سَلَفُ الإنسان من تقدمه بالموت من آبائه وذوي قرابته، ولهذا سمي الصدر الأول من التابعين السلف الصالح»[5]، وجاء في الحديث عن فاطمة رضي الله عنها أن النبي ﷺ

---

(١) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، مادة «سلف»، ٣/ ٩٥

(٢) ابن منظور، لسان العرب، مادة «سلف»، ٣/ ٢٠٦٨

(٣) يُنظر: الفيروزابادي، القاموس المحيط، مادة «سلف»، باب الفاء، فصل السين، ٣/ ١٤٨. التهانوي، موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، حرف «السين»، ١/ ٩٦٨

(٤) يُنظر: المرجع نفسه.

(٥) ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، دار ابن الجوزي، ط١، ١٤٢١هـ مادة «سلف»، ص٤٤٠

قال لها: «ولا أُراني إلا قد حضر أجلي، وإنك أول أهلي لحوقًا بي، ونعم السلف أنا لك»[1].

وللسلف -من حيث اللغة- معانٍ أخرى ليست مقصودة هنا؛ نحو القَرض والسَّلَم وغيرها.

وأما السلف في الاصطلاح فقال القلشاني-رحمه الله- (ت٨٦٣هـ): «السلف الصالح هم الصدر الأول، الراسخون في العلم، المهتدون بهدي النبي ﷺ، المحافظون لسنّته، اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ، وانتخبهم لإقامة دينه، ورضيهم أئمة للأمة؛ فجاهدوا في سبيل الله حق جهاده، وأفرغوا في نصح الأمة جهدهم، وبذلوا في مرضاة الله أنفسهم، قد أثنى الله عليهم في كتابه بقوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [محمد :٢٩]، وقال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ [الحشر : ٨، ٩] الآيتان. وذكر الله تعالى فيهما المهاجرين والأنصار، ثم مدح أتباعهم بحسن اتباعهم، ورضي بذلك منهم ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ [الحشر : ١٠]، وتوعد بالعذاب من خالفهم، واتّبع غير سبيلهم فقال: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ﴾[النساء : ١١٥] الآية، فيجب اتباعهم فيما نقلوه، واقتفاء آثارهم فيما عملوه، والاستغفار لهم. قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا﴾ [الحشر : ١٠] »[2].

وأما الحدود الزمانية للسلف الصالح فهي القرون الثلاثة الأولى المفضلة في صدر الإسلام؛ كما في حديث عمران بن حصين رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم - قال عمران: لا أدري أذكر النبي ﷺ بعدُ قرنين أو ثلاثة- قال النبي ﷺ: إن بعدكم قومًا يخونون ولا يؤتمنون، ويشهدون ولا يستشهدون، وينذرون ولا يَفون، ويظهر فيهم السِّمَن»[3].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب فضل فاطمة، برقم (٢٤٥٠).

(٢) أحمد القلشاني، تحرير المقالة في شرح الرسالة، تحقيق: الحبيب بن طاهر ومحمد المدنيني، مؤسسة المعارف-بيروت، ط١، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م، ص٢٠٧-٢٠٨

(٣) أخرجه البخاري، باب: لا يشهد على شهادة جور إذا أُشهد، برقم (٢٦٥١).

ومن العلماء من يذهب إلى أنها أربعة قرون مفضلة، على اعتبار تصحيح الروايات الأخرى للحديث السابق والتي فيها جزمٌ بتكرار عبارة (ثم الذين يلونهم) ثلاث مرات، ومن أولئك العلماء ابن القيم -رحمه الله- إذ يقول: «ثم جاءت الأئمة من القرن الرابع المفضل (في إحدى الروايتين)، كما ثبت في الصحيح»[1].

وأما السلف الصالح باعتبار العقيدة فيشمل أهل القرون الثلاثة المفضلة ومن تبعهم بإحسان إلى يوم القيامة، وفي هذا يقول الإمام السفاريني -رحمه الله-: «المراد بمذهب السلف ما كان عليه الصحابة الكرام رضوان الله عليهم وأعيان التابعين لهم بإحسان وأتباعهم وأئمة الدين ممن شُهد له بالإمامة وعُرف عِظم شأنه في الدين وتلقى الناس كلامهم خلف عن سلف دون رمي ببدعة أو شهر بلقب غير مرضي مثل الخوارج والروافض والقدرية والمرجئة والجبرية والجهمية والمعتزلة والكرامية ونحو هؤلاء»[2]، ولذلك فإنه «لا يكون التابعون وأتباعهم من أهل القرون الأربعة المفضلة من السلف إلا باتِّباعهم للصحابة بإحسان، بخلاف أهل البدع منهم على الرَّغم من وجودهم في تلك الأزمان؛ ولذلك قيَّد العلماء هذا المصطلح بـ«السلف الصالح»»[3].

ويقول الشيخ عبدالرحمن المحمود :«مصطلح السلف صار له مدلولان: مدلول خاص: وهذا ينطبق على مذهب الصحابة والتابعين، والتابعين لهم بإحسان، ممن لم يبتدعوا، وهذا فيه حصر تاريخي، ومدلول أعم: يشمل ما بعد القرون المفضلة، وهذا شامل لكل من سار على طريقة ومنهج خير القرون، والتزم النصوص والفهم الذي فهموه»[4]. ويقول أيضاً

(١) ابن قيم الجوزية، إعلام الموقعين عن رب العالمين، تحقيق: مشهور حسن سلمان، دار ابن الجوزي -الدمام، ط١، ١٤٢٣هـ ٢/ ٩

(٢) محمد بن أحمد السفاريني، لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية، المكتب الإسلامي ودار الخاني، ط٣، ١٤١١هـ-١٩٩١م، ص٢٠

(٣) سعيد محمد موسى السلفي، الأربعون حديثاً النبوية في منهاج الدعوة السلفية، دار الإمام أحمد-القاهرة، ط١، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م، ص١٨

(٤) عبدالرحمن المحمود، موقف ابن تيمية من الأشاعرة، دار ابن الجوزي-الدمام، ط١، ١٤٣٣هـ ١/ ٣٦

الدكتور مصطفى حلمي :«أصبحت «السلفية» عَلماً على أصحاب منهج الاقتداء بالسلف من الصحابة والتابعين من أهل القرون الثلاثة الأولى، وكل من تبعهم من الأئمة»[1]. ومن هنا يمكن القول بأنه بناءً على اعتبار قيد الصلاح في معنى «السلف» فإن لفظ «السلف الصالح» يُفيد أيضاً معنى «أهل السنة»، و«الطائفة المنصورة»، و«الفرقة الناجية»، و«أصحاب الحديث»، و«الغرباء»، و«أهل الحديث»، وعلى هذا المعنى الأخير تَنْصبُّ تسمية رسالة أبي إسماعيل ابن عبدالرحمن الصابوني (ت٤٤٩هـ) المسماة: «عقيدة السلف أصحاب الحديث»، حيث صار لفظ «أهل الحديث» بدلاً وبياناً للفظ «السلف»[2].

وكانت بداية ظهور هذا المصطلح بهذا المعنى الجليل بعدما رفع أصحاب المذاهب الكلامية مصطلح أهل السنة والجماعة في وجه المعتزلة وتنازعوه فيما بينهم، فبرز مصطلح السلفية للتمييز والدلالة على المتمسكين بما كان عليه صدر الإسلام وللاسترشاد به على فهم العقيدة الإسلامية[3]، وفي هذا يقول الشيخ بكر أبو زيد -رحمه الله- عند حديثه عن جماعة المسلمين: «ولما تشعَّبَت بالأمة الأهواء؛ صاروا هم أهل السنة والجماعة دون سواهم، وهم السلف الصالح، فمَن تبع أثرهم، ومِن هنا؛ لما ظهرت البدع والأهواء المضلة؛ قيل لمعتقدهم: السلفي، أو العقيدة السلفية. وهم الذين يمثلون الصراط المستقيم؛ سيراً على منهاج النبوة، وسلفهم الصالح؛ لهذا فليسوا بحاجة إلى التمييز بلقب، أو رسم، أو اسم، أو شعار، لم يرد به النص. ولم يحصل تمام البروز والظهور لهذه الألقاب الشريفة لجماعة المسلمين إلا حين دبَّت في المسلمين الفرقة، وتعددت على جنبتي الصراط الفرق، وتكاثرت الأهواء، وخلفت الخلوف، فبرزت

---

(١) مصطفى حلمي، السلفية بين العقيدة الإسلامية والفلسفة الغربية، دار الدعوة بالإسكندرية، ط٢، ١٤١١ه-١٩٩١م، ص٣

(٢) يُنظر: شمس السلفي الأفغاني، الماتريدية وموقفهم من توحيد الأسماء والصفات، مكتبة الصديق -الطائف، ط٢، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م، ٢/ ٤١٠-٤١١

(٣) يُنظر: مصطفى حلمي، قواعد المنهج السلفي في الفكر الإسلامي، دار الكتب العلمية-بيروت، ط١، ٢٠٠٥م، ص١٥٩، والموسوعة الميسرة في الأديان، مادتي «أهل السنة والجماعة» و«السلفية»، ٢/ ٩٧٧، ١٠٧٢

هذه الألقاب الشريفة للتمييز عن معالم الفرق الضالة، وهي مع ذلك ألقاب لا تختص برسم يخالف الكتاب والسنة؛ زيادة أو نقصاً، وإنما يمثلون في الحقيقة والحال الامتداد الطَّبيعي لما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه -رضي الله عنهم- في الشكل والمضمون، والمادة والصورة»[1].

وأما معنى السلفية فيقول الشيخ صالح العبود: «إن المراد من التعبير بالسلفية هو اتباع طريقة السلف الصالح من هذه الأمة المسلمة، الذين هم أهل السنة والجماعة»[2]، ويعرفها الدكتور عبدالرحمن الزنيدي بأنها: «الاتجاه المقدم للنصوص الشرعية على البدائل الأخرى منهجاً وموضوعاً، الملتزم بهدي الرسول ﷺ، وهدي أصحابه علماً وعملاً، المطّرح للمناهج المخالفة لهذا الهدي في العقيدة والعبادة والتشريع»[3].
وهي تعني عند شيخ الاسلام ابن تيمية: الهداية على الشريعة الربانية التي تحفظ من التناقض والضلال، وهذا المعنى ظاهرٌ في تعليقه على تناقض أهل التأويل، إذ قال:«فكل من أعرض عن الطريقة السلفية الشرعية الإلهية، فإنه لا بد أن يضل ويتناقض، ويبقى في الجهل المركب أو البسيط»[4].

والسلفي نسبة إلى السلف، وهي نسبة شريفة، قال السمعاني الشافعي - رحمه الله- (ت٥٦٢هـ): «هذه النسبة إلى السلف وانتحال مذهبهم على ما سمعت»[5]، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «لا عيب على من أظهر مذهب السلف وانتسب إليه واعتزى إليه بل يجب قبول ذلك منه بالاتفاق. فإن مذهب السلف لا يكون إلا حقاً، فإن كان موافقاً له باطناً وظاهراً فهو بمنزلة المؤمن الذي هو على الحق باطناً وظاهراً»[6].

---

(١) بكر أبو زيد، حكم الانتماء إلى الفرق والأحزاب والجماعات الإسلامية، دار ابن الجوزي- الدمام، ط٣، ١٤١٣هـ ص١١٣

(٢) صالح بن عبدالله العبود، عقيدة الشيخ محمد بن عبدالوهاب السلفية وأثرها في العالم الإسلامي، نشر الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ط١، ١٤٠٨هـ ص١٥٩

(٣) عبدالرحمن الزنيدي، السلفية وقضايا العصر، دار اشبيليا-الرياض، ط١، ١٤١٨هـ-١٩٩٨م، ص٤٩

(٤) ابن تيمية، درء تعارض العقل والنقل، تحقيق: محمد رشاد سالم، نشر جامعة الإمام محمد بن سعود-الرياض، ط٢، ١٤١١هـ-١٩٩١م، ٥/٣٥٦

(٥) عبدالكريم السمعاني، الأنساب، تحقيق: عبدالرحمن المعلمي وغيره، مجلس دائرة المعارف العثمانية-حيدر آباد، ط١، ١٣٨٢هـ-١٩٦٢م، مادة (السَلَفي)، ص١٦٨

(٦) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، نشر مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف-المدينة المنورة، ط بدون، ١٤١٦ه-١٩٩٥م، ١٤٩/٤

ويقول الشيخ الألباني -رحمه الله-: «ولا بدَّ من نسبة مُميزة دقيقة في هذا الزمان، فلا يكفي أن تقول: أنا مسلمٌ فقط! أو مذهبي الإسلام! فكل الفرق تقول ذلك: الرافضي والإباضي والقادياني وغيرهم من الفرق!! فما الذي يميزك عنهم؟ ولو قلت: أنا مسلمٌ على الكتاب والسنة لما كفى أيضاً، لأن أصحاب الفرق -من أشاعرة وماتريدية وحزبيين- يدّعون اتباع هذين الأصلين كذلك، ولا شك أن التسمية الواضحة المميزة البيِّنة هي أن تقول: أنا مسلمٌ على الكتاب والسنة وعلى منهج سلفنا الصالح، وهي أن تقول باختصار: «أنا سلفيٌ»»[1].

ويقول الشيخ صالح آل الشيخ: «ومعنى هذه النسبة: السلفي أنه ينهج نهج الصحابة وتابعيهم، فإن اتباع الكتاب والسنة كلٌ يدعيه، وكلٌ يطمح إلى شرف الانتساب إليه، وما كل ما ظن المرء مطمحاً يصل إليه، فرب طامح تشعبت السبل به، فالفرق الضالة كلها تنتسب إلى الكتاب والسنة: كالمعتزلة من المتقدمين، والقاديانية من المتأخرين، والرافضة المتقدمين والمتأخرين، وغير هؤلاء»[2].

والدعوة السلفية هي -باختصار- الدعوة إلى التمسك بالكتاب والسنة. يقول الشيخ أحمد فريد: «الدعوة السلفية هي: المحافظة على ما مضى عليه سلف الأمة ﷺ، ولا شك أنها الدعوة للتمسك بالسنة التي أمرنا بالتمسك بها رسول الله ﷺ فقال: (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي)[3]»[4]، وعن فائدتها يقول الشيخ الألباني -رحمه الله-: «إن الدعوة السلفية -بحقٍّ- تجمعُ الأمة، وأي دعوة أخرى تفرق الأمة؛ يقول الله عز وجل: ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة : ١١٩] ، ومن يُفرّق بين الكتاب

---

(١) مجلة الأصالة، العدد٩، ١٥ شعبان ١٤١٤هـ السنة الثالثة، بحث بعنوان: مسائل وأجوبة للمحدث العلامة محمد ناصر الدين الألباني -رحمه الله-، ص٨٩-٩٠

(٢) صالح بن عبدالعزيز آل الشيخ، هذه مفاهيمنا، طباعة وتوزيع الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، ت بدون، ص٢٢٦

(٣) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب السنة، باب في لزوم السنة، برقم (٤٦٠٧)، وصححه الألباني في كتابه صحيح وضعيف سنن أبي داود.

(٤) أحمد فريد، السلفية قواعد وأصول، دار العقيدة-الإسكندرية، ط١، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م، ص١١

والسنة من جهة وبين السلف الصالح من جهة أخرى لا يكون صادقاً أبداً»[1].

وبعد، فمن خلال ما مضى يمكن القول بأن السلفية في وقتنا المعاصر يُشار بها إلى معنيين، هما:

المعنى الأول: يُشار بها إلى ذات المنهج السلفي، وهو ما كان عليه الحال في القرون المفضلة، وعلى هذا المعنى صنفت الكتب المعاصرة حول العقيدة السلفية أو بيان ما هي السلفية، وخصائصها وقواعدها، ونحو ذلك.

المعنى الثاني: يُشار بها إلى أتباع المنهج السلفي، فيقال مثلاً هذه جماعةٌ سلفية، أو أُسرةٌ سلفية ونحو ذلك.

والجدير بالملاحظة والتنبيه هنا أن خصوم المنهج السلفي في وقتنا المعاصر يتعمدون التلبيس على الناس، فيشيعون مثلاً أن ثمة سلفيةً تقليدية وأخرى جهادية وثالثة علمية..الخ، ويريدون إيهام الناس أن السلفية (منهجاً) إنما هي سلفياتٌ مفتتة متعددة وليست سلفية واحدة! وهذا افتراء وتضليل[2]، والحق أن السلفية باعتبار المعنى الأول (المنهج) شيءٌ واحد، ولا يمكن إلا أن تكون شيئاً واحداً كما تبيَّن ذلك فيما مضى، وأما السلفية بالمعنى الثاني (الأتباع) فالواقع أنهم ليسوا شيئاً واحداً، وذلك عائد إلى أسباب كثيرة؛ منها ماهو مقبول وسائغ، ومنها ما هو مردود وغير مقبول.

فأما الأسباب المقبولة والمعقولة لتنوع السلفيين في وقتنا المعاصر فمنها على سبيل المثال تغير المكان؛ إذ لا يمكن -مثلاً- أن يُلزِم أتباع المنج السلفي في بلادنا إخوانهم في دولة الكويت من أتباع المنهج السلفي بنفس اجتهاداتهم في الفروع الفقهية والأحكام الشرعية المتغيرة كالنوازل ونحوها، فذاك بلد له نظامه وخصوصيته، وهذا بلد له نظامه وخصوصيته.

---

(١) مجلة الأصالة، العدد ٩، ص٨٩

(٢) واقعنا المعاصر يشهد حرباً شديدة على المنهج السلفي وأتباعه، ويقف على رأس تلك الحملة الغربُ وأذنابه في البلاد الإسلامية؛ من العلمانيين والليبراليين، وهذه الدراسة تتناول جانباً من جوانب تلك الحرب، وسيتضح ذلك في الفصلين القادمين، إن شاء الله.

وأما الأسباب المردودة لاختلاف أتباع المنهج السلفي فهي عديدة، ومَردُّ أكثرها يعود إلى طبيعة النفس البشرية الأمارة بالسوء؛ كاتباع الهوى، وسوء الظن، والتعصب للرأي، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، إلى غير ذلك من الأسباب، والتي يمكن علاجها وتلافي عواقبها بتقوى الله، وإخلاص النية لله، والرجوع إلى الراسخين في العلم[١].

ويحسن التنبيه هنا إلى مسألة مهمة وهي أنه ومع شرف الانتساب إلى مذهب السلف، لاعتقادنا بأنه طريق الإسلام الصحيح، إلا أن ذلك لا ينبغي أن يقود إلى التحزب تحت مسمى جماعة سلفية، أو تيار سلفي[٢]، لأن ذلك مما يُفرِّق المسلمين، والفرقة شرٌّ ومفسدةٌ، يتلاشى معها التَّميُز عن أهل البدع والأهواء، فتأمّل!

يقول الشيخ محمد بن عثيمين -رحمه الله-: «ولا شك أن الواجب على جميع المسلمين أن يكون مذهبهم مذهب السلف لا الانتماء إلى حزب معين يسمى السلفيين، والواجب أن تكون الأمة الإسلامية مذهبها مذهب السلف الصالح لا التحزب إلى من يسمى (السلفيون)، فهناك طريق السلف وهناك حزب يسمى (السلفيون) والمطلوب اتباع السلف، إلا أن الإخوة السلفيين هم أقرب الفرق إلى الصواب ولكن مشكلتهم كغيرهم أن بعض هذه الفرق يضلل بعضاً ويبدعه ويفسقه، ونحن لا ننكر هذا إذا كانوا مستحقين، لكننا ننكر معالجة هذه البدع بهذه الطريقة، والواجب أن يجتمع رؤساء هذه الفرق، ويقولون: بيننا كتاب الله عزّ وجل وسنة رسوله الكريم فلنتحاكم إليهما لا إلى الأهواء والآراء، ولا إلى فلان أو فلان، فكلٌّ يخطئ ويصيب مهما بلغ من العلم والعبادة ولكن العصمة في دين الله»[٣].

---

(١) مسألة الانقسام غير المبرر بين صفوف السلفيين من المسائل المعاصرة الجديرة بالاهتمام والمواجهة، لأنها معول هدم للمنهج السلفي القويم، ولعل من أبرز عوامل ظهورها وانتشارها الانفتاح الإعلامي الكبير، وسهولة التواصل بين الناس، وإبداء كل ذي رأي رأيه، فوقعت الاختلافات والتنازعات، ومن أجود ما قرأت حول هذه المسألة ورقة بحثية بعنوان «الانقسام السلفي: أسبابه وعلاجه»، للشيخ ناصر العمر، منشورة في: مجلة المنار الجديد، العدد ٦١، ربيع الأول ١٤٣٤هـ/ يناير ٢٠١٣م، ص:٢٢-٣٩

(٢) ومن واقعنا المؤلم أن ترى تَحزُّب أتباع المنهج السلفي في جماعات متفرقة وهم في بلد واحد!.

(٣) محمد بن صالح العثيمين، شرح الأربعين النووية، دار الثريا للنشر، ط ت بدون، ص٢٨٢

وبعد، فيتضح من خلال ما مضى ما يلي:

١- أن السلف هم أهل القرون المفضلة من الصحابة ﷺ وأتباعهم وأئمة الدين العدول.

٢- أن السلفية ليست جماعة مستقلة داخل جماعة المسلمين وإنما هي دعوة لتجديد الإسلام واطِّراح كل ما علق به؛ من بدع عقدية أو عبادية، عبر الاقتداء بالسلف الصالح في فهمهم للإسلام وتطبيقهم له.

٣- أن السلفية ليست قدراً زائداً على الكتاب والسنة، وإنما هي دعوة خالصة للأخذ بهما قولاً وعملاً.

٤- أن السلفية -والحالة هذه- ليست مذهباً مخترعاً في الدين، كما يُروِّج ذلك مناوئوها، وإنما هي منهجٌ تجديدي.

٥- أن مصطلح «السلفية» في وقتنا المعاصر يطلق ويراد به ذات المنهج، ويطلق ويراد به أتبَاع المنهج السلفي.

٦- أن ثمة من يتعمَّد التنفير من السلفية بادِّعاء تعددها، وذاك محض افتراء، إذ المنهج السلفي شيءٌ واحد، ولا يسوغ تعدده لا عقلاً ولا واقعاً.

المطلب الثاني : الموقف الصوفي المعاصر من السلفية

تبين من خلال المطلب السابق أن السلفية ليست مذهباً جديداً، ولا جماعة مستقلة، وإنما هي منهج يدعو لتجديد الدين وإزالة ما علق به من انحراف؛ ومعيار ذلك التجديد هو الكتاب والسنة. وتبيَّن أيضاً أن أتباع هذه الدعوة التجديدية اصطلح على تسميتهم في زماننا المعاصر بالسلفية.

وأما عن الموقف الصوفي المعاصر من السلفية، فإن الناظر في كتب المتصوفة المتأخرين والمعاصرين منهم لا يكاد ينازع في وجود خلاف عميق بين الصوفية والسلفية، وفي ذلك يقول رائد العشيرة المحمدية[1]

---

(١) العشيرة المحمدية هيئة إسلامية خدمية أسسها بمصر عام ١٩٣٠م محمد زكي إبراهيم شيخ ومؤسس الطريقة المحمدية الشاذلية، وهي معتمدة رسمياً (كهيئة نفع عام) بالقرار رقم ٧٥٠ لسنة ٦٨، وهي هيئة خادمة للتصوف علمياً وعملياً، ومن أبرز مشاريعها الحالية بمصر «الأكاديمية العالمية لدراسات التصوف وعلوم التراث»، والتي يتبع لها الكلية الصوفية للدراسات الإسلامية والعربية، ومعهد الدراسات الصوفية والعربية، ومعهد اللغة العربية لغير

محمد زكي إبراهيم (ت١٤١٩هـ): «إن الخلاف المذهبي حقيقة قائمة بين السلفية والصوفية، وليس يغني في إخفاء هذه الحقيقة دعوىً أو تجهيل»[(١)]، ولعل هذه الكلمة تختصر الكثير من عناء الرد على زعم بعض المتصوفة المعاصرين بأن الخلاف مع السلفية إنما هو في بعض الفروع الفقهية، وأن منهجهم (الصوفي) هو المنهج السلفي! وهو ما يَردُّه أيضاً بداهة النظر في واقع سلفنا الصالح البعيد كل البعد عن واقع الصوفية الطرقية المعاصرة وما تحويه من عقائد باطلة وطرائق مبتدعة[(٢)].

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الخلاف (المذهبي) الذي ذكره رائد العشيرة المحمدية بين السلفية والصوفية لا يمكن النظر فيه دون إغفال الترابط التاريخي العميق بين الأشاعرة[(٣)] والصوفية[(٤)(٥)]، ويمكن تلخيص روح ذلك الترابط في أمرين:

الناطقين بها، وغير ذلك من المعاهد والمراكز، وللعشيرة المحمدية كذلك مجلة المسلم، والتي أعيد إصدارها -بعد انقطاع طويل- مطلع هذا العام (١٤٣٤هـ). يُنظر: موقع العشيرة المحمدية (أكاديمية الإمام الرائد لدراسات التصوف) الإليكتروني:

http: //asheera.sufiacademy.net/t3ref.html

(١) محمد زكي إبراهيم، السلفية المعاصرة إلى أين؟ ومن هم أهل السنة؟، مؤسسة إحياء التراث الصوفي، ط٢، ت بدون، ص٥٤

(٢) تفاصيل انحرافات عقائد التصوف وطرائقه عن هدي السلف الصالح قد أفردت قديماً وحديثاً بتآليف كثيرة، وقد اخترت من تلك الانحرافات -للمناقشة والتحليل- ما يناسب موضوع الرسالة -كما سيأتي في المباحث القادمة-.

(٣) جاء في معجم ألفاظ العقيدة: «الأشاعرة نسبة إلى أبي الحسن الأشعري، وهم كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية إنهم أقرب من غيرهم إلى معتقد أهل السنة والجماعة، وأن مذهبهم مركب من الوحي والفلسفة. والأشاعرة قد خالفوا أهل السنة والجماعة في خمس عشرة مسألة إحداها الأسماء والصفات، وقد بسط القول في مذهب الأشاعرة دراسة وبحثاً الدكتور سفر بن عبدالرحمن الحوالي في دراسة عن منهج الأشاعرة في العقيدة. أما نسبتهم إلى أبي الحسن الأشعري فإنها ليست سليمة لكون أبي الحسن قد تاب عن معتقده وألف كتاب «الإبانة» و«مقالات الإسلاميين»، وقد بسط الكلام فيه عن العقيدة الصحيحة وتوبته عن ما كان يقوله». معجم ألفاظ العقيدة، ص٤٢

(٤) يُعد التصوف طوراً من الأطوار (المؤثرة) التي مرّ بها المذهب الأشعرى، وقد زعم القشيري في رسالته أن عقيدة أعلام التصوف هي عقيدة الأشاعرة. وللمزيد حول هذه المسألة يُنظر: عبدالرحمن المحمود، موقف ابن تيمية من الأشاعرة، طبعة الرشد الأولى ١٥-٩٥، ص٢/٥٩٢-٥٩٦. ومنيفة بنت خليف الشمري، أثر التصوف على مذهب الأشاعرة، رسالة علمية -غير مطبوعة-، جامعة الملك سعود، ١٤٢٤هـ ص٥١-٥٦

(٥) قد يرد هنا تساؤل بأن الأشاعرة يُعظِّمون العقل ويقدمونه، والمتصوفة يُعطِّلونه ويقدمون

الأمر الأول: أن العديد من المسائل التي يخالف فيها الصوفيةُ أهل السنة (السلفية) إنما هي مبنية على عقيدتهم الأشعرية، ومن أبرز تلك المسائل ما يقع من الصوفية من شركيات عند القبور، وسؤال غير الله تعالى، والاستعانة به، إذ إنها -عند التأمل والنظر- مبنية على العقيدة الأشعرية التي تحصر التوحيد في الخلق والإيجاد (توحيد الربوبية)، وتهمل الكلام عن إفراد الله بالعبادة (توحيد الألوهية) وعن نفي ما يضاده من الشرك، والنتيجة أن ما يراه أهل السنة فيهم شركاً لا يختلف عما جاءت الرسل بنفيه، يرونه وسيلة للتعبد طالما أن الـمُتَعبِد (منهم) يُقِر بأن لا خالق ولا مؤثِّر إلا الله! ومن جهة أخرى بنى عليها المتصوفة عقيدة الفناء في الربوبية، والتي هي الغاية عندهم[1].

كشوفهم ومواجديهم فكيف التقيا؟! وجواب هذا التساؤل هو أن مصدر التلقي الأشعري (العقل)لم يتعارض يوماً ما مع مصدر التلقي الصوفي (الكشف والإلهام)، فكلاهما منفلت من زمام الدليل الشرعي (الكتاب والسنة)، بل قد اتفقا وانسجما، حتى بات العقل والكشف عند متأخرة الأشاعرة قرينان يسند أحدهما الأخر! فالعقل الأشعري -مثلاً- رد الحديث الصحيح (إن أبي وأباك في النار)، لأنه لا يقبل دخول أبوي النبي ﷺ النار، وإن نطق بذلك سيد البشر ﷺ ! واستنجد ذلك العقل بحديث «أن رسول الله ﷺ سأل ربه أن يحيي له أبويه فأحياهما له ثم آمنا به ثم أماتهما». فلما أُعترض عليه بضعف هذا الحديث، قال: «لعل هذا الحديث صح عند أهل الحقيقة بطريق الكشف»!!. وهذا ما نطق به البيجوري وهو أحد أعلام الصوفية الأشاعرة المتأخرين (ت١٢٧٦هـ). البيجوري، تحفة المريد على جوهرة التوحيد، تحقيق: علي جمعة، دار السلام-القاهرة، ط١، ١٤٢٢هـ- ٢٠٠٢م، ص٦٩. وأما حديث: (إن أبي وأباك في النار) فقد أخرجه مسلم في صحيحه برقم (٣٤٧)، وحديث «أن الرسول ﷺ سأل ربه أن يحيي أبويه فأحياهما له..» فقال عنه ابن كثير: «حديث منكر جداً»، وقال عنه الملا علي قاري: «موضوع، كما قال ابن دحية»، ونقل أيضاً جهالة إسناده العجلوني. يُنظر: ابن كثير، البداية والنهاية، تحقيق: عبدالله التركي، دار هجر، ط١، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م، ٣/ ٤٢٩، وملا علي قاري، الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة (الموضوعات الكبرى)، تحقيق: محمد الصباغ، دار الأمانة/ مؤسسة الرسالة-بيروت، ط بدون، ت بدون، ص٨٢، وإسماعيل العجلوني، كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسن الناس، تحقيق: عبدالحميد بن هنداوي، المكتبة العصرية، ط١، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م، ١/ ٧١

(١) يظن البعض أن كل ما يصدر عن المتصوفة من أقوال وأفعال منحرفة إنما مرده إلى الخرافة والدجل، والواقع ليس كذلك؛ فبالإضافة إلى وجود ذلك عندهم إلا أن بعض ما يصدر عنهم أيضاً إنما هو أثرٌ ونتيجةٌ لاتباع أكثرهم للمذهب الأشعري، فعلى سبيل المثال حُكم المتصوفة بنجاة أبي طالب من النار مبنيٌ على عقيدتهم الأشعرية والتي تحصر الإيمان في القلب وترجئه عن اللسان والجوارح، وانسجم هذا الحكم تماماً مع غلوهم في رسول الله ﷺ. يُنظر -مثلاً- كتاب أحمد زيني دحلان «أسنى المطالب في نجاة أبي طالب»، تحقيق: حسن السقاف، دار الإمام النووي-عمان، ط٢، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م.

الأمر الثاني: (وهو نتيجة للأول) أن الخلاف المعاصر بين أهل السنة (السلفية) والصوفية لا ينفك في حقيقة أمره عن الخلاف بين أهل السنة والأشاعرة، وإن كان في شكله الظاهر إنما هو خلاف بين السلفية والصوفية، وذلك لاتباع السواد الأعظم من المتصوفة المتأخرين والمعاصرين لعقيدة الأشاعرة[1]، وفي هذا يقول الدكتور ناصر العقل: «كما نجد أن كثيراً من الأشاعرة -حالياً- منضوون تحت الطرق الصوفية البدعية، وتكثر فيهم بدع القبور والتبرك البدعي بالأشخاص والأشياء، وبدع العبادات والأذكار والموالد ونحوها، وهذه البدع هي التي تميزهم -حالياً- عن أهل السنة بوضوح»[2].

ويقول أيضاً الدكتور خالد الغامدي: «لقد أصبح كثير من متأخري الأشاعرة والماتريدية على الطرق الصوفية، فأصبح مذهبهم مقروناً بالصوفية، ولا تكاد ترى أشعرياً ولا ماتريدياً إلا وهو صوفيٌّ إلا ما ندر»[3]، بل بات الواحد منهم في زماننا هذا يُعرِّف بنفسه قائلاً -على سبيل المثال-: «أنا شافعي المذهب أشعري العقيدة شاذلي الطريقة»، ونحو ذلك[4].

وعند التأمل في طبيعة وشكل الخلاف القائم اليوم بين الصوفية والسلفية نجد بأن المتصوفة المعاصرين يقِفون من السلفية ما بين مناوئٍ لها بجفاء،

---

(١) وهذا الواقع (التلازم الصوفي الأشعري) هو ما انتهت إليه أدوار التصوف حتى يومنا هذا، وقد كتب -بإيجازٍ متقن- عن تلك الأدوار شيخ الأزهر مصطفى عبدالرزاق، ومنه قوله: «وشاعت بعد ذلك أقاويل الفلاسفة والمتكلمين في الصانع وصدور الموجودات عنه وما إلى ذلك من عوالم الأرواح وشؤون الآخرة، فتكلم الصوفية في كل ذلك على منهجهم الذي لا يعتمد على نظر ولا على نص ولا معرفة إلا من ذاق ما ذاقوا»، مصطفى عبدالرازق، دائرة المعارف الإسلامية، الجزء ١٦، (التصوف)، ص٨٠-٨١

(٢) ناصر العقل، مباحث في عقيدة أهل السنة والجماعة وموقف الحركات الإسلامية المعاصرة منها، دار الوطن-الرياض-، ط١، ١٤١٢هـ ص٤٩

(٣) خالد الغامدي، نقض عقائد الأشاعرة والماتريدية، دار أطلس الخضراء-الرياض-، ط١، ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م، ص٦٣

(٤) هذا التلازم الغالب بين الأشاعرة والصوفية -الذي نعيشه اليوم- لم يكن بهذه الغلبة عبر التاريخ الإسلامي، فقد وجد من العلماء من تأثر بالأشاعرة وخاصم الصوفية؛ كأبي الوفاء بن عقيل (ت٥١٣هـ)، وابن الجوزي (ت٥٩٧هـ)، ووجد من تأثر بالتصوف وخاصم الأشاعرة؛ كعبدالله الأنصاري الهروي (ت٤٨١هـ)، وعبدالقادر الجيلاني (ت٥٦١هـ)، رحمهم الله جميعاً. للاستزادة يُنظر: خالد كبير علال، الأزمة العقيدية بين الأشاعرة وأهل الحديث خلال القرنين ٥-٦ الهجريين، دار الإمام مالك-الجزائر، ط١، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م، ص٦١

أو مخالفٍ لها بدهاء[1]. وتفصيل القول في هذين الفريقين على نحو ما سيأتي.

أولاً: المناوئون للسلفية بجفاء

هذه الفئة من الصوفية ناصبت السلفيةَ (منهجاً وأتباعاً) العداء! وتكاد أن تكون هذه الفئة -بأسلوبها الحاد- هي الغالبة الآن في ساحة العلاقة بين الصوفية والسلفية، وهي ممتدة إلى زمن ظهور دعوة الشيخ بن عبدالوهاب الإصلاحية[2].

وفي هذا يقول الدكتور مصطفى حلمي: «العامل الأساسي في استنكارها (أي دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب) والوقوف في وجهها يرجع إلى ما غرق فيه المسلمون من تأثيرات المذاهب الصوفية كما قلنا، فقد تغلغلت في عقول المسلمين وقلوبهم فظنوا أنها تعبر عن الصحيح المتوارث وقابلوا دعوة ابن عبدالوهاب بعنف وشدة ظناً منهم أنها انحراف عن معتقداتهم»[3]، ولذلك فإن مصطلح السلفية عند المتصوفة مرادفٌ تماماً لمصطلح الوهابية[4].

---

(١) الكلام هنا إنما هو لوصف موقف المتصوفة المعاصر من السلفية، وتحليل أسبابه ونقدها، ولذلك ابتعدت قدر المستطاع عن الدخول في مقام المناقشة والردود؛ إذ ليست هي مقصد هذا المبحث، ولأن مسائل الخلاف مع الصوفية مبسوطة ومفردة في تصانيف كثيرة.

(٢) وهي ممتدة أيضاً في تاريخنا الإسلامي إلى وقت شيخ الإسلام ابن تيمية، وقد كان الصوفية من أشد المناوئين له؛ وأحد أسباب سجنه -رحمه الله-، وكان من أبرز من ناوءه منهم نصر المنبجي (ت٧١٩هـ)، وابن عطاء السكندري (ت٧٠٩هـ). يُنظر: عبدالله الغصن، دعاوى المناوئين لشيخ الإسلام ابن تيمية، دار ابن الجوزي-الدمام، ط١، ١٤٢٤هـ ص٧٢-٧٤

(٣) مصطفى حلمي، أعمال القلوب بين الصوفية وعلماء السنة (التصوف والاتجاه السلفي في العصر الحديث)، دار الدعوة-الإسكندرية، ط٢، ١٤١٠هـ-١٩٨٩م، ص١٧٦-١٧٧

(٤) الوهابية اسم أطلق على دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب السلفية التجديدية، ولا يُعرف تحديداً -فيما أعلم- متى أُطلق، ولذلك لا يمكن الجزم بأن من أطلق هذا الاسم هم خصوم دعوة الشيخ محمد، ولكن الشيء المؤكد أنهم استخدموه كثيراً وشحنوه بالمعاني السيئة المنفرة، وصوروه وكأنه اسمٌ لمذهب جديد خارج عن الإسلام. وهذا المصطلح -مجرداً- لا يحمل مدحاً ولا ذماً، وإنما هو من باب الاختصار في تسمية أو وصف الشيء ببعض أجزائه؛ كتسمية مذهب الإمام أحمد بالحنبلي؛ وحنبل هو جد الإمام أحمد، وتسمية مذهب الإمام محمد بن إدريس الشافعي بالشافعي؛ وشافع هو جد الإمام الشافعي الرابع، وغير ذلك من الأمثلة الكثيرة؛ وهي (أي الوهابية) لم تطلق من باب النسبة اللغوية، بل من باب الاختصار في التسمية أو الوصف، وعليه فلا وجه لمن ذهب إلى تخطئة التسمية بالوهابية لأنها خطأ في

وفي هذا يقول أحد المناوئين للسلفية وهو حسن بن علي السقاف: «الحقيقة أنه لا فرق بين السلفية والوهابية فهما وجهان لعملة واحدة فهم يعتقدون بنفس المعتقدات والأفكار، فهي في داخل جزيرة العرب وهابية حنبلية، وعندما تُصدَّر لخارجها تسمى سلفية، والواقع أن الوهابية تولدت من السلفية! فمحمد بن عبدالوهاب هو رجل دعا إلى أفكار ابن تيمية وقدماء الحنابلة المجسمة[1] الذين يَدَّعون السلفية وربما خالفهم ببعض المسائل الفقهية الفرعية كتحريم زيارة القبور ومحاربة التصوف بدون هوادة!!»[2].

النسبة؛ إذ المفترض -كما يقولون- أن تكون (المحمدية) نسبة إلى الشيخ محمد. وقد استعمل هذه التسمية جمعٌ من العلماء من أنصار هذه الدعوة؛ منهم الشيخ محمد بن عبداللطيف آل الشيخ (ت١٣٦٧هـ)، والذي يقول في رسالته إلى أهل اليمن: «وصار بعض الناس يسمع بنا معاشر الوهابية، ولا يعرف حقيقة ما نحن عليه، وينسب إلينا، ويضيف إلى ديننا ما لا ندعو إليه،..» (الدرر السنية ١/ ٥٦٦)، وكذلك استعملها الشيخ سليمان بن سحمان (ت١٣٤٩هـ)، وكُتُبه مليئة بمصطلح «الوهابية»، حتى إنه ذكرها في عنوان رسالته «الهدية السنية والتحفة الوهابية النجدية». وكذلك استعملها الشيخ محمد حامد الفقي (ت١٣٧٨هـ) في كتابه «أثر الدعوة الوهابية في الإصلاح الديني والعمراني في جزيرة العرب وغيرها»، واستعملها الشيخ محمد رشيد رضا (ت١٣٥٤هـ) في كتابه «الوهابيون والحجاز»، والشيخ محمد خليل هراس (ت١٣٩٥هـ) في كتابه «الحركة الوهابية». ويقول الشيخ مسعود الندوي (ت١٣٧٣هـ) في كتابه «محمد بن عبدالوهاب مصلح مظلوم ومفترى عليه»: «وعلى كل حال فنظراً إلى تلك المحاولات التي بُذلت لإظهار الوهابية في صورة مذهب مستقل وطائفة ضالة. هذا الاسم منتقد أشد الانتقاد ولكن بغض النظر عن هذه الأكذوبة والافتراء فلا أرى حرجاً في هذه التسمية»، ص١٩٣. ومن هنا فإن نفور (أو عزوف) أتباع دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب التجديدية اليومَ عن استعمال مصطلح الوهابية أعطى المناوئين لها (الرافضة والصوفية تحديداً) فرصة أخرى لإعادة إحياء تلك المضامين المكذوبة على دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، والمتابع يلحظ تنامي ذلك بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م.

(١) جاء في معجم ألفاظ العقيدة: «التجسيم كلفظ استعمله نفاة الصفات الذين قالوا بأن إثبات الصفات الذاتية لله مستلزم للتجسيم والتحيز، وأن الصفات التي أثبتها الله لنفسه كاليد والوجه والساق والهرولة وغيرها من الصفات إنما هي أعراض والعرض لا يقوم إلا بجسم. وهؤلاء الذين نفوا الصفات خشية وقوعهم في التجسيم وقعوا في نقيض ذلك؛ فهم أثبتوا لله حياة وعلما وقدرة مع أن هذا الصفات لا تقوم إلا بجسم، وكذلك حال الأشاعرة الذين أثبتوا لله سبع صفات دون غيرها وهي العلم والإرادة والقدرة والسمع والبصر والحياة والكلام، فلا نعرف ما يوصف بذلك إلا ما هو جسم، فهم أشد خلق الله تناقضاً، وقد أطلقوا على أهل السنة والجماعة «المجسمة» لأنهم أثبتوا لله ما أثبته لنفسه». معجم ألفاظ العقيدة، ص٨١

(٢) حسن بن علي السقاف، السلفية الوهابية أفكارها الأساسية وجذورها التاريخية، دار الإمام الرواس-بيروت، ط بدون، ت بدون، ص١٩

ويمكن القول بأن مفتي الشافعية بمكة المكرمة الشيخ أحمد زيني دحلان[1] كان من أشد المناوئين للشيخ محمد بن عبدالوهاب ولدعوته السلفية التجديدية، ولم يتورع عن شيء في هذا السبيل؛ فرمى الشيخ محمد بالكفر والزندقة، ووصفه هو وأتباعه بالخوارج، وافترى على دعوته بافتراءات بلغت الآفاق عن طريق الحُجَّاج[2].

ومما قاله دحلان في حق الشيخ محمد بن عبدالوهاب[3]: «..، وأخذ عن كثير من علماء المدينة منهم الشيخ محمد بن سليمان الكردي الشافعي والشيخ محمد حياة السندي الحنفي وكان الشيخان المذكوران وغيرهما من أشياخه يتفرسون فيه الالحاد والضلال ويقولون سَيضِل هذا ويضل به من أبعده وأشقاه، فكان الأمر كذلك وما أخطأت فراستهم فيه وكان والده عبدالوهاب من العلماء الصالحين فكان أيضاً يتفرس في ولده المذكور الإلحاد ويذمه كثيراً ويحذر الناس منه»[4].

ويقول في مُؤلَّفٍ آخر: «فحقق الله فراستهم فيه لما ابتدع ما ابتدعه من الزيغ والضلال الذي أغوى به الجاهلين وخالف فيه أئمة الدين وتوصل بذلك إلى تكفير المؤمنين فزعم أن زيارة قبر النبي ﷺ والتوسل به وبالأنبياء والأولياء والصالحين وزيارة قبورهم شرك، وأن نداء النبي ﷺ عند التوسل به شرك، وكذا نداء غيره من الأنبياء والأولياء والصالحين عند التوسل بهم شرك..، وزعم محمد بن عبدالوهاب أن مراده بهذا المذهب الذي ابتدعه

---

(١) أحمد بن السيِّد زيني دحلان، أبو العباس، ولد بمكة سنة ١٢٣١هـ/ ١٨١٦م، مفتي الشافعية بمكة، وطريقته في التصوف كانت طريقة آل باعلوي، وفي أيامه أُنشئت أول مطبعة بمكة وتولى نظارتها، من مؤلفاته: «الدرر السنية في الرد على الوهابية»، و«خلاصة الكلام في أمراء البيت الحرام»، توفي بالمدينة (وقيل بمكة) سنة ١٣٠٤هـ/ ١٨٨٦م). يُنظر: معجم المؤلفين ١/ ٢٢٩، والأعلام ١/ ١٢٩، وفهرس الفهارس ١/ ٣٩٠

(٢) يُنظر: عبدالعزيز محمد العبد اللطيف، دعاوى المناوئين لدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، دار طيبة-الرياض، ط بدون، ١٤٠٩-١٩٨٩م، ص٥١-٥٢، وأحمد بن حجر آل أبوطامي، الشيخ محمد بن عبدالوهاب عقيدته السلفية ودعوته الإصلاحية وثناء العلماء عليه، مطبوعات الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ط بدون، ت بدون، ص٥٢

(٣) ترددتُ في إيراد هذه الأمثلة، وليعذرني قارئها، لأني أردت أن يقف القارئ المنصف على مثل هذه الشناعات، ثم يرى بعين العدل أيَّ الفريقين أجرأ على التكفير والبهتان.

(٤) أحمد زيني دحلان، الدرر السنية في الرد على الوهابية، مكتبة الحقيقة-اسطنبول-، ط بدون، ٢٠٠٢م، ص٤٥-٤٦

إخلاص التوحيد والتبري من الشرك، وأن الناس كانوا على شرك منذ ستمائة سنة، وأنه جدد للناس دينهم وحمل الآيات القرآنية التي نزلت في المشركين على أهل التوحيد..»[1].

وقال أيضاً: «والظاهر من حال محمد بن عبدالوهاب أنه يدعي النبوة إلا أنه ما قدر على إظهار التصريح بذلك..، وكان يقول لأتباعه: إني أتيتكم بدين جديد، ويظهر ذلك من أقواله، وأفعاله ولهذا كان يطعن في مذاهب الأئمة وأقوال العلماء»[2].

ويصف الشيخ محمد رشيد رضا -رحمه الله- تلك المناوءة بقوله: «وكان أشهر هؤلاء الطاعنين مفتي مكة المكرمة الشيخ أحمد زيني دحلان المتوفى سنة ١٣٠٤هـ ألف رسالة في ذلك تدور جميع مسائلها على قطبين اثنين: قطب الكذب والافتراء على الشيخ، وقطب الجهل بتخطئته فيما هو مصيب فيه. أُنشئت أول مطبعة في مكة المكرمة في زمن هذا الرجل فطبع رسالته وغيرها من مصنفاته فيها وكانت توزع بمساعدة أمراء مكة ورجال الدولة على حجاج الآفاق فعم نشرها، وتناقل الناس مفترياته وبهاءته في كل قُطر، وصدقها العوام وكثير من الخواص، كما اتخذ المبتدعة والحشوية، والخرافيون رواياته ونقوله الموضوعة والواهية والمنكرة وتحريفاته للروايات الصحيحة حججاً يعتمدون عليها في الرد على دعاة السنة المخلصين، وقد فنيت نسخ رسالته ولم يبق منها شيء بين الأيدي[3]، ولكن الألسن والأقلام لا تزال تتناقل كل ما فيها من غير عزو، ودأب البشر

---

(١) أحمد زيني دحلان، فتنة الوهابية، مكتبة الحقيقة-اسطنبول-، ط بدون، ٢٠٠١م، ص٣، وأصل هذا الكتاب فصلٌ من كتاب لأحمد دحلان بعنوان: (الفتوحات الإسلامية بعد مضي الفتوحات النبوية)، وقد طبعه مستقلاً في كتاب صاحب مكتبة الحقيقة بإسطنبول حسين حلمي أيشيق سنة ١٩٧٥م.

(٢) أحمد زيني دحلان، الدرر السنية، ص٥٠

(٣) في عام ١٩٦٦م أسس شخص تركي يُدعى حسين حلمي أيشيق (ت ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م) مكتبةً في اسطنبول سُمِّيت فيما بعد بمكتبة الحقيقة، وقد تولى فيها طباعة كتب الصوفية وترجمتها إلى لغات عدة، وتوزيعها بالمجان، ومنها كتب أحمد زيني دحلان، ولا تزال المكتبة تعمل بنشاط إلى يومنا هذا. يُنظر موقع مكتبة الحقيقة على شبكة الانترنت:
http: //www.hakikatkitabevi.net

العناية بنقل ما يوافق أهواءهم، فكيف إذا وافقت هوى ملوكهم وحكامهم»[1].

ولذلك يمكن القول بأن من أتى بعد دحلان من المناوئين للدعوة السلفية إنما هو عالة على افتراءاته ومزاعمه، ومنهم على سبيل المثال تلميذه محمد سعيد بابصيل (ت١٣٣٠هـ) والذي تولى زمام الإفتاء والتدريس والمناوءة للدعوة الوهابية السلفية من شيخه دحلان، فكان حرباً على كل من يدعو إلى التوحيد ونبذ خرافات الصوفية وبدعهم، وممن نالهم أذاه الشيخ أبوبكر خوقير[2] -رحمه الله-، والذي ما فتئ بابصيل يعارض دعوته، ويسفِّه عقله، ويستعدي عليه صراحةً الحكام الأشراف حتى سجنوه[3].

ومن أمثلة المناوئين المعاصرين السائرين على نهج دحلان شيخ الطريقة المحمدية الشاذلية ومؤسسها بمصر محمد زكي إبراهيم[4]، فمن

---

(١) نقلاً عن: محمد بشير السهسواني الهندي، صيانة الإنسان عن وسوسة الشيخ دحلان، ط٥، ١٣٩٥هـ-١٩٧٥م، والنقل أعلاه من مقدمة الشيخ محمد رشيد رضا للكتاب، ص١٢. والكتاب عبارة عن مناقشة علمية لكتاب دحلان: (الدرر السنية في الرد على الوهابية).

(٢) أبو بكر ابن الشيخ محمد عارف الإمام بالمسجد الحرام ابن الشيخ عبدالقادر محمد علي خوقير الكتبي الحنبلي، ولد سنة ١٢٨٤هـ بمكة، مفتي الحنابلة بمكة، منع من التدريس في الحرم بسبب محاربته لبدع الصوفية وخرافاتهم، ثم لذات السبب أودع السجن في زمن الشريف حسين بن علي ١٨شهراً، ثم سجن سنة ١٣٣٩هـ، ولم يفرج عنه إلا بعد دخول الملك عبدالعزيز مكة سنة ١٣٤٣هـ. من مؤلفاته: «فصل المقال وإرشاد الضال في توسل الجهال»، و«ما لابد منه في أمور الدين على طريقة السلف الصالح ومذهب الإمام أحمد في العقائد»، و«التحقيق فيما يُنسب إلى أهل الطريق». توفي بالطائف (وقيل بمكة) سنة ١٣٤٩هـ. يُنظر: الأعلام ٢/ ٧٠، ومعجم المؤلفين ٢/ ٧٣، ومشاهير علماء نجد وغيرهم، ص٣٠٠

(٣) يُنظر: بدر بن محمد ناضرين، الشيخ أبو بكر بن محمد عارف خوقير وجهوده في تقرير عقيدة السلف والدفاع عنها، رسالة علمية (غير مطبوعة)، ١٤٢٤هـ جامعة أم القرى بمكة المكرمة، ص١٠٤-١١١

(٤) مر آنفاً أن محمد زكي إبراهيم هو أيضاً مؤسس العشيرة المحمدية، والتي هي الذراع العملية للطريقة المحمدية الشاذلية، وبالرغم من هجوم محمد زكي إبراهيم على السلفية وأتباعها ورميهم بالأباطيل إلا أن شعار طريقته التي ابتدعها عام ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م واعتمدها الرئيس السادات عام ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م هو (طريقة صوفية، سلفية، شرعية مستنيرة)!. وتفتخر الطريقة المحمدية الشاذلية بمشاهير كانوا من مريديها كوزير الداخلية المصري الأسبق زكي بدر، واللواء جمال الدين حسين نائب رئيس الجمهورية في عهد السادات وغيرهما. يُنظر: مقال (المحمدية الشاذلية.. طريقة المشاهير والسياسيين.. ورافعة راية إصلاح التصوف)، جريدة المصري اليوم، العدد (١٥٥٧) في ١٧/ ٩/ ٢٠٠٨م.

مناوءته للدعوة السلفية وكذبه عليها قوله: «ويمكن تلخيص (السلفية العصرية) في بعض أصولها ومعالمها وقواعدها فيما يأتي: أولاً: أن تعتقد أنك وحدك (لا شريك لك) على الحق، وأن كل من لم يكن على ما أنت عليه فهو مبطل خاطئ، بل مرتد حلال العرض والدم والمال..»[1] ثم أخذ يُعدد على منوال هذا البهتان أكثر من عشرين أصلاً، زعم أنها من أصول السلفية المعاصرة! ومنها -كما يزعم-: «أن تعتقد أنه لن يدخل الجنة معك أنت وطائفتك أحدٌ أبداً..، عندما تقصد إلى المدينة المنورة، إيَّاك أن تفكر في زيارة القبر الأشرف الأطهر، ولكن اجعل مقصدك زيارة (أحجار) المسجد..، أنْكِر كافة مذاهب أهل السنة بدءاً بالمذاهب الأربعة، وما سبقها أو لحقها، ولا تعترف إلا بـ(ابن تيمية، وابن عبدالوهاب)، ثمَّ بمروجي مذهبهم والدائرين في فلكهم من عبيد الدولار والدينار..، وجِّه كل جهودك إلى تدمير البناء (الصوفي).. قل بلا تحفظ عن كل (حديث نبوي) لا يؤيد وجهة نظرك هو ضعيف، أو موضوع..، لا تتوسل إلى الله مبتهلاً إليه بواحد من صالحي المسلمين، حياً كان أو ميتاً، ولا بسيدنا المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم، وقل إن هذه عين الوثنية..، لا تعامل من ليس من مذهبك، بل احتقره وازجره، وامنع كل الخير يصل إليه..»[2]!!

وكذلك من أمثلة المناوئين المعاصرين للسلفية علاء الدين ماضي أبو العزائم، شيخ الطريقة العزمية بمصر، والذي سخَّر جهده وإمكانات طريقته في محاربة الدعوة السلفية، وأكتفي فقط هنا بإيراد بعض عناوين الكتب التي أصدرتها طريقته[3]، فمنها -على سبيل المثال-: كتاب (السلفيون وصناعة الجهل)، وكتاب (السلفيون وصناعة التخلف)، وكتاب (الوهابية مملكة الفضائح)، وكتاب (أنوار الحقائق الجلية في زندقة الوهابية)، إلى غيرها من الكُتب التي تطفح زوراً وبهتاناً على الدعوة السلفية.

---

(١) محمد زكي إبراهيم، السلفية المعاصرة إلى أين؟ ومن هم أهل السنة؟، ص٦٢-٦٩، وهذه الفقرة من الكتاب عنوانها (كيف تصبح سلفياً عصرياً؟)، وقد نُشرت قبل ذلك في مقالة مستقلة بمجلة (المسلم) التابعة للعشيرة المحمدية، العدد٣، شهر شوال ١٤٠١هـ.

(٢) المرجع نفسه، ص٦٢-٦٩

(٣) سيأتي مزيد بيان عن هذه الطريقة تحديداً وعن بعض المتصوفة المناوئين أيضاً للدعوة السلفية في الفصل الرابع -إن شاء الله-.

وأيضاً من أمثلة المناوئين المعاصرين للدعوة السلفية الكويتي السيد يوسف هاشم الرفاعي، والذي لا تكاد تخرج افتراءاته عن السابقين، وقد جمعها في كتاب له بعنوان (نصيحة لإخواننا علماء نجد)، وذكر فيه سبعة وخمسين مأخذاً -كما زعم- على علماء نجد، وقد تعقبها بالرد الشيخ صالح الفوزان، وسأورد فيما يلي أنموذجين فقط مما جاء في كتاب الرفاعي هذا، مع إيراد تعقيب الشيخ الفوزان عليهما:

النموذج الأول: قال السيد يوسف الرفاعي -موجهاً خطابه لعلماء نجد-: «لا يجوز اتهام المسلمين الموحدين الذين يصلّون معكم ويصومون ويزكون ويحجون البيت ملبين مرددين: ((لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك)). لا يجوز شرعاً اتهامهم بالشرك كما تطفح به كتبكم ومنشوراتكم، وكما يجأر خطيبكم يوم الحج الأكبر من مسجد الخيف بمنى صباح عيد الحجيج وكافة المسلمين، وكذلك يروع نظيره في المسجد الحرام يوم عيد الفطر بهذه التهجمات والافتراءات أهل مكة والمعتمرين»[1].

وكان رد الشيخ الفوزان على هذا القول: «وكأن الرفاعي بهذا لا يرى أن عبادة القبور ودعاء الأموات وغيرهما من أنواع الشرك، الذي يصدر من كثير ممن يصومون ويصلّون ويزكّون ويحجّون، لا يراه كفراً وشركاً، ولا يرى أن ذلك يبطل الصلاة والزكاة والصيام والحج وسائر الأعمال، وإذا حذّر خطيبُ المسجد الحرام -وغيره من خطباء المسلمين- حذر المسلمين من هذا الشرك والوقوع فيه نصيحة لهم، يراه الرفاعي تكفيراً لهم واتهاماً لهم بالشرك، فما هذا الفهم المنكوس، والعقل المطموس؟!»[2].

النموذج الثاني: قال السيد الرفاعي: «لقد كفّرتم الصوفية ثم الأشاعرة وأنكرتم واستنكرتم تقليد الأئمة الأربعة (أبو حنيفة، ومالك، والشافعي، وأحمد بن حنبل»[3].

---

(١) يوسف بن السيد هاشم الرفاعي، نصيحة لإخواننا علماء نجد، دار اقرأ -دمشق، ط١، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م، ص٢٨، وقد قدم لهذا الكتاب وأيدّ ما فيه الدكتور محمد سعيد البوطي.
(٢) صالح بن فوزان الفوزان، البيان بالدليل لما في نصيحة الرفاعي ومقدمة البوطي من الكذب الواضح والتضليل، دار العاصمة-الرياض-، ط١، ١٤٢١هـ، ص١٥-١٦
(٣) يوسف الرفاعي، نصيحة لإخواننا علماء نجد، ص٢٨-٢٩

وكان رد الشيخ الفوزان على هذا القول: «نقول لهذا المفتري: بأي كتاب كفّرنا هؤلاء؟ وبأي كتاب أنكرنا اتّباع المذاهب الأربعة؟ لكن الأمر كما قيل:

لـي حيلةٌ فيــمن يَنِمُّ   وليس في الكذّاب حيلهْ
من كان يخلقُ ما يقولُ   فحيــلتي فيه قليــلَهْ»[1].

ويقول الشيخ الفوزان في موضع آخر مجيباً عن تهمة التكفير التي زعمها الرفاعي: «هذا كذب؛ لأن علماء نجد لا يكفرون إلا من دل الكتاب والسنة على تكفيره، كمن يدعو غير الله أو يستغيث بالأموات والغائبين، وهذا مما لا خلاف فيه بين العلماء، وأما توزيعهم للكتب التي فيها التحذير من الشرك والكفر والبدع، فهذا من النصيحة للمسلمين وتبصيرهم بدين الله، ولا يعني هذا أنهم يكفرون من لم يقم الدليل الصحيح على كفره، وإنما هو من باب التنبيه والتحذير والمحافظة على العقيدة»[2].

ومن المناوئين أيضاً للدعوة السلفية محمد هشام قباني، شيخ الطريقة النقشبندية في الولايات المتحدة الأمريكية، إذ يقول -على سبيل المثال- في لقاء صحفي -مجيباً سؤال:«هل الوهابية هي المصدر الرئيس للإرهاب؟»-: «بالطبع نعم؛ فإن الإسلام ظلّ مسالماً ولا يسمح بالعدوان، إلا أن أصحاب المذهب الوهابي نشروا الأفكار المتطرفة ومولوها بأموال النفط، اليوم نجد الوهابية في كل مكان وليست فقط في السعودية، وإذا ذهبت إلى أي مسجد ستجد الكتب القادمة من السعودية عن محمد بن عبدالوهاب (مؤسس الوهابية) ولن تجد إلا الكتب التي كتبها علماء السعودية»[3]. وسيأتي المزيد عن عداء ومناوئة قباني للدعوة السلفية في الفصل الرابع.

---

(١) صالح الفوزان، البيان بالدليل، ١٥-١٦، وبيتا الشعر للفقيه منصور بن إسماعيل التميمي الشافعي (ت ٣٠٦هـ).

(٢) المرجع نفسه، ص٤٥-٤٦

(٣) جريدة ستريتس تايمز السنغافورية، في ١٢/ ١٢/ ٢٠٠٤م، ترجمة موقع «إسلام ديلي»: www.islamdaily.org/ar/alwahabia/2536.article.htm

وبعد، فهذه بعض النماذج لهذا التوجه الصوفي المناوئ للدعوة السلفية، والمتابع لأقوال من سار على هذا النهج يلحظ أنهم يركزون على إلصاق بعض التهم المنفرة من الدعوة السلفية وأهلها، وأبرز تلك التهم: التشدد، والتطرف، وتكفير المخالف، أو تكفير عامة المسلمين، والخروج على الحكام. ويؤسِّسون على هذه التهم الباطلة ما يلي:

أولاً: صحة ما هم عليه من عقائد باطلة؛ كدعاء الأموات والاستغاثة بهم، وتقديس الأولياء والزعم بأنهم يعلمون الغيب، إلى غير ذلك من العقائد الباطلة؛ ثم يزعمون أن خصمهم السلفي الوهابي لا يقبل منهم صرفاً ولا عدلاً!!.

ثانياً: التحذير من المنهج السلفي، والذي شحنوه بكل المعاني السيئة التي ينفر منها السامع، وحرصهم في ذات الوقت على ربط السلفية بمُسمَّى الوهابية، بحيث تصبح السلفية والوهابية -بزعمهم- تدلان على ذات السوء!.

ثالثاً: التقرب بهذه الخصومة مع السلفيين إلى الحكام أو إلى المنحرفين؛ كالشيعة، وأشباههم، بل ويتقربون بها إلى أعداء الإسلام من الكفار والملحدين[١].

ثانياً: المخالفون للسلفية بدهاء

أصحاب هذا الاتجاه ابتعدوا قدر المستطاع عن الصدام مع السلفية (أتباعاً)، وفي ذات الوقت اشتغلوا بنشر التصوف والدعوة إليه، ومحاولة إلصاقه بالسلفية (منهجاً)!، حتى إن بعضهم يستدل بكلام الشيخ محمد بن عبدالوهاب -رحمه الله- كما سيأتي! ومن أبرز الأمثلة على أصحاب هذا الاتجاه الشيخ محمد علوي المالكي، والذي يُعد أول المجاهرين بإحياء بدع وخرافات التصوف في الدولة السعودية المعاصرة[٢]! وذلك بنشره -

---

(١) سيأتي مزيد بيانٍ وتمثيل لهذه الفقرة الثالثة في الفصل الرابع إن شاء الله.

(٢) يذكر الشيخ أبو بكر الجزائري أن القبوريين استغلوا الهزة التي أصابت الدعوة السلفية بعد فتنة الحرم بداية سنة ١٤٠٠هـ فدفعوا بالمالكي فأصدر كتابه «الذخائر»، بعد أن مهد له برسالة تغنى فيها بالموالد، كبطل استطاع أن يصارع السلفية في عقر دارها!. يُنظر: أبوبكر جابر الجزائري، وجاءوا يركضون، مهلاً يا دعاة الضلالة، دار الحرمين-القاهرة-، ط بدون، ١٤١٣هـ ص٢٧-٣٤

علناً- كتباً تدعوا صراحة إلى ضلالات التصوف[1]؛ ككتاب ((الذخائر المحمدية))[2].

وعلى الرغم من تصدي العلماء والدعاة لمحمد علوي المالكي وضلالاته[3] إلا أنه استمر (بهدوء ودهاء)[4] في نشر ضلالاته؛ دعوة وتأليفاً، حتى وفاته سنة ١٤٢٥هـ.

---

(١) يقول الشيخ سمير المالكي: «وكان ممن حمل لواء البدعة في هذا الزمان وانتصر لها، ونشرها بين الناس ودعا إليها وجادل عنها وماحل، الشيخ الدكتور محمد بن علوي المالكي -هداه الله وأصلحه- الذي أعادها جذعة وأثارها فتنة وأحياها سنة جاهيلة..». يُنظر: سمير بن خليل المالكي، جلاء البصائر في الرد على كتابي شفاء الفؤاد والذخائر، ط بدون، ت بدون، ص٧. والشيخ سمير المالكي يتصل نسبه مع محمد علوي المالكي في الجد الثالث.

(٢) يقول الشيخ عبدالعزيز بن باز -رحمه الله-: «اطلعت على أمور منكرة في كتب أصدرها محمد علوي مالكي، وفي مقدمتها كتابه الذميم الذي سماه (الذخائر المحمدية). من تلك الأمور نسبته لرسول الله ﷺ صفات هي من خصائص الله سبحانه وتعالى، كقوله: بأن لرسول الله مقاليد السموات والأرض، وأن له أن يقطع أرض الجنة، ويعلم الغيب والروح والأمور الخمسة التي اختص الله تعالى بعلمها، وأن الخلق خلقوا لأجله، وأن ليلة مولده أفضل من ليلة القدر، وأنه لا شيء إلا وهو به منوط يعني بذلك النبي ﷺ، ومن ذلك إقراره قصائد نقلها في الذخائر مشتملة على الاستغاثة بالنبي ﷺ والاستجارة به وأن إليه الفزع عند الكروب وأنه إذا لم يستجب فإلى أين يفزع المكروب..». نقلاً عن: عبدالله بن سليمان المنيع، حوار مع المالكي في رد منكراته وضلالاته، طبع ونشر الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية بالرياض، ط١، ١٤٠٣-١٩٨٣م، وكلام الشيخ ابن باز منقول من تقديمه لهذا الكتاب، ص٥، وقد أصدرت هيئة كبار العلماء بالسعودية بياناً مطولاً حول المالكي وضلالاته في ١١/١١/١٤٠١هـ نقله الشيخ ابن منيع في كتابه هذا، يُنظر: ص٩-٢٤

(٣) من أبرز أمثلة من تصدى من العلماء والدعاة للمالكي وضلالاته بعد أن أظهر دعوته: هيئة كبار العلماء في السعودية إذ أصدرت بياناً فيه واستتابته سنة ١٤٠١هـ، وكذا الشيخ أبوبكر الجزائري في كتابيه «كمال الأمة في صلاح عقيدتها»، و«وجاءوا يركضون، مهلاً يا دعاة الضلاله»، والشيخ عبدالله بن منيع في كتابه «حوار مع المالكي في رد منكراته وضلالاته»، والشيخ صالح آل الشيخ في كتاب «هذه مفاهيمنا»، والشيخ سفر الحوالي في رسالتي: «الرد على الخرافيين»، و«مجدد ملة عمرو بن لحي وداعية الشرك في هذا الزمان»، والشيخ سمير المالكي في رسالة بعنوان «جلاء البصائر في الرد على كتابي شفاء الفؤاد والبصائر»، إلى غير ذلك من الكتب والرسائل والأشرطة السمعية.

(٤) من أمثلة دهاء محمد علوي المالكي ومغالطاته استشهاده بكلمات مجتزأة من كتب الشيخ محمد بن عبدالوهاب، للإيهام بها على صحة ضلالاته، فتراه مثلاً يستشهد في مفتتح كتابه «مفاهيم يجب أن تصحح» بكلام الشيخ محمد بن عبدالوهاب في عدم تكفيره عامة الناس، ولكن الذي يعرفه ويُدركه المالكي وغيره من المتصوفة هو أن الشيخ محمد بن عبدالوهاب إنما قام لمحاربة الشركيات والبدع والخرافات التي ضمَّها كتابه ذلك! فواعجباً لمثل هذه الجرأة والمكر! لمطالعة كلام المالكي يُنظر: محمد بن علوي المالكي، مفاهيم يجب أن تصحح، دار الكتب العلمية-بيروت، ط٢، ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م، ص٨١-٨٢

ويسير على خطى محمد علوي المالكي اليوم الدكتور عمر عبدالله كامل؛ مجدداً ما بدأه المالكي، ومدافعًا عنه، ومؤكداً صحة الضلالات التي نشرها المالكي[1]، ولكن بأسلوب أكثر جرأة على منهج السلف، وكأن الأرض خلت من عالم بمنهج السلف يُفنِّد مزاعمه![2]، فتراه يزعم -مثلاً- أن الصوفية هم الطائفة المنصورة! فيقول: «فالصوفية هم من قال فيهم رسول الله ﷺ: لا تزال طائفة من أمتي قوامة على أمر الله عز وجل لا يضرهم من خالفهم»[3]، ويقول أيضاً: «إن الصوفية الحقَّة لا تخالف السلفية المخلصة «أتباع المذاهب السنية الأربعة» والتي تريد تنقية الإسلام من كل البدع والشوائب التي لحقت به عبر العصور»[4].

ولكن العجيب أن الدكتور عمر بعد هذا القول مباشرة أخذ يتحدث عمَّا سمَّاه بـ (أركان التصوف)!! وكأن هذه الأركان من مسلَّمات ديننا وليست من البدع والشوائب التي ألحقها به المتصوفة![5]، والأعجب من ذلك أيضاً أنه بعد ذلك ببضع ورقات (ص:٦٣٠ تحديداً) نقل جواباً مطولاً للشيخ يوسف القرضاوي عن سؤال وجِّه إليه عن حقيقة التصوف، ولكن

---

(١) مثل ما أن محمد علوي المالكي نَشِط في دعوته إبان فترة حرجةٍ من فترات الدعوة السلفية (فتنة الحرم)، فكذلك فعل عمر كامل؛ حيث نَشِط في تجديد الدعوة إلى خرافات التصوف وشركياته إبان فترة مماثلة للدعوة السلفية، وهي فترة ما بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م، ولكن الصِّفَة الخطيرة التي تُغلِّف أسلوب عمر كامل هي أنه يطرح تلك المعتقدات في ثوب النصيحة للأمة والدولة! إذ يربط بدهاء ومكر بين السلفية الحقة وبين التطرف والإرهاب والتكفير ليجعل منها الداء، ثم يعرض معتقدات المتصوفة -أيضاً بمكر ودهاء- على أنها هي الدواء لذلك الداء! ومن يطالع شيئاً من كتبه لا يجد عناءً في إدراك هذه الحقيقة.

(٢) من أبرز مؤلفات عمر كامل كتاب «الذخائر المحمدية للسيد الأستاذ الدكتور محمد بن علوي المالكي بين المؤيدين والمعارضين على ضوء الكتاب والسنة وأقوال علماء الأمة»، وفيه انتصر لكل الضلالات والشركيات التي نشرها المالكي في كتاب «الذخائر المحمدية»، ورد على من أنكر نشر تلك الضلالات؛كهيئة كبار العلماء، والشيخ عبدالله بن منيع.

(٣) عمر عبدالله كامل، الإنصاف فيما أثير حوله الخلاف، الوابل الصيب للنشر-القاهرة، ط١، ٢٠١٠م، ص٦٠١

(٤) عمر كامل، الإنصاف، ص٦٢٣

(٥) يقول ابن القيم رحمه الله عن الزهاد من سادات السلف-رحمهم الله-: «فإنهم تكلموا على أعمال القلوب، وعلى الأحوال كلاماً مفصلاً جامعاً مبيَّناً مطلقاً من غير ترتيب، ولا حصر للمقامات بعدد معلوم، فإنهم كانوا أجل من هذا، وهممهم أعلى وأشرف». ابن القيم، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تحقيق: محمد البغدادي، دار الكتاب العربي-بيروت، ط٣، ١٤١٦هـ-١٩٩٦م، ١/ ١٥٨-١٥٩

الدكتور عمر حذف من الجواب خلاصته الأخيرة وهي قول الشيخ القرضاوي في آخر جوابه: «ولهذا أنصح الرجل العادي بأن يرجع في معارفه إلى المسلمين العلماء السلفيين المعتدلين الذين يرجعون في كل ما يقولون إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ. والله الموفق»[1]، فإذا كان الدكتور عمر يرى أن الصوفية هم السلفية المخلصة فلماذا أسقط هذا الكلمات وأخفاها؟!

وثمة مثال ثالث يسير على نهج هذه الفئة؛ وهو الشيخ عبدالله بن بيه[2]، والذي يقول عن التصوف: «إنه الإحسان الذي هو الجزء الثالث من أجزاء الدين»[3]، ويضيف عن المتصوفة: «فأصولهم في الكتاب وأعمال السلف قد تكون دقيقة»[4]، ويقول متسائلاً: «فما هي المشكلات مع التصوف إذا كان أصله الكتاب والسنة»[5]!، وإذا كان الشيخ بن بيه لا يعرف مشكلات التصوف -عبر تاريخه إلى يومنا هذا- فمن يعرفها؟!

وأيضاً من الأمثلة على أصحاب هذا التوجه الدكتور محمد سعيد البوطي، والذي ألَّف كتباً سمَّاه «السلفية مرحلة زمنية مباركة لا مذهب إسلامي»[6]، وأجهد نفسه في إثبات هذا الأمر، على الرغم من أنه لم يزعم أحد من السلفية غير ذلك! ولكن هذا التلبيس والمغالطة هو ديدن المتصوفة الأشاعرة في غالب ردودهم على السلفية؛ فيقولون أن التمذهب

---

(١) لقراءة جواب الشيخ القرضاوي كاملاً يُنظر: فتاوى معاصرة، يوسف القرضاوي، المكتب الإسلامي، ط١، ١٩٩٣م، ١/ ٧٣٨

(٢) يُعد الشيخ عبدالله بن بيه من رموز الصوفية المعاصرين، وجدُّه كان شيخاً للطريقة الغظفية في موريتانيا، ولكن الشيخ عبدالله -كما أخبرني ابنه محمد- ترك إعطاء الورد منذ ثلاثين عاماً، وليس في طريقتهم أضرحة أوطقوس كتلك التي في غيرها. وللشيخ عناية بعلم الأصول والمقاصد الشرعية، وهو يعيش في مدينة جدة، ويُدرِّس في جامعة الملك عبدالعزيز بجدة، وقد قمت بزيارة علمِّية له بمنزله في جدة، في شهر صفر من عام ١٤٣٥هـ.

(٣) عبدالله بن بيه، التأصيل الشرعي للتصوف، ورقة بحثية ألقيت في مؤتمر «التصوف منهج أصيل للإصلاح» والذي أقيم في القاهرة بتاريخ ٢٤/ ٩/ ٢٠١١م، وهي منشورة بموقع الشيخ عبدالله بن بيه الإلكتروني على الرابط التالي:

http://www.binbayyah.net/portal/research/1185

(٤) المرجع نفسه.

(٥) المرجع نفسه، ومن يطالع تلك الورقة يجد أن الشيخ بن بيه أبعد وأغرب وهو يسعى لتأصيل لتأصيل المآخذ الشرعية على التصوف!

(٦) ألَّف الشيخ صالح الفوزان كتاباً سمَّاه «تعقيبات على كتاب السلفية ليست مذهباً»، وفيه ردٌّ على ما ورد في كتاب البوطي من أخطاء.

بالسلفية بدعة، بينما هم من يتخذ من التصوف ديناً ومذهباً![1]؛ وزعم في كتابه أيضاً بأن مصطلح السلفية مصطلح طارئ على تاريخ الشريعة الإسلامية والفكر الإسلامي[2]، بينما هو يقول في ذات الكتاب عن مصطلح التصوف ما يلي: «والتصوف اسم حادث لمسمى قديم، إذ إن مسماه لا يعدو كونه سعياً إلى تزكية النفس من الأوضار العالقة بها..»[3]! ونقول للبوطي أيهما يُعد مصطلحاً طارئاً على تاريخ الشريعة والفكر الإسلامي: مصطلح السلفية الذي يشير إلى اتباع السلف الصالح أم مصطلح الصوفية المشتقة من الصوف (على أحد الأقوال)؟!

ومن الأمثلة البارزة أيضاً لأصحاب هذا التوجه الحبيب علي الجفري[4]، وعبد الله فدعق[5]، وغيرهما.

وسيأتي مزيد بيان لمواقف وآراء ما مضى من الأسماء وغيرها في الفصل الرابع -بإذن الله- عند الحديث عن الحراك الصوفي المعاصر.

وبعد، فمن خلال ما مضى يمكن القول بأن الصوفية تقف من السلفية (منهجاً وأتباعاً) موقفاً عدائياً، وأن ذلك العداء يمكن -بالنظر إلى الواقع المعاصر- تقسيمه إلى المناوئ للسلفية بجفاء، والمخالف للسلفية بدهاء.

ويمكن القول بأن أبرز أوجه الاتفاق والافتراق بين المناوئن بجفاء والمخالفين بدهاء تتجلّى فيما يلي:

---

(١) وكثيراً ما يصدق فيهم المثل: (رمتني بدائها وانسلّت)!

(٢) ينظر: محمد سعيد البوطي، السلفية مرحلة زمنية مباركة لا مذهب إسلامي، دار الفكر- دمشق، ط١١، ٢٠٠٩م، ص١٣

(٣) المرجع نفسه، ص١٨٩

(٤) هو علي زين العابدين بن عبدالرحمن الجفري، ولد في مدينة جدة عام ١٣٩١ه، وتتلمذ على يد كبار صوفية الحجاز واليمن، يقيم حالياً في مدينة أبوظبي، وبها أنشأ مؤسّسة طابة، ويُعد الجفري من أبرز دعاة الصوفية المعاصرين، وله مناشط كثيرة، سيأتي ذكر بعضها في الفصل الرابع -إن شاء الله-. للمزيد عن سيرة الجفري يُنظر: الموقع الشخصي للحبيب علي الجفري، الرابط: http://www.alhabibali.com/

(٥) هو السيد عبدالله بن محمد بن حسن فدعق، ولد بمكة المكرمة، ويُعرِّف بنفسه بأنه «فقيه ومفكر إسلامي»، له عدة مؤلفات، منها: فوائد وفرائد، ورسائل متنوعة في مقاصد الشريعة الإسلامية، وغيرها. للمزيد يُنظر موقع فدعق الإليكتروني، الرابط:
http://www.fadaaq.net/

١- أنهما يتفقان -بشكل عام- في الاعتقاد بصحة التصوف، وبما يحويه من مخالفات شرعية وبدع وخرافات.

٢- أنهما يتفقان في اتخاذ السلفية عدواً، ويختلفان في طريقة مواجهة ذلك العدو.

٣- أن المناوئين يجاهرون بعداوتهم للسلفية؛ سباً وشتماً وانتقاصاً وتكفيراً، بينما يكتمها المخالفون بدهاء، في أسلوب أشبه بتقيَّة الرافضة!.

هذا؛ وليس ثمة خط فاصل بين هذين المسارين، بل الاعتبار فيهما للأعم الأغلب، ولذلك فإنك قد تجد ذات المناوئ بجفاء مخالفاً بدهاء أو العكس، ومضى آنفاً تقديم المخالف بدهاء محمد سعيد البوطي لكتاب المناوئ يوسف الرفاعي، ومن ذلك أيضاً دفاع يوسف الرفاعي وغيره من الصوفية المناوئين، في البحرين والمغرب، عن المخالف بدهاء محمد علوي المالكي، بعد تصدي له علماء السلفية حينما نشر ضلالاته في عام ١٤٠٠هـ.

وبما أن الصوفية في زماننا باختلاف فئاتهم وطرقهم يُرجعون موقفهم المعادي للدعوة السلفية إلى الشيخ محمد بن عبدالوهاب -رحمه الله-، على اعتبار أنه أحدث أمراً جديداً في الإسلام -كما يزعمون-، فقد رأيت قبل أن أختم هذا المبحث أن أورد كلمة للمستشرق «لوثروب ستودارد»[1]، يصف فيها حال الجزيرة العربية قبل ظهور دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب[2]، ثم أُتبعها ببعض الكلمات التي دافع بها الشيخ محمد بن عبدالوهاب عن نفسه وعن دعوته.

---

(١) لوثروب ستودارد *Lothrop Stoddard* (1883هـ-١٩٥٠م) ولد ببروكلين في أمريكا. كاتب ومؤرخ اجتماعي، زار فلسطين والأردن ومصر وتركيا وغيرها. من مؤلفاته: «حاضر العالم الإسلامي»، و«نهضة الشعوب الملونة»، و«الثورة على الحضارة»، وغيرها. يُنظر: لوثروب ستودارد، حاضر العالم الإسلامي، ترجمة: عجاج نويهض، وتعليق الأمير شكيب أرسلان، دار الفكر-بيروت، ط٤، ١٣٩٤هـ-١٩٧٣م، ١/ ٤٣

(٢) ثمة مصادر أخرى كثيرة تكلمت عن حال نجد والجزيرة العربية قبل ظهور دعوة الشيخ محمد ابن عبدالوهاب؛ ومنها تاريخ نجد لابن غنام، وعنوان المجد في تاريخ نجد لابن بشر، وتاريخ نجد للألوسي، وغيرها، ولكني اخترت النقل مما كتبه هذا المستشرق الأمريكي لمناسبته -بشكل عام- لفكرة هذه الدراسة، ولأنه -والحالة هذه- كالشاهد المحايد.

يقول «لوثروب ستودارد»: «وأما الدين فقد غشيته غاشية سوداء؛ فأُلبست الوحدانية التي علمها صاحب الرسالة الناس سجفاً من الخرافات وقشور الصوفية، وخلت المساجد من أرباب الصلوات وكثر عديد الأدعياء الجهلاء وطوائف الفقراء والمساكين يخرجون من مكان إلى مكان يحملون في أعناقهم التمائم والتعاويذ والسبحات، ويوهمون الناس بالباطل والشبهات ويرغبونهم في الحج إلى قبور الأولياء، ويزينون للناس التماس الشفاعة من دفناء القبور، وغابت عن الناس فضائل القرآن فصار يُشرب الخمر والأفيون في كل مكان، وانتشرت الرذائل وهتكت ستر الحرمات على غير خشية ولا استحياء، ونال مكة المكرمة والمدينة المنورة ما نال غيرهما من سائر مدن الإسلام، فصار الحج المقدس الذي فرضه النبي على من استطاعه ضرباً من المستهزآت، وعلى الجملة فقد بدل المسلمون غير المسلمين وهبطوا مهبطاً بعيد القرار، فلو عاد صاحب الرسالة إلى الأرض في ذلك العصر ورأى ما كان يدهى الإسلام لغضب وأطلق اللعنة على من استحقها من المسلمين، كما يلعن المرتدون وعبدة الأوثان. وفيما العالم الإسلامي مستغرق في هجعته ومدلج في ظلمته، إذا بصوت يدوي من قلب صحراء شبه الجزيرة العربية، مهد الإسلام، يوقظ المؤمنين ويدعوهم إلى الإصلاح والرجوع إلى سواء السبيل والصراط المستقيم، فكان الصارخ هذا الصوت إنما هو المصلح المشهور محمد بن عبدالوهاب الذي أشعل نار الوهابية فاشتعلت واتقدت واندلعت ألسنتها إلى كل زاوية من زوايا العالم الإسلامي. ثم أخذ هذا الداعي يحض المسلمين على إصلاح النفوس واستعادة المجد الإسلامي القديم والعز التليد، فتبدت تباشير صبح الإصلاح ثم بدأت اليقظة الكبرى في عالم الإسلام»[1]، إلى أن قال: «فالدعوة الوهابية إنما هي دعوة إصلاحية خالصة بحتة، غرضها إصلاح الخرق، ونسخ الشبهات، وإبطال الأوهام، ونقض التفاسير المختلقة والتعاليق المتضاربة التي وضعها أربابها في عصور الإسلام الوسطى، ودحض البدع وعبادة الأولياء، وعلى الجملة هي الرجوع إلى الإسلام والأخذ به على أوله وأصله، ولبابه وجوهره..»[2].

---

(١) لوثروب ستودارد، حاضر العالم الإسلامي، ١/ ٢٥٩-٢٦٠

(٢) المرجع نفسه، ١/ ٢٤٦

وأما الشيخ محمد بن عبدالوهاب فقد اخترت من كلامه ما يلي:

يقول -رحمه الله-: «لست ولله الحمد أدعو إلى مذهبٍ صوفيٍ أو فقيهٍ أو متكلمٍ أو إمامٍ من الأئمة الذين أعظمهم مثل ابن القيم والذهبي وابن كثير وغيرهم، بل أدعو إلى الله وحده لا شريك له، وأدعو إلى سنة رسول الله ﷺ التي أوصى بها أول أمّته وآخرهم وأرجو أني لا أرد الحق إذا أتاني، بل أُشهد الله وملائكته وجميع خلقه إن أتانا منكم كلمة من الحق لأقبلنّها على الرأس والعين، ولأضربنّ الجدار بكل ما خالفها من أقوال أئمتي، حاشا رسول الله ﷺ فإنه لا يقول إلا الحق»[1].

ويقول في رسالةٍ إلى عبدالرحمن السويدي -وهو عالِمٌ من أهل العراق-: «..وأخبرك أني -ولله الحمد- متبع، لست بمبتدع؛ عقيدتي وديني الذي أدين الله به هو: مذهب أهل السنة والجماعة الذي عليه أئمة المسلمين، مثل الأئمة الأربعة وأتباعهم، إلى يوم القيامة، ولكنني بينت للناس إخلاص الدين لله، ونهيتهم عن دعوة الأحياء، والأموات، من الصالحين وغيرهم، وعن إشراكهم فيما يعبد الله به، من الذبح، والنذر، والسجود، وغير ذلك مما هو حق الله، الذي لا يشركه فيه أحد، لا ملَكٍ مقرب ولا نبيٍ مرسل؛ وهو الذي دعت إليه الرسل من أولهم إلى آخرهم، وهو الذي عليه أهل السنة والجماعة..، وأنا صاحب منصب في قريتي، مسموع الكلمة، فأنكر هذا بعض الرؤساء، لكونه خالف عاداتٍ نشؤوا عليها.

وأيضاً ألزمت من تحت يدي، بإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وغير ذلك من فرائض الله، ونهيتهم عن الربا، وشرب المسكر، وأنواع المنكرات، فلم يمكن الرؤساء القدح في هذا وعيبه لكونه مستحسناً عند العوام؛ فجعلوا قدحهم وعداوتهم فيما آمر به من التوحيد وأنهى من الشرك، ولبَّسوا على العوام: أن هذا خلاف ما عليه أكثر الناس، ونسبوا إلينا أنواع المفتريات، فكبرت الفتنة، وأجلبوا علينا بخيل الشيطان ورجله، فمنها: إشاعة البهتان بما يستحي العاقل أن يحكيه، فضلاً عن أن يفتريه، ومنها: ما ذكرتم أني أكفر

---

(١) محمد بن عبدالوهاب، الرسائل الشخصية، تحقيق: صالح الفوزان ومحمد العيلقي، نشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية-الرياض-، ط بدون، ت بدون، ص٢٥٢

جميع الناس، إلا من اتبعني، وأني أزعم أن أنكحتهم غير صحيحة، فيا عجباً كيف يدخل هذا عقل عاقل؟! وهل يقول هذا مسلم؟! إني أبرأ إلى الله من هذا القول، الذي ما يصدر إلا عن مختل العقل، فاقد الإدراك؛ فقاتل الله أهل الأغراض الباطلة»[1].

وبعد، فالخلاصة، أن السلفية هي منهج لتجديد الدين، وتنقيته من كل ما علق به مما ليس منه، والمعيار في ذلك هو الكتاب والسنة، بفهمِ وعملِ سلفنا الصالح في القرون المفضلة، وهذا المنهج التجديدي لا يقبل بكثير من عقائد التصوف وطرائقه؛ لتعارضها:

تارة مع عقائد الإسلام؛ كغلوهم في رسول ﷺ وادعاء بعض خصائص الربوبية له، وكذا الحال في أوليائهم، وتجويزهم دعاء غير الله من الأحياء والأموات، وما ترتب على ذلك من تعظيم القبور وتشييدها وشد الرحال إليها والتبرك بها..الخ

وتارة أخرى مع شرائعه؛ كطرقهم الصوفية التي لا حصر لها، وكبدع الموالد لرسول الله ﷺ، ولأوليائهم، وبدع الذكر والأوراد التي لم ترد لا في الكتاب ولا في السنة؛ كذكر الفاتح عند التجانية، والربطة عند النقشبندية..الخ.

ولذلك عادى المتصوفة المنهج السلفي وأتْبَاعه؛ منذ مجدده الشيخ محمد بن عبدالوهاب، وإلى يومنا هذا، لأن السلفية تتعارض -كما أسلفت- مع كثير من أبجديات التصوف، وإن ادَّعى المتصوفة خلاف ذلك.

واتخذ العداء الصوفي للسلفية -في وقتنا المعاصر- مسارين؛ أحدهما مناوئٌ بجفاء، والآخر مخالفٌ بدهاء، وقد فصَّلت القول فيهما فيما مضى، والله حسبنا وهو نعم الوكيل.

---

(١) الدرر السنية في الأجوبة النجدية، جمع عبدالرحمن بن قاسم، ط بدون، ١٤١٧هـ-١٩٩٦م، ٧٩/١-٨٠

المبحث الثاني

موقف الصوفية من العلمانية، ونقده

مدخل:

قد يبدو عنوان هذا المبحث غريباً للوهلة الأولى، إذ إن العقل -بداهةً- يفترض التغاير بل التنافر بين التصوف والعلمانية[1]، إلا أن موقف المستشرقين (العلمانيين) الداعم للتصوف، وكذلك غلبة التصوف على الدولة العثمانية أواخر عهدها، الذي تميَّز بحركة التغريب وظهور العلمانيين؛ وغلبة التصوف كذلك على معظم الدول التي ظهرت بعد الدولة العثمانية؛ يجعلنا نتساءل: ما هي حقيقة موقف الصوفية من العلمانية؟ وهل قاومتها أو حتى ناصبتها العداء؟، وكذلك على العكس: هل قاوم العلمانيون الصوفية؟، إلى غير ذلك من التساؤلات..

ومن هنا، ورغبة في إعطاء هذه المسألة -بتساؤلاتها الكثيرة- حقها من الإيضاح والنقاش فقد جعلتها في مطلبين، هما:

المطلب الأول: التصوف وبدايات انتقال العلمانية إلى العالم الإسلامي.

المطلب الثاني: التصوف والعلمانية بعد سقوط الدولة العثمانية.

وبالله التوفيق،،

---

(١) العلمانية -بأوجز عبارة- هي: إقصاء الدين عن إدارة شؤون الحياة، وحصره في الجانب الشخصي فقط. وقد أعرضت عن إيراد تعاريفها في المتن لأنها باتت من الظهور بما يغني عن بسط القول فيها، فآثرت الإيجاز والاقتصار على خلاصة مفهومها. وأنبه هنا إلى أن ورود لفظ «الليبرالية» في هذا المبحث يستلزم بالضرورة العلمانية، إذ إنها أحد أساسات الليبرالية؛ كما صرح بذلك سيَّار الجميل وهو أحد أشهر دعاة الليبرالية في العالم الإسلامي. يُنظر: جريدة إيلاف الإلكترونية، ١١/ ٢/ ٢٠٠٥م مقال لسيَّار الجميل بعنوان (الليبرالية القديمة والليبرالية الجديدة، المعاني والمبادئ والمفاهيم)، الرابط:
http://www.elaph.com/Web/Webform/SearchArticle.aspx?ArticleId=40103&sectionarchive=ElaphWriter

المطلب الأول: التصوف وبدايات انتقال العلمانية إلى العالم الإسلامي

بيَّنت في الفصل السابق أن المستشرقين وعلى رأسهم الفرنسي «ماسينيون» عنوا بالتصوف عناية فائقة، فبحثوا في دقائقه، وفتشوا عن مصدريته، واعتنوا برموزه، وحققوا وطبعوا تراثهم، وألفوا وكتبوا فيه الشيء الكثير، إلى غير ذلك من أشكال عنايتهم بالتصوف.

والسؤال هنا: ماذا وجد المستشرقون القادمون من أحضان العلمانية الغربية في التصوف؟! فعلى سبيل المثال: هل وجد المستشرق «ماسنيون» -القادم من باريس العلمانية- في التصوف ما يتوافق مع تلك العلمانية، حتى يفني شطراً كبيراً من حياته في دراسة التصوف والتأليف فيه؟ أم ماذا؟!

قبل الإجابة على هذا التساؤل نحن بحاجة إلى إدراك واقع العالم الإسلام وقت ترعرع العلمانية في الغرب، وسأبيِّن ذلك الواقع من خلال هاتين المقدمتين:

المقدمة الأولى: في الوقت الذي كانت فيه العلمانية تنمو وتتجذر في أوروبا[1] كان التصوف يحظى بمكانة كبيرة في الدولة العثمانية، والتي كانت تمثل العالم الإسلامي (جغرافياً وسياسياً)، وفي هذا تقول الدكتورة هدى درويش: «كان التصوف جزءا لا يتجزأ من حياة العثماني حيث كان هذا التصوف يدخل في نسيج الدولة العثمانية وكان له دوره وأهميته في بناء المجتمع العثماني»[2]، وتضيف أيضاً: «وقد اعتمدت الحكومة العثمانية منذ تأسيسها على شيوخ الطرق الصوفية من الزهاد في شؤون الدولة وخاصة في سياستها الخارجية»[3].

---

(١) العلمانية التي ظهرت في الغرب ليست هي التي نُقِلت إلينا في العالم الإسلامي، وإن كانتا في النتيجة سواء، ويرجع ذلك إلى الاختلاف الجذري بين الدين الإسلامي والمسيحية المحرفة، فالإسلام منهج حياة متكامل، بينما المسيحية المحرفة لا تعدو طقوساً روحانية ورهبانية ابتدعوها، فالعلمانية هناك تعني فصل رجال الدين عن التدخل في شؤون الدولة ومعاش الناس، بينما هي في نسختها التي نُقِلت إلينا تعني فصل الدين كلّه عن ضبط حياة الناس في جميع جوانبها (السياسية والاجتماعية والثقافية ..الخ) وحصره في الجانب الشخصي التعبدي، فتأمل!

(٢) هدى درويش، الإسلاميون وتركيا العلمانية-نموذج الإمام سليمان حلمي، دار الآفاق العربية-القاهرة، ط١، ١٤١٨هـ-١٩٩٨م، ص١١٠

(٣) المرجع نفسه، ص١١١

المقدمة الثانية: أن الدولة العثمانية (دولة الإسلام) كانت بالنسبة للغرب العدو الأول والخطر الحقيقي، ولذلك ما فتِئت أوروبا -حينها- في السعي لإسقاط الدولة العثمانية أو إضعافها، وقد ألف الوزير الروماني «ت.ج.دجوفارا» *Trandafir. G. Djuvara* كتاباً سمَّاه (مئة مشروع لتقسيم تركيا)، وعدَّ فيه تلك المشاريع (الخطط) المئة، والتي نفذتها أوروبا على مدى ستة قرون (١٢٨١-١٩١٣م)[1].

والنتيجة، أنه وبناءً على المقدمة الأولى، فإن التصوف كان هو الطريق والمسلك الرسمي المعتمد للتدين في الدولة العثمانية، وبناءً على المقدمة الثانية فإن الدولة العثمانية هي العدو الأول للعالم الغربي الأوروبي.

وعليه، فكيف يتبنى ذلك المستشرق -القادم من أوروبا العلمانية- التصوفَ، والتصوفُ جزءٌ أصيل من منظومة عدو بلاده اللدود؟!

لا يمكن والحالة هذه تصور أن المستشرقين كانوا يعملون ضد توجهات بلادهم العلمانية التوسعية، وقد مضى في الفصل السابق أن عمدة المستشرقين في دراسة التصوف «ماسينيون» كان ضابط مشاة ومستشاراً لوزارة المستعمرات الفرنسية، وعضواً في لجنة اتفاقية «سايكس بيكو»!.

وبما أن هذا الحديث في هذا المبحث عن التصوف والعلمانية؛ فينبغي العودة إلى نقطة بداية تسلل العلمانية إلى جسد العالم الإسلامي والذي كان يمثله -في ذلك الوقت- الدولة العثمانية، ذات البناء الصوفي من حيث التدين المعتمد رسمياً.

إن النهاية التي وصلت إليها دولة الخلافة العثمانية لم تكن مفاجئة لمن تتبع خط سيرها قبل تاريخ إلغائها بشكل نهائي كدولة خلافة إسلامية عام ١٣٤٢هـ/ ١٩٢٤م، ليحل محلها الجمهورية التركية العلمانية، حيث سُبقت هذ النهاية بجرعات من التغريب العلماني، والذي تناولته الدولة العثمانية -طواعية- على أنها البلسم الشافي من أدوائها، فكان به زوالها!

لقد ظن سلاطين الدولة العثمانية في الأستانة (إسطنبول) أن الأخذ

---

(١) يُنظر: محمد العبدة، التعصب الأوروبي أم التعصب الإسلامي: مئة مشروع لتقسيم الدولة العثمانية ١٢٨١هـ-١٩١٣م، الناشر بدون، ط١، ١٤١٦هـ-١٩٩٥م، ص٢٣-٢٥

بطرائق الغرب هو المنقذ لدولتهم من التردي المستمر، وبالفعل بدأوا حركة إصلاح وتجديد للدولة، ولكن وفق المبادئ الأوروبية (وهذا ما عُرف حينها بحركة التنظيمات).

وكانت «المعالم الرئيسية لحركة الإصلاح والتجديد العثمانية تدور حول ثلاث نقاط هامة:

١- الاقتباس من الغرب فيما يتعلق بتنظيم الجيش وتسليمه في نظم الحكم والإدارة.

٢- الاتجاه بالمجتمع العثماني نحو التشكيل العلماني.

٣- الاتجاه نحو مركزية السلطة في إستانبول والولايات»[١].

وبالفعل بدأت مظاهر التغريب والعلمنة تشق طريقها إلى المجتمع العثماني المسلم بقوة السلطان! وأكتفي بإيراد مثال واحد أراه يفي بالمراد هنا وهو من أخطر وأهم الأمثلة على التغريب والعلمنة التي حدثت في الدولة العثمانية على يد بعض سلاطينها، وهو إدخالهم لقوانين غربية على القوانين الشرعية المعمول بها في محاكم الدولة، «فقانون الجزاء (العقوبات العثماني) عام ١٨٤٠م اعتمد على القانون الجنائي الفرنسي لعام ١٨١٠م كأحد مصادره، وأخذ بمبدأ أن «لا عقوبة إلا بنص»، نافياً بذلك التعزير، ومؤسساً القانون الجنائي على أسس منتظمة، ثم ألغي عقوبة الرجم في الزنى وقطع اليد في السرقة، وأضاف القانون الجنائي العثماني عام ١٨٥٨م إلغاء الردة كجريمة، وأنيط اتخاذ الأحكام بمحاكم علمانية أطلق عليها اسم المحاكم العدلية، دون الركون إلى القضاة الشرعيين، وكان قد سبق القانون الجنائي الفرنسي قانون التجارة (١٨٥٠م) الذي أُستمد من القانون الفرنسي، كما كانت المحاكم التجارية أولى الأجهزة القضائية الخارجة عن سلطة شيخ الإسلام وجهازه، كما كانت أولى الأجهزة القضائية التي اعتبرت شهادة الذمي مساوية لشهادة المسلم،.. ويصدق الشيء نفسه على مجلة الأحكام العدلية (١٨٦٩-١٨٧٦م) التي أُستمدت من القانون

---

(١) إسماعيل أحمد ياغي، الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، مكتبة العبيكان- الرياض، ط٢، ١٩٩٨م، ص١٥٢

الوضعي، إلى جانب تحويل الفقه وأحكامه إلى قوانين صادرة عن الدولة (أي علمنة الشريعة)»[1].

وتقول الدكتورة هدى درويش: «مع بداية عهد التنظيمات في الدولة العثمانية والذي بدأه السلطان (محمود) وأعطاه صفة الشرعية ابنه السلطان (عبدالمجيد) صدر فرمانُ التنظيمات عامي ١٨٥٤، ١٨٥٦م، حيث نتج عنهما استبعادُ العمل بالشريعة الإسلامية، واستلهام روح الغرب في الدولة»[2].

هذا الأمر المؤلم وقع في زمن السلاطين، وفي الوقت الذي كان يحضر فيه شيخ الإسلام (مفتي الدولة) المجلس الإمبراطوري، وفي الوقت الذي كان التصوف يتبوأ مكانته في الدولة العثمانية، ومع ذلك لم نسمع ولم يسجل التاريخ هبة صوفية ضد ذلك التغريب وتلك العلمنة الظاهرة[3] والتي أودت في نهاية المطاف بالجميع، فدولة الخلافة أُلغيت، والسلاطين طُرِدوا، والطرق الصوفية مُنِعت وأغلقت زواياها وتكاياها، كما سيأتي بيان ذلك.

وأما في ولاية مصر -والتي كانت تُعد أهم ولايات الدولة العثمانية- فقد سقى محمد علي باشا بذرة العلمانية التي بذرها قبله الاحتلال الفرنسي القصير لمصر (١٧٩٨-١٨٠١م)، وخطا بالعلمانية -تحت شعار الإصلاح- خطوات عملية ومباشرة، وفي هذا يقول الدكتور السيد أحمد فرج: «كان محمد علي الذي اعتلى حكم مصر بعد خروج الفرنسيين كنابليون فكلاهما تحركه أهداف علمانية..، ثم إن الاستعمار نفسه لم يخسر شيئاً، فقد استطاع أن يحقق أهدافه عن طريق المسلمين أنفسهم، ولا

---

(١) رضا هلال، السيف والهلال-تركيا من أتاتورك إلى أربكان، دار الشروق-القاهرة، ط١، ١٤١٩هـ-١٩٩٩م، ص٨٢

(٢) هدى درويش، العلاقات التركية اليهودية وأثرها على البلاد العربية، دار القلم-دمشق، ط١، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م، ١/ ٢٦٠

(٣) للمزيد حول صور العلمنة والتغريب في الدولة العثمانية يُنظر-على سبيل المثال-: أحمد عبدالرحيم مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، دار الشوق-القاهرة، ط٢، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م، ص١٧٠-٢٢٣، وخلف بن دبلان الوذيناني، الدولة العثمانية والغزو الفكري حتى عام ١٣٢٧هـ-١٩٠٩م، نشر جامعة أم القرى، ط٢، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م، ص٢٨٩-٢٩٠

يعني فشل نابليون في حصار عكا وغزوها أن تظل مغلقة، وليكن فتحها على يد قائد مسلم هو إبراهيم بن محمد علي، فلقد كانت حروب إبراهيم باشا في عكا وفلسطين وسوريا والأناضول والجزيرة العربية لمحاربة جماعة (أول الإسلاميين الخلصاء في العصر الحديث) تحت راية الإسلام، وسلاح فرنسي، ومشورة فرنسية، وخبراء عسكريين فرنسيين»[1].

وقال أيضاً: «تسببت عزلة علماء الدين عن المجتمع أن جنح المصريون في القرن التاسع عشر إلى التمسك بفكر ديني عدمي، لا يسلك مسلكاً أتى به الشرع، وإنما هو نوع من الاستكانة الروحية المرتمية في محتوى غيبي في صورة تصوف سلبي جامد لا يتحرك، واعتقاد في كرامات البلهاء والمعتوهين والقبوريين، حتى وصل المجتمع إلى أسوأ حال يمكن أن ينحدر إليها مجتمع، وقد وصف الجبرتي هذه الحال بقوله: لم نكن بررة أتقياء، ولا فجرة أقوياء»[2].

لقد كان من أخطر الخطوات العلمانية التي نفذها محمد هي عزل الأزهر رسمياً وبالتدريج عن مجالات الحياة والمجتمع، وتقليص دور علمائه في شؤون الدولة، وجعل اختيار شيخ الأزهر من اختصاصه، وإرسال البعثات إلى أوروبا، إلى غير ذلك من الخطوات العلمانية العملية[3]، والتي جعلت منه -كما يقول الدكتور محمد ضاهر-: «أول علماني حقيقي في العالم العربي والإسلامي الحديث»[4]، وفي هذا الوقت كان محمد علي محاطاً بالصوفية، وسعياً منه في أن يجعلهم في قبضة يده أصدر قراراً في عام ١٨١٢م يعطي بموجبه للشيخ خليل البكري السلطة المطلقة على الطرق الصوفية وما يتبعها من زوايا وتكايا[5]، وفي أواخر حكمه وتحديداً في

(١) السيد أحمد فرج، جذور العلمانية، دار الوفاء-المنصورة، ط١، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م، ص٢٧-٢٨

(٢) المرجع نفسه، ص٢٦

(٣) يُنظر: محمد كامل ضاهر، الصراع بين التيارين الديني والعلماني في الفكر العربي الحديث والمعاصر، دار البيروني-بيروت، ط١، ١٤١٤ه-١٩٩٤م، ص٤٣-٥٣.

(٤) المرجع نفسه، ص٥١

(٥) وقبل هذا التعيين ببضعة سنين عَيَّن نابليون الشيخ خليل البكري عضواً في الديوان الذي أنشأه لإدارة مصر! وسيأتي مزيد بيان لهذا الأمر في المبحث الخامس من هذا الفصل.

١٨٤٧م تم إبرام أول اتفاق حُدِّدت فيه صلاحيات كل من شيخ الأزهر وشيخ مشايخ الطرق الصوفية، ليجد الأزهر نفسه وقد أُنتزعت منه كل سلطة على المتصوفة، والذين باتوا كياناً مستقلاً![١]

وبعد أن وقَعَت ولاية مصر تحت الاحتلال الإنجليزي عام ١٨٨٢م[٢] بدأ الإنجليز بتغريب المجتمع المسلم في مصر وعلمنته على الطريقة الإنجليزية[٣]، وفي هذه الفترة الاحتلال حظي المتصوفة أيضاً بعناية الإنجليز، واستمر خط الاستفادة منهم والذي بدأه نابليون، ومشى عليه محمد علي وخلفاؤه، واستمر الحال على ذلك![٤]

هكذا، وتحت شعار «الرغبة في النهوض والإصلاح بالأمة» تسللت العلمانية إلى جسد الدولة العثمانية، وفي هذا يقول إسماعيل ياغي: «وهكذا فإن الإصلاح على المبادئ الأوروبية الحديثة كان من العوامل الفعالة التي ساعدت على هلاك الدولة وانحلال امبراطوريتها، ولم يكن الفساد والرشوة وسوء الحكم هو سبب القضاء على الدولة، لأن كل تلك المثالب كانت قائمة وقت اتساع الإمبراطورية العثمانية وبلوغها أوج المجد والرفعة، ومع ذلك فقد استمرت هذه الإمبراطورية قائمة، وكان في رأي كثير من المؤرخين أن السبب الحقيقي لزوال الدولة هو الإصلاح على النمط الأوروبي من ناحية وأطماع الدول الأوروبية التي أرادت اقتسام أملاكها من ناحية أخرى، وقد أكد السلطان عبدالعزيز مرة أخرى أن ابتعاد الدولة عن أحكام الشريعة الإسلامية هو الذي أدى إلى ضعفها بدلاً من القوة والمجد»[٥].

---

(١) يُنظر: عمار علي الحسن، التنشئة السياسية للطرق الصوفية في مصر، دار العين للنشر-القاهرة، ط١، ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م، ص١٧٤

(٢) يقول السفير الأمريكي في الأستانة(اسطنبول) هنري مرغنتو *Henry Morgenthau*: «مضى على تركيا نحو قرن كامل وهي تخسر من أملاكها الواسعة الولاية إثر الأخرى، ولكن لم يؤثر فيها خسارة كل ولاياتها جمعاء مثل خسارة مصر». المستر هنري مرغنتو، مذكرات سفير أمريكا في الأستانة، تعريب: فؤاد صروف، مكتبة العرب-القاهرة، ط بدون، ١٩٢٣م، ص٦٦

(٣) أبقى الاحتلال البريطاني على والي مصر في منصبه، ولكنه هيمن عليه بمنصب «المعتمد البريطاني»، وكان حينها «اللورد كرومر»، والذي أدار -على سبيل المثال- دفّة وزارة المعارف بتعيين المنصِّر «دوجلاس دنلوب» مستشاراً لوزيرها المصري.

(٤) سيأتي مزيد بيان عن علاقة المتصوفة بالمستعمرين في المبحث الخامس من هذا الفصل.

(٥) إسماعيل أحمد ياغي، الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، ص١٥٧

ويقول المستشرق «برنارد لويس» *Bernard Lewis* معلقاً على غزو العلمانية الأوروبية للعالم الإسلامي: «وأصبحت هذه الأفكار تشكل مصدر الإلهام الإيديولوجي الرئيسي للكثير من حركات التحديث والإصلاح في العالم الإسلامي في القرنين التاسع عشر والعشرين»[1]، ويقول أيضاً الكاتب الفرنسي«بيير لوتي» *Pierre loti* : «وكانت الدولة العثمانية تبحث عن خلاصها في اقتباس الحداثة الغربية، إلا أنها راحت ضحية حداثة كاسحة الحضور أخطبوطية»[2].

العجيب هنا أنه وفي وسط هذه التطوارات العلمانية المضادة للدين والتي كانت تنخر في جسد دولة الإسلام (الدولة العثمانية) كان التصوف يحظى بعناية المستشرقين الفائقة، والأعجب من ذلك أن الطرق الصوفية بمشايخها ومريديها كانوا في ذات الوقت ينعمون بدعم سلاطين الدولة العثمانية وولاتها، بل لقد كان التصوف عندهم ركيزة من ركائز الدولة، ووسيلة من وسائل الضبط الاجتماعي التي كانوا يحرصون عليها، حتى إن بعض السلاطين دعم وساعد بعض الطرق البعيدة في الأطراف حتى وصلت إلى العاصمة اسطنبول؛ الأمر الذي ساعدها على الانتشار والتمدد؛ وذلك كما فعل السلطان بايزيد الثاني حيث دعم الطريقة الخلوتية في أذربيجان، مما ساعدها على الانتقال إلى اسطنبول ثم الانتشار في الامبراطورية العثمانية؛ وكذلك وصول الطريقة النقشبندية -المشهورة حينها بالمدافعة عن السُلطة- من قزوين إلى العاصمة اسطنبول في عهد سليمان القانوني[3]، وحول هذا الدعم العثماني للصوفية يقول توفيق الطويل: «وبينما كان الضنك والظلم يتمشى في البلد طولاً وعرضاً كانت الدولة تستجيب لمطالب شيوخ الطريق في إعفاء القرى التي في حوزتهم من دفع الضرائب، وطلب الأموال لتعمير الزوايا والإنفاق على مجاوريها..!!»[4].

---

(١) برنارد لويس، أين الخطأ؟ التأثير الغربي واستجابة المسلمين، ترجمة: محمد عناني، ترجمة ونشر سطور- القاهرة، ط١، ٢٠٠٣، ص١٥٧

(٢) نقلاً عن: رضا هلال، السيف والهلال، ص٢٧

(٣) يُنظر: حسن الضيقة، الدولة العثمانية/ الثقافة، المجتمع والسلطة، دار المنتخب العربي- بيروت، ط١، ١٤١٧ه-١٩٩٧م، ص١٣٠-١٣٣

(٤) توفيق الطويل، التصوف في مصر إبان العصر العثماني، مكتبة الآداب-القاهرة، ط بدون، ت بدون، ص١١٨-١١٩

وعلى النقيض من ذلك نجد أن السلطة العثمانية لم تتوان عن ردع أيَّة طريقة تخرج عن مسار هدوئها أو يُشك في أمرها؛ وأبرز الأمثلة على ذلك حلّ الطريقة البكتاشية عام ١٨٢٦م[١]، والتي كانت تُعتبر المرجع الروحي للقوات الانكشارية[٢]، فقضى عليها العثمانيون مثلما قضوا على الانكشارية[٣].

إن السر في عناية الدولة العثمانية والمستشرقين -على حدٍ سواء- بالتصوف يكمن في جوهر التصوف. والذي أراه أن الجوهر الأساسي في التصوف والذي جذب إليه سلاطين دولة الإسلام والمستشرقين الغربيين العلمانيين في آن واحد هو الإرجاء[٤]؛ فالمتصوفة يقولون بإرجاء العمل عن الإيمان بالله، ويحصرون الإيمان في الاعتقاد القلبي؛ وبالتالي فالمعاصي العملية – ولو بلغت حدَّ الكفر – لا تقدح عندهم في إيمان المرء!

وهذه النتيجة أراحت السلاطين من إنكار الناصحين، وجنبتهم الاعتراضات على أعمالهم وتجاوزاتهم[٥]؛ وفي ذات الوقت تتسق هذه النتيجة إلى حد كبير مع الفكرة العلمانية القائلة بفصل الدين عن الحياة!

---

(١) يُنظر: المرجع نفسه، ص١٣٠-١٣٣

(٢) الانكشارية هي فرقة من فرق الجيش العثماني، يُختار أفرادها من الشُّبان، ويُنشَّأون على الولاء للسلطان، وقد كان لها سلطة كبيرة في القرنين ١٧ و ١٨ تصل إلى حدِّ تنصيب السلطان وخلعه. قضى عليها السلطان محمود الثاني في مذبحة جرت بالآستانة (اسطنبول) عام ١٨٢٦م. يُنظر: الموسوعة السياسية، ١/ ٣٧٣

(٣) عدَّد جورجي زيدان قوانين الانكشارية وكان منها: «الإخلاص في الانتماء إلى الحاج بكطاش من حيث الطريقة مع القيام بفروض الإسلام». جورجي زيدان، مصر العثمانية، دار الهلال- القاهرة، ط بدون، ١٩٩٤م، ص٦٨.

(٤) الإرجاء هو إخراج العمل عن الإيمان والكفر، وهو معتقد الأشاعرة والماتريدية في الإيمان، وقد بيَّنت في المبحث الأول من هذا الفصل مدى ارتباط الأشاعرة بالتصوف، وأضيف هنا أن التصوف في تركيا على وجه الخصوص مرتبط بالماتريدية لانتشارها في تركيا ومناصرة سلاطين آل عثمان لها، وللمزيد حول إرجاء الأشاعرة والماتريدية يُنظر: خالد الغامدي، نقض عقائد الأشاعرة والماتريدية، ص٣٨٨ وما بعدها. و يُنظر: الموسوعة الميسرة في الأديان، ١/ ٩٥

(٥) هذا فقط أحد الأمور التي تجعل من التصوف هو التدين المفضل عند السلاطين والحكام، واكتفيت به هنا لمناسبته موضوع المبحث، وإلا فثمة غيره؛ كالتحذير من الاشتغال بأمور الدنيا (ومنها السياسة)، والرضا بالواقع؛ كجزء من فهمهم للإيمان بالقدر، إلى غير ذلك مما سيأتي بيانه.

وعليه، فلا تجاوزات السلاطين وجدت من الصوفية إنكاراً، ولا مكر العلمانيين وجد منهم مدافعة!!

يقول الباحث خليفة الخزي: «والذي أعتقده من خلال التأمل في الإرجائية أنها لا تختلف عن العلمانية من ناحية الاعتقاد ومن ناحية السلوك، فمن ناحية الاعتقاد يرى المرجئ الغالي: أن المسلم يكفيه أن يعرف أن الله موجود ليكون مسلماً، وبعضهم يرى أنه لا بد من النطق بكلمة الإيمان ولا يكفي مجرد المعرفة، فما الفرق بين هذا المفهوم والمفهوم العلماني للإيمان «الاختياري»؟، وأما من جانب السلوك والتطبيق، فالمرجئة قد فصلوا العمل «السلوك» عن الإيمان تماماً، وأخرجوه من مستلزمات الإيمان، فلو فعل المسلم كل الجرائم وارتكب كل الموبقات فإنه في اعتبارهم «مؤمن» كامل الإيمان، بل وصل غلوهم في ذلك أن لا يدخل النار مطلقاً أي مسلم تلفظ بالشهادتين، مهما عمل ومهما قال ومهما اعتقد، معارضين بذلك الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ بدخول بعض المسلمين في النار وخروجهم منها على فترات مختلفة، بشفاعة أهل الشفاعة، ثم بشفاعة أرحم الراحمين، فما الفرق بين هذه الأقول وقول العلمانيين بحرية الرأي والاعتقاد والسلوك، ونسف عقيدة الإيمان بالبعث والنشور والحساب والعقاب، وإن اختلفت الدوافع بين الفريقين ولكن النتيجة واحدة»[1].

ويقول الشيخ سفر الحوالي عند حديثه عن حصر المرجئة لمفهوم العبادة في اعتقاد القلب: «وإنما الشرك بزعمهم اعتقاد القلب أن هذا المخلوق إله أو رب معبود، والكفر أن يعتقد بقلبه أن ما يفعله من الأعمال كفر، أما إذا عمل أعمال الكفر (كالتشريع من دون الله في عصرنا الحاضر) مع اعتقاده أن ذلك لا يخرجه من الملة فليس بكافر!!»[2].

---

(١) خليفة بن بطاح الخزي، الليبراليون الجدد، دار الأوائل للطباعة والنشر-القاهرة، ط١، ١٤٢٣هـ-٢٠١١م، ص١٨

(٢) سفر بن عبدالرحمن الحوالي، ظاهرة الإرجاء في الفكر الإسلامي، مكتب الطيب-القاهرة، ط٢، ١٤١٨ه، ٢/ ٥٦١. وما بين الهلالين هو إيضاح من الشيخ سفر في الحاشية، وأثبته هنا لأهميته.

ويقول الدكتور خالد الغامدي عند حديثه عن الإرجاء ومثال سب الله تعالى، ورسوله ﷺ، وحرب الدين، والسجود للصنم: «وأما عند الأشاعرة والماتريدية فهي علامات على الكفر وليست بكفرٍ مستقل ولا يكفر صاحبها إلا إذا استحل عمله وكذَّب وقارن أفعاله الشنيعة عدمُ التصديق في قلبه وإلا لكان مؤمناً باطناً وظاهراً ناج عند الله ومن أهل الجنة، ولو حكمنا عليه بالكفر في الدنيا فهذا لإجراء الأحكام الدنيوية ولا يستلزم كفره في الباطن، فلم يجعلوا الكفر إلا التكذيب فقط وأن أي فعل ظاهره الكفر مثل سب الله إما أن يكون صاحبه بفعله مكذب بالله ورسوله فيكون كافراً أو غير مكذب فيكون مؤمناً غير كافر ولو حكم بكفره في الدنيا ظاهراً»[1]، وهذا لعمر الله مما يفتح الباب على مصراعيه أمام الكفر والفسق وإقصاء الدين عن الحياة، فتأمل!، وأما الرئيس البوسني علي عزت بيجوفيتش -رحمه الله- فيعلن عن رأيه -بوضوح- في التصوف قائلاً: «إن الفلسفة الصوفية والمذاهب الباطنية تمثل -على وجه اليقين- نمطاً من أكثر الأنماط انحرافاً، ولذلك يمكن أن نطلق عليها «نصرنة» الإسلام، إنها انتكاس بالإسلام من رسالة محمد ﷺ إلى عيسى عليه السلام»[2].

ويذكر الشيخ سفر الحوالي سبب اختياره لدراسة العلمانية ثم الإرجاء في مرحلة الدراسات العليا بالجامعة قائلاً: «كانت الأولى تعالج فصل الدين عن الحياة، والأخرى تعالج فصل الإيمان عن العمل، كلتاهما على ضوء هذه العقيدة]عقيدة أهل السنة والجماعة[ومن هنا كانتا تُعبِّران عن قضية واحدة وإن تباعد موضوعهما ظاهراً. وقد كانت الأولى بلا ريب طريقاً للأخرى؛ فمن خلال الدراسة لأسباب العلمانية الطاغية على الحياة الإسلامية المعاصرة رأيت رأي العين أن سبب كل انحراف وذل وهزيمة وفرقة في حياتنا، لا يزيد عن شيءٍ واحد وهو البعد عن منهج أهل السنة والجماعة في العقيدة والسلوك وسبيل الإصلاح»[3].

---

(١) خالد الغامدي، نقض عقائد الأشاعرة والماتريدية، ص٤٠٣

(٢) علي عزت بيجوفيتش، الإسلام بين الشرق والغرب، ترجمة: محمد يوسف عدس، مؤسسة بافاريا للنشر-ألمانيا، ط٢، ١٩٩٧م، ص٢٨٧-٢٨٨. والظن ببيجوفيتش -رحمه الله- أنه يقصد الانتكاسة بالإسلام من رسالة محمد ﷺ إلى النصرانية المحرفة بعد عيسى عليه السلام.

(٣) سفر الحوالي، ظاهرة الإرجاء في الفكر الإسلامي، ١/ ١١-١٢، وما بين الحاصرتين من الباحث.

ومن هنا يمكن القول بأن الدعم الذي حظي به التصوف من قبل المستشرقين ومن يقف خلفهم إنما يعود إلى عمق معرفتهم بمضامين التصوف العقدية؛ ومنها الإرجاء، وإلى معايشتهم لواقعه؛ حيث لم يكن أبداً عقبة في سبيل حركة التغريب والعلمنة التي بدأت في العالم الإسلامي منذ القرن التاسع عشر الميلادي، والتي كانت تسمى -زوراً- «حركة التجديد والإصلاح»، ولهذا فمنذ ذلك الحين بدأت عناية المستشرقين الكبيرة بالتصوف[1].

وفي مطلع القرن العشرين الميلادي والذي استشرى فيه نفوذ العلمانيين داخل جسد الدولة العثمانية (دولة الإسلام)، ووصل بهم الحال إلى خلع السلطان عبدالحميد، ونفيه عن اسطنبول عام ١٩٠٩م، ومن ثم إلى إلغاء الخلافة وإعلان الجمهورية التركية العلمانية بديلاً عن الدولة العثمانية عام ١٩٢٤م، كل هذه الأحداث الجِّسام وغيرها وقعت والطرق الصوفية تعيش في عالمها الآخر الرغيد البعيد عن واقع الأمة وآلامها في شتى المجالات، حتى فيما يتعلق بالمعيشة؛ فالناس كانوا في شظفٍ من العيش ومشايخ الطرق ومريدوها في رغد منه! وفي هذا يقول الدكتور توفيق الطويل: «ومن أطرف مفارقات هذا العصر أن يكون هؤلاء الزهدة الذين يدعون التقشف والقناعة بالتافه من شؤون العيش أرغد عيشاً وأترف حياة من الفلاحين والتجار وأرباب الحرف، وقد وصف مؤرخو العصر -من الجبرتي وابن إياس والشعراني ومن إليهم- حال المصري تحت الحكم العثماني، بما ينوء تحت نيره من فاقة وضنك، ثم وصفوا حال الفقراء في الزوايا وما كانوا ينعمون به من أطايب العيش وسائر مظاهر اليسر والهناءة، فظهر خلال وصفهم نوع من التباين يثير الدهشة ويدعو إلى العجب»[2].

وحينما تمكَّن «أتاتورك» لم تسلم منه حتى الطرق الصوفية، والتي لم يبلغه منها أذىً، بل على العكس؛ فأصدر قراره بإلغاء جميع الطرق

---

(١) وأيضاً لا يمكن إغفال ما أفرزه الاحتلال الفرنسي المبكِّر للجزائر (بدأ عام ١٨٣٠م) من معرفة ودراية بالطرق الصوفية، قادته إلى العناية بها وحمايتها.

(٢) توفيق الطويل، التصوف في مصر إبان العصر العثماني، ص١٥٤-١٥٥

الصوفية، وليس ذلك لأنها كانت تشكل خطراً عليه أو على حكومته، بل لأنه رأى فيها مظهراً من مظاهر التخلف، لا يتناسب وطموحاته باللحاق بركب الأمم الغربية ظاهراً وباطناً، ففي خطبة ألقاها عام ١٩٢٥م في مدينة «قسطموني» -حيث تنتشر الطريقة المولوية- قال: «إن طلب العون والمساعدة من قبور الأموات هو صفعة للمجتمع الإنساني المتحضر، وإني أتساءل ماذا عسى أن يكون هدف رجال الدين سوى جعل حياة أتباعهم أفضل مما هي عليه روحياً ومادياً؟ فإذا كان هذا هو هدفهم فإنني أرفض مجرد التصور بأنه ما زال في تركيا بعد كل هذا الجهاد للقضاء على الجهل والتخلف أناس مازالوا يلتمسون تحسين أوضاعهم المعيشية من خلال مشايخ الطرق وأساليب الشعوذة، يجب أن تعلموا أيها السادة أنتم وأفراد أسركم وعلى الأمة التركية بأسرها أن تعلم أن الجمهورية التركية العلمانية لا يمكن أن تكون بعد اليوم أرضاً خصبة للمشايخ والدراويش وأتباعهم من أصحاب الطريقة»[١]، ويمضي قائلاً: «وإذا كان هناك من طريقة حقيقية فهي طريقة الحضارة المبنية على العلم وعلى من يريد أن يكون إنساناً أن يأخذ بما تقدمه له هذه الحضارة وأن يتفاعل معها، وعلى مشايخ الطرق أن يفهموا هذا الكلام بوضوح وبالتالي يغلقوا زواياهم وتكاياهم عن طيب خاطر إلى الأبد، قبل أن أدمرها فوق رءوسهم.. إن من الطبيعي أن يستاء من هذه الإصلاحات الخوجات (المعلمون الدينيون) والدراويش الذين يعيشون خاملين في بيوتهم ويستغلون عواطف الشعب الدينية ويضعون كل مصالحهم مع الرجعية»[٢].

وبعد هذه الخطبة بعدة أشهر وتحديداً في نوفمبر ١٩٢٥م أصدر «أتاتورك» قانوناً يحتوي على إغلاق جميع الزوايا والتكايا في الدولة، وتحويل ما فيها من أثاث إلى المتاحف التابعة للدولة، وإلغاء كل أنواع الطرق الصوفية ومشايخها وإلغاء ألقابهم؛ كالدرويش والمريد والأستاذ والنقيب وغيرها من الألقاب، وكذلك إغلاق جميع المزارات وقبور

---

(١) هدى درويش، الإسلاميون وتركيا العلمانية، ص١١٣-١١٤

(٢) المرجع نفسه، ص١١٤

السلاطين والأولياء ومشايخ الطرق، والحكم على من يخالف هذه القرارات بالسجن لمدة لا تقل عن ثلاثة أشهر وغرامة لا تقل عن خمسين ليرة[1]، وفي هذا يقول أرمسترونج في كتابه عن أتاتورك: «وبقي أمر «الدراويش» الذين كانوا يملكون أخصب الأراضي وأفخم العمارات، وكانوا أشبه بالعالة على المجتمع العامل النشيط، المحروم، فضلاً عن صلتهم بثورة الأكراد[2]، ومن ثم رأى مصطفى كمال أن يتخلص منهم، فأصدر قانوناً من الجمعية الوطنية يقضي بإغلاق الزوايا والتكايا ومصادرة ثروات الدراويش وتشريدهم في الشوراع، كي يعيشوا من عرق جبينهم، أو يموتوا جوعاً إذا آثروا الكسل، شأنهم شأن جميع المواطنين! وبذلك قضى مصطفى كمال على الأساس والمظاهر الدينية للدولة والشعب بأكملها!»[3].

وبعد، فهذه صفحة أليمة من صفحات بداية تغوُّل العلمانية الغربية في جسد الأمة الإسلامية الضعيف عقيدة وسلوكاً، بسبب داء التصوف الذي أقعدها عن المدافعة، بل خدَّرها حتى عن الشعور بمصائب العلمانية!

وفي المطلب التالي سنرى أيضاً كيف كان حال الصوفية مع العلمانية بعد أن تمزق جسد الأمة الواحد إلى دويلات متعددة، رزح بعضها زمناً طويلاً تحت الاستعمار الغربي.

---

(١) المرجع نفسه، ص١١٤-١١٥

(٢) في عام ١٩٢٥م قامت ثورة في منطقة الأكراد عُرفت بثورة الشيخ سعيد بيران الكردي، وهو أحد مشايخ الطريقة النقشبندية، وقد تنازع الكُتَّاب حول دوافع هذه الثورة؛ فذهب بعضهم إلى أنها كانت ثورة دينية تطالب بإعادة الخلافة وتطبيق الشريعة الإسلامية، وذهب آخرون إلى أنها كانت ثورة قومية هدفها المطالبة بحقوق الأكراد. ولكن يبدو أن كتاب «ثورة الشيخ سعيد بيران من منظور عائلته» قد حَسَم الجدال في هذه المسألة؛ حيث أكَّد بأنها كانت ثورة كردية قومية، ونفى عنها الصبغة الدينية، وهذا الكتاب نُشر أولاً باللغة التركية، ثم تُرجم في عام ٢٠١٠م إلى اللغة الكردية، ومؤلفه هو: «فوزي شيخ عبدالرحيم بيران» وهو ابن شقيق الشيخ سعيد بيران، والكتاب من منشورات وزارة الثقافة في حكومة إقليم كوردستان. يُنظر: جريدة الاتحاد (الكردية)، عدد ٢٥/ ١٢/ ٢٠١٢م، وفيها عرضٌ للكتاب أعده فتح الله حسيني، رابط صفحة الموضوع على نسخة الجريدة الإليكتروني:
http://www.alitthad.com/paper.php?name=News&file=article&sid=131337
ويُنظر أيضاً: الموقع الإليكتروني للمجلس الوطني الكردستاني بسوريا، وفيه عرضٌ لمحتوى الكتاب، رابط الصفحة:
http://kurdnas.com/ab/index.php?option=com_content&view=article&id=644: 2010-08-24-03-22-12&catid=50: 2010-06-10-13-38-32&Itemid=119

(٣) ه. س. أرمسترونج، الذئب الأغبر مصطفى كمال، دار الهلال-القاهرة، ط بدون، ١٣٧١هـ-١٩٥٢م، ص٢١٤-٢١٥

المطلب الثاني: التصوف والعلمانية بعد انهيار الدولة العثمانية

تناولت في المطلب السابق موقف الصوفية إبان عهد الدولة العثمانية من العلمانية، وفي هذا المطلب سأحاول جاهداً التعرف على موقف التصوف من العلمانية من بعد انفراط عقد الدولة العثمانية إلى يومنا هذا؛ ومن المعلوم أن سقوط الدولة العثمانية أسفر مباشرة عن إعلان قيام الدولة التركية العلمانية المعاصرة، وأيضاً كانت الدولة العثمانية قُبيل سقوطها ببضعة عقود قد خسرت بعض ولاياتها التي سقطت بيد الاستعمار الغربي، وأكبر تلك الخسائر -كما أسلفت- هو احتلال بريطانيا عام ١٨٨٢م لمصر، أكبر ولايات الدولة العثمانية وأهمها.

ولذلك سوف أركِّز الحديث في هذا المطلب على تركيا ومصر؛ كأنموذجين بارزين للعلاقة فيما بين التصوف والعلمانية.

أما في تركيا فعلى الرغم من الضربات الشديدة التي تعرضت لها الطرق الصوفية من قِبل العلمانية، إلا أن الصوفية سرعان ما انسجمت مع الوضع العلماني الجديد، واتخذت شكلاً جديداً في سيرها، وفق حدود القوانين العلمانية الجديدة، وفي هذا يقول الدكتور «جمال كفادار»[1]: «لم تستطع الجمهورية التركية الفتية إنهاء نشاط الطرق الصوفية بقرار إغلاق التكايا عام ١٩٢٥م، لكنها بالتأكيد حدّت من انتشارها وحيويتها في ذلك الوقت، غير أن هذه الطرق عادت إلى الحياة بقوة في السنوات الأخيرة، وأخذ شيوخ الطرق وأتباعهم يظهرون في الصورة من جديد ويمارسون نشاطاتهم في إطار الحد القانوني المسموح به»[2].

وبالنظر إلى التصوف في تركيا العلمانية الجديدة يمكن القول أنه اتخذ مسارين اثنين حتى يومنا هذا، وهما:

---

(١) جمال كفادار، أستاذ تركي، ولد وترعرع في إسطنبول، ويعمل حالياً أستاذاً للتاريخ العثماني في جامعة هارفرد.

(٢) نقلاً عن: رايموند ليفشيز، تكايا الدراويش، الصوفية والفنون والعمارة في تركيا العثمانية، ترجمة: عبلة عودة، نشر هيئة أبوظبي للثقافة والتراث (كلمة)، ط١، ١٤٣٢هـ-٢٠١١م، ص٣٦٩، والكتاب عبارة عن مجموعة من الأبحاث، منها بحثٌ للدكتور جمال كفادار.

المسار الأول: البعد عن التصوف في شكله الطرقي، والذي بات محظوراً بعد القرار الكمالي عام ١٩٢٥م، مع التمسك بحقائق التصوف وعقائده، والدعوة إليه بالقْدر الذي لا يَلفت نظر الحكومة العلمانية أو يثير غضبها. وأبرز من سلك هذا المسار هو الشيخ سعيد النورسي، والذي أسَّس دعوة صوفية بأسلوب جديد يتناسب وظروف المرحلة العلمانية، ولذلك تجده يذم التصوف والطُرقية، وفي نفس الوقت يُثني على مشايخ الصوفية، ويسير سيرهم في العقيدة والسلوك، وفي هذا يقول الباحث علي آل ثابت عن سعيد النورسي: «هو لا يتنكر للصوفية باعتبارها مسلكاً عقدياً وفكرياً غير صحيح دخلت فيه البدع والخرافات ما يجعل العلماء يتصدون له، بل هو يرفض التصوف لما قد يسبب من أضرار تصده عن دعوة الناس للإسلام، فهو يُبيِّن أن الانتماء للطرق الصوفية من طلابه قد يسبب له الضرر»[1].

ويقول أيضاً في خاتمة بحثه في عقائد النورسية: «إن آراء النورسي حول حقيقة التوحيد ومسائل القدر خاصة ومسائل الغيب عامة قد صيغت بأسلوب يعتمد على التبسيط والعرض المدعم بالأمثلة والقصص والشواهد، فرسائله كلها للعامة -إلا القليل- يقرر فيها مذهب الأشعري وعقائد الصوفية، في أبواب الاعتقاد المختلفة، مكوناً منظومة من الآراء بميزاته الشخصية، وإن كانت بمجموعها لا تخرج عن أقوال المتصوفة أو الأشاعرة»[2]، ويقول الشيخ «فريد الدين آيدن»: «حركة النور تيارٌ عرفانيٌ، شبيه بطريقة صوفية، فضلاً عن أن أعضاء هذه الحركة -سوى عدد قليل جداً- لا يختلفون عن النقشبنديين قيد شعرة في الاحترام لمشائخ هذه الطريقة والاعتراف بتعاليمها»[3].

ويقول الدكتور محمد سعيد البوطي: «في أكثر من موضع في (اللمعات)

---

(١) علي عامر آل ثابت، عقائد النورسية، رسالة ماجستير غير مطبوعة، جامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض، ١٤٢٨-١٤٢٩هـ، ص١٤٥

(٢) المرجع نفسه، ص٥٥٥

(٣) فريد الدين آيدن، الطريقة النقشبندية بين ماضيها وحاضرها، دار العِبر للطبعة ولنشر- اسطنبول، ط بدوت، ١٩٩٧م، ص٣٥٢

يصرح الأستاذ النورسي بأنه ليس صوفياً، ولكنه في كل ما يخاطب به تلامذته من فنون النصح والتربية والإرشاد لا يخرج عن ذلك اللباب الذي كان هو مسمى التصوف»[1] ويمكن القول بأن هذا المسار نجح تماماً في التواؤم مع العلمانية التركية، بل بات يُشكل اليوم قوة اجتماعية وسياسية في تركيا، وسيأتي المزيد من التفصيل حول هذا المسار.

المسار الثاني: المحافظة على التصوف بشكله التقليدي (الطرقي) قدر المستطاع، أي إلى الحد الذي لا يتصادم مع القانون، ويأتي في مقدمة الطرق التي استطاعت أن تحافظ على طقوسها وأورادها الطريقة النقشبندية، وقد نجح أيضاً هذا المسار كسابقة في التواؤم مع العلمانية التركية.

والسؤال الذي يهمنا هنا: هل قاوم أرباب هذين المسارين الصوفيين العلمانية المحتلة لبلاد المسلمين وناصبوها العداء؟

الجواب لا! بل إنهم سايروها، وتواءموا معها، وتدرج بهم الأمر حتى غدوا اليوم جزءاً لا يتجزأ من الديمقراطية العلمانية في تركيا، وسأحاول فيما يلي بيان بعض الوقائع والشواهد لتجلية هذا الأمر.

أما بالنسبة لسعيد النورسي فقد رسم لدعوته الصوفية الجديدة خطوطاً عريضة رأى أنها تحافظ على دعوته، وفي الواقع أنها حافظت على دعوته، ولكنها أيضاً حافظت على استمرار وتمكن العلمانية! ومن أبرز تلك الخطوط طاعة السلطة الحاكمة، والنهي عن الجهاد بالنفس (ويسميه الجهاد المادي)، والحث على البعد عن السياسة، وفي هذا تقول الدكتورة هدى درويش: «لم يختر سعيد النورسي طريق المواجهة المباشرة مع السلطة، وقد كانت السلطة عنده تعني الاحترام والطاعة وذلك من أجل الحفاظ على المسلمين وعلى مكاسبه في نشر رسائله «رسائل النور»، وقد حدد الطريق الواجب تطبيقه من أجل إنقاذ الوطن من الفوضى والانقسام في خمسة مبادئ: ١- الاحترام المتبادل، ٢- الشفقة والرحمة، ٣- الحفاظ على الأمن، ٤- نبذ الفوضى والغوغائية، ٥- الدخول في الطاعة»[2].

---

(١) محمد سعيد البوطي، مقال بعنوان «الوهج الروحي في حياة الأستاذ سعيد النورسي»، مجلة حراء، العدد ٥، ٢٠٠٦م، ص٢٤

(٢) هدى درويش، الإسلاميون وتركيا العلمانية، ص١٤٩

وأما عن الجهاد فيقول سعيد النورسي: «أما ما يقتضيه الجهاد المادي فتلك الوظيفة ليست مناطة بنا حالياً»[1]، ويضيف أيضاً: «أما مصيبة الحرب وبلاؤها فهي ضرر بالغ لخدمتنا القرآنية، لأن معظم إخواننا العاملين المضحين الفضلاء لا تتجاوز أعمارهم الخمس والأربعين سنة، فيضطرون إلى الذهاب للحرب تاركين الخدمة القرآنية المقدسة، ولو أن لي مبلغاً من المال لكنت أدفعه بكل رضاي لأجل إنقاذ هؤلاء الإخوة الأكارم، حتى لو كان البدل النقدي ألف ليرة! إن انخراط مئات من إخواننا العاملين في الجندية، ومزاولتهم الجهاد المادي خسارة فادحة لخدمتنا»[2]!.

وأما فيما يتعلق بالسياسة فقد باتت مقولة سعيد النورسي: (أعوذ بالله من الشيطان والسياسة) وكأنها قاعدة شرعية يسير عليها أتباعه إلى يومنا هذا[3]، إذ يقول النورسي: «إن خدمة القرآن هي التي منعتني بشدة من عالم السياسة بل أنستني حتى التفكر فيها...، ولذلك قلت: «أعوذ بالله من الشيطان والسياسة» لكي أحافظ على نور القرآن، واعتصمت بكلتا يدي بذلك النور، ملقياً مطرقة السياسة جانباً»[4]، وعلى الرغم من هذا لم يَنجُ النورسي من الإيذاء والاعتقال، لا بتهمة الدعوة إلى تحكيم شرع الله، وإنما بتهمة تشكيل جماعة سرية ومحاولة هدم نظام الدولة[5]، ولكن الأمر كما تقول هدى درويش: «محاكماتهم دائماً تنتهي بالبراءة»[6]!.

هذه أبرز الخطوط العريضة لدعوة سعيد النورسي، والتي وإن كانت قد حافظت على استمرارية دعوته إلى يومنا هذا إلا أنها ذات الوقت حافظت على استقرار العلمانية واستمرارها في تركيا، ولم تزاحمها أو تُغضبها في

---

(١) بديع الزمان النورسي، اللمعات، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، شركة سوزلر للنشر- القاهرة، ط بدون، ت بدون، ص١٥٨

(٢) المرجع نفسه، ص١٥٩

(٣) وياليت أن النورسي، وأتباعه إلى يومنا، التزموا -في ظل العلمانية- حرفية هذه العبارة، لأنهم ومنذ زمن النورسي وهم يُشكِّلون ثقلاً سياسياً في تركيا، وسيأتي في الفصل الرابع مزيد بيان لهذا الأمر.

(٤) بديع الزمان سعيد النورسي، سيرة ذاتية، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، شركة سوزلر للنشر-القاهرة، ط بدون، ت بدون، ص٢٠٣-٢٠٤

(٥) المرجع نفسه، ص٣٨٤

(٦) هدى درويش، الإسلاميون وتركيا العلمانية، ص١٥٤

شيء، ولذلك صدر عام ١٩٥٦م قرار محكمة مدينة أفيون المبني على التقرير المقدم من رئاسة الشؤون الدينية ببراءة رسائل النور، وبعد هذا القرار أصبح طبع رسائل النور مسموحاً به في أنحاء تركيا[١]، فطبعت في المطابع التركية الحديثة بالأبجدية اللاتينية (البديلة عن العربية)، الأمر الذي ساعد أيضاً في انتشارها، وافتُتحت كذلك مراكز خاصة لدراسة رسائل النور «درسخانه» في جميع أنحاء تركيا[٢].

الجدير بالذكر هنا أن جماعة سعيد النورسي انقسمت بعد موته إلى خمس جماعات، وأبرزها وأقواها إعلامياً ومادياً وسياسياً هي جماعة «فتح الله كولن»[٣].

وأما أصحاب المسار الثاني (الطرقيون) وعلى رأسهم النقشبنديون، فقد لاقوا اهتمام السلطة السياسية الجديدة (العلمانية) ولم تكن قرارات ١٩٢٥م بإغلاق الزوايا والتكايا الصوفية إلا لتأمين انطلاقة العلمانية، وضمان خلو الساحة من أي تجمعات قد تُشكِّل تهديداً للدولة العلمانية الفتية. يقول الشيخ فريد الدين آيدن عن العلمانية أنها «استطاعت أن تروّض النقشبنديين على العمالة السياسية، بطمس الشهوة السياسية فيهم وإجهاضها، وزرع بذور الشقاق بين مشائخهم»[٤]، ويضيف أيضاً عن النقشبنديين: «لم تعد السلطة تهابهم، ولا تعتد بهم، بل ترتاح لكثرة عددهم ونشاطهم، لأنهم كلما ازدادوا عدداً ونشاطاً ازدادت بهم السلطة قوة وتحكماً، ذلك لأن نجاح الأحزاب السياسية في الانتخابات العامة متوقفٌ على دعمهم، فلا يمكن لأي حزب أن يفوز بأعلى نسبة من الأصوات في الانتخابات العامة إلا أن يكون قد أقنع عدداً من شيوخ هذه الطريقة، وجذبهم إلى صفوفه»[٥].

---

(١) المرجع نفسه، ص٣٨٥

(٢) يُنظر: شكران واحدة، بحث بعنوان «بديع الزمان النورسي ومفهوم الجهاد في العصر الحديث»، ضمن كتاب: المؤتمر العالمي لبديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: أورخان البياتي وآخرون، نشر نيسل-إسطنبول، ط١، ١٩٩٦م، ص١٢٣-١٢٤

(٣) للمزيد حول هذه الجماعات الخمس يُنظر: هدى درويش، الإسلاميون وتركيا العلمانية، ص١٥٦-١٥٧

(٤) فريد الدين آيدن، الطريقة النقشبندية بين ماضيها وحاضرها، ص٣٧٦

(٥) المرجع نفسه، ص٣٧٧

ويقول جمال كفادار: «تعززت قوة النقشبنديين مع صدور قانون التعددية الحزبية عام ١٩٤٦م، إذ أصبح النقشبنديون بأعضائهم الكثر محطّ أنظار الأحزاب الجديدة التي حاولت استمالتهم للتصويت لصالحها في القرى العديدة التي يتمركزون فيها»[1]، ويضيف أيضاً بأنه: «لا ينافس الطريقة النقشبندية في تأثيرها داخل المجتمع التركي الحديث إلا الطريقة المولوية التي تتمتع بميزة حرية ممارسة طقوسها أحياناً داخل تكيتها الأصلية في قونيا أو جالاتا»[2].

ومن هنا يمكن القول أن التصوف الذي كان أساساً في بنية الدولة العثمانية، بات فيما بعد -وإلى يومنا هذا- أساساً في الدولة التركية العلمانية! والفرق الجوهري بين الحالين هو أن التصوف كان عاملَ ضعفٍ في دولة إسلامية كانت تَنشُد الاستمرار والتَّميُز بدينها وثقافتها وسياستها، وأما في الدولة التركية العلمانية فقد كان التصوف -ولايزال- عامل قوة وتمكين للعلمانية؛ والسبب في هذه النتيجة المزدوجة هو أن مخرجات التصوف الداعية إلى الاشتغال بالعبادة وترك الدنيا (ومنها السياسة بزعمهم) توافقت مع رغبات سلاطين الدولة العثمانية، ثم بعد ذلك مع مبدأ العلمانية القائم أساساً على حصر التدين في نطاق التعبد الشخصي، وإقصائه عن شؤون الحياة كلها؛ وهكذا يصنع الانحراف عن هدي الكتاب والسنة!

يقول الخبير التركي صالح طوغ: «الحركة النورسية ليست حزباً سياسياً ولا جمعية ثقافية ولا مدرسة منظمة، إنما هي أستاذ وطلبة، وقد وجه الشيخ سعيد النورسي همه للدفاع عن الإيمان والمحافظة على العقيدة[3]، ولم نجد فيها مفهوماً للدولة الإسلامية»[4]. وجاء في تقريرٍ قدمته لجنةٌ قامت الحكومة التركية بتشكيلها لمعرفة حقيقة أنشطة النورسية:

---

(١) نقلاً عن: رايموند ليفشيز، تكايا الدراويش، ص٣٧٠

(٢) المرجع نفسه، ص٣٧١

(٣) مضى آنفاً أن النورسية يتبنون الأشعرية في المعتقد، ومضى أيضاً أن الأشعرية تحمل في طياتها عقيدة الإرجاء.

(٤) نقلاً عن: هدى درويش، الإسلاميون وتركيا العلمانية، ص١٥٦

«إن أفكار رسائل النور تعكس مؤلفات سعيد النورسي، فهم يعملون من أجل السعادة الأبدية في الآخرة»[1]، أي لا خوف منهم على الواقع العلماني! وفي هذا يقول فريد الدين آيدن: «هناك تطابق كبير بين آراء كل من الطغمة الحاكمة وبين شيوخ النقشبنديين الأتراك في أمور خطيرة، ومن أهم نقاط الاتفاق بين الطرفين في الوقت الحاضر: هو موقفهما من الإسلام بأن يُجرَّد من الحياة الاجتماعية تماماً، وأن لا يخرج مفهوم الدين من أعماق الضمائر، ولا من بين جدران المساجد أبداً»[2].

قد يقول قائل أن التصوف واجه ضغطاً شديداً من الحكومة العلمانية التركية، ولذلك لم يستطع إشهار عداوته، وإعلان منابذته لها، والجواب أن الأمر لو اقتصر من الصوفية على التعليم والإرشاد الديني بقدر ما كانت تسمح به قوانين العلمانية لكان ذلك خيراً، ومن باب تقوى الله بحسب الاستطاعة، ولكن أن يتآلف التصوف مع العلمانية حتى بات ركناً في السياسة العلمانية (دعم المرشحين مثلاً)، وعاملاً من عوامل ترسيخ العلمانية واستقرارها، فإن ذلك من الزيغ والضلال عن مقتضى الإسلام، بل إنها نقطة سوداء جديدة تُسَجَّل في تاريخ التصوف وضلالاته.

وأما في مصر فلم يختلف الأمر عما هو عليه حال التصوف مع العلمانية في تركيا، بل هو في مصر أعمق وأسبق! يقول الدكتور عمار الحسن: «يحفل تاريخ العلاقة بين المتصوفة والسلطة في مصر بالمواقف والمفارقات التي تظهر مدى حرص كل منهما على الآخر لتحصيل منفعة متبادلة هي بالنسبة للسلطان تتعلق بخلق الشرعية والحفاظ على الاستقرار، وبالنسبة للمتصوفة ترتبط بمصالح مادية ومكانة اجتماعية وحظوة لدى لحكام»[3]، ويضيف أيضاً: «ومن جانبها لم تُغفِل الأحزابُ المصرية الطرقَ الصوفية ودورها في التعبئة الاجتماعية، خلال الفترة الممتدة من ١٩٠٧ إلى ١٩٥٧م، بعد أن حصلت كثير من الطرق على الاعتراف الرسمي عقب سن

---

(١) نقلاً عن: المرجع نفسه، ص١٥٦

(٢) فريد الدين آيدن، الطريقة النقشبندية بين ماضيها وحاضرها، ص٣٧٦

(٣) عمار علي الحسن، التنشئة السياسية للطرق الصوفية في مصر، ص١٦٦

لائحة ١٩٠٥م، وذلك بفضل علاقتها ببعض رجال الأحزاب السياسية»، وضرب الدكتور عمار أمثلة عديدة للعلاقة المتينة بين الأحزاب السياسية والطرق الصوفية في مصر؛ ومن ذلك تدخل حزب الوفد[1] في المشكلة التي أثيرت داخل الطريقة العفيفية الشاذلية في مواجهة الطريقة الشاذلية الأم، بل تعدى الأمر مسألة الصلح إلى سعي مصطفى النحاس زعيم حزب الوفد - حينها- لفرض مرشحه (أحمد الصاوي العمراني) ليكون شيخاً لمشايخ الطرق الصوفية بعد تنحية الملك فاروق لأحمد مراد البكري[2]. وأضاف أيضاً: «وبعد ثورة يوليو ١٩٥٢م استخدمت السلطة الحاكمة الصوفية كجزء من استخدامها للدين بوجه عام لتثبيت شرعيتها وتبرير سياستها»[3]، ثم قال: «ورغم أن بعض المشايخ كانوا في حماية القصر[4] قبل الثورة إلا أن ضباط الثورة لم يناصبوهم العداء بل فتحوا الطريق أمامهم للانضواء تحت كنفهم، ولم يتعاملوا معهم كما تعاملوا مع كثيرين على أنهم رجال «العهد البائد»، ومن جانبها..لم تأل الصوفية جهداً في مناصرة الثورة والوقوف إلى جانب سياستها بشكل منقطع النظير»[5].

وأما في عهد جمال عبدالناصر فقد حضيت الصوفية أيضاً باهتمامه البالغ[6]، خاصة بعد إعلان الطرق الصوفية مساندتها التامة له، ومباركتها للتوجه القومي للنظام الناصري وكافة سياساته. وفي عهد عبدالنصر صدر القانون ١١٨ لعام ١٩٧٦م، والذي ينص على نظام للطرق الصوفية، وفيه لائحة تنفيذية تسير عليها؛ وقد وصف الدكتور عمار حسن هذه اللائحة

---

(١) حزب الوفد، حزب سياسي ليبرالي مصري تأسس عام ١٩١٨م على يد سعد زغلول وعبدالعزيز فهمي وأحمد لطفي السيد وعلي شعرواي، وقد تعرض خلال مسيرته إلى الإلغاء ثم إعادة التشكيل. يُنظر: الموسوعة الميسرة في الأديان، ١/ ٤٥٠، وكذلك الموسوعة السياسية للكيالي، ٢/ ٥٣٠

(٢) عمار علي الحسن، التنشئة السياسية للطرق الصوفية في مصر، ص١٧٨

(٣) المرجع نفسه، ص١٧٩

(٤) القصر هنا أي الحكم الملكي في مصر قبل ثورة ١٩٥٢م.

(٥) المرجع نفسه، ص١٧٩

(٦) لم يشذ عن هذه القاعدة إلا القليل؛ كحلّ عبدالناصر للطريقة البكتاشية، لشبهة ارتباطها بنظام ما قبل الثورة؛ ووقوفه أيضاً في وجه الطريقة الحصافية، للاشتباه بعلاقة مريديها مع جماعة الإخوان المسلمين. يُنظر: المرجع نفسه، ص١٧٩.

بأنها «أممت الصوفية لصالح الحكومة لتصبح مؤسسة رسمية بحتة تأتمر بأمر السلطة وتنتهي بنهيها»[1].

ولم يختلف الحال كذلك في عهد الرئيس أنور السادات، فقد كانت الصوفية على رأس القوى الدينية التي استخدمها لتبرير سياساته، ولذلك حرص المسؤولون في عهده على حضور الموالد الصوفية واحتفالاتها. وفي عهد الرئيس حسني مبارك، والذي تولى الرئاسة بعد اغتيال سلفه السادات عام ١٩٨١م، فاقت عناية السلطة بالطرق الصوفية من سبق، إذ كانت الحاجة للتصوف أمس، وذلك لكبح الجماعات الإسلامية الصاعدة، «فالاستراتيجية التي تبنتها الحكومة لم تكن مقابلة أفكار الجماعات الإسلامية بأفكار علمانية ولكن كانت الخطة هي منافسة هذه الجماعات داخل ساحة الإسلام نفسها لتمييع الموقف، وسد الطريق أمام هذه الجماعات..»[2].

«وعلى هذا الأساس تهيأت الظروف الملائمة لتحالف النظام مع الصوفية ضد الجماعات الإسلامية فالنظام يلتحف بها باعتبارها طرحاً دينياً له مكانته لدى المصريين ليحسّن صورته أمام الرأي العام بأنه يعرف حدود الدين..»[3]، ومن هنا زادت عناية السلطة بالتصوف، واستمر حضور المسؤلين للاحتفالات الصوفية، بل تعدى الأمر ذلك إلى أن أصبح الدكتور أبو الوفا التفتازاني شيخ مشايخ الطرق الصوفية (ت١٩٩٤م) عضواً في الحزب الوطني الحاكم[4]، واستمر خلفه الشيخ عبدالهادي القصبي في عضوية الحزب الوطني إلى أن ألغي الحزب بعد ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١م[5].

٢٠١١م[5].

---

(١) المرجع نفسه، ص١٨٤

(٢) المرجع نفسه، ص١٨٣

(٣) المرجع نفسه، ص١٨٣

(٤) يُنظر: المرجع نفسه، ص١٨٣. والحزب الوطني الديمقراطي حزب سياسي علماني، أسَّسه الرئيس أنور السادات في عام ١٩٧٨م، وهو الحزب الذي كان ينتمي إليه الرئيس المصري السابق حسني مبارك، وقد تم حلّ هذا الحزب رسمياً بعد ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١م.

(٥) المثير للانتباه أيضاً أن عبدالهادي القصبي تم تعيينه عام ٢٠١٢م عضواً بمجلس الشورى،

وأما فيما بعد ثورة ٢٥ يناير فقد تعرض مشايخ الطرق الصوفية إلى صدمة كبيرة بعد عقود من الراحة والاسترخاء في ظل الملوك والرؤساء، الذين كانوا يسبغون عليهم أنواع الدعم والتأييد والحماية، فوُجِد منهم من يؤيد الحكومة المنتخبة (حكومة محمد مرسي)، كحال طارق الرفاعي شيخ الطريقة الرفاعية، ووجد منهم من يعاديها ويتحالف علناً مع خصومها؛ كحال محمد علاء الدين أبو العزايم شيخ الطريقة العزمية[1]، إلى غير ذلك من المواقف الصوفية الكثيرة والمتباينة، والتي سأتناولها بمزيد من التفصيل في مبحث الحراك الصوفي السياسي المعاصر في الفصل الرابع، إن شاء الله.

هذا، وقد لخَّص الدكتور عمار علي حسن، أهداف حرص النظام الناصري في مصر على دعم التصوف في خمس نقاط، وهي:

١- «السيطرة على جماعة تقليدية قوية يمكن أن تُشكِّل تهديداً أو ضغطاً على النخبة الحاكمة ذات النزعة العلمانية.

٢- رغبة النظام في الوصول إلى الجماعات والشرائح الدنيا خاصة في الريف والتي لم يتمكن من التوصل إليها من خلال وسائل الإعلام أو التنظيمات السياسية وذلك اعتماداً على انتشار الطرق الصوفية في الريف.

٣- الحيلولة دون استقطاب هذه الجماعات والشرائح الدنيا بواسطة نخب أخرى منافسة أو مناوئة للنخبة الحاكمة، وكانت عين النظام الناصري في هذا المضمار على الإخوان المسلمين الذين كانوا يحاولون تجنيد قاعدة جماهيرية ضد الناصرية.

٤- لجأ النظام الناصري إلى الصوفية باعتبارها منفذاً لتفريغ مشاعر الاستياء والإحباط من دون عنف، فأمام معارضة بعض السياسات التي سلكها النظام كان لا بد من احتواء الغضب الذي نجم عنها وتسريبه رويداً

= والذي أمر بتشكيله الرئيس المصري محمد مرسي المنتمي لجماعة الإخوان المسلمين، فهل هذا يعني استمرار عقلية الاستفادة من خدمات التصوف لدى السياسي؟!

(١) يُنظر: جريدة اليوم السابع، النسخة الإليكترونية، في ١٨/ ٩/ ٢٠١٢م، الرابط:
http://www.youm7.com/News.asp?NewsID=789802

رويداً في الممارسة الصوفية القائمة على الصبر والقناعة ولذا شجع النظام الصوفية، وفتح الباب أمامها، واعترفت السلطة بالكثير منها وزاد حجم الموالد وعددها.

٥- رأى النظام الناصري أن الطرق الصوفية كجماعات ممتدة عبر القوميات يمكن أن تكون وسيلة دعائية وركيزة شعبية لتحقيق أهداف السياسة الخارجية القائمة على: «القومية العربية».. وبلغ الاستخدام ذروته عام ١٩٦١م، حين عقد بالقاهرة المؤتمر الصوفي العالمي الذي ضم شيوخاً من كل البلاد العربية وكان هدفه استغلال الشبكات والصلات العربية لمؤسسات الصوفية لصالح السلطة»[١].

والذي أراه أن هذه الأهداف الخمسة لاستخدام التصوف هي ذات الأهداف لمن سبق عبدالناصر ولِمن أتى بعده.

وبعد، فتبيَّن لنا مما مضى عمق العلاقة والمنافع المتبادلة بين الصوفية والعلمانية في أهم تجمُّعين للمسلمين بعد انتهاء حقبة الدولة العثمانية (تركيا ومصر)، إذ حرص العلماني علي الصوفية، وسعى لكسبهم في صفِّه والاستفادة منهم، واستخدامهم في بث تأييده في المجتمع، وفي ذات الوقت السيطرة عليهم؛ وأما في الجهة المقابلة فيمكننا القول بأن الصوفية خضعوا للواقع العلماني وتعايشوا معه، ولم يكن منهم أي مقاومة لهذا الفكر المضاد للدين والمعطل للشريعة الإسلامية، وما انتهجته النورسية في تركيا إنما هو تطبيق للتصوف بطريقة حديثة (نظامية) بعيدة عن السياسية وعن ربط معاش الناس وشؤونهم بالشريعة، شأنها في ذلك شأن الصوفية التقليدية (الطرقية)؛ وليت الأمر وقف على السكوت وعدم المقاومة، بل تعدى الأمر منهم إلى الانغماس في السياسية العلمانية، حتى باتوا ركناً خادماً للعلمانية في تركيا وفي مصر وغيرهما، وإلى الله المشتكى.

والخلاصة، أن موقف الصوفية من العلمانية كان موقفاً سلبياً مسايراً لها، بل يمكن القول بأن الصوفية (عقيدة وسلوكاً) ساهمت بشكل مباشر

---

(١) عمار علي حسن، التنشئة الساسية للصوفية في مصر، مرجع سابق، ص١٨١

وغير مباشر في تغلغل العلمانية إلى جسد العالم الإسلامي، وساهمت أيضاً في ترسيخ قواعد العلمانية، خاصة في الجانب السياسي منها، والسبب في ذلك يعود إلى جوهر التصوف، -كما بيَّنت آنفاً- وهذا الأمر الخطير في التصوف أدركه الغربيون منذ وقت مبكر، فعلى سبيل المثال يقول «دومينيك سورديل»[1]: «لقد ظهرت تيارات أخرى دينية أو ثقافية، قلَّما اهتمت بالتوجهات السياسية لدى معتنقيها، إلا أنها شكلت بدورها عناصر أساسية في الفكر الإسلامي، إنها أولاً الحركة التقشفية والتصوفية المسماة شيوعاً الصوفية»[2]. وقد أوردت أيضاً في الفصل الأول ثناء المستشرق «ولفريد كانتويل»[3] في كتابه (الإسلام في العصر الحديث) على التصوف، زاعماً بأنه في جوهره هو الدين مجرداً من النظم والأنماط، وأنه يلتقي مع المسيحية في ترك تنظيم الشؤون الدينية لمن بيدهم مقاليد السياسة والسلطان[4]!

ولا غرو بعد ما مضى إذا رأينا الكثيرَ من باحثي المسلمين ومثقفيهم يعدُّون التصوف من أهم أسباب تسلل وانتشار العلمانية في العالم الإسلامي؛ ومنهم -على سبيل المثال- الدكتور سفر الحوالي، والدكتور حمود الرحيلي، والشيخ مصطفى باحُّو من المغرب، وغيرهم[5].

---

(١) سبق ترجمته.

(٢) دومينيك سورديل، الإسلام/ العقيدة..السياسة..الحضارة، مرجع سابق، ص١٠٨

(٣) سبق ترجمته.

(٤) يُنظر: محمد محمد حسين، الإسلام والحضارة الغربية، دار الفرقان، ط بدون، ت بدون، ص١٥٩

(٥) يُنظر: سفر بن عبدالرحمن الحوالي، العلمانية نشأتها وتطورها وآثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة، دار الهجرة، ط بدون، ت بدون، ص٥٠٧-٥٢١؛ وحمود بن أحمد الرحيلي، العلمانية وموقف الإسلام منها، نشر الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ١٤٢٢هـ ص٣٧٤-٣٧٧؛ ومصطفى باحُّو، العلمانية المفهوم والمظاهر والأسباب، نشر جريدة السبيل-المغرب، ط١، ١٤٢٣هـ-٢٠١١م، ص٨٨-٨٩

المبحث الثالث

الولاء والبراء عند الصوفية، ونقده

المطلب الأول :أهمية الولاء والبراء

إن من أوثق عرى الإيمان بالله الولاء والبراء، كما أخبرنا بذلك سيد الخلق ﷺ إذ يقول: «أوثق عرى الإيمان الموالاة في الله والمعاداة في الله، والحب في الله والبغض في الله»[1]، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «والولاية ضد العداوة، وأصل الولاية: المحبة والقرب، وأصل العداوة: البغض والبعد»[2].

والولاء والبراء متلازمان، يقول ابن القيم: «فلا تصح الموالاة إلا بالمعاداة كما قال تعالى عن إمام الحنفاء الـمُحِبِّين أنه قال لقومه: ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء : ٧٥-٧٧]، فلم تصح لخليل الله هذه الموالاة والخُلَّة إلا بتحقيق هذه المعاداة، فإنه لا ولاء إلا بالبراءة من كل معبود سواه، قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة :٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ (٢٧) وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف :٢٦-٢٨]، أي جعل هذه الموالاة لله، والبراءة من كل معبود سواه كلمة باقية في عقبه يتوارثها الأنبياء وأتباعهم بعضهم عن بعض، وهي كلمة لا إله إلا الله، وهي التي ورَّثها إمام الحنفاء لأتباعه إلى يوم القيامة»[3].

---

(١) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير»، من حديث ابن عباس، برقم (١١٥٣٧). وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٢٥٣٩)، وفي السلسة الصحيحة، برقم (١٧٢٨).

(٢) ابن تيمية، الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، دار البيان-دمشق، ط بدون، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م، ص٩

(٣) ابن القيم، الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، دار المعرفة-المغرب، ط١، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م، ص١٩٥

ولهذا يقول الدكتور محمد سعيد القحطاني: «الولاء والبراء من لوازم لا إله إلا الله»[1]، ويُضيف أيضـاً: «الولاء في الله هو: محبة الله ونصرة دينه ومحبة أوليائه ونصرتهم. والبراء هو: بغض أعداء الله ومجاهدتهم»[2].

ولئن كان الولاء والبراء بأوجز عبارة هو: الحب في الله والبغض في الله؛ فإن مسائله وأحكامه تختلف وتتنوع بحسب الحاله، فالكفار -على سبيل المثال- منهم المحارب ومنهم غير المحارب، ولكل واحدٍ منهم تفصيلٌ في طريقة الولاء والبراء، بل حتى المسلم إذا كان صاحب معصية وفِسق فإنه يُحَب على إيمانه ويُبغَض على معصيته.

وبما أن التفصيل في مسائل الولاء والبراء ليس مقصوداً هنا، وإنما المقصود هو التأكيد على هذه العقيدة، وبيان منفعتها للمسلمين، فسأكتفي بالتأكيد على بعض القواعد المتعلقة بالولاء والبراء، ومن ثم سأنتقل إلى بيان موقف التصوف من هذه العقيدة، وهذه القواعد هي:

أولاً: أن الولاء والبراء من لوازم تحقيق «لا إله إلا الله»، إذ لا يمكن لمن وقَرَ في قلبه الإيمان بالله محبة أهل الشرك والكفر ومودتهم، كما قال الحق سبحانه: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة : ٢٢].

ثانيـاً: أن الولاء والبراء ليس مجرد عقيدة بالقلب، بل إنه يستلزم العديد من أعمال القلوب والجوارح، وفي هذا يقول الشيخ عبداللطيف بن عبدالرحمن بن حسن -رحمه الله-: «وأصل الموالاة: الحب؛ وأصل المعاداة: البغض؛ وينشأ عنهما من أعمال القلوب والجوارح ما يدخل في حقيقة الموالاة والمعاداة؛ كالنُّصرة والأُنس والمعاونة وكالجهاد والهجرة، ونحو ذلك من الأعمال»[3].

---

(١) محمد سعيد القحطاني، الولاء والبراء في الإسلام، دار طيبة-الرياض، ط٣، ١٤٠٩هـ ص٤٠، وقد ساق المؤلف في كتابه الأدلة من الكتاب والسُّنة على أن الولاء والبراء من لوازم «لا إله إلا الله» (يُنظر: ص٤٠-٥٠)، واكتفيت هنا بالإشارة، رغبة في الاختصار.

(٢) المرجع نفسه، ص٤٣

(٣) الدرر السنية، ٢/ ٣٢٥

ثالثاً: أن الولاء والبراء عقيدة نابعة من كتاب الله وسنة رسوله الكريم ﷺ، وعليه فهي ليست مسألة فرعية اجتهادية، بل هي مسألة من أصول الإيمان، طبَّقها سلفنا الصالح في أعمالهم وأقوالهم، ولما بَعدت الأمة في هذا الزمان عن هدي الكتاب والسنة انبرى أهل العلم لإفراد مسألة الولاء والبراء بالتأليف والتأكيد على أهميتها وارتباطها بتحقيق «لا إله إلا الله».

رابعاً: أن تحقيق الولاء والبراء يحفظ على المسلمين إيمانهم وقوتهم وهويتهم، ويصنع لهم جسداً واحداً، تتضاءل أمامه أطماع الطامعين وأحقادهم.

خامساً: تحقيق الولاء والبراء يورث القوة والعزة والثقة في نفوس المسلمين أمام غيرهم؛ فتجد المسلم يَعلَم بأن الكافر إما أن يكون مُحارباً للإسلام والمسلمين فيُحارب ويُجاهد حينئذ بكل وسيلة، وإما أن يكون مسالماً فيُتبرأ إلى الله منه، ويُبَغض ما هو عليه من كفر بالله، ولا يُوالَى، وهذا لا يمنع في ذات الوقت من بِرِّه والقسط إليه، وإحسان التعامل معه، ودعوته بالحكمة والموعظة الحسنة؛ كما قال الحق ﷻ: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الممتحنة: ٨-٩].

وبعد: فلئن كانت كلمة «لا إله إلا الله» تُحدِّد علاقة المسلم بخالقه سبحانه وتعالى، فإن لازِمَها (الولاء والبراء) يُحدِّد علاقة المسلم مع أخيه المسلم ومع غير المسلم، ويضبطهما بضابط لا يتبدل ولا يتغير، والمتابع لمسيرة المسلمين عبر تاريخهم، يرى أن عزة المسلمين ومنَعتِهم إنما كانت حينما كانوا كالجسد الواحد أمام عدوهم يتعبدون الله بتطبيق الولاء والبراء واقعاً في حياتهم، وما أصاب المسلمين من ضعف وانحطاط واستسلام إلا بعد أن تخلوا عن هذه العقيدة العظيمة، حتى وصل الحال بأن يستعين المسلمُ بالكافر على أخيه المسلم، كما وقع في الأندلس وغيرها، وأما حينما قوي عود أوروبا وبدأت أطماعها تتزايد في العالم الإسلامي، فقد كان لضعف الولاء والبراء أثره الكبير خاصة في جانب الحكام الذين والوا

الغربيين حفاظاً على مكانتهم وطمعاً في دعمهم ومعونتهم، وأما عامة المسلمين فلقد أثَّر فيهم الغزو الفكري الغربي أيما تأثير وزعزع هذه العقيدة الراسخة؛ فبات المسلم لا يعرف عدوه من صديقه، ومن يُحِب ويوالي؟! ومن يَكره ويعادي؟!، وإلى الله المشتكى[1].

ومن هنا، فإن إحياء عقيدة الولاء والبراء في نفوس المسلمين في هذا الزمان يعتبر حاجزاً -بإذن الله- دون أمواج التغريب التي تعاني منها الأمة في هذا الزمان، فبالولاء والبراء يعرف المسلم حدود دينه، وحدود علاقته بالكافر؛ ما يجوز منها وما لا يجوز، وبه أيضاً تَعُود للمسلمين هيبتهم ومكانتهم القوية، فالولاء يُنتِج القوة، والبراء يُنتِج المهابة.

المطلب الثاني: التصوف وعقيدة الولاء والبراء

مضى في المطلب السابق الإشارة إلى ضعف الولاء والبراء عند المسلمين في هذه القرون المتأخرة، والتي لا زال المسلمون يعالجون فيها صنوف الاستعمار الغربي، وأشرت أيضاً إلى أن من أسباب ذلك الضعف: الغزو الفكري الذي ابتليت به أمة الإسلام ولا تزال، وهنا أشير إلى عامل آخر مهم ساهم بقوة في إضعاف عقيدة الولاء والبراء لدى المسلمين ألا وهو التصوف، وفيما يلي بيان هذا العامل بالتفصيل.

مضى في الفصول والمباحث السابقة بيان حقيقتين متعلقتين بالتصوف، وهما:

الحقيقية الأولى: أن التصوف انتشر انتشار كبيراً زمن الدولة العثمانية، يكاد يشمل غالب بلاد المسلمين، وما ذاك إلا لتبني الدولة العثمانية له.

الحقيقية الثانية: أن التصوف في هذه الأزمنة المتأخرة بات مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالعقيدة الأشعرية، إذ لا تكاد تجد أشعرياً إلا وهو متصوف، والعكس كذلك.

---

(١) للمزيد حول ضعف عقيدة الولاء والبراء عند المسلمين يُنظر: علي بن بخيت الزهراني، الانحرافات العقدية والعلمية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجري وآثارهما في حياة الأمة، دار طيبة-مكة المكرمة، ط٢، ١٤١٨هـ، ١/ ١٤١-٢٠٣

ومن هنا فقد أثّرَ الانتشارُ الكبير للتصوف، مع ارتباطه الوثيق بالعقيدة الأشعرية، على عقيدة الولاء والبراء لدى المسلمين، وعاد عليها بالضعف؛ وذلك في الوقت الذي كانت -ولاتزال- أُمَّة الإسلام أحوج ما تكون إلى تحقيق هذه العقيدة؛ لتحفظ عليها دينها وتماسكها. ولكنَّ الواقع المؤلم كان كما رأينا في المبحث السابق مِنْ حال الصوفية مع العلمانية، وكما سنرى أيضاً في المبحثين القادمين مِنْ حالهم مع الجهاد والاستعمار!

وأما حقيقة هذا التأثير السلبي الكبير من التصوف على عقيدة الولاء والبراء، فهو أن التصوف الأشعري المعاصر يتنافى ويتعارض في جوانب عديدة منه مع عقيدة الولاء والبراء، ومن تلك الجوانب -على سبيل المثال- ما يلي:

الجانب الأول: أن التوحيد في تقريرات المتصوفة الأشاعرة ينحصر في توحيد الربوبية، فتعريف التوحيد عندهم هو أن الله واحد في ذاته لا قسيم له، وواحد في صفاته لا شبيه له، وواحد في أفعاله لا شريك له[1]. ومحصلة هذه المعاني الثلاثة إثبات توحيد الربوبية فقط![2]، ولذلك لا تجد في تقريراتهم للتوحيد سوى الحديث عن توحيد الربوبية، ومن المعلوم الارتباط الوثيق والكبير بين الولاء والبراء وبين إفراد الله بالألوهية (توحيد الألوهية)؛ إذ إن ولاء المسلم ومحبته بالجملة إنما هي لعباده الموحدين، وبغضه وعداوته إنما هي للكافرين والمشركين بالله.

وفي تعليقه على معنى التوحيد عند الأشاعرة يقول شيخ الإسلام ابن تيمية-رحمه الله-: «فليس كل من أقرَّ أن الله رب كل شيء وخالقه يكون عابداً له دون ما سواه، راجياً له خائفاً منه دون ما سواه، يوالي فيه، ويعادي فيه، ويطيع رسله، ويأمر بما أمر به، وينهى عما نهى عنه»[3].

ويقول الشيخ سفر الحوالي: «والحاصل أن توحيد الأشاعرة على ما فيه

(١) ينظر: ابن تيمية، درء تعارض العقل والنقل، تحقيق: محمد رشاد سالم، نشر جامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض، ط٢، ١٤١١هـ-١٩٩١م، ١/ ٢٢٥

(٢) وهذا الانحراف إنما هو نتاج البعد عن نصوص الذكر الحكيم الواضحة البيِّنة، والاستغناء عنها بالفلسفة العقلية المجردة.

(٣) ابن تيمية، درء تعارض العقل والنقل، ١/ ٢٢٧

من خلل وابتداع هو كما رأينا آنفاً محصورٌ كله في قضايا التصور والاعتقاد مجردة دون الأمور العملية التي هي توحيد الله تعالى بأفعال العباد الذي جاءت به رسل الله جميعاً، وهو يشمل أعمال القلوب؛ كالمحبة، والإنابة، والتعظيم، والرغبة، والرهبة، والخوف، والرجاء. وأعمال الجوارح؛ كالصلاة، والذبح، والنذر، والطواف، ونحوها. كما أن من أهم أنواع هذا التوحيد إفراده سبحانه بالتحاكم إليه وحده، أي رد الأمر كله إلى كتابه وسنة نبيه ﷺ، وكذلك الموالاة في الله والمعاداة فيه، وهاتان القضيتان الخطيرتان أعني «التحاكم والموالاة» لا ذكر لهما في كتب عقائد الأشاعرة على الإطلاق، لا ضمن أصول العقيدة، ولا ضمن لوازمها. وبهذا النقص الواضح في التوحيد عندهم كثر في المنتسبين لهذا المذهب من الخرافيين، والقبوريين، والطرقيين، والمتحاكمين إلى الطواغيت، والموالين للكفار والفجار ما لا يحصيه إلا الله. فترى الواحد منهم يرتكب هذه الشركيات أو البدع دون أن يرى فيها أدنى معارضة للتوحيد؛ لأن التوحيد الذي تعلمه وتربى عليه هو -في أكمل صوره- تلك المعاني الثلاثة فقط»[1].

ومن هنا يمكن القول أن من زاغ بصره عما في كتاب الله من تقريرٍ وإثبات لتوحيد الألوهية، فأنَّى له أن يُحقِّق الولاء والبراء على مراد الله سبحانه وتعالى.

الجانب الثاني: إذا كان المتصوف يقارف الشرك صباح مساء؛ عبر دعاء غير الله، والتبرك بالقبور، وسؤال الحاجات من أهلها، ونحو ذلك، فأنى لمن هذا حاله أن يحقق البراءة من الشرك وأهله، بل العكس من ذلك فإن براءتهم وعداوتهم متجهة إلى من يدعوهم إلى ترك ذلك والتوجه لله وحده بجميع أنواع العبادة، وقد مضى بيان هذه المسألة بالتفصيل في المبحث الأول من هذا الفصل، وذلك عند الحديث عن موقف الصوفية من السلفية.

---

(١) سفر بن عبدالرحمن الحوالي، **الأشاعرة**: عرض ونقض، نشر مجلة البيان، ط بدون، ١٤٣٠هـ ص١٦٥-١٦٦. والمعاني الثلاثة المشار إليها أعلاه هي: أن الله واحدٌ في ذاته لا قسيم له، وواحد في صفاته لا شبيه له، وواحد في أفعاله لا شريك له. وهذه المعاني الثلاثة فقط هي التوحيد عند الأشاعرة! وللمزيد يُنظر تفصيل كلام الدكتور سفر حول التوحيد عند الأشاعرة: ص١٥٨-١٦٥

الجانب الثالث: غلو المتصوفة في أشياخهم (الأولياء) وصل بهم إلى أن جعلوهم مَعقِد الولاء والبراء؛ فيُحبُّ المريدُ ما يحبه شيخه ويبغض ما يبغضه، وهذا باطل مبني على باطل مثله، إذ لا يجوز ابتداء الجزم لأحد من الناس بالولاية لله بله أن يكون مَعقِداً للمحبة والبغض[1]. وولاية الله جعلها سبحانه لكل من حقَّق الإيمان والتقوى، قال جل شأنه: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس : ٦٢-٦٣] ، والتَّقوى محلها القلب وإنْ ظهرت آثارها على الجوارح، ولا يعلمُ ما في القلب إلا الله، ولذلك قال سبحانه: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم : ٣٢] ، والجزم لأحدٍ بالولاية هو في الحقيقة تزكية له بأنه تقي، وهذا فيه مخالفةٌ لصريح الآية؛ وإذا كنَّا أيضاً قد نُهينا عن الثناء بصيغة الجزم، فكيف بالجزم بالولاية لله وهي أعظم! قال ﷺ بعد أن سمع رجلاً يُثني على رجلٍ آخر: «ويلك قطعت عنق صاحبك، قطعت عنق صاحبك»، مراراً، ثم قال: «من كان منكم مادحاً أخاه لا محالة، فليقل أحسِبُ فلاناً، والله حَسِيبُهُ، ولا أزكي على الله أحداً أحسِبُهُ كذا وكذا، إن كان يعلم ذلك منه»»[2].

الجانب الرابع: أن الطرق الصوفية -التي لا حصر لعددها- أصبحت هي أيضاً معقداً للولاء والبراء! فتجد الطريقة توجب على أتباعها قطع جميع الصلات والروابط مع المشايخ والصالحين خارج الطريقة[3]، ويؤكد الدكتور محمد لوح بأن: «القول بوجوب التقاطع هو مذهب جميع الطرقيين سواء صرحوا به في مصنفاتهم أو اكتفوا بتطبيقه تطبيقاً عملياً دون الحاجة إلى التصريح به قولاً»[4]، ولا غرو أن ينتج عن الطرق الصوفية مثل هذا الولاء الباطل، المنافي لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠] .

---

(١) من الأمور التي تتبادر إلى الذهن هنا مسألة انتشار السحر عند مشايخ الصوفية، وكيف أنهم يتعاطونه لإيهام أتباعهم بخوارق شيطانية على أنها كراماتٌ من الله لأوليائه، فتأمل كيف ضَلُّوا وأضلُّوا!

(٢) أخرجه البخاري، برقم (٢٦٦٢)، باب: إذا زكى رجلٌ رجلاً كفاه.

(٣) يُنظر: محمد أحمد لوح، تقديس الأشخاص في الفكر الصوفي، دار ابن القيم-الدمام، ط١، ١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م، ١/ ٣٦٥

(٤) المرجع نفسه، ١/ ٣٦٧

الجانب الخامس: تعارض الولاء والبراء مع الإرجاء، والذي هو أحد مكونات التصوف العقدية، وقد بيّنت في المبحث السابق كيف حظي الصوفية بحب السلاطين والعلمانين بسبب عقيدة الإرجاء الموجودة فيه، فإذا كانت المعاصي (دقيقها وجليلها) لا تقدح في الإيمان بسبب هذه العقيدة الإرجائية، فعلى ماذا يوالي المسلم ويعادي؟! ومن يوالي ومن يعادي؟! ومعلومٌ أنه حتى المسلم العاصي - في معتقد أهل السنة والجماعة- يوالى على ما فيه من إيمانٍ ويُبغض على ما فيه من معصية، ومن هنا فإن الولاء والبراء لا يستقيم مع الإرجاء، والواقع المعاصر يشهد بحال المتصوفة المتصالح والمتسامح مع أهل المعاصي والكبائر دونما نُصحٍ أو تذكيرٍ أو إنكارٍ لما هم عليه.

الجانب السادس: مضى في الفصل السابق بيان أن «وحدة الوجود» هي لبُّ التصوف وغايته[1]، وهذه الغاية لا تتعارض فقط مع الولاء والبراء بل مع التوحيد كله[2]، ومن لوازمها الباطلة -التي التزموها- القول بتصحيح الأديان (وحدة الأديان)[3]، وفي هذا يقول الدكتور سعيد معلوي: «كان الأصل الذي بنى عليه الصوفية معتقدهم في وحدة الأديان في ضوء غاية التصوف هو أن الغاية التي يجب أن يسعى إليها السالك هي الاتصال بالله اتصالاً مباشراً، وفي سبيل هذه الغاية فلا اعتبار أبداً لاختلاف الطرق بين السالكين للوصول إلى هذه الغاية، ولهذا ينظر المتصوفة إلى العقائد المتباينة والمتعددة نظرة مماثلة للدين الإسلامي، وعدم الاهتمام بالصور والظواهر والشكليات، وينزعون إلى ما يسمى

---

(١) وحدة الوجود هي غاية التصوف وإن أظهر المتصوفة -وبخاصة المتأخرين منهم- غير ذلك، وقد مضى في الفصل الأول بيان هذه الحقيقة وإدراك المستشرقين لها. وللمزيد حول هذه المسألة يُنظر: أحمد بن عبدالعزيز القصير، عقيدة الصوفية وحدة الوجود الخفية، مكتبة الرشد-الرياض، ط١، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م، ص٢٢٩-٢٥٠.

(٢) يُنظر في تفصيل تعارض وحدة الوجود مع التوحيد بأقسامه الثلاثة (الربوبية، الألوهية، الأسماء والصفات إلى كتاب «عقيدة الصوفية وحدة الوحود الخفية»، ص٤٠٣-٤٣٢، وقد آثرت الإشارة هنا دون التفصيل رغبة في الاختصار، ولظهور بطلان وتعارض هذه العقيدة مع توحيد الله تعالى.

(٣) كلام أساطين التصوف في تصحيح العقائد والأديان كثير وظاهر، وقد ارتأيت الاستشهاد به في مواضع أخرى قادمة، بإذن الله.

بشمول العقيدة ووحدة الأديان»[1].

وقد مضى في الفصل الأول قول المستشرق «جولد تسيهر»: «ومهما تظاهر الصوفيون بتقدير الإسلام السني تقديراً عالياً، فلغالبيتهم نزعة مشتركة إلى محو الحدود التي تفصل بين العقائد والأديان، وعندهم أن هذه العقائد كلها لها نفس القيمة النسبية إزاء الغاية المثلى التي ينبغي الوصول إليها، كما أن هذه الأديان جميعاً تتجرد عن هذه القيمة إذا لم تنتج المحبة الإلهية، وهذه المحبة هي التي يمكن أن تعتبر مقياساً موحداً ثابتاً لتقدير الأديان»[2]. وكذلك قول المستشرق «نيكلسون»: «وقد لزم عن القول بوحدة الوجود، أي القول بأن كل وجود وكل فكر وعمل هو في الحقيقة لله، لوازم لم يتحرج الصوفية من التسليم بها»[3].

ويقول الدكتور لطف الله خوجه :«فمن جهة التضمن، فالتصوف الحقيقي يتضمن وحدة الأديان، لا يصح بدونه، ومن جهة اللزوم، فوحدة الأديان تلزم التصوف لزوماً لا ينفك البتة، فحقيقة العلاقة، والوصف الأدق لها هو التضمن؛ إذ اللزوم يحتمل التخلف، فليس كل لازم بمتحقق في الواقع؛ ولذا يحتاج لتأكيد تحقيقه الاستعانة بشرط عدم الانفكاك، بينما التضمن لا يحتاج إلى شرط، هو نفسه كاف، فليس له إلا احتمال واحد وهو: التحقق، إذن التعبير الأحسن، والموافق للحقيقة، هو أن يقال: التصوف يتضمن الوحدة، لا كما فعل المستشرق «نيكلسون»، لما استعمل تعبير اللزوم؛ لأنه إذا أمكن استعمال لفظ يحقق المعنى من دون الحاجة إلى الشرط فهو أولى»[4]. ويقول أيضاً:«وهكذا نرى فكرة وحدة الوجود تقرر: أن الجميع يعبد الإله الحق، مهما اختلفت المعبودات، والديانات، ولو تناقضت، وهذه هي وحدة الأديان، وبهذا ندرك أن وحدة الوجود

---

(١) سعيد محمد معلوي، وحدة الأديان في عقائد الصوفية، مكتبة الرشد-الرياض، ط١، ١٤٣٢هـ-٢٠١١م، ص٢٨٧

(٢) جولد تسيهر، العقيدة والشريعة في الإسلام، ص١٧٠

(٣) نيكلسون، في التصوف الإسلامي وتاريخه، ص٨٨

(٤) لطف الله خوجه، وحدة الأديان في تأصيلات التصوف وتقريرات المتصوفة (بحث محكَّم ومطبوع)، ط١، ١٤٣٢هـ-٢٠١١م، ص١٠-١١

متضمنة لوحدة الأديان، وندرك انتفاء تقسيم الناس في ظل هذه الفكرة؛ لأن الكل عين واحدة، فمن عبد شيئاً فإنما عبد الله وحده، فعابد الشجر، والقمر، والبقر، والبشر، إنما عبدالله، وما توجه إلى سواه»[1]، وهنا نتساءل: أي ولاء وبراء وحب في الله وبغض في الله يمكن أن يستقيم في التصوف بعد تصحيح الأديان كلها، والنظر إليها على أنها كلها طرق متعددة إلى غاية واحدة؟! فالصوفي -كما يقول عبدالرحمن بدوي-: «الأديان عنده متساوية لأن الوجود واحد، والوجود هو الله؛ فكلها إذن من الله، وبالنسبة إلى الله تنتفي كل تفرقة»[2]، تعالى الله عما يقولون!.

وبعد، فهذه الجوانب الستة إنما هي على سبيل التمثيل لا الاستقصاء[3]، وبها يتبين بعد التصوف عن تحقيق مفهوم الولاء والبراء، ليس هذا وحسب؛ وإنما تسويغه للطوام المضادة لتوحيد الله وإفراده بالعبادة.

وهذه الطوام وإن تحقق بها أساطين التصوف -قديماً وحديثاً-، ودعوا إليها صراحةً وكنايةً وتلميحاً وتعريضاً، إلا أن عامة الاتباع في التحقق درجات، وقد أشرت إلي هذا الأمر في مواطن سابقة؛ ولكن الذي يمكن ملاحظته بسهوله هو مدى تأثير هذه العقائد على المتصوفة الأتباع، وإليك هذه الشهادة من الشيخ فريد الدين آيدن وهو من خَبرَ النقشبندية قبل أن يَمُن الله عليه بالتوبة، إذ يقول: «منطق الإنسان النقشبندي يسمح له بالتعاون مع كل من يصدّقه على أساطيره وعقائده إلى حدود بعيدة، ولو كان يهودياً أو نصرانياً، ويضيق صدره عن كل من يكذب أساطيره ويرشده إلى توحيد الله وإن كان حنيفاً مسلماً، لذا يرفض الرجل النقشبندي على الإطلاق أن يتعاون مع أي إنسان لا يعتقد بمعتقداته المرسومة في طريقته، وإذا شاركه في عمله لا يُخلص له أبداً، بل يضمر له البغض ويستقذره، ويتربص فرصة الإيقاع به متى سنحت له، وإن كان ذلك الإنسان من أتقى الناس وأعلمهم وأفضلهم سلوكاً وأحسنهم أخلاقاً، ولكن الرجل النقشبندي لا يقصّر في

---

(١) المرجع نفسه، ص٢٣

(٢) عبدالرحمن بدوي، شطحات الصوفية، ص١٦

(٣) تركت إيراد جوانب أخرى يتناقض فيها التصوف مع الولاء والبراء، لأنه سيأتي ذكرها في المباحث الآتية من هذه الدراسة، وبخاصة في المبحثين التاليين.

التعاون مع أي شخص يتظاهر له بالتصديق على كرامات شيخه والتعظيم له، والموافقة على معتقداته وممارساته لآداب طريقته، وإن كان ذلك الشخص ملحداً دهرياً أو مشركاً! ولهذا لم يتخلف النقشبنديون -على الأقل- عن التحيّز إلى الفئة المتغلبة، وعن العمالة للنظام الحاكم، واتخاذ الموقف المضاد من أهل التوحيد الحنفاء، بل قد شاركوا العلمانية في مواقف عديدة وبصورة فعلية ضدّ المؤمنين الحنفاء، وإن اقتصر ذلك على إبداء الرأي غالباً»[1].

ويقول الدكتور خليل اينالجيك في تأريخه للدولة العثمانية: «لقد لعبت البكتاشية دوراً كبيراً في انتشار الإسلام بين السكان المسيحيين البلقان، فقد أدّت الطبيعة الانتقائية والمميزات الخاصة لهذه الطريقة الشعبية إلى أن يكون الإسلام مقبولاً أكثر بالنسبة إلى الفلاحين في البلقان، فقد كانت تنظر بتسامح إلى كل الأديان، وكانت تعطي الأهمية للجوانب الداخلية على المظاهر الخارجية، ولم تلح على تأدية بعض الشعائر كالصلاة والصوم ولم تحظر شرب الخمر، كما أنها لم تمنع النساء من الخروج دون حجاب والاختلاط مع الرجال في المجتمع، وقد لعبت الدعوة الناجحة التي يقوم بها آباء البكتاشية دورها في جذب المسيحيين إلى هذه الطريقة الغريبة والديمقراطية في آن واحد، التي كانت بالنسبة لهم لا تختلف كثيراً عن المسيحية»[2].

والواقع الذي نعيشه اليوم يشهد بهذا البعد الكبير بين مفهوم الولاء والبراء وبين ممارسة الصوفية، وسيأتي في الفصل الرابع -بإذن الله- مزيد بيان بالأمثلة والشواهد لهذا البعد، وبالله التوفيق.

وخلاصة هذا المبحث أن الولاء والبراء شأنه عظيم في الإسلام، إذ لا يستقيم إسلام المرء إلا بشهادة أن لا إله إلا الله، وتحقيق هذه الشهادة العظيمة -كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية-: «يقتضي أن لا يحب إلا الله

---

(١) فريد الدين آيدن، الطريقة النقشبندية بين ماضيها وحاضرها، ص٣٨٥-٣٨٦

(٢) خليل اينالجيك، تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار، ترجمة: محمد الأرناؤوط، دار المدار الإسلامي-بيروت، ط١، ٢٠٠٢م، ص٢٩٧-٢٩٨

ولا يبغض إلا لله، ولا يوالي إلا لله، ولا يعادي إلا لله، وأن يحب ما يحبه الله ويبغض ما أبغضه، ويأمر بما أمر الله به، وينهى عما نهى الله عنه»[1].

وقد رأينا فيما مضى مدى الارتباط الكبير بين انتشار التصوف بين المسلمين في هذه القرون المتأخرة وبين تراجعهم دينياً وحضارياً، وما ذاك إلا لتَضمُّنه ما يُناقض عقيدة الولاء والبراء، فَضَعُفَ الولاء والبراء في نفوس المسلمين تبعاً لبعدهم عن نور الاقتداء، فانتشرت البدع وفشا الظلم بين المسلمين دونما نكير، وتكالب العدو البعيد دونما نفير، وأصبح ولاء المسلم ومحبته لمن يوافقه ولا ينكر عليه زلاته وشطحاته، وإن كان كافراً، وبراؤه وعداوته لمن يُنكر عليه بُعد حاله عن هدي النبوة وحال السلف الصالح، وإن كان مؤمناً صالحاً!

وعليه فلا استقامة لحال المجتمع المسلم في دينه، ولا خروج للأمة من كبوتها الحضارية الحالية إلا بإقامة الإسلام كما أقامه نبينا ﷺ وصحبه الكرام ﷺ؛ ذلك الإسلام المتضمن لأوثق عرى الإيمان، الحب في الله والبغض في الله.

(١) مجموع الفتاوى، ٨/ ٣٣٧

المبحث الرابع

موقف الصوفية من الجهاد، ونقده

المطلب الأول: منزلة الجهاد وأهمية في حفظ الإسلام والمسلمين

حينما يُطلق لفظ الجهاد ينصرف المراد منه إلى القتال في سبيل الله، ويطلق أيضاً على غير القتال في سبيل؛ كجهاد النفس، وجهاد الشيطان، وجهاد المنافقين بالحجة والبيان[1]، وغير ذلك مما يدخل في معنى بذل الوسع والطاقة والمجهود، والتي هي مدار المعنى اللغوى للجهاد[2]، وفي مثل هذا المعنى العام للجهاد والذي يدخل فيه القتال في سبيل الله وغيره يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «فجعل الله لأهل محبته علامتين: اتباع الرسول؛ والجهاد في سبيله. وذلك لأن الجهاد حقيقته الاجتهاد في حصول ما يحبه الله من الإيمان والعمل الصالح؛ ومن دفع ما يبغضه الله من الكفر والفسوق والعصيان»[3]، ويقول أيضاً: «والجهاد هو بذل الوسع والقدرة في حصول محبوب الحقِّ، ودفعُ ما يكرهه الحقُّ»[4].

والجهاد -بمعناه العام- أمر الله به نبيه الكريم من حين أن بعثه؛ قال جل في علاه: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان:٥١-٥٢] ، يقول ابن القيم عن هذه الآيات: «فهذه سورة مكية أُمر فيها بجهاد الكفار، بالحجة، والبيان، وتبليغ القرآن»[5].

وأما الجهاد بمعنى القتال في سبيل الله فهو مقصد الحديث ومعقد النظر في هذا المبحث، وهو فريضة الله على عباده المؤمنين كما قال سبحانه وتعالى:

---

(١) قسّم ابن القيم -رحمه الله- الجهاد إلى أربعة مراتب: جهاد النفس، وجهاد الشيطان، وجهاد الكفار، وجهاد المنافقين. يُنظر: ابن القيم، زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وعبدالقادر الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ط٢٦، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م، ٣/ ٩-١٢

(٢) يُنظر: محمد بن أبي بكر الرازي، مختار الصحاح، مادة «جهد»؛ وابن منظور، لسان العرب، مادة «جهد»؛ ومجد الدين الفيروزآبادي، القاموس المحيط، مادة «الجهد».

(٣) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ١٠/ ١٩١

(٤) المرجع نفسه، ١٠-١٩٢-١٩٣

(٥) ابن القيم، زاد المعاد، ٣/ ٥

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]، وهو ذروة سنام الإسلام كما أخبر بذلك الصادق المصدوق، إذ يقول ﷺ: «أما رأس الأمر فالإسلام، وأما عموده فالصلاة، وأما ذروة سنامه فالجهاد»[١].

ويقول ابن القيم: «وأما الجهاد فناهيك به من عبادة هي سنام العبادات وذروتها، وهو المحك والدليل المفرِّق بين المحُب والمُدعي؛ فالمحب قد بذل مهجته وماله لربه وإلهه، متقرباً إليه ببذل أعز ما بحضرته، يود لو أن له بكل شعرة نفساً يبذلها في حبه ومرضاته»[٢].

وهو من أعظم القربات إلى الله وأجلِّها، ففي صحيح البخاري عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: (رباطُ يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها)[٣]. وفي صحيح مسلم عن سلمان الفارسي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (رباطُ يوم وليلة خيرٌ من صيام شهر وقيامه)[٤].

وفي شرح فضل الجهاد وأهميته يقول الشيخ عبدالرزاق البدر: «الجهاد في سبيل الله من أهمِّ المطالب الشرعية، ومن أجلِّ القربات، وقد عُني به العلماء عناية فائقة في القديم والحديث، وخصَّه بعضُهم بمصنفات مفردة زادت على الثلاثين كتاباً، مثل الجهاد لابن المبارك، والجهاد لابن أبي عاصم، والجهاد لابن عساكر، وفضل الجهاد لعبدالغني المقدسي، والاجتهاد في طلب الجهاد لابن كثير[٥]، ولا يوجد كتاب من الكتب

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، في كتاب الجهاد، من حديث معاذ بن جبل ﷺ، برقم (٢٤٠٨)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

(٢) محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، دار ابن عفان-الخبر، ط١، ١٤١٦هـ١٩٩٦م، ٢/ ٣٢٤

(٣) صحيح البخاري، باب رباط يوم في سبيل الله رقم (٢٨٩٢).

(٤) صحيح مسلم، باب فضل الرباط في سبيل الله عز وجل رقم (١٩١٣).

(٥) ومن الكتب المعاصرة في شأن الجهاد وأحكامه؛ كتاب: الجهاد في سبيل الله، لكامل سلامة الدقس، والجهاد في سبيل الله حقيقته وغايته، لعبدالله بن أحمد القادري، والجهاد في الإسلام مفهومه وضوابطه وأنواعه وأهدافه لعبدالسلام السحيمي، وغيرها كثير.

الجامعة لمسائل الفقه أو أحاديث الأحكام إلاَّ ويشتمل على موضوع الجهاد، وبيان أحكامه، وإيراد الآيات البيِّنات، والحجج النيِّرات في ذلك من كلام الله تعالى، وكلام رسوله ﷺ»[1].

ويقول سماحة الشيخ عبدالله بن حميد -رحمه الله- عن الجهاد: «وهذا باب واسع لم يرد في ثواب الأعمال وفضلها مثل ما ورد فيه، ولهذا كان أفضل ما تطوع به الإنسان، وكان باتفاق العلماء أفضل من الحج والعمرة ومن صلاة التطوع، وصوم التطوع -كما دل عليه الكتاب والسنة- وهو ظاهرٌ عند الاعتبار، فإن نفع الجهاد عام لفاعله ولغيره في الدين والدنيا، ومشتملٌ على جميع أنواع العبادات الباطنة والظاهرة، فإنه مشتمل من محبة الله تعالى والإخلاص له، والتوكل عليه وتسليم النفس والمال له، والصبر والزهد وذكر الله وسائر أنواع الأعمال ما لا يشتمل عليه عمل آخر... ولهذا ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (والذي نفسي بيده لولا أن رجالاً من المؤمنين لا تطيب أنفسهم أن يتخلفوا عني، ولا أجد ما أحملهم عليه ما تخلفت عن سرية تغزو في سبيل الله، والذي نفسي بيده لوددت أني أقتلِ في سبيل الله ثم أحيا، ثم أقتل ثم أحيا، ثم أقتل ثم أحيا، ثم اقتل)[2]، ورغَّب إليه صلوات الله وسلامه عليه بسيرته، وثباته وشجاعته، وصبره، وأخبر ما للمجاهدين في سبيل الله من الأجر والثواب العاجل، والآجل، وما يدفع الله به من أصناف الشرور، وما يحصل به من العز والتمكين والرفعة، وجعله ذروة سنام الإسلام، وقال: (إن في الجنة لمائة درجة، ما بين الدرجة والدرجة كما ما بين السماء والأرض أعدها الله للمجاهدين في سبيله)-متفق عليه[3]. وقال: (من اغبرَّت قدماه في سبيل الله حرمه الله على النار).. أخرجه البخاري[4].

(١) عبدالرزاق بن عبدالمحسن البدر، القطوف الجياد من حكم وأحكام الجهاد، دار المغني- الرياض، ط١، ١٤٢٥هـ، ص٣

(٢) صحيح البخاري، باب تمني الشهادة، برقم (٢٧٩٧).

(٣) أخرجه البخاري بلفظ: «إن في الجنة مائة درجة، أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض»، باب درجات المجاهدين في سبيل الله، برقم (٢٧٩٠). وأخرجه مسلم -بلفظ آخر-، باب بيان ما أعده الله للمجاهد في سبيله، برقم (١٨٨٤).

(٤) صحيح البخاري، باب المشي إلى الجمعة برقم (٩٠٧).

(ولما في الصحيحين: أن رجلاً قال: يا رسول الله: أخبرني بشيء يعدل الجهاد في سبيل الله؟ قال لا تستطيع.. قال: أخبرني به؟ قال: هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تصوم لا تفطر وتقوم لا تفتر؟ قال: لا.. قال: فذلك الذي يعدل الجهاد)[1]..»[2].

إلى أن قال -رحمه الله-: «إذا عُرف ذلك، فقد عاتب الله المتخلفين عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، المتثاقلين إلى نعيم الأرض، المتقاعدين عن المبادرة إلى الخروج.. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة :٣٨]. كما ذم التاركين له ووصفهم بالنفاق، ومرض القلوب وتوعد المتخلفين القاعدين بأفظع العقوبات، ورماهم بأبشع النعوت، والصفات، ووبَّخهم على الجبن والقعود، ونعى عليهم الضعف والتخلف، بقوله: ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـًٔاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ [التوبة:٣٩] الآيات بعدها. ولست تجد نظاما قديما، أو حديثاً، دينياً، أو مدنياً عني بشأن الجهاد والجندية، واستنفار الأمة وحشدها كلها صفاً واحداً للجهاد في سبيل الله حتى تكون كلمة الله هي العليا، كما تجد ذلك في دين الإسلام، وتعاليمه»[3].

ولذلك -كما يقول محمد نعيم- فإن «أركان الإيمان كلها تتكاتف في تكوين أعظم الدوافع في القلوب المؤمنة للانطلاق والجهاد، والدفاع والهجوم والتصدي لجميع القوى المعادية»[4].

وبما أن غاية الجهاد هي أن تكون كلمة الله هي العليا فطريق ذلك إما بجهاد الطلب، كما كانت فتوحات المسلمين في صدر الإسلام، وإما بجهاد

---

(١) صحيح البخاري، باب فضل الجهاد والسير، برقم (٢٧٨٥)، وصحيح مسلم، باب فضل الشهادة في سبيل الله، برقم (١٨٧٨).

(٢) عبدالله بن محمد بن حميد، الدعوة إلى الجهاد في القرآن والسنة، دار البخاري-بريدة، ط بدون، ت بدون، ص٢٠-٢٢

(٣) المرجع نفسه، ص٢٣-٢٤

(٤) محمد نعيم يس، أثر الإسلام في تكوين الشخصية الجهادية للفرد والجماعة، دار الأرقم-الكويت، ط١، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م، ص٨

الدفع أي بالدفاع عن بلاد المسلمين من تسلُّط الأعداء وأطماعهم، ولهذا فالحاجة إلى الجهاد لنشر الإسلام وحماية المسلمين باقية ما بقي الإسلام، ولهذا ستبقى الحاجة للجهاد إلى قيام الساعة، ولهذا يقول الإمام الطحاوي: «والحج والجهاد ماضيان مع أولي الأمر من المسلمين، برِّهم وفاجرهم، إلى قيام الساعة، لا يبطلهما شيءٌ ولا يَنقُضهما»[1].

ويقول الدكتور عبدالله القادري: «شرع الله الجهاد لإخراج الناس من الظلمات إلى النور من جهة، ولتكون كلمة الله هي العليا من جهة ثانية، ولحماية المسلمين من أن يُفتنوا في دينهم أو تستباح حرماتهم وتحتل أرضهم من جهة ثالثة، وكل هذه الأمور يجب أن تستمر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ولا يمكن استمرار تحقيقها إلا باستمرار الجهاد في سبيل الله»[2].

وقد حذرنا رسول الله ﷺ من الاشتغال بالدنيا وترك الجهاد في سبيل الله، إذ قال ﷺ: (إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد، سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم)[3]، قال أيضاً: (يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها. فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال: بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعنَّ الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن. فقال قائل: يا رسول الله، وما الوهن؟ قال: حب الدنيا، وكراهية الموت)[4].

قال الشيخ الألباني -رحمه الله-: «هدف هذا الحديث إنما هو تحذير المسلمين من الاستمرار في «حب الدنيا وكراهية الموت»، ويا له من هدف

---

(١) علي بن محمد بن أبي العز الحنفي، شرح العقيدة الطحاوية، تحقيق: شعيب الأرناؤط وعبدالله التركي، مؤسسة الرسالة-بيروت، ط١٠، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م ٢/ ٥٥٥

(٢) عبدالله بن أحمد القادري، الجهاد في سبيل الله حقيقته وغايته، دار المنارة-جدة، ط٢، ١٤١٣هـ-١٩٩٢م، ١/ ١٠٧

(٣) أخرجه أبو داود في سننه، باب النهي عن العينة، برقم (٣٤٦٢)، والبيهقي في السنن الكبرى، باب النهي عن العينة، برقم (١٠٧٠٣)، والحديث صححه الألباني في كتابه صحيح وضعيف سنن أبي داود.

(٤) أخرجه أبو داود في سننه، باب تداعي الأمم على الإسلام، برقم (٤٢٩٧)، والحديث صححه الألباني في كتابه صحيح وضعيف سنن أبي داود.

عظيم لو أن المسلمين تنبهوا له وعملوا بمقتضاه لصاروا سادة الدنيا، ولما رفرفت على أرضهم راية الكفار، ولكن لا بد من هذا الليل أن ينجلي، ليتحقق ما أخبرنا به رسول الله ﷺ في أحاديث كثيرة من أن الإسلام سيعم الدنيا كلها»(١).

ويقول الدكتور نزيه حماد: «ليست قضية الجهاد في الإسلام من الأمور الاختيارية التي يسعُ المسلمين تركَها، ولهم مندوحة في عدم أدائها، ولكنها من قواعد الدين ومتطلباته الحتمية، وهي أساس عزِّ المسلمين ونجاحهم وفوزهم في الحياة الدنيا وفي الآخرة.. ولو أنَّ الأمة الإسلامية تقاعست عن الجهاد، وفضَّلت السلامة، وأخلدت إلى الراحة، وركَنَتْ إلى الدّعة، واستبدلت الجهاد بالقعود والرفاه واجتناء الملذات لسلَّط الله عليها أعداءها، فأذاقوها لباس الذل والهوان والخوف والجوع والبؤس والتشرد»(٢).

وبعد، فما مضى من آيات وأحاديث وكلام لأهل العلم إنما هو غيضٌ من فيض وقطرةٌ من بحر ما ورد في شأن الجهاد في سبيل الله وأهميته والتحذير من عواقب التخلف عنه، إلا أنه ومع هذا الوضوح في شأن منزلة الجهاد وأهميته، والأمر به في كتاب الله ﷻ وسنة نبيه ﷺ، ومع التاريخ الذي يشهد بأن المسلمين لم تكن لهم مكانتهم وهيبتهم بين الأمم إلا حينما كانوا قائمين بأمر الجهاد، فإنه لا ينازع عاقلٌ في أن ترك المسلمين للجهاد في سبيل الله، وركونهم إلى الذين ظلموا أنفسهم من الكفار والمنافقين والعلمانيين، هو أهم أسباب انحطاط شأن المسلمين في هذه القرون المتأخرة، وتكالب الأعداء على أراضيهم؛ احتلالاً لها، وإذلالاً لأهلها، وإقصاءً لشرع الله، وإلى الله المشتكى.

والسؤال الذي يتبادر هنا: ما الذي جعل المسلمين يفرطون في الجهاد

---

(١) مجلة التمدن الإسلامي، مقال للشيخ الألباني حول حديث: «يوشك أن تداعى عليكم الأمم»، العدد ٢٤، ص٤٢١-٤٢٦، وأعيد نشر المقال في موقع الشيخ الألباني الإليكتروني الرابط: http://www.alalbany.net/4903

(٢) مقدمة تحقيق كتاب عز الدين بن عبدالسلام، أحكام الجهاد وفضائله، تحقيق: نزيه حماد، دار الوفاء-جدة، ط١، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م، ص٣٥

وهو باب إلى الأجر العظيم في الآخرة، وباب إلى العزة والكرامة في الدنيا؟

إن محاولات الإجابة على هذا السؤال ستبقى قائمة ما بقي حال المسلمين ضعيفاً، على الرغم من أنهم يمتلكون كل أدوات القوة المادية والمعنوية! وسأحاول في المطلب التالي أن أتناول أهم أسباب التفريط في الجهاد والتي هي لصيقة بموضوع هذه الرسالة، وبالله التوفيق وعليه التكلان.

المطلب الثاني : مكانة الجهاد في الفكر الصوفي

تبين فيما مضى من هذه الرسالة كيف أن التصوف انتشر شرقاً وغرباً انتشار رقعة الدولة العثمانية، والتي كانت ترعى التصوف وأربابه مادياً ومعنوياً، وتبين أيضاً كيف أن التصوف في هذه القرون المتأخرة بات قرين التأشعر؛ إذ لا تكاد تجد أشعرياً إلا وهو صوفي، والعكس كذلك، ومن هنا لا يمكن في زماننا هذا مناقشة أي أمر من أمور التصوف إلا ومعتقد الأشاعرة حاضر بين أيدينا، وهذا ما سِرتُ عليه فيما مضى، وما سأسير عليه في هذه المسألة المهمة، وهي موقف التصوف من الجهاد في سبيل الله.

إن المتتبع لمسألة الجهاد في سبيل الله عند المتصوفة؛ عقيدة وممارسة، يُدرك بأن التصوف بعيدٌ كل البعد عن حقيقة الجهاد البيِّنة الواضحة في كلام الله ﷻ وفي كلام وتطبيق رسوله الكريم ﷺ، **وسأورد فيما يلي ثلاثة جوانب في التصوف تتعلق بالجهاد في سبيل لنستبين من خلالها مكانة الجهاد في الفكر الصوفي، وهذه الجوانب هي:**

الجانب الأول، عقائد التصوف والجهاد في سبيل الله:

إذا بحثت في مصنفات المتصوفة عما يتعلق باعتقاد أن الجهاد في سبيل الله هو ذروة سنام الإسلام، وفتشت عن الآيات المُحكَمات والأحاديث البيِّنات في الحث على الجهاد في سبيل الله، وبيان أنه من أجلِّ القربات إلى الله، التي باشرها سيد الأنام ﷺ وصحبه الكرامﷺ بأنفسهم؛ فإنك لن تعثر في الأعم الأغلب على شيءٍ من ذلك! ولن تجد إلا استدلالهم -منذ قرون متطاولة- بحديث منكرٍ لا أصل له وهو: (رجعنا من الجهاد الأكبر إلى

الجهاد الأصغر)[1]! فكما استشهد به السهروردي صاحب «عوارف المعارف» قبل سبعة قرون[2]، فنجد أيضاً أن المتصوفة في يومنا هذا يستشهدون به؛ كالدكتور عمر كامل، ومحمد فتح الله كولن في حديثهما عن مفهوم الجهاد![3]، ولست أجد تفسيراً لتركهم الاستشهاد بالآيات المُحكَمات، والأحاديث البيِّنات، وتمسكهم قرناً بعد قرن بهذا الحديث المنكر إلا لأنه يجعلهم أكثر انسجاماً مع الانحرافات العقدية الأخرى عندهم[4]! فالتقى الانحراف السلوكي عندهم (في الزهد) مع الانحرافات العقدية العديدة عندهم، وأنتجا بُعداً عن الجهاد، وخذلاناً عظيماً في المجتمع المسلم.

---

(١) أورده الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة برقم (٢٤٦٠) وقال عنه: منكر. وقال عنه شيخ الإسلام ابن تيمية: «وأما الحديث الذي يرويه بعضهم أنه قال في غزوة تبوك: رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر فلا أصل له، ولم يروه أحد من أهل المعرفة بأقوال النبي ﷺ». ابن تيمية، الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، تحقيق: عبدالقادر الأرناؤوط، دار البيان-دمشق، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م، ص٥٦

(٢) يُنظر: شهاب الدين أبو حفص عمر السهروردي، عوارف المعارف، المكتبة العلامية-القاهرة، ط بدون، ١٣٥٨هـ-١٩٣٩م، ص٧٧

(٣) يُنظر: محمد فتح الله كولن، روح الجهاد وحقيقته في الإسلام، دار النيل-استنبول، ط٦، ١٤٣١هـ-٢٠١٠م، ص١٤؛ وعمر عبدالله كامل، الإنصاف، ص٧٣١، والملفت في مؤلفه هذا أنه عقد باباً من نحو أربعين صفحة بعنوان «الجهاد وحقوق غير المسلمين» ولم يورد فيه آية واحدة أو حديثاً واحداً مما ورد في شأن الجهاد في سبيل الله! ناهيك عن الطوام الأخرى التي أوردها؛ كتسمية جهاد الكفار بالعنف المسلح المشروع! وزعمه أن أهل الأرض اليوم يجري عليهم حكم المعاهدين وذلك -بزعمه- لوجود التمثيل الدبلوماسي المتبادل، والاشتراك في هيئة الأمم المتحدة! إلى غير ذلك من الجهالات والضلالات!. يُنظر عمر كامل، الإنصاف، ٧٠٩-٧٤٤

(٤) ومن يعدل منهم عن الاستشهاد بهذا الحديث المنكر -كمحمد سعيد البوطي- فإنه يُجهِد نفسه في تقرير أن الدعوة إلى الله هي الجهاد الأعظم، وما القتال منها إلا كمنزلة الأغصان (التي تجيء وتذهب) من الجذع الراسخ! ويا ليت البوطي التفت إلى النصوص الشرعية في شأن منزلة القتال في سبيل الله، وأهميته في نشر لا إله إلا الله والدفاع عنها، وأعرض عن هذا التخريج العقلي الغريب، ويا ليته فهم لفظ «الجهاد» كما فهمه سلفنا الصالح -رحمهم الله-، ومنهم الإمام النووي -رحمه الله-، والذي بوَّب له في كتابه القيِّم «رياض الصالحين» بعنوان (باب فضل الجهاد)، وسرد تحته الكثير من الآيات والأحاديث في فضل القتال في سبيل الله ومنزلته. يُنظر: أبو زكريا يحيى بن شرف النووي، رياض الصالحين، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة-بيروت، ط٣، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م، ص٣٦٩-٣٨٢؛ ومحمد سعيد البوطي، الجهاد في سبيل الله كيف نفهمه؟ وكيف نمارسه؟، دار الفكر-دمشق، ط٨، ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م، ص١٩-٢٢

ومن تلك الانحرافات العقدية التي أدت بالمتصوفة إلى ترك الجهاد في سبيل الله ما يلي:

أولاً: انحرافهم في مسألة الإيمان القدر، الأمر الذي آل بهم إلى القول بالجبر عبر نظرية الكسب التي ابتدعوها[1]، يقول الشيخ سفر الحوالي أثناء حديثه عن القدر عند الأشاعرة: «أراد الأشاعرة هنا أن يوفقوا بين الجبرية والقدرية فجاءوا بنظرية الكسب وهي في مآلها جبرية خالصة، لأنها تنفي أي قدرة للعبد أو تأثير، أما حقيقتها النظرية الفلسفية فقد عجز الأشاعرة أنفسهم عن فهمها فضلاً عن إفهامها لغيرهم،.. ولهذا قال الرازي الذي عجز هو الآخر عن فهمها: «إن الإنسان مجبور في صورة مختار»»[2].

ويقول الدكتور أنور الجندي: «الحركة الصوفية لم تلبث أن انحرفت عن مفهومها الأصيل حين دخلت عليها مفاهيم فلسفية هندية ويونانية، قتلت فيها روح الجهاد والمقاومة، وأسلمتها إلى التواكل والجبرية، هذه هي الصوفية التي قاومها ابن تيمية، ثم قاومها محمد بن عبدالوهاب في العصر الحديث بعد أن تركت آثارها البعيدة المدى في المجتمع العثماني في العصور الأخيرة»[3].

ويقول الدكتور خالد الغامدي: «أما باب الجهاد: فموقف الصوفية منه لا يخفى؛ فقد أثر مذهبهم الذي يجمع بين الصوفية والجبر والإرجاء[4] على سير الجهاد ونصرة الكفار والأعداء والله المستعان وعليه التكلان»[5]، ويقول الشيخ بكر أبو زيد -رحمه الله- معلقاً على من يقولون بالجبر

---

(١) ذهب الباحث علي العمري إلى أن متقدمي المتصوفة؛ كالطوسي والقشيري ظهر عنهم أقوال ظاهرها الجبر، ثم ظهرت بعد ذلك «نظرية الكسب»، والتي أكدها الكلاباذي والغزالي، وأما أهل التصوف الفلسفي وعلى رأسهم ابن عربي فقالوا بالجبر المطلق. يُنظر: علي محمود العمري، القدر في الفكر الصوفي، دار الفتح -عمّان، ط١، ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م، ص١٢٥-١٢٧

(٢) سفر الحوالي، منهج الأشاعرة في العقيدة، نشر الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ط بدون، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م، ص٨٢-٨٣

(٣) أنور الجندي، العالم الإسلامي والاستعمار السياسي والاجتماعي والثقافي، دار الكتاب اللبناني، ط٢، ١٩٨٣م، ص٣٠٤

(٤) مضى أيضاً في المبحث الثاني كيف أن اعتقادهم الإرجاء كسر الحواجز بينهم وبين العلمانية والحكم بغير ما أنزل الله.

(٥) خالد الغامدي، نقض عقائد الأشاعرة والماتريدية، ص٥٥٥

ويتبنَّون الإرجاء: «وهو مذهب رديء، وما علمت له مثلاً -بإسقاط الأمة على أم رأسها»[1].

ثانيـًا: انحرافهم في مفهوم الرضا بالقضاء، ومن كلامهم في ذلك -على سبيل المثال- ما نقله القشيري في باب الرضا كقوله: «سُئِلت رابعة متى يكون العبد راضيـًا؟ فقالت إذا سرَّته المصيبة كما سرَّته النعمة»[2]، ونقل بالسند عن ذي النون المصري قوله: «ثلاثة من أعلام الرضا: ترك الاختيار قبل القضا، وفقدان المرارة بعد القضاء، وهيجان الحب في حشو البلاء»[3]، وينقل أيضـًا: «قال الجنيد: الرضا رفع الاختيار، وقال ابن عطاء: الرضا نظر القلب إلى قديم اختيار الله تعالى للعبد وهو ترك التسخط، وقال رويم: الرضا استقبال الأحكام بالفرح، وقال المحاسبي: الرضا سكون القلب تحت مجاري الأحكام»[4]!.

وقد نتج عن الكلام وأمثاله الانحراف في معنى الرضا بقدر الله، فاستسلم المسلمون لما حلَّ بهم من مصائب، وتركوا مدافعهتا، ظنـًا منهم أن ذلك من تمام الرضا بقضاء الله، والله المستعان.

وأما أهل السنة والجماعة فلا يرون تعارض بين الرضا بقضاء الله وبين السعي في تحصيل ما ينفع ودفع ما يضر، فكلاهما أيضـًا بقدر الله ﷻ، والرضا مُتصورٌ من المؤمن في كل أحواله؛ يقول الدكتور سالم القرني: «الرضا بالقضاء هو اليقين القلبي المؤثر في السلوك، الداعي إلى عدم الركون إلى الظلم وأهله، والدافع إلى استرضاء الرب -سبحانه- بالأعمال الصالحة، واحتمال الفقر، والدون من المعيشة، والقناعة باليسير، وسكون القلب إلى فعل الله، وحمده على ما قضاه»[5]، ويضيف ويضيف بأن: «حقيقة الرضا هي: لزوم ما قضاه الله وقدره، وذلك بفعل

---

(١) بكر أبو زيد، حكم الانتماء، ص٩٥

(٢) عبدالكريم بن هوازن القشيري، الرسالة القشيرية، تحقيق: عبدالحليم محمود ومحمود بن الشريف، دارالمعارف- القاهرة، ٢/ ٣٤٣

(٣) المرجع نفسه، ٢/ ٣٤٤

(٤) المرجع نفسه، ٢/ ٣٤٤

(٥) سالم بن محمد القرني، الرضا بالقضاء، بحث منشور بمجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها، المجلد (١٣)، العدد (٢١)، رمضان ١٤٢١هـ/ ديسمبر ٢٠٠٠م.

الأسباب المأمور بها، فلا يتحقق الرضا إلاَّ بذلك»[1].

ثالثًا: انحرافهم في فهم التوكل، وهو نتيجة طبيعية للانحرافين السابقين، إذ كيف يجتمع عندهم -على سبيل المثال- بذل سببٍ لدفع مصيبة ما مع قولهم بالجبر في القدر، والرضا به، ولذا فمن تمام الرضا عندهم التواكل وترك بذل الاسباب! يقول ابن الجوزي -رحمه الله- وهو يُفنِّد فهم الصوفية للتوكل: «قلة العلم أوجبت هذا التخليط، ولو عرفوا ماهية التوكل لعلموا أنه ليس بينه وبين الأسباب تضاد، وذلك أن التوكل اعتماد القلب على الوكيل وحده وذلك لا يناقض حركة البدن في التعلق بالأسباب»[2].

ويقول الإمام النووي -رحمه الله- وهو يشرح الأحاديث الواردة في القدر: «وفي هذه الأحاديث النهي عن ترك العمل والاتكال على ما سبق به القدر بل تجب الأعمال والتكاليف التي ورد الشرع بها وكلٌ ميسَّرٌ لما خلق له لا يقدر على غيره، ومن كان من أهل السعادة يسَّره الله لعمل السعادة، ومن كان من أهل الشقاوة يسَّره الله لعمَلهم؛ كما قال: فسنيسره لليسرى وللعسرى، وكما صرحت به هذه الأحاديث»[3].

ويقول الشيخ محمد قطب في حديثه عن تعليم الله للجيل الأول حقيقة التوكل: «وكان يعلمهم: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾ [آل عمران:١٧٢-١٧٣] ، فيتعلمون أن وقوع قدر الله بالهزيمة ليس معناه الاستسلام للهزيمة والقعود فيها بحجة أنها قدر من عند الله، إنما معناها السعي الإيجابي لتغيير هذا الواقع مع التوكل على الله، رجاء تغيير القدر الأول بقدر جديد. وبذلك كله كانت عقيدة القدر في حياة المسلمين الأوائل قوة دافعة محركة إلى الأمام، ولكن تواكل الصوفية حولّها إلى غير ذلك.. قعوداً عن الأخذ بالأسباب بحجة أن «ما لك سوف يأتيك»! وتخلياً عن

---

(١) المرجع نفسه.
(٢) ابن الجوزي، تلبيس إبليس، ص٢٤٨
(٣) أبو زكريا يحيى بن شرف النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، دار إحياء التراث العربي-بيروت، ط٢، ١٣٩٢هـ، ٨/ ١٩٦-١٩٧

مسئولية الإنسان بحجة أن ما وقع منه قد وقع بقدر من الله! وقعوداً عن تغيير الواقع السيئ من مرض أو عجز أو فقر أو ذل أو ضيم بحجة أنه ما حدث إلا بقدر من الله ولو شاء الله غير ذلك لكان»[1].

ويقول الدكتور علي العلياني: «إن عقيدة الصوفية المنحرفة في التوكل والرضا بالقدر جعلت نفوسهم راضية مطمئنة ولو وطئ الكفار على رقابهم، فإن التوكل عندهم عدم ممارسة الأسباب، والرضا معناه أن ترضى بما يحصل لك ولو هو استيلاء الكفار على بلاد المسلمين وسبي ذراريهم، وإن أبديت مقاومة فأنت معارض للقدر! وغير متوكل على الله!»[2].

رابعًا: قولهم بالإرجاء، وسبق في المبحثين السابقين بيان علاقة القول بالإرجاء بانتشار العلمانية في العالم الإسلامي، وكذلك علاقته بضعف أو ذهاب مفهوم الولاء والبراء، وها هو الإرجاء يَرِد أيضًا في هذا الموضع كأداة من أدوات إضعاف الجهاد، وإذهاب روح مقاومة الباطل من نفس المسلم، والذي بات بسبب الإرجاء لا يفرق بين مؤمن ولا كافر، حيث يرى أن ذلك المجاهر بالكفر قد يكون مؤمنًا بقلبه! فكيف يجاهده؟! لا سيما إذا رأى أيضًا ذلك المسلم العاميّ علماء الإرجاء يوالون الكفار ومن حادَّ الله ورسوله، ويدعون الناس إلى طاعتهم، فأنَّى لجهادٍ بسيفٍ أو لسانٍ أو قلمٍ أن ينهض والحالة هذه!

ورحم الله ابن القيِّم إذ يقول نونيَّته:

وكــذلك الإرجــاءُ حــينَ تُقِــرُّ بالمــ	ــمعبُودِ تُصــبِحُ كامِــلَ الإيمــانِ
فَارْمِ المصاحِفَ في الحُشُوشِ وَخرِّب الـ	ـبيْتَ العَتِيــقَ وَجِــدَّ في العِصْــيَانِ
واقْتُــلْ إذا مــا اسْــطَعتَ كُــلَّ مُوَحِّــدٍ	وَتَمَسَّــحَنْ بِــالقَسِّ والصُّــلْبَانِ
واشْــتُمْ جميــعَ المرْسَــلِينَ وَمَــنْ أَتَــوْا	مِــنْ عِنْــدِهِ جَهْــراً بِــلا كِتْمَــانِ
وإذا رأيــتَ حِجَــارةً فاسْــجُدْ لهــا	بَــلْ خِــرَّ لِلأصْــنَامِ والأوْثَــانِ

(١) محمد قطب، واقعنا المعاصر، دار الشروق، القاهرة، ط١، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م، ص١٣٤-١٣٥

(٢) علي بن نفيع العلياني، أهمية الجهاد في نشر الدعوة الإسلامية والرد على الطوائف الضالة فيه، فيه، دار طيبة للنشر والتوزيع-الرياض، ط٢، ١٤١٦هـ-١٩٩٥م، ص٤٨٨

وأقِـــــرَّ أنَّ الله جَـــــلَّ جَلالُــــــهُ	هـــو وَحْـــدَهُ البـارِي لِـذِي الأكْـوَانِ
وأقِـــرَّ أنَّ رَسُـــولَهُ حَقَّـــاً أتَـــى	مِـــنْ عِنْـــدِهِ بــالوَحْيِ والقُـــرآنِ
فَتَكُـــونَ حَقَّـــاً مُؤْمِنـــاً وَجِميـــعُ ذَا	وِزْرٌ عَلَيـــكَ وَلَـــيسَ بـــالكُفْرَانِ
هـــذا هـــو الإرجَـــاءُ عِنـــدَ غُلاتِهِـــمْ	مِنْ كُلِّ جَهْمِيٍّ أخِـــي الشَّيْطَانِ[1]

خامساً: قولهم بوحدة الوجود، ووحدة الوجود -كما بيَّنت في المبحث السابق- متضمنة للقول بوحدة الأديان، الأمر الذي يُنتج موالاة الكفار وترك مجاهدتهم[2]، ويؤكد الدكتور لطف الله خوجة أن مذهب الجبر، وكذا وحدة الوجود وما نتج عنها من تقريرٍ لفكرة وحدة الأديان أثَّر في موقف الصوفية من الجهاد[3].

والمحصلة في هذا الجانب أن القول بالجبر حال بين المتصوفة وبين الجزم بتخطئة المعتدين على الإسلام والمسلمين، لأن ذلك -بزعمهم- فيه اعتراض على قدر الله! وأن انحرافهم في فهم الرضا بالقدر أورثهم الرضا بالظلم وتسلط الأعداء وترك مدافعتهم! الأمر الذي أحال أيضاً منزلة التوكل على الله عندهم إلى تواكلٍ وتركٍ لبذل الأسباب الشرعية؛ هذا بالإضافة إلى أن قولهم بالإرجاء أفضىً إلى مساواتهم بين المؤمن والفاسق والكافر والضال! ثم أتت طامة وحدة الوجود، لتجعل من الصوفي شخصاً محباً لجميع أديان الأرض وأهلها!

وبناءً على هذا الواقع العقدي لدى التصوف فأيُّ جهاد يمكن أن يقوم به الصوفي؟ وضد من؟!

هذه الانحرافات العقدية المضادة للجهاد لدى الصوفية، والمخذلة عن مدافعة ظلم الكفار وبغيهم، انتظمت مع ما سيأتي من انحرافهم السلوكي في التعبد، الواقع منهم تحت ستار الزهد.

---

(١) ابن القيم، الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية، دار عالم الفوائد-مكة المكرمة، ط١، ١٤٢٨هـ، ص: ١٤٨

(٢) يُنظر: محمد أحمد لوح، تقديس الأشخاص في الفكر الصوفي، ١/ ٥٦٧-٥٧٢

(٣) يُنظر: لطف الله خوجه ، وحدة الأديان في تأصيلات التصوف وتقريرات المتصوفة، ص٨٨-٨٩

الجانب الثاني، السلوك الصوفي والجهاد في سبيل الله:

إن السلوك (الزهدي) في التصوف يتعارض بداهةً مع الجهاد في سبيل الله، يقول الإمام الشافعي -رحمه الله-: «أُسِّس التصوفُ على الكسل»[1]، فكيف يجتمع الكسل مع بذل الوسع والطاقة في ساحات الوغى؟! وكيف يجتمع النداء إلى ترك الدنيا معنوياً والخلوة في الزوايا والتكايا حسياً، وإجهاد النفس وتجويعها، كيف يجتمع هذا مع الأمر الشرعي البيِّن بإعداد القوة، والجهاد، والرباط في الثغور، وتغبير الأقدام في سبيل الله لإعلاء كلمة الله في الأرض؟!!.

يذكر السهروردي في «عوارف المعارف» أنه: «قيل إن بعض الصالحين كتب إلى أخ له يستدعيه إلى الغزو فكتب إليه يا أخي كل الثغور مجتمعة لي في بيت واحد والباب علي مردود، فكتب إليه أخوه لو كان الناس كلهم لزموا ما لزمته اختلت أمور المسلمين وغلب الكفار فلابد من الغزو والجهاد. فكتب إليه: يا أخي لو لزم الناس ما أنا عليه وقالوا في زواياهم على سجادتهم الله أكبر انهدم سور قسطنطينية»[2]!.

ويقول الدكتور مصطفى حلمي: « المناهج المتعددة التي سلكها هؤلاء [أي الصوفية] في المعرفة، وسلوكهم طرق الأحوال والمقامات، وحرصهم على نبذ الحياة والعزلة عنها، كل هذا أدى إلى إقامة مبادئ أخلاقية -كما هو مشاهد عند الغزالي مثلاً- ولكنهم من ناحية أخرى افتقدوا بمناهجهم أحد مقومات الإسلام الإيجابية، ونعني به الجهاد»[3]، ويقول الدكتور صابر طعيمة في حديثه عن التصوف: «لا يقر الإسلام عقيدة الجبرية ولا فكر الزهد.. بمعنى السلبية والانقطاع عن الجهاد والعمل. فإن الإسلام يدعو إلى بناء الإرادة والكسب وينكر الانصراف عن الدنيا»[4].

---

(١) نقلاً عن: أبو نعيم أحمد بن عبدالله الأصبهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار السعادة- مصر، ط بدون، ١٣٩٤هـ-١٩٧٤م، ٩/ ١٣٦-١٣٧

(٢) السهروردي، عوارف المعارف، ص٧٧

(٣) مصطفى حلمي، أعمال القلوب بين الصوفية وعلماء أهل السنة، دار الدعوة-الإسكندرية، ط بدون، ت بدون، ص٧٤، وما بين الحاصرتين من الباحث.

(٤) صابر طعيمة، التصوف والتفلسف، الوسائل والغايات، مكتبة مدبولي-القاهرة، ط١، ٢٠٠٥م، ص٩٧

ويقول الشيخ محمد قطب: «ومع الصوفية كذلك ينشأ القعود عن تعمير الأرض، بحجة أن الدنيا ملعونة، والمعول عليه هو الآخرة! وأن الإنسان حَسْبُه في هذه الدنيا عيشة الكفاف، لكي ينجو بروحه من التعلق بالدنيا، ولكي يتفرغ لتزكية روحه استعداداً للآخرة!»[1].

وهكذا أدى انحراف الصوفية في سلوكهم الزهدي البدعي إلى خمولهم وركونهم إلى الراحه، وتركهم للجهاد في سبيل الله، متسقين في ظاهرهم مع ما يؤمنون به من عقائد مخالفة لمنهج أهل السنة والجماعة[2].

الجانب الثالث: واقع المتصوفة والجهاد في سبيل الله:

وأما الواقع الصوفي فإنه يشهد أيضاً على أن الأصل هو عزوف المتصوفة عن الجهاد في سبيل الله وتركه، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية عن أصحاب السماع الصوفي: «وأما الجهاد فالغالب عليهم أنهم أبعد عنه من غيرهم، حتى نجد في عوام المؤمنين: من الحب للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمحبة والتعظيم لأمر الله والغضب والغيرة لمحارم الله، وقوة المحبة والموالاة لأولياء الله، وقوة البغض والعداوة لأعداء الله ما لا يوجد فيهم، بل يوجد ضد ذلك»[3]، وصدق شيخ الإسلام -رحمه الله- في ذلك، فبينما نعايش هذه الأيام محنة أهلنا في سوريا، وجهادهم ضد الطاغية النصيري «بشار الأسد» يخرج بعض متصوفة سوريا من بلادهم لإحياء حفلات السماع والموالد البدعية خارج سوريا!! تاركين الجهاد والرباط وراء ظهورهم، وكأن ما يجري فوق أرضهم وضد أهلهم لا يعنيهم في شيء[4]!، ويؤكد الباحث محمد أبو رمان أن الملاحظة العامة والواضحة

---

(١) محمد قطب، واقعنا المعاصر، ص١٣٥

(٢) يحسن التنبيه هنا إلى أن ثمة طوراً جديدا معاصرا من أطوار التصوف، تجاوز فيه بعض المتصوفة مسألة الطرق والزوايا والتكايا، ولكنهم لم يتجاوزوا عزلة التصوف التقليدية عن قضايا المسلمين والاهتمام بها، وكأنهم استبدلوا عزلة حسية بأخرى معنوية! وسوف أتعرض لهذه المسألة بالتفصيل في الفصل الرابع، بإذن الله.

(٣) ابن تيمية، الاستقامة، طباعة ونشر جامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض، ط٢، ١٤١١هـ ٢٦٨/١

(٤) وقد شهدتُ إحدى تلك الحفلات التي أقامتها جمعية الإمام مالك بن أنس بدولة البحرين عام ١٤٣٤هـ إحياءً لذكرى المولد النبوي، وكنت أنوي لقاء الحبيب علي الجفري الذي كان

هي غياب القوى والمدارس والجماعات الصوفية عن الحضور المباشر في الثورة السورية المسلحة[1].

ويقول الشيخ محمد جميل زينو -وهو ممن سلك الطريقة النقشبندية قبل رجوعه إلى هدي السلف-: «الجهاد عند الصوفية قليل جداً فهم مشغولون بجهاد أنفسهم على زعمهم»[2]، ويقول الدكتور علي العلياني: «إن انحراف المتصوفة العقيدي والسلوكي أثر على الجهاد الإسلامي غاية التأثير، وهو مناقض لهدي الرسول ﷺ»[3].

ولو عدنا إلى زمن أبي حامد الغزالي -رحمه الله- والذي يُعد رأساً عند المتصوفة حتى يومنا هذا، لوجدنا أن «حجة الإسلام» -كما يسميه المتصوفة- كان بعيداً بنفسه وقلمه عن مجاهدة الصليبيين، والذين اجتاحوا في وقته بلاد المسلمين؛ يقتلون ويدمِّرون حتى سقطت بأيديهم القدس، كل ذلك لم يحرِّك في الغزالي لا سيفاً ولاقلماً، حتى إن كتابه الشهير «إحياء علوم الدين» خلا من ذكر الجهاد[4]، في الوقت الذي كان الصليبيون يعيثون في أراضي المسلمين الفساد!، يقول الدكتور عمر فروخ مصوراً حال الغزالي: «كان الغزالي في بغداد، في الأغلب، فلم يُبْد حراكاً، ثم إنه عاش أحد عشر عاماً بعد سقوط القدس في أيدي الإفرنج الصليبيين فلم يذكرهم

مدعواً لتلك الحفلة، ولكنه اعتذر عن الحضور. وقد أُستضيفت لإحياء تلك الحفلة فرقة الإسراء السورية للإنشاد، والتي خرجت من حلب «المكلومة»، وقدِمَت إلى البحرين لأجل هذا الغرض! نعوذ بالله من الخذلان.

(١) محمد أبو رمان، الإسلاميون والدين والثورة في سورية، نشر مؤسسة فريدريش ايبرت-مكتب الأردن، ط بدون، ٢٠١٣م، ص٣٨

(٢) محمد بن جميل زينو، الصوفية في ميزان الكتاب والسنة، دار المحمدي-جدة، ط٤، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م، ص٢٣

(٣) علي بن نفيع العلياني، أهمية الجهاد، ص٤٨٧-٤٨٨

(٤) يحسن التذكير هنا بواقعة إحراق كتاب إحياء علوم الدين، والتي أمر بها أمير دولة المرابطين بالمغرب علي بن يوسف بن تاشفين بعد أن رفع إليه العلماء بذلك، ويذكر الدكتور إبراهيم التهامي: «أن المرحلة التي كتب فيها الإمام الغزالي كتابه الإحياء الذي يحث فيه على العزلة، كان المسلمون في حاجة إلى من يُحمِّسهم للجهاد ضد الصليبيين الذين كانوا يتربصون بالمسلمين في الشرق والغرب في حرب صليبية قذرة وشرسة، فَتَرْكُ مثل هذا الكتاب في مثل هذه الظروف تثبيطٌ للمسلمين عن أداء واجبهم تجاه دينهم، فلذلك أمروا بإحراقه تفادياً لآثاره السلبية». إبراهيم التهامي، جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة، مؤسسة الرسالة-بيروت، ط١، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م، ص٤٣٧

بلسانه فضلاً عن أن يكون قد حض على قتالهم، كما كان يُنتظر منه»[1]. ثم علّل موقف الغزالي بتعليلين، الأول منهما أنه كان مريضاً[2]، والثاني -وهو الأقرب-: «أن الغزالي كان قد وطد نفسه على سلوك سبيل التصوف. وحركة التصوف كانت ناشطة في أثناء الحروب الصليبية، وقد وقف جميع المتصوفة منها موقفاً هادئاً غريباً، قيل أنهم كانوا يعتقدون أن تلك الحروب كانت عقاباً للمسلمين على ما سلف لهم من الذنوب والمعاصي. ولعل الغزالي قد شارك سائر الصوفية في هذا الاعتقاد كما كان قد شاركهم في السكوت عن الإفرنج الصليبيين»[3].

ويقول الشيخ عبدالرحمن الوكيل بعد أن تحدث -نحو ما مضى- عن الغزالي: «وابن عربي وابن الفارض الزعيمان الصوفيان الكبيران عاشا في عهد الحروب الصليبية، فلم نسمع عن واحد منهما أنه شارك في قتال، أو دعا إلى قتال، أو سجل في شعره أو نثره آهة حسرى على الفواجع التي نزلت بالمسلمين، لقد كانا يقرران للناس أن الله هو عين كل شيئ فليدع المسلمون الصليبيين، فما هم إلا الذات الإلهية متجسدة في تلك الصور. هذا حال أكبر زعماء الصوفية وموقفهم من أعداء الله!! فهل كافحوا غاصباً أو طاغياً؟؟»[4].

ويقول الدكتور عبدالله العقلا في كتابه «معوقات الجهاد»: «وعندما أردت البحث في هذا الموضوع تبادر إلى ذهني كتاب إحياء علوم الدين، لأبي حامد الغزالي لعلّي أجد فيه بغيتي: (موقف الصوفية من الجهاد)، وبعد طول عناء اتهمت نفسي في عدم الوصول إلى ما أريد، وعدت أخرى، فلم تكن أفضل من سابقتها، ولم أجد إلا الدعوة إلى جهاد النفس ونحوه،

---

(١) عمر فروخ، بحث بعنوان: رجوع الغزالي إلى اليقين، ضمن كتاب: أبو حامد الغزالي في الذكرى المئوية التاسعة لميلاده، نشر المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية بدمشق، ط بدون، ١٩٦١م، ص٣٠٠-٣٠١. وهذا الكتاب يتضمن البحوث التي ألقيت في مهرجان الغزالي الذي أقيم عام ١٣٨٠هـ-١٩٦١م بدمشق.

(٢) يُنظر: المرجع نفسه، ص٣٠١

(٣) المرجع نفسه، ص٣٠١

(٤) عبدالرحمن الوكيل، هذه هي الصوفية، دار الكتب العلمية-بيروت، ط٣، ١٩٧٩م، ص١٧١

أما جهاد الأعداء فلم أجد له ذكراً، بل وجدت أن العقيدة الصوفية من أكبر معوقات الجهاد»[1].

هكذا كان حال أئمة التصوف مع الجهاد قبل بضعة قرون، وأما في زماننا هذا فسيكون موضع الحديث عنه على وجه التفصيل في المبحث التالي.

وبعد، فإن الجهاد بمعنى القتال في سبيل الله ليس له مكان في الفكر الصوفي[2]، لأن مجموع ما يعتقدونه -كما مضى- يتعارض مع إقامة الجهاد، بل يحمل على تركه، وعلى تأويل النصوص وتزوير الواقع لأجل البُعد بالأمة عنه، وأيضاً لأن طريقتهم المبتدعة في التعبد لا تنتج إلا البعد عن الجهاد في الواقع والتعلق بالأوهام والخيالات والإنزواء عن الواقع، وتركه لغيرهم.

وخلاصة هذا المبحث هي أن ترك الصوفية للجهاد لم يكن فقط بسبب طريقتهم الزهدية البدعية، وإنما أيضاً بسبب الانحرافات العقدية الخطيرة التي باتت عماد التصوف باطناً؛ فانتظم في التصوف مقومات ترك الجهاد اعتقاداً وسلوكا! وظهر جلياً في الواقع تركهم للجهاد وقت النفير؛ قديماً -كما مضى بيانه-، وحديثاً كما سيأتي بيانه، وبالله التوفيق.

---

(١) عبدالله بن فريح العقلا، معوقات الجهاد في العصر الحاضر، مكتبة الرشد-الرياض، ط٢، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م، ١/ ١١٥

(٢) سيأتي في المبحث التالي الكلام عن بعض الحركات التي قاومت المستعمر، والتي يزعم المتصوفة تصوفها وهي بخلاف ذلك.

المبحث الخامس

موقف الصوفية من الاستعمار الغربي، ونقده

إن من أعظم ما ابتليت به الأمة الإسلامية خلال القرنين الميلاديين المنصرمين (التاسع عشر والعشرين) هو الاستعمار العسكري المباشر من قبل الدول الغربية الأوروبية، والتي أغراها الضعف الداخلي والعسكري الذي بات يتصاعد سنة بعد سنة في جسد دولة الإسلام «الدولة العثمانية»، فبدأ الاحتلال لأراضيها قبل سقوطها! وأتم الغرب الأوروبي احتلاله لغالب أجزاء العالم الإسلامي في الربع الأول من القرن العشرين، وهي الفترة التي ذبلت فيها الدولة العثمانية ثم سقطت!.

وليس هذا موضع استعراض وبسط أسباب ضعف وسقوط الدولة العثمانية، ولكن الذي يجب التأكيد عليه والتذكير به هو أن التصوف كان أحد أبرز تلك الأسباب، كما بيَّنت هذا في مواضع متفرقة من المباحث السابقة، وفي هذا المبحث سأزيد هذا الأمر بياناً؛ ومن الله أستمد العون والسداد.

قبل البحث عن الموقف الحقيقي للتصوف من الاستعمار الغربي الذي دهم بلاد المسلمين، لا بد من التأكيد على أمرٍ مهم وهو أنه إذا لم يكن الاستعمار الغربي لأراضي المسلمين موجباً لجهادهم وطردهم فمتى يكون الجهاد والنفير إذاً واجبا؟! لا شك أن جهادهم ومدافعتهم كان أمراً ظاهر الواجب، ولا يحتاج معه عاقلٌ إلى دليل، ولكن هل يا ترى سار المتصوفة وفق هذا الحكم البديهي للجهاد ضد الغزاة المحتلين؟

إن المتتبع لتاريخ التصوف منذ أن دهم الاستعمار الغربي أراضي المسلمين وجثم على صدورهم، يرى بوضوح تخاذل المتصوفة عن الجهاد وتركهم له، بل إن واقعهم كان أبعد من ذلك، حيث تعاونت طرقهم مع المستعمر وساندته! نعوذ بالله من الضلال والخذلان.

ولقد امتلأت كتب الباحثين في شأن الاستعمار والتصوف بالأمثلة والشواهد الكثيرة على مواقف المتصوفة الداعمة للاستعمار، ولذا

فسأكتفي في هذا المبحث بإيراد ما يخدم منها مقصد المبحث، ألا وهو تحليل موقف المتصوفة من رزيّة الاستعمار الغربي المعاصر، والتي أحاطت بالأمة منذ القرن التاسع عشر الميلادي.

لقد كان للجزائر النصيب الأكبر من الأمثلة والشواهد على تواطؤ التصوف مع الاستعمار، وذلك لطول فترة الاستعمار الفرنسي لها (من ١٨٣٠ وحتى ١٩٦٢م)، ولتجذُّر وانتشار التصوف في الجزائر خاصة وبلاد المغرب العربي بشكل عام. يقول الشيخ محمد بشير الإبراهيمي -رحمه الله-: «كان من نتائج الدراسات المتكررة للمجتمع الجزائري بيني وبين ابن باديس منذ اجتماعنا في المدينة المنورة، أن البلاء المنُصبّ على هذا الشعب المسكين آت من جهتين متعاونتين عليه، وبعبارة أوضح من استعمارين مشتركين يمتصان دمه ويتعرقان لحمه، ويفسدان عليه دينه ودنياه: استعمار مادي هو الاستعمار الفرنسي، يعتمد على الحديد والنار، واستعمار روحاني يمثّله مشائخ الطرق المؤثرون في الشعب والمتغلغلون في جميع أوساطه، المتاجرون باسم الدين، المتعاونون مع الاستعمار عن رضى وطواعية، وقد طال أمد هذا الاستعمار الأخير وثقلت وطأته على الشعب حتى أصبح يتألم ولا يبوح بالشكوى أو الانتقاد، خوفاً من الله بزعمه، والاستعماران متعاضدان يؤيّد أحدهما الآخر بكل قوّته»[1].

ومن أمثلة مواقف الصوفية من الاستعمار الفرنسي للجزائر ما أوردته صحيفة الفتح تحت عنوان «اعترافات خطيرة» وهي عبارة عن مقتطفات من خطبة ألقاها الشيخ «سيدي» محمد الكبير -صاحب «السجادة الكبرى» أي رئيس الطريقة التجانية- بين يدي الكولونيل الفرنسي «سيكوني»، نشرتها الجريدة الفرنسية الاستعمارية «لابريس ليبر» والتي كانت تصدر في العاصمة الجزائر، ومما جاء في تلك الخطبة: «إنه من الواجب علينا إعانة حبيبة قلوبنا مادياً وأدبياً وسياسياً، ولهذا فإني أقول لا على سبيل المنّ والافتخار، ولكن على سبيل الاحتساب والتشرف بالقيام بالواجب: إن

---

(١) أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي-بيروت، ط١، ١٩٩٧م، ٥/ ٢٨٢

أجدادي قد أحسنوا صنعاً في انضمامهم إلى فرنسا قبل أن تصل بلادنا، وقبل أن تحتل جيوشها «الكرام» (كذا) ديارنا. ففي سنة ١٨٣٨م كان جدي سيدي محمد الصغير (رئيس التجانية يومئذ) أظهر شجاعة نادرة في مقاومة أكبر عدو لفرنسا الأمير عبدالقادر الجزائري، ومع أن هذا العدو (يعني الأمير عبدالقادر) قد حاصر بلدتنا (عين ماضي) وشدد عليها الخناق ثمانية أشهر فإن هذا الحصار تم بتسليم فيه شرف لنا نحن المغلوبين، وليس فيه شرف لأعداء فرنسا الغالبين، وذلك أن جدي أَبَى وامتنع أن يرى وجهاً لأكبر عدو لفرنسا، فلم يقابل الأمير عبدالقادر»[١].

ثم وصفت الجريدة الموقف قائلة: «وما انتهى الشيخ من خطبته حتى نهض كولونيل سيكوني رئيس البعثة العسكرية وشكر الشيخ وأثنى عليه ثم قال له: «من كمال مروءتك وإحسانك يا سيدي الشيخ (المرابط) أنك لم تذكر ولا نعمة واحدة من النعم التي غمرتني بها، فأنت الذي أنجيتني من التوارق الملثمين، وأنقذتني من أيديهم..»[٢]!

ويقول الدكتور مازن مطبقاني: «حين أعلن ابن باديس الحرب على الطرقية فإنما كانت هذه الحرب موجهة ضد الاستعمار الذي كان يؤيد الطُّرقية. ويؤكد هذا قول أحد المؤرخين الفرنسيين: (أصبحت كلمة المرابطين تدل على الجهل والتخلف، وكذلك أصبحت تعني المؤيدين للاحتلال والإدارة الفرنسية)»[٣]، ويضيف أيضاً: «بل إن الأمر ظهر جلياً قبيل إعلان الحرب العالمية الثانية حين طالبت فرنسا الجهات الجزائرية المختلفة تقديم فروض الولاء والطاعة ضماناً للجبهة الداخلية فكان شيوخ الطرق أول من أدى هذا الواجب -في نظرهم-، ففي رسالة موجهة من شيخ الطريقة القادرية بالوادي يوجهها إلى الشعب الجزائري يطالبه فيها الانضمام للجيش الفرنسي أو بتقديم العون المادي للمجهود الحربي،

---

(١) صحيفة الفتح، العدد (٢٥٧)، الخميس ١٦صفر ١٣٥٠هـ ص٢. والفتح صحيفة إسلامية أسبوعية،كان يُصدرها من القاهرة محب الدين الخطيب -رحمه الله-.

(٢) المرجع نفسه، ص٣-٤

(٣) مازن مطبقاني، عبدالحميد بن باديس العالم الرباني والزعيم السياسي، دار القلم-دمشق، ط١، ١٤١٠هـ-١٩٨٩م، ص١١١

ويقول فيها ما نصه: (وها أنا فرد منكم أقدِّم نفسي بإخلاص لدفع إعانة مالية عوضـاً عن عجز صحتي البدنية قدرها عشرة آلاف فرنك)»[1].

وأما في مصر التي عانت من احتلالين (الفرنسي ثم البريطاني) فلم يختلف الموقف الصوفي عنه في الجزائر، وإنْ اختلفت مسميات الطرق الصوفية! يقول «الفيلسوف المصري» طنطاوي جوهري: «إن كثيراً من الصوفية قد تنعموا وعاشوا في رغد من العيش وأغدق الناس عليهم المال من كل جانب وجُبِيَت إليهم الثمرات، وهوت إليهم القلوب، لِمَا ركز في النفوس من قربهم إلى الله، فلما رأوا الفرنجة أحاطوا بالمسلمين لم يسعهم إلا أن يُسلِّموا لهم القياد ليعيشوا في أمن وسلام، وهذا هو الذي حصل في أيامنا وذكره الفرنسيون في جرائدهم قبل الهجوم على مراكش وقرأناه نحن فيها إذ صرحوا بأن المسلمين خاضعون لمشايخ الطرق، وأن الشرفاء القائمين بالـمُلك في تلك البلاد ورجال الصوفية هم الذين يسلموننا البضاعة، فعلى رجال السياسة أن يُغدقوا النعم على مشايخ الطرق وعلى الشريف الذي يملك السلطة في البلاد»[2].

وهذا الحال المؤلم يُصدِّق ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية قبل ذلك بعدة قرون إذ يقول: «فلهذا يوجد هؤلاء الذين يشهدون القدر المحض وليس عندهم غيره إلا ما هو قدرٌ أيضـاً -من نعيم أهل الطاعة، وعقوبة أهل المعصية- لا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر، ولا يجاهدون في سبيل الله، بل ولا يدعون الله بنصر المؤمنين على الكفار، بل إذا رأى أحدهم من يدعو قال الفقير أو المحقق أو العارف ما له؟! يفعل الله ما يشاء، وينصر من يريد؛ فإن عنده أن الجميع واحد بالنسبة إلى الله، وبالنسبة إليه أيضـاً؛ فإنه ليس له غرض في نصر إحدى الطائفتين لا من جهة ربه فإنه لا فرق على رأيه عند الله بينهما، ولا من جهة نفسه فإن حظوظه لا تنقص باستيلاء الكفار؛ بل كثير منهم حظوظه الدنيوية مع استيلاء الكفار والمنافقين والظالمين أعظم فيكون هواه أعظم»[3].

---

(١) المرجع نفسه، ص١١٤-١١٥

(٢) طنطاوي جوهري، الجواهر في تفسير القرآن، مطبعة مصطفى الحلبي-مصر، ١٣٤٦هـ ٩/ ١٣٥

(٣) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ٨/ ٣٥٠-٣٥١

ويقول في موضع آخر عن المتصوفة أهل الوحدة: «وكثيراً ما كنت أظن أن ظهور مثل هؤلاء أكبر أسباب ظهور التتار واندراس شريعة الإسلام»[1]، وها هو التاريخ يعيد نفسه مع المتصوفة، وإليك الدليل على موالاة المتصوفة للمحتل؛ يقول الدكتور عمار حسن: «ولما جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر عام ١٧٩٨م، واحتلتها كان نابليون يدرك إلى حد كبير دور الدين في الحياة السياسية بوجه عام ومكانة المتصوفة داخل المؤسسة الدينية بوجه خاص لذا عين الشيخ خليل البكري عضواً في الديوان الذي أنشأه لإدارة مصر سياسياً»[2].

وأما في زمن الاحتلال البريطاني فقد كان شيخ مشايخ الطرق الصوفية محمد توفيق البكري صديقاً لزعيم الاحتلال «كرومر»[3]، وكان «كرومر» شديد الإعجاب بالبكري، ويحرص على زيارته في بيته، ويرى فيه مفتاحاً للحضارة الغربية في مصر![4]، وأما موقف الطرق الصوفية من الاحتلال البريطاني فيقول أيضاً الدكتور عمار: «هناك طرق مثل الإدريسية الأحمدية كانت تحصل على مساعدات بريطانية كبيرة وكان شيخها يمد الإنجليز بمعلومات عن تحركات الأدارسة في منطقة عسير بالجزيرة العربية، وهناك الطريقة الميرغنية الختامية التي وجد الإنجليز في معارضتها للمهدية في السودان موقفاً يخدم مصالحهم، فقدموا إليها الدعم المادي والمعنوي، كما ساند الاحتلال الطريقتين الغنيمية والدمرداشية التي ارتبط شيخها مصطفى الدمرداش باشا بعلاقات خاصة مع جورج لويد المندوب السامي لبريطانيا في مصر (١٩٢٥-١٩٢٩م)»[5]، ويضيف بأن «شيخ الطريقة

---

(١) المرجع نفسه، ٢/ ٤٥٧

(٢) عمار علي حسن، التنشئة السياسية للطرق الصوفية في مصر، ص١٧٤.

(٣) اللورد كرومر، واسمه الحقيقي إيفلن بارنغ *Evelyn Baring* (١٨٤١-١٩١٧م)، عُيِّن مندوبا ساميا لبريطانيا في مصر في الفترة (١٨٨٣-١٩٠٧م)، وكان هو الحاكم الفعلي لها، له كتاب «مصر الحديثة»، وكتابٌ عن خديوي مصر عباس الثاني، يُنظر: موسوعة السياسة، ٥/ ١١٥؛ والمستشرقون للعقيقي، ٢/ ٦٧

(٤) يُنظر: ماهر حسن فهمي، محمد توفيق البكري، دار الكتاب العربي-القاهرة، ط بدون، ١٩٦٧م، ص٩٤-٩٧

(٥) عمار علي حسن، التنشئة السياسية للطرق الصوفية في مصر، ص١٧٧

السمّانية محمد إبراهيم الجمل وصلت به الحال في تأييد الإنجليز إلى جمع توقيعات المواطنين ضد ثورة ١٩١٩م والدعوة إلى بقاء الإنجليز في مصر»[١].

وفي تونس أيضاً كان للتصوف الدور البارز في تسهيل مهمة الاستعمار، وتهدئة الناس، ومن ذلك -على سبيل المثال- الدور الذي قام به «سيدي» فدّور شيخ الزاوية القادرية بمدينة الكاف، والذي يقول فيه الدكتور التليلي العجيلي: «وصل به الأمر إلى إعطاء الأوامر -للذين جاؤوا إلى زاويته- بالعودة من حيث أتوا، مما جعل «روا»[٢] يستحسن ذلك قائلاً: «لقد تحرك أصدقاؤنا...»[٣]، وصدق الفرنسي في ذلك، فقد تحرك القادريون وغيرهم من أصدقائه! إذ يقول الدكتور التليلي «فالشّابيون (أتباع الطريقة الشابية) قد بذلوا جهوداً لاستتباب الأمن بـ]مدينة[الجريد، وجلبوا المناوئين وسلّموهم للفرنسيين»[٤]، و«أما المنّوبي العمراني شيخ زاوية الطريقة التجانية ببوعرادة فقد أوضح في رسالة له إلى وزير الخارجية الفرنسية بباريس أنه في بداية الاحتلال استقبل الجيش الفرنسي، وكان دليله في المنطقة»[٥]، إلى غير ذلك من الأمثلة المؤلمة للتواطؤ الصوفي التي أوردها الدكتور التليلي العجيلي[٦].

وفي موريتانيا أيضاً كان للطريقة القادرية دورها البارز في مساندة المحتل الفرنسي، وكان من أبرز شيوخها الموالين للاستعمار الشيخ التراد بن العباس، والشيخ سعد ابيه. يقول الباحث علي سالمان :«لقد كان الشيخ سعد ابيه نظراً لتمركزه في الجنوب الغربي الموريتاني التي اخترقها الفرنسيون أولاً من أهم الشخصيات الدينية التي تعاملت مع الفرنسيين وقدمت لهم خدمات جليلة، وقد كتب رسالة عنوانها (النصيحة العامة

---

(١) المرجع نفسه، ص١٧٧

(٢) روا، هو القنصل الفرنسي في تونس، في ذلك الوقت.

(٣) التليلي العجيلي، الطرق الصوفية والاستعمار الفرنسي بالبلاد التونسية (١٨٨١-١٩٣٩)، منشورات كلية الآداب بمنوبة، ط بدون، ١٩٩٢م، ص١١٦-١١٧

(٤) المرجع نفسه، ص١١٨، وما بين الحاصرتين من الباحث.

(٥) المرجع نفسه، ص١١٩

(٦) يُنظر: المرجع نفسه،، ص١١٥-١٢٠

والخاصة)، والتي حث فيها أخاه الشيخ ماء العينين إلى عدم التصدي للفرنسيين وأن يبقى على الطريق القويم الذي تركه له والده وهو ترك حمل السلاح»[1].

وفي سوريا يقول محمد فهر شقفة: «أصحاب الطرق الصوفية في سورية كانوا لا يحركون ساكناً أمام الاستعمار الفرنسي، بل كانوا يُهرِّجون للفرنسيين بإقامة حفلات الرقص والدجل باسم الدين، وقد كان الفرنسيون يشجعون هذه الطرق حتى أنهم أدخلوا معهم الطريقة التجانية، وهي من أعظم العوامل في تخدير الشعب وقتل كل فاعلية فيه!»[2].

وفي الهند يقول إحسان إلهي ظهير -رحمه الله-: «إن الباحث والقارئ يندهش ويتحير عندما يرى أنه لم تقم حركة في شبه القارة لمواجهة الاستعمار إلا وخالفها البريلوي وكفّر زعماءها هو وذووه، وطائفته ومناصروه»[3]، ويضيف: «إن البريلوية[4] وعلى رأسها البريلوي نفسه أمر المسلمين بالتباعد عن هذه الحركات كلها]أي الجهادية[واعتزالهم إياها، كما أفتى بتحريم الجهاد في ربوع هذه البلاد مستدلاً بأن الهند ليس بدار الحرب ولا يؤذن ويعلن بالجهاد فيها، ولم يكتف بهذا فحسب، بل إرضاءً للآخرين تجاوز أكثر من ذلك وقال: إن الهند دار الإسلام وكتب رسالة مستقلة باسم (إعلام الأعلام بأن هندوستان دار الإسلام)»[5].

ويقول الدكتور خادم حسين: «الغربيون مثلهم كمثل من سبقهم من الملوك لم يُنشئوا الصوفية إنشاء، كما أنه ليس لهم فضل في إيجادها، وإنما وجدوها قائمة على أسس تخدم النزعة الاستعمارية، وتُؤمِّن لهم مقاليد

(١) علي بدوي علي سالمان، الطريقة القادرية والاستعمار الفرنسي في موريتانيا (١٩٠٣-١٩٦٠م)، رسالة علمية (ماجستير)، غير مطبوعة، جامعة القاهرة، ٢٠٠٣م، ص١٠١

(٢) محمد فهر شقفة، التصوف بين الحق والخلق، الدار السلفية-الكويت، ط٣، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م، ص٢١٦-٢١٧

(٣) إحسان إلهي ظهير، البريلوية، عقائد وتاريخ، نشر إدارة ترجمان السنة-لاهور، ط١، ١٤٠٣م-١٩٨٣م، ص٣٩

(٤) البريلوية، فرقة صوفية نشأت في شبه القارة الهندية الباكستانية في مدينة بريلي أيام الاستعمار البريطاني، ومؤسسها هو أحمد رضا خان بن تقي علي خان. يُنظر: الموسوعة الميسرة في الأديان، ١/ ٢٩٨

(٥) المرجع نفسه، ص٤٠

الحكم دون عناء فغذوها، وأنفقوا على مشاهدها وزواياها، بعد أن فرضوا لها المرتبات فحققوا هدفين في آن واحد: هدف الحفاظ على التقاليد الدينية الموروثة في نظر الناس، وهدف صرف الأنظار عن الاستعمار واستغلال البلاد، لذا قضت المصلحة الأوروبية أن يشجعوا الصوفية ماديا ومعنويا أينما وجدت، ويسهلوا لها طرق انتزاع البشر، لقتل الحيوية المسلمة المجاهدة، فاعتنوا بمشائخها وقدموهم على أبرز رعايا مستعمراتهم، وعلى الذين قضوا حياتهم في المصالح الاستعمارية، وفضلوهم على الحكام المحليين في الأبهة والإجلال...»[1].

وفي أفغانستان التي دهمها الاحتلال السوفيتي عام ١٤٠٠هـ الموافق ١٩٧٩م، برزت على الساحة الأفغانية ثلاثة أسماء صوفية؛ وهي شيخ الطريقة النقشبندية صبغة الله مجددي، وتلميذه مولوي محمد نبي محمدي، وشيخ الطريقة الجيلانية سيد أحمد جيلاني، وهذه الأسماء رفعها الإعلام الإعلام العلماني، وجعل منها قيادات للجهاد[2]، بالرغم من أنه لم يكن لها جهاداً ونكاية في العدو المحتل كما كان لغيرها! بل إن هذه الأسماء الثلاثة بأحزابها باتت وسيلة ضغط على المجاهدين، وبات الإعلام يصورها على أنها قيادات (معتدلة) وغيرها قيادات (متطرفة)، وبالفعل فقد كانت هذه الأسماء الثلاثة وبخاصة «مجددي» تُنادي بعودة الملك الشيوعي «ظاهر شاه» من منفاه الأوربي، وبإقامة حكومة ائتلافية! على عكس البقية الذين كانوا يرون أنهم قد بلغوا من القوة والتَّمكن ما يؤهلهم إلى إقامة دولة إسلامية خالصة[3]، وقد كانت الصدمة التي أدهشت المسلمين أن «صبغة

---

(١) خادم حسين إلهي بخش، أثر الفكر الغربي في انحراف المجتمع المسلم في شبه القارة الهندية، رسالة دكتوراه -غير مطبوعة-، جامعة أم القرى، ١٤٠٤-١٤٠٥هـ ص٢٧١-٢٧٢

(٢) أسّس كل واحد منهم حزباً سياسياً (جهادياً)، فكان لمجددي «جبهة التحرير الوطنية الأفغانية»، ولمحمدي «حركة الانقلاب الإسلامي»، ولجيلاني «الجبهة الإسلامية الوطنية»، الأمر الذي وسَّع الشُّقة، وزاد من تعقيدات الساحة الأفغانية حينها.

(٣) للمزيد حول دور هذه الأحزاب الصوفية الثلاثة في إضعاف الجهاد الأفغاني يُنظر -على سبيل المثال-: مجلة البيان، العدد (١١) شعبان ١٤٠٨هـ مقال بعنوان (جهاد المسلمين في أفغانستان يمر بأخطر مراحله)، والعدد (٢٠) محرم ١٤١٠هـ مقال بعنوان (هل يعود ظاهر شاه لحكم أفغانستان)، والعدد (٥٢) ذو الحجة ١٤١٢هـ مقال بعنوان (المخاض في أفغانستان)، والعدد (٥٣) محرم ١٤١٣هـ مقال بعنوان (الجهاد الأفغاني ومرحلة البناء).

الله مجددي» تم تنصيبه -بضغط دولي كبير- كأول رئيس مؤقت لأفغانستان بعد تحرير كابل، ومولوي محمد نبي نائباً له!، ومن حينها اتسعت الشُقة بين قادة المجاهدين، ولم تقم لأفغانستان قائمةٌ بعدها.

وفي عام ١٤٢٢هـ الموافق ٢٠٠١م قادت أمريكا احتلالاً غربياً جديداً لأفغانستان -بذريعة الحرب على الإرهاب والقضاء على تنظيم القاعدة- وتحت هذا الاحتلال أصبح صبغة الله مجددي وسيد أحمد جيلاني[(١)] من أدوات تثبيت الاحتلال، ومن الرجال الذين يعتمد عليهم الرئيس الـمُعيَّن من قبل الاحتلال الأمريكي «حامد كرزاي»[(٢)]؛ فجعل مجددي على رأس مجلس الشورى، وعيَّنه أيضاً رئيساً للجنة المصالحة الوطنية، وهي اللجنة المكلَّفة بإقناع المقاومين للاحتلال أن يضعوا سلاحهم، ويعودوا إلى بيوتهم!.

وأما في العراق التي دهمها أيضاً الاحتلال الأمريكي عام ١٤٢٤هـ الموافق ٢٠٠٣م تحت الذريعة ذاتها (حرب الإرهاب)، فعلى الرغم من عراقة التصوف في العراق، ووجود طرق صوفية لها تاريخها الطويل في التصوف؛ كالنقشبندية والقادرية والرفاعية وغيرها، إلا أن موقف التصوف فيها من الاستعمار لم يشذَّ عن موقف المتصوفة من الاستعمار؛ فكانوا ما بين لاهٍ في تصوفه، وكأن ما يجري في الواقع لا يعنيه، ومابين خانع متعاون مع الاحتلال ؛ كما وقع من الطريقة الكسنزانية، حيث جاء في تقرير لجريدة «نيويورك تايمز» عن الصوفية في العراق أن شيخ الطريقة الكسنزانية محمد عبدالكريم الكسنزان ساعد القوات الأمريكية أثناء غزوها للعراق وقدم معلومات لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية[(٣)]، وفي معركة الفلوجة التي تُعد من أبرز المعارك التي وقعت بين الاحتلال الأمريكي والمقاومة العراقية برز اسم الشيخ الصوفي عبدالله الجنابي كأحد قادة المقاومين في

---

(١) وأما ثالثهم وهو مولوي محمد نبي محمدي فقد توفي مريضاً بالسل في عام ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

(٢) يُنظر: جريدة الشرق الأوسط، العدد (١١٢٩٤) ١١ ذو القعدة ١٤٣٠هـ خبر بعنوان «رجال كرزاي».

(٣) نقلاً عن موقع العربية نت، تقرير بعنوان «صوفيو العراق يَشكُون هجمات السلفيين المسلحين وملاحقات الأمريكيين» بتاريخ ٢١/ ٧/ ١٤٢٦هـ رابط التقرير:
http: //www.alarabiya.net/articles/2005/08/26/16236.html

الفلوجة، ولكن بعد عدة سنوات من انتهاء المعركة واختفاء الجنابي صرح في لقاء له مع قناة الجزيرة الفضائية بأن الأمريكان هم من أخرجوه من الفلوجة بسيارة ثم أطلقوا سراحه![1]، ويتفاخر بعض المتصوفة[2] أيضاً بجهاد مجموعة في العراق تُسمَّى «جيش رجال الطريقة النقشبندية»، علماً بأن هذه المجموعة يتزعمها الأمين العام لحزب البعث العراقي عزت الدوري![3]، ولم يُعرف عنها الإثخان في المحتل، ولم يُعرف أن المحتل الأمريكي حاربها كما حارب قوى الجهاد في العراق، بل إنه لم يدرجها على قوائمه للإرهاب كما جرت عادته[4]!، وقد جاء في تقريرٍ لمعهد واشنطن ما نصه: «ترعى حركة «جيش رجال الطريقة النقشبندية» عدداً كبيراً من خلايا الهجوم عبر شمال ووسط العراق لضرب أنواع محددة من الأهداف، ويكون هذا دوماً لغرض الحصول على المال مقابل تسليم شريط فيديو يثبت بأنه قد تم بالفعل شن الهجوم، وتُفضِّل حركة «جيش رجال الطريقة النقشبندية» استخدام أعضاء وحدات الجيش النخبوية السابقة مثل «الحرس الجمهوري الخاص» أو «الحرس الجمهوري» كمنتسبين عملياتيين»[5]. ويضيف التقرير: «وتشير بعض المصادر إلى أن أجهزة

---

(١) يُنظر: موقع الجزيرة نت، برنامج «لقاء اليوم»، في ١٩/ ٤/ ١٤٢٨هـ رابط الحلقة:
http: //www.aljazeera.net/programs/pages/7bcee245-f624-4b63-9545-248cfe5e019f.

(٢) ومنهم الحبيب علي الجفري، والذي يَضرب مثلاً لجهاد الصوفية بصبغة الله مجددي في أفغانستان -الذي مضى بيان حاله-، وبجيش رجال الطريقة النقشبندية في العراق! يُنظر: قناة *mdtv*، برنامج «هاش خليجي»، الحلقة٢، مع علي الجفري، بتاريخ ٦/ ٢/ ٢٠١٣م، رابط الحلقة: http: //www.youtube.com/watch?v=Z1yUQYMTkWA

(٣) يتزعم عزت الدوري أيضاً تحالف «القيادة العليا للجهاد والتحرير»، والذي يُعد «جيش رجال الطريقة النقشبندية» أبرز مكوناته. يُنظر: موقع القيادة العليا للجهاد والتحرير: *http: //hcjl.ws*
ويُنظر: موقع الجبهة الوطنية والقومية والإسلامية، حوار مع الناطق الرسمي باسم جيش رجال الطريقة النقشبندية، رابط الحوار: http: //www.jabha-wqs.net/article.php?id=7967

(٤) وبالرجوع إلى موقع «جيش رجال الطريقة النقشبندية» على الانترنت وجدت أن موقعهم يعمل بحرية دون حجب أو إلغاء! على عكس المتبع مع المواقع التي تدعو للجهاد، وكذا وجدت أن لديهم مجلة إليكترونية بعنوان «المجلة النقشبندية» تُعنى بأخبارهم الجهادية، وهي أيضاً تعمل بحرية دون حجب أو إلغاء!
رابط موقعهم الرسمي: *http: //www.alnakshabandia.net*
رابط موقع المجلة النقشبندية: *http: //www.nkshabandmgz.com*

(٥) معهد واشنطن، تقرير بعنوان: حركة جيش رجال الطريقة النقشبندية والتمرد القادم في العراق،

المخابرات العربية وأبرزها دائرة المخابرات العامة الأردنية ربما تقوم برعاية روابط طويلة الأمد مع حركة «جيش رجال الطريقة النقشبندية» بغرض مواجهة النفوذ الإيراني في العراق»[1].

وبعد، فهذه النماذج ما هي إلا غيضٌ من فيض مواقف الصوفية المخزية مع الاستعمار؛ ومن هذه النماذج يتضح ما يلي:

أولاً: أن موقف الصوفية من الاستعمار كان مخزياً، إذ لم يقتصر الأمر على ترك مناجزته؛ بل تعاونوا معه، ووالوه، وناصروه، وعادوا مقاوميه!

ثانياً: أن هذا الموقف الصوفي من الاستعمار جاء منسجماً تماماً مع موقفهم من الجهاد في سبيل الله، والذي عرضته في المبحث السابق.

ثالثاً: أنه بالإضافة إلى الانحراف العقدي والسلوكي يمكن أيضاً اعتبار حظوظ الدنيا أحد أسباب ترك الجهاد وموالاة المستعمر عند الصوفة، إذ أغدق عليهم الاستعمار الأموال والعطايا، ومنحهم حظوةً وجاهاً وحماية.

وتجدر الإشار هنا إلى مسألة مهمة، ألا وهي ما يزعمه المتصوفة من أن التصوف له باعه الطويل في الجهاد في سبيل الله، ومناجزة الغزاة والمستعمرين، ويستشهدون لذلك بعدد من القادة في تاريخ المسلمين. ويُجاب عن هذا زعمهم هذا بما يلي:

أولاً: أن التصوف (عقيدة وسلوكاً) لا يمكن أن يُنتج جهاداً في سبيل الله، ولا أن يأمر به أو حتى ينصره، على نحو ما مضى بيانه وتفصيله.

ثانياً: أنك لا تكاد تجد ذكراً للجهاد في سبيل الله في كتب ومصنفات المتصوفة إلا ما ندر، فكيف يزعم الزاعم أن للمتصوفة باعاً في الجهاد ولم تجر أقلامهم بذكره، إلا عَرَضاً، وعلى سبيل التصغير (الجهاد الأصغر)؛ بينما هو ذروة سنام الإسلام!

ثالثاً: أن الصوفية ليسوا سواء؛ فمنهم المتحقق بالتصوف، ومنهم من ليس له من التصوف إلا اسمه، ومنهم ما بين ذلك، وعليه فلا تدل نسبة أحدٍ

إعداد مايل نايتس، في ٢٢/ ٧/ ٢٠١١م، رابط التقرير:
http://www.washingtoninstitute.org/ar/policy-analysis/view/the-jrtn-movement-and-iraqs-next-insurgency

(١) المرجع نفسه.

إلى التصوف أنه متحقق بكل عقائده وسلوكه، وبالتالي فمن حمل لواء الجهاد ممن يُنسب إلى التصوف فلا يعني ذلك أن التصوف هو من دفعه إلى ذلك، لا سيما وأن موقف التصوف من الجهاد بات معلوماً؛ ولو وقع جهادٌ من بعض من يُنسبون إلى التصوف فلا حجة في ذلك على أن للجهاد منزلته في الفكر الصوفي؛ ولكنَّ واقع الحال يؤكد بأن من انطلقوا للجهاد، ممن نُسِبوا إلى التصوف، إنما انطلقوا بعد أن التزموا هدي الكتاب والسنة، وطبَّقوه واقعاً في حياتهم؛ يقول الدكتور عبدالله إبراهيم عند حديثه عن زعماء الحركات الإصلاحية في غرب أفريقيا: «إن أغلبية زعماء هذه الحركات الإصلاحية قد قاموا بأداء فريضة الحج، وعادوا إلى بلادهم متأثرين بالحركة الوهابية التي نادت بالرجوع بالدين إلى بساطته الأولى، فأعلن هؤلاء الزعماء الجهاد في سبيل الله وتكوين دويلات إسلامية تطبق الشريعة في كل منحى من مناحي الحياة»[1].

ومن الأمثلة أيضاً على ذلك الشيخ عثمان بن فودي وحركته الإصلاحية في غرب أفريقيا، والتي حملت لواء الجهاد ضد المستعمرين، فعلى الرغم من الاختلاف حول أداء الشيخ عثمان لفريضة الحج وتأثره بدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب إلا أن الاتجاه السلفي عند الشيخ عثمان وحركته الإصلاحية يُعد حقيقة ثابتة[2].

ومن الأمثلة أيضاً الشيخ ماء العينين في موريتانيا إذ حمل لواء الجهاد ضد الاستعمار الفرنسي مخالفاً بذلك الكثير من شيوخ الطريقة القادرية، وفي هذا يقول علي سالمان: «قاد الشيخ ماء العينين القوى المعارضة للاستعمار وهو قائد الرفض الذي كان على النقيض من موقف دعاة المهادنة، واستل المعارضون أقلامهم لتسفيه آرائهم وتحريم الانصياع

---

(١) عبدالله عبدالرزاق إبراهيم، المسلمون والاستعمار الأوروبي لأفريقيا، عالم المعرفة- الكويت، ط بدون، ١٩٨٩م، ص٢١٧

(٢) يُنظر: مصباح الدين جنيد، الشيخ عثمان بن فودي الفلاني وعقيدته على ضوء الكتاب والسنة، رسالة علمية (ماجستير)، غير مطبوعة، جامعة أم القرى، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م، ص٢٢٦-٢٣٥؛ وإلهام محمد علي ذهني، جهاد الممالك الإسلامية في غرب أفريقيا ضد الاستعمار الفرنسي (١٨٥٠-١٩١٤م)، دار المريخ-الرياض، ط بدون، ١٩٨٨م، ص٣٤-٣٥

لدعوتهم؛ وقد استندوا إلى الآيات الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة الداعية إلى الجهاد وعدم موالاة اليهود أو النصارى سلاحاً لتأكيد موقفهم من الاستعمار حتى إنه وجِد منهم من حمل السلاح وجمع المتطوعين ونظم صفوفه وشنَّ الغارات على الفرنسيين»[1].

ومن أبرز الأمثلة أيضا في شمال أفريقيا؛ الحركة السنوسية، والتي كان لها اليد الطولى في مقاومة المستعمرين، والتي من رجالها القائد الفذ عمر المختار -رحمه الله وتقبله من الشهداء-؛ يقول شكيب أرسلان في شأن المهدي بن محمد بن علي السنوسي: «كان السيد المهدي يَهدِي هدي الصحابة والتابعين، لا يقتنع بالعبادة دون العمل، ويعلم أن أحكام القرآن محتاجة إلى السلطان، فكان يحث إخوانه ومريديه دائماً على الفراسة، والرماية، ويبث فيهم روح الأنفة والنشاط، ويحملهم على الطراد والجلاد، ويعظم في أعينهم فضيلة الجهاد..»[2].

ويقول المستشرق «توماس أرنولد»[3] في وصف الحركة الإصلاحية السنوسية: «يلتزم أفراد هذه الجماعة القيام بأوامر القرآن بكل دقة وبما يتفق وأكثر مبادئ التوحيد تشدداً، تلك المبادئ التي تجعل التعبد لله وحده، وتحرم التضرع للأولياء وزيارة قبورهم تحريماً تاماً. وقد أوجبوا على أنفسهم أن يمتنعوا عن شرب القهوة والتدخين، وأن يجتنبوا كل اتصال باليهود أو المسيحيين، وأن يساهموا بنصيب معين من دخلهم يضاف إلى

---

(١) علي بدوي سالمان، الطريقة القادرية والاستعمار الفرنسي في موريتانيا، ص١٠٥-١٠٦

(٢) لوثروب ستودارد، حاضر العالم الإسلام، بتعليق الأمير شكيب أرسلان، ٢/ ١٦٣. وتجدر الإشارة هنا إلى أن الكثير من الباحثين -ومنهم أحمد أمين- يشير إلى تأثر الحركة السنوسية بدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب وذلك أثناء إقامة مؤسِّسها الشيخ «محمد بن علي السنوسي» بمكة، ولعل هذا ما يُفسر معاداة مشايخ الطرق الصوفية بمكة للسنوسي. وللمزيد عن هذا العداء يُنظر: أحمد أمين، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، دار الكتاب العربي- بيروت، ط بدون، ت بدون، ص٢١؛ وعلي محمد الصلابي، الثمار الزكية للحركة السنوسية في ليبيا، مكتبة الصحابة-الشارقة،ط١، ١٤٢٢هـ ١/ ٤٥-٤٦

(٣) السير توماس أرنولد *Arnold,Sir Thomas W.* (1864-1930)، مستشرق بريطاني، عمل أستاذاً في جامعة عليكرة، وعميداً لقسم الدراسات العربية في مدرسة اللغات الشرقية بلندن، له تآليف كثيرة منها: «الدعوة إلى الإسلام»، و«الهندوكية والإسلام في الهند». يُنظر: المستشرقون للعقيقي، ٢/ ٥٠٤

أموال الجماعة، إذا لم يستطيعوا أن يكرسوا أنفسهم لخدمتها، كما أوجبوا على أنفسهم أن يقفوا كل نشاطهم على تقدم الإسلام، وأن يقاوموا في الوقت نفسه أي لون من ألوان الخضوع للنفوذ الأوروبي»[١].

والخلاصة هنا، أن التصوف لا يحمل بين جنباته دعوة إلى الجهاد، وموالاة أتباعه للمستعمرين ومعاداتهم للمجاهدين خير شاهد، وأما جهاد بعض من يُنسبون إلى التصوف ضد المستعمرين؛ فهو نابع من تمسكهم بهدي الكتاب والسنة، كما بان ذلك من الأمثلة الثلاثة السابقة[٢]. ولا مستمسك لمن يعمم حكمهم وحالهم على جميع أهل التصوف، زاعماً أن التصوف هو الذي حملهم على مقاومة المستعمر. وذلك لأن المتصوفة - وفي سبيل تصحيح ما هم عليه- يحرصون على أن ينتسبوا إلى من لديهم أقوال وأفعال توافق الكتاب والسنة، ومن ذلك حرصهم -بشكل عام- على الانتساب إلي الجنيد -رحمه الله-، بُغية تزكية طريقتهم وما هم عليه من ضلال، فتواطئوا على ذلك، وجعلوه إماماً لطريق التصوف؛ مع أن إهل السنة يعترفون للجنيد بسلامة المنهج وموافقة الكتاب والسنة، بل إن معظم أهل السنة على تزكيته وتبرئته من كثير مما يُنسب إلى الصوفية[٣]. وهكذا الحال بالنسبة لمحاولة انتسابهم إلى من حمل لواء الجهاد قديماً؛ كابن المبارك، والعز بن عبدالسلام، وصلاح الدين الأيوبي، وحديثاً؛ كمن مرّ ذكرهم آنفاً، رحمهم الله جميعا[٤].

---

(١) سير ت. و. أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ترجمة: حسن إبراهيم وعبدالمجيد عابدين وإسماعيل النحراوي، مكتبة النهضة المصرية-القاهرة، ط بدون، ت بدون، ص٢٨١، والطبعة الأولى الإنجليزية من الكتاب نُشرت بتاريخ ١٨٩٦م.

(٢) ولا يَبعد أيضاً أن يكون هناك من المتصوفة مِن قاتل حمية أو شجاعة أو لدنيا، أو لأي لأمر آخر سوى الجهاد. وما كل من حمل السلاح عُدَّ مجاهداً.

(٣) للمزيد يُنظر: نوال بنت عبدالسلام فلاته، الجنيد بن محمد وآراؤه العقدية والصوفية، رسالة علمية (ماجستير)، غير مطبوعة، جامعة أم القرى، ١٤٢٩هـ ص٤٩١

(٤) ومن هذه المحاولات العجيبة ما قام به أسعد الخطيب في كتابه (البطولة والفداء عند الصوفية)، إذ بدأ سرد أمثلته (التاريخية) على جهاد الصوفية بأويس القرني وإخوانه من التابعين ﷺ! مروراً بابن عربي صاحب وحدة الوجود!، إلى سعيد النورسي الذي كان يمنع أصحابه من الجهاد بالنفس، ويسميه ـ«الجهاد المادي»! -كما بينت ذلك في المبحث الثاني من هذا الفصل-؛ ويُحمد للخطيب اعترافه بأن: «كتب القوم [أي الصوفية] تدور في مجملها -عدا نسبة قليلة- حول تهذيب الأخلاق، وجهاد النفس، وتطهير القلب». أسعد الخطيب، البطولة والفداء عند الصوفية،دار التقوى-دمشق، ط٥، ت بدون، ص٣٩-٤٠

وبعد، فخلاصة هذا المبحث أن الصوفية كان موقفهم موالياً وداعماً للاستعمار الغربي الذي دهم العالم الإسلامي، ولاغرو ما دمنا قد عرفنا قبل ذلك موقفهم من الجهاد في سبيل الله، فتركهم جهاد العدو المحتل أورثهم الاستسلام له، نعوذ بالله من الضلال والخذلان.

وثمة ملمحٌ أختم به هذا المبحث وهو أن المتصوفة كثيراً ما يدندنون بأنهم أهل جهاد ومقاومة، وأن منهم صلاح الدين ومحمد الفاتح وعبدالقادر الجزائري وعمر المختار..الخ، ولو سلَّمنا لهم بذلك، فإن هذا فيه إشارة منهم إلى أنهم فرقة تختلف عن أهل السنة والجماعة، وإلا لكفاهم أن يقتدوا بجهاد رسولنا الكريم ﷺ، إذ هو إمام المجاهدين عند أهل السنة والجماعة، ولأغناهم مثالُ جهاده ﷺ، وجهاد أصحابه الكرام ﷺ، ولما احتاجوا إلى التمثيل بجهاد غيرهم ممن هو دونهم. فتأمل!

الفصل الثالث

موقف مراكز البحوث الأمريكية من السلفية والصوفية، ونقده

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: السلفية في تقارير مراكز البحوث الأمريكية.

المبحث الثاني: مفهوم التصوف في تقارير مراكز البحوث الأمريكية، ونقده.

المبحث الثالث: موقف مراكز البحوث الأمريكية من رموز التصوف، ونقده.

المبحث الرابع: توصيات مراكز البحوث الأمريكية المتعلقة بالصوفية، ونقدها.

المبحث الأول

السلفية في تقارير مراكز البحوث الأمريكية

مدخل:

السلفية لا تعني العودة إلى نمط الحياة الذي كان سائداً في القرون البعيدة، وإنما تعني العودة إلى الأخذ بالأسس الدينية والأخلاقية التي تأسست في تلك القرون البعيدة، والتي نؤمن -كما أخبرنا رسولنا الكريم ﷺ- بأنها خير القرون، أو القرون المفضلة، ومضى في الفصل السابق تفصيل القول حول مفهوم السلفية، والحديث عن دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب -رحمه الله- والذي يُعد من أبرز مجددي السلفية في هذه القرون المتأخرة، إذ انبرى في مجتمعه لتنقية الدين مما لحق به من بدع وخرافات وشركيات وتعلّقٍ بغير الله، فبارك الله في دعوته التجديدية، وهيأ لها من ينصرها، فبلغت عبر السنين مشارق الأرض ومغاربها؛ فهي دعوة إلى العودة إلى التمسك بالكتاب والسنة والتعلق بالله وحده، لا كما يزعم الصوفية بأنها مذهب مخترع في الدين!

والعجب أن يُقرّ لها عدوها الفرنسي بما لم تُقرّ لها به الصوفية! فقد كَتَبَ ضابط المدفعية الفرنسي في حلب «جان ريمون»[1] في مُذكِّرة بعث بها إلى وزير الخارجية الفرنسي في حكومة «نابليون»[2] والمؤرخة في ٣٠ أيار ١٨٠٨م، ما يلي: «واعتمد صاحب الدعوة الجديدة القرآن في كل صفائه، وتم حذف الأحاديث والروايات التي أضيفت لإملاء حياة النبي بالأعاجيب، وأراد أن ينظر إلى النبي كرجل حكيم وعادل فقط، فعلّم أتباعه أن العبادة هي لله وحده، وأن كل من يُقدِّس الأنبياء والأولياء ويعطيهم صفات هي للخالق يكون مذنباً بحق الجلالة..»[3].

---

(١) لم أعثر له على ترجمة.

(٢) نابليون الأول، نابليون بونابرت 1769-1821م *Napoleon Bonaparte*) إمبراطور فرنسا (١٨٠٤-١٨١٥م)، غزا مصر (١٧٩٨-١٧٩٩م)، وهُزم من الإنجليز عام ١٨١٥م ونفوه إلى جزيرة سانت هيلانة. يُنظر: معجم أعلام المورد، ص: ٤٥٠

(٣) هذه الرسالة نشرها «لويس دوكورانسي» في مقدمة كتابه «الوهابيون، تاريخ ما أهمله التاريخ»،

وأما ما يتعلق بمراكز البحوث الأمريكية المهتمة بالعالم الإسلامي فقد مضى في التمهيد الحديث عنها بالتفصيل، وخلُصت فيه إلى أنها امتداد فكري للاستشراق التقليدي الذي لازم الهيمنة الأوروبية المباشرة على العالم الإسلامي، وإن تغيرت في الشكل والاسم والأسلوب عن الاستشراق التقليدي، إلا أن الهدف والمضمون الفكري تجاه العالم الإسلامي يكاد يكون شيئاً واحداً[1].

وبناءً على ذلك، لا يمكن الحديث عن موقف مراكز البحوث الأمريكية من السلفية دون المرور على موقف المستشرقين من دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، والتي هي في حقيقتها دعوة سلفية تجديدية.

ومن هنا، فسيكون الحديث فيما سيأتي عبر مسألتين:

الأولى: نظرة عامة على موقف المستشرقين من دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب.

والثانية: موقف مراكز البحوث الغربية من السلفية المعاصرة.

وتفصيل القول فيهما على نحو ما سيأتي، وبالله التوفيق.

ترجمة: مجموعة من الباحثين، نشر رياض الريس للكتب والنشر-بيروت، ط ت بدون، ص١٧. وهذه المذكرة عبارة عن تقرير عسكري قُدِّم إلى الحكومة الفرنسية لاتخاذ ما يلزم حيال الوهابيين، وبها مقترحات لكيفية التصدي لهم، وعليه فهذه العبارة التي نقلتها هي شهادة حق من عدو لتلك الحركة الإصلاحية في بداياتها. مع التحفظ على عبارة «ينظر إلى النبي كرجل حكيم وعادل»، إذ المسلمون أجمع -ومنهم الشيخ محمد بن عبدالوهاب- ينظرون إلى رسولنا الكريم ﷺ على أنه نبي كريم معصوم.

(١) للمزيد حول علاقة مراكز البحوث الغربية بالاستشراق يُنظر: صالح الغامدي، الإسلام الذي يريده الغرب، مركز الفكر المعاصر-الرياض، ط٢، ١٤٣٤هـ ص: ٣٣-٤٢

المسألة الأولى: نظرة عامة على موقف المستشرقين من دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب

لقد نالت مسألة «موقف المستشرقين من دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب» نصيبها من اهتمام الباحثين المسلمين، وقد وقفت على ثلاث دراسات تناولت هذه المسألة على وجه الخصوص، وهي:

الدراسة الأولى: بعنوان «الشيخ محمد بن عبدالوهاب حياته ودعوته في الرؤية الاستشراقية» وهو كتاب منشور للدكتور ناصر التويم، وهو بحث أكاديمي موضوعي، عرض فيه الدكتور التويم أبرز ما خطته أقلام المستشرقين والرحالة الغربيين عن الشيخ محمد بن عبدالوهاب ودعوته، ثم انتقدها بأسلوب موضوعي؛ ذاكراً ما أصابوا فيه وما أخطأوا، وخلُص فيما خلُص إلى أن: «أغلب الكتابات الاستشراقية حول حياة الشيخ محمد بن عبدالوهاب وتكوينه العلمي غير صحيحة وغير دقيقة، لاعتمادها غالباً على المصادر الفرعية أو المعادية، وإغفالها المصادر التاريخية الموثوقة علمياً»[1]، و«اتضح أيضاً من الدراسة أن أغلب الكتابات حول دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب غير صحيحة وغير دقيقة؛ لاعتمادها على المصادر غير الموثقة أو المعادية وإغفالها المصادر التاريخية الموثوقة علمياً»[2].

وخلُص أيضاً إلى :«عدم صحة ما عَلِق بأذهان عدد من المستشرقين حول سِمات مذهبيةِ دعوة الشيخ محمدبن عبدالوهاب التي تتمثل في التشدد والتعصب والبدائية والعدوانية، مما جعلهم يفرقون بين دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب وأهل السنة»[3]، ولاحظ الدكتور التويم: «الضعف الواضح لدى أغلب المستشرقين في معرفة الأحكام الشرعية، مما أوقعهم في أخطاء كثيرة عند حديثهم عن الجانب التشريعي والسلوكي لدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب»[4].

---

(١) ناصر بن إبراهيم التويم، الشيخ محمد بن عبدالوهاب حياته ودعوته في الرؤية الاستشراقية (دراسة نقدية)، نسخة مصورة من الأصل، ت بدون، ص٩٩

(٢) المرجع نفسه، ص١٠٠

(٣) المرجع نفسه، ص١٠٠

(٤) المرجع نفسه، ص١٠٠-١٠١

الدراسة الثانية: بعنوان «موقف المستشرقين من دعوة الإمام محمد بن عبدالوهاب»، وهي رسالة علمية للباحث مرسال المحمادي، ولم تَبعُد في خلاصتها عما ذكره التويم، وتميزت ببسط القول في رد دعاوى المستشرقين ومطاعنهم في دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب[1].

الدراسة الثالثة: بعنوان «دراسة المستشرقين للجوانب العقدية والفكرية في حركة الشيخ محمد بن عبدالوهاب»، وهي أيضاً رسالة علمية للباحث محمد عبدالرزاق، وقد عرض فيها أيضاً شُبه المستشرقين ودعاويهم حول دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، وأتى عليها نقضاً وتفنيداً، وتميزت هذه الدراسة بأنها انطلقت من اهتمام المستشرقين بالحركة السلفية بشكل عام، ومن هذا الباب العام (الاهتمام) ولج الباحث إلى موقف المستشرقين من حركة الشيخ محمد بن عبدالوهاب بشكل أخص؛ على اعتبار أنها حركة سلفية يقظة لفتت انتباه الغربيين، ولذلك لم يُغفل الباحث الحديث عن المفهوم الغربي للسلفية[2].

والخلاصة العامة التي يلحظها قارئ هذه الدراسات العلمية الثلاث هي أن المستشرقين رسموا صورة سلبية قاتمة عن دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب[3]، ولعل أبشعها ما ورد على لسان المستشرق الفرنسي «إدوارد جوان»[4] والذي زعم فيها بأن: «عبدالوهاب واضع أساس

---

(١) يُنظر: مرسال عبدالله المحمادي، موقف المستشرقين من دعوة الإمام محمد بن عبدالوهاب (عرض ونقد)، رسالة علمية (ماجستير)، غير مطبوعة، ت بدون، جامعة أم القرى.

(٢) يُنظر: محمد عبدالرزاق خير الدين حبيب، دراسة المستشرقين للجوانب العقدية والفكرية في حركة الشيخ محمد بن عبدالوهاب (دراسة تحليلية نقدية)، رسالة علمية (ماجستر)، غير مطبوعة، جامعة الإمام محمد بن سعود-فرع المدينة المنورة (سابقاً)، ١٤١١هـ ص١٥-٣٥

(٣) تلك الصورة السلبية القاتمة -كما عرضتها هذه الدراسات الثلاث- تدور في مجملها حول مسألة التعصب والرجعية والتشدد وسفك الدماء! ورغبة في الاختصار آثرت الإشارة إليها فقط هنا دون التفصيل، وبخاصة أن هذه الدراسات أجادت في عرض تلك الافتراءات ونقدها، ويُلاحظ المُطالع لها تنوع وكثرة الشبهات والمطاعن الاستشراقية في حق دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، إذ قد تجد في إحداهن من المطاعن ما لا تجده في الدراسة الأخرى، وما ذاك إلا لكثافة تلك المطاعن وكثرتها، وكثرة أيضاً عدد المستشرقين والرحالة الغربيين الذين كتبوا عن دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب.

(٤) لم أعثر له على ترجمة.

المذهب الوهابي جعل شارة مذهبه «الفوز أو الموت» فجمع تحت هذا العنوان القصير كل الوسائل التي تبيح له التعدي بالقتل على كل مخلوق لا يرتضي الوهابية مذهباً له»!![1].

وللأسف أن تلك الكتابات باتت هي المرجع (العلمي) في الغرب عن دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب حتى يومنا هذا، لا سيما وقد حوتها الموسوعات والقواميس الاستشراقية، والتي -كما يشير الدكتور التويم- باتت تُشكل خطراً؛ لأنها وقعت في عدد كبير من الأخطاء حول رؤيتها للشيخ محمد بن عبدالوهاب ودعوته، ولأنها أيضاً تُستخدَم بكثرة من قبل المختصين والمهتمين بتلك الدعوة[2].

ومن جهة ثانية، فإن نظرة عامة إلى حقبة الاستشراق التقليدي ودوافعها ووقتها الذي زامن الاستعمار الغربي الأوروبي لغالب بقاع العالم الإسلامي تقود إلى نتيجتين اثنتين:

الأولى: أن تلك الرؤى الاستشراقية لما يجري في العالم الإسلامي من حراك تأتي -بشكل عام- في سياق نظرة القوي المتفوق إلى المحكوم عليه -مسبقاً- بالضعف والتخلف! ومن هنا أتى ذلك الكم الهائل من المغالطات في حق تلك الحركة السلفية اليقظة، ومن هنا أيضاً فلا وزن عند القوم لبعض الأقلام الاستشراقية القليلة التي أنصفت تلك الحركة، فهي -وببساطة- تخالف التوجه الاستعلائي (الاستعماري-الاستشراقي) السائد في ذلك الحين.

الثانية: أن تلك الدراسات الاستشراقية -بشكل عام- تأتي أيضاً في سياق تكريس الهيمنة الاستعمارية في العالم الإسلامي، وبالتالي فمن الطبيعي -والحالة هذه- أن تنتقص وتشوه تلك الحركة السلفية اليقظة، والتي باتت تهدد تلك الهيمنة، فالتأم الظلم العلمي (الاستشراقي) مع الظلم

---

(١) إدوارد جوان، مصر في القرن التاسع عشر، تعريب: محمد مسعود، ط١، القاهرة سنة١٣٤٠هـ-١٩٢١م، ص٦٠٩. وقد قامت الطريقة العزمية بمصر عام ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م بإعادة طبع الباب الثامن من هذا الكتاب والذي عنوانه (الوهابية والوهابيون) وأخرجوه في كتاب من جزأين بعنوان (الدين الجديد-الوهابية والوهابيون ١٨١١-١٨١٨م).

(٢) يُنظر: ناصر التويم، الشيخ محمد بن عبدالوهاب حياته ودعوته في الرؤية الاستشراقية، ص٩٨

العملي (الاستعماري).

وأختم هذه المسألة بكلمةٍ للمستشرق «لورانس»[1]؛ تختصر ما مضى، وهي أيضاً مفتاحٌ وتمهيد لفهم ما سيأتي في المسألة الثانية! يقول «لورانس»: «إن وجود حركة إسلامية متحمسة كالوهابية في الأراضي الإسلامية المقدسة خطرٌ حقيقي على مصالحنا وأهدافنا لأن أطماعها واسعة إلى حد إثارة فطرة الإيمان في نفوس المسلمين، مما يعني العودة إلى حضارة الإسلام كما كانت في عهد الرسول والخلفاء الراشدين وسيطرة المسلمين المتحمسين جيلاً بعد جيل على مقادير العالم الإسلامي مما يهدد السيطرة على العالم أجمع»[2].

المسألة الثانية: موقف مراكز البحوث الغربية من السلفية المعاصرة

إن القارئ لما تُسطِّره مراكز البحوث الأمريكية في تقاريرها ودراساتها عن السلفية لن يجد عناءً في إدارك أن صورة السلفية عندها إنما هو إعادة إنتاج لتلك الصورة السلبية التي رسمها المستشرقون حول السلفية، وأن باحثي تلك المراكز إنما استقوا تلك الصورة المشوَّهة مما وجدوه مكتوباً جاهزاً بين أيدهم عن السلفية في مؤلفات وموسوعات وقواميس أسلافهم المستشرقين.

ولذلك سأكتفي في هذه المسألة بإيراد نماذج مما ورد في تقارير بعض مراكز البحوث الأمريكية، دون الحاجة إلى تحليل نوعية الموقف، فهو واضح في السلبية؛ كشمس رابعة النهار! وسأركز على تقارير ثلاثة مراكز بحثية أمريكية، وهي «مؤسسة راند[3]» *RAND Corporation*، و«مؤسسة

---

(١) لورانس *Lawrence, T. E*. (١٨٨٨-١٩٣٥م)، مستشرق إنجليزي، تلقى العلم في أكسفورد، بلغ رتبة مقدم في الجيش، وعمل في سلاح الطيران الملكي، انضم إلى الثورة العربية ضد الحكم العثماني (خدمة لمصالح بلده)، من آثاره: «أعمدة الحكمة السبعة»، و«ثورة في الصحراء العربية»، و«القلاع الصليبية»، وغيرها. يُنظر: المستشرقون للعقيقي، ٢/ ٥١١. وقد لقي هذا المستشرق اهتماماً كبيراً من النقاد والمؤلفين؛ وما ذاك إلا للدور الكبير (الخفي) الذي قام به وسط العرب، خدمة للمصالح البريطانية في المنطقة آنذاك.

(٢) نقلاً عن: زهدي الفاتح، لورنس العرب على خطى هرتزل، دار النفائس-بيروت، ط٢، ١٤٠٦هـ ص١٥٢

(٣) تأسَّست مؤسسة راند عام ١٩٤٥م، في سانتا مونيكا غرب الولايات المتحدة، ولها اليوم ثمانية

كارنيغي للسلام الدولي[1] «Carnegie Endowment for International Peace، ومعهد بروكنجز[2] Brookings Institute، للأسباب التالية:

أولاً: أن هذه المراكز الثلاثة لها تاريخها العريق في الولايات المتحدة، ولها مشاركاتها البحثية الفاعلة في الشأن السياسي الأمريكي الخارجي.

ثانياً: أن هذه المراكز الثلاثة لها فروع مباشرة في العالم الإسلامي، فمؤسسة راند لها فرع في دولة قطر باسم «معهد راند-قطر للسياسات»[3]، ومعهد بروكنجز له أيضاً فرع في دولة قطر باسم «معهد بروكنجز الدوحة»، ومؤسسة كارنيغي لها فرع في بيروت باسم «مركز كارنيغي للشرق الأوسط». وهذا ما يعطي هذه المراكز الثلاثة ميزة إضافية عن غيرها من المراكز الأمريكية، كونها حاضرة ميدانياً في العالم الإسلامي.

ثالثاً: أن عدد مراكز البحوث الأمريكية من الكثرة بمكان، ما يتعذر معه الإحاطة بها في مثل هذه الدراسة، وبالرغم من ذلك فسأبذل الجهد في إيراد نماذج لتقارير أخرى غير هذه الثلاثة، وهكذا سأسير أيضاً في المباحث التالية من هذا الفصل.

وعوداً على بدء، فإن موقف مراكز البحوث الأمريكية (السلبي) من السلفية يتضح بجلاء فيما سيأتي من أمثلة لبعض تقارير هذه المراكز الثلاثة

= فروع داخل أمريكا وخارجها، ويتبع لها أيضاً العديد من المراكز البحثية المتخصصة، وقد أثارت أبحاثها المتعلقة بالعالم الإسلامي في السنوات الأخيرة حفيظة المسلمين؛ كونها تحمل توصيات للحكومة الأمريكية تمس دينهم وثقافتهم. للمزيد عن تاريخ مؤسسة راند يُنظر: موقع راند الإليكتروني http: //www.rand.org

(١) تأسَّست كارنيغي (أو وقف كارنيغي) في عام ١٩١٠م، في العاصمة واشنطن؛ كمؤسسة بحثية غير ربحية، ويتبع لها اليوم أربعة فروع حول العالم، إضافة إلى العديد من المراكز البحثية المتخصصة، يُنظر: موقع كارنيغي الإلكتروني: http: //carnegieendowment.org

(٢) تأسس معهد بروكنجز عام ١٩١٦م، في العاصمة واشنطن، وله اليوم فرع في الدوحة وآخر في الصين، وله أيضاً العديد من المراكز البحثية المتخصصة داخل أمريكا، يُنظر: موقع بروكنيجز الإلكتروني: http: //www.brookings.edu

(٣) ملاحظة: أثناء إعداد هذه الرسالة للطبع كانت مؤسسة راند قد أغلقت فرعها في قطر، وذلك بعد انتهاء عقدها الموقع لمدة عشر سنوات مع مؤسسة قطر، وذلك بنهاية عام ٢٠١٣م. ويأتي هذا الإغلاق بالتزامن تقريباً مع ازدياد شراكة مؤسسة راند البحثية والاستشارية مع حكومة إقليم كردستان العراق، و غيرها من دول المنطقة.

وغيرها، وقد رتبت إيراد تلك التقارير بحسب المركز البحثي الـمُصدر له، وذلك على النحو الآتي[1]:

أولاً: مؤسسة راند *RAND Corporation*

في تقريرها «إسلام حضاري ديمقراطي، شركاء وموارد واستراتيجيات» *Civil Democratic Islam: Partners, Resources, and Strategies* عرَّفت مؤسسة راند الوهابي بأنه: «نموذجٌ متطرف متزمت وعدواني من الإسلام المتشدد، تأسس في القرن الثامن عشر الميلادي، وقد تبناه آل سعود دون غيره من أشكال الإسلام الأخرى، مثل الإسلام الصوفي، والإسلام الشيعي، والإسلام المعتدل بشكل عام، باعتبارها انحرافات غير صحيحة عن الدين الحقيقي، حيث أن الطموحات التوسعية لهذا التيار يتم تمويلها بقوة من قبل الحكومة السعودية»[2].

وفي التقرير ذاته عرَّفت مؤسسة راند الأصوليون بأنهم الذين: «يقدمون نظرة عدائية توسعية لإسلام لا يستبعد استخدام العنف، ويرغبون باستلام زمام السيطرة السياسية ومن ثم تطبيق الإسلام وفقـًا لمنظورهم الخاص وفرضه بالإكراه على أكبر عدد ممكن من مجتمعات العالم»[3]، ثم ضربت لهذا التعريف مثلاً بالوهابيين في السعودية![4]، ثم خلص التقرير إلى: «أن مذهب الأصوليين لا يتماشى بشكل عام مع قيم المجتمع المدني والرؤية الغربية للحضارة والنظام السياسي والمجتمع»[5].

ثم أصدرت مؤسسة راند بعد ذلك تقريراً موسعاً عن العالم الإسلامي يحمل عنوان «العالم المسلم بعد ١١-٩» *The Muslim World after 11/9*،

---

(١) فيما سيأتي من الأمثلة؛ تارة أستخدم عبارة «قال التقرير»، وأخرى «قالت المؤسسة أو المركز»، وكلاهما يحمل ذات الدلالة. وهكذا فيما سيأتي من أمثلة في مباحث هذا الفصل.

(٢) مؤسسة راند، تقرير «الإسلام الديمقراطي المدني» (إسلام حضاري ديمقراطي)، ترجمة: موقع إسلام ديلي، ٢٠٠٤م، ص١٦. وأشير هنا إلى وجود نسخة عربية من هذا التقرير صادرة من مؤسسة راند مباشرة بعنوان «إسلام حضاري ديمقراطي»، وقد اقتبست هذا التعريف من ترجمة إسلام ديلي لإغفال المؤسسة تعريب «قائمة الكلمات» على الرغم من أهميتها، فتأمل!

(٣) المرجع نفسه، ص١٥

(٤) مؤسسة راند، تقرير «إسلام حضاري ديمقراطي»، ص١٦

(٥) المرجع نفسه، ص١٦

شارك في إعداده ثمانية من باحثيها (مستشرقيها)، وقد سار على منوال التقرير السابق في تشويه السلفية «الوهابية»، وربطها بالأصولية مفهوماً، وبالسعودية منشأً ومصدراً، ولكن الحديث عن السلفية في هذا التقرير كان أكثر تشويها لها وأوضح تحريضاً عليها، ولا غرو إذا علمنا أن التقرير (من خلال ملاحظة المَراجع في هوامشه) اعتمد في مصادره عن «الوهابية» على «الموسوعة الإسلامية الموجزة» *The Concise Encyclopedia of Islam*، وهي بطبيعة الحال موسوعة استشراقية، حرر مادة «الوهابية» فيها المستشرق الإنجليزي «هاميلتون جب»[١] و الهولندي «كرايمير»[٢]. واعتمد التقرير أيضاً على كتاب: «الوهابية، بحثٌ نقدي» *Wahhabism: A Critical Essay* للأستاذ الشيعي «حامد ألجار»[٣]، وماذا عسى الشيعي أن يكتب عن السلفية «الوهابية»؟!

الجديد والملفت للانتباه أن هذا التقرير سعى جاهداً إلى تكييف الإرث الاستشراقي الأوروبي على نحوٍ يُناسب متطلبات تكريس الهيمنة الأمريكية الجديدة، أو -بعبارة أخرى- على نحوٍ يُنبذَ معه كل ما يضاد الهيمنة الأمريكية، وعلى رأس ذلك -بطبيعة الحال- الوهابية (السلفية)، والتي سبق وأن حذرهم من خطورتها على الغرب (الأوروبي) سلَفهم المستشرق الجاسوس «لورانس» كما بيَّنت ذلك في ختام المسألة الأولى-.

ولذلك فالوهابية في التقرير هي: «الأصولية ذات المنشأ القبلي»[٤]،

---

(١) هاملتون جب *Hamilton Gibb* (1895-1971م)، مستشرق إنجليزي، ولد في الإسكندرية، اهتم باللغات الشرقية، وحصل على الماجستير من جامعة لندن وعُيِّن معلماً للغة العربية بها، ثم أستاذاً للغة العربية بجامعة أكسفورد، شارك في إعداد «دائرة المعارف الإسلامية»، من مؤلفاته: «فتوح العرب في آسيا الوسطى»، «المجتمع الإسلامي والغرب». يُنظر: موسوعة المستشرقين.

(٢) كرايمير *Kraemer. H.* (1888-1965م)، مستشرق وعالم دين هولندي، بدأ نشاطه بخدمة الرسالة البروتستانتية في جاوة، ثم عين أستاذاً لتاريخ الديانات في جامعة ليدن، وقد عُدَّ من كبار الباحثين في الدين الإسلامي، من مؤلفاته: «مجموعة صوفية من جاوة»، «الإسلام في الهند اليوم»، «مطالب الإسلام الجديدة». يُنظر: المستشرقون للعقيقي.

(٣) حامد ألجار *Hamid Algar*، أمريكي من أصل بريطاني، ولد عام ١٩٤٠م، تحول إلى الإسلام عبر بوابة التشيع، أستاذ بقسم دراسات الشرق الأدنى بجامعة كاليفورنيا-بيركلي، مهتم بدراسة التشيع والتصوف، وربطته علاقة شخصية بالخميني، من مؤلفاته: «الإمام الخميني ١٩٠٢-١٩٦٢م سنوات ما قبل الثورة»، و«الصوفية: المبادئ والتطبيق»، وغيرهما. يُنظر: مجلة المجلة، عدد ٨ سبتمبر ٢٠١٢م.

(٤) مؤسسة راند، تقرير: العالم المسلم بعد ١١/٩، ٢٠٠٤م نسخة مُعرَّبة، ص٤٨

وهي: «مصدر الإلهام لإيديولوجيات الأصوليين الراديكاليين والأصوليين»[1]، ويضرب التقرير مثالاً للأصوليين المتطرفين الراديكاليين بالسلفيين الجهاديين في السعودية والكويت، وللتيار الأصولي العام بالمؤسسة الوهابية في السعودية وقطر[2].

وهؤلاء جميعاً -بحسب توصيف التقرير-: كلهم رجعيون، ولهم أجندة دينية سياسية، وتفسيراتهم حرفية للنصوص الإسلامية، مع استحداثات سياسية أخرى، وتركز الأولى (السلفية الجهادية) على واجب الجهاد، لأن لها خصائص ثوريةٍ مناهضةٍ للوضع الراهن، وترفض الديمقراطية، بينما الثانية (المؤسسة الوهابية) متحفظة سياسياً، وهم جميعاً يسعون لتأسيس دولة تقوم على أصول الشريعة الصارمة، ويرون وجوب استمداد التشريعات السياسية من الشريعة الإلهية، ويرفضون مفهوم الغرب لحقوق الإنسان والحريات الشخصية، ويؤمنون أن التطبيق الكامل للشريعة الإسلامية يخلق مجتمعاً عادلاً[3].

ولم يُغفل التقرير مسألة التمويل والتي -كما يذكر- قد تؤدي إلى تطبيق ما مضى على أرض الواقع، فقال: «كان للتمويل السعودي وتصدير النسخة الوهابية من الإسلام على مدار الثلاثة عقود الماضية التأثير -سواء بقصد أم لا- في تحفيز زيادة التطرف الديني في العالم الإسلامي»[4].

وقال أيضاً: «وأصبح تصدير الأموال الـمُكوِّن الأساسي في نشر الوهابية في جهد لنشر الهيمنة السعودية على الإسلام»[5].

والملفت للانتباه أيضاً أن التقرير -عن عمد أو جهل؟!- أخرج الوهابية من السلفية المعاصرة، بزعم أن الأولى تأسست قبل الثانية بنحو ١٥٠ عاماً، ولذلك لم يجد بُداً من أن يشير إلى أن بعض السلفيات تتطابق

---

(١) المرجع نفسه، ص١٣٢
(٢) المرجع نفسه، ص٣٨
(٣) يُنظر: المرجع نفسه، ص٣٨-٤٠، ١٠٩-١١٥
(٤) المرجع نفسه، ص٧٢
(٥) المرجع نفسه، ص١٣٤

مع الوهابية[1]، مع الانتقاص في ذات الوقت من السلفية؛ إذ يقول: «ويتميز السلفيون بالتحفظ والتطرف، ويركزون على المظاهر الخارجية للتقوى مثل إطلاق اللحى والزي الإسلامي والفصل بين الرجل والمرأة. ويسعى السلفيون لإيجاد مجتمع أكثر إسلاما وليس بالضرورة أن يتم ذلك من خلال السياسة التقليدية»[2].

وعلى الرغم من كل هذا الهجوم على السلفية إلا أن التقرير أشار إلى أن ثمة حركات سلفية ليس لها أجندة سياسية، وأخرى تأثرت بالاتجاهات المعتدلة للإسلام[3]، بل إنه جعل للوهابية فرعاً إصلاحياً في السعودية وقطر، وهذا الفرع -كما يقول- منعدم الارتباط بالإرهاب، ويؤمن بأنه يجب تطويع الشريعة للظروف الحديثة، وأنها تأتي من خلال الإرادة الشعبية عبر انتخابات حرة[4].

وهذه الاتجاهات السلفية تقع -بحسب التقرير- ضمن شبكات الاعتدال التي أوصى بدعمها[5]، وهذا التيار الذي نسبه التقرير إلى السلفية تتضح معالمه أكثر في تقريري «إسلام حضاري ديمقراطي» و«بناء شبكات مسلمة معتدلة» وهو التيار العقلاني أو العصراني أو «التجديدي»، كما سمّاه تقرير «إسلامي حضاري ديمقراطي»، وهم -باختصار- من يرى تطويع الإسلام بحسب مقتضيات الحضارة المدنية (الغربية) المعاصرة.

وأما تقرير مؤسسة راند الصادر عام ٢٠٠٧م «بناء شبكات مسلمة معتدلة» *Networks Building Modrate Muslim* فقد كان أكثر شمولاً ووضوحاً من سابقَيه، إذ شمل في رصده متابعة المسلمين في العالم الإسلامي وخارج العالم الإسلامي، وذلك بحثاً عن المعتدل الذي ينبغي أن تدعمه

(١) بيّنت في الفصل السابق مفهوم السلفية، وأنها منهج وليست مذهبا، ولذا فهي شيءٌ واحد منذ صدر الإسلام إلى يومنا هذا، وبما أنها منهج فلها أسماء عدة عبر التاريخ؛ كأهل السنة والجماعة، وأهل الحديث، والموحدون..، إلا أن مسمى السلفية هو الذي غلب في هذا الزمان.

(٢) المرجع نفسه، ص٤٧

(٣) يُنظر: المرجع نفسه، ص٤٧

(٤) يُنظر: المرجع نفسه، ص١٠٩-١١٥

(٥) يُنظر: المرجع نفسه، ص٩٢

أمريكا، سواءٌ أكان فرداً أم جهة، وكذلك كان أكثر وضوحاً في الهجوم على السلفية، والتي تارة ما يسميها بالسلفية وأخرى بالوهابية، والتي تُمثل عنده التطرف والأصولية، جعل من السعودية مركزاً ومَصْدراً لها، إذ جاء فيه -وهو يتحدث عن التطرف بشكل عام-: «ولو تركنا جانباً رغبة هؤلاء المتطرفين في اللجوء للعنف لإجبار رفقائهم المسلمين على العمل وفق آرائهم السياسية والدينية، فسنجد أن هؤلاء المتطرفين يتمتعون باثنين من المزايا المهمة على المسلمين المعتدلين والمتحررين؛ الميزة الأولى: هي المال، فلقد كان للتمويل السعودي من أجل نشر النسخة الوهابية الجديدة من الإسلام خلال العقود الثلاثة الأخيرة أثر كبير سواء كان المقصود منه زيادة التطرف الديني في العالم الإسلامي أم لا. فقد تم إغلاق مؤسسة الحرمين الخيرية المعتمدة على التمويل السعودي لأنها كانت تمول المنظمات الإرهابية من البوسنة حتى جنوب شرق آسيا. أما الميزة الثانية التي يتمتع بها المتطرفون فهي التنظيم، فقد عملت الجماعات المتطرفة على زيادة شبكات الاتصال المكثفة عبر السنين؛ وهذه الشبكات نفسها تُعتبر جزءاً من شبكة العلاقات الدولية. فقد تم تأسيس رابطة العالم الإسلامي (*WMIL*) في عام ١٩٦٢م وقد كان مفتي المملكة العربية السعودية رئيساً لها، وقد كان الهدف من هذه الرابطة إبراز النسخة السعودية من الإسلام في الميدان الدولي، وقد أدت ايضاً إلى إنشاء علاقة وطيدة بين الوهابيين والسلفيين، وتشمل شبكة الاتصال الدولية الخاصة بالوهابيين أيضاً الاتحاد الإسلامي للمنظمات الطلابية والندوة العالمية للشباب الإسلامي ورابطة الطلاب المسلمين بكندا وأمريكا الشمالية»[1].

وأما توصيف التقرير لانتشار السلفية خارج السعودية فقد كان أشبه بالتقرير العسكري في رصده للسلفية «الوهابية»! فتراه يستخدم لفظ «اختراق»، في مثل قوله: «في البلقان، التيارات الإسلامية المعتدلة -وخاصة

(١) مؤسسة راند، تقرير«بناء شبكات مسلمة معتدلة»، ٢٠٠٧م، نسخة معرَّبة بواسطة الباحث، ٢٠٠٧م، ص٣٣

الصوفية- هي المنتشرة، بالرغم من أن المؤسسات السعودية نشطة في البوسنة وأجزاء أخرى من المنطقة، وبالرغم أيضاً من وجود بعض الاختراقات الوهابية لجوامع ومؤسسات إسلامية»[1]، ويستخدم أيضاً لفظ «حصار» كما في قوله: «"هرياتي بكداشي تيق" في مدينة تيتوفا بمقدونيا، تعتبر مؤسسة صوفية رئيسية في البلقان لكنها الآن تحت الحصار الوهابي»[2]، ويستخدم لفظ «غزو» في حديثه عن دول الخليج المجاورة للسعودية إذ يقول: «الجماعات الأكثر تنظيماً هم السلفيون والوهابيون والذين يقومون بغزو تلك الدول»[3]!.

ولن يجد قارئ التقرير عناءً في ملاحظة مدى قلقه من خطورة السلفية أو الإسلام السعودي -كما يسميه-؛ فتراه يتتبعه من الفلبين قائلاً: «هناك عدة مدارس يومية متطرفة غير معتمدة، بعضها أسسه سعوديون»[4]، إلى مصر، حيث يقول: «الإسلام المصري في جوهره معتدل، العديدون أبرزوا تباينه عن الشكل السعودي»[5]، إلى أوروبا فيقول: «معظم المنظمات التي تدعي أنها تمثل المسلمين هي سلفية في التوجه أو مصاحبة أو تتساهل مع الجماعات المتطرفة»[6].

ولا يفوت التنبيه هنا إلى أن الفصل الثاني من تقرير «بناء شبكات مسلمه معتدلة» خصصته راند للحديث عن تجربة الحرب البادرة وطُرق الاستفادة منها اليوم. ولذا يمكننا القول -باختصار- بأن مؤسسة راند جعلت من السلفية عدواً بديلاً عن الشيوعية، وحددت من السعودية موطن ذلك العدو[7]، وتتبعَت امتداده خارج موطنه الأصلي، واقترحت الشركاء المناسبين لمواجهة ذلك العدو الجديد، ومنهم الصوفية.

---

(١) المرجع نفسه، ص١٢٢
(٢) المرجع نفسه، ص١٢٣
(٣) المرجع نفسه، ص١٣٢
(٤) المرجع نفسه، ص١٢٦
(٥) المرجع نفسه، ص١٣١
(٦) المرجع نفسه، ص١١٩
(٧) سيأتي مزيد بيان لهذه المسألة المهمة في الفصل الرابع.

ثانياً: مؤسسة كارنيغي للسلام الدولي

Carnegie Endowment for International Peace

في تقارير هذه المؤسسة البحثية أيضاً لن يجد القارئ عناءً لكي يدرك كثافة المعاني السلبية ضد السلفية، فعلى سبيل المثال نجدها حتى في عنوان أحد تقاريرها تبث تلك السلبية! وهو تقرير «السلفية وسياسة التطرف في جزائر ما بعد الصراع»! وأما إذا ما ولجنا في مضمون ذلك التقرير فسنجده حافلاً بتشويه السلفية وذمِّها، مُبتدِئاً بالتأكيد على فشل الحكومة الجزائرية في القضاء عليها، إذ يقول بأن: «الحكومة الجزائرية لم تتمكن من احتواء التطرف الإسلامي الذي تمثله تيارات سلفية عدة»[1]، وتلك التيارات - بحسب تعبيره- هي: السلفية الجهادية، والسلفية السياسية، والسلفية الدعوية المتأثرة بالحركة الوهابية السعودية[2]، والعجيب أنه وبالرغم من توصيفه للسلفية الدعوية بأنها بعيدة عن السياسة، وأنها انتشرت في الجزائر -مستفيدة من الازدهار الاقتصادي- عبر العديد من الشبكات الاستثمارية، إلا أنه وصفها بالعنف! إذ يقول منتقداً لها: «هذه الراديكالية اللاسياسية تُعتبر مناقضة للفكرة القائلة أن انتشار الإسلام المتطرف بين الشباب مرتبط على حدٍّ ما بالظروف الاقتصادية الصعبة»[3]!.

وفي تقرير آخر لكارنيغي بعنوان «السلفيون والصوفيون في مصر» يُعلق التقرير على البروز السلفي في الساحة السياسية في مصر بعد ثورة ٢٥ يوليو ٢٠١١م قائلاً: «تسبب هذا في قدر كبير من الذعر في مصر وفي أوساط المراقبين في الخارج. إذ أن فهم السلفيين المتقشّف والمتشدد للشريعة الإسلامية والعبادة يخيف الكثيرين، ويثير مخاوف واضحة إزاء وجود حكومة دينية على غرار إيران»[4].

فالسلفية إذا عند مؤسسة كارنيغي تعني التشدد والتطرف والعنف، حتى وإن ابتعد بعض أتباعها عن المجال السياسي كما في المثال الجزائري!

---

(١) مؤسسة كارنيغي، تقرير «السلفية وسياسة التطرف في جزائر ما بعد الصراع»، النسخة العربية، ٢٠٠٨م، ص٤

(٢) يُنظر: المرجع نفسه، ص٥

(٣) المرجع نفسه، ص٤

(٤) مؤسسة كارنيغي، تقرير «السلفيون والصوفيون في مصر»، النسخة العربية، ٢٠١١م، ص١٥

ثالثاً: معهد بروكنجز Brookings Institute

ينطلق أيضاً معهد بروكنجز في تناوله للسلفية من مُسلَّمة استشراقية وهي أن السلفية تعني التطرف! فتراه في تقرير «وهم استبعاد الإسلاميين المعتدلين في العالم العربي» *The Myth of Excluding Moderate Islamists in the Arab World* يقول: «اليوم، ومن السعودية إلى المغرب، هناك صعود واضح للحركات السلفية المتطرفة من مختلف الأنواع»[1]، وهذه الأنواع كما أشار إليها هي التقليدية والجهادية والسياسية، ويرى في الأخيرة الأكثر خطراً؛ كونها تنمو بسرعة داخل المجتمع العربي! وأنها كالأخريات ترى في الغرب -وبخاصة الولايات المتحدة على أنه عدو خطير- بدلاً من أن يكون شريكاً محتملاً[2]، ويضيف التقرير بأن: «المسار السلفي أيضاً يقدم رسالة ثقافية ضيقة للغاية، ويرى العالم من خلال ثنائية «المؤمنين والكفار» و«الخير والشر»، ولذلك يبنون حواجز بين السلفيين وبين بقية المجتمع»[3].

ثم ينصح التقرير الحكومة الأمريكية بدعم الإسلاميين المعتدلين لأنهم هم صمام الأمان تجاه صعود السلفية المتطرفة إذ يقول: «فإنه في مصلحة الولايات المتحدة التشجيع على دمج الإسلاميين المعتدلين في الساحة السياسية لأنه يعكس المثُل الأمريكية، والمزايا المضافة هي أن الإسلاميين يلعبون دوراً هاماً في كبح التطرف والإرهاب داخل العالم العربي وما وراءه، فالإسلاميون المعتدلون هم الخيار المفضل في ضوء صعود السلفية السياسية الجديدة التي تدعم النشاطات السياسية من وجهة نظر دينية وسياسية ضيقة»[4].

ومعيار الاعتدال الإسلامي الذي ينصح التقرير أمريكا بأن تلاحظه هو: «الحد الذي تقبل فيه الحركات الإسلامية المشاركة السياسة السلمية، ولا

---

(١) معهد بروكنجز، تقرير «وهم استبعاد الإسلاميين المعتدلين في العالم العربي»، ٢٠١٠م، تعريب مجلة البيان، رابط النسخة المعربة على موقع المجلة: http: //albayan.co.uk/text.aspx?id=542

(٢) يُنظر: المرجع نفسه.

(٣) المرجع نفسه.

(٤) المرجع نفسه.

تعتمد فيه على المليشيات، وتقبل قيم الديمقراطية ومكوناتها المختلفة مثل الحرية والتسامح والمساواة بصرف النظر عن الدين أو العرق أو الجنس»[1].

وفي تقرير آخر لمعهد بروكنجز بعنوان «ردة فعل الإسلاميين تجاه القمع» يُحذِّر المعهد من تساهل الأنظمة العربية مع السلفيين وإشراكهم في الانتخابات؛ وتشديدها من جهة ثانية على الإسلاميين المعتدلين، إذ يقول: «إن قيام الانتخابات بدون مشاركة الإسلاميين سوف يقلل من شرعيتها وسيفتح الباب للجماعات السلفية على ملء هذا الفراغ الذي تركه الإسلاميون، نظراً لمنعهم الشديد دخول المعترك السياسي، فتنظر الأنظمة الحاكمة لجماعة السلفية على أنها لا تمثل أي خطر بالرغم من تمسكها الشديد بتطبيق الشريعة الإسلامية، وكنتيجة لذلك، تتيح الأنظمة الحاكمة لجماعة السلفية فرصة أكبر للعمل، وإن كان من مصلحة هذه الأنظمة أن تفعل ذلك، إلا أن ذلك يعارض المصلحة الأمريكية»[2].

وهكذا نجد أيضاً ذات الصورة السلبية المشوهة لدى هذا المعهد البحثي، بالرغم من أنه وسابقَيه لهم فروع مباشرة في العالم الإسلامي، ولكنها العقلية الغربية المتوحشة الباحثة عن عدو!

رابعـًا: معهد الولايات المتحدة للسلام[3] *United States Institute of Peace*

تحت ملاحظة (تقرير خاص) *SPECIAL REPORT* نَشَرَ معهد السلام الأمريكي تقريراً بعنوان «الإسلام السياسي في جنوب الصحراء الأفريقية: الحاجة إلى دراسات جديدة وبرامج دبلوماسية» *Political Islam in Sub-*

---

(١) المرجع نفسه.

(٢) معهد بروكنجز الدوحة، تقرير «رد فعل الإسلاميين تجاه القمع: هل ستلجأ الجماعات الإسلامية السائدة إلى التطرف؟»، النسخة العربية، ٢٠١٠م، ص٧

(٣) تم تأسيس معهد الولايات المتحدة للسلام في العاصمة واشنطن من قبل الكونجرس الأمريكي عام ١٩٨٤م، وذلك كمؤسسة بحثية مستقلة وغير حزبية، تموَّل من قبل الحكومة الاتحادية، ويتم تعيين أعضاء مجلسه من قبل الرئيس الأمريكي، ويضم في عضويته وزيري الخارجية والدفاع، وتتنوع إصدارات المعهد ما بين كتب، وتقارير، وموجزات، وغير ذلك بالإضافة إلى إصدار مجلة «مراقبة السلام» *Peace Watch* . يُنظر: الموقع الاليكتروني للمعهد: *http: //www.usip.org*

Saharan Africa: The Need for a New Research and Diplomatic Agenda، وفي هذا التقرير الخاص تحدث التقرير عن الاتحاد الإسلامي في الصومال واصفاً إياه بأنه أصوليٌ ذو نشأة وهابية، وأنه يرفع شعار السلفية[1]، والسلفية-كما يقول التقرير-: «تسعى إلى العودة إلى عقيدة المسلمين الماضية»[2]، ثم يقول التقرير بأن هذا الاتحاد تم تصنيفه من قبل الولايات المتحدة كمجموعة إرهابية[3].

وفي موضع آخر يتحدث التقرير عن تأثير الوهابية التي ترعاها السعودية على تطرف المسلمين في القرن الأفريقي[4]!، وتجده أيضاً يوصي بأنه يجب أن تُقابل البرامج التعليمية الوهابية النشطة في شرق أفريقيا بدعم برامج أخرى تعليمية تعزز التسامح[5]، وفي موضع آخر تجد التقرير يُبدي قلقه من أن الوهابية المتزمتة المتعصبة القادمة من السعودية وجدت لها جمهوراً في شرق وغرب أفريقيا بالإضافة إلى القرن الأفريقي[6].

وهكذا، يجد قارئ التقرير -بكل وضوح- أن السلفية تعني الوهابية، وأن الوهابية تعني التطرف والتزمت والتعصب وعدم التسامح، وأن مصدر تلك الوهابية هو السعودية!.

خامساً: معهد واشنطن لسياسات الشرق الأدنى[7]

The Washington Institute for Near East Policy

في أحد التحليلات السياسية لهذا المعهد والمعنونة بـ«التحول في مصر: هل المتطرفون في صعود؟» نجد أيضاً تلك النظرة السلبية المحذرة من

---

(١) يُنظر: معهد الولايات المتحدة للسلام، تقرير«الإسلام السياسي في جنوب الصحراء الأفريقية: الحاجة إلى دراسات جديدة وبرامج دبلوماسية»، ترجمة الباحث، ٢٠٠٥م، ص٥

(٢) المرجع نفسه، ص٥

(٣) يُنظر: المرجع نفسه، ص٥

(٤) يُنظر: المرجع نفسه، ص١

(٥) يُنظر: المرجع نفسه، ص٥

(٦) يُنظر: المرجع نفسه، ص٣-٤

(٧) تأسس معهد واشنطن لسياسة الشرق الأدنى عام ١٩٨٥م؛ كمؤسسة غير ربحية معفاة من الضرائب الضرائب (٥٠١/ c3)، ويقول المعهد (في تعريفه بنفسه) أنه اختار اسم «الشرق الأدنى» بدل «الشرق الأوسط» ليتماشى مع التسمية الجغرافية الخاصة بوزارة الخارجية، يضم المعهد في مجلس مستشارية العديد من السياسيين الأمريكيين السابقين؛ مثل: وزير الخارجية «هنري كيسنجر»، والسفير لدى إسرائيل «صموئيل لويس»، ورئيس المخابرات المركزية «جيمس وولسي» وغيرهم. يُنظر الموقع الاليكتروني للمعهد: *http: //www.washingtoninstitute.org*

السلفية، إذ كتب ما يلي: «الإسلام المتطرف: هل يشهد عودة؟. قد يسهم القمع الشديد والوضع الاقتصادي الصعب بشكل متزايد الذي يواجهه معظم المصريين في إعادة التطرف للمجتمع المصري بشكل عام والقطاع الإسلامي بشكل خاص، وسوف يبدو المجتمع المصري أرضاً خصبة، مع نجاح التأثير الأيديولوجي والاجتماعي للسلفية بالتمسك بزمام الأمور، فبالإضافة إلى جاذبية العقيدة السلفية بين جيل الشباب، جاء انتشارها نتيجة عودة العمال المغتربين إلى البلاد بعد أن عملوا طوال عقود من الزمن في المملكة العربية السعودية ذات الحساسية الوهابية، وقد وصل هذا الاتجاه المتطرف والمتزمت إلى جميع الفئات الاجتماعية، كما اتضح من الأعداد المتزايدة للنساء اللواتي يرتدين النقاب، وبالإضافة إلى تأثير الأئمة المتطرفين في المساجد. أصبحت قنوات التلفزيون الفضائية ذات النغمة السلفية الواضحة (مثل قناة الناس على سبيل المثال) تحظى بشعبية كبيرة في مصر، ولا شك أنها تكسب مجندين جدد في هذه العملية»[١]!!.

سادساً: مركز التعددية الإسلامية[٢] *Center for Islamic Pluralism*

دأب هذا المركز البحثي على الهجوم على السلفية، وعلى السعودية بشكل خاص وربطها بدعم الإرهاب، وقد سخَّر المدير التنفيذي لهذا المعهد «ستيفن شوارتز»[٣] قلمه ولسانه في خدمة هذا الهدف، بالإضافة إلى

(١) معهد واشنطن، تحليل سياسي بعنوان «التحول في مصر: هل المتطرفون في صعود؟»، ٢٠٠٩م، والتحليل منشور على موقع المعهد الإليكتروني، الرابط:
http://www.washingtoninstitute.org/ar/policy-analysis/view/transition-in-egypt-radicals-on-the-rise

(٢) مركز التعددية الإسلامية، مركز فكري بحثي، أسَّسه في واشنطن العاصمة عام ٢٠٠٤م عدة أشخاص من أبرزهم: ستيفن شوارتز، وأحمد صبحي منصور وزعيم جماعة «القرآنيون» (أي: المنكرون للسنة!)، ويهدف -كما ورد في موقعه- إلى تحدي هيمنة الجماعات الإسلامية المتشددة على حياة المسلم الأمريكي. ينظر: موقع مركز التعددية الإسلامية:
http://www.islamicpluralism.org

(٣) ستيفن سليمان شوارتز، *Stephen Schwartz* ولد في عام ١٩٤٨م، وتحوَّل إلى الإسلام عبر التصوف، مهتم بمقارنة الأديان، وحصل على بعثات كثيرة إلى البلقان بدعم من منظمات أهلية وحكومية أمريكية، وله مشاركات إعلامية كثيرة، وبات يُعدُّ بعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١م أحد كبار الخبراء في الشأن الإسلامي، وفتح له الإعلام الأمريكي أبوابه، وخصوصاً للحديث عن السعودية والوهابية! من مؤلفاته: «الإسلام الآخر، التصوف والطريق إلى الوئام العالمي»،

تفانية في الترويج للتصوف، ومحاربة الجمعيات الإسلامية في أمريكا[1]!.

يقول «شوارتز» في كتابه «وجها الإسلام: الأصولية السعودية ودورها في الإرهاب»: «أينما تكون العقيدة الوهابية هي الرسمية فلا بد أن تكون تلك الدولة إرهابية»[2]، وحينما كان «شوارتز» مديراً لبرنامج الديمقراطية والإسلام في «مؤسسة الدفاع عن الديمقراطيات» لم يأل جهداً في هذا الجانب، ومن ذلك الشهادة التي تقدم بها في ٢٦ يوليو ٢٠٠٣م في جلسة استماع أمام اللجنة الفرعية بمجلس الشيوخ الأمريكي وكانت حول الإرهاب والتكنولوجيا والأمن الداخلي، وفيها زعم أن الوهابية تعني التطرف والإرهاب، وأنها الدين الرسمي في السعودية، وأن السعودية ذات وجهين؛ وجه متحالف مع الغرب، ووجه يمول الوهابية المتطرفة التي تدعم الإرهاب في أمريكا للهيمنة على الإسلام في الولايات المتحدة، عبر بناء المساجد، ودعم العديد من الجمعيات الإسلامية في أمريكا، إلى غير ذلك من المزاعم والافتراءات الحاقدة[3].

=

و«وجها الإسلام، الأصولية السعودية ودورها في الإرهاب»، و«سرايفو الوردية، مفكرة يهود البلقان». يُنظر التعريف بستيفن شوارتز في موقع مركز التعددية الإسلامية:

http: //www.islamicpluralism.org

(١) ومن ذلك اتهامه لـ«الجمعية الإسلامية لأمريكا الشمالية»(*ISNA*)، والتي تأسست في ١٩٨١م، بأنها قناةٌ لترويج الإسلام المتطرف في أمريكا. يُنظر: جريدة الأهرام، العدد (٤٦٣٠٧)، الأربعاء ١٢ ذوالقعدة ١٤٣٤هـ.

(٢) نقلاً عن: «ديفيد فان بيما»، مجلة التايم الأمريكية، مقال بعنوان «الوهابية..العقيدة السّامة»، في ٧/ سبتمبر/ ٢٠٠٣م ترجمة: إسلام ديلي، وفي هذا المقال أيضاً يقول كاتبه: «يصف عدد من المؤرخين وعلماء الاجتماع الدينيين الوهابية بصورة أكثر دقة على أنها إيمانٌ أُسِّس على عقائد متصلبةٍ عديمة التسامح، والتي إذا طُبِّقت في مكان فهي تقريباً تدافع عن الإرهاب»!!، رابط المقال:

http://www.islamdaily.org/ar/alwahabia/381.article.htm

(٣) للاطلاع على جلسة الاستماع هذه يُنظر: موقع مكتب مطبوعات الحكومة الأمريكية *U.S Government Prenting Office* ، جلسة استماع لمجلس الشيوخ برقم (١٠٨-٢٦٧) في ٢٦/ ٦/ ٢٠٠٣م، تحت عنوان (الإرهاب: تنامي النفوذ الوهابي في الولايات المتحدة)!

سابعـًا: مؤسسة الدفاع عن الديمقراطيات[1]

Foundation for defense of Democracies

تتطابق آراء «شوارتز» المتطرفة -آنفة الذكر- عن السلفية مع توجه مؤسسة الدفاع عن الديمقراطيات، والتي هي بدورها تتبنى في دراساتها ومقالات باحثيها الربط بين الوهابية والإرهاب والسعودية! ومن ذلك -على سبيل المثال- تقريرها الصادر في عام ٢٠١٢م والذي يحمل عنوان «فتوى الفيسبوك/ رجال الدين السعوديون، الإسلام الوهابي ووسائل التواصل الاجتماعي»، والذي أوصت فيه «بأن تولي أجهزة الاستخبارات الأمريكية مزيداً من الاهتمام بشبكات التواصل الاجتماعية، وهي إحدى المنافذ القليلة التي يُعبّر من خلالها السعوديون عن آرائهم بحرية نسبية»[2].

وفي جريدة وول ستريت انتقد مدير المركز «جيمس وولسي» -في مقالة مشتركة له مع «نينا شيا»- إلقاء الرئيس «بوش الابن» أحد خطاباته في المركز الإسلامي بواشنطن، حيث قالا: «هذا مغاير للرؤية الجديدة لإدارة بوش، ففي ٢٧ يونيو ألقى الرئيس بوش خطابه الذي تحدث فيه عن «مبادرته الإسلامية» في المركز الإسلامي في واشنطن بمناسبة مرور خمسين عامـًا على إنشاء المركز بواسطة العربية السعودية، والجدير بالذكر أن الوهابية هي الدين الرسمي في المملكة العربية السعودية، وأن الفكر المتطرف لهذا المذهب يتدفق مع أموال المملكة، والمركز الإسلامي ليس استثناءً من هذه القاعدة»[3].

---

(١) مؤسسة الدفاع عن الديمقراطيات، مركز فكري، تأسس بُعيد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م على يد نخبة من السياسيين الأمريكيين، ويرأسه حاليـًا مدير وكالة المخابرات المركزية الأمريكية في الفترة (١٩٩٣-١٩٩٥م) «جيمس وولسي» *R.James Woolsey*. والمؤسسة -كما ورد في موقعها- «معهد سياسي غير ربحي وغير حزبي، يُكرس عمله على تشجيع التعددية والدفاع عن القيم الليبرالية ومحاربة العقائد المتطرفة التي تغذي الإرهاب». يُنظر: موقع المؤسسة الإليكتروني: *http: //www.defenddemocracy.org*

(٢) يُنظر: ملخص التقرير على موقع المؤسسة الإليكتروني على الرابط التالي:
http://www.defenddemocracy.org/media-hit/fdd-releases-cutting-edge-study-of-saudi-social-media-arabic /

(٣) جريدة وول ستريت جورنال، مقال بعنوان «ماذا عن المسلمين المعتدلين؟»، لجيمس وولسي ونينا شيا، في ١٠/ ٧/ ٢٠٠٧م، ترجمة موقع إسلام ديلي:
http://online.wsj.com/article/SB118403539025761775.html?mod=opinion_main_commentaries

وإذا كانت هذه هي نظرة مدير وكالة المخابرات الأمريكية السابق، فلا عجب بعدئذٍ بنظرة من دونه!

وبعد، فلئن كانت النماذج السابقة موغلة في تشويه السلفية عبر ربطها بالتشدد والتطرف والإرهاب، والدعوة إلى اتخاذها عدواً، فإن ثمة مراكز بحثية أخرى لا تستخدم لفظ «السلفية» أو «الوهابية» في الاتهام بالإرهاب والتشدد والتطرف لذلك العدو، بل تستخدم لفظ «الإسلام»، وذلك أدهى وأمرّ! ، وهذه النماذج الآتية بعضاً من تلك المراكز .

ثامناً: مؤسسة الكونجرس الحر[1] *Free Congress Foundation*

في هذه المؤسسة البحثية نجد أن التشويه تعدى السلفية إلى تشويه الإسلام بشكل عام واتهامه بالإرهاب! وقد عمل في هذا المؤسسة «روبرت سبنسر»[2] والذي يُعد من أكثر الباحثين الأمريكيين «المتدينين» عداءً للإسلام وربطاً له بالفاشية! وقد طلب إليه مدير المؤسسة السابق «بول ويريش»[3] أن يكتب عن الإسلام، فأصدر في ذلك سلسلة من سبعة كتب عن الإسلام، تطفح بالحقد والمغالطات[4]. ويزعم «روبرت سبنسر» بأن «بول ويرتش» هو أول من كشف الخديعة التي كان يروج لها الرئيس «بوش» بعد ١١/ ٩، وهي أن «الإسلام دين سلام»!![5]، فـ«بوش الابن»

---

(١) مؤسسة الكونجرس الحر، مؤسسة بحثية محافظه، تأسست في الأسكندرية بولاية فرجينيا قبل ثلاثة عقود، ويرأسها حالياً حاكم ولاية فرجينيا السابق «جيم جيلمور».
ينظر: موقع المؤسسة *http: //www.freecongress.org*

(٢) ولد روبرت سبنسر *Robert Spencer* في ١٩٦٢م، وهو أمريكي الجنسية، ويمارس نصرانية الكنيسة الكاثوليكية اليونانية، حصل على الماجستير في قسم الدراسات الدينية بجامعة كارولاينا الشمالية بتشابل، وللمزيد حول شخصيته ونشاطاته المكثفة المعادية للإسلام يُنظر: مقال (روبرت سبنسر يزرع الكراهية وينشر التضليل) لعبدالرحمن أبو المجد، في ٢١/ ٧/ ١٤٣٠هـ، موقع الألوكة الإليكتروني، رابط المقال:
http://www.alukah.net/sharia/0/6621/#_ftn7

(٣) بول مايكل ويريش *Paul M. Weyich*، 1942-2008م)، ناشط سياسي، وأحد أعمدة المحافظين اليمينيين الجدد، أسَّس «مؤسسة الكونجرس الحر»، وشارك في تأسيس «مؤسسة التراث». ينظر: موقع «مؤسسة الكونجرس الحر»، الرابط:
http://www.freecongress.org/about/leadership /

(٤) يُنظر: المرجع السابق.

(٥) يُنظر: مقال (ألف تحية: مات ويريش) لروبرت سبنسر، موقع *Catholic Online*، في ١٩/ ١٢/ ٢٠٠٨م، رابط المقال: *http://www.catholic.org/national/national_story.php?id=31171*

عند هؤلاء يُعد متسامحاً مع المسلمين، فواعجباً!!

ويتولى «سبنسر» حالياً منصب مدير مراقبة الجهاد في«مركز ديفيد هورويتز للحرية» الآتي ذكره.

تاسعاً: مركز ديفيد هورويتز للحرية[1] *Center David Horowitz Freedom*

يُعد «مركز ديفيد هورويتز للحرية» أحد أبرز المراكز البحثية الأمريكية المعادية للإسلام بشراسة، وقد نظَّم هذا المركز في عام ٢٠٠٧م «أسبوع التوعية بالفاشية الإسلامية»! والذي أثار غضب المسلمين في أمريكا وخارجها، وشارك في ذلك الأسبوع «روبرت سبنسر»، و«جيمس وولسي»، وآخرون ممن لا يَخفَى ميولهم الصهيوني، وتُظهر سجِّلات الضرائب الخاصة بهذا المركز المعادي للإسلام بأنه يتلقى دعماً من جهات يهودية[2].

ويرأس قسم مراقبة الجهاد في هذا المركز -كما ذكرت آنفاً- «روبرت سبنسر» ويتبع لهذا القسم موقع *Jihad Watch* الإليكتروني (أي: مراقبة الجهاد)[3].

وتجدر الإشارة هنا إلى أن عداء «روبرت سبنسر» السافر للإسلام، تجاوز كل حدود التشويه والتحريض وبث الكراهية، حتى إن وزارة الداخلية البريطانية منعته في يونيو ٢٠١٣م من دخول بريطانيا، وقال المتحدث باسم الداخلية البريطانية: «نحن نشجب كل هؤلاء الذين يحملون فكراً يتعارض مع مصالحنا المشتركة، ولن نتعاون مع التطرف في أي شكل من أشكاله»[4]، وبالرغم من وضوح هذا الجانب المتطرف ضد

---

(١) كانت بداية تأسيس هذا المركز في عام ١٩٨٨م تحت مسمى «مركز دراسة الثقافة الشعبية»، وفي عام ٢٠٠٦م، تم تغيير اسم هذا المركز ليحمل اسم مؤسِّسه «ديفيد هورويتز»، وينشط هذا المركز كثيراً في مناهضة الإسلام داخل الجامعات والكليات الأمريكية.

(٢) يُنظر: موقع العربية نت، في ٢٨/٨/١٤٢٨هـ (أسبوع للتوعية بالفاشية الإسلامية في ٢٠٠ جامعة وكلية أمريكية)، رابط الخبر:

http://www.alarabiya.net/articles/2007/09/01/38553.html

(٣) يُنظر: موقع «مركز ديفيد هورويتز للحرية»، وموقع «جهاد ووتش» على الرابطين:

http://www.horowitzfreedomcenter.org http://www.jihadwatch.org

(٤) جريدة ديلي إكسبرس البريطانية *DAILY EXPRESS*، في ٢٦ يونيو ٢٠١٣م، رابط الخبر:

http://www.express.co.uk/news/uk/410494/Anti-Muslim-pair-banned-from-UK

الإسلام لدى «روبرت سبنسر» إلا أنه ألقى حلقات دراسية عن الإسلام والجهاد في القيادة المركزية الأمريكية، وقيادة الجيش الأمريكي، ومكتب التحقيقات الفيدرالي، وقوة المهام المشتركة لمكافحة الإرهاب، وأجهزة الاستخبارات الأمريكية وغيرها من الجهات الرسمية الأمريكية(١)!

عاشراً: مركز مراقبة التهديدات(٢) *Threats Watch*

يقول مركز مراقبة التهديدات في أحد تقاريره المنشورة على هيئة مقال: «يرفض المسؤولون السعوديون التسليم بأن المذهب الوهابي هو المذهب الإسلامي المتشدد الذي ظل يهيمن على المملكة منذ سبعين عاماً، والذي يقدم تبريراً دينياً للإرهاب، وذلك بسبب ما يدعو إليه من نبذ غير المسلمين»(٣)!.

وبعد، ففي مثل هذا المبحث الذي يتناول النظرة الاستشراقية (الأمريكية) الحديثة للسلفية لا يمكن أن يُنسى المستشرق المعمِّر «برنارد لويس»(٤) والذي يُعد من الآباء المؤسِّسين للاستشراق الأمريكي، وتحظى كتاباته عن الإسلام والمسلمين بأهمية كبيرة في الغرب، وذلك -كما يقول الدكتور مازن مطبقاني-: «للمكانة العلمية البارزة التي حققها لويس كمؤرخ في التاريخ الإسلامي، وكخبير في شؤون العالم الإسلامي «الشرق الأوسط»، وتصل كتاباته إلى أعلى المستويات في مصادر صنع القرار السياسي في الغرب»(٥).

ومنذ انتقال «لويس» إلى أمريكا قبل أكثر من خمسين عاماً وهو يمارس

---

(١) يُنظر: سيرة «روبرت سبنسر» في موقع «جهاد ووتش» الإليكتروني، الرابط:
http://www.jihadwatch.org/about-robert-spencer.html

(٢) تأسس مركز مراقبة التهديدات في عام ٢٠٠٦م، كمركز فكري معفى من الضرائب، يهتم بتتبع ما يهدد الأمن القومي الأمريكي، ويعتمد المركز على نشر إنتاجه عبر موقعه الإليكتروني، يُنظر موقع المركز الإليكتروني:
http://rapidrecon.threatswatch.org

(٣) موقع مركز مراقبة التهديدات، مقال «هل السعودية معتدلة؟»، بقلم: كريغ مارتيللي، في ٣/ ٥/ ٢٠٠٦م، رابط المقال:
http//rapidrecon.threatswatch.org/2006/05/saudi-arabia-moderating

(٤) سبق التعريف به في التمهيد.

(٥) مازن مطبقاني، الاستشراق والاتجاهات الفكرية في التاريخ الإسلامي، مرجع سابق، ص ٥٢٨

التشويه في حقِّ الإسلام والمسلمين، ويحرِّض الغرب ضدهم، وكان من آخر رزاياه حثّه أمريكا على استخدام القوة في تغيير الشرق الأوسط، ومباركته أيضاً لاحتلال العراق، وتقديمه المشورة والنصح للمحتل الأمريكي فيما بعد الاحتلال[1].

وتقول عنه مؤسسة راند بأنه: «قد حذر في (٢٠٠١م) من أن المواقف المثيرة للقلق والاسترضائية التي يتبعها المتحدثون الرسميون (الأمريكيون) تجعل جماهير المسلمين تعتقد أن الولايات المتحدة قد تراجعت وأصبحت أكثر لطفاً»[2].

والمحصلة من سيرة هذا المستشرق أنه ممن له اليد الطولى -بلسانه وقلمه- في رسم صورة مشوهة عن الإسلام والمسلمين في الذهنية الغربية، ولا يزال يمارس هذا الدور حتى الآن، وسأنقل في المبحث التالي بعض كلماته في مدح التصوف وذمِّ السلفية.

وخلاصة ما سبق أن السلفية عند مراكز البحوث الأمريكية تعني العنف والتطرف والإرهاب، وأن تلك المراكز تتعامل مع هذا المعنى المغلوط للسلفية كواقع مُسلَّم به، لا يتطرق الى الذِّهن مخالفته، ولذلك نجد بعض تلك المراكز -كما مر آنفاً- حتى مع تقسيمه للسلفية إلى سلفيات متعددة إلا أنه يرفضها جميعاً، بدعوى التطرف والتشدد، حتى التي يقول بأنها بعيدة عن السياسة وتشتغل بالدعوة!.

ولا أجدني في هذا المقام بحاجة إلى مناقشة ما أُلصِق آنفاً بالدعوة السلفية من معانٍ مغلوطةٍ عاريةٍ عن الدليل، وبخاصة أنني بيَّنتُ في الفصل السابق معنى السلفية، وارتباط دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب -رحمه الله- بها؛ ولكن الذي يَحسُن التذكير به هنا هو نصُّ كلمة المستشرق «لورانس» التي ختمت بها المسألة الأولى، وهي قوله: «إن وجود حركة

---

(١) يُنظر: جريدة «وول ستريت جورنال»، في ٤ فبراير ٢٠٠٤م مقال بعنوان: مُخَطط برنارد لويس لوضع بذور الديمقراطية العربية يتم اختباره في العراق. وكذلك جريدة الشرق الأوسط، في ١٦سبتمبر٢٠٠٢م العدد ٨٦٩٣ مقال بعنوان: حتى المؤرخ برنارد لويس يُحرِّض على الحرب.

(٢) مؤسسة راند، تقرير «العالم المسلم بعد ١١/ ٩»، ص٤٣٣.

إسلامية متحمسة كالوهابية في الأراضي الإسلامية المقدسة خطرٌ حقيقي على مصالحنا وأهدافنا لأن أطماعها واسعة إلى حد إثارة فطرة الإيمان في نفوس المسلمين، مما يعني العودة إلى حضارة الإسلام كما كانت في عهد الرسول والخلفاء الراشدين وسيطرة المسلمين المتحمسين جيلاً بعد جيل على مقادير العالم الإسلامي مما يهدد السيطرة على العالم أجمع»[1].

فلئن كان «لورانس» قد صرح بهذه الحقيقة أيام الهيمنة البريطانية؛ فالذي يبدو جلياً اليوم أن مراكز البحوث الغربية تتبنى أيضاً بمكرٍ هذه الحقيقة، وتسير وفقها لضمان استمرار الهيمنة الأمريكية على العالم الإسلامي، وذلك بإبعاد المسلمين وغير المسلمين عن الدعوة السلفية وتشويهها، والتي كما شهد لها -عدوها- «لورانس» بأنها تعني العودة إلى الحضارة الإسلامية كما كانت في عهد نبينا الكريم ﷺ والخلفاء الراشدين ﷺ؛ وبالتالي فإنها -من منظورهم- اليوم تُشكل أيضاً خطراً حقيقياً على مصالحهم وأهدافهم الأمريكية؛ كما كما كانت تشكِّله مع الهيمنة البريطانية، ولذلك اتخذوا الدعوة السلفية عدواً حقيقياً ؛كما ظهر لنا ذلك بجلاء من خلال النماذج السابقة.

بقي أن أُلمِح هنا إلى فائدة في هذا السياق وهي أن الغرب عرف إبان الثورة الفرنسية مذهباً سلفياً ظهر على يد بعض الكاثوليك، كردة فعل على المذهب الفردي العقلي الذي قامت به البروتستانتية والذي زعزع سلطة الدين والاجتماع، ولكن هذا المذهب -كما يقول الدكتور مصطفى حلمي-: «لم يحتل في تاريخ الفلسفة الغربية مكاناً بارزاً، وإنما انحصر دوره كما اتضح لنا كردة فعل للفوضى الدينية الأخلاقية التي أحدثتها ثورة فرنسا، وكان قصير الأجل ضعيف الأثر»[2]، ويضيف أيضاً: «وشتان بين نزعة وجدناها نشأت في بيئة غربية على أيدي أفراد قلائل لمقابلة نزعات أخرى، وبين الاتجاه السلفي الإسلامي المرتبط أشد الارتباط بمذهب

---

(١) نقلاً عن: زهدي الفاتح، لورنس العرب على خطى هرتزل، دار النفائس-بيروت، ط٢، ١٤٠٦هـ ص١٥٢

(٢) مصطفى حلمي، السلفية بين العقيدة الإسلامية والفلسفة الغربية، دار الدعوة-الاسكندرية، ط٢، ١٤١١هـ-١٩٩١م، ص٢٩

الأوائل منذ النبي ﷺ حتى الآن، ويضم أعداداً لا تكاد تُحصى من نخبة علماء المسلمين»[1].

ولهذا فإن المستشرقين وتلاميذهم إلى يومنا يدركون الفرق بينهما، ولذلك لم يُشَبِّهوا السلفية الإسلامية بتلك النزعة السلفية الغربية السريعة، التي ذوت سريعاً، ولم تخرج في حقيقتها عن دائرة تحريف النصرانية؛ والواقع أيضاً يؤكد بأنهم يعرفون معنى السلفية الإسلامية حق المعرفة - كما هو ظاهر كلام «لورانس»-، وأنها عندهم تعني عودة المسلمين إلى منبع عزتهم واستقلالهم وترابطهم وحضارتهم؛ وهي بالفعل كذلك.

ومن هنا، فستبقى السلفية هدفاً يُعاديه الغرب (وعلى رأسه أمريكا)، وستبقى الأقلام الاستشراقية المعاصرة تطعن فيها وتُشوِّهها ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً. والحلُّ إزاء هذا العداء يَكْمنُ في تمسُّك المسلمين حقاً بدينهم، قولاً وفعلاً، وهذا هو لبُّ الدعوة السلفية، وهو أيضاً طريق النصر بإذن الله، قال ﷻ: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

(١) المرجع نفسه، ص٢٩

المبحث الثاني

مفهوم التصوف في تقارير مراكز البحوث الأمريكية، ونقده

مضى في الفصل الأول الحديث بالتفصيل عن موقف المستشرقين من التصوف (عقائده ورموزة)، وتبين من خلال ذلك مدى العناية الفائقة التي حظي بها التصوف من قِبل المستشرقين، وكان ذلك منذ بدايات القرن التاسع عشر الميلادي، وتبَيَّن أيضاً كيف أنهم شحنوا كتبهم وموسوعاتهم بالحديث عن التصوف، وأن بعضهم تخصص في التصوف وأمضى عمره باحثاً ومؤلفاً فيه، فأصبح مرجعاً في التصوف حتى عند المتصوفة العرب؛ كالفرنسي «لويس ماسينيون»، والبريطاني «نيكلسون»! وبيَّنت أيضاً العناية الفائقة التي نالها التراث العلمي الصوفي من قِبل المستشرقين؛ تحقيقاً ونشراً وترجمةً إلى لغاتهم، حتى وجدت تلك المؤلفات الصوفية طريقها إلى الجامعات ومعاهد التعليم في العالم الإسلامي وفي الغرب، وأما عقائد التصوف فقد نالت استحسان المستشرقين، ولم يُؤثَر عنهم ذمها أو انتقاصها أو تحذير الغرب منها، بل إن اهتمامهم البالغ بالتصوف يؤكد عكس ذلك.

هكذا كان موقف المستشرقين من التصوف، والذي كان منسجماً بطبيعة الحال مع الهيمنة الأوروبية على العالم الإسلامي، والتي كانت تُشَجِّع كل ما يَصرِف المسلمين عن مقاومتها ورفضها.

واليوم تجثم على العالم الإسلامي هيمنة غربية من نوع آخر، تقودها حفيدة الجسد الأوروبي الذي وهن وتراجع دوره المهيمن، حيث ورثت منه تلك الحفيدة (الولايات المتحدة) ذلك الدور، وتراجعت أيضاً مع ذلك الجسد الأوروبي الواهن أدواته الاستشراقية، وتقدمت مع الحفيدة الوارثة أدواتها الاستشراقية الجديدة، والمتمثلة في مراكز البحوث والدراسات.

وفي هذا المبحث والذي يليه سأرُكِّز النظر في موقف تلك المراكز البحثية من التصوف، لنرى هل ورث من الاستشراق الأوروبي القديم تلك

النظرة الايجابية نحو التصوف، أم أن ثمة ما هو جديد، وسأسير كما سرت في المبحث السابق في تركيز النظر على تلك المراكز الثلاثة المهمة؛ (راند، كارنيغي، بروكنجز)، مع الاستشهاد بموقف غيرها من المراكز قدر المستطاع، ومن الله أرجو العون والسداد.

مفهوم التصوف عند مراكز البحوث الأمريكية

أولاً: مؤسسة راند:

إن طبيعة تناول مؤسسة راند للتصوف في تقاريرها يختلف تماماً عن تلك الطبيعة الشرسة التي تناولت بها السلفية، إذ لا يعدو حديثها عن التصوف التعريفَ به بلطف، ووضعه في خانة الروحانية (*Spiritual, Mysticism،..*)، أو وصف طقوسه دونما استهجان؛ كتقديس الأولياء، ونحو ذلك، أو تحديد أماكن انتشاره ووجوده، مع الإشارة دائما إلى الموقف السلفي «الوهابي» منه وتصويره بالعدائي، إلى غير ذلك مما سيأتي بيانه.

ففي تقريرها «إسلام حضاري ديمقراطي» تُعرِّف مؤسسة راند التصوف بأنه: «الروحانية الإسلامية؛ إما في شكلها كدين للعامة، أو في شكلها المنظم على هيئة طرق دينية»[1]، وتنقل أيضاً تعريفاً آخر وهو أن: «الصوفيين يتبعون تأويلاً للإسلام قائماً على قدر أكبر من الفلسفة والروحانيات»[2].

ثم تُشير مؤسسة راند بين ثنايا التقرير إلى أنها: «لا يُعتبر التيار الصوفي ندا لأي من هذه الفئات ولكننا سندرجه ضمن التيار المجدد»[3]، أي أن التيار الصوفي لا يُشبه التيار الأصولي ولا التقليدي -بحسب تقسيمها- ولكنه الأقرب إلى التيار المجدد الذي أوصت بدعمه[4]، وتضيف: «ويمدّ

---

(١) مؤسسة راند، تقرير «إسلام حضاري ديموقراطي»، نسخة إسلام ديلي (الإسلام الديموقراطي المدني) ص١٥، بتصرف من الباحث لوجود خطأ في ترجمة هذا النص.

(٢) المرجع نفسه، ص٥٤، ونقلت مؤسسة راند هذا التعريف من تقرير منشور في جريدة «وول ستريت جورنال» عن مسلمي أمريكا، أعده «جونثان كوفمان» ويحمل عنواناً غريباً: *Islamerican* (إسلامريكان)!، ونشر بتاريخ ١٥/ ٢/ ٢٠٠٢م.

(٣) المرجع نفسه، ص٥٨

(٤) قسّمت مؤسسة راند المجتمع المسلم في هذا التقرير إلى أربع تيارات؛ الأول والثاني هم «الأصوليون (المتشددون) والتقليديون»، وكلاهما -بحسب راند- مرفوضٌ، ولكن يمكن أن

التيار الصوفي من خلال أشعاره وموسيقاه وفلسفته جسوراً قوية تربط بين مختلف الانتماءات الدينية»[1].

وفي تقريرها الموسع (٥٢٥ صفحة) «العالم المسلم بعد ٩/١١» سارت مؤسسة راند بنفس الأسلوب (الإيجابي المتسامح) مع الصوفية؛ فالتصوف في هذا التقرير هو: «المذهب الروحاني للإسلام والذي يركز على التجارب الشخصية والعاطفية والمعرفة المباشرة بالله»[2]، والصوفية في المغرب -كما يذكر-: «تؤكِّد على الروحانية والوصول إلى أعلى مثاليات الإيمان»[3]، وفي الهند: «الصوفيةُ شكلٌ مهم للاعتقاد والممارسة الإسلامية التقليدية، فالاعتقاد الفلسفي والأخلاقي لله هو محور اهتمام الصوفيين الهنود، كما أن الطقوس التمجيدية أمر شائع في الممارسة الدينية، فالمرء الذي يحقق المستوى الأعلى من الروحانية يصبح ولياً مُعلِّماً، أو مباركاً حياً، ..»[4].

وهكذا تجد التناول الإيجابي للتصوف والمتصوفة في هذا التقرير، ولا تكاد تجد فيه نقداً واحداً للتصوف، سوى إشارة عابرة ذكر فيها التقرير أن بعض فروع الطريقة النقشبندية في آسيا والعراق دعمت المتطرفين، إذ قال: «ورغم أن العداء والمواجهة أحياناً هما الخصائص المميزة في العلاقة بين الصوفيين والإسلاميين المتطرفين، إلا أن في بعض الحالات دعم الصوفيون المتطرفين، فبعض التيارات العسكرية للإسلام السياسي قد تأسست في بعض فروع الطريقة النقشبندية في وسط آسيا والعراق»[5]، ومع

يُدعم الثاني لضرب الأول! والتيار الثالث «العلمانيون»، وهؤلاء يمكن دعمهم بحذر؛ وأما التيار الرابع فهم «المجددون»، وهم -بحسب التقرير راند أيضاً- الإسلاميون الذين لا يعارضون الحضارة الغربية، ويتمنون اللحاق بها. وهذا التيار هو من أوصى التقرير بدعمه، وألحق به تيار التصوف -كما نقلت أعلاه-. وللمزيد حول هذا التقرير وتقسيماته ونقدها، يُنظر: صالح الغامدي، الإسلام الذي يريده الغرب (١).

(١) المرجع نفسه، ص٥٨

(٢) مؤسسة راند، تقرير «العالم المسلم بعد ١١-٩»، مرجع سابق، ص٥٣.

(٣) المرجع نفسه، ص١٧٨

(٤) المرجع نفسه، ص٣١٦

(٥) مؤسسة راند، تقرير «العالم الإسلامي بعد ٩/١١»، ص٥٤. وسبق في الفصل الماضي أن تناولت بالنقد موقف الصوفية من الجهاد، وكذا الحراك العسكري الصوفي -المزعوم- في العراق، والذي يرأسه البعثي عزت الدوري!

ذلك فقد ناقض التقرير نفسه في موضع لاحق، حيث أكد انعدام ارتباط الصوفية بالارهاب، وبل ومعارضتهم له، وضرب لذلك مثلاً بالنقشبندية!![1].

وأما عن الصوفية والسلفية «الوهابية» فإن التقرير لا يفتأ يؤكد في مواضع كثيرة منه على الموقف العدائي السلفي من الصوفية، ومن ذلك قوله: «السلفيون والوهابيون أعداء حقيقيون للصوفية، والتي يعتبرونها إفساداً للإسلام»[2]، وكذلك قوله: «الحركة الوهابية إلى حد ما غير متسامحة مع بعض الطوائف الأخرى التي تعتبرها تقوم على البدعة، متضمنة الشيعيين وفروعهم، والصوفيين»[3].

وأما في تقرير مؤسسة راند لعام ٢٠٠٧م «بناء شبكات مسلمة معتدلة» والذي يُعد بمثابة «خارطة طريق» مقترحة للحكومة الأمريكية، لكي تعرف بها الحلفاء المناسبين لها في العالم الإسلامي[4]، فبالإضافة إلى تأكيدها في هذا التقرير ما مضى في التقريرين السابقين حول الصوفية فقد سعت إلى تحديد ما يمكن تحديده من الشخصيات والنشاطات الصوفية حول العالم، وذلك لكي يسهل الوصول إليهم ودعمهم، بعد أن رشَّحتهم كحلفاء لأمريكا؛ فتقول مثلاً: «وقريب من هذه الدراسة تلك الحقيقية القائلة بأن السلفيين والوهابيين هم أعداء أشداء للصوفية والمتمسكين بالتقاليد، وعندما اكتسبت الحركات الإسلامية المتطرفة قوة سعوا إلى قمع الإسلام الصوفي والتقليدي، كما حدث في التخريب المشهور للآثار الإسلامية في السعودية، ولأن الصوفيين والتقليديين أصبحوا ضحايا للسلفيين والوهابية فإن هذا يجعلهم حلفاء طبيعيين للغرب لدرجة أنه من الممكن إيجاد أرضية مشتركة معهم»[5].

---

(١) يُنظر: المرجع نفسه، جدول المقارنة، ص١٠٩-١١٣

(٢) المرجع نفسه، ص٥٣

(٣) المرجع نفسه، ص١٣٢

(٤) عبارة «خارطة طريق» *Road Map* ليست وصفاً من عندي، وإنما وردت صراحة في التقرير، إذ كان عنوان الفصل الخامس منه «خارطة طريق لبناء شبكة معتدلة في العالم الإسلامي».

(٥) مؤسسة راند، تقرير «بناء شبكات مسلمة معتدلة»، ص٩٤

ويُنبِّه التقرير إلى وجود فروقات بين التصوف من بلاد إلى أخرى، فيقول :«من المهم أن نضع في اعتبارنا الاختلافات الكبيرة في هذا القطاع؛ ففي بلاد مثل البوسنة وسوريا وإيران وكازاخستان واندونيسيا يكون الإسلام الذي يتم ممارسته هناك في المجتمع المحلي عبارة عن إسلام صوفي أو متأثر بالصوفية، ولكنه ظاهرة منتشرة، وفي بلاد أخرى مثل الأراضي الألبانية والمغرب وتركيا والهند وماليزيا توجد الصوفية بشكل منظم ومنضبط»[١].

وبما أن هذا التقرير بالذات أشبه بالتوصيات من أوله إلى آخره، فهو حافل بالأفكار والمقترحات، ولذا فسأعود لتناول ما فيه عن التصوف في المبحثين القادمين.

وفي تقرير آخر لمؤسسة راند بعنوان «الإسلام الراديكالي في شرق أفريقيا» *Radical Islam in East Africa* تناولت فيه المؤسسة الحديث عن الصوفية في السودان والصومال وأثيوبيا وكينيا وتنزانيا، وقالت: «الصوفية في هذه الدول تعتبر البعد التقليدي الأساسي للإسلام، والتي تؤكد على العواطف والتجارب الشخصية مع الله»[٢]، ويضيف التقرير: «في العقود الحديثة تعرضت الصوفية لضغوط شديدة من السلفية والوهابية، الذين يسعون إلى تنقية الإسلام من خلال العودة إلى الطريقة السليمة والتي يعتقدون بأنها مورست في عهد النبي محمد وأصحابه، السلفية والوهابية يَعتبرون كثيراً من الممارسات والمعتقدات الصوفية بأنها بدعة ومحرمة في الإسلام، وبالرغم من أن السلفية أحدثت هزة كبيرة في صفوف الطبقة المثقفة إلا أن الطرق الصوفية التقليدية واصلت هيمنتها على أغلب سكان شرق أفريقيا»[٣].

---

(١) المرجع نفسه، ص٩٤

(٢) مؤسسة راند، تقرير: «الإسلام الراديكالي في شرق أفريقيا»، ٢٠٠٩م، تُرجِم بواسطة الباحث، ص٢٥

(٣) المرجع نفسه، ص٢٥-٢٦

ثانيًا: مؤسسة كارنيغي:

تشرح مؤسسة كارنيغي في تقرير «السلفيون والصوفيون في مصر» النظرة الغربية للتصوف قائلاً: «لا يُنظر إلى الصوفيين كقوة سياسية مهددة بصفة خاصة. ويعتبر الصوفيون في الولايات المتحدة وأوروبا على وجه الخصوص مسلمين «معتدلين» وغير عنيفين وغير مؤذين، ويهتمون بالشؤون الروحية أكثر من اهتمامهم بالسياسة»[١]، وتضيف: «الصوفية ليست طائفة إسلامية مستقلة أو مدرسة للفقه الإسلامي، بل هي طريقة مختلفة لممارسة الشعائر الدينية الموجودة بين السنة والشيعة على حد سواء»[٢].

وفي تقرير آخر لها بعنوان «التصوف في آسيا الوسطى: قوة لتحقيق الاعتدال أم حالة من التسييس؟» *Sufism in Central Asia: Aforce for Moderation or a Cause of Politicization* تناولت فيه بالتفصيل الدقيق التصوف في دول آسيا الوسطى كأزبكستان، وكازاخستان وغيرها. وافتتح التقرير بتعريف التصوف بأنه: «شكل روحاني من الإسلام ازدهر في العالم الإسلامي منذ قرون، وقد وضع التصوف طابعه المميز على الطريقة التي يمارس بها الدين في العديد من الدول العربية، وفي أجزاء من أفريقيا وتركيا وفي آسيا الوسطى بشكل خاص»[٣]. و«يقدم التصوف طريقاً إلى اليقظة والتنوير؛ في اتصال شخصي مع الله من خلال نظام روحي زهدي يجتذب الكثير من المسلمين، ويجتذب أيضاً غير المسلمين إلى نزعة الزهد في التصوف والتي يراها كثيرون تميزا فكريا عن الأشكال الأكثر تقليدية لممارسة الشعائر الإسلامية»[٤]، وبالرغم من تأكيد التقرير على أن: «التصوف لا يُعتبر بطبيعته حركة سياسية، وإنما هو نظام ديني»[٥]، إلا أنه -

---

(١) معهد كارنيغي، تقرير «السلفيون والصوفيون في مصر»، مرجع سابق، ص١٢

(٢) المرجع نفسه، ص١٢

(٣) معهد كارنيغي، تقرير «التصوف في آسيا الوسطى: قوة لتحقيق الاعتدال أم حالة من التسييس؟»، ٢٠٠٧م، تُرجِم بواسطة الباحث، ص٤

(٤) المرجع نفسه، ص٤

(٥) المرجع نفسه، ص٦٨

وبعد عرض طويل للحراك الصوفي داخل آسيا الوسطى- أبدى قلقه من تسييسَ التصوف، تحت ذريعة استعادة الشريعة! وبالتالي -كما يقول- يمكن أن يتحالف التصوف مع ممثلي الإسلام السياسي، فيتناسوا خصومتهم ولو لفترة من الوقت؛ ولكنه يعود فيؤكد على أن التصوف اليوم في آسيا الوسطى يُشكل حماية للدول العلمانية هناك، ولكن الظروف المحيطة قد تجعل من القيادات الصوفية الشابة الطموحة سياسياً أعداء المستقبل[(1)].

وفي تقرير آخر بعنوان «انتخابات ليبيا الجديدة» يرى التقرير أن الصوفية يمكن أن تلعب دوراً في التخفيف من حدة التطرف السلفي، إذ يقول: «وقد كانت ليبيا تاريخياً مجتمعاً بمكوِّن صوفي قوي يرفض الرؤى المتطرفة التي تُعبِّر عنها بعض التيارات السلفية»[(2)].

وهكذا، نجد أيضاً أن مؤسسة كارنيغي تسير في اتجاه إطراء التصوف، ووضعه في خانة الاعتدال، ومقابلته بالسلفية التي يرى أنها تعني التطرف.

ثالثاً: معهد بروكنجز:

يرى أيضاً معهد بروكنجز أن الصوفية تقع في مقابل الأصولية المتطرفة، بل أبعد من ذلك، إذ لا يرى أن الصوفية أنها تُشكل الخطورة الأصولية المتمثلة في التوجه نحو الشريعة الإسلامية أو الحكم الإسلامي! ففي تقرير مختصر بعنوان «الأسلمة ليست القضية في تركيا» *Islamization is Not the Issue in Turky* يقول المعهد: «الأصولية ليست ضمن المستقبل التركي، بسبب أن الإسلام التركي لديه جرعة صحية من الصوفية..، وهذا يُضفي بعدا اجتماعياً وروحانيا وثقافيا على الإسلام في تركيا على حساب الأجندة السياسية المتطرفة، والحقيقة أن أقوى حركة دينية تركية مهتمة جدا بالحديث عن الثقافة والإعلام والحضارة أكثر من تحدثها في السياسة،

---

(١) يُنظر: المرجع نفسه، ص٦٥-٧١

(٢) معهد كارنيغي، تقرير «انتخابات ليبيا الجديدة»، ٢٠١٢م، والتقرير منشور بالعربي على الموقع الإليكتروني للمعهد، رابط التقرير:
http://carnegie-mec.org/publications/?fa=48763

وعليه يجب أن يتوقف تخوفنا من أن هناك توجهاً نحو الشريعة أو الحكم الإسلامي في تركيا»[١].

رابعاً معهد الدراسات الاستراتيجية[٢] *Strategic Studies Institute*

في تقرير بعنوان «الصوفية في شمال نيجيريا: قوة في مواجهة التطرف؟» *Sufism in Northern Nigeria: Force for Counter-Radicalization?* يصِفُ معهد الدراسات الاستراتيجية الصوفية في شمال نيجيريا قائلاً: «تُقَدِّم الصوفية في شمال نيجيريا عبر طريقتي القادرية والتجانية الغنية بالتقاليد والممارسات والمعتقدات، والتي تُكوِّن سيلاً من الأفكار والأفعال المتميزة داخل الإسلام السني»[٣]، ولم يُغفل المعهد أيضاً المقابلة الغربية المعتادة بين السلفية الصوفية، حيث يقول: «التقاليد السلفية أَسَّست ورسخت تبريرات الهجوم على الصوفية اليوم، وهذه التقاليد التي تدعو المسلمين للاعتقاد والعمل على ما كان عليه أسلافهم تقوم بانتقاد الممارسات والاعتقادات الصوفية بشدة تصل إلى حد التكفير، ومنذ ذلك الحين انتشرت السلفية عبر المجتمعات الإسلامية حول العالم، والمقلق للصوفية هو أن السلفية ساعدت على بروز طوائف متطرفة وعنيفة في العالم الإسلامي»[٤].

ويضيف التقرير: «الصوفية ومنهم أولئك الذين في نيجيريا يجدون أنفسهم يُواجَهون من قبل الإسلاميين المتطرفين، والصوفية ليسوا وحدهم في ذلك، فكثير من المجموعات السلفية وتمشياً مع معتقداتها (السلفية) يُعادُون الحكومات والمجتمعات الغربية، وفي الحقيقة أن هذه التهديدات تُواجِه كلاً من الصوفية وأمريكا الشمالية ودول أوروبا على حد سواء؛ وزيادةً على ذلك فإن احتواءهم ومواجهتهم هدف مشترك للجميع»[٥]

---

(١) معهد بروكنجز، «الأسلمة ليست القضية في تركيا»، ٢٠١٠م، رابط التقرير على موقع المعهد: *http://www.brookings.edu/research/opinions/2010/03/01-turkey-islamization-taspinar*

(٢) يتبع معهد الدراسات الاستراتيجية لكلية الجيش الحربي الأمريكي *United States Army War College* والتي تأسَّست عام ١٩٠١م، في كارلايل بولاية بنسلفانيا.

(٣) معهد الدراسات الاستراتيجية، تقرير «الصوفية في شمال نيجيريا: قوة في مواجهة التطرف؟»، ٢٠١٠م، تُرجِم بواسطة الباحث، ص٣

(٤) المرجع نفسه، ص٤

(٥) المرجع نفسه، ص٤

وبعد ذلك يمضي التقرير في طرح أفكار وتوصياتٍ لتعزيز دعم الصوفية في مواجهة السلفية، وسأعرض تلك التوصيات في المبحث الرابع.

رابعـًا: مركز المصلحة الوطنية/ (مركز نيكسون سابقـًا)[١]

Center for The National Interest

عقد مركز نيكسون في اكتوبر من عام ٢٠٠٣م مؤتمراً عن التصوف، وكان من أبرز المتحدثين فيه المستشرق «برنارد لويس»، ومحمد هشام قباني شيخ الطريقة النقشبندية الحقَّانية في أمريكا، ثم أصدر المركز بعد ذلك (في ٢٠٠٤م) تقريراً بعنوان «فهم الصوفية ودورها المرتقب في سياسة الولايات المتحدة» *Understanding Sufifm and its Potential Role in US Policy* ، وقد حوى ذلك التقرير ما طُرِح في مؤتمر الصوفية ذلك من أفكار وتوصيات.

وجاء في مقدمة ذلك التقرير والتي كتبها نائب مدير المركز[٢] أن ذلك المؤتمر كان يهدف: «لاستكشاف الدور الذي يمكن أن يقوم به التصوف – الحركة الروحية داخل الإسلام- ضمن أهداف السياسة الخارجية للولايات التحدة الأمريكية»[٣]، وأضاف: «وكان هدف الاجتماع تعريف

---

(١) مركز المصلحة الوطنية: هو مركز بحثي غير حزبي أسسه في واشنطن الرئيس الأمريكي ريتشارد نيكسون عام ١٩٩٤م، تحت مسمى «مركز نيكسون للسلام والحرية»، وجعل على إدارته مستشاره الخاص للشؤون الخارجية «ديمتري سيمز» *Dimitri K. Simes* ، وفي عام ١٩٩٨م تم تغيير اسم المركز ليصبح «مركز نيكسون»، وفي عام ٢٠١١م تم تغيير اسمه أيضـًا ليصبح -حتى الآن- «مركز المصلحة الوطنية»، بإدارة «ديمتري سيمنز»، ورئاسة اليهودي الأمريكي «موريس غرينبورغ» *Maurice R. Greenberg*، والرئاسة الفخرية أيضـًا للأمريكي اليهودي الوزير «هنري كيسنجر» *Henry Kissinger* ، وتركز برامج المركز الحالية على الأمن القومي، وأمن الطاقة، وتغير المناخ، والهجرة، وأيضـًا على علاقات الولايات المتحدة مع اليابان والصين والمكسيك وروسيا، ويصدر المركز مرة كل شهرين مجلة في السياسة الخارجية باسم «المصلحة الوطنية». للمزيد يُنظر موقع المركز: *cftni.org*

(٢) نائب مدير مركز نيكسون حينها هو: كليف كوبتشان *Cliff Kupchan*

(٣) مركز نيكسون (المصلحة الوطنية)، تقرير «فهم الصوفية ودورها المرتقب في سياسة الولايات المتحدة»، ترجمة: مازن مطبقاني، ٢٠٠٤م، ص٦، والتقرير منشور في موقع صيد الفوائد تحت عنوان « فهم الصوفية واستشراف أثرها في السياسة الأمريكية»، والترجمة الأدق للعنوان هي ما أثبته، وقد استأذنت المترجم (الدكتور مازن) في ذلك، فأذن لي. رابط التقرير في موقع صيد الفوائد: *www.saaid.net/book/11/3934.doc*

صانعي السياسة ومجتمع صناعة القرار بهذا الجزء المهمل من الإسلام، والذي يُشار إليه غالباً بـ«الإسلام الثقافي». ويمارس التصوف ملايين من الناس حول العالم ومن ضمنه الولايات المتحدة الأمريكية»[١].

ومن هنا، نجد أن التصوف عند مركز نيكسون (مركز المصلحة الوطنية) عبارة عن حركة روحية «مهملة» داخل الإسلام، وجاء هذا المؤتمر ليلفت النظر إلى ذلك الجزء المهمل من الإسلام، راجياً أن يكون له دوره في خدمة السياسة الأمريكية في العالم الإسلامي، وذلك عبر توصيات وأفكار طَرَحها سيأتي ذكرها في المبحث الرابع -إن شاء الله-.

خامساً: مجلس العلاقات الخارجية[٢] *Council on Foreign Relations*

يُطلق مجلس العلاقات الخاجية اسم «الإسلام الشعبي» ***Popular Islam*** على التصوف، ثم يزعم بأن: «العلماء استخدموا هذا المصطلح لوصف الممارسات التي ظهرت من خليط من التقاليد الشعبية والعقيدة الإسلامية الرسمية»[٣]، ثم يُعرِّف التصوف بأنه: «شكل روحاني من الإسلام، والهدف من المجموعات والطرق الصوفية هو الحصول على اتصال ومعرفة أقرب بالله، من خلال الاحتفالات الجماعية، والتي غالباً ما تُصحب بالنشوة والموسيقي وغيرها من التقنيات»[٤].

وفي تقرير آخر يمتدح المجلسُ التصوفَ في الهند، والتي يعتبرها مركزاً عالمياً للتصوف، ويزعم أن عدم وجود صراعات بين مسلمي الهند هو

---

(١) المرجع نفسه، ص٦

(٢) تأسَّس مجلس العلاقات الخارجية في نيويورك عام ١٩٢١م على يد مجموعة من الدبلوماسيين والممولين والجنرالات والمحامين الأمريكيين، وذلك بهدف المساهمة في صنع القرار الأمريكي في الشؤون العالمية، ويُعد المجلس اليوم المركز الفكري الأكثر نفوذاً في السياسة الخارجية الأمريكية، ويظم في مجلس إداراته العديد من الوزراء والضباط والمسؤولين السابقين في الإدارة الأمريكية، كوزيرة الخارجية السابقة مادلين أولبرايت *Madeleine Albright* والجنرال المتقاعد كولن باول *Colin Powell*، وللمركز نشاطات سياسية متنوعة أبرزها إصدار الأوراق والتقارير السياسية، وعقد المؤتمرات، ويصدر المجلس أيضاً مجلة «الشؤون الخارجية»، النصف شهرية، والتي تعد الأبرز بين المجلات السياسية، للمزيد يُنظر: موقع مجلس العلاقات الخارجية الإليكتروني: *www.cfr.org*

(٣) مجلس العلاقات الخارجية، تقرير«السنة في العراق *IRAQ: The Sunnis*»، تُرجِم بواسطة الباحث، ٢٠٠٣م، رابط التقرير: *http://www.cfr.org/iraq/iraq-sunnis/p7678*

(٤) المرجع نفسه.

نتيجة بعدهم عن «الحَرْفية الاسلامية»!، وهذا البعد عن الحَرْفية هو -كما يزعم- بسبب الجذور التاريخية العميقة للتصوف في الهند. ثم يقارن المجلسُ بين زيارتي الرئيس الباكستاني وأمير قطر للهند؛ فرئيس باكستان - كما يقول المجلس- بادر إلى زيارة الأضرحة الصوفية في الهند في رسالة إلى مسلمي باكستان بأنه متمسك بالممارسات الدينية السائدة، بينما أمير قطر كان يزور المنازل الإسلامية القديمة في الهند، وذلك حتى لا يُرسل رسالة إلى قاعدته الوهابية بأنه قد تخلى عن الدين الحقيقي وأصبح من عباد القبور![1]، ثم يقرر المجلس بأنه: «عندما يبدأ ملوك الخليج في التخلي عن الوهابية، وتبني شكل إسلامي أكثر تعددية؛ فإن السكان سوف يتبعونهم لا محالة، ففي حين أن كل سلفي ليس بإرهابي فإن كل إرهابي -تقريباً- هو سلفي. إن تقويض السلفية أو الوهابية يأتي عن طريق تبني الفكر الإسلامي السائد، وذلك هو الترياق الأكيد للصلابة والحَرْفية الموجودة في الخليج»[2].

سادساً: معهد الولايات المتحدة للسلام[3] *United States Institute of Peace*

في تقرير «الإسلام السياسي في جنوب الصحراء الأفريقية» تحدث معهد الولايات المتحدة للسلام عن الصوفية في بعض دول جنوب الصحراء الكبرى الإفريقية بشكل إيجابي كبير، فعلى سبيل المثال يقول عن الصوفية في السنغال: «أن الطرق الصوفية في السنغال تمثل أحد صور الإسلام السياسي في أفريقيا، وهي عبارة عن شبكات اجتماعية ذات جذور تاريخية عميقة، وتدعم حكومة ديمقراطية علمانية»[4]، ويرى التقرير أن السنغال (١١ مليون نسمة) يمثل أنموذجا حياً للتعايش بين العلمانية والتقاليد الإسلامية، حيث تعتبر الجماعات الصوفية هناك من ركائز السلطة

---

(١) مجلس العلاقات الخارجية، ماذا يمكن أن تتعلم قطر من باكستان *What Qatar Can Learn From Pakistan*، تُرجِم بواسطة الباحث، ٢٠١٢م، رابط التقرير:
http://blogs.cfr.org/husain/2012/04/11/what-qatar-can-learn-from-pakistan

(٢) المرجع نفسه.

(٣) سبق التعريف بهذا المعهد.

(٤) معهد الولايات المتحدة للسلام، تقرير «الإسلام السياسي في جنوب الصحراء الأفريقية»، ص٣

الحاكمة، بينما تُعلِن قيادات الحكومة ولاءها للجماعات الصوفية؛ وعلى سبيل المثال أعلن الرئيس «عبدالله واد»[١] اتبّاعه للطريقة المريدية[٢].

ولم يشذ هذا المعهد عن بقية الركب الغربي في المقابلة الدائمة بين السلفية (الوهابية) وبين الصوفية، إذ يقول في تقريره هذا: «الإسلام هو الدين الأسرع نمواً في قارة أفريقيا، ويتمتع بحضور كبير في مجموعة من دولها. وبينما يظهر بوضوح الإسلام الصوفي الروحاني والمتسامح غالباً في شرق وغرب أفريقيا، فإن الوهابية المتزمتة المتعصبة القادمة من السعودية وجدت لها جمهوراً متزايداً في هذه المناطق وفي القرن الأفريقي، وسوف تُشكِّل نتيجة الصراع على جوهر الإسلام الأفريقي جزءاً مهماً من مستقبل المشهد الديني الأفريقي، مع انعكاسات على السياسة الداخلية الأفريقية، وعلى العلاقات مع الولايات المتحدة»[٣].

سابعاً: مؤسسة التراث[٤] *The Heritage Foundation*

نجد أيضاً عند هذه المؤسسة الفكرية التابعة للمحافظين الجدد ذات النظرة الإيجابية للتصوف؛ فتقول –على سبيل المثال– في تقرير لها بعنوان «باكستان»: «غالبية الباكستانيين يمارسون شكلاً معتدلاً من الإسلام الصوفي»[٥]، وفي حديثها في التقرير عن أحد المزارات الصوفية لم تُغفل المؤسسة التنبيه إلى أنه: «في التفسيرات المتعصبة للإسلام يُعتبر تبجيل الصوفيين بدعه»[٦]، فالمقابلة بين التصوف والسلفية أمرٌ حاضر في أذهانهم جميعاً!

---

(١) تولى عبدالله واد رئاسة السنغال من عام ٢٠٠٠م إلى ٢٠١٢م.

(٢) المرجع نفسه، ص٩

(٣) المرجع نفسه، ص٣-٤

(٤) تأسَّست «مؤسسة التراث» عام ١٩٧٣م، كمؤسَّسة فكرية معفاة من الضرائب تابعة للمحافظين الجدد، ولها اليوم مكانتها المرموقة في السياسة الداخلية والخارجية الأمريكية، ويرأسها منذ إبريل ٢٠١٣م «جيم ديمينت» *Jim DeMint* وهو سيناتور سابق في مجلس الشيوخ الأمريكي حتى يناير ٢٠١٣م. يُنظر: موقع المؤسسة:
http://www.heritage.org

(٥) مؤسسة التراث، تقرير «باكستان»، تُرجِم بواسطة الباحث، ٢٠١١م، رابط التقرير:
http://www.heritage.org/research/commentary/2011/01/pakistan

(٦) المرجع نفسه.

وفي تقرير آخر لها بعنوان «إحياء التقاليد التعددية الباكستانية لمحاربة التطرف» *Reviving Pakistan's Pluralist Traditions to fight Extremism* تقول المؤسسة: «الصوفية لديها صلات قوية في جنوب آسيا يعود تاريخها إلى القرن الثامن والتاسع، وتدعو إلى التسامح الديني، وتشجيع الممارسات الإسلامية الروحية على الشعائر الإسلامية، وتُشجِّع على التعدد. الأضرحة الصوفية تجذب غالبية الباكستانيين، ولكنها أيضاً تتعرض لهجوم مستمر من الديوبندية والوهابية والسلفية وطوائف أهل الحديث (وحديثاً من مسلحي طالبان). وقد لاحظ الرئيس الباكستاني آصف علي زرداري أهمية الأضرحة الصوفية في التقاليد الباكستانية الإسلامية؛ فبذل جهوداً في ترميمها وإصلاحها وتقوية قيادتها»[1].

ثامناً: معهد الشرق الأوسط[2] *Middale East Institute*

يقول معهد الشرق الأوسط في تعريفه للصوفية في تقرير «المدارس الفكرية في الإسلام» *Schools of Thought in Islam*: «الحركة الصوفيه هي فرع روحاني في الإسلام، والتي تعكس مدى حاجة الأفراد إلى تجاوز الممارسات الدينية الرسمية من أجل تحقيق مستويات أعلى من الكمال الروحي. الصوفية موجودة في كل المدارس الفكرية الإسلامية، وموجودة أيضاً في جميع المجتمعات الإسلامية. ولطابعها الصوفي الروحاني فإنها تجتذب الأفراد والجماعات الصغيرة. وهي لا تُشكِّل مدرسة فكرية أو طائفية، بل هي ممارسات روحانية أو ارتقائية، والتي هي صامدة بالرغم من انتقادات علماء الدين المتعصبين. المتصوفة يعتقدون بأنهم يتبعون روحانية الرسول، وبالأخص أثناء الفترة المكية من الوحي، وفي ممارساتهم هناك

(١) مؤسسة التراث، تقرير «إحياء التقاليد التعددية الباكستانية لمحاربة التطرف»، تُرجِم بواسطة الباحث، ٢٠٠٩م، رابط التقرير على موقع المؤسسة:
www.heritage.org/research/reports/2009/05/reviving-pakistans-pluralist-traditions-to-fight-extremism

(٢) تأسس معهد الشرق الأوسط عام ١٩٤٦م؛كمركز بحثي، على يد مجموعة من العلماء ورجال الدولة الأمريكان، ويظم حالياً نخبة من الساسيين الأمريكيين البارزين، وترأسه حالياً السفيرة الأمريكية السابقة لدى باكستان (٢٠٠١-٢٠٠٢) «ويندي تشامبرلين» *Wendy J. Chaberlin*.
يُنظر: موقع المعهد الإليكتروني *http://www.mei.edu/*

الكثير من التأمل والوحدة أو تلاوة الصلوات والتمائم الخاصة بصبغتهم الدينية بشكل جماعي، ويسعون لحياة التقوى والزهد، والابتعاد عن ملذات الدنيا، والسعي إلى النقاء الداخلي في علاقتهم مع الله من خلال المحبة والصبر والتسامح، وغيرها من الصفات الروحية العليا»[1].

وكما هم الحال فيما سبق من نماذج، لا يمكن أن يتم حديث المركز عن الصوفية دون الإشارة إلى موقف السلفية منها!؛ وثمة عبارة في أحد تقارير معهد الشرق الأوسط تختصر لنا النظر الأمريكية المعاصرة للسلفية والصوفية، وهي قوله: «السلفية مصطلح واسع، ولذا فإن محاولة صياغة تعريف يجمع كل الذين يدعون بأنهم سلفيين قد يكون أمراً غير دقيق. السلفية هي حركة سنية تنطوي على التمسك بمفاهيم الأجيال الأولى لتعاليم الإسلام (السلف). السلفيون المتشددون يؤكدون على أن الشريعة الإسلامية يجب أن تستند على القرآن الكريم وسنة النبي محمد فقط، وبالرغم من أن السلفيين يقولون أن القضايا التي لم تُحسَم في التقاليد المقدسة فإنهم يقولون بإمكان معالجتها باستخدام الاستنباطات البشرية. السلفيون يرفضون عموماً تلك التقاليد التي نشأت بعد السلف ويعتبرونها بدعاً وبالتالي فهي محرمة. ونتج عن ذلك أن الكثير من السلفيين يعادون الشيعة وغالباً ما يتخذون نظرة مظلمة إلى الصوفية، والتي هي التقاليد الروحية في الإسلام»[2].

وبعد، فمن خلال ما مضى من الأمثلة والشواهد من واقع تقارير بعض أشهر مراكز البحوث الأمريكية يتبين لنا بأن مفهوم التصوف عند مراكز البحوث الأمريكية يتحدد فيما يلي:

أولاً: أنَّ التصوف عند مراكز البحوث الأمريكية عبارة عن حركة روحية

---

(١) معهد الشرق الأوسط، تقرير «المدارس الفكرية في الإسلام»، ٢٠١٢م، تُرجِم بواسطة الباحث، التقرير على الرابط التالي:

http://www.mei.edu/content/schools-thought-islam

(٢) معهد الشرق الأوسط، تقرير «تحدي السلفية لجهاد تنظيم القاعدة»، ٢٠١١، ترجمة الباحث، التقرير على الرابط التالي:

http://www.mei.edu/content/salafist-challenge-al-qaedas-jihad

Mysticism داخل الإسلام، لا تحمل في طيَّاتها أصولية ولا عنفاً- بمفهومهم-.

ثانياً: تصف بعض المراكز الأمريكية يسمي التصوف بـ«الاسلام الروحاني» Mysticism Islam، أو «الإسلام الشعبي» Popular Islam، أو «الإسلام الصوفي» Islamic Sufi، أو غيرها من المسميات التي توحي بالقبول والرضا.

ثالثاً: أنَّ التصوف عندهم عبارة عن روحانية إسلامية، يقابلها ويعاديها تطرفٌ إسلاميٌ يتمثل -كما يُصرِّحون- في السلفية أو الوهابية!

رابعاً: أنَّ علامات القبول والرضا عن التصوف واضحة في عبارات تقارير مراكز البحوث الأمريكية، لا تكاد تخطئها العين، كما هو الحال تماماً في موقفهم الصريح والمعادي للمنهج السلفي.

وخلاصة ما مضى في هذا المبحث أن مفهوم التصوف عند مراكز البحوث الأمريكية ليس فيه ما هو جديد أو غريب، بل هو ذات المفهوم الإيجابي (الجميل) الذي رسمه الاستشراق الأوروبي عن التصوف؛ وأضيف هنا -على سبيل التذكير- بعض أقوال المستشرقين عن التصوف، ومن ذلك قول المستشرق «أوليري»[1] وهو يتحدث عن التصوف في كتابه (الفكر العربي): «ومقابل هذه الحركات الصوفية نرى من حين لآخر حركات ذات طابع رجعي ظاهر؛ كالوهابية التي عارضت تعاليم الغزالي حين كانت هذه معترفاً بها عموماً في مكة. ولقد تبع السنوسي الوهابيين في ذلك»[2].

وأيضا يقول المستشرق المعمِّر «برنارد لويس» وهو يقارن بين السلفية والصوفية: «إن ترفع العلماء المتشددين من أصحاب الامتيازات، وجفاف عبادتهم والشرعية الباردة لمبادئهم فشلت في أن تلبي الحاجات الاجتماعية والروحية لكثير من المسلمين فاتجهوا نحو غيرهم لطلب العون

---

(١) سبق ترجمته.

(٢) دي لاسي أوليري، الفكر العربي ومركزه في التاريخ، تعريب: إسماعيل البيطار، دار الكتاب اللبناني-بيروت، ط، ت بدون، ص١٩٢

والإرشاد[1]، وكثيراً ما اتبعوا في العهود الأولى تعاليم الشيعة التي يعتبرها العلماء السنّيون بدعة وضلالة، وبقيت كثير من آثار عقائد الشيعة في الديانة الشعبية. وكان أهم من ذلك تأثير الصوفية الذين كانوا قد نظَّموا أنفسهم في منظمات الإخوة الدراوشة منذ القرون الوسطى، واتبع كل منها نظاماً صوفياً خاصاً يدعى بـ«الطريقة». ولقد أضافت هذه «الطرق» الكثير الذي كان ينقص الإسلام السلفي، وملأوا الفراغ الذي تركته «السلفية» بين الرجل وخالقه. وقام المرشدون الدراوشة بمهمة رجال الدين والمرشدين الروحانيين، وفتحت اجتماعاتهم المجال للمؤاخاة والمعاشرة في سبيل البحث عن الله، وفي بعض المناسبات الكفاح لأجل الحاجات الإنسانية. كانت عقيدتهم حية، صوفية، نابعة من الحدس الطبيعي؛ وعبادتهم مِلؤها العاطفة والوجدان، تُستخدم فيها الموسيقى والغناء والرقص، وذلك مساعدة للمؤمن في الاتصال مع الله»[2].

هذا، وقد يظن البعض أن «برنارد لويس» يجهل حقيقية التصوف والتي هي أنه ليس مجرد حركة روحية وإنما هو إحداث وابتداع في دين الإسلام، ولكن الواقع أن «لويس» يدرك ذلك تماماً، فها هو يقول بعدما سبق بأسطر: «وليس من الغريب أن العلماء السلفيين نظروا إلى الطرق الصوفية بنظر الريبة، وطعنوا فيها مراراً، وأنهم كرهوا بصفة خاصة مبادئهم المشتملة على نظرية «وحدة الوجود»، والتي بدت لهم معارضة لوحدانية الله العليا، كما كرهوا عباداتهم الوثنية للقديسين والأماكن المقدسة، وعمل الكرامات والخوارق، والطرق المشبوهة لاستجلاب حالة الوجدان، وقلة عنايتهم بالتقيد بالشريعة الإلهية. ومجال آخر للريبة كان عنصر تعاليم الشيعة القوي في معتقدات جميع الطوائف الأخوية على وجه التقريب، ولعله لم يكن

---

(١) في هذا الموضع يُعلّق مترجم كتاب «لويس» في الحاشية قائلاً: «إن هذا التهجم على العبادات الإسلامية ينم عن جهل بها أو تجاهل؛ وإنه لسخف وافتراء، فإذا لم يجد المسلمون تلبية أشواقهم الروحية في صلاتهم ومناجاتهم لله وفي تلاوة القرآن، وسيرة نبيهم عليه أفضل الصلاة والسلام وسير الصحابة وأئمة الدين فأين يجدونها؟»

(٢) برنارد لويس، استنبول حضارة الخلافة الإسلامية، ترجمة وتعليق: سيد رضوان علي، الدار السعودية للنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م، ص١٨٤-١٨٥

بالدرجة بحيث يطبع هؤلاء بطابع الشيعة ولكن لدرجة كافية بحيث يثير غضب أهل السنة والجماعة»[1]!

أيُّ فهمٍ أدق وأوضح للتصوف من هذا الذي يذكره «برنارد لويس»؟!، ومع ذلك فقد اختار أن يُثني على الصوفية، لأنه يدرك تماماً (وهو الماكر الكبير) كيف يخدم مصلحة بلاده، ولو تعارض اختياره مع حقيقة ما يعلم!

ومثل «برنارد لويس» في هذا التناقض الماكر نجد أيضاً المستشرق «جولد تسيهر»؛ حيث وصف الصوفية على حقيقتها، ثم وصف السلفية أيضاً على حقيقتها، ثم عاد كما عاد «لويس» ليختار ذم السلفية ومدح الصوفية!، إذ يقول: «وفي الحق، ليس شيء أشد خروجاً على السنة القديمة وأظهر مناقضة لها من هذا التقديس المبتدع المفسد لجوهر الإسلام والماسخ لحقيقته، وإن السني الصادق الحريص على اتباع السنة لا بد أن يعده من قبيل الشرك الذي يستثير كراهيته واشمئزازه»[2]. ويقول: «لم يكن بين التيارات المختلفة للتفكير الاعتقادي في الإسلام تيار جدّ في تقبيح البدعة وإضهادها في نشاط ومثابرة كالمذهب الحنبلي»[3]، وأنه «في أوائل القرن الرابع عشر الميلادي ظهر في سوريا فقيه جرئ أحسن التعبير عن ميول الحنابلة وآرائهم، وهو تقي الدين ابن تيمية»[4]، وقد «كافح ابن تيمية الصوفية ومبادئها الحلولية، كما استنكر تقديس النبي والأولياء»[5]، وأن «الحركة الوهابية هي التحقيق العملي لانتقادات ابن تيمية واحتجاجاته الحنبلية على البدع المخالفة للسنة»[6]، مع إقراره بكل ما مضى إلا أنه عاد ليقول: «فالوهابيون على الرغم من سنيتهم المنطقية ونزعتهم الإسلامية البحتة؛ ينبغي اعتبارهم من الخارجين المارقين، كما يجب أن يوصموا بهاتين الرذيلتين»[7]!! وأما الصوفية فقد عدَّهم هم أهل السُّنَّة! بل عدَّ

---

(١) المرجع نفسه، ص١٨٧

(٢) جولد تسيهر، العقيدة والشريعة في الإسلام، مرجع سابق، ص٢٦٣

(٣) المرجع نفسه، ص٢٥٩

(٤) المرجع نفسه، ص٢٦٤

(٥) المرجع نفسه، ص٢٦٤

(٦) المرجع نفسه، ص٢٦٧

(٧) المرجع نفسه، ص٢٧٠

أفعالهم -التي شجبها- كتقديس الأولياء من السُّنَّة، زاعماً: «أن المسلمين إذا اتبعوا عادة من العادات أو ألِفُوا تقليداً من التقاليد، وارتضاه جمهورهم زمناً طويلاً ولم ينكروه، أصبحت هذه العادة أو التقليد في النهاية جزءاً من صميم السُّنَّة»[1]!!.

فأي تلبيس وخلط وتناقض أعظم من هذا!![2]

يقول الدكتور أنور الجندي: «ومن الحق أن يقال إن المنهج العلمي الغربي الوافد كان متجاوزاً للحق في إعلاء أمور لا يقرها الفكر الإسلامي، وتتعارض مع أصله الأصيل (التوحيد)، وأن تلك الفرحة بهذه المفاهيم، وإعلاء هذا النوع من التصوف الفلسفي ونشر آثاره وإذاعة أخباره، وتخصيص الأساطين حياتهم كلها (نيكلسون، ماسينيون، جولدزيهر، فلهوزن، الخ) ليكشف عن تلك الرغبة الحاسمة، وذلك الهوى المكين في إخراج الإسلام عن مفاهيمه الأصيلة»[3].

وما هذه الرغبة الحاسمة والهوى المكين إلا لأن سر الحضارة الإسلامية يكمن في تلك المفاهيم الأصيلة، وعودة الحضارة الإسلامية هو ما يقلق الغرب ويرى فيه إضراراً بمصالحه، ولذلك فإن «جولد تسيهر» و«برنارد لويس» وغيرهما من المستشرقين، وورثة فكرهم اليوم من خبراء المراكز البحثية الأمريكية لا يأنفون من مثل هذا التناقض الصارخ وقلب الحقائق، طالما أن ذلك يخدم المصلحة الغربية (الأمريكية حالياً)، فالمصلحة عندهم فوق كل حقيقة ومنطق ودين!.

---

(١) المرجع نفسه، ص٢٥٤

(٢) ولا غرو، فأشد الناس عداوة للمؤمنين هم اليهود، كما أخبرنا بذلك الحق ﷻ؛ و«لويس» و «تسيهر» يهوديان، كما هو معلوم.

(٣) أنور الجندي، أخطاء المنهج الغربي الوافد، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط١، ١٩٧٤م، ص١٤١

المبحث الثالث

موقف مراكز البحوث الأمريكية من رموز التصوف، ونقده

مضى في الفصل الأول الحديث عن موقف المستشرقين من رموز التصوف، وتبيَّن لنا مدى العناية والاهتمام التي أولاها المستشرقون لرموز التصوف، وضربت لذلك مثلاً بعنايتهم بالحلاَّج، وابن عربي، وابن الفارض، والرومي، الذين يُعدُّون من أعلام التصوف؛ وكان التأليف في سيَرِهم، وإحياء تراثهم، والدفاع عنهم وعن خطاياهم، من أبرز صور عناية المستشرقين بهؤلاء الأربعة وغيرهم من رموز التصوف.

وتبيَّن لنا أيضاً في المبحث السابق أن مراكز البحوث الغربية ورثت عن المستشرقين الأوائل ذات المفهوم (الإيجابي) عن التصوف، وبالتالي فقد أولوه أيضاً عنايتهم واهتمامهم، وبخاصة بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م.

وعليه، فإن الحديث هنا عن موقف مراكز البحوث الأمريكية من رموز التصوف لن يكون تفتيشاً بين ثنايا تقارير تلك المراكز لاستنتاج موقفها من رموز التصوف، وذلك لأن موقفها من رموز التصوف لن يعدو موقفها الإيجابيُ العام من التصوف، وبالتالي فسيكون الحديث في هذا المبحث على هيئة أمثلة أضربها كشواهد لعناية واهتمام مراكز البحوث الأمريكية برموز التصوف؛ المعاصرين منهم والأقدمين، وذلك على نحو ما يلي:

أولاً: مؤسسة راند:

تدرك مؤسسة راند أهمية الشيخ (الرمز) في الوسط الصوفي، فتقول - على سبيل المثال- في تقرير «العالم المسلم بعد ٩/١١»: «وغالباً ما تكون القيادة الجذابة هي العنصر المحوري في الممارسات الصوفية، وغالباً ما يؤسِّس مشايخ الطرق الصوفية موطئ قدم لهم ضمن القطاع السياسي»[1].

وهذا توصيف دقيق من مؤسسة راند، إذ من المعلوم المشتهر أن مشيخة الطرق الصوفية لا تعتمد على العلم الشرعي بقدر ما تعتمد على جاذبية

(١) مؤسسة راند، تقرير «العالم المسلم بعد ٩/١١»، النسخة الإنجليزية، ترجمة الباحث، ص٢٢

ذلك الشيخ لمريديه عبر اعتقادهم الولاية فيه، إلى حد أن تلك الولاية يرثها ابن ذلك الشيخ عبر وراثته «سِرّ» الطريقة من أبيه!!، وإن لم يكن له أبناء فيرثها منه أحد تلاميذه ممن أيضاً قد أخذ «السِرّ» من شيخه!

وهكذا، فالجاذبية (المزعومة) المعززة بدعوى الولاية والكرامات هي حلقة الوصل بين الشيخ ومريده في التصوف![1]

ولذلك سنلاحظ هنا أيضاً -كما لاحظنا في الفصل الأول مع المستشرقين- عناية مراكز البحوث الأمريكية بتحديد أسماء مشايخ الصوفية المعاصرين، وذلك لأنهم يدركون أن التصوف يقوم على تقديس الشيوخ (الأحياء منهم والأموات)، سمَّتها مؤسسة راند «القيادة الجذابة» *Charismatic leadership*، ولذا فالشيخ (الرمز) هو العنصر الجوهري في التعامل مع التصوف، بخلاف السلفية التي تقوم على العلم الشرعي (اتباع الكتاب والسنة) ولا قداسة لأحد، ولا اتباع لأحدٍ إلا بمقدار قيامه وعنايته بالعلم الشرعي قولاً وعملا.

ومن أبرز الرموز الصوفية التي تناولتها مؤسسة راند:

التركي «فتح الله كولن»[2] الذي تُنسب إليه «حركة كولن»[3]، إذ تقول عنه في تقريرها «إسلام حضاري ديمقراطي» -بعد أن جعلته من زعماء

---

(١) أنبِّه هنا إلى أن الرمز عند المتصوفة اتسعت دائرته اليوم لتشمل -بالإضافة إلى مشايخ الطرق- كل من يتبنى الأفكار الصوفية في حراكه الدعوي، وهذا من التطور الذي طرأ على التصوف في هذا الزمان، وسيأتي مزيد بيان لهذه المسألة في الفصل القادم -إن شاء الله-.

(٢) محمد فتح الله كولن *Fethullah Gulen*، ولد عام ١٩٤١م، بأرضروم، شرقي تركيا، تأثر كثيراً برسائل النور لسعيد النورسي، واشتغل بالوعظ والمحاضرات الدينية والتأليف، وهو رجل مؤثرٌ حاضر الدمعة. سافر عام ١٩٩٩م إلى أمريكا واستقرَّ بها، ومنها يُدير حركته الضخمة؛ ويعيش كولن هناك بين مريديه، حيث لم يتزوج، متابعاً في ذلك النورسيَ، الذي عزف عن الزواج ومات أعزباً! ويتابع كولن النورسيَ أيضاً في التحذير من السياسة، بل إنه يرى أن تسييس الإسلام خيانة كبرى لروح الإسلام! ويرى كولن أيضاً أن تطبيق الشريعة مسألة شخصية، والحجاب بالنسبة للمرأة عادة لا أكثر!. احتل كولن المرتبة الأولى في قائمة «أهم مائة عالم» في استطلاع أجرته مجلتا «فورين بوليسي» الأمريكية و«بروسبيكت» البريطانية عام ٢٠٠٨م، وأنشأت عدة جامعات في أمريكا، وإندونيسيا، واستراليا، أقساماً خاصة باسم كولن (كرسي أكاديمي)، ومراكز علمية متخصصة، وانعقدت مؤتمرات وندوات دولية عديدة في جامعات عالمية لدراسة أطروحاته ونظرياته الدعوية والفلسفية والإصلاحية والتربوية!، وللمزيد حول مثل هذه الحفاوة بكولن يُنظر موقع فتح الله كولن: *fgulen.com*

(٣) حركة كولن *Gulen Movement* هي حركة فكرية بدأها كولن منذ عام ١٩٩٠م، ويُطلَق عليها في تركيا «حركة خدمة» *HizmetMovement*. وهي تقوم على أساسٍ من المرونة (التساهل)

التجديد في الإسلام-: «يقدم فتح الله غولين صيغة لتحديث الإسلام شديدة التأثر بالصوفية، ويركز على التنوع والتسامح واللاعنف»[1].

وأما في تقريرها «بناء شبكات مسلمة معتدلة» والذي جعلت فيه الصوفية أحد الشركاء المرتقبين لأمريكا، فقد ضربت مثلاً لذلك الشريك الصوفي المرتقب بفتح الله كولن، إذ تقول عنه: «ويشجع القائد الديني التركي (فتح الله كولن) الإسلام الصوفي الحديث المعتدل، حيث إنه يعارض تنفيذ الدولة للقانون الإسلامي مشيراً إلى أن معظم اللوائح الإسلامية تتعلق بالحياة الخاصة للأفراد ويهتم القليل منها بأمور الحكم، فالدولة كما يعتقد هو لا ينبغي أن تطبق أو تنفذ الشريعة الإسلامية؛ لأن الدين مسألة شخصية، فقوانين ومتطلبات عقيدة بعينها لا ينبغي أن يتم فرضها على السكان ككل، كما وسع كولن من فكرته الخاصة والمتعلقة بمبدأ التسامح والحوار المتبادل مع كلٍ من المسيحين واليهود؛ حيث تقابل مرتين مع البطريرك بارثولوميوس، رئيس البطريركية المسيحية الأرثوذكسية اليونانية (*Ecumenical Patriachate*) باسطنبول، كما زار البابا في روما عام ١٩٩٨م وتلقى دعوة لزيارة الحاخام الإسرائيلي، حيث يؤكد كولن على تماشي مبادئ الدين الإسلامي مع مبادئ الديمقراطية كما يقبل الحجة القائلة بأن فكرة المذهب الجمهوري تتطابق بشكل كبير مع المفاهيم الإسلامية للشورى.. وقد كان كولن من المعارضين لأيٍ من الأنظمة الديكتاتورية المؤيدة لإخضاع الفرد وحقوقه إخضاعاً كاملاً لمصلحة الدولة والتي ربما

= والتفاهم بين الأديان والأفكار، وقد أخذت بُعداً كبيراً بعد لقاء كولن ببابا الفاتيكان عام ١٩٩٨م، وقد لقيت هذه الحركة قبولاً رسمياً في تركيا وخارج تركيا؛ فأثنى عليها وعلى صاحبها زعماء وقادة العلمانية التركية؛ كالرؤساء: «سليمان ديميريل» و«طورغوت أوزال» و«بلند أجاويد»، ورؤساء الوزراء؛ كـ«يلدريم آق بولوط» و«مسعود يلماز»، وكذلك ممثل الفاتيكان في تركيا «جورج مورروفيج» وبطريرك الروم في تركيا «بارثولوميوس». ولأجل هذا القبول العلماني أصبحت حركة كولن اليوم عبارة عن شبكة ضخمة من المدارس والمؤسسات الإعلامية والثقافية والتجارية والمالية، منها أكثر من ١٥٠٠ مؤسسة تعليمية بمختلف مراحل التعليم، إضافة إلى ١٥ جامعة، وذلك في أكثر من ١٤٠ دولة حول العالم، منها أمريكا. وأبرز سِمةٍ لهذه المؤسسات التعليمية أنها تتفق مع المناهج العلمانية التركية، ولا تُطبِّق أي برامج أو مناهج دينية، (أي أنها ليست مدارس دينية، كما يظن البعض!). للمزيد حول نشاطات هذه الحركة يُنظر: موقع حركة كولن:
/http://www.gulenmovement.com

(١) مؤسسة راند، تقرير «إسلام حضاري ديموقراطي»، مرجع سابق، ص٥٠

تفرض قيوداً على الأفكار كما أنه كان شديد النقد لكل من النظام الإيراني والنظام بالمملكة العربية السعودية، كما دأب على وجهة نظره الخاصة بأن الخبرة والتفسير التركي للإسلام يختلف عن البلدان الأخرى خاصة البلاد العربية، كما كتب كولن عن «الإسلام الأنضاولي» والذي يرتكز فيه على مبادئ التسامح والبعد عن فرض قيود مشددة أو التعصب»[١].

واحتفت أيضاً مؤسسة راند بمتصوف آخر وهو الرئيس الإندونيسي السابق «عبدالرحمن وحيد» باعتباره -كما تقول- «القائد السياسي الديني المشهور عالمياً»[٢]، وتحت ذات العنوان (الشركاء المرتقبون) نقلت عنه راند قوله: «يشكل الصوفية والمسلمون المتمسكون بالتقاليد الغالبية العظمى من المسلمين. فهم غالباً وليس دائماً مسلمون محافظون يتمسكون بمعتقدات وتقاليد تناقلوها عبر قرون -١٤٠٠ عام من الأعراف والتقاليد الإسلامية والتعلق بالقيم الروحية المعادية للأيديولوجية المتطرفة»[٣]. ثم توضح راند هذه الكلمة لوحيد بقولها: «وتشمل هذه التقاليد تبجيل الشيوخ (وتأدية الصلاة عند قبورهم) وممارسات أخرى يبغضها الوهابيون، فهم يفسرون الكتب المقدسة على ضوء تعاليم مدارس التشريعات (المذهب) والتي أُسست في القرون الأولى من الإسلام، كما أنهم لا يمارسون التفسير غير الوسطي للقرآن والحديث (تقاليد وأفعال النبي محمد) مثلما يفعل السلفيون والمجددون، ويتبنى العديد من التقليديين مبادئ الصوفية- الطريقة الروحانية الإسلامية التي تركز على التجارب الشخصية والعاطفية في عالم اللاهوت- في ممارستهم لتعاليم الإسلام»[٤].

وعبدالرحمن وحيد هو حفيد هاشم أشعري مؤسس «جمعية نهضة العلماء»[٥] الصوفية، وقد تَولىَّ رئاستها عبدالرحمن -خلفاً لوالده «وحيد

---

(١) مؤسسة راند، تقرير «بناء شبكات مسلمة معتدلة»، مرجع سابق، ص٩٥
(٢) المرجع نفسه، ص٣٤
(٣) المرجع نفسه، ص٩٤
(٤) المرجع نفسه، ص٩٤
(٥) سيأتي الحديث عنها.

هاشم»- منذ عام ١٩٨٢م وحتى وفاته في عام ٢٠٠٩م. ويوصف عبدالرحمن وحيد بالمسلم المعتدل، وقد زار «إسرائيل» وتربطه علاقة صداقة برئيس وزرائها «شيمون بيريز»[١].

ومِنْ شدة احتفاء مؤسسة راند بعبدالرحمن وحيد ألحقت بتقريرها «بناء شبكات مسلمة معتدلة» نصَّ المقال الذي نشرته جريدة وول ستريت جورنال لعبدالرحمن وحيد في ٣٠ ديسمبر ٢٠٠٥م، تحت عنوان (الإسلام الصحيح والإسلام الخاطئ)، ومما قاله عبدالرحمن وحيد في ذلك المقال: «أمامنا تفكير متطرف ومنحرف في عقول المتعصبين هو ما يهددنا بشكل مباشر (بالتحديد التفكير الوهابي/ السلفي، وهم طائفة قليلة من الأصوليين تمولهم أموال البترول)»[٢]، ثم ذكر خمسة عشر عاملاً زعم بأنها هي التي صنعت قوة هائلة للحركة الأصولية العالمية؛ منها: «التمويل الهائل برعاية الوهابيين الأثرياء بسبب النفط»[٣]، ومنها: «المنح الدراسية التي تُعطى للعامة للدراسة في السعودية، ثم يعودوا مُلقَّنين ويحملون الدرجات العلمية، لكي يخدموا كقادة للمستقبل»[٤]!!

وأما جمعية نهضة العلماء *Nahdatul Ulama* التي كان يرأسها عبدالرحمن وحيد، فقد تأسست عام ١٩٢٦م، وتُعد من أكبر الجمعيات الإسلامية في إندونيسيا، وهي جمعية صوفية، تضم تحتها ٤٣ طريقة صوفية، وتتبنى الأشعرية والماتريدية في العقيدة، ويتبع لها المئات من المدارس والمعاهد والجامعات[٥]. وتقول عنها مؤسسة راند في تقريرها

---

(١) يُنظر: جريدة الحياة، العدد ٤٢٠ في ١٤ فبراير ٢٠٠٠م، لقاء مع الرئيس الإندونيسي عبدالرحمن وحيد.

(٢) مؤسسة راند، تقرير «بناء شبكات مسلمة معتدلة»، ص١٦٢

(٣) المرجع نفسه، ص١٦٤

(٤) المرجع نفسه، ص١٦٤

(٥) يُنظر: الموقع الإليكتروني لجمعية نهضة العلماء، رابط الموقع: *http://www.nu.or.id/* ، ويُنظر: جريدة الانتباهة (السودانية)، في ٤ نوفمبر ٢٠١٢م، لقاء مع رئيس جميعة نهضة علماء اندونيسيا الدكتور سعيد عقيل سراج. ويُنظر: مؤنف رضوان، منظمة التجديد الطلابي (المغربية)، مقال بعنوان (جمعية نهضة العلماء ودورها في حماية التدين الإندونيسي)، المقال منشور بموقع المنظمة على الرابط التالي:
http://www.orema.ma/news2559html

«بناء شبكات مسلمة معتدلة»: «الجهود المبذولة لبناء شبكة في جنوب شرق آسيا ينبغي أن تشمل عمل المنظمات غير الحكومية؛ والعمل أيضاً مع منظمة المعتدلين التقليديين الإندونيسيين «نهضة العلماء»، والتي يتبع لها ١٥٠٠٠ مدرسة داخلية،..»[١]، وتضيف تحت عنوان (المؤسسات التعليمية المعتدلة): «يمكننا أن نجزم بأن مؤسسات «نهضة العلماء» هي أفضل المدارس الإسلامية الداخلية بأندونيسيا»[٢].

وأيضاً نجد أن مؤسسة راند تشيد برمز صوفي آخر في إيطاليا، وهو الشيخ «عبدالهادي بالاتسي»[٣]، إذ تقول عنه: «عبدالهادي بالاتسي الشيخ الصوفي الذي تلقى تعليمه بالأزهر، قيادي معتدل آخر يدير المؤسسة الثقافية للمجتمع الإسلامي الإيطالي، والذي يدعو لتطوير التعليم الإسلامي بإيطاليا، ويحارب الأصولية والتعصب، والمشارك في الحوار بين الأديان وخاصة اليهودية والمسيحية. وبخصوص توافق الإسلام مع القوانين العلمانية؛ فإن بالاتسي يقول بأن الشرع يمنع المسلم من إتيان الأفعال -حتى المسموح بها في القرآن- والتي تتعارض مع قوانين الدولة التي يعيش هو أو تعيش هي فيها، وبالتالي يجب على المسلم أن يمتنع عن الأعمال المسموح بها في القرآن عندما تكون تلك الأعمال غير قانونية في المجتمع الذي يعيش فيه المسلم. في ١٩٩٦م أسس بالاتسي والعالم الإسرائيلي «آشر ايدر» الزمالة الإسلامية -الإسرائيلية للتعاون بين إسرائيل والأمم الإسلامية وبين اليهود والمسلمين»[٤].

---

(١) مؤسسة راند، تقرير «بناء شبكات مسلمة معتدلة»، ص١٢٤

(٢) المرجع نفسه، ص١٢٥

(٣) عبدالهادي بالاتسي *Abdul Hadi Palazzi* واسمه القانوني (ماسيمو بالاتسي)، إيطالي الجنسية، ولد في روما لأب كاثوليكي (أسلم فيما بعد)، وأم سورية، وهو الأمين العام لجمعية المسلم الإيطالي، وخليفة شيخ الطريقة القادرية في أوروبا، وعضو مؤسس لـ«الزمالة الإسلامية الإسرائيلية»، وعضو اللجنة الاستشارية لـ«جمعية التراث القانوني اليهودي»، وهو من المناصرين بقوة لقيام دولة اليهود «إسرائيل»، وإعطائها الحق في السيادة على القدس. يُنظر: موسوعة ويكيبيديا، مادة (*Abdul Hadi Palazzi*). والموقع الإليكتروني لكلٍ من: جمعية التراث القانوني اليهودي، والاتحاد مع إسرائيل، على الرابطين:
http://www.mishpativri.org.il ،*http://unitedwithisrael.org*

(٤)مؤسسة راند، تقرير «بناء شبكات مسلمة معتدلة»، ص١١٦

هذه نماذج لبعض رموز المتصوفة الذين احتفت بهم مؤسسة راند، ولا أجد أن ثمة حاجة للتعليق على التنازلات الشرعية التي غرقوا فيها، والتي أعجبت راند والغرب، ونالوا على إثرها وسام «المسلم المعتدل»، كما نال قبلهم الهندي أحمد خان لقب «السِّير» (أي الفارس) من المستعمر البريطاني.

ثانيًا: مؤسسة كارنيغي:

بنفس الوتيرة عند مؤسسة راند- ولكن بشكل آخر- نجد أيضـًا عناية مؤسسة كارنيغي برموز (مشايخ) التصوف، وذلك لأنهم يدركون أن التصوف -كما أسلفت- يتمحور حول الشيخ (الولي/ الرمز)، فعلى سبيل المثال نجد مؤسسة كارنيغي في تقريرها «السلفيون والصوفيون في مصر» تقول: «تتمحور الزعامة داخل الطرق الصوفية الفردية في مصر حول شخص الشيخ، أو المعلم الصوفي الذي يُحدد إرشاده الروحي وبركته وجهة أنشطة الطريقة وجوهرها الديني. منصب الشيخ وراثي في العادة، وهو ينتقل من الأب إلى الابن، ما يعني أن مشايخ الصوفية ليسوا علماء دين محترفين، بل من الأطباء والمهندسين ورجال الأعمال، ومع ذلك فهم يتوفّرون على براعة جوهرية في العادة في مجال الشريعة الإسلامية والتعاليم الدينية»[1].

وفي تقريرها الآخر «الصوفية في آسيا الوسطى» تقول تحت عنوان (الجيل المعاصر من القادة الصوفيين): «العديد من قادة الصوفية يزدادون شهرة في آسيا الوسطى. وهذا يتضمن «إبراهيم هازرت» و«عصمة الله شيخ»، بالإضافة إلى المشايخ الأوزباك والطاجيك الآخرين»[2]، وتقول أيضـًا: «غالبية القادة الصوفيين -كما ثبت تاريخيـًا- أفضل تأقلمـًا مع الواقع القائم مقارنة بعلماء المساجد الرسمية»[3]، وتضيف: «يساعد اتحاد

---

(١) معهد كارنيغي، تقرير «السلفيون والصوفيون في مصر»، مرجع سابق، ص١٢-١٣

(٢) معهد كارنيغي، تقرير «الصوفية في آسيا الوسطى»، تُرجِم بواسطة الباحث، ص٣٠ من النسخة الإنجليزية.

(٣) المرجع نفسه، ص٣٥

الإخوة الصوفيين تحت قيادة شيخ له شخصية جذابة مؤثرة الفردَ على الشعور بوحدة الهدف ودافع الأخوة، ومن ثمّ المساعدة على تقديمه كفردٍ متميز»[1].

وتقول أيضـاً: «قادة الصوفية يقدمون نماذج قليلة للانخراط المباشر في السياسة، ولكن غالبيتهم عوضـاً عن ذلك يبثون القليل من التسامح في الغطاء الديني للمنطقة، ويشكلون قوة موازنة لنمو «الأصولية الإسلامية» في آسيا الوسطى، ومع ذلك وتحت ظروف معينة يمكن للطرق الصوفية في آسيا الوسطى أن تصبح أكثر اشتغالاً بالسياسة»[2].

هذا وعلى الرغم من تأكيد مؤسسة كارنيغي في مواضع من تقريرها هذا على أن التصوف اليوم في آسيا الوسطى يُشكل حماية للدول العلمانية هناك إلا أنها أبدت بعض القلق من القيادات الصوفية الشابة، والتي -كما تقول- لديها طموحات سياسية، وقد تكون عدوة في المستقبل![3].

ثالثـاً: معهد بروكنجز:

يُنظم معهد بروكنجز سنوياً بالدوحة «منتدى أمريكا والعالم الإسلامي» ويحرص فيه على استضافة الشيخ عبدالله بن بيه، والذي يُعد أحد الرموز الصوفية المعاصرة، وقد استضافه في دورات المنتدى للأعوام ٢٠١٠، ٢٠١١، ٢٠١٢م[4].

رابعـاً: مركز المصلحة الوطنية (مركز نيكسون سابقـاً):

يمتدح مركز المصلحة الوطنية (نيكسون سابقـاً) في تقريره «فهم الصوفية ودورها المرتقب في سياسة الولايات المتحدة» شيخ الطريقة النقشبندية الحقانية في أمريكا محمد هشام قباني قائلاً: «أما الشيخ قباني فهو نائب رئيس الطريقة النقشبندية الحقانية، والتي يتبعها أكثر من مليوني شخص حول العالم. وكان أو زعيم مسلم يحذر الولايات المتحدة حول

---

(١) المرجع نفسه، ص:٣٥

(٢) المرجع نفسه، ص:٣٦

(٣) يُنظر: المرجع نفسه، ص:٣٨

(٤) يُنظر: الموقع الإليكتروني لمعهد بروكنجز، ويُعد «منتدى أمريكا والعالم الإسلامي» أحد مشاريع «مركز سابان» التابع لمعهد بروكنجز.

الخطر الداهم الذي يشكله أسامة بن لادن وشبكة القاعدة الإرهابية، وهو أيضاً الذي تزعم العالم الإسلامي في التنديد مباشرة بهجمة الحادي عشر من سبتمبر. والشيخ قباني داعيةٌ نشط لا يكل ولا يمل من الدعوة إلى الإسلام التقليدي المعتدل، وهو معارض شرس للإسلام المتطرف»[1].

هكذا نجد التبجيل لرموز التصوف عند هذا المركز.

خامساً: منتدى الشرق الأوسط[2] *Middile East Forum*

يسلك منتدى الشرق الأوسط النهج النقدي المتعصب تجاه الإسلام والمسلمين، وهو يسير في هذا على خطى مؤسِّسه «دانيال بايبس»[3]، والذي لم يفتأ -من قبل أحداث ١١-٩ ومن بعدها- ينتقد الإسلام ويهاجمه، وبخاصة ما يسميه بالإسلام المتطرف أو «الإسلامويه»، وفي ذات الوقت يدافع عمن يصفهم بالمعتدلين، ويحث على دعمهم، ومنهم -كما يزعم- محمد هشام قباني شيخ الطريقة النقشبندية الحقانية في أمريكا، والذي أجرى معه حواراً في مجلة المنتدى «فصلية الشرق الأوسط» *The middle east Quarterly* في يونيو ٢٠٠٠م، أي قبل ١١-٩ وقبل تصاعد حدة العداء ضد الإسلام والمسلمين! وقد احتفى بقباني في ذلك اللقاء وعرَّف به بأنه العالم الصوفي الذي انتقل إلى أمريكا عام ١٩٩١م لنشر التعاليم الإسلامية التقليدية والطريقة النقشبندية الصوفية، ولفتح المراكز الإسلامية، ومنظمات المساعدة الإنسانية، والانخراط كذلك في حوار الأديان[4].

---

(١) مركز المصلحة الوطنية، تقرير «فهم الصوفية ودورها المرتقب في سياسة الولايات المتحدة»، مرجع سابق، ص٦-٧

(٢) منتدى الشرق الأوسط هو عبارة عن مؤسسة بحثية معفاة من الضرائب، أسَّسه «دانيال بايبس» عام ١٩٩٤م، ومقره بمدينة فلادلفيا، ويُصدِر مجلة «فصلية الشرق الأوسط»، يُنظر: الموقع الإليكتروني للمنتدى http://www.meforum.org/

(٣) دانيال بايبس *Danil Pipes*، مؤلف ومؤرخ أمريكي ولد عام ١٩٤٩م، له اثنا عشر مؤلفاً عن الإسلام والعالم الإسلامي، ظاهر التحيز لليهود، وظاهر العداوة للإسلام والمسلمين بشكل عام، إلا من يرى فيهم الأعتدال كالصوفية والشيعة، له حضوره البارز في الصحافة والتلفاز. للمزيد عن «دانيال بايبس» وفكره الاستشراقي المتطرف يُنظر موقعه الإليكتروني:
http: //ar.danielpipes.org

(٤) يُنظر: منتدى الشرق الأوسط، مجلة «فصلية الشرق الأوسط»، عدد يونيو ٢٠٠٠م، المجلد السابع، ص٦١-٧٢، على الرابط:
http://www.meforum.org/61/muhammad-hisham-kabbani-the-muslim-experience-in

وفي مقال لدانيال بايبس بعنوان «كيف نحدد المسلمين المعتدلين» يقول: «إن فكرة أن الإسلام المتطرف والعنفي هو المشكلة، وأن الإسلام المعتدل هو الحل تلقى رواجاً واسعاً مع الوقت،... لقد رفع المسلمون المعادون للإسلامويين صوتهم منذ أحداث ١١ أيلول، وهم يضمون في صفوفهم أكاديميين مثل عازار نفيسي (من جامعة هوبكنز)، وأحمد الرحيم (سابقاً من جامعة هارفرد)، وكمال سلاوي (من جامعة أنديانا) وبسام طيبي (من جامعة غوتينغن)، وكذلك فإن أشخاصاً بارزين مثل أحمد صبحي منصور ومحمد هشام قباني يرفعون أصواتهم»[١].

وفي مقال آخر له بعنوان «كير: أصدقاء الإرهاب المعتدلون»، انتقد وهاجم مجلس العلاقات الأمريكية الإسلامية «كير» (*CAIR*) ويتهمه بتهديد المسلمين المعتدلين، والعمل على تشويه سمعتهم، لأنهم -كما يزعم- يرفضون نهج المجلس المتطرف، الأمر الذي أدى إلى تلقي أولئك المعتدلين -بزعمه- لتهديداتٍ بالقتل، وضرب لهم مثلاً بمحمد هشام قباني![٢].

هكذا نجد أنَّ المنتدى البحثي قد جعل من أولى اهتماماته الاحتفاء برموز ودعاة التصوف، والذبّ عنهم. ولا غرو طالما أنهم يسيرون في فلك المصلحة الغربية؛ ولذلك هذا الموقف هو -بشكل عام- الموقف الغربي الطبيعي من رموز التصوف ومشايخه.

وبعد، فيتضح من خلال الأمثلة السابقة عناية واهتمام مراكز البحوث الغربية برموز التصوف، سواء أكان ذلك بالثناء عليهم ووصفهم بالاعتدال (بالمفهوم الغربي)، أو بمحاولة البحث عنهم، واكتشافهم والكتابة عنهم، كما هو حال مؤسستي راند وكارنيغي، أو باستضافتهم في منتدياتهم

(١) دانيال بايبس، موقع دانيال بايبس، مقال «كيف نحدد المسلم المعتدل؟!!»، رابط المقال: *http://ar.danielpipes.org/article/2246*، وقد نُشر هذا المقال في جريدة نيويورك صن، في ٢٣ نوفمبر ٢٠٠٤م.

(٢) يُنظر: دانيال بايبس، موقع دانيال بايبس، مقال «كير: أصدقاء الإرهاب المعتدلون»، رابط المقال: *http://ar.danielpipes.org/article/2194* ، وقد نُشر هذه المقال في جريدة نيويورك بوست، في ٢٢ أبريل ٢٠٠٢م.

الحوارية والتشاورية بشأن مستقبل العالم الإسلامي مع أمريكا؛ كما هو حال معهد روكينجز، ومركز المصلحة الوطنية (نيكسون)، وهكذا. ومن جهة أخرى لا تكاد تجد في تقارير مراكز البحوث الأمريكية أي إيراد للتصوف لرموز التصوف على سبيل التحذير منهم أو القدح فيهم، بل على العكس من ذلك تماماً؛ وسيتجلى هذا الأمر أكثر في المبحث التالي، حيث سيكون الحديث عن التوصيات المتعلقة بالتصوف لتلك المراكز، وبالله التوفيق.

المبحث الرابع

توصيات مراكز البحوث الأمريكية المتعلقة بالصوفية، ونقدها

مدخل:

عرضت في المبحثين السابقين مفهوم التصوف لدى مراكز البحوث الأمريكية وموقفها من رموزه، وتبين من خلال ذلك العرض أن مراكز البحوث الأمريكية ورثت من الاستشراق التقليدي نظرته الإيجابية إلى التصوف وإلى رموزه، وأنها لم تخرج عن ذلك الإطار العام الذي رسمه الاستشراق.

وفي هذا المبحث سوف أعرض نماذج من توصيات عدد من مراكز البحوث الأمريكية فيما يتعلق بالتصوف، وذلك أن المراكز البحثية الأمريكية درجت -في الغالب- على كتابة مقترحات في آخر تقاريرها وأبحاثها التي تصدرها، وتعنون لتلك المقترحات بعدة عبارات مختلفة لها ذات الدلالة؛ نحو *Conclusions and Recommendations* أي الاستنتاجات والتوصيات، أو *A Proposed Strategy* أي الاستراتيجية المقترحة، وغيرها من العبارات الدالة على معنى التوصيات.

وبعد ذلك حاولت أن أقف على رأيٍ، أو ردٍ، أو تعليقٍ لأهل التصوف على تلك التوصيات، ولذلك قسمت هذا المبحث إلى مطلبين:

المطلب الأول: التصوف في توصيات مراكز البحوث الأمريكية.

المطلب الثاني: موقف المتصوفة من توصيات مراكز البحوث الأمريكية.

المطلب الأول: التصوف في توصيات مراكز البحوث الأمريكية

تبين لنا من خلال المبحثين السابقين مدى عناية مراكز البحوث الأمريكية بالتصوف، وكيف أنهم تناولوه (هو ورموزه) على أنه يمثل الإسلام الوسطي المعتدل، والذي يمكن أن يكون له دور مهم في مستقبل علاقة أمريكا بالعالم الإسلامي، هذا من جهة، ومن جهة أخرى يمكن أن يلعب دوراً مهماً في كبح التطرف السلفي -كما يزعمون-، ولهذين السببين الرئيسيين أوصت تلك المراكز -بكل وضوح- حكومةَ الولايات المتحدة الأمريكية بدعم وتشجيع التصوف؛ كخيار استراتيجي للولايات المتحدة في العالم الإسلامي.

وفيما يلي نماذج عديدة من تلك التوصيات، مُبتدِئاً بمؤسسة راند؛ كونها أوسع المراكز الأمريكية كتابة عن تفصيلات العالم الإسلامي، وكونها من أكثر المراكز البحثية أهمية في الوسط السياسي الأمريكي.

توصيات مراكز البحوث الأمريكية بدعم الصوفية

أولاً: مؤسسة راند:

أوصت مؤسسة راند في تقريرها «إسلام حضاري ديمقراطي» بدعم التصوف قائلةً: «يمثل الصوفيون التأويل المنفتح والفكري للإسلام، وينبغي أن يُشَّجع -بقوة- التأثيرَ الصوفيَ على المناهج المدرسية والمعايير المعتمدة والحياة الثقافية في الدول التي تمارس تقاليد صوفية مثل أفغانستان أو العراق. ويَمُدُّ التيارُ الصوفي من خلال أشعاره وموسيقاه وفلسفته جسوراً قوية تربط بين مختلف الانتماءات الدينية»(١)، وفي ذات التقرير وتحت عنوان (في أغوار الاستراتيجيات) جعلت مؤسسة راند من خطوات تنفيذ استراتيجيتها المقترحة: «تعزيز مكانة المذهب الصوفي، وتشجيع الدول ذات التقاليد الصوفية القوية على التركيز على الجزء الصوفي من تاريخهم وإدراجه في المناهج الدراسية المعتمدة في المدارس،

---

(١) مؤسسة راند، تقرير «إسلام حضاري ديمقراطي: شركاء وموارد واستراتيجيات»، مرجع سابق، ص٥٨

وشد الانتباه أكثر إلى الإسلام الصوفي»[1]، وكررت أيضاً هذه الخطوة (المهمة) وفي ذات الموضع بقولها: «تعزيز شعبية التيار الصوفي وتقبله»[2].

وفي تقرير «العالم المسلم بعد ١١-٩» كررت مؤسسة راند ذات التوصيات بدعم التصوف، بصورة تكاد تكون مطابقة لما ورد في تقرير «إسلام حضاري ديمقراطي»[3]، ولكنها أكدت في هذا التقرير سبب اختيار الصوفية كحليف لأمريكا قائلةً: «ولأنهم باتوا ضحيةً للسلفيين والوهابية فهذا يجعل الصوفيين والتقليديين حلفاء طبيعيين للغرب في الصراع مع المتطرفين»[4].

وأما في تقرير «بناء شبكات مسلمة معتدلة» والذي يُعد -كما أسلفت- بمثابة خارطة طريق رسمتها مؤسسة راند للإدارة الأمريكية، فقد خلصت فيه مؤسسة راند إلى أن ثمة ثلاثة قطاعات رئيسية في العالم الإسلامي يمكن أن تكون شريكاً (حليفاً) للولايات المتحدة، وأحد مكونات تلك القطاعات الثلاثة هم الصوفية، إذ تقول المؤسسة: «وعلى وجه العموم، يبدو أن هناك ثلاثة قطاعات واسعة خلال نطاق التوجهات الأيديولوجية على مستوى العالم الإسلامي، حيث تستطيع الولايات المتحدة والعالم الغربي أن يجدوا مشاركين من بينهم في مجهوداتهم للتغلب على التطرف الإسلامي، وهذه القطاعات تتكون من: العلمانيين والمسلمين الليبراليين والمعتدلين التقليديين بما فيهم الصوفية»[5]، وعلى هذا الأساس انطلقت مؤسسة راند في التنقيب عن مواطن التصوف ورموزه ومؤسساته في العالم الإسلامي، بل حتى بين المسلمين المقيمين في الغرب. وقد نقلتُ في المبحثين السابقين بعضاً مما ورد في ذلك التقرير في هذا الشأن، وأضيف هنا أيضاً تأكيد مؤسسة راند على ما مضى من التوصيات، ولكن بتفصيل أكثر، إذ تقول: «وقريب من هذه الدراسة تلك الحقيقة القائلة بأن السلفيين

---

(١) المرجع نفسه، ص٧٢

(٢) المرجع نفسه، ص٧٣

(٣) يُنظر: مؤسسة راند، تقرير« العالم المسلم بعد ١١-٩»، مرجع سابق، ص٤٤١-٤٤٢

(٤) المرجع نفسه، ص٥٤

(٥) مؤسسة راند، تقرير «بناء شبكات مسلمة معتدلة»، مرجع سابق، ص٩٠

والوهابيين هم أعداء أشداء للصوفية والمتمسكين بالتقاليد، وعندما اكتسبت الحركات الإسلامية المتطرفة قوة؛ سعوا إلى قمع الإسلام الصوفي والتقليدي ؛كما حدث في التخريب المشهور للآثار الإسلامية في السعودية، ولأن الصوفيين والتقليديين أصبحوا ضحايا للسلفيين والوهابية فإن هذا يجعلهم حلفاء طبيعيين للغرب لدرجة أنه من الممكن إيجاد أرضية مشتركة معهم، وكما اكتشفنا إمكانية عمل شراكة مع الصوفية والتقليديين فإنه من المهم أن نضع في اعتبارنا الاختلافات الكبيرة في هذا القطاع؛ ففي بلاد مثل البوسنة وسوريا وإيران وكازاخستان وإندونيسيا يكون الإسلام الذي يتم ممارسته هناك في المجتمع المحلي عبارة عن إسلام صوفي أو متأثر بالصوفية ولكنه ظاهرة منتشرة، وفي بلاد أخرى مثل الأراضي الألبانية والمغرب وتركيا والهند وماليزيا توجد الصوفية في شكل منظم ومنضبط، على الرغم من أن الصوفيين واجهوا في بعض الحالات نزعات راديكالية وقاموا بدعم جماعات عسكرية، فعلى وجه العموم تنتمي الجماعات الصوفية للجانب المعتدل من هذا القسم، وبعض الحركات الصوفية معتدلة من الناحية العسكرية، فعلى سبيل المثال تؤكد جمعية المشاريع الخيرية الإسلامية بلبنان على الاعتدال والتسامح ومعارضة النشاطات السياسية واستخدام العنف»[١].

وبعد أن انتهت المؤسسة في تقريرها هذا من وضع استراتيجية تحديد الحلفاء المناسبين للولايات المتحدة (ومنهم الصوفية) ذكرت أيضاً بعض التوصيات العامة لتحقيق هذه الاستراتيجية؛ ومن تلك التوصيات العامة – على سبيل المثال- قولها: «إذا كانت الولايات المتحدة تسعى بحق للتأثير على نتائج حرب الأفكار المستعرة في العالم الإسلامي؛ فإنها بحاجة لأن تلتزم -كما فعلت في الحرب الباردة- بدعم وتنظيم حلفائها الطبيعيين»[٢]، ومنها أيضاً توصيتها بعدم التركيز على مركز العالم الإسلامي -باعتباره منبع التشدد- وإنما التركيز على الأطراف لتؤثر بدورها على المركز؛ إذ

(١) المرجع نفسه، ص٩٤-٩٥

(٢) المرجع نفسه، ص١٥٣

تقول: «الأسلوب الحالي يركز على الشرق الأوسط مدركاً أن الفكر المتشدد ينبع من الشرق الأوسط ومن هناك ينتشر لباقي العالم الإسلامي بما فيه المجتمعات المسلمة في بلاد المهجر في أوروبا وأمريكا الشمالية، والأسلوب البديل هو عكس تيار الأفكار والنصوص المهمة الواردة من أصحاب الفكر والرأي والمثقفين والنشطين من قادة المسلمين ببلاد المهجر وفي تركيا وإندونيسيا وغيرها من الأماكن، ويجب ترجمتها إلى العربية ونشرها بشكل واسع، وهذا لا يعني أن المنطقة المركزية يجب هجرها بل على العكس، فإن الهدف يجب أن يكون الاحتفاظ بالمكان في انتظار الفرصة المتاحة للتقدم، والتي قد تظهر في أي لحظة»[1].

وهكذا، نجد أن المؤسسة تعدت مرحلة مجرد التوصية بدعم الصوفية في هذا التقرير إلى محاولة تحديد رموزهم ومؤسساتهم وطبيعة تواجدهم في العالم الإسلامي وخارجه، وأيضاً تحديد الفروق التي بينهم! كل ذلك باعتبارهم الشريك (الحليف) الإسلامي المعتدل للولايات المتحدة، والذي ينبغي دعمه في إطار محاربة التطرف المزعوم في السلفية.

ثانياً: مؤسسة كارنيغي:

لا يحتاج القارئ لتقارير مؤسسة كارنيغي إلى جهد كبير ليكتشف تبنِّي المؤسسة للتصوف كخيار في مواجهة السلفية، حتى إنها في تقاريرها تبدو كمدافع عن التصوف، بعد أن صنعت منه -عبر تقاريرها- ضحية للسلفية!.

فالقارئ لتقارير كارنيغي يشعر أنها تتناول التصوف كحليف قائم للغرب، وهذا -بطبيعة الحال- يفوق مجرد التوصية بدعم التصوف، ومن ذلك -على سبيل المثال- تجدها تضع أهمية المصالح الغربية جنباً إلى جنب مع المواقع الصوفية، إذ تقول في تقرير «تحدي بناء الأمن في شرق ليبيا»: «ظهر فصيل سلفي متشدّد في الشرق يعارض المشاركة الانتخابية، وشن هجمات على المصالح الغربية والمواقع الصوفية»[2]، وأما تقرير «غضب السلفيين في ليبيا» فكأنما أعدته المؤسسة للدفاع عن الصوفية

---

(١) المرجع نفسه، ص١٥٧

(٢) مؤسسة كارنيغي، تقرير «تحدي بناء الأمن في شرق ليبيا»، ٢٠١٢م، ص١

وإدانة السلفيين، والذين تزعم المؤسسة بأنهم: «قد صبّوا جامَّ غضبهم مؤخراً على الإرث الصوفي الغني في البلاد (والذي يعتبره السلفيون وثنياً)»[1]، بل وذهبت إلى أبعد من ذلك حينما قارنت بين تجنب حلف شمال الأطلسي قصف مسجد صوفي وبين قيام السلفيين بتدميره، إذ تقول: «لفت ناشطون ليبيون إلى أن المفارقة هي أن حلف شمال الأطلسي (الناتو) تفادى خلال الثورة في العام ٢٠١١م قصف مسجد صوفي ذي مكانة مرموقة في]مدينة[زليتن، على الرغم من ورود معلومات عن وجود قاذفة صواريخ تابعة للنظام داخله، وقد علّق أحد الناشطين على صفحته على الفايسبوك قائلاً: «أغبياؤنا نفّذوا المهمة بأنفسهم»[2].

وفي خلاصة تقريرها «السلفيون والصوفيون في مصر» تقول مؤسسة كارنيغي: «كثيراً ما ربط المراقبون الغربيون الصوفية بفهم مقبول ومعتدل وحتى مُمتع للإسلام، وفي الواقع، ترتبط الصوفية في مصر بعمق بالدين الشعبي والمهرجانات الدينية الجميلة، وسياسياً، الجماعات الصوفية إما متحالفة مع الأحزاب الليبرالية أو مع المؤسسة الدينية المعتدلة المؤيدة للحكومة في مصر، ومع ذلك، من غير المرجح أن يترجم الحضور الكلي للصوفية في الحياة المصرية إلى نفوذ سياسي أبداً، فالتصوف والمنظمات الصوفية إما أنها تشكل جزءاً من الحياة المصرية بأكثر مما ينبغي، ما يمنعها من أن تكون محركاً سياسياً مميزاً، أو أنها تابعة للغاية للمؤسسة الدينية للدولة، ما يمنعها من الدفع باتجاه إحداث أي تغيير جذري، وفي الواقع، في أعقاب الجولة الأولى من الانتخابات كانت الأحزاب الصوفية مرتبطة بشكل واضح بعناصر النظام السابق»[3]!.

---

(١) مؤسسة كارنيغي، تقرير «غضب السلفيين في ليبيا»، ٢٠١٢م.

(٢) المرجع نفسه، وما بين الحاصرتين من الباحث. ويحسن التنبيه هنا إلى أن رعاية حرمة المساجد ليست من عادة القوات الغربية، ومساجد العراق وأفغانستان شاهدة على بغيهم وتدميرهم لها، وقتل المصلين بداخلها، تحت ذرائع واهية! وإنما كانت رعاية «الناتو» لحرمة ذلك المسجد لوجود «مزار صوفي» به؛ أي قبرٌ يتبرك به، وبقاء ذلك القبر مزاراً علامةٌ على بقاء التصوف حياً نشطاً، وذاك ما يرجوه الغرب.

(٣) مؤسسة كارنيغي، تقرير « السلفيون والصوفيون في مصر»، مرجع سابق، ص١٥

وبعد هذا العرض الإيجابي (للحليف) الصوفي، تتحول كارنيغي مباشرة إلى الحديث بشكل مغاير عن (العدو) السلفي، قائلة: «بيد أن السلفية برزت منذ قيام الثورة باعتبارها واحداً من القوى المحركة الأكثر فاعلية؛ فقد كانت الأحزاب السياسية السلفية هي الأكثر نشاطاً على الساحة، وإن كانت مثيرة للجدل، ولديها الآن حصة حقيقية في العملية الديمقراطية، تسبَّب هذا في قدر كبير من الذعر في مصر وفي أوساط المراقبين في الخارج، إذ أن فهم السلفيين المتقشف والمتشدد للشريعة الإسلامية والعبادة يخيف الكثيرين، ويثير مخاوف واضحة إزاء وجود حكومة دينية على غرار إيران»[1].

وهكذا، في باقي تقارير مؤسسة كارنيغي؛ نجد الإطراء والنظرة الإيجابية للتصوف، ويقابلها تماماً الذم والنظرة السلبية للسلفية، وذلك كدعوة مباشرة وصريحة للسياسي الغربي بأن هذه (الصوفية) هي الصيغة الإسلامية المناسبة لنا ولمصالحنا في العالم الإسلامي، وأن هذه (السلفية) هي الصيغة الخطرة علينا وعلى التصوف في آن واحد.

ثالثاً: مؤسسة التراث

في تقرير بعنوان «التحدي الأمريكي في قمة شنغهاي» *The U.S Challenge at the Shanghai Summit* توصي مؤسسة التراث الولايات المتحدة بدعم التصوف في أوزبكستان ودول منظمة شنغهاي للتعاون[2]، إذ تقول: «يجب على الولايات المتحدة تطوير علاقاتها مع كازاخستان وأن ترحب بحرارة بالرئيس نزار باييف عندما يزور أمريكا في سبتمبر، ويجب عليها أيضاً أن تشجع الديمقراطية وحقوق الملكية، وسياسات السوق الحرة الاقتصادية في كازاخستان وفي باقي دول المنظمة الأخرى، وخاصة قيرغيزستان وطاجيكستان، وإن الثروة الإقليمية سوف تقطع شوطاً طويلاً

(١) المرجع نفسه، ص١٥

(٢) تأسست منظمة شنغهاي للتعاون (*SCO*) عام ٢٠٠١م، وتضم ست دول هي: روسيا والصين وكازاخستان وقيرغيزستان وأوزباكستان وطاجيكستان. يُنظر موقع المنظمة: *www.sectsco.org*

لوقف صعود الإسلام الراديكالي، ومن شأن جرعة من التعليم العلماني الحديث، وتشجيع المزيد من الأشكال السلمية من الإسلام مثل الصوفية الروحانية أن تساعد على ذلك أيضاً»[1] أي أن تشجيع الصوفية سوف يسهم أيضاً في وقف الصعود الرديكالي.

رابعاً: معهد الدراسات الاستراتيجية

ينطلق هذا المعهد -التابع لكلية الجيش الحربي الأمريكي- في توصيته للحكومة الأمريكية بدعم التصوف من تأكيده على أن التطرف السلفي هو عدو مشترك للغرب وللصوفية؛ ولذا يجب مواجهته من الجميع بشكل مشترك. حيث يقول في تقرير «الصوفية في شمال نيجيريا: قوة في مواجهة التطرف؟»: «الصوفية ومنهم أولئك الذين في نيجيريا يجدون أنفسهم يُواجَهُون من قبل الإسلاميين المتطرفين، والصوفية ليسوا وحدهم في ذلك، فكثير من المجموعات السلفية -وتمشياً مع معتقداتهم السلفية- يُعادون الحكومات والمجتمعات الغربية، وفي الحقيقة أن هذه التهديدات تواجه كلاً من الصوفية وأمريكا الشمالية ودول أوروبا على حدٍ سواء، وزيادة على ذلك فإن احتواءهم ومواجهتهم هو هدف مشترك للجميع»[2].

ثم يُنبِّه المعهد على هدفه الأساسي من هذا التقرير قائلاً: «ومن أجل ذلك فإن الهدف من هذه الدراسة هو فحص هذه البرامج وقياس قدرة التجانية والقادرية على مواجهة المسلمين المتطرفين في شمال نيجيريا»[3]، وبعد أن استعرض التقرير بعض مناشط الطريقتين التجانية والقادرية في شمال نيجيريا شرع في ذكر توصياته للحكومة الأمريكية، قائلاً: «حالياً، يجب ضمان مساعدة هذه المنظمات، مثل القادرية والتجانية، والتي تعمل

---

(١) مؤسسة التراث، تقرير «التحدي الأمريكي في قمة شنغهاي»، تُرجِم بواسطة الباحث، ٢٠٠٦م، رابط التقرير:

http://www.heritage.org/research/reports/2006/06/the-us-challenge-at-the-shanghai-summit

(٢) معهد الدراسات الاستراتيجية، تقرير «الصوفية في شمال نيجيريا: قوة في مواجهة التطرف؟»، ٢٠١٠م، تُرجِم بواسطة الباحث، ص٤

(٣) المرجع نفسه، ص٤

على مواجهة خطر الإسلاميين، وهذا الدعم ليس فقط يعمل على تقوية حكومة مدنية (منضبطة ومتألّقة ديمقراطياً) ولكنه أيضاً يعمل كحصن منيع ضد انتشار الجماعات والأفكار الإسلامية»[1]، ثم يتساءل التقرير عن كيفية تقديم الدعم للطرق الصوفية في نيجيريا، ويقدم أيضاً الأفكار والحلول لذلك، حيث يقول: «ومع ذلك كيف نستطيع دعم القادرية والتجانية؟ وبشكل أوضح كيف تسطيع الولايات المتحدة أن تنخرط في نيجيريا بشكل فعال؟»[2].

ثم يُجيب قائلاً: «واحد من العمليات الملموسة والتي قد يكون لها مردود فعال في تحسين صورة الولايات المتحدة في الشمال هو أن تؤسس حضوراً قنصلياً دائماً في مدينة من المدن الكبرى في الشمال، (من المستحسن أن تكون «كانو»). ومبدئياً هذا المبنى بموظفيه سوف يكون تذكيرا دائما بالتزام الولايات المتحدة للدولة والمنطقة، وبالإضافة إلى ذلك فإنه سوف يكون نقطة أساسية نستطيع من خلالها توجيه المعونات والمساعدات التطويرية والتدريبات العسكرية.. وإضافة إلى إقامة الولايات المتحدة لمهمة دبلوماسية في الشمال؛ فإن ثمة مقاييس أخرى مفيدة، فحكومة الولايات المتحدة ستستطيع مساعدة القادرية والتجانية، وهذا يتضمن إمداد الطرق الصوفية بالمساعدات الاقتصادية لكي يمولوا برامجهم التعليمية، وإمدادهم بأحدث الأدوات التعليمية، وتشجيع المدارس والكليات الأمريكية لتبني برامج تبادل الطلاب والموظفين، وتشجيعهم للتعاون بشكل مستمر وبلا حدود مع بعضهم البعض»[3].

ثم يطرح المعهد بعض التساؤلات والتخوفات والحلول حول كيفية التواصل مع الطرق الصوفية عملياً، إذ يقول: «ولكن يبقى السؤال المهم هو: كيف يمكننا إيصال هذه المساعدات بشكل جيد؟ لماذا -على سبيل المثال- سوف تسمح الحكومة النيجيرية للولايات المتحدة بالتعامل

---

(١) المرجع نفسه، ص٤٤

(٢) المرجع نفسه، ص٤٤

(٣) المرجع نفسه، ص٤٤-٤٥

المباشر مع الطرق الصوفية؟ ولو رفضت هذا الأمر كيف ينبغي أن يكون رد الولايات المتحدة؟ وهل ينبغي إيصال هذه المساعدات خفية؟ وإذا كان كذلك، فكيف إذاً؟»[1].

ثم يجيب قائلاً: «بالطبع من صالح كل الأطرف أن تعمل الولايات المتحدة بشكل مفتوح، ولأسباب معقولة فإن قيمة الاتصال الدبلوماسي المباشر والمتكرر لا تقدر بثمن، وعلاوة على أنه يُبيِّن مدى التزام الولايات المتحدة ورغبتها في العمل مع الطرق الصوفية، وأيضاً فإن مثل هذا التعاون سيعطيها درجة من الهيبة؛ كشريك لحكومة الولايات المتحدة، ونستطيع القول بأنه يُمكن -من ضمن العمل الدبلوماسي- أن يقوم الجيش الأمريكي بإسهامات عظيمة من خلال ملحقية عسكرية؛ والموظفون أيضاً سيلعبون دوراً مهماً في تقوية وصيانة العلاقة بين سفارة الولايات المتحدة والطرق الصوفية»[2].

خامساً: معهد واشنطن لسياسات الشرق الأدنى

في معهد واشنطن نجد بعض القلق، والنقد للاستراتيجيات الأمريكية لمكافحة التطرف «الراديكالية»، ومنها استراتيجية تأييد التصوف، والتي قد تُشجع -بحسب المعهد- على الانقسامات الطائفية، إذ يقول في تقرير له بعنوان «مكافحة التطرف القائم على العنف»: «للأسف، غالباً ما تتسم الاستراتيجيات الحالية لمكافحة التحول الراديكالي بسوء فهم الفروق القائمة داخل المجتمع الإسلامي الأكبر، وبالتالي يمكن أن تحقق في كثير من الأحيان ضرراً أكثر من نفع، وهناك منهج يتم تعزيزه بصورة مشتركة وهو تأييد الصوفية كبديل عن الوهابية المتطرفة، ولكن تأييد طائفة واحدة معينة من الإسلام يجعل الحكومات الغربية في الواقع تنحاز إلى إحدى الطوائف في نقاش ديني، وبالتالي تضرب مبدأ حرية الدين عرض الحائط، وتشجع على الانقسامات الطائفية، وعلاوة على ذلك، ينبغي على أي مناصرٍ للصوفية كسبيل لمواجهة الإسلاموية المتطرفة أن يتذكر الموافقة

---

(١) المرجع نفسه، ص٤٥

(٢) المرجع نفسه، ص٤٥-٤٦

التي عبر عنها قادة الحركة «الصوفية البريلوية» في باكستان من اغتيال حاكم إقليم البنجاب «سلمان تسيير» مؤخراً حيث عارض قوانين التكفير الوحشية للبلاد»[١].

فمعهد واشنطن هنا لا يعارض استراتيجية دعم الصوفية ولكنه متخوف من أن تزيد من الانقاسامات الطائفية والتي قد تهدد المصالح الأمريكية في المنطقة، ومتخوف أيضـاً من بعض الصوفية الذين يتخذون مواقف تثير قلق الغربيين كتأييد البريلوية لاغتيال حاكم البنجاب.

سادسـًا: مركز المصلحة الوطنية (نيكسون سابقـًا)

أشرت فيما مضى إلى تقرير مركز نيكسون «فهم الصوفية ودورها المرتقب في السياسة الأمريكية»، والذي صدر في عام ٢٠٠٤م، وأنه في الأصل كان عبارة عن مؤتمر عقدته «مؤسسة نيكسون» في عام ٢٠٠٣م لمناقشة كيفية دعم التصوف واستنهاضه من جديد، وكان من أبرز المتحدثين في ذلك المؤتمر المستشرق «برنارد لويس» والمتصوف محمد هشام قباني شيخ الطريقة النقشبندية الحقانية في أمريكا.

وعند قراءة ذلك التقرير يمكن الجزم بلا تردد بأنه بتمامه عبارةٌ عن توصية بدعم التصوف، قدمها مركز نيكسون للساسة الغربيين، وتلك التوصية تحوي العديد من الأفكار التى طرحها المشاركون على سبيل الإقتراح على الحكومة الأمريكية، ومن تلك الأفكار اقتراح المشاركة «هدية مير أحمدي»[٢] بأن تتولى الولايات المتحدة: «القيام بالمحافظة و/أو إعادة بناء أضرحة الأولياء والمراكز التعليمية المرتبطة بها»[٣]. وكذلك اقتراح «ألان جودلاس»[٤] بأن: «الولايات المتحدة ستُحسِن صنعـًا

---

(١) معهد واشنطن، تقرير «مكافحة التطرف القائم على العنف: نقاش حول مكافحة التحول إلى الراديكالية في عام ٢٠١١م»، رابط التقرير:
http://www.washingtoninstitute.org/ar/policy-analysis/view/combating-violent-extremism-the-counterradicalization-debate-in-2011.

(٢) هدية مير أحمدي *Hedieh Mirahmai*، المدير التنفيذي للمجلس الإسلامي الأعلى الأمريكي.

(٣) مركز نيكسون (المصلحة الوطنية)، تقرير «فهم الصوفية ودورها المرتقب في سياسة الولايات المتحدة»، مرجع سابق، ص١٧

(٤) ألان جودلاس *Alan Godlas*، قسم دراسات الأديان بجامعة جورجيا.

في دعم محاولة كل دولة لإحياء هويتها الصوفية المحلية وإدماجها مع الهوية القومية، من خلال: ١- تشجيع نشر كتابات الصوفيين المحليين وترجمة النصوص الكلاسيكية (من قبل صوفيين محليين) إلى اللغات المحلية المعاصرة وإلى اللغة الإنجليزية (اللغة الإنجليزية تعطيها شهرة وأهمية وبخاصة بالنسبة للشباب). ٢- تشجيع دمج القيم الصوفية مع قيم المجتمع المدنى فى المعاهد التعليمية. ٣- نصح العديد من دول آسيا الوسطى للتأقلم مع موقف الانفتاح نحو إعادة إحياء النقشبندية بصفة خاصة. ٤- تشجيع إحياء الثقافة والآداب وفي الوقت نفسه إحياء تقاليد زيارة الأضرحة والمقامات في كل دولة»[1].

وأما المشارك «تشارلز فيربانكس»[2] فقد تحدث عن الصوفية في القوقاز وحث على دعمها قائلاً: «إن الصوفية ليست هي التي يجب أن يخشاها الغرب في القوقاز، حيث يمكن للصوفيين أن يحاربوا روسيا؛ ومعظم المقاتلين الشيشان ما زالوا صوفيين، ولكنها قضية شخصية فهم لا يريدون أن يموتوا من أجل عالم الجهاد مثل رفاقهم المتأثرين بالوهابية»[3].

وأما الشيخ النقشبندى محمد هشام قبانى فقد طرح فكرته لدعم التصوف على هيئة تساؤل، فقال: «هل نحن بصفتنا أمريكان سنؤيد الصوفية أو نعمل مع الوهابيين؟ فإذا اخترنا الأخير، فإن تلك مخاطرة أن نعمل مع الإرهابيين، مع أنه ليس هناك أي خطر فى التعامل مع الصوفيين، ببساطة يجب على الولايات المتحدة أن تتواصل مع غير الوهابيين إذا أردنا أن ننجح في هذه المعركة، إنه وضع غير ممكن فيه تَقَبُّل الخسارة»[4].

وعلى هذا المنوال مضى هذا التقرير فى حث الولايات المتحدة على دعم وتبنى الصوفية كخيار استراتيجي للولايات المتحدة في حربها ضد التطرف المزعوم في السلفية.

---

(١) المرجع نفسه، ص٢٠-٢١

(٢) تشارلز فيربانكس *Charles Fairbanks*، معهد آسيا الوسطى-القوقاز بجامعة جون هوبكنز.

(٣) المرجع نفسه، ص٣٠

(٤) المرجع نفسه، ص٤٠

سابعًا: مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية[1]

Center for Strategic and International Studies.

نجد أيضـًا في تقارير مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية تلك النظرة الغربية الإيجابية للتصوف، والتي يجعلها دائما في مقابل التطرف «السلفى»! وذلك كما في تقريره «الإيديولوجيات الإسلامية المتطرفة وأمن الجنوب الأسيوي» *Islamic Radical Ideologies and South Asian Security*، ففيه -على سبيل المثال- يتحدث المركز تحت عنوان *Sufism and neofundamentalists* أي «الصوفية والأصوليين الجدد» عن أصالة وعمق التصوف في الإسلام، في مقابل الوهابية السلفية المتشددة التي أحدثت صدمة للصوفية حينما منعت جوانب عديدة في التصوف كتقديس الأولياء، وزيارة المقابر، والموسيقى»[2]، ثم يَخلص إلى أن: «المزارات والتجمعات الصوفية أصبحت أهدافـًا لهجمات الإرهابيين الوهابية وأهل الحديث»![3].

ونجده أيضـًا في تقرير آخر له بعنوان: «الحكم والتشدد في منطقة البنجاب بجنوب باكستان» *Governancy and Militancy in Pakistan's Punjab Region* يوصي بـ«تأسيس برامج داخلية ضد التطرف»[4] ومن ضمن تلك البرامج التي اقترحها: «إيجاد برامج ثقافية أو اجتماعية تُبنى على أساس العادات الروحانية والصوفية المحلية»[5].

وبعد، فمن خلال ما مضى من الأمثلة يتبين أن مراكز البحوث الأمريكية

---

(١) مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية (*csis*) هو مركز بحثي غير ربحي وغير حزبي، تأسس عام ١٩٦٢م، ويرأسه منذ عام ٢٠٠٠م جون هامر *John Hamre* والذي شغل قبل ذلك مباشرة منصب نائب وزير الدفاع الأمريكي، في الفترة (١٩٩٧-٢٠٠٠م)، ويضم المركز في مجلس أمنائه أسماءً بارزة في السياسة الأمريكية؛ كـ«هنري كيسنجر»، و«زبيغنو بريجنسكي»، و«وليام كوهين»، وغيرهم. يُنظر: الموقع الإليكتروني للمركز: *csis.org*

(٢) يُنظر: مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية، تقرير «الإيديولوجيات الإسلامية المتطرفة وأمن الجنوب الأسيوي»، ٢٠٠٨م، ص٢٤

(٣) المرجع نفسه، ص٢٤

(٤) مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية، تقرير «الحكم والتشدد في منطقة البنجاب بجنوب باكستان»، ٢٠١١م، تُرجِم بواسطة الباحث، ص٧

(٥) المرجع نفسه، ص٧

تشترك فى التوصية بدعم التصوف وإعادة إحيائه ليكون هو المهيمن على التوجه الدينى فى العالم الإسلامى، وذلك من وجهة نظر تلك المراكز هو ما يخدم الأمن والمصلحة الأمريكية والغربية في العالم الإسلامي.

وإذا ما نظرنا إلى عقائد التصوف وتاريخه ومواقفه من الغرب الأوروبى الاستعماري، ونظرنا فى ذات الوقت إلى مواصفات الاعتدال (الإسلامى) الذي تريده أمريكا اليوم؛ فإننا سنستنتج -وبدون عناء- موضوعية هذه التوصيات، فالصوفية لديها كل مواصفات الاعتدال الأساسية التى ينشدها الغرب، فهى روحانية ولا تنزع إلى المطالبة بتطبيق الشريعة، أو ممارسة السياسة الإسلامية -كما يسمونها-، وتقبَل أيضـاً بالليبرالية والعلمانية والديمقراطية، وهى لا تدعو إلى جهاد الكفار (المحتلين)، وإنما إلى جهاد النفس، وهى تنطلق من فكرة أن الجميع يعبد الله ولذلك فهى تقبل بجميع الأديان ولا تنكر دينـاً محرفـاً ولا عبادة باطلة؛ وإلى هذا يُشير «برنارد لويس» بقول: «الصوفية رائعة، إنها تقدم شيئـاً أفضل من التسامح، إن الموقف من الآخرين ومن الأديان الأخرى كما تعكسه الكتابات الصوفية لا مثيل له، إنه ليس مجرد تسامح، إنه القبول»[1]!

---

(١) مركز المصلحة الوطنية (نيكسون)، تقرير «فهم الصوفية ودورها المرتقب في السياسة الأمريكية»، مرجع سابق، ص٣٧

المطلب الثاني : موقف المتصوفة من توصيات مراكز البحوث الأمريكية

تبين من خلال المطلب السابق صراحة ووضوح وتنوع توصيات مراكز البحوث الأمريكية بدعم التصوف وتشجيعه، وقد اجتَهدتُ في محاولة الوقوف على رأى أو تعليق لأهل التصوف على تلك التوصيات المباشرة والصريحة، وقد تيسَّر لى الوقوف على أربعة تعليقات للمتصوفة، اثنان منها مدونان ومنشوران، والآخران تمَّا عبر اللقاء والمراسلة؛ فأما المدونان فأحدهما عبارة عن ملخص تحليلى صادر عن مؤسسة طابة بأبوظبى، والآخر رسالة أكاديمية لباحث مغربى وهو الدكتور عزيز الكبيطى، وأما الذي تم عبر اللقاء فقد كان مع الدكتور «إيريك جوفروا» من فرنسا، والذي تم عبر المراسلة فكان مع الدكتورة «مارسيا هيرمانسن» من الولايات المتحدة الأمريكية. وتفصيل هذه المواقف الأربعة على النحو الآتي:

أمثلةٌ للموقف الصوفي من توصيات مراكز البحوث الأمريكية بدعم الصوفية:

المثال الأول: مؤسسة طابة (أبوظبي- الإمارات العربية المتحدة)

مؤسسة طابة، هى مركز بحثى غير ربحى، أسسه الداعية الصوفى الحبيب على الجفري فى العاصمة الإماراتية أبوظبى، عام ٢٠٠٥م، وبالنظر إلى مؤسِّسها وهيئتها الاستشارية يمكن القول بلا تردد بأنها مؤسسة بحثية صوفية، أو على الأقل تتبنى التوجه الصوفي[(١)].

أصدرت مؤسسة طابة عام ٢٠٠٧م ملخصاً تحليلياً بعنوان **«توصيات بدعم التيارات المعتدلة فى المجتمعات والجاليات المسلمة: ملخص تحليلى لتقرير مؤسسة راند (٢٠٠٧)»**، وهذا الملخص كما هو ظاهرٌ من عنوانه عبارة عن تلخيص تحليلى لتقرير مؤسسة راند «بناء شبكات مسلمة معتدلة» والذي صدر في عام ٢٠٠٧م، والذي سبق وأن استشهدتُ بكثير

---

(١) ضم المجلس الاستشاري الأعلى لمؤسسة طابة منذ تأسيسها خمسة من كبار أهل التصوف، وهم: الشيخ د.محمد سعيد البوطي (ت٢٠١١م)، والشيخ عبدالله بن بيه، والشيخ د. نوح القضاة (ت٢٠١٠م)، والشيخ د. علي جمعة، والشيخ الحبيب عمر بن حفيظ. يُنظر: موقع المؤسسة الإليكتروني: www.tabahfoundation.org/ar

مما ورد فيه بشأن التصوف، وما ذاك إلا لأن التقرير كان واضحاً كل الوضوح في اختيار التصوف كشريك للولايات المتحدة إلى جانب العلمانيين والليبراليين. ففى الفصل الخامس من التقرير والذي حمل عنوان «خريطة طريق لبناء شبكة معتدلة في العالم الإسلامي» *Road Map for Moderate Network Building in the Muslim World* تحدَّث التقرير مطولاً عن كيفية اختيار الشركاء المناسبين من المسلمين لبناء تلك الشبكة المعتدلة، حتى إنه وضع معايير (أسئلة) لتحديد المعتدل من غيره، نحو: هل هذه الجماعة (أو الفرد) قامت بدعم العنف أو التسامح مع من يقوم بأعمال العنف؟ هل تؤمن بأن تغيير الديانة حق من حقوق الإنسان المعترف بها دوليـاً؟ وهل تعتقد أن الدولة يجب أن تطبق القانون الجنائى للشريعة الإسلامية وتجعله محلاً للتنفيذ؟..الى غير ذلك من الأسئلة الاستكشافية للمعتدل (فرداً أم جماعة) بالمواصفات الأمريكية[١].

وعَقِب تلك المعايير مباشرة كتبت مؤسسة راند تحت عنوان «الشركاء المرتقبون» *Potential Partners* ما يلي: «وعلى وجه العموم، يبدو أن هناك ثلاثة قطاعات واسعة خلال نطاق التوجهات الأيديولوجية على مستوى العالم الإسلامي، حيث تستطيع الولايات المتحدة والعالم الغربي أن يجدوا مشاركين من بينهم في مجهوداتهم للتغلب على التطرف الإسلامي، وهذه القطاعات تتكون من: العلمانيين والمسلمين الليبراليين والمعتدلين التقليديين بما فيهم الصوفية»[٢]، ثم شرعت في الحديث بالتفصيل عن هؤلاء الشركاء الثلاثة المرتقبين، ومنهم الصوفية.

وعلى الرغم من أن هذا الفصل (خارطة الطريق) هو محور تقرير راند لعام ٢٠٠٧م، وتحديدها للشركاء الثلاثة هو لبُّ ذلك المحور؛ إلا أن الملخص التحليلي لمؤسسة طابة تعمد إغفال ذلك اللبُّ، والذي فيه عبارات صريحة باختيار الصوفية شريكـًا من ضمن الشركاء!! حيث تحدث الملخص التحليلي لمؤسسة طابة عن فحوى التقرير والتي قال بأنها تتضمن

---

(١) للاطلاع على باقي الأسئلة يُنظر: مؤسسة راند، تقرير «بناء شبكات مسلمة معتدلة»، ص٨٩-٩٠
(٢) مؤسسة راند، تقرير «بناء شبكات مسلمة معتدلة»، مرجع سابق، ص٩٠

أسباب شيوع وانتشار التفسيرات الراديكالية والمتشددة للإسلام، وأسباب هيمنة الأصوات الرديكالية بالرغم من تمثيلهم أقلية بين صفوف المجتمعات المسلمة. ويتساءل: ولماذا تصمت الأغلبية المعتدلة؟ والتي سعى تقرير راند لوضع معايير لمعرفتها. ولخصتها أيضاً مؤسسة طابة، ولكنها أعرضت تماماً عن ذكر الشركاء الثلاثة الذين ذكرهم التقرير مباشرة عقب ذكره لمعايير المعتدلين!!.

بل إن مؤسسة طابة عمدت إلى تضليل القارئ بقولها: «منذ أن نُشِرَ التقرير، أُثيرت تساؤلات وجدل حول من المقصود به: هل يقصد الحداثيين، أم المعتدلين أم الصوفيين.. أم غيرهم؟ ومن الواضح جداً هو أن الجماعات المقصودة هي تلك التي تنطبق عليها المواصفات المذكورة أعلاه، وكما قال مالكوم أكس رحمه الله: «إن لم يلائم الحذاء مقاسك، فلا تنتعله»»[1].

والواقع عكس هذا!! إذ إن الجدل والتساؤلات التي أثيرت كانت حول اختيار التقرير للصوفية كشريك، وليس حول «من يا تُرى يقصد التقرير؟»!! فالشركاء ذكرهم التقرير بشكل واضح وصريح؛ كالشمس في رابعة النهار، بدءاً من الفهرس الموجود في أول التقرير، والذي جاء فيه نصًا ما يلي:

٧٠ .... *Potential Partners* (الشركاء المرتقبون)

٧٠ .... *Secularists* (العلمانيون)

٧١ .... *Liberal Muslims* (المسلمون الليبراليون)

٧٣ .... *Moderate Traditionalists and Sufis* (الصوفيون والتقليديون المعتدلون)[2]

فأيّ وضوح أكثر هذا، وأيّ تضليل مارسته مؤسسة طابة لطمس هذا الوضوح؟!

---

(١) مؤسسة طابة، توصيات بدعم التيارات المعتدلة في المجتمعات والجاليات المسلمة، ملخص تحليلي لتقرير مؤسسة راند (٢٠٠٧م)، نشر مؤسسة طابة- أبوظبي، ط بدون، ٢٠٠٧م، ص٩

(٢) مؤسسة راند، تقرير «بناء شبكات مسلمة معتدلة»، النسخة الإنجليزية، ص vi

هذا، وقد أحصيتُ تكرار هذه الكلمات الثلاث: Sufi, Sufis, Sufism (صوفي، صوفية، تصوف) في النص الإنجليزي للتقرير فوجدتها تكررت فيه أكثر من ثلاثين مرة، الأمر الذي لا يجعل مجالاً للشك في تعمد مؤسسة طابة التضليل لإخفاء حقيقة ما ورد في تقرير راند ٢٠٠٧م بشأن الصوفية!.

وقد اتخذت مؤسسة طابة أيضاً أسلوباً آخر في التضليل عبر المغالطة واجتزاء كلام مؤسسة راند عن الصوفية وإخراجه عن سياقة المراد، إذ تقول في ملخصها هذا -منتقدة كُتّاب تقرير راند-: «ويعانى كتّاب التقرير على ما يبدو من مشاكل تتعلق بتصنيف بعض المسلمين، فعلى سبيل المثال فى تقرير ٢٠٠٣م ورد الآتى: «لا يمكن تصنيف الصوفيين ضمن أى من الأنواع ولكننا سنشملهم ضمن الحداثيين، حيث يمثل التصوف تفسيراً فكرياً منفتحاً عن الإسلام»، وفى التقرير الأخير (تقرير ٢٠٠٧)، يُشار إلى الصوفية بما يلى: «وربما يشكل التقليديون والصوفية الأغلبية العظمى من المسلمين، وهم فى أكثر الأحيان وليس جميعها مسلمون محافظون يتمسكون بالمعتقدات والتقاليد المتوارثة عبر قرون»، ويتابع التقرير فى الصفحة نفسها: «إنهم لا يخوضون فى تفسيرات مباشرة للقرآن والحديث (أى تفسيرات واستنباطات متعمدة ولا قواعد لها) كما يفعل السلفيون والحداثيون»[1].

وهذا الكلام من مؤسسة طابة فيه تلبيسٌ كبير وتضليل عظيم! فقد تعمدت اجتزاء الكلام وبتره عن سياقه فيما يتعلق بما نقلته من تقرير ٢٠٠٣م (إسلام حضارى ديمقراطى)، إذ الفقرة نصّاً -كما وردت فى النسخة العربية الصادرة عن مؤسسة راند- ما يلى: «لا يعتبر التيار الصوفي نداً لأي من هذه الفئات ولكننا سندرجه ضمن التيار المجدد. يمثل الصوفيون التأويل المنفتح والفكري للإسلام، وينبغي أن يُشجع بقوة التأثير الصوفي على المناهج المدرسية والمعايير المعتمدة والحياة الثقافية في الدول التي تمارس تقاليد صوفية أفغانستان أو العراق، ويمدّ التيار الصوفي من خلال أشعاره وموسيقاه وفلسفته جسوراً قوية تربط بين مختلف

(١) المرجع نفسه، ص٩

الانتماءات الدينية»[1]. فلماذا أخفت مؤسسة طابة هذه التوصية الصريحة بتشجيع الصوفية؟!!.

ومن جهة أخرى فإن التقرير كان يتحدث قبل هذه الفقرة مباشرة عن الأصوليين والتقليديين، ثم أورد هذه الفقرة والتي يرى فيها أن التيار الصوفي يختلف عن تياري الأصولية والتقليدية، ورأى إدارجة ضمن تيار التجديد (الإسلامى) والذى يقول التقرير عنه التقرير: «تتطابق رؤية المجددين مع رؤيتنا، ومن بين كل المجموعات تتميز هذه المجموعة بالتحديد بأنها الأكثر تجانساً مع قيمها ومع روح المجتمع الديمقراطي العصري»[2]. فرأى أن الصوفية أقرب إلى هذا التيار، ثم أوصى بتشجيعهم، كما ورد في الفقرة أعلاه!.

وأما ما يتعلق بالتضليل فيما نقلته مؤسسة طابة من تقرير ٢٠٠٧م فيا ليتها أيضاً أتمَّت النقل! والذي كان في معرض المدح والإطراء لحليف أمريكا المرتقب (الصوفية والتقليدون المعتدلون)!، إذ قال التقرير بعد ذلك المدح ببضعة أسطر فقط: «ولأن الصوفيين والتقليديين أصبحوا ضحايا للسلفيين والوهابية فإن هذا يجعلهم حلفاء طبيعيين للغرب لدرجة أنه من الممكن إيجاد أرضية مشتركة معهم، وكما اكتشفنا إمكانية عمل شراكة مع الصوفية والتقليديين فإنه من المهم أن نضع في اعتبارنا الاختلافات الكبيرة في هذا القطاع..»[3]. فلماذا أعرضت مؤسسة طابة عن نقل هذا الكلام البيِّن الواضح حول التوصية باختيار الصوفية حليفاً للغرب؛ ثم زعمت -زوراً- أن ثمة جدلاً وتساؤلات حول: مَنْ المقصود بالاعتدال في تقرير ٢٠٠٧م!!

فأيّ تضليل وقلبٍ للحقائق مارسته مؤسسة طابة في ملخصها هذا؟!

والخلاصة، أن مؤسسة طابة تعمدت فى خلاصتها التحليلية لتقرير مؤسسة راند ٢٠٠٧م «بناء شبكات مسلمة معتدلة» إخفاء ما ورد في ذلك

---

(١) مؤسسة راند، تقرير «إسلام حضاري ديمقراطي: شركاء وموارد واستراتيجيات»، مرجع سابق، ص٥٨

(٢) المرجع نفسه، ص٤٩

(٣) مؤسسة راند، تقرير «بناء شبكات مسلمة معتدلة»، ص٩٤

التقرير من توصية مباشرة للغرب (ولأمريكا تحديداً) بدعم وتشجيع الصوفية، بل وتعمدت اجتزاء بعض ما ورد من ثناء على الصوفية فى ذلك التقرير وفى التقرير الآخر «إسلام حضارى ديمقراطى»، ووضعه في غير سياقه الصحيح والواضح، وهذا الذى مارسته مؤسسة طابة الصوفية لا يمت إلى الموضوعية وإلى الأمانة العلمية والفكرية والنقدية بصلة!.

المثال الثاني: الدكتور عزيز الكبيطي إدريسي (المغرب)

الدكتور عزيز الكبيطى إدريسى هو باحث مغربى متخصص فى التصوف، ومن أبرز ما نُشر له فى هذا الجانب كتاب «التصوف الإسلامى فى الغرب: الأثر الصوفى المغربى فى بريطانيا، الزاوية الحبيبية الدرقاوية أنموذجاً» عام ٢٠٠٨م. وكتاب «التصوف الإسلامى فى الولايات المتحدة الأمريكية، مظاهر حضور التصوف المغربى وتأثيراته» والذى نُشر فى عام ٢٠١٣م[١]، وفى هذا الكتاب عقد الدكتور عزيز فصلاً بعنوان (التصوف فى السياسة الأمريكية) أقرَّ فيه بأن التعاطف الأمريكى والغربى مع الصوفية أصبح أمراً ملموساً[٢]، ثم ذكر رأيه فى توصيات مراكز البحوث الأمريكية فى مبحث عقده ضمن ذلك الفصل، وكان عنوانه (نموذجان من تقارير أمريكية تحض على دعم التصوف ومناقشتهما)، حيث استهل ذلك المبحث بقوله: «سأحاول من خلال هذا المبحث التطرق إلى تقريرين أمريكيين نصا على ضرورة التعامل الإيجابى مع التصوف الإسلامى وتشجيعه»[٣]. والتقريران اللذان تناولها الدكتور عزيز كأنموذجين هما تقرير مركز نيكسون «فهم الصوفية ودورها المرتقب فى سياسة الولايات المتحدة» الصادر سنة ٢٠٠٤م، وتقرير مؤسسة راند «إسلام حضاري ديمقراطي: شركاء وموارد واستراتيجيات» الصادر سنة ٢٠٠٣م.

---

(١) هذا الكتاب في الأصل هو بحثٌ لنيل درجة الدكتوراه، وقد حصل الباحث أثناء إعداده على منحة دراسية من اللجنة المغربية الأمريكية للتبادل التربوي والثقافي (*MACECE*) لإتمام هذا البحث.

(٢) يُنظر: عزيز الكبيطي إدريسي، التصوف الإسلامي في الولايات المتحدة الأمريكية، دار الكتب العلمية -بيروت، ط١، ٢٠١٣م، ص٩٠

(٣) المرجع نفسه، ص٩٦

وبالنظر إلى ما كتبه الدكتور عزيز في عرضه ومناقشته لهذين التقريرين تَبيَّن لي وقوعه في عدة أخطاء؛ بعضها منهجية وأخرى موضوعية. وتفصيل تلك الأخطاء التي وقع فيها الدكتور عزيز على النحو الآتي:

أولاً: أخطاء الدكتور عزيز المتعلقة بتناوله لتقرير مركز نيكسون ٢٠٠٤م

١- حينما أورد تقرير نيكسون كأنموذج للمناقشة تجنب إيراد عنوان التقرير الأساسي وأثبت له عنواناً آخر وهو (ندوة الصوفية: التاريخ والمعتقد والطرق)، بينما العنوان الأساسي للتقرير هو (فهم الصوفية ودورها المرتقب في سياسة الولايات المتحدة)، وهذا العنوان الذي ذكره الدكتور عزيز إنما هو عنوان فرعي للقسم الأول من التقرير، هذا بالرغم من أن الدكتور عزيز اعتمد على النسخة التي ترجمها الدكتور مازن مطبقاني كما أشار هو إلى ذلك في الحاشية، فلماذا عمد الدكتور عزيز إلى هذا الإخفاء؟!.

٢- اكتفى الدكتور عزيز فقط بنقل ما ورد في تقرير نيكسون على لسان الدكتورة «هدية مير أحمدي» دون غيره، بينما التقرير من أوله إلى آخره عبارة عن توصيات وأفكار لكيفية دعم الصوفية ومساندتها؛ وذلك بدءاً بقول رئيس مركز نيكسون في مقدمة التقرير: «استضاف برنامج الأمن الدولي في مركز نيكسون في الرابع والعشرين من أكتوبر ٢٠٠٣م مؤتمراً لاستكشاف الدور الذي يمكن أن يقوم به التصوف -الحركة الروحية داخل الإسلام- ضمن أهداف السياسة الخارجية للولايات المتحدة الأمريكية»[1]، ومروراً بثناء المستشرق «برنادر لويس» وغيره على التصوف، وانتهاءً بدعوة شيخ الطريقة النقشبندية الحقانية محمد هشام قباني إلى ضرورة أن تدعم أمريكا التصوف[2].

وكأن القارئ لنقد الدكتور عزيز يظن أن ليس فيه إلا كلام «هدية مير أحمدي»، والواقع غير ذلك!.

---

(١) مركز نيكسون (المصلحة الوطنية حاليا)، تقرير «فهم الصوفية ودورها المرتقب في سياسة الولايات المتحدة»، مرجع سابق، ص٧

(٢) يُنظر: المرجع نفسه، ص٣٨-٤٠

٣- لم يناقش الدكتور عزيز ما طرحته -على الأقل- «هدية مير أحمدي» من مقترحات حول كيفية دعم الولايات المتحدة للصوفية، وإنما ذهب في ردود عاطفية أوقعته في خطأ علمي آخر، وهو اجتزاء عبارة للدكتورة هدية ووضعها في غير سياقها المراد، فحينما قالت «هدية»: «إنه نظراً للطبيعة العلمانية للنظام السياسي الأمريكي فمن الصعب تخيل أن نرى صنّاع السياسة الأمريكية يؤيدون قيم الصوفية صراحة»[١].

ثم علّق عليها بأنها: «تُقرُّ باستحالة انسجام القيم الصوفية مع السياسة الأمريكية»[٢]، والواقع أن الدكتورة هدية تقصد عكس هذا الكلام تماماً، إذ إنها تقصد أنه لا يمكن قانونياً دعم التصوف مباشرة (صراحة)، لأن النظام الأمريكي (العلماني) يمنع دعم المناشط الدينية، ولذلك علق مركز نيكسون مباشرة بعد عبارة الدكتورة هذه بقوله: «ومع ذلك، ترى مير أحمدي أن برامج مساعدات الولايات المتحدة يمكن أن تتم بطريقة التفافية مع الأخذ في الاعتبار ثقافة الدول المختلفة وتاريخها»[٣]، ولا أدري كيف تجاوزت عينا الدكتور عزيز هذا التوضيح! وكيف تجاوزت أيضاً ما بعده من مقترحات عديدة طرحتها الدكتورة هدية لدعم التصوف! إذ كيف يمكن يا دكتور عزيز أن تعترف الدكتورة هدية باستحالة انسجام القيم الصوفية مع السياسة الأمريكية -كما زعمتَ- ثم بعد ذلك بعدة أسطر تُقدِّم الدكتورة ثلاثة طرق يمكن للولايات المتحدة أن تدعم من خلالها الصوفية؟!!.

٤- يبدو أيضاً -مع إحسان الظن- بأن عيني الدكتور عزيز لم تقعا إلا على مداخلة الدكتورة «هدية»، بل وفي أجزاء محددة منها، ولم تلاحظ أو تقرأ عيناه التقرير كاملاً من أوله إلى آخره! ولذلك يقول الدكتور عزيز - مشيراً إلى كلام «هدية» ومقترحاتها-: «ولا يعدو هذا الملخص أن يكون مجرد مداخلة في ندوة أكاديمية، وليس تقريراً عسكرياً، كما يحاول البعض أن يصوّر لنا، كما أن ما ورد في المداخلة من اقتراح للدعم لا يتعدى

---

(١) المرجع نفسه، ص١٦

(٢) يُنظر: عزيز الكبيطي، التصوف الإسلامي في الولايات المتحدة، ص٩٨

(٣) مركز نيكسون، تقرير: فهم الصوفية، ص١٦

الجوانب التراثية والثقافية المحضة، وليس هناك أي إشارة إلى تمويلات مادية بالدولار، أو تدريبات عسكرية مما قد يثير الرعب في النفوس»[1].

ثم يعود الدكتور عزيز ليهدم هذا الكلام بقوله: «وحتى لو افترضنا جدلاً أن هذه المداخلة تُعبر عن وجهة النظر الأمريكية في رغبتها دعم الصوفية، فهل هذا يعني حتما موافقة أهل التصوف على ذلك؟ وهم الذين عرفوا عبر التاريخ الإسلامي بشدة زهدهم في الدنيا وهروبهم من زخرفها»[2].

ويبدو هنا أيضاً أن الدكتور عزيز نسي أنه قبل ذلك بأسطر ذكر أن ما ورد في المداخلة لا يعدو الجوانب التراثية والثقافية المحضة ولا يتعداها إلى الدولار! وفات عليه أيضاً أن حصر «مسألة الدعم» في الدعم (المادي) لا يقول به أحد، إذ إن الدعم السياسي والإعلامي والتسهيلات ونحو ذلك يفوق في كثير من الحالات الدعم المادي المباشر، وهذا النوع من الدعم هو الأمر البيِّن الواضح من التقرير، إذ إن معنى دعم وتشجيع الصوفية يعني تقديم كل التسهيلات الممكنة لهم باعتبارهم شريكاً في تحقيق سياسات ومصالح الولايات المتحدة.

٥- لم يناقش الدكتور عزيز ما ورد في التقرير نقاشاً علمياً هادئاً، مبنياً على إيراد ما يراه خطأً في ذلك التقرير، ثم يفنِّده ويناقشه بصورة علمية، وإنما عمد إلى الأسلوب العاطفي الهجومي، كقوله في بداية التعليق: «أثار هذا الملخص الوجيز العديد من الأقلام المعادية للتصوف، حيث تداولته مجموعة من وسائل الإعلام العربية على أنه مؤشر خطير يثبت تورط الصوفية في مؤامرة تستهدف الإسلام، وهذا تهويل يُراد منه إغلاق منافذ الأمة نحو جوهر الدين»[3]، ويا ليت أن الدكتور عزيز أصم أذنيه عن أولئك المهوِّلين لذلك لتقرير، وفتح عينيه وأجرى قلمه لنقاش ما ورد فيه من الكلمات والإشادات والتوصيات والمقترحات المتعلقة بدعم وتشجيع الصوفية، ولكن شيئاً من هذا لم يكن!

---

(١) عزيز الكبيطي، التصوف في الولايات المتحدة، ص٩٩

(٢) المرجع نفسه، ص٩٩-١٠٠

(٣) المرجع نفسه، ص٩٩

ثانيـًا: أخطاء الدكتور عزيز المتعلقة بتناوله لتقرير مؤسسة راند ٢٠٠٣م

١- لم يورد الدكتور عزيز اسم التقرير -كما هو الحال في سابقه!- وكتب عوضـًا عن ذلك «التقرير الشهير الذى أصدره مركز بحوث الأمن القومى الأمريكى، والذي أنجزه شيريل بينارد بدعم من مؤسسة سميث ريدشاردسون «راند»»[1]، وكان يغنيه عن كل هذا أن يكتب: «تقرير مؤسسة راند (إسلام حضاري ديمقراطى، شركاء وموارد واستراتيجيات)». هذا أمر، والأمر الآخر أن مؤسسة راند مؤسسة مستقلة غير حكومية، لا كما ذكر الدكتور عزيز من أنها مركز لبحوث الأمن القومى الأمريكى، ولذلك فقد تلقت دعمـًا من مؤسسة سميث ريتشاردسون لإتمام هذا التقرير، والذى أعدته الباحثة بمؤسسة راند (سابقـًا) شيريل بينارد، وليس «الباحث» كما أخطأ الدكتور عزيز أيضـًا!

٢- لم يرجع الدكتور عزيز إلى نسختى التقرير الصادرة عن مؤسسة راند (واحدة بالانجليزية والأخرى بالعربية) المنشورة على موقع المؤسسة الإليكترونى، وإنما رجع إلى ترجمة مبثوثة فى الانترنت لملخص التقرير فقط (أربع صفحات)، قام بها شخص يُدعى أحمد قعلول.

٣- فى خلاصة التقرير التى اعتمد عليها الدكتور عزيز -ونقلها كاملة- وردت فقرة واحدة عن التصوف وهى -كما نقلها- «الترويج لقبول التصوف»[2]، ولكن يبدو أن الدكتور عزيز نسى بأنه يتعامل مع الملخص فقط فقرر فى تعليقه بأن التصوف لم يرد فى التقرير إلا عرضـًا[3]! ولو رجع الدكتور إلى التقرير كاملاً لوجد أن التصوف ذُكر فى عدة مواضع رئيسية من التقرير، وكلها فى معرض الإشادة بالصوفية والتوصية بدعمهم وتشجيعهم؛ وقد نقلت فى المطلب السابق وكذا المبحثين السابقين ما ورد فى هذا التقرير بشأن التصوف. وهذا الأمر أيضـًا مما أهمل ذكره الدكتور عزيز وجزم بضده قائلاً أن التصوف لم يرد في هذا التقرير إلا عرضـًا!.

---

(١) المرجع نفسه، ص١٠٠

(٢) المرجع نفسه، ص١٠٥

(٣) يُنظر: المرجع نفسه، ص١٠٦-١٠٧

٤- أن الدكتور عزيز -كما سبق له مع تقرير نيكسون- ترك الجانب النقدى العلمى واعتمد الجانب العاطفى الهجومى، حيث بدأ تعليقه على هذا التقرير بالهجوم قائلاً: «يتم الترويج لهذا الموقف على أنه صك اتهام الصوفية بالتآمر على الأمة والدين، ولعلَّ قراءة محايدة وبشكل سريع تبين أن أهل التصوف برآء مما يحاك ضدهم فى الخفاء سواء من طرف أهل ملتهم أو غيرهم من أهل الغرب أو الشرق، لأن التقرير يتحدث عن مشكلة الأمن القومى الأمريكى بشكل عام وفى أزيد من ٨٠ صفحة، لكن الترجمة المتداولة فى وسائل الإعلام العربية لم تتناول إلا ذلك الجانب البسيط جداً الذي تحدَّث عن الصوفية»[1].

هذا الكلام يشير إلى أن الدكتور عزيز اطلع على النسخة المطولة للتقرير (٨٠صفحة)، ويا ليته نقل منها ذلك الجانب البسيط جداً الذى تناول الصوفية، ثم ناقشه نقاشاً علمياً، ولكن شيئا من ذلك لم يكن! وأيضاً التقرير لم يكن يتحدث -كما وصفه الدكتور- عن مشاكل الأمن القومى الأمريكى، وإنما كان يتحدث -من أوله إلى آخره- عن المجتمع المسلم، وكيفية التأثير عليه وتغييره، ولذلك كان عنوانه -الذى لم يورده الدكتور عزيز- (إسلام حضارى ديمقراطى: شركاء وموارد واستراتيجيات)، إذ كان يبحث التقرير داخل المجتمع المسلم عن الفئة التى يمكن للولايات المتحدة الوثوق بها والتعامل معها فاستبعد -بحسب تقسيمه وتصنيفه- الأصوليين والتقليديين، ووقع اختياره على المجددين (العقلانيين)، وألحق بهم فى الاختيار والثقة الصوفية؛ وذلك كشركاء يمكن لأمريكا الوثوق بهم ودعمهم، وذكر التقرير أسباب ومبررات ذلك الاختيار.

كل ذلك أعرض عنه الدكتور عزيز، واستمر فى رده العاطفى الهجومى، إلى أن قال: «وهل هذا التقرير هو الذى أقنع الأمريكيين أنفسهم باعتناق التجربة الصوفية الإسلامية؟! إن التصوف وصل إلى البلاد الأمريكية من العالم الإسلامي قبل أن يؤسس معهد راند، وقبل أن يخرج على الوجود

---

(١) المرجع نفسه، ص: ١٠٦

مثل هذا التقرير بعشرات السنين..»[1]!!.

والخلاصة، أن الدكتور عزيز الكبيطي إدريسي أقر بوجود توصيات من مراكز البحوث الأمريكية بدعم وتشجيع الصوفية، ولكنه لم يناقش تلك التوصيات نقاشاً علمياً، بل اعتمد على الردود الانفعالية، والتي ذم فيها وهاجم من تناقل تلك التوصيات، ووصمهم بأنهم أعداء التصوف، واكتفى بمدح التصوف بشكل عام! وهذا الأمر أوقعه أيضاً في أخطاء منهجية -أشرت إلى بعضها آنفاً-، ما كان ينبغي أن تكون في بحث أكاديمي لنيل درجة علمية عالية! وعلى رأس تلك الأخطاء عدم إيراد عنواني التقريرين اللذين أوردهما كأنموذجين للمناقشة! ويظهر أن السبب في ذلك هو أن عنوان التقرير الأول يُصرِّح بدور مرتقب للتصوف في السياسة الأمريكية، والعنوان الثاني فيه إشارة إلى شراكة مرتقبة مع التصوف وغيره! وكانت الأمانة العلمية توجب على الدكتور عزيز أن يوردهما كما هما، وله الحق في مناقشتهما ورفضهما إن أراد ذلك.

المثال الثالث: الدكتور إيريك جوفروا (ستراسبورغ- فرنسا)

يُعد الدكتور إيرك جوفروا *Eric Geoffroy* [2] من أبرز المتخصصين الأوروبيين فى التصوف، ويعمل أستاذاً للإسلاميات وللغة العربية بقسم الدراسات العربية والإسلامية بجامعة ستراسبوغ شرقى فرنسا، وله العديد من المؤلفات عن التصوف، وقد دخل الدكتور جوفراوا إلى الإسلام -كما يحكى عن نفسه- من باب التصوف[3]، وله اليوم حضوره البارز ومشاركته الفاعلة بين المتصوفه، سواءٌ في الغرب أم في العالم الإسلامي.

---

(١) المرجع نفسه، ص : ١٠٧

(٢) إريك جوفروا، مسلم فرنسي، ولد في بلفور بفرنسا عام ١٩٥٦م، التحق بعد إسلامه بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة لبضعة أشهر، ثم تركها مواصلا تعلمه في دمشق، تخصص في التصوف، ويعمل الآن أستاذاً للدراسات الإسلامية واللغة العربية في جامعة ستراسبورغ، له من المؤلفات: «التصوف»، و«التصوف والروحانية في سياق ما بعد الحداثة»، وباللغة العربية «التصوف: طريق الإسلام الجوانية»، وغيرها. يُنظر: موقع إيريك جوفروا *www.eric-geoffroy.net/*، وبعض المعلومات هنا سمعتها منه أثناء زيارتي له في منزله.

(٣) سمعت ذلك من الدكتور جوفروا أثناء زيارتي العلمية له في منزله باستراسبورغ في ٢٦/ ١/ ١٤٣٥هـ الموافق ٢٩/ ١١/ ٢٠١٣م. وبالرغم من محاور الاختلاف العديدة اثناء الحوار معه، إلا أن حسن خلقه وأدبه الجم وسعة صدرة أثناء الحوار طغى على ذلك، وأرجو من الله أن يوفقنا جميعاً للحق والهدى.

كتب الدكتور إيريك جوفروا في تقديمه لكتاب الدكتور عزيز الكبيطي - الآنف الذكر-: «دحض الباحث تلك الأطروحة المتداولة في الأوساط الإسلامية، لا سيما السلفية والوهابية منها، والتي تنظر إلى التصوف باعتباره «بدعة» خطيرة، بل «وهرطقة» لكونه يحظى بتشجيع الغرب بغية إضعاف الإسلام والقضاء عليه... لأن هؤلاء الناس يجهلون حقاً، أو يتجاهلون مركزية التصوف في تاريخ الإسلام وعقيدته»[1].

وأثناء محاورتي للدكتور جوفروا حول هذه المسألة سألته عن توصيات مراكز البحوث الأمريكية الحاثة على دعم التصوف ومثلت له بمؤسسة راند، وأجاب الدكتور جوفروا إجابة عامة مؤكداً فيها بأن هناك توجاً غربياً نحو التصوف، بل إن هناك توجهاً مماثلاً حتى في العالم الإسلامي، وضرب لذلك مثلاً بالدعم الحالي الكبير الذي يحظى به التصوف من الحكومة الجزائراية الحالية (حكومة بوتفليقة)، ولكنه في ذات الوقت أكد نافياً بأنه لم يسمع أن هناك متصوفاً يتلقى دعماً مالياً مباشراً من الولايات المتحدة، وضرب لذلك مثلاً بحمزة يوسف ومحمد هشام قباني، حيث يعيشان في أمريكا ولم يسمع أحد بأنهما يتلقيان دعماً أمريكياً. وفي ذات السياق ذكر الدكتور جفروا بأن السلفية الوهابية تلقت دعماً أمريكياً وضرب لذلك مثلاً بأسامة بن لادن وحركة طالبان..، وأن أمريكا دفعت ثمن ذلك الدعم، مما دفعها إلى البحث عن ممثل آخر للإسلام[2].

وهنا أكرر ما ذكرته سابقاً في الرد على الدكتور الكبيطي بأن حصر الدعم في الجانب المادي لا يقول به أحد في عالم السياسة، إذ الدعم عن طريق الامتيازات والتسهيلات؛ السياسية والإعلامية ونحوها أشد وأقوى من الدعم المالي المباشر.

وأما أن السلفية تلقت دعماً من أمريكا كما يقول الدكتور جوفروا فلو سلمنا جدلاً بوجود ذلك الدعم فشتان بين من يُدعم لأنه يناجز عدواً مشتركاً (الشيوعية آنذاك) وبين من يتلقى دعماً أمريكياً ليتقوى به على

---

(١) مقدمة كتاب عزيز الكبيطي، التصوف الإسلامي في الولايات المتحدة، ص١٠

(٢) لقاء الباحث مع الدكتور جوفروا في ٢٦/ ١/ ١٤٣٥هـ.

أخيه المسلم! إلا إذا كان المتصوفة يرون أن السلفية كالشيوعية فذاك أمر آخر!.

إن الصراحة التي ينطلق منها الدكتور جفروا في حديثه وتاكيده على توجه غربي وسياسي لاتخاذ الصوفية حليفاً ونصيراً ضد التطرف السلفي؛ سواء أكان ذلك في كتاباته أو عبر حديثه المباشر معي لهي أمر يُحمد له. وأتمنى أن تقوده تلك الصراحة الصادقة إلى تصحيح المسار الصوفي، والعودة به إلى حياض الكتاب والسنة.

المثال الرابع: الدكتورة مارسيا هيرمانسن (شيكاغو- الولايات المتحدة الأمريكية)

تُعد الدكتورة مارسيا هيرمانسن *Marcia Hermansen* من أبرز المتخصصين الأكاديميين فى التصوف فى الولايات المتحدة الأمريكية، وهى أستاذة بقسم الإلهيات، ومديرة برنامج دراسة العالم الإسلامى بجامعة لويولا شيكاغو *Loyola University Chicago*، ولها مشاركاتها العديدة في المناشط الصوفية، داخل الولايات المتحدة وخارجها، ولها العديد من المؤلفات والبحوث والمقالات عن التصوف، وعن الإسلام بشكل عام[1].

وقد تواصلت مع الدكتورة هيرمانسن عبر البريد الإليكترونى، وأرسلت لها بعض الأسئلة، وبعثت إليّ -مشكورة- بالإجابة، وهذا هو نص أسئلتي وإجابات الدكتورة عنها[2]:

س١: الباحث: كيف يمكن لنا أن نوفق بين كوننا أمة واحدة لنا دين واحد ورب واحد نعبده وبين تعدد الطرق الصوفية، وتكاثرها سنة بعد سنة؟

---

(١) من مؤلفات الدكتورة هيرمانسن «أصوات النساء المسلمات اللاهوتيات»، و«أطروحات شاه ولي الله في القانون الإسلامي»، وترجمة ودراسة كتاب «حجة الله البالغة» لشاه ولي الدهلوي (ت١١٧٦هـ)، بالإضافة إلى مشاركتها في تحرير موسوعة ماكميلان عن الإسلام والعالم الإسلامي. للمزيد يُنظر: صفحة الدكتورة مارسيا هيرمانسن بموقع جامعة لويولا شيكاغو الإليكتروني على الرابط التالي: *http: //homepages.luc.edu/~mherman*

(٢) تمت هذه المراسلة مع الدكتورة مارسيا هيرمانسن بتاريخ ١٤٣/١/١٠هـ الموافق ٢٠١٣/١١/١٣م، وكانت باللغة الانجليزية.

ج١: الدكتورة هيرمانسن: هذا انتقاد ضعيف، كما لو قيل «لماذا لا يكون المسلمون كلهم متشابهين؟». هذا ليس خطأ الصوفية، وبمعنى آخر، الصوفية لا تُقسِّم الأمة، النقطة الأساسية أن نكون متسامحين نوعاً ما تجاه التنوع داخل الإسلام، كونك تنتمى إلى طريقة لا يعنى أنك تُسبب الشقاق، من المفهوم بأن الشريعة هى القاعدة التى توحد بين المسلمين، ولكن - وعلاوة على ذلك- هناك خبرات اجتماعية وشخصية فريدة تحتاج إلى تشجيع.

س٢: الباحث: تحث الكثير من مراكز البحوث الأمريكية « Think Tanks» فى تقاريرها الحكومات الغربية (وتحديداً الحكومة الأمريكية) على دعم الصوفية فى العالم الإسلامى، باعتبارها التوجه الإسلامى المناسب للغرب، ومن أبرز تلك المراكز مؤسسة راند، ومعهد الدراسات الاستراتيجية، ما تعليقكم على مثل هذا؟.

ج٢: الدكتورة هيرمانسن: نعم، هذا مذكور بشكل واسع، وكان على وجه التحديد كرد فعل لما بعد ١١-٩ للبحث عن إسلام جيد أو معتدل. ولكننى أعتقد أن أكثر هؤلاء الأفراد الذين زعموا تقديم الصوفية المعتدلة قامت الحكومة باستخدامهم وتشويه سمعتهم، وهؤلاء الذين قدموا الاقتراح كانوا إما سذجاً أو قليلي المعرفة أو مخادعين.

مؤسسة راند يمينية بلباس المحافظين الجدد، وليس لها تلك المصداقية الواسعة.

س٣: الباحث: الكثير من الأصوات فى أمريكا تتحدث بوضوح -بعد ١١/ ٩- بأن التصوف هو الخيار الاستراتيجى لمواجهة السلفية (الوهابية)، والتى عادة ما يُربط بينها وبين التطرف والإرهاب، ومن تلك الأصوات على سبيل المثال ستيفن شوارتز. إلى أي مدى تتفقين مع هذه الرؤية؟.

ج٣: الدكتورة هيرمانسن: هذا مثل السؤال السابق، هذه النظرة روج لها هشام قبانى، وشوارتز (وهو إعلامى وليس بخبير)، ومع أنى أرى أن جهودهم هي من الترويج للذات إلا أنه من المؤكد بأن هناك تيارات سلفية

هدامة ضد الصوفية نستطيع نقدها، على سبيل المثال تلك الفكرة التي تقول بأن هناك طريقا واحدا صحيحا وما سواه ينبغي القضاء عليه.

س٤ : الباحث: هل تتوقعين أن التصوف يخدم المصالح الغربية؟.

ج٤ : الدكتورة هيرمانسن: هذا السؤال لم يُصغ بشكل جيد، هل تقصد التصور الغربي للصوفية، وأي غرب؟ أم أنك تقصد الصوفية أنفسهم، وأي صوفية، وأين؟ لا أعتقد أن الكثيرين يهتمون مباشرة بهذا الأمر.

س٥: الباحث: إذا كان التصوف يُركز على الجوانب الروحانية دون غيرها باعتباره تأويلاً روحانياً للإسلام، فكيف يمكن التعويل على التصوف في أنه سيحدث تغييراً إلى الأفضل في النواحي الاجتماعية أو السياسية أو حتى الاقتصادية لدى المسلمين؟ وخصوصاً إذا كنا نؤمن في نفس الوقت بأن الإسلام يشمل جميع جوانب الحياة؟.

ج٥: الدكتورة هيرمانسن: مرة أخرى، هذا تصور قديم ومتكرر وهو أن الصوفية هي عالم آخر وأنهم يعيشون في الكهوف، وللإجابة على هذا السؤال نحتاج إلى وقت طويل، وهذا سيكون كما لو قلنا بأن الحركات الإسلامية تعتني فقط بالدنيا؛ فهم بذلك يقودون المسلمين إلى الجحيم، الواقع أكثر تعقيداً من ذلك، فهنالك الكثير من الأمثلة على النشطاء الصوفيين، بالرغم من أن العناية الزائدة بالسياسة تفسد الكثير من نوايا الناس. انتهى.

نُلاحظ من إجابات الدكتورة مارسيا حماسها الشديد للتصوف ودفاعها عنه، حتى إنها لمزت أبرز مروجيها في أمريكا وهما محمد هشام قباني شيخ الطريقة الحقانية النقشبندية في أمريكا، والإعلامي المتصوف ستيفن شوارتز مدير مركز التعددية الإسلامية، ولا أستطيع هنا الجزم بسبب لمزها لهم، ولكن من المحتمل جداً أن يكون ذلك بسبب تصريحاتهما العلنية والمتكررة بضرورة أن تدعم الولايات المتحدة التصوف، وهذا ما قد يوقع باقي المتصوفة في حرج.

ونلاحظ أيضاً أن الدكتورة مارسيا لم تنف وجود توصيات من مراكز

البحوث الأمريكية بدعم التصوف، بل أكدت بأنها مذكورة بشكل واسع (أي تلك التوصيات)، ومع ذلك لم تناقش أو ترد على تلك التوصيات ولو بشكل إجمالى، بل إنها حادت عن ذلك وتوجهت إلى اتهام الاصوات التى نادت بتبنى الصوفية بالسذاجة أو قلة المعرفة أو المخادعة، وأيضـًا قللت من مصداقية مؤسسة راند التي أوردتها كمثال في سؤالي لها!.

ولأنى توقعت أن الدكتورة مارسيا لن تنفى وجود توصيات بتبنى التصوف وتشجيه، وهذا ما كان منها؛ فقد أردفت سؤالى عن ذلك بسؤال مباشر عن الخدمة التى يمكن أن يقدمها التصوف للغرب، وكنت أتصور أن سؤالى واضح ومباشر، إذ إن الغرب (وأمريكا) يتعامل مع العالم الخارجى على أساس المصلحة فقط، ولذلك استخدمت لفظ (الخدمة)، ولكن الدكتورة مارسيا لم تُجب على سؤالى، بدعوى أنه لم يُصغ بشكل جيد! وأنها أيضـًا لم تفهم أى غرب أو صوفية أقصد!، ولكنها في نهاية الجواب أكدت أن الكثيرين لا يهتمون بهذا الأمر!!.

واستطراداً منى حاولت أن أفهم إلى أي مدى تُعوِّل الدكتورة مارسيا على التصوف -اجتماعيـًا وسياسيـًا واقتصاديـًا- في خدمة المسلمين فكانت إجابتها حاسمة ومدافعة عن التصوف بقوة!.

ومع تقديري للدكتورة مارسيا ولروحها العلمية الأكاديمية ولقناعتها أيضـًا بالتصوف، إلا أنى أعجب من دفاعها القوي عن تيار لم يزرع فيها أو يعلمها أمراً بديهيـًا تعرفه كل امرأة مسلمة على وجه الأرض؛ ألا وهو فرضية الحجاب على المرأة المسلمة (ولا أقصد هنا النقاب)!!، وأعجب أيضـًا من هجومها ولمزها للسلفية، وهى التى تنادي بالتسامح، كما في أولِّ جواب لها؛ ولكن يبدو أن التسامح في الفكر الصوفي يُبذل لكل أحدٍ إلا للسلفي!

والخلاصة، أن الدكتورة مارسيا هيرمانسن أقرَّت بوجود توصيات من مراكز البحوث الأمريكية بتبنى وتشجيع التصوف، ولكنها لم تناقش أو ترد على تلك التوصيات بشكل علمي أو عقلي، بل عمدت أيضـًا إلى أسلوب

الهجوم والتشكيك فيمن أطلق تلك التوصيات (كما فعلت مع مؤسسة راند)، أو نادى بمضمونها كما هو حال بعض المتصوفة(كما فعلت مع شوارتز وقبانى)، وعمدَت أيضاً إلى الدفاع عن التصوف بقوة وبشكل غير منطقى وواقعى، فدافعت حتى عن الطرق الصوفية، وهي التي فرقت المسلمين حتى في أمريكا ذاتها!.

وبعد، فتبين لنا من خلال هذا المبحث أن مراكز البحوث الأمريكية نادت وأوصت بأن تدعم الولايات المتحدة الصوفية وتشجعهم وتتخذهم حليفاً، وذلك باعتبار التصوف يتوافق مع المصالح والسياسة الأمريكية، وباعتباره أيضاً شريكاً مهماً في مواجهة التطرف ويعنون بذلك السلفية.

وتبين أيضاً إدارك المتصوفة لتلك التوصيات، ومعرفتهم بها، ولذلك فهم ما بين مخفٍ لها عن الأعين كما هو حال مؤسسة طابة! أو مقلل من شأنها ومهاجم من يقول بها، كما هو حال الدكتور عزيز الكبيطى، وما بين مقر بها وتاركٍ لنقدها والاكتفاء بتبجيل التصوف ومهاجمة من ينقل تلك التوصيات أو ينادى بها، حتى ولو كان من المتصوفة أنفسهم، وهذا كحال الدكتور إيريك جوفروا والدكتورة مارسيا هيرمانسن.

وبشكل عام فإن هذا الفصل يقودنا إلى نتيجة واحدة رئيسية، وهى أن مراكز البحوث الأمريكية المهتمة بالعالم الإسلامى تسير حذو القذة بالقذة خلف نتائج الاستشراق التقليدى فيما يتعلق بالتصوف، ولم تخرج عن الإطار العام الإيجابى الذى رسمه المستشرقون الأوروبيون عن التصوف ورموزه، عبر العناية به والثناء عليه الأمر الذى انعكس إيجاباً على موقف رجل السياسة الأوروبى من التصوف. وهاهى اليوم مراكز البحوث الأمريكية تسير مسارهم فأوصت الساسة الأمريكان بتبنى التصوف وتشجيعه واتخاذه حليفاً، وسنرى فى الفصل القادم -إن شاء الله- صدى هذه التوصيات ومدى انعكاسها على موقف أمريكا من التصوف.

وتجدر الإشارة أخيراً إلى أن المستشرقين الأوائل فاقوا مستشرقي (خبراء) مراكز البحوث الأمريكية الحاليين بكثير في جانب العناية بالتصوف ورموزه وتراثه، وما ذاك إلا لإتقان أولئك للغة العربية وإلمامهم بجوانب

كثيرة من الإسلام والفرق المنتسبة إليه؛ الأمر الذي أورثهم فهما عميقاً بالتصوف، وقناعة كبيرة بفائدته في تكريس الهيمنة الأوروبية على العالم الإسلامي؛ فاعتنوا به وأعلوا من شأنه وشأن رموزه، وأعادوا تحقيق ونشر وترجمة مؤلفات الصوفية وأشعارهم، وألفوا في التصوف ورموزه، حتى بات بعضهم -كما بيِّنت في الفصل الأول- حجة في التصوف، ليس في الغرب وإنما حتى عند المتصوفة العرب أنفسهم.

وأما خبراء مراكز البحوث الأمريكية فقد أورثهم جهلهم باللغة العربية ضعفاً في هذه الجوانب الآنفة[1]، ولكن قربهم من أبواب صناعة القرار الأمريكي أعطاهم مكانة لا تقل عن مكانة المستشرقين الأوائل لدى حكومات أوروبا، الأمر الذي جعلهم يرثون من سلفهم المستشرقين بعض مفاتيح الهيمنة الأوربية السابقة على العالم الإسلامي، ومنها تشجيع التصوف.

(١) للمزيد حول ضعف اهتمام الاستشراق الأمريكي باللغة العربية يُنظر ما كتبه الدكتور مازن مطبقاني في ذلك أثناء حديثه عن طبيعة الاستشراق الأمريكي في كتابه: الاستشراق والاتجاهات الفكرية في التاريخ الإسلامي، مرجع سابق، ص٦٤

الفصل الرابع

الحراك الصوفي المعاصر في العالم الإسلامي

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول : الدعم الأمريكي المعاصر للصوفية.

المبحث الثاني: الدعم الإعلامي للصوفية.

المبحث الثالث: الدعوة الصوفية المعاصرة.

المبحث الرابع: الواقع الصوفي السياسي المعاصر.

المبحث الأول

الدعم الأمريكي المعاصر للصوفية

بداية يمكن لنا من خلال ما ورد في الفصول السابقة أن نستخلص نتيجتين مهمتين، وهما:

الأولى: أن التصوف بواقعه المعاصر يحوي انحرافات عقدية وسلوكية، تنسجم تماماً مع المصالح الغربية، وأسُّ تلك الانحرافات هو عقيدة وحدة الوجود، والتي تفضي إلى وحدة الأديان، أو في أقل أحوالها تلغي عقيدة الولاء والبراء، والجهاد في سبيل الله وتُقصيهما عن الواقع.

الثانية: أن ثمة قناعة قديمة غربية بالتصوف قدم الاستشراق؛ وأن هذه القناعة عادت إلى الظهور بقوة بعد أحداث ١١ سبتمبر، وأبرز مظاهر تلك العودة هي التوصيات الكثيرة بدعم ونشر الصوفية، والتي نقلتُ العديد منها في الفصل السابق.

ومن خلال هاتين النتيجتين المهمتين نطرح سؤالاً مهماً وهو: هل بالفعل نال التصوف رضا ودعم حكومة الولايات المتحدة، والتي أعلنت غضبها على الإسلام والمسلمين ودولهم بعد ١١ سبتمبر؟.

قبل الإجابة عن هذا السؤال أود التنبيه أيضاً إلى أمرين مهمين:

أولهما: أن كلمة «دعم» الواردة في عنوان هذا المبحث وفي تفاصيله الآتية لا تعني بالضرورة الدعم المادي فقط ، وإنما كل أنواع الدعم، ومن أشهرها اليوم الدعم الإعلامي والسياسي، بالإضافة إلى المادي، ومن صور الدعم أيضاً التسهيلات أيّاً كان نوعها؛ ومنها التغاضي أو غض الطرف عن الحليف، حتى وإن تجاوز الحد ظاهراً، طالما أنه في الباطن حليفٌ مأمون.

والثاني: أنه بات من المعلوم في السياسة اليوم أنْ ليس كل ما يقال يُعمل، وليس كل ما يُعمل يقال أو يُعلن عنه؛ وبالتالي فإن إردت معرفة حقيقة موقف دولةٍ ما من قضية ما فلا بد من النظر إلى أقوالها وأفعالها على الأرض، أي النظر إلى مجموعهما معاً، أو إلى أفعالها فقط، لأن الأقوال هي ميدانُ مرواغة السياسيين اليوم، فقد تصْدق وقد لا تصْدق، بينما

الأفعال تُصدِّق تلك الأقوال أو تكذبها؛ وهكذا هي السياسة العلمانية اليوم، إذ إنها لا تقوم على أساس من الدين والصدق والأخلاق النبيلة، وإنما على أساس تحقيق المصلحة فقط، وإن كان ذلك على حساب الدين أو الصدق أو الأخلاق!

ومن هنا، وبناءً على النتيجتين المذكورتين آنفاً، وبناءً على الواقع السياسي الأمريكي بعد ١١ سبتمبر (مع الأخذ بالتنبيهين السابقين)، وبناءً أيضاً على واقع الصوفية منذ ١١ سبتمبر إلى يومنا هذا؛ فإنه يمكن الإجابة بوضوح واختصار عن التساؤل السابق بأن التصوف بالفعل بات يلقى قبول الولايات المتحدة الأمريكية واستحسانها ودعمها، قولاً وعملاً.

وهذا الدعم والرضا الأمريكي هو الواقع الجديد الذي يُقِرُّ به المتصوفة قبل غيرهم؛ إنْ ضمناً أو صراحة، وهذه بعض الأمثلة لأقوال ثُلَّة منهم:

المثال الأول: يُقر السيد عبدالله فدعق -وهو من رموز المتصوفة في مكة المكرمة- بأن أحداث ١١ سبتمبر هي أحد أسباب صعود الصوفية وبروزها من جديد[١].

المثال الثاني: من مصر، حيث يُقر الباحث المتصوف الدكتور عمار علي حسن بالتوجه الأمريكي نحو الصوفية، ويقول (مستنكراً ومدافعاً): «رد المتصوفة على رغبة الولايات المتحدة في تشجيعهم بوصفهم تياراً إسلامياً مستأنساً، بالإعلان عن مقاومة الطرق الصوفية للاستعمار، ففي ندوة بمشيخة الطريقة العزمية حول دور الحركات الصوفية في التاريخ الإسلامي، حرص المتصوفة على الرد على مساعي واشنطن الرامية إلى اعتماد التصوف طريقاً وحيدة للإسلام، فأكدوا أن التصوف نشر الإسلام وحارب الاستعمار وواجه حملات التنصير،..»[٢].

---

(١) يُنظر: قناة العربية ، برنامج إضاءات، لقاء مع عبدالله فدعق بتاريخ ٢٠٠٦/٦/٩م، رابط الحلقة: *http://www.youtube.com/watch?v=KdBqaak-14E*

(٢) عمار علي حسن، التنشئة السياسية للطرق الصوفية في مصر، م.س، ص٣٥٠-٣٥١. وقد عُقد مؤتمر بمقر مشيخة الطريقة العزمية لمناقشة هذا الكتاب بمشاركة المؤلف، والذي أكد في الندوة التي حضرها عدد من مشايخ الصوفية على التوجه الأمريكي لدعم وتشجيع الطرق الصوفية، وعلق على ذلك بأنها «فكرة ساذجة»! وأما شيخ الطريقة العزمية فقد أشاد بدور

وهذا الكلام من الدكتور عمار فيه خلط وتلبيس؛ إذ إن ذلك المؤتمر لم يكن في سياق الرد على المساعي الأمريكية لتشجيع التصوف، وإنما كان مؤتمراً لإحياء التصوف ودعمه، عقدته القيادة الشعبية الإسلامية العالمية، وجمعية الدعوة الإسلامية العالمية الليبيتين[1]، بالتعاون مع المجلس الأعلى للطرق الصوفية ومشاركة جمعية الشباب المسلمين، ومشيخة الطرق الصوفية في مصر، وكان ذلك المؤتمر تحت عنوان «التصوف، الوجه المشرق للإسلام»، وكان من ضمن التوصيات الكثيرة لذلك المؤتمر ما اجتزأه الباحث أعلاه وزعم أنه رد على التوجه الأمريكي! مع أن واقع الحال يقول عكس ذلك؛ إذ إن هذه الجهات الصوفية (الليبية والمصرية) تشترك في عداء السلفية، وبخاصة الطريقة العزمية[2]، وهذا ما يجعل ذلك المؤتمر يسير في فلك ما تريده أمريكا لا عكس ذلك كما زعم الدكتور عمار، إذ إن هدف أمريكا الأساسي هو دعم وتشجيع وإحياء التصوف، وما ذاك المؤتمر إلا من مخرجات هذا الهدف[3].

المثال الثالث: من المغرب، حيث يقول الدكتور عزيز الكبيطي في كتابه «التصوف الإسلامي في الولايات المتحدة الأمريكية» تحت عنوان (التصوف في السياسة الأمريكية): «أثارت بعض المواقف المؤيدة للتصوف في الأوساط السياسية الغربية الكثير من الجدل في الأوساط الإسلامية، لا

التصوف في مقاومة الاستعمار، وأكد أن الصوفية لا يتدخلون في العمل السياسي الخارجي. يُنظر: جريدة الأهرام، ٤ مايو ٢٠١٠م، مقال بعنوان «ندوة بمشيخة الطريقة العزمية تؤكد: فشل التوجهات الأمريكية في الاستغلال السياسي للطرق الصوفية».

(١) القيادة الشعبية الإسلامية العالمية كان يرأسها القذافي، وجمعية الدعوة الإسلامية العالمية أسستها أيضاً الحكومة الليبية إبان حقبة القذافي، وكلاهما كان يتبنى التصوف ويدعمه وبخاصة ما بعد أحداث سبتمبر ٢٠٠١م، وكلاهما يبدو أنه اندثر مع اندثار حقبة القذافي في ليبيا. وقد أزالت الطريقة العزمية من موقعها الإليكتروني ما يتعلق بذلك المؤتمر، وذلك -على ما يبدو- تمشياً مع الحقبة الجديدة في مصر وليبيا؛ كعادة الصوفية!

(٢) بيَّنت في الفصل الثاني طرفاً من عداء الطريقة العزمية السافر للسلفية، والذي تَرْجَمتْهُ بشكل كبير على هيئة مؤلفات تطفح بالتكفير والسب والشتم في حق السلفية أو «الوهابية السعودية» كما تسميها! وكان آخر ما اطلعت عليه من كتبها وأنا أعد هذا البحث يحمل عنوان «وكلاء الوهابية في مصر».

(٣) للمزيد حول هذا المؤتمر يُنظر: موقع الرابطة العلمية العالمية للأنساب الهاشمية (الأشراف أون لاين)، الرابط:

http://www.ashraf-online.com/vb/showthread.php?t=8994

سيما من طرف أولئك المتحاملين على التصوف،..»[1]، ثم أخذ يتحدث عن أن التصوف مَرَّ في القرن العشرين بمراحل عدائية قاسية أدت إلى خفوت صوته طيلة القرن العشرين، إلا أنه -كما يصف- بدأ في العقد الأخير من القرن العشرين وبداية القرن الواحد والعشرين بالعودة إلى الساحة وبقوة، وذلك بفعل عوامل داخلية -ذكرها- في التصوف.

ثم يقول: «وانضاف إلى ذلك عوامل خارجية ارتبطت بما استجد على الساحة الدولية من أحداث مأساوية كأحداث شتنبر ٢٠٠١م بالولايات المتحدة، والتي جعلت من أهل السياسة في الغرب يراجعون أنفسهم ويبحثون عن مخاطب معتدل وحليف جديد في العالم الإسلامي، ستحظى فيه الطرق والحركات الصوفية بالمكانة المميزة»[2].

ثم ذهب الدكتور عزيز ليبرر هذا التوجه الأمريكي بأنه قائم على أساس مصلحي لا ديني، إذ الهدف منه -كما يقولون- تعزيز المصلحة الاقتصادية والسياسية الأمريكية وليس القضاء على الإسلام أو التآمر عليه، وخلُص الدكتور إلى: «أن تعاطف الغربيين مع التصوف حالياً هو تعاطف مصلحي آني فرضته ظروف اضطرار الغربيين للبحث عن شريك محاور في العالم الإسلامي، لا يُشكل خطراً على منظوماتهم الاقتصادية والاجتماعية، وهذا لا يطعن بأي حال في أصالة التصوف، ولا يزيل عنه شرعيته الدينية من جهة، كما لا يعني تآمره على أمة الإسلام أو الاستقواء على أي طائفة إسلامية من جهة أخرى، فغياب الدعم لا يُضفي المشروعية كما أن حضوره ليس مبرراً لإلغاء هذه المشروعية»[3].

وهذا الكلام خلط فيه الدكتور عزيز حقاً بباطل، وذكر بعض الحقيقية وأخفى أكثرها؛ فذكر أن تعاطف الغربيين مع التصوف قائم على أساس المصلحة. وهذا حق؛ فالغرب وجد تحقق مصالحه في التصوف! وذكر أن الغرب بدأ يراجع نفسه ويبحث عن حليف جديد معتدل في العالم

(١) عزيز الكبيطي إدريسي، التصوف الإسلامي في الولايات المتحدة الأمريكية، مرجع سابق، ص٨٥
(٢) المرجع نفسه، ص٩٠
(٣) المرجع نفسه، ص٩٦

الإسلامي ووجده في التصوف، وهذا حق أيضاً؛ ولكنه ليس كل الحقيقة التي يعرفها كل مسلم، ولا إخال الدكتور عزيز إلاّ يعرفها، ولكنه أعرض عن ذكرها أو التذكير بها، وهي ما مارسته أمريكا بعد ١١ سبتمبر ضد المسلمين من قسوة وتطرف، واتهامهم بالإرهاب، وتضييقها عليهم في كل أنحاء العالم، حتى وصل بها الحال إلى احتلال بلدين مسلمين (العراق وأفغانستان) تحت ذريعة حرب الإرهاب الإسلامي؛ وفي خِضَمِّ هذا الإجرام الأمريكي السافر كان الحديث في أروقة السياسة لأمريكية يدور حول ضرورة تدعيم الجانب العسكري الأمريكي بحرب فكرية موازية تتم داخل الإسلام ذاته، وبأيدي إسلامية؛ وذلك -كما يزعمون- مثلما تمّ فعله مع الاتحاد السوفيتي إبان الحرب الباردة. ثم وقع الاختيار الأمريكي (العلني) على الصوفية، لتقوم هي ومن أُختير أيضاً بتلك المهمة.

ثم يأتي الدكتور عزيز ليُلغي كلَّ هذا السياق العلني الأليم، ليقول إن هذا الاختيار والدعم إنما هو مصلحيٌ، ولا يطعن في أصالة التصوف، ولا يضر بأحد!! فالحق -والحالة هذه- أنه يطعن في التصوف، بل ويزيدنا توجساً منه، كونه -أي التصوف- يحمل إرثاً عدائياً تكفيرياً للسلفية لا يُنكره أحد[1]، فما بالك وقد انضاف إلى هذا العداء (العقدي) العداء (المصلحي) الذي تُكنّه أمريكا والغرب للسلفية!

المثال الرابع: وأما الداعية الصوفي الحبيب علي الجفري فكما تهرَّب مركزه البحثي (مؤسسة طابة) في ملخصه لتقرير مؤسسة راند ٢٠٠٧م من إيراد النصوص الصريحة الواردة في التقرير عن اختيار الصوفية كحليف لأمريكا -كما ذكرت سابقاً-، فقد تهرب هو أيضاً من إجابة سؤالين لمضيفه في برنامج تلفزيوني عن اختيار الصوفية لتمثيل الإسلام وتشجيعها من قبل المستعمر، وهذا نص السؤالين والجوابين:

سؤال مقدم البرنامج (د: ١٢.٠٠): هناك من يقول بأن الصوفية هي الطريق الأنسب لتقديم الإسلام بعد ١١ سبتمبر، وذلك لأنها لا تركز على المواجهة.. لا تركز على القتال؟.

---

(١) بيَّنت هذا الأمر بالتفصيل في مبحث (موقف الصوفية من السلفية) في الفصل الثاني.

جواب الحبيب الجفري: نحن بحاجة إلى أن نقرأ التاريخ، فالذي يقرأ التاريخ القريب والبعيد والذي قبله والذي قبله لن يستطيع أن يرى راية جهاد حقيقية لم تحمل في طياتها عناصر التخريب أو عناصر التطرف إلا والصوفية هم على رأسها.أ.هـ

وبعد مضي ٣٠ دقيقة من البرنامج أعاد مقدم البرنامج الحديث عن تهمة تشجيع الاستعمار (الجديد) للصوفية فزعم الحبيب الجفري بأن الفرصة في الإجابة لم تساعده في إكمال الصورة التي يريدها. فأعاد عليه المقدم السؤال على النحو الآتي:

سؤال مقدم البرنامج (د: ٣١.٠٠): الصوفية متهمة بأن الاستعمار يعزز وجودها في العالم العربي والإسلامي لأنها لا تقوم بأدوار مناوئة له كما يجب؟.

جواب الحبيب الجفري: هذه حيثياتها تشبه حيثيات اتهام الإسلام بالإرهاب، لأنها لم تقم على أسس صحيحة، المشكلة أننا قليلو القراءة، أي أن الأمة اليوم ما عادت تقرأ كثيراً، أيضاً لا تملك آلة اختيار القراءة، ماذا تقرأ؟! أصبح يقدم لها ما تقرأ، وكيف تقرأ، ولماذا تقرأ، ما يعبر عنها اليوم بالفطائر أو السندوتشات المكتوبة، الذي يقرأ أمهات كتب التاريخ مثل البداية والنهاية، مثل شذرات الذهب في أخبار من ذهب، مثل عدد من كتب التاريخ المعتمدة عندنا كأمة، كمسلمين.. الذي يقرأ كتب التاريخ ما قبل عهد الاستعمار مباشرة ثم في عهد الاستعمار يجد أن حُمَّال رايات المواجهة الصحيحة المتزنة، والذين أيضاً دفعوا ثمنها هم الصوفية..[(١)]. أ.هـ

فالحبيب الجفري هنا لم ينف ما ورد صراحة في السؤال، ولم يتغير جوابه الثاني عن جوابه الأول، والذي هو مجرد تحريف لحقائق التاريخ؛ بل إنه أمعن تلبيساً في الجواب الثاني حينما شبه اتهام الإسلام بالإرهاب باتهام الصوفية بتلقي التشجيع من المستعمر! بزعم أن كليهما لم يقم على أسس صحيحة! وهذا الزعم يُكذّبه تاريخ الصوفية الأسود الممالئ للاستعمار،

---

(١) يُنظر: قناة العربية ، برنامج إضاءات، لقاء مع الحبيب علي الجفري، في ٣/ ١٢/ ٢٠٠٤م، رابط الحلقة: *http://www.youtube.com/watch?v=Fa5jlq5Rf5w*

والذي تحدثت عنه بالتفصيل في الفصل الماضي. صحيح أن اتهام الإسلام (دين الرحمة) بالإرهاب أمر باطل ولا أساس له من الصحة، ولكن تشبيه ذلك بموقف المستعمر من الصوفية أمرٌ بلغ الغاية في التضليل، وطمس حقائق التاريخ، وما أمر فرنسا مع الطريقة التجانية عنا ببعيد!

وأيضاً حاد الجفري عن إجابة السؤال، وذهب ليقول بأننا أمة لا نقرأ التاريخ، ومنه -بزعمه- تاريخ جهاد الصوفية للاستعمار الغربي! وهذا أيضاً من التلبيس على الناس، وتزوير حقائق التاريخ! وقد رددت على هذه الشبهة بالتفصيل في الفصل السابق، وبيَّنت أن التصوف لا يحمل في طياته (العقدية والسلوكية) أمر الجهاد في سبيل الله، وبيَّنت أيضاً أن من جاهد لاستعمار هم أهل العقيدة الصحيحة، عقيدة أهل السنة والجماعة، على عكس ما وقع من الصوفية الذين استسلموا للاستعمار ووالوه وناصروه، ووالو العلمانيين من بعده إلى يومنا هذا.

المثال الخامس: في لقاء أجراه موقع «أون إسلام» الإليكتروني مع الدكتور الفرنسي المتصوف «إيريك جوفروا» تم طرح هذا السؤال عليه: يقول البعض إن الصوفية تمثل «الوجه الناعم» للإسلام وهو ما يدفع السلطات السياسية في أوروبا إلى تفضيلها من أجل تأسيس إسلام أوروبي فما ردكم؟

جواب الدكتور جوفروا: «نلاحظ أن السلطات السياسية في الغرب تشجع الصوفية وتدفعها لأن تكون المضاد الحيوي ضد ظاهرة الحركات الإسلامية ومختلف مظاهر التشدد الإسلامي لا في الغرب فحسب بل حتى في البلدان الإسلامية، وفي هذا الإطار فإن الجزائر قد غيرت كلياً سياستها منذ عدة سنوات عن طريق الترويج للمستويات الروحية للإسلام، وفي نفس السياق قامت العديد من البلدان الأخرى مثل باكستان مثلاً على تطوير هذا التوجه الصوفي عن طريق تنظيم المؤتمرات واللقاءات الصوفية»[1].

---

(١) موقع أون إسلام، حوار خاص مع شبكة إسلام أون لاين، في ٨/ ١٠/ ٢٠١٠م، رابط الحوار:
http://www.onislam.net/arabic/newsanalysis/newsreports/islamic-world/125827-2010-10-08.html

وبعد، فهذه خمس شهادات وإقرارات صوفية تؤكد معرفتهم وإدراكهم بأنَّ ثمة توجهاً أمريكياً نحوهم.

وأما ما يؤكد شروع الولايات المتحدة عملياً في هذا التوجه الاستراتيجي الجديد نحو الصوفية، فهو الدعم الأمريكي الرسمي (العلني) للتصوف، وكذلك الواقع الصوفي الجديد والمتغير، وهذا ما سأتناوله بالتفصيل والتمثيل في المسألتين التاليتين، وبالله التوفيق.

المسألة الأولى: الدعم الأمريكي الرسمي للتصوف

في ٧/ ١/ ١٩٩٩م ألقى الشيخ محمد هشام قباني -شيخ الطريقة النقشبندية في الولايات المتحدة- كلمة طويلة بعنوان «المتطرفون الإسلاميون: خطر كامن على الأمن القومي للولايات المتحدة» وذلك في منتدى مفتوح نظمته وزارة الخارجية الأمريكية، وفي كلمته تلك زعم أنه يتحدث بصوت الإسلام التقليدي، الذي يعني -بزعمه- الاعتدال والتسامح والمحبة والعيش في سلام مع جميع الأديان والمعتقدات، وذكر فيه أن قتال المستوطنين الأوروبيين للهنود الحمر في أمريكا لم يكن تطرفاً؛ لأنهم كانوا يقاتلونهم من أجل حياة أفضل، وأما التطرف فهو ما يكون بدوافع دينية! ثم أخذ يشرح كيف أن الدولة السعودية نجحت ببطء وتحت شعار «تجديد الإسلام» في إنتاج أيديولوجية إسلامية جديدة متطرفة جداً، ثم راح يحذر أمريكا من التطرف الخارجي، ومنه إلى تحذيرها من التطرف داخل أمريكا، حيث زعم أن أكثر من ٨٠٪ من المساجد في أمريكا يسيطر عليها المتطرفون، ثم رأى في ختام كلمته أن الحل إزاء خطر التطرف هو أن يفهم الغرب الإسلام بشكل جيد، وأن يمد جسوراً نحو المسلمين المعتدلين التقليديين[١].

أحدثت تلك الكلمة صدمة للمسلمين في أمريكا، واستنكروا ما ورد فيها، وقاطعت العديد من المنظمات الإسلامية الشيخ قباني، ولكن ما إن وقعت أحداث أمريكا في ١١ سبتمبر حتى عادت تلك الكلمة وصاحبها

---

(١) يُنظر نص الخطاب كاملاً في: موقع المجلس الإسلامي الأعلى في أمريكا، والذي يرأسه قباني، الرابط: http://www.islamicsupremecouncil.org

وتياره الصوفي إلى الظهور مرة أخرى، فبعد تلك الأحداث بأيام قليلة اختار البيت الأبيض الداعية الصوفي الأمريكي الشيخ حمزة يوسف هانسن ليمثل المسلمين[1] في محادثات مع الرئيس «جورج بوش»، وفي ٢٠/ ٩/ ٢٠٠١م (أي بعد تسعة أيام فقط من ١١ سبتمبر) اجتمع الرئيس الأمريكي «جورج بوش» في المكتب البيضاوي مع ستة أشخاص (ومنهم حمزة)، وكان محور الاجتماع عن أحداث ١١ سبتمبر، وفيه قدم حمزة يوسف نصائح للرئيس «بوش» حول كيفية التعامل مع تلك الأحداث وعلاج أسبابها، ثم طُلب منه أن يكون في المساء ضيف السيدة الأمريكية الأولى «لورا بوش»، وذلك ضمن الدعوات التي وجهتها لحضور خطاب الرئيس «جورج بوش» الذي ألقاه تلك الليلة في الكونجرس الأمريكي[2].

وبعد بضعة أشهر من أحداث ١١ سبتمبر وتحديداً في ٣/ ٤/ ٢٠٠٢م قال نائب وزير الدفاع الأمريكي -حينها- «بول وولفيتز» في إحدى خطاباته: «عندما تكلم العالم المسلم المعروف الشيخ محمد هشام قباني في اجتماع رعته وزارة الخارجية عن الإرهاب في يناير ١٩٩٩م وتحدث عما سمَّاه «الصوت الحقيقي والتقليدي للإسلام والذي هو عبارة عن اعتدال وتسامح وحب.. والعيش بسلام مع جميع المعتقدات والأديان». ثم ذهب إلى التحذير، في ذلك الوقت، بأن هناك هجوما إرهابيا كارثيا وشيكا فوق الأراضي الأمريكية بواسطة متطرفين إسلاميين، وبعد كلمته تلك قامت بعض المنظمات الإسلامية في الولايات المتحدة بالتنديد به بشكل علني، والقول بأن ما ذكره هي ادعاءات مفتراة ومغلوطة على المجتمعات الإسلامية في أمريكا، ونظموا مقاطعة له»[3]، ومضى «وولفيتز» قائلاً: «إن

---

(١) يبدو أن عدم اختيار الشيخ قباني في ذلك اللقاء كان بسبب تدني شعبيته بين المسلمين في أمريكا بعد كلمته التي ألقاها في وزارة الخارجية عام ١٩٩٩م.

(٢) يُنظر: حمزة يوسف، مقال بعنوان «مأساة أمريكا: رؤية إسلامية»، في ٣٠/ ٩/ ٢٠٠١م، مجلة ونتسس بايونير الإليكترونية، (وأصل المقال محاضرة صوتية)، الرابط:
www.witness-pioneer.net/vil/Articles/issues/us_tragedy_islamic_view.htm

(٣) موقع وزارة الدفاع الأمريكية، نص خطاب لمساعد وزير الفاع «بول وولفيتز» في ٣/ ٤/ ٢٠٠٢م، رابط الخطاب:
www.defense.gov/speeches/speech.aspx?speechid=210

تعلّم مفاهيم التسامح والتقدم يعدها المتطرفون بأنها خنوع، نحن سوف نتقدم عندما نصبح فعلاً جادين في دعم هؤلاء الرجال والنساء الشجعان، والذين يدافعون عن قيمة الكرامة الإنسانية وحرية التعبير والمساواة العادلة واحترام النساء والتسامح الديني، والتي تحدث عنها الرئيس «بوش» في خطابه لشهر يناير»[1].

لقد كانت كلمات نائب وزير الدفاع الأمريكي هذه بمثابة الإعلان الصريح عن التوجه الأمريكي نحو دعم الصوفية، ووضع كل من سواهم في خانة المتطرفين، وإن كانوا أمريكيين!

وفيما يلي سأورد العديد من الأمثلة الواقعية للدعم الأمريكي للتصوف، سواء أكان ذلك في أمريكا أو عبر العالم، ولكن قبل ذلك أُذكِّر بالأمرين اللذين نبَّهت إليهما آنفاً؛ وهما: أن الدعم لا يمكن حصره في الدعم المادي فقط، بل ثمة أوجُهَ دعمٍ أخرى لا تقل أهمية عن المال؛ وكذلك أن السياسة الأمريكية تُفهم من الواقع العملي أكثر مما تُفهم من التصريحات، إذ قد يُصرِّحون بعكس ما يفعلون، أو أنهم لا يُصرحون بكل ما يفعلون.

نماذج وأمثلة من الدعم الأمريكي للصوفية[2]

المثال الأول: الاحتفاء رسمياً برموز الصوفية، وذلك إما باستقبالهم في البيت الأبيض، أو الاجتماع بهم «رسمياً»، أو عن طريق الثناء «الرسمي» عليهم أو على مشاريعهم، ومن ذلك اختيار البيت الأبيض للشيخ حمزة يوسف ليمثِّل مسلمي أمريكا وذلك في لقاء خاص مع الرئيس الأمريكي بعد ٩ أيام فقط من أحداث ١١ سبتمبر- كما بيَّنت آنفاً-. ومن ذلك أيضاً الاجتماعات والنشاطات الكثيرة والمتكررة للشيخ محمد هشام قباني مع المسؤولين الأمريكيين بعد ١١ سبتمبر، وأذكر منها ما يلي:

- في سبتمبر ٢٠٠١م قدم قباني نصائح لعدة وكالات حكومية أمريكية

---

(١) المرجع نفسه.

(٢) سيلاحظ القارئ بأن أكثر الأمثلة الآتية تتعلق بوزارة الخارجية الأمريكية، وما يتبعها من سفراء وسفارات، وما ذاك إلا لأنها -بطبيعة الحال- هي المعنية بالدرجة الأولى بتنفيذ السياسة الخارجية الأمريكية.

حول قضايا الأمن القومي وصلتها بالتمرد والتطرف الديني، سواء كان ذلك التطرف داخل أمريكا أو خارجها.

- في فبراير ٢٠٠٢م التقى قباني بمساعد وزير الدفاع الأمريكي «بول وولفيتز» وموظفيه، وتحدث معهم عن أنشطة المجلس الإسلامي الأعلى في أمريكا (الذي يرأسه)، ودوره في الترويج للإسلام المعتدل في جميع أنحاء العالم.

- في سبتمبر ٢٠٠٢م اجتمع قباني مع الرئيس «جورج بوش» الابن؛ لإحياء ذكرى سبتمبر، وتلاوة الصلوات على الضحايا.

- في نوفمبر ٢٠٠٢م اجتمع قباني مع الرئيس «جورج بوش» الابن في البيت الأبيض، ومن ثم (في نفس اليوم) مع وزير الدفاع الأمريكي في وزارة الخارجية.

- في فبراير ٢٠٠٣م سافر قباني إلى جميع أنحاء الولايات المتحدة لعقد اجتماعات وتحالفات لمنع صعود التطرف الديني، وتعزيز الإسلام التقليدي.

- في مايو ٢٠٠٣م ألقى قباني خطاباً بعنوان «الخطر الذي يمثله المتطرفون داخل السجون الاتحادية»، وذلك في مؤتمر عقده مكتب الولايات المتحدة للسجون.

- في أكتوبر ٢٠٠٣م كان قباني ضيف الرئيس «جورج بوش» الابن في العشاء الرمضاني السنوي البيت الأبيض.

- في ٢٠٠٣م مثّل قباني مسلمي الولايات المتحدة في حوار الأديان الذي عُقد في إسبانيا.

- في نوفمبر ٢٠٠٤م كان قباني ضيف الرئيس «جورج بوش» الابن في العشاء الرمضاني السنوي في البيت الأبيض.

- في مارس ٢٠٠٥م حضر قباني مؤتمر قيادة جماعة المبادرات الدينية في البيت الأبيض، وتحدث مع الرئيس «بوش» على طاولة مستديرة حول موضوع المبادرة.

- في ٢٠٠٦م اجتمع قباني مع مساعدة الرئيس الأمريكي «بوش» لشؤون الأمن الداخلي «فران تاونشيد» *Fran Townshend*، ونائبها «خوان زاراتي» *Juan Zarate* لمناقشة علاج تطرف الإسلاميين.

- في فبراير ٢٠٠٦م اجتمع قباني مع نائب الرئيس الأمريكي «ريتشارد تشيني» *Richard Cheney* لتقديم وجهات نظره بشأن علاج التطرف الإسلامي[١].

- في يناير ٢٠١٠م اجتمع قباني في وزارة الخارجية الأمريكية مع السفير المتجول ومنسق مكافحة الإرهاب بوزارة الخارجية «دانيال بنيامين» *Daniel Benjamin*[٢]، وحضر أيضـاً هذا الاجتماع الدكتورة «هدية مير أحمدي» *Hedieh Mirahmadi*[٣].

ومن ذلك أيضـاً ثناء السياسيين الأمريكيين على الصوفي التركي فتح الله كولن، وعلى حركته التي تُغطي مشاريعها التعليمية القارات الخمس، وقد أثنت على حركة كولن «داليا مجاهد»، مستشارة الرئيس الأمريكي «باراك أوباما»[٤]، كما أثنى على فتح الله كولن الرئيس الأمريكي السابق «بيل كلينتون»، ووزيرا الخارجية السابقين «جيمس بيكر» و«مادلين أولبرايت»، وغيرهم من السياسيين الأمريكيين[٥].

ومن الأمثلة أيضـاً في هذا الاتجاه استقبال الشيخ عبدالله بن بيه في البيت الأبيض عام ٢٠١٣م، واجتماعه مع مسؤولين في الحكومة الأمريكية إبان

---

(١) يُنظر لهذه الفقرة وما سبقها: موقع مؤسسة السنة في أمريكا، والتي يرأسها قباني، الرابط: *http://sunnah.org/wordpress/?p=156*

(٢) يُنظر: موقع وزارة الخارجية الأمريكية، رابط الخبر: *http://www.state.gov/r/pa/prs/appt/2010/06/142497.htm*

(٣) مضى ذكر الدكتورة «هدية مير أحمدي» في الفصل السابق، وهي التي وضعت بعض المقترحات لكيفية دعم أمريكا للتصوف، وذلك في تقرير «فهم الصوفية ودورها المرتقب في سياسة الولايات المتحدة».

(٤) يُنظر: جريدة زمان التركية، في ١٤/ ٦/ ٢٠٠٩م، ويُنظر نص لقاء الجريدة مع المستشارة الأمريكية داليا مجاهد مترجماً إلى العربية على الرابط التالي: *http://ar.fgulen.com/content/view/591/105/*

(٥) للمزيد حول هذه الثناءات على حركة كولن يُنظر موقع معهد كولن: *http://www.guleninstitute.org/*

الثورة السورية، وتوجيهه نداءً للحكومة الأمريكية بالتدخل لحماية الشعب السوري[١]، وفي ذلك اللقاء «عبَّرت السيدة كايل سميث مساعدة الرئيس أوباما عن سرورها بهذا اللقاء قائلة: نحن طلبنا هذا الاجتماع لنتعلم منكم، ويجب أن نبحث عن آليات جديدة للتواصل معكم ومع علماء المسلمين. شاكرة الشيخَ على جهوده التي يبذلها من أجل تفاهم أكثر بين البشرية»[٢].

المثال الثاني: أصبح الحديث عن الصوفية يدخل ضمن فقرات خطابات رؤساء أمريكا؛ ومن ذلك على سبيل المثال خطاب الرئيس الأمريكي «باراك أوباما» عام ٢٠١١م بمناسبة «عيد النوروز»، والذي قال فيه: «جماعة البهائية والمسلمين الصوفيين يُعاقبون بسبب معتقدهم»[٣].

وقال أيضاً في خطابه في الدورة ٦٧ للجمعية العامة للأمم المتحدة عام ٢٠١٢م: «دعونا نُدين التحرض ضد المسلمين الصوفيين وزوار العتبات المقدسة من الشيعة»[٤].

المثال الثالث: في عام ٢٠٠٩م استهلت وزيرة الخارجية الأمريكية «هيلاري كلينتون» أول يوم لها أثناء زيارتها لباكستان بزيارة الضريح الصوفي «شاه عبداللطيف الكاظمي» في إسلام أباد، والذي يَؤُمُّه مئات الآلاف من الصوفية في كل عام[٥]، وفي ذلك إشارة واضحة إلى عمق الرضا الأمريكي عن التصوف.

المثال الرابع: في ١٠ أبريل ٢٠١٠م وقّعت السفيرة الأمريكية في باكستان على معاهدة بينها وبين اتحاد الصوفيين في باكستان، وقدمت لرئيسه مليوناً

---

(١) موقع عبدالله بن بيه الإليكتروني، خبر بعنوان: العلامة ابن بيه يزور البيت الأبيض، رابط الخبر: *http://binbayyah.net/portal/news/1438*

(٢) المرجع نفسه.

(٣) موقع البيت الأبيض، في ٢٠/ ٣/ ٢٠١١م، رابط الخطاب: *www.whitehouse.gov/the-press-office/2011/03/20/remarks-president-obama-marking-nowruz.*

(٤) موقع وزارة الخارجية الأمريكية، في ٢٥/ ٩/ ٢٠١٢م، رابط الخطاب: *http://iipdigital.usembassy.gov/st/arabic/texttrans/2012/09/20120926136593.html#axzz2pyoOFGwg*

(٥) موقع وزارة الخارجية الأمريكية، في ٢/ ١١/ ٢٠٠٩م، رابط الخبر: *http://iipdigital.usembassy.gov/st/arabic/texttrans/2009/11/20091102153925ssissirdile0.2342035.html#axzz2mrPxgxe*

ونصف المليون دولار لتزيين الأماكن المقدسة الصوفية في باكستان، وترميم المزارات التاريخية وصيانتها، وبناء قُبَبٍ جديدة على المزارات المختلفة[1].

المثال الخامس: كان السفير الأمريكي السابق لدى مصر «فرانسيس ريتشاردوني» *Francis Ricciardone* يحرص سنوياً (منذ ٢٠٠٥م) على حضور احتفال الطرق الصوفية المصرية بمولد السيد البدوي، وفي زيارته لعام ٢٠٠٧م أعرب السفير –وفق موقع السفارة الإليكتروني- عن سعادته بزياراته المتكررة لمولد السيد البدوي والموالد الدينية الأخرى مثل سيدنا الحسين والسيدة زينب[2]، وقال أيضاً: «إن هذه الاحتفالات تعكس طيبة المصريين وروح المحبة وكرمهم ودفء ترحيبهم وتدينهم المعتدل وسماحة دينهم، وكيف أن الإيمان يربط الأمريكي بالمصري ولا يفرقهما»[3]، ثم أشاد «رتشاردوني» بالصوفية، وتحدث عن جلال الدين الرومي وشهرته، إلى درجة أن الرئيس «جورج بوش» استشهد ببعض أشعاره في لقائه مع مسؤولي المركز الإسلامي في واشنطن[4].

المثال السادس: في ١٤/ ٤/ ٢٠٠٦م حضر السفير الأمريكي السابق في المغرب «توماس رايلي» وزوجته احتفال الطريقة البودشيشية بالمولد النبوي بقصر التازي بالرباط. وقد تناقلت الصحافة المغربية والعربية هذا الخبر[5]، وعلى سبيل المثال تصدرت الصفحة الأولى من جريدة «الجريدة» المغربية في ٢١/ ٤/ ٢٠٠٦م صورة السفير الأمريكي (وزوجته) وهو يصافح شيخ الطريقة البودششية في ذلك الاحتفال، وذلك تحت عنوان «السفير الأمريكي في الحضرة البودشيشية»[6].

---

(١) يُنظر: مجلة المجتمع، الكويت، العدد ٢٠٢٣، في ٢٧/ ١١/ ١٤٣٣هـ- ١٣/ ١٠/ ٢٠١٢م.
(٢) نقلاً عن: موقع العربية نت، في ٢٢/ ١٠/ ١٤٢٨هـ ٣/ ١١/ ٢٠٠٧م، رابط الخبر:
www.alarabiya.net/articles/2007/11/03/41186.html
(٣) المرجع نفسه.
(٤) يُنظر: المرجع نفسه.
(٥) يُنظر: جريدة الصحراء المغربية، في ١٦/ ٤/ ٢٠٠٦م، وجريدة الأهرام، في ١/ ١٢/ ٢٠٠٧م.
(٦) يُنظر: محمد وراضي، عرقلة الفكر الظلامي الديني للنهضة المغربية، مطبعة بني يزناسن- سلا، ط١، ٢٠٠٨م، ص١٤

المثال السابع: أعلن القائم بأعمال السفارة الأمريكية في السودان «جوزيف ستافورد» أن بلاده تعتمد استراتيجية جديدة في التعاطي مع السودان، مشيراً إلى أنهم يرغبون في الدخول للمجتمع السوداني المسلم عبر بوابة الطرق الصوفية[1]، ومؤكداً أن اهتمام واشنطن سَيَنصبُ على الطرق الصوفية؛ تشجيعاً للإسلام الوسطي المعتدل والمسالم[2].

وقام «ستافورد» أيضاً بالعديد من الزيارات للأضرحة والمقامات الصوفية في السودان خلال العام ٢٠١٣م، وقد التقى «ستافورد» خلالها بالعديد من مشايخ الطرق الصوفية، وخاطبهم قائلاً: «إن بلاده تقوم بأبحاث عن الطرق الصوفية»[3]، وأضاف: «نعلم أن مريديها وأحبابها يحبون من القلب إلى القلب، وغير متملقين كالأحزاب السياسية»[4].

وافتتح «ستافورد» أيضاً في زياراته تلك مكتبتين أهدتهما سفارة بلاده لمدرستين تابعتين للطريقة القادرية العركية[5]. وشارك أيضاً في احتفال الصوفية بالمولد النبوي (١٤٣٤هـ-٢٠١٣م)، وكان برفقته أيضاً السفير االإيطالي في السودان[6].

المثال الثامن: اهتمام تقارير الحريات الدينية التي تصدرها المؤسسات الرسمية الأمريكية بالدفاع عن الصوفية، ومن ذلك التقرير الذي تُصدره سنوياً اللجنة الأمريكية للحرية الدينية الدولية (*USCIRF*)[7]-التابعة للحكومة الأمريكية- عن الحريات الدينية في العالم[8]، وقد راجعتُ تلك

---

(١) يُنظر: جريدة الخليج الإماراتية، في ٣/ ١٢/ ٢٠١٣م.

(٢) يُنظر: جريدة الحياة، في ٣/ ١٢/ ٢٠١٣م.

(٣) المرجع نفسه.

(٤) المرجع نفسه.

(٥) جريدة الصحافة السودانية، العدد ٦٩٩٩، في ١٤/ ٢/ ٢٠١٣م.

(٦) المرجع نفسه، العدد ٧٠٢٠، في ٧/ ٣/ ٢٠١٣م.

(٧) اللجنة الأمريكية للحرية الدينية الدولية *U.S. Commission Internstional Religious Freedom* لجنة مستقلة مشكلة من الحزبين الجمهوري والديمقراطي الأمريكيَّين، ويتم تعيين المفوضين العاملين فيها من قبل الرئيس الأمريكي والقيادة السياسية في الكونجرس الأمريكي من كلا الحزبين السياسيين، وهي -بحسب موقعها الإليكتروني- مكرسة للدفاع عن حق الجميع في حرية الدين والمعتقد خارج الولايات المتحدة، وتقدم حول ذلك توصيات للرئيس الأمريكي. يُنظر موقع *USCIRF* الإليكتروني: *puscirf.gov*

(٨) يَصدر ذلك التقرير السنوي تحت مسمى «التقرير السنوي للجنة الأمريكية للحرية الدينية الدولية» *Annual Report of the United States Commission on International Religious Freedom*

التقارير السنوية منذ عام ٢٠٠٣م وحتى عام ٢٠١٣م، ووجدت أنها تتبنى الدفاع عن الصوفية بشكل واضح، ولم يَخْلُ تقريرٌ واحدٌ منها من ذكر الصوفية؛ على وجه الدفاع عنها؛ باعتبارها تقع ضمن إطار المضطهدين دينياً[١].

ومن ذلك -على سبيل المثال- ما ورد في تقرير عام ٢٠٠٤م عن السعودية، إذ جاء فيه: «في سبتمبر ٢٠٠٣م اعتقل المطاوعة ١٦ عاملاً أجنبياً لممارستهم شعائر التصوف، ومصيرهم غير معروف»[٢]، وفي تقرير ٢٠٠٧م ذكرت اللجنة عن السعودية ما يلي: «على مدى السنوات القليلة الماضية تعرض أعضاء من الجماعة الصوفية للاعتقال،..وفي يونيو ٢٠٠٥م منعت السلطات السعودية جلسة أسبوعية تُعقد من قبل زعيم صوفي يتمسك بالفقه الشافعي في الفقه الإسلامي»[٣]. والملفت أيضاً أن تقارير اللجنة السنوية تتناول باستمرار الحديث عن وضع الصوفية في إيران! فتذكر -على سبيل المثال- في تقرير ٢٠٠٨م أنَّ قوات الأمن لإيرانية اعتقلت في مايو ٢٠٠٧م شيخ طريقة «نعمة اللهية» الصوفية[٤] نور علي تابنده؛ وفي فبراير ٢٠٠٦م أغلقت السلطات الإيرانية بيت العبادة الصوفي في شمال غرب مدينة قُم، وألقت القبض على ما يقارب ١٢٠٠ صوفي من الذين احتجوا على ذلك؛ وتذكر اللجنة أيضاً أن بعض التقارير تفيد بأن الحكومة الإيرانية تنظر بجدية في مسألة حظر الصوفية[٥].

وفي توصيات تقرير ٢٠١٠م تقول اللجنة بأنه يجب على الحكومة الأمريكية أن تحث الحكومة التركية على إنهاء الحظر القانوني على الطرق

---

(١) للاطلاع على التقارير السنوية للجنة الأمريكية للحرية الدينية الدولية يُنظر الرابط التالي:
http://uscirf.gov/reports-and-briefs/annual-report.html

(٢) التقرير السنوي للجنة الأمريكية للحرية الدينية الدولية لسنة ٢٠٠٤م، الولايات المتحدة، ص٧٨. وأعادت اللجنة ذات المعلومة في تقارير: ٢٠٠٥، ٢٠٠٦، ٢٠٠٧، ٢٠٠٨م.

(٣) التقرير السنوي للجنة الأمريكية للحرية الدينية الدولية لسنة ٢٠٠٧م، الولايات المتحدة، ص١٩٧. وأعادت اللجنة ذات المعلومة في تقارير: ٢٠٠٨م.

(٤) للمزيد عن هذه الطريقة يُنظر: موقع التصوف الإيراني، رابط الموقع:
http://sufi.ir/mainsite-ar.php

(٥) التقرير السنوي للجنة الأمريكية للحرية الدينية الدولية لسنة ٢٠٠٨م، الولايات المتحدة، ص١٣٩ وأعادت اللجنة ذات المعلومة في تقارير: ٢٠٠٩م.

الصوفية[1]. وأما في تقارير ٢٠١١م، ٢٠١٢م، ٢٠١٣م، فيكاد يكون التصوف هو عماد تلك التقارير، فترى اللجنة تتلمس شكاوى واحتياجات التصوف في كل مكان؛ في باكستان والشيشان وإيران وتركيا والصومال والسعودية ومصر، وغيرها من بقاع العالم!

والجدير بالإشارة والتذكير هنا أن دفاع هذه اللجنة عن التصوف يقع في إطار خدمة الهيمنة الأمريكية فقط، والتصوف مما يُكرِّس تلك الهيمنة؛ كما هو معلوم[2]، ولذلك فقد لفت نظري أن اللجنة أحياناً تدافع عن التصوف أكثر من المتصوفة أنفسهم! ففي تقريرها لعام ٢٠١٣م انتقدت اللجنة بشدة الرئيس الصوفي للشيشان (المُعيَّن من قبل موسكو) «رمضان قاديروف»، على الرغم تمسكه الشديد بالتصوف، وإعلانه -على الملأ- كُره الوهابية، وأنه لو يعلم عن وجود وهابي واحدٍ في الشيشان لقتله[3]! ومع ذلك انتقدته اللجنة لأنه أمر النساء بارتداء الحجاب في المباني العامة! وهو بذلك -كما تقول اللجنة- يُشوِّه التقاليد الصوفية الشيشانية، لكي يُبرر حكمه القمعي القائم على الإملاءات الدينية الشخصية[4]؛ فتأمّل!!

المثال التاسع: وفي ذات الاتجاه تُصدر أيضاً وزارة الخارجية الأمريكية عبر «مكتب الحرية الدينية الدولية» التابع لها تقريراً سنويا عن الحريات الدينية في العالم[5]، وقد راجعت أيضاً تقارير ذلك المكتب منذ عام ٢٠٠١م وحتى عام ٢٠١٢م، ووجدت أن الدفاع عن التصوف يُعد مادة أساسية في تلك التقارير، حيث تضعه ضمن الأقليات المضطهدة دينياً؛ والتي ينبغي على الولايات المتحدة الضغط على الحكومات التي تنتمي

---

(١) التقرير السنوي للجنة الأمريكية للحرية الدينية الدولية لسنة ٢٠١٠م، الولايات المتحدة، ص٣١٤

(٢) تحدثتُ عن هذه المسألة بالتفصيل في الفصلين السابقين.

(٣) قال ذلك في كلمة ألقاها في مسجد قروزني الكبير أمام جموع المصلين، لمشاهدة الكلمة يُنظر: *http://www.youtube.com/watch?v=SDofJdseUfQ*

(٤) التقرير السنوي للجنة الأمريكية للحرية الدينية الدولية لعام ٢٠١٣م، الولايات المتحدة، ص٢٥٧

(٥) يَصدر ذلك التقرير السنوي تحت مسمى «التقرير السنوي حول الحرية الدينية الدولية» *Annual Report on International Religious Freedom*

إليها تلك الأقليات لتعطيها حريتها الدينية. وعلى سبيل المثال نجد تقرير عام ٢٠٠٩م (١٦٨٨صفحة) يتناول الصوفية في كل من: إيران والصومال وأفغانستان وألبانيا وتشاد وأثيوبيا وغامبيا وغانا وكازاخستان ومالي والمغرب وموزنبيق والنيجر وباكستان والسودان وتركيا وأوزبكستان![(١)]، وأما السعودية فهي -بطبيعة الحال- دائمة الحضور في تلك التقارير؛ فنجد -على سبيل المثال- تقرير ٢٠٠٥م يقول: «في عام ٢٠٠٣م ذكرت الصحافة أنه تم في مداهمة أمنية اعتقال ١٦ صوفياً في منطقة الجوف، وذلك لحيازة وتوزيع الكتب والمنشورات والأشرطة والفيديو التي تشجع على التصوف، وفي يونيو ٢٠٠٥م أغلقت الحكومة السعودية أيضاً مجلساً أسبوعياً يُعقد من قبل شيخ صوفي يلتزم بالمذهب الشافعي في الفقه الإسلامي»[(٢)].

ويقول تقرير ٢٠١١م: «أعلنت الحكومة السعودية الانتهاء من مراجعة كتب المرحلة المتوسطة، ولكن كتابي الدين واللغة العربية المدرسيين لا يزالان يحتويان على البيانات العلنية غير المتسامحة مع اليهود والنصارى، وكذلك الإشارات المتعصبة ضد المسلمين الشيعة والصوفيين، وكذا الجماعات الدينية الأخرى»[(٣)] ويضيف: «ذكر كتاب التوحيد للصف الثاني عشر للفتيان أن أولئك الذين يعبدون القبور-في إشارة على الأرجح تشمل المسلمين الشيعة والصوفيين الممارسين لزيارة القبور لغرض التبجيل- ارتكبوا الردة عن طريق العمل»[(٤)].

وتجدر الإشارة هنا إلى أن «مكتب الحريات الدينية» هذا إضافة إلى

---

(١) يُنظر: وزارة الخارجية الأمريكية، التقرير السنوي حول الحرية الدينية الدولية لعام ٢٠٠٩، الولايات المتحدة، ويمكن مطالعة التقرير على الرابط التالي:
http://www.state.gov/documents/organization/140693.pdf

(٢) وزارة الخارجية الأمريكية، التقرير السنوي حول الحرية الدينية الدولية لعام ٢٠٠٥م، الولايات المتحدة، ويمكن مطالعة التقرير على الرابط التالي:
http://www.state.gov/j/drl/rls/irf/2005/51609.htm

(٣) وزارة الخارجية الأمريكية، التقرير السنوي حول الحرية الدينية الدولية لعام ٢٠١١م، الولايات المتحدة، ويمكن مطالعة التقرير على الرابط التالي:
http://www.state.gov/j/drl/rls/irf/2011religiousfreedom/index.htm#wrapper

(٤) المرجع نفسه.

«اللجنة الأمريكية للحرية الدينية الدولية»، وكذلك منصب المستشار الخاص بشؤون الحرية الدينية الدولية بمجلس الأمن القومي الأمريكي؛ ما هي إلا نتاج «قانون الحرية الدينية الدولية» الذي وقعه الرئيس «بيل كليتون» عام ١٩٩٨م، وذلك -كما يصرِّحون- بهدف تعزيز سياسة الولايات المتحدة الخارجية[1]، والواقع أن هذا القانون وهذه الجهات الثلاث المتولدة عنه ما هي في الحقيقة إلا أدوات لتعزيز الهيمنة الأمريكية على العالم، وبخاصة العالم الإسلامي، وذلك عبر اتخاذ مسائل الأقليات الدينية والعرقية وسائل ضغط وإخضاع للدول، وجعلها ذريعةً للتدخل في شؤون الدول الأخرى، وإملاء الشروط التي تخدم المصلحة الأمريكية، وهكذا هي السياسة الخارجية الأمريكية لا تعرف سوى المصلحة؛ والتي يمكن أن توظف لأجل تحقيقها القضايا الإنسانية والدينية والاجتماعية، وغيرها، ولو على حساب أمن الآخرين، وسيادتهم، واستقرارهم!.

المثال العاشر: جاء في تقرير نشرته مجلة أخبار أمريكا *U.S News* بعنوان «القلوب والعقول والدولارات» عام ٢٠٠٥م ما يلي: «في جبهة غير مرئية من حربها على الإرهاب، تقوم الولايات المتحدة بإنفاق الملايين..لتغيير الوجه الحقيقي للإسلام»[2]، وجاء فيه أيضاً: «إن السجلات التي تم الحصول عليها من وزارة الخارجية الأمريكية والوكالة الأمريكية للتنمية الدولية[3] *USAID* وغيرها، كشفت عن عدد كبير من المشاريع الإسلامية

---

(١) للمزيد حول القانون الأمريكي للحرية الدينية الدولية لعام ١٩٩٨م يُنظر: موسوعة ويكيبديا، مادة: *International Religious Freedom Act of 1998*

(٢) مجلة أخبار أمريكا *U.S News*، تقرير «القلوب والعقول والدولارات»، في ١٧/ ٤/ ٢٠٠٥م، ترجمة موقع إسلام ديلي، مرجع سابق.

(٣) تأسست الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية *USAID* عام ١٩٦١م بأمر من الرئيس جون كينيدي، وتهدف إلى تعزيز سياسة أمريكا ومصالحها الاقتصادية عبر تقديم المساعدات لشعوب العالم، وتواجه الوكالة انتقادات شديدة كونها تقدم المساعدات كمكافآت للدول الحليفة والدائرة في الفلك الأمريكي؛ وليس على أساس المساعدات الإنسانية. وفي ٢٠١٣م قام الرئيس البوليفي بطرد الوكالة من بلاده، متهماً إياها بأنها تنشط في بلاده لأهداف سياسية وليس لأغراض اجتماعية. يُنظر: موقع *USAID* الإليكتروني، وموقع *BBC* حول طرد الوكالة من بوليفيا، في ١/ ٥/ ٢٠١٣م، على الرابطين:

http://www.usaid.gov/
http://www.bbc.co.uk/arabic/worldnews/2013/05/130501_bolivia_usaid.shtml

التي يتم تمويلها بأموال دافعي الضرائب الأمريكيين منذ الحادي عشر من سبتمبر، وتتوزع في حوالي ٢٤ بلداً على الأقل، وفي تسعة منها تساعد الأموال الأمريكية في ترميم مواقع إسلامية مقدسة، ومن بين هذه المواقع بعض المساجد التاريخية في مصر وباكستان وتركمانستان. وفي قرقيزستان قامت السفارة الأمريكية بالمساعدة في تمويل عملية ترميم أحد أكبر المزارات الصوفية،..»[١]. وفي المثال التالي أيضاً بيان لبعض مواطن تلك المساعدات.

المثال الحادي عشر: في عام ٢٠٠٩م قدَّمت وزارة الخارجية الأمريكية -عبر «صندوق السفراء» التابع لها- منحةً مالية لدعم ٧١ مشروعاً في ٥٨ بلداً حول العالم، ونص البيان الصحفي لوزارة الخارجية بهذا الخصوص على أبرز تلك المشاريع هو «ترميم ضريح حافظ محمد حياة، الذي يعود للقرن الثاني عشر في غوجارات، ومقام حضرة شاه شمس تبريز، الذي يعود إلى القرن الثالث عشر في مولتان، وهما معلمان متميزان هامان من معالم أضرحة أئمة الصوفية المبكرة في باكستان»[٢]، وأضاف البيان: «وكان قد سبق لصندوق السفراء لصون الثقافة أن دعم مشاريع أخرى في باكستان لترميم أضرحة ومقامات ومساجد ومعالم عامة ذات أهمية ثقافية وتشكل عناصر أساسية في حياة المجتمعات»[٣].

المثال الثاني عشر: في نهاية شهر يوليو من عام ٢٠١٠م زار سكرتير السفارة الأمريكية في القاهرة «بيتر شي» *Peter shea* مقر مشيخة الطريقة العزمية في القاهرة، واجتمع هناك لمدة ساعتين بـ ١٦ شيخاً من مشايخ الطرق الصوفية، وبحضور ممثل من جهاز مباحث أمن الدولة[٤]، وفي ذلك الاجتماع تم الاتفاق على اختيار الشيخ محمد علاء أبو العزايم -شيخ

---

(١) المرجع نفسه.

(٢) موقع وزارة الخارجية الأمريكية، في ١٠/ ٧/ ٢٠٠٩م، رابط البيان الصحفي:
http://iipdigital.usembassy.gov/st/arabic/texttrans/2009/06/20090610161555bsibhew0.4015619.html#axzz2mrPxgxeo

(٣) المرجع نفسه.

(٤) يُنظر: جريدة المصريون، في ٣/ ٨/ ٢٠١٠م. وجريدة الشروق الجديد، العدد ٥٥٤، في ٨/ ٨/ ٢٠١٠م.

الطريقة العزمية- كمنسق بين الصوفية في مصر وبين الإدارة الأمريكية، كما اتفقوا أيضاً على أن تستضيف الإدارة الأمريكية (على نفقتها) شيوخ الطرق الصوفية؛ لإقامة فعاليات وأنشطة مكثفة لنشر الإسلام الصوفي بين مسلمي أمريكا، كما طلب ممثل الإدارة الأمريكية استمرار اللقاءات والتنسيق بين الجانبين[1]، وقد أجاب الشيخ محمد علاء الدين أبو العزايم عن سؤال قناة الجزيرة الفضائية له حول فحوى ذلك الاجتماع مع ممثل الإدارة الأمريكية وشيوخ الطرق الصوفية؟ فأجاب أبو العزايم قائلاً (بالعامية المصرية): «هما طالبين تدعيم الفكر الصوفي في العالم.. بس، ودا المطلوب مصر تقوم بيه، في بلدنا»[2].

وعلق الباحث المتخصص في التصوف عمار علي حسن على هذا اللقاء بقوله: «هذا اللقاء تم في إطار الاستراتيجية الأمريكية العامة التي بدأت تعوِّل على ما يُسمى بالإسلام المستأنس ضد الإسلام السلفي الجهادي، الذي تعتقد الولايات المتحدة الأمريكية أنه يشكل خطراً شديداً على مصالحها»[3]، وانتقد أيضاً فهمي هويدي في مقال له ذلك اللقاء، ومما جاء فيه قوله: «ذلك كله ليس جديداً، فقد سبق الجميع في هذا المضمار اللورد كرومر المعتمد البريطاني لدى مصر بعد احتلالها في ثمانينيات القرن التاسع عشر، الذي كان أول من أسس مجلساً أعلى للطرق الصوفية، واختار لرئاسته من سماه شيخ مشايخ الطرق، إنه فيلم قديم وسقيم جربه الاستعمار في مصر والهند، والجديد في الإخراج الأخير له أن جهاز أمن الدولة صار طرفاً فيه. أيكون شعار المرحلة القادمة «التصوف هو الحل» الأمني الأمريكي؟»[4].

---

(١) المرجع نفسه.

(٢) قناة الجزيرة الفضائية، تقرير بعنوان «جدل بشأن علاقة الصوفية بالسياسية»، تاريخ البث ١٨/٨/ ٢٠١٠م، رابط التقرير:

http://www.youtube.com/watch?v=6c9Acyuk-Cw

(٣) المرجع نفسه.

(٤) فهمي هويدي، جريدة الشروق الجديد، مقال بعنوان: تنسيق «روحي» مع أمريكا، العدد ٥٥٤، في ٨/٨/ ٢٠١٠م.

المثال الثالث عشر: في عام ٢٠١٠م تمت الموافقة رسمياً على طلب بناء مركز إسلامي (مسجد ومركز ثقافي) على أرض بالقرب من موقع برجي التجارة اللذين دمرا في أحداث ١١ سبتمبر. وتمت تلك الموافقة وسط معارضة شديدة من قبل أهالي قتلى البرجين، وبعض الشخصيات الأمريكية، ووسط البعد الإعلامي الكبير الناقد لذلك الطلب، والذي عرف (إعلامياً) بـ«مسجد غراوند زيرو»[1]. وما كان لتلك الموافقة أن تتم أبداً لولا أنَّ فكرة المشروع تتماشى مع الاستراتيجية الأمريكية الجديدة الداعمة للتصوف، إذ إن القائم على المشروع هو الإمام الصوفي «فيصل عبدالرؤوف»[2]، وذلك عبر مؤسسته التي تُدعى «مبادرة قرطبة»[3]، وهو مؤلف كتاب «رؤية إسلامية جديدة للغرب والمسلمين»، والذي ذهب فيه إلى ما لا يمكن لأحدٍ أن يتوقعه؛ كقوله بأن: «جوهر القيم الإسلامية يتوافق مع جوهر القيم الأمريكية»[4]، وقوله: «الهندوس والبوذيون ينحدرون من تعاليم دينية دعا إليها في الأساس أنبياء جاءوا من نسل آدم ونسل نوح»[5]، وقوله أيضاً في ختام ثنائه على أبي حامد الغزالي: «تقول رسالة الغزالي لنا في الوقت الحالي كيف يجب أن ينهض المسلمون لمواجهة التحديات التي يطرحها الغرب، فيجب على المسلمين أن لا ينبذوا الغرب ولا تراثه الخاص، بل يجب دراستهما معاً لتقدير ما يمكن تعظيمه وطرح كل ما

---

(١) يُنظر: جريدة الشرق الأوسط، العدد ١١٦١٦، في ٨/١٠/١٤٣١هـ- ١٧/٩/٢٠١٠م، وجريدة الاقتصادية السعودية، العدد ٦١٤٢، في ٢٤/٨/١٤٣١هـ- ٥/٨/٢٠١٠م.

(٢) فيصل عبدالرؤوف *Feisal Abdul Rauf* أمريكي من أصل مصري، حاصل على الماجستير في الفيزياء، إمام مسجد الفرح بمانهاتن، ومن دعاة التسامح بالفهم الصوفي، وله عدد من المؤلفات. ونال العديد من الجوائز الأمريكية، وأدرجتة مجلة السياسة الخارجية ضمن أفضل ١٠٠ مفكر عالمي لعام ٢٠١٠، ووضعته مجلة التايم ضمن المائة شخص الأكثر تأثيراً في العالم لعام ٢٠١١م. للمزيد يُنظر: موقع مبادرة قرطبة:
http://www.cordobainitiative.org

(٣) مبادرة قرطبة *Cordoba Initiative* هي -بحسب موقعها الإليكتروني- منظمة (معفاة من الضرائب) متعددة الأديان، ومتعددة الجنسيات، وهي مكرسة لتحسين التفاهم وبناء الثقة بين الناس من جميع الثقافات والأديان، أسّسها في نيويورك فيصل عبدالرؤوف عام ٢٠٠٤م. يُنظر: موقع مبادرة قرطبة: *http://www.cordobainitiative.org*

(٤) إمام فيصل عبدالرؤوف، رؤية إسلامية جديدة للغرب والمسلمين، ترجمة: محمد فاضل، مكتبة الشروق الدولية-القاهرة، ط١، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٩م، ص٢٣

(٥) المرجع نفسه، ص٦٠

ليس مفيد،..»[1]، وأما الباقعة فهي قوله: «أمريكا دولة تمثل للشريعة»[2]، ويقصد بذلك الشريعة الإسلامية! واستدل لذلك بقوله: «حدد فقهاء المسلمين خمسة مجالات للحياة يجب على الشريعة الإسلامية حمايتها ومساندتها، وهي: النفس والعقل (صحته وسلامته) والدين والمال (أو الثروة) والأسرة (النسل والذرية). وبناءً على ذلك فإن أي نظام حكم يصون ويدعم ويقي هذه الحقوق يُعد حكماً «إسلامياً» أو ممتثلاً للشريعة في جوهره»[3].

فأيّ دين سيُعلِّمه هذا الصوفي للمسلمين وأبنائهم في ذلك المركز المرتقب؟! وأي ثقافة إسلامية بقيت بعد كل هذا الزيغ! إنه بالفعل مكسب عظيم للاستراتيجية الأمريكية الجديدة، ولولا عظم زيغه لما سُمح له بإقامة مسجد في أهم بقعة على أرض أمريكا اليوم. ومن الحفاوة بهذا الإمام الصوفي دُعي عام ٢٠١٠م من قبل السفارة الأمريكية بمصر، وذلك -كما يقول في لقاء معه- لإلقاء مجموعة من المحاضرات والندوات في عدد من الجامعات المصرية، والالتقاء بمجموعة من الشباب المصريين[4].

المثال الرابع عشر: الترويج المباشر للتصوف من قِبل وزارة الخارجية الأمريكية، وذلك عبر موقعها الإليكتروني، فعند البحث عن مادة «صوفي» داخل موقعها فستظهر للباحث كمية هائلة من أخبار الصوفية، وبخاصة داخل الولايات المتحدة! فمن خبرٍ عن مهرجان للمولد النبوي في ضواحي نيويورك تعززت فيه -بحسب الخبر- مظاهر الوحدة والتفاهم والسلام بين المسلمين والمسيحيين[5]، إلى أخبار جلال الدين الرومي والذي يُعد -بحسب موقع وزارة الخارجية- الشاعر الأكثر شعبية في الولايات

---

(١) المرجع نفسه. ص١٠٣-١٠٤

(٢) المرجع نفسه، ص١١٢

(٣) المرجع نفسه، ص١١٣

(٤) جريدة الأهرام، في ١٢/ ٣/ ٢٠١٠م.

(٥) يُنظر: موقع وزارة الخارجية الأمريكية، رابط الخبر:
http://iipdigital.usembassy.gov/st/arabic/article/2010/03/20100322164128smtotrob0.5638086.html#axzz2obYVedVL

المتحدة[1]! إلى أخبار الموسيقى والأناشيد الصوفية، والحفلات الكثيرة التي تُقام في أمريكا لأجل ذلك، وأثرها على الأمريكيين[2]، إلى غير ذلك من الأخبار والمقالات الكثيرة المتعلقة بالصوفية[3].

وعلى النقيض من هذا فحينما تبحث داخل موقع وزارة الخارجية الأمريكية عن مادة «سلفي» فستفاجأ بأنك أمام كمٍّ هائل من أخبار الإرهاب، وقوائم المطلوبين أمنياً لأمريكا عبر العالم!! وقد حاولت أن أجد خبراً أو مقالاً واحداً فقط ورد فيه ذكرٌ للسلفية دونما ربطها بالإرهاب أو قوائم المطلوبين أمنياً فلم أجد!!

وبعد، فهذه النماذج والأمثلة ما هي إلا غيضٌ من فيض، ولولا خشية الإطالة لأوردت المزيد، ولكن ما مضى يُناسب المقام، ويفي بالغرض.

المسألة الثانية: الواقع الصوفي الجديد والمتغير

إنَّ الواقع الصوفي الجديد والمتغير يمكن تأريخ بدئه بلا تردد بأحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م، إذ لا يمكن لأحد مهما بلغ في دفاعه عن التصوف أن يزعم بأن الواقع الصوفي بعد ١١ سبتمبر٢٠٠١م هو ذاته ما قبل هذا التاريخ. وما الأمثلة التي سقتها آنفاً إلا بعض ما ظهر فوق السطح السياسي، أو اقتضت المصلحة (الأمريكية) نشره وبيانه، وإلا فإن الواقع الصوفي المزدهر ازدهاراً كبيراً يدل دلالة كبيرة على عظم ما تلَقّاه التصوف من رعاية وتشجيع من قبل الولايات المتحدة، والتي باتت رغبتها في تبني الصوفية ظاهرة للعيان، حيث أنطقتها حمّى «حرب الإرهاب»، عن وعي وغير وعي، بكثيرٍ من مشاريعها ومكرها، ومنها هذا الأمر الذي نحن بصدده، والذي تناولته -لوضوحه- حتى أقلام كُتّاب الصحافة، ومنهم -على سبيل المثال- محمد عويس، حيث كتب في جريدة الحياة: «بعد

---

(١) يُنظر: المرجع نفسه، رابط الخبر:
http://iipdigital.usembassy.gov/st/arabic/texttrans/2007/10/20071023164956amiwahar0.7341272.html#axzz2mrPxgxeo

(٢) وهذا رابط أحدها على سبيل المثال:
http://iipdigital.usembassy.gov/st/arabic/publication/2009/08/20090812143820snmassabla0.7833172.html#axzz2mrPxgxeo

(٣) يُنظر: موقع وزارة الخارجية الأمريكية: *http://iipdigital.usembassy.gov*

الحادي عشر من أيلول سبتمبر بدأ الأمريكيون، في ثنايا حملتهم الشاملة على «الإرهاب»، يدرسون إمكانية تعميم «الصوفية» لتصبح الشكل المستقبلي للإسلام، أو على الأقل تقوى شوكتها ويشتد ساعدها على الساحة الإسلامية، فتَخْصم من رصيد الجماعات والتنظيمات المتطرفة التي ترفع الإسلام شعاراً سياسياً لها، والتي أنتج بعضها «تنظيم القاعدة» على شاكلته، ويعول الأمريكيون في تصورهم هذا على ما جادت به تجربة النقشبندية في تركيا، حيث استوعب المتصوفة قيم العلمانية، وطوروا رؤيتهم الدينية لتواكب العصر، وتتماشى مع النهج الديمقراطي على مستوى القيم والإجراءات»[1].

ويقصد الكاتب هنا بالتجربة النقشبندية في تركيا، حركة فتح الله كولن التعليمية، ومدرسة نجم الدين أربكان السياسية، وكلاهما (الحركة والمدرسة) متماهٍ مع العلمانية والديمقراطية، وليس في برنامجه التعليمي أو السياسي مسألة تطبيق الشريعة الإسلامية على الإطلاق.

لقد حظي التصوف بعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١م بواقع مزدهر في العالم الإسلامي؛ من الخليج العربي إلى المحيط الأطلسي، ولا يمكن لمتابعٍ لحال التصوف في أي دولة من دول العالم الإسلامي إلا ويجزم أنَّ التصوف تغير حاله وظهر شأنه؛ وإن كان ذلك بنسب متفاوته من بلد إلى آخر. وهذا الواقع الصوفي الجديد في العالم الإسلامي لا يمكن بحال عزله عن الاستراتيجية الأمريكية تجاه التصوف، بل الأكيد أنه انعكاس لها، لا سيما وأن الجميع يدرك مدى المصالح السياسية والاقتصادية التي تربط دول العالم الإسلامي بالولايات المتحدة، وبالتالي فإن مسايرتها في استراتيجيتها هو من شرائط دعمها السياسي والاقتصادي، كما هو معلوم. ومن جهة أخرى فإن بعض حكومات دول العالم الإسلامي ترى في الصوفية مصدراً من مصادر دعمها ودوامها، ولذلك التأم قبول تلك الاستراتيجية الأمريكية البعيدة مع هذه الرغبة القريبة، وظهرت آثار ذلك جليّةً على الأرض.

---

(١) جريدة الحياة، العدد ١٦٠٣٨، في ١٣/ ٢/ ١٤٢٨هـ- ٣/ ٣/ ٢٠٠٧م.

وأما الانعكاس الآخر للاستراتيجية الأمريكية الجديدة نحو التصوف فقد برزت في أصحاب الاتجاهات العلمانية والليبرالية في العالم الإسلامي، حيث تولوا عبر وسائلهم -الإعلامية والسياسية وغيرها- إبراز الصوفية ورموزها، وبالمقابل التشنيع على السلفية وربطها بالتطرف والتكفير. وسوف يأتي مزيد بيان لهذه المسألة.

ولمزيدٍ من الإيضاح والبيان سأتناول فيما يلي واقع التصوف بعد ١١ سبتمبر في أربعة بلدان إسلامية، وهي: المملكة العربية السعودية، والإمارات العربية المتحدة، والجمهورية الجزائر، والمملكة المغربية، وذلك على النحو الآتي:

أولاً: التصوف في السعودية بعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١م

تتمركز الصوفية في السعودية في منطقة الحجاز، ولذلك نجد الربط الذهني البديهي عند العامة بين الصوفية والحجاز، وبخاصة في مكة المكرمة والمدينة المنورة، ومن الحقائق الواقعية التي لا يمكن تجاوزها أن المتصوفة منذ أن بات الحجاز تحت الدولة السعودية الحديثة وهم يحيطون أنفسهم بهالة من المظلومية الدينية غير المبررة شرعاً ولا عقلاً؛ متباكين على قباب هُدِمت ومزارات عُطِّلت من البدع، وأربعة محاريب في الحرم تم توحدها في محراب واحد، وأربعة مفتين لكل مذهب تم توحيدهم في هيئة إفتاء واحدة تعتمد القول الراجح المؤيد بالدليل، أيّاً كان قائله من الأئمة الأربعة، إلى غير ذلك مما درج متصوفة الحجاز على ترديده والتباكي عليه. وقد أوضحت في الفصل الثاني كيف استغلت الصوفية الهزة الأمنية التي وقعت بسبب أحداث الحرم المكي الآثمة عام ١٤٠٠هـ في إعادة نشر بدعهم وانحرافاتهم العقدية، عبر زعيمهم آنذاك الشيخ محمد علوي مالكي، والذي تَصدَّت له حينها -بحزم- هيئة كبار العلماء، على ما بيَّنت في ذلك الموضع.

وأما بعد أحداث ١١ سبتمبر وما تلاها من اتهامات ظالمة للمنهج السلفي -الذي تتبناه السعودية منذ تأسيسها- بالتطرف والتكفير ونحو ذلك

من الأباطيل، ساير الصوفية تلك الموجة الهادرة الظالمة، وبدأو برفع نبرتهم الشاكية زوراً من ظلم المنهج السلفي لها، وهي ذاتها التي نقرأ صداها في التقارير الأمريكية السنوية عن الحرية الدينية في السعودية، والتي عرضت طرفاً منها آنفاً، وقد وصلت تلك الشكايات إلى الإعلام العالمي (الأمريكي تحديداً)، ومن أشنع تلك الشكايات وأكثرها لؤماً واستغلالاً للفرصة (الأمريكية) المؤاتية ما قام به أحد متصوفة الحجاز وهو الدكتور سامي عنقاوي؛ وذلك في لقاءات له في داره بجدة مع الصحفي والكاتب البريطاني «جون برادلي» *John Bradley* حيث عرض سامي عنقاوي في محاضرة له بداره بجدة صورةً يزعم أنها لهدم مسجد أَثَرِي في السعودية، وفي ذات الشاشة صورة أخرى لتدمير تمثال بوذا في أفغانستان، وبين الصورتين عرض عنقاوي صورة لمركز التجارة العالمي وهو يحترق ببطء! وقد علق «جون برادلي» في مقالة له على هذا العرض الذي شاهده بقوله: «إن رسالة السيد عنقاوي كانت واضحة، وهي أن جذور الإرهاب الإسلامي يمكن نسبته إلى أولئك البدو المتعصبين والمتزمتين المعروفين بالوهابية»[(١)]، وكرر سامي عنقاوي هذه العرض على شاشة قناة CNN الأمريكية، وذلك في برنامج لها عن السعودية[(٢)]!

وأما عن الحراك الصوفي الظاهر في الحجاز بعد ١١ سبتمبر يقول الباحث المتصوف محمود صباغ في دراسةٍ له: «لقد رفع كثير من رموز الحراك الحجازي، بعد ١١سبتمبر، شعار «الصوفية» باستعجال. أرادوا استخدامه كطوق نجاة يلوذون به من غلواء الأحادية السلفية على مستوى المؤسسة والوظائف الرسمية والمناهج وحركة النشر والإفتاء والدعوة والمرجعية الفقهية، ويضغطون به مقابل كسب إصلاحات سياسية وطنية

---

(١) جريدة صاندي تايم، ٢٤/ ٢/ ٢٠٠٤م، مقال بعنوان «الخناق يضيق على آل سعود»، والمقال مترجم بواسطة موقع إسلام ديلي على الرابط:
http://www.islamdaily.org/ar/alsaudia/743.article.htm

(٢) يُنظر: البرنامج ومشاركة سامي عنقاوي فيه على الرابط:
http://www.youtube.com/watch?v=YHNPdz9bY5s

أكثر شمولاً»[1]. ومحمود صباغ إنما ينتقد هنا استعجال الحركيين الحجازيين في رفع شعار «الصوفية» بعد ١١ سبتمبر، لأنه يرى أن الأولى بهم رفع شعار «المدرسة المكية»، والتي يزعم أن التصوف أحد مكوناتها، إذ يقول: «فالأدعى استدعاء النمط الأصيل في الحجاز... ألا وهو بُنية المدرسة المكية بكل حصيلتها وتراكمها المعرفي ومعالمها وتسلسلاتها وتنوعيّتها الجوهرية، المذكورة في هذه الدراسة، لا اختزال البنية الحجازية في تيار التصوف الذي سيتنفس الصعداء كتحصيل حاصل بعد الاعتراف الرسمي بمرجعية دينية مكية كرافد موازٍ وشريك بالمؤسسة الدينية الرسمية»[2].

ثم تحت عنوان (نماذج من تغطية الصحافة العالمية للصوفية الحجازية بعد الحادي عشر من سبتمبر) كتب محمود صباغ ما يلي: «شكّل النشاط المؤسسي والدعائي الواسع الذي اضطلع به الدكتور سامي عنقاوي، كمتحدث عن التنوع المكي الزائل، والثقافة والآثار الحجازية التي كانت تتعرض لعملية مستمرة من الإزاحة التاريخية، مقدمة لانبعاث أجندة شبه منظمة لمطالب ثقافية بالحجاز، قدمت المكّون الصوفي كأحد روافدها. وقد نشرت هنا نموذجين باكرين في النيويورك تايمز مقالتين عنه. أما ذروة صعود الصوفية بالحجاز كقطبية وطنية، تقارع القطبية السلفية الكلاسيكية الرسمية، ومرجعية الأقلية الشيعية بالمنطقة الشرقية، في الخطاب الإعلامي الغربي ما كتبته فايزة أمبا، مراسلة الواشنطن بوست في جدة وقتها، وما كتبه ستيفن شوارتز في الويكلي ستاندرد عن الصوفية في الحجاز وعن مراسم التأبين الأسطورية التي رافقت وفاة رمز المدرسة المكية الكبير الشيخ محمد علوي مالكي»[3].

(١) مركز المسبار، التصوف في السعودية والخليج، دراسة لمحمود عبدالغني صباغ بعنوان «الصوفية والمجالس العلمية في الحجاز الحديث»، نشر مركز المسبار للدراسات والبحوث- دبي، ط٢، ٢٠١١م، ص٢٤٩-٢٥٠

(٢) المرجع نفسه، ص٢٥١

(٣) المرجع نفسه.، ص٢٥١-٢٥٢

ومما جاء في التقرير الذي أعدته فايرة أمبا للواشنطن بوست، والذي أشار إليه محمود صباغ، وعَدَّهُ ذروة صعود صوفية الحجاز في الإعلام الغربي (الأمريكي)؛ قول واصف كابلي -وهو أحد زعماء التصوف في الحجاز-: «تمت ترقيتنا من كفار إلى جهال يمارسون دينهم بشكل خاطئ»[1]! وكان ذلك تعليقاً منه على إشراك الصوفية في لقاءات الحوار الوطني عام ٢٠٠٣م، وأيضاً حضور الملك عبدالله (ولي العهد آنذاك) لجنازة شيخ الصوفية في الحجاز محمد علوي مالكي عام ٢٠٠٤م. ونقل التقرير أيضاً تعليق معلمٍ صوفي، اسمه سيد حبيب عدنان، على الحراك الصوفي الجديد في السعودية، حيث قال: «هذه واحدة من بركات ١١ سبتمبر، لقد وضعت حداً لممارسة الوهابية للتكفير، ولإخراجهم من الدين كل من لم يتبع عقيدتهم بشكل تام»[2]. ولا يفوت التذكير هنا بما ذكرته آنفاً من إقرار السيد عبدالله فدعق -وهو من رموز المتصوفة في مكة المكرمة- بأن أحداث ١١ سبتمبر هي أحد أسباب صعود الصوفية وبروزها من جديد[3].

وعلى الرغم من أن الفرصة أتيحت للصوفية في السعودية لطرح ما لديهم من آراء ومطالب على طاولة الحوار والنقاش الشرعي، والاحتكام في ذلك إلى كتاب الله وسنة رسوله الكريم ﷺ الصحيحة، إلا أنهم آثروا منذ ذلك الحين إلى يومنا هذا طريق الشكاية والزعم على أوسع نطاق بأنهم يقعون تحت دائرة التكفير والإقصاء والمنع من إقامة الشعائر الخاصة بهم! وهذه أمور يدفعها ويكذبها الواقع؛ فأما مسألة تكفيرهم فقد رددت عليها في الفصل الثاني بالتفصيل، وبينت بطلانها، وبينت هناك وأؤكد هنا أنها منقلبةٌ عليهم، وأن منهم من يكفر السلفية بأعيانهم، ويرمونهم بالزندقة، ويصمونهم بالمجسمة والحشوية، ونحو ذلك مما هو ظاهر في كتبهم، وعلى رأسها

---

(١) جريدة واشنطن بوست، في ٢/٥/٢٠٠٦م، تقرير بعنوان «ظهور الصوفية من جديد في السعودية» *In Ssudi Arabia, a Resurgence of Sufism*، رابط المقال:
http://www.washingtonpost.com/wp-dyn/content/article/2006/05/01/AR2006050101380.html

(٢) المرجع نفسه.

(٣) يُنظر: قناة العربية، برنامج إضاءات، لقاء مع عبدالله فدعق بتاريخ ٩/٦/٢٠٠٦م.

كتب الشيخ أحمد زيني دحلان، والذي يُكفر فيه صراحة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، دونما نكير من الصوفية إلى يومنا هذا! وأما دعوى الإقصاء فالواقع يكذبها ويردها، إذ من المعلوم واقعاً أن متصوفة الحجاز منهم الوزراء والمسؤولون الكبار في الدولة، ومنهم التجار الذين لا يضايقهم أحد في رزقهم. فعن أي إقصاء يتحدث الصوفية!؟

وأما دعوى التضييق عليهم في شعائرهم؛ فعن أي شعائر يتحدثون؟! وماذا يقصدون بالتحديد؟. إن كانوا يقصدون منعهم من تشييد الأضرحة والقباب والتبرك بالقبور وإقامة الطرق الصوفية، وغير ذلك مما يمسُّ العقيدة، فنعم لقد مُنعوا، وهو من مقتضيات النهي عن المنكرات والضلالات، وإن شكى وبكى الصوفية وأوصلوه إلى تقارير الإدارات الأمريكية. وأما غير ذلك فلم يمنعوا، ولم يضايقهم أحد في صلاة أو صيام أو حج أو غير ذلك من العبادات الصحيحة؛ هذا بالإضافة إلى أن ممارستهم لطقوسهم البدعية؛ كالموالد ومجالس السماع (الذكر)، وكذلك مجالس التعليم انتعشت وبرزت بعد الحادي عشر من سبتمبر، وقد عدَّ منها في الحجاز ذات الشاكي (محمود صباغ) أزيد من خمسين مجلساً للتعلم وللذكر الصوفي حتى عام ٢٠١١م[1]!

هذا، ويحسن التنبيه هنا إلى ثلاثة أمور تتعلق بالتصوف في الحجاز:

الأمر الأول: أن التصوف في الحجاز -في شكله المعاصر- لا يتخذ الشكل الطرقي المعروف في باقي أنحاء العالم، وهذا ما نرجو أن يكون أبعد بأهله عن أغلال مشايخ الطرق وتعصبهم وبدعهم وتفريقهم بين الناس، وأقرب بهم إلى حياض السنة والاتباع -بإذن الله-.

الأمر الثاني: أن من التزييف والتزوير ما تقوم به أقلام وألسنة بعض المتصوفة من تصوير للحجاز على أنه -تاريخياً- صوفي الهوية، وأن البيوت العلمية في الحجاز لا تستطيع في ظل «الوهابية» أن تؤدي رسالتها العلمية! وهذا الكلام مجاف للحقيقة والواقع؛ فالحجاز أولاً: هو مهد

(١) يُنظر: مركز المسبار، التصوف في السعودية والخليج، ص٢١٩-٢٣٧

الإسلام، وقبلة المسلمين أجمعين، وليس له سوى الإسلام هوية. وثانياً: يؤكد موقع آل البيت في تقرير له بأن «عامة أهل مكة من أهل السُّنَّة والجماعة، ولله الحمد، ولا يُعرف فيهم التصوف التقليدي إلا في بيوتات قليلة»[1]، ويضيف بأن «هذه البيوت الحجازية التى يُدَّعَى لها بالرسالة العلمية والتدريسية يدور محور اهتمامها حول التصوف، ويختص بها طبقات معينة ينتقيهم بعناية مدرِّسيهم.. أما الدعوة إلى إفراد الله بالعبادة والدعوة إلى السُّنَّة وترك البدعة فيها فلا يُعرف لهم ما يُعرف لبيوتات الحجازيين الأخرى كبيت: المعلمي، والشيخ عبدالله خياط، ومحمد حمزة، وبيت نصيف، وغيره»[2]. وثالثاً: أن أجيال الشباب الحجازي المعاصر تربوا في المدارس السعودية -كغيرهم من الشباب- على كتب الدين الخالية من بدع التصوف وانحرافاته، وأما خارج المدارس فهم بعيدون ولله الحمد عن أجواء الأضرحة وشركياتها، ومزالق الطرق الصوفية وبدعها. وهذه الحقيقية على ما يبدو هي ما أزعجت زيد الفضيل وهو أحد الباحثين المناصرين للتصوف، فأرجع -في حديث له مع «الجزيرة نت»-: «أسباب انحسار مفهوم التصوف إلى حرب المؤسسة الدينية للمتصوفة، واكتفاء أبناء الحجاز بالمظهر الديني الإنشادي للحفاظ على الهوية التراثية الحجازية أكثر من كونه الحفاظ على الهوية الصوفية. ورأى أن أهم عامل في ذلك الانحسار هو غياب الشخصية الدينية المؤثرة بعد الفراغ الكبير الذي أحدثته وفاة السيد المالكي في ٢٠٠٤م بمدينة مكة المكرمة[3]»[4].

---

(١) هيئة تحرير موقع آل البيت، تقرير «شبكة العلاقات العامة في بلاد الحرمين وأدواتها»، ١٤٢٨ه، موقع آل البيت الإليكتروني، الرابط: http://alalbayt.com/?p=3321

(٢) المرجع نفسه.

(٣) هذا العبارة الأخيرة من كلام زيد الفضيل تُذكر بمسألة «أهمية الرمز عند الصوفية»، والتي تحدثت عنها في الفصل الماضي، في مبحث موقف مراكز البحوث الأمريكية من رموز التصوف، وذكرت حينها أن مسألة الرمز هي من الفوارق بين التصوف والمنهج السلفي، إذ قيمة الرمز (الشيخ) في الفكر السلفي تكمن في علمه الشرعي وعمله به، بينما في التصوف قلما تجد عند رموزهم العلم الشرعي، بل إن توريث الطريقة عندهم بات بالنسب، أياً كان حال الوارث! ولذلك فإن الطاعة العمياء (المطلقة) التي يُربى عليها المريد، وتصل إلى حد تقبيل اليد والقدم؛ هي في الواقع ما يُشكِّل قيمة الرمز (الشيخ) في الفكر الصوفي.

(٤) يُنظر: الجزيرة نت، في ٧/ ٧/ ١٤٣١هـ-٢٠/ ٦/ ٢٠١٠م، الرابط:
http://www.aljazeera.net/news/pages/601721de-51c0-4015-9f52-9c71b57d6611

ومن هنا فإن الزعم الصوفي المتكرر -بعد ١١ سبتمبر- بأن الحجاز كان ولا يزال ذا هوية وخصوصية صوفية، وتنوع مذهبي في الفقه هو كلام غير دقيق، وهو وإن تطابق إلى حد كبير مع فترة ما قبل الدولة السعودية الحالية، إلا أنه لا يتطابق مع المقاصد السامية في هذا العصر، وهي أن تبقى هذه البقاع المشرفة قِبلةً لكل المسلمين، محروسة من بدع الجهال، وشركيات القبور، وخرافات الطرقية.

الأمر الثالث: أن لوثةً مذمومة من بقايا الجاهلية -كما سماها حبيبنا ﷺ- تسربل بها فئام من المسلمين، وبخاصة من بعض أبناء القبائل الذين سكنوا الحجاز في ظل الدولة السعودية الحالية، فراحوا يَذمُّون -بتلك اللوثة- إخوانهم من أهل الحجاز وينتقصونهم دونما وجه حق. فوجد ذلك الحجازي؛ سليل العائلة الكريمة التي جاور جدها مكة أو المدينة قبل مئات السنين، وجد نفسه غريباً في وطنه! محتقراً فوق أرضه! والمؤلم أن كثيراً من إخواننا الحجازيين ممن وقع عليه هذا الظلم يُرجع هذه النظرة الجاهلية إلى السلفية أو «الوهابية»؛ والسلفية منها براء. ولذلك وجدوا في التمسك بالتصوف استقلالاً للذات وإغاضة للطرف الآخر «السلفي». والحق أن هذه اللوثة مخالفة شرعية صريحة، وهي مما جاء الإسلام بهدمه حساً ومعنى، فكيف بها تعود إلى أشرف بقعة وأول مكان هُزمت فيه!. إنها أيضاً مما يعكر الاستقرار، ويصرف عن البناء والتنمية، ولذلك فإن ترجمة حكمها الشرعي المعلوم إلى عقوبة رادعة بات ضرورة، وهو مما يكفل للجميع تحقيق العدل والأمن النفسي والمعنوي.

وبعد، فبما أن صدى أصوات متصوفة الحجاز قد لامس الأذن الأمريكية المتشنجة مُسبقاً من الواقع الديني (السلفي) في السعودية، فأختم بهذا الكلام النفيس للرئيس السابق لشؤون الحرمين الشريفين وعضو هيئة كبار العلماء الشيخ صالح الحصين حول تقرير وزارة الخارجية الأمريكية للحريات الدينية لعام ٢٠٠٥م، إذ قال -رحمه الله-[1] معلقاً على ما ورد في التقرير بشأن السعودية: «يتهم التقرير المملكة بأنها (تتبع مذهباً خاصاً

(١) توفي الشيخ صالح بن عبدالرحمن الحصين عام ١٤٣٤هـ وقد كان -رحمه الله- آية في العبادة والزهد والورع، أحسِبُهُ كذلك، ولا أزكي على الله أحدا.

في تفسير الإسلام، ولا يُسمح للمنتسبين للإسلام أو غيرهم بمخالفته)..، بهذا الاتهام يكرر التقرير مقولة كانت تشيع قبل ماتئي سنة، إذ يقصد الاتهام أن الثقافة السائدة حالياً في المملكة العربية السعودية تستند إلى مذهبٍ ابتُدع وأضيف إلى المذاهب السُّنية الأربعة المعروفة. ويقول المثل الشائع: (إذا كنت كَذُوباً فكن ذَكوراً)، في الماضي كانت هذه الإشاعة الكاذبة تلقى التصديق من الناس بسبب ضعف الاتصالات والتواصل، وعدم وجود وسائل الإعلان أو الإعلام، أما في هذا العصر، عصر ثورة الاتصالات والتواصل، وقدوم أكثر من أربعة ملايين سنوياً من الحجاج والمعتمرين إلى أرض المملكة العربية السعودية، عدا الوافدين إليها للزيارة والسياحة والعمل والتجارة، وعدم رؤية القادمين أي فارق في مظاهر الدين الإسلامي بين ما يجري في المملكة العربية السعودية وما يجري خارجها من أقطار العالم الإسلامي، وكما يقدم القادمون فلا يرون هذا الفارق ولا يرون مذهباً خامساً، ولا ديناً غير الذي يعرفه المسلمون، ولا تفسيراً خاصاً للإسلام، فإن الشعائر الدينية وخطب الجمعة تُنقل بالتلفاز إلى الكرة الأرضية كلها فلا يرى أحد في المملكة العربية السعودية طريقة للدين مختلفة، ولا يسمعون قولاً أو يرون فعلاً يختلف في الدين عما كان عليه أهل السنة من المسلمين طول العصور وفي مختلف الأقطار، كل ما تختلف به المملكة العربية السعودية عن غيرها هو عدم وجود قبور أو مقامات يلجأ الجهال من عامة المسلمين إليها لطلب الحاجات أو التبرك بها أو العبادة عندها، ولكن لا أحد يُنكر أن الوضع كان هكذا في العصور الإسلامية الأولى، ليس على أرض الحجاز وحدها، بل على كل أرض العالم الإسلامي، لا يوجد في مقبرة البقيع مثلاً بناء مشيد على القبور، ولكن هل يُنكر أحد أن هيئة مقبرة البقيع في خلوها من ذلك أقرب إلى الهيئة التي كانت عليها في عهد الرسول ﷺ والصحابة وقرون طويلة بعده؟ هذا فضلاً عما ظل المسلمون يتناقلونه طول العصور من الأحاديث النبوية التي تنهى عن البناء على القبور»[1].

---

(١) صالح بن عبدالرحمن الحصين، الحرية الدينية في السعودية، غيناء للنشر-الرياض، ط١، ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م، ص٤٧-٥٠، -باختصار يسير-.

ويضيف الشيخ -رحمه الله-: «قال التقرير: (إن الحكومة السعودية تفرض مذهباً سنياً متزمتاً، وتتحيز ضد المذاهب الإسلامية الأخرى).
ونقول: لقد كان من أعظم إنجازات المملكة العربية السعودية، التي منَّ الله بها عليها: إنهاء التعصب المذهبي الفقهي، فقد كان في الحرم المكي أربعة محاريب، يقوم فيها أربعة أئمة، ويتفرق المسلمون في الصلاة، فيصلي كل شخص خلف الإمام الذي هو من مذهبه، وأُلغي هذا الشذوذ الذي لا يتفق مع مبادئ الإسلام، والذي كان طول الزمن السابق لإلغائه موضع انتقاد كبار علماء الإسلام ومفكريه الذين يقدمون للحج والعمرة، وتوحدت صلاة المسلمين في المسجد الحرام والمسجد النبوي على إمام واحد، قد يكون هذا الإمام منتمياً للمذهب الحنفي أو المالكي أو الشافعي أو الحنبلي، من دون أن يكون لهذا الانتماء أي أثر في اختيار الإمام، بل بدون أنه يهتم أحد بالسؤال عن مذهب الإمام، وبهذا انتهى التعصب المذهبي، ثم خَفَتَ الانتماء (الذي كان يتضمن تقليد الشخص لمذهب معين) حتى صارت نسبة الشخص إلى أحد المذاهب السنية الأربعة تعني أنه درس فقه هذا المذهب، أو نشأ في بلد يسوده مذهب معين كإثيوبيا بالنسبة للمذهب الشافعي، أو بورما بالنسبة للمذهب الحنفي، أو المغرب بالنسبة للمذهب المالكي، أو عُرفت عائلته بالانتساب لأحد هذه المذاهب. ولو قابلت الآن شخصاً في أحد شوارع المملكة وسألته هل أنت حنفي أو مالكي أو شافعي أو حنبلي؟ فالغالب ألاّ يفهم لسؤالك معنى، وإن كان مثقفاً فالغالب أن يجيب: كل هذه المذاهب مذهبي. وقبل أكثر من أربعين سنة تم تشكيل هيئة كبار العلماء في السعودية- وهي أعلى سلطة دينية ومرجعية علمية في البلاد- من علماء ينتسبون للمذاهب الأربعة بالمعنى السابق. وفي القضاء السعودي يمكن أن يختار القاضي لحكمه رأياً لأي من الأئمة الأربعة، أو الإمام الثوري أو جعفر الصادق أو الأوزاعي أو غيرهم من أئمة الهدى الذين اعترفت لهم الأمة بالعلم والفضل، فلا يُنقض حكمه، ويمكن أن يختار المفتي لفتياه أياً من آراء هؤلاء الأئمة دون أن تُنكر فتواه. وتُصدر هيئة كبار العلماء في المملكة قراراتها الفقهية، دون أن تتقيد بمذهب معين،

وحين يُجري الطلبة في الدراسات العليا بحوثهم الفقهية يتعاملون مع مذاهب الأئمة الأربعة أو الأئمة الثوري والأوزاعي أو جعفر الصادق أو غيرهم على قدم المساواة، ويحظى هؤلاء الأئمة بقدر من الاحترام والتبجيل، وتوزن آراؤهم حين تختلف بميزان واحد»[1].

هذا هو الواقع الذي نعيشه في السعودية بشكل عام، وفي الحجاز بشكل خاص، ويا ليت أنَّ الجيل الجديد الواعي من شباب الحجاز ممن ينتسب إلى التصوف ينظر إلى المنهج السلفي في بلاده بعين العقل والإنصاف، وأن يخلع عنه تلك النظرة الصوفية الظالمة المتوارثة تجاه السلفية.

ثانيًا: التصوف في الإمارات بعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١م

لا يمكن الحديث من الناحية التاريخية عن وجودٍ للتصوف في ساحل عمان (الإمارات العربية المتحدة حاليًا) كما هو الحال -على سبيل المثال- في العراق ومصر، وهذا ما يعترف به حتى من سعى إلى البحث عن جذورٍ وامتدادٍ للتصوف في الإمارات؛ كالباحث الإماراتي راشد الجميري، والذي يُقرُّ في دراسة له عن التصوف في دبي بأن: «تاريخ التصوف على ساحل عمان يشوبه الكثير من الغموض وتكثر فيه الحلقات المفقودة، إذ يصعب ذكر أخبار الطرق الصوفية أو لفظ الصوفي أو صوفية في المخطوطات المحلية أو حتى الوثائق الأجنبية سواء البرتغالية أو الهولندية أو الانجليزية، لأنها أهم المصادر التاريخية لساحل عمان، حتى في كتاب (دليل الخليج) لمؤلفه لوريمر، عندما مسح الحركات والظواهر الدينية في الخليج، قال: «يقال إنه لا يوجد صوفيون في الخليج»»[2].

ثم تعلّق الباحث بمخطوطة لرحالة يمني، أشار في بعض صفحاتها إلى الفرقة العلوية الحدادية في منطقة الصير (رأس الخيمة)، والتي -كما يقول- استمر التصوف فيها حتى إعلان رأس الخيمة انضمامها لدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب[3]، ثم يقول الباحث: «الخيط الوحيد الذي قد يقودنا

(١) المرجع نفسه، ص٥٠-٥٢

(٢) يُنظر: مركز المسبار، التصوف في السعودية والخليج، بحث بعنوان «التصوف في دبي» لراشد أحمد الجميري، ص١١

(٣) يُنظر: المرجع نفسه، ص١١-١٤

إلى تاريخ التصوف في دبي هو فن «المالد»[1]، (أي المولد)، ثم حاول أن يُعيد جذور المولد إلى رجل صوفي اسمه محمد عمر الأفغاني؛ عاش في دبي إلى بدايات القرن التاسع عشر، ثم تبنت أسرة آل مكتوم التصوف الذي جاء به ذلك الرجل، وبعد مقتله عام ١٩١٥م خلفه على الطريقة القادرية عبدالله المريد، والذي تحول بها إلى الطريقة الرفاعية، وبعد وفاة عبدالله المريد، في الستينيات من القرن الميلادي المنصرم، خلفه ابنه عبدالرحيم في الزعامة، إلى أن توفي عام ٢٠٠٧م، مما عاد على التصوف في دبي-كما أشار الباحث- بحالة من الركود، أفقدته الكثير من مكانته الدينية[2].

والواقع أنه لا يمكن الحديث عن التصوف بشكل واحد في دولة الإمارات الحالية (إلى فترة ما قبل ١١سبتمبر ٢٠٠١م)، وذلك لسبب مهم وهو أن الإمارات دولة اتحادية (فيدرالية)، رئيسها واحد، وسياستها الخارجية واحدة، ولكن كل إمارة من إماراتها تتولى إدارة شؤونها الداخلية بشكل شبه مستقل، ومن ذلك الشؤون الدينية[3]، ولذلك ففي الوقت الذي وجد التصوف فيه موطئ قدم في دبي، فقد كانت رأس الخيمة تتبنى الدعوة السلفية، وكان بها فرعٌ لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية (كلية الشريعة واللغة العربية برأس الخيمة)، على مدى أربعين عاماً (حتى ٢٠٠٧م). ومع ذلك يمكن الجزم بأن الدعوة السلفية كانت هي الحاضرة في المجتمع الإماراتي، بل وحتى على المستوى الرسمي بشكل عام، وحتى إمارة دبي، التي ذكرها بالتصوف الجميري آنفاً؛ كان ولا يزال بها حتى اليوم مركز سعوديٌ للدعوة والإرشاد؛ وكانت السعودية أيضاً تنتدب القضاة للعمل في محاكم الشارقة، إذ كان هناك تعاونٌ مشترك بين حكومة الشارقة ووزارة العدل السعودية في مجال القضاء؛ وكانت المحاضرات والندوات الدينية في المساجد الإماراتية لا تختلف عنها في السعودية، وكان ضيوف

(١) المرجع نفسه، ص١٦

(٢) يُنظر: المرجع نفسه، ص١٦-٤٣

(٣) وهذا الواقع قلّل من تأثير وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف، والتي كان وزيرها على مدى عشرين عاماً الشيخ الصوفي الأشعري محمد بن أحمد الخزرجي (ت ٢٠٠٦م)، وقد تبنّت الوزارة في عهده طباعة كُتب محمد علوي المالكي، ومنها كتابي «مفاهيم يجب أن تصحح»، و«شفاء الفؤاد في زيارة خير العباد».

رئيس الدولة -الشيخ زايد- لإحياء شهر رمضان في الإمارات هم علماء ومشايخ الدعوة السلفية من كل أنحاء العالم، إلى غير ذلك مما هو واقع شهدناه ويعرفه الجميع حتى ١١ سبتمبر ٢٠٠١م. ويمكن القول أن الإمارات بشكل عام كانت تعتمد سياسة التوازن في الشأن الديني، الأمر الذي أعطى للدعوة السلفية امتداداً طبيعياً وحضوراً بارزاً، وأعطى أيضاً للتصوف بعض الحضور على المستوى الرسمي دون الاجتماعي؛ كتوليهم -على سبيل المثال- وزارة العدل والشؤون الإسلامية والأوقاف، وكذا الإفتاء بدبي[١].

وأما ما بعد ١١ سبتمبر وحتى يومنا هذا فلم يعد ثمة مجال للشك بأن الإمارات تتوجه في حراك بارز نحو إقصاء الدعوة السلفية وتبني التصوف، تحت شعار التسامح الديني ونبذ التطرف! وقد بدأ ذلك الحراك فعلياً منذ عام ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م، أي بعد وفاة رئيس الدولة الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان مباشرة (ت ٢/ ١١/ ٢٠٠٤م)، ويمكن أن نجد في هذه الكلمة لمستشار رئيس دولة الإمارات الشيخ خليفة بن زايد للشؤون الدينية والقضائية السيد علي الهاشمي[٢] إشارة البدء للتوجه الجديد في الإمارات نحو التصوف، إذ يقول الهاشمي (في عام ٢٠٠٥م): «إن توجيهات الفريق أول سمو الشيخ محمد بن زايد آل نهيان ولي عهد أبوظبي نائب القائد الأعلى للقوات المسلحة بضرورة وقفة شيوخ وعلماء الدين الإسلامي الذين يعيشون بيننا تجاه الإرهاب، وملاحظات سموه جاءت جادة وصريحة وموفقة، وهذا نداء فيه تكريم لأهل العلم وتقديم لهم على غيرهم مما يوجب على أهل العلم مواكبة هذا النداء والسير في ظله وتفعيل دورهم

---

(١) كبير المفتين في دبي هو الشيخ أحمد بن عبدالعزيز الحداد، وهو صوفي شافعي، تتلمذ على عدد من مشايخ التصوف بمكة المكرمة، ومنهم محمد علوي المالكي. يُنظر: مركز المسبار، التصوف في الخليج والسعودية، ص٢٤٢

(٢) الشيخ علي بن عبدالرحمن الهاشمي صوفي أشعري، وله اليوم حضوره البارز في مناشط التصوف في الإمارات وخارجها، ومن ذلك مشاركته بكلمة في المؤتمر الدولي للصوفية في القاهرة عام ٢٠١١م، والذي كان بعنوان«التصوف منهج أصيل للإصلاح». يُنظر: تقرير مطول عن المؤتمر في الموقع الإليكتروني للحبيب علي الجفري، رابط التقرير:
www.alhabibali.com/news_details/ln/ar/newsid/360

البنّاء وإرشادهم بما يقوي عزيمة المخلصين وحتى يظهر الحق ويزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا،..»[1]، إلى أن قال: «إن العلوم والمعارف الصوفية الصحيحة قد أُقصيت من مناهج التعليم وطوردت من ديار شتى وبالذات في أفريقيا وجنوبي شرق آسيا بالرغم من أن العلماء هناك عضّوا على تلك العلوم بالنواجذ حتى تحررت تلك الديار من الاستعمار، إلا أن ما استجد من مناهج هنا وهناك نراها خلوا من المنهج الذي نرتضيه والأمر الذي يبتغيه أولوا الأمر في كل البلاد، وما دامت الرغبة صادقة والعزم أكيد فما أمامنا إلا تفعيل ما يبتغيه أولياء الأمور وفقهم الله وما يراه أهل العلم الراسخون فيه»[2].

وبالفعل فقد بدأت الخطوات العملية في هذا الاتجاه، وهي وإن تفاوتت من أمارة إلى أخرى بسبب طبيعة الاتحاد الإماراتي -كما بيّنت آنفاً- إلا أنها تبرز بشكل واضح في العاصمة أبوظبي، والتي بدأت في هذا الحراك باستضافة الداعية اليمني الحبيب علي الجفري ليسكن أبوظبي، ومن ثمَّ إعطائه مكانة كبيرة في الإمارات، ودعمه في إنشاء مؤسسة طابة عام ١٤٢٦هـ[3]. ثم انطلقت الفعاليات الصوفية بشكل بارز، وبرعاية مباشرة من الوزارات والمؤسسات الحكومية، وبحضور مباشر من قبل المسؤولين الإماراتيين، وبخاصة في العاصمة أبوظبي، وأصبح الحبيب الجفري مُقدَّماً في الفعاليات الدينية والتعلمية، سواء ما يُقام منها ميدانياً، أو إعلامياً؛ عبر القنوات الفضائية الإماراتية وغيرها.

هذا، ويأتي على رأس قائمة الحراك الصوفي الجديد في الإمارات أمران مهمان؛ أولهما: التغيير الجوهري في برنامج ضيوف رئيس الدولة الرمضاني لإحياء ليالي رمضان، فبعد أن كان يُستضاف فيه علماء ومشايخ الدعوة السلفية، أصبح مشايخ الصوفية هم ضيوف ذلك البرنامج[4]. وثانيهما:

---

(١) جريدة الاتحاد الإماراتية، في ٢٣/ ١١/ ٢٠٠٥م.

(٢) نفس المرجع.

(٣) مضى في الفصل السابق الحديث عن مؤسسة طابة، ذات التوجه الصوفي الظاهر، بدءاً من مجلس إداراتها، وانتهاءً بمناشطها وما تصدره من تقارير وبحوث.

(٤) يُنظر على سبيل المثال جريدة الاتحاد، في ٢٨/ ٩/ ٢٠٠٧م، وفيها خبر استضافة الشيخ الصوفي الهندي أبو بكر أحمد، ضمن برنامج ضيوف سمو رئيس الدولة الرمضاني.

الرعاية الرسمية الظاهرة (على المستوى الوزاري) لاحتفالات المولد النبوي، والإسراء والمعراج، والهجرة النبوية (بداية السنة الهجرية)، والتأكيد بمرسوم اتحادي عام ٢٠٠٩م على أن أيامها تُعد أجازة رسمية في كافة القطاعات الحكومية والخاصة في دولة الإمارات[١]، وإيلاء المولد النبوي (المالد) -بشكل خاص- اهتماماً كبيراً، واعتباره -بحسب الصحافة- هوية احتفالية للإمارات[٢].

وفيما يلي نماذج متعددة من الحراك الصوفي الجديد في الإمارات، وقد رتبتها بحسب الأعوام[٣]:

- ٢٠٠٤م: في هذا العام احتفلت دولة الإمارات بالمولد النبوي بشكل كبير، وتولَّت الإشراف على القيام به وزارة العدل والشؤون الإسلامية والأوقاف ووزارة الإعلام والثقافة[٤]، وقد دُعي لحضوره العديد من مشايخ التصوف من خارج الإمارات، كمحمد سعيد البوطي من سوريا، ومحمد علوي المالكي من السعودية، وإدريس الفاسي من المغرب، ومحمد محمد أبو ليلى من مصر، ومن اليمن الحبيب عمر بن حفيظ، والحبيب علي الجفري (قبل أن يستوطن الإمارات)، وغيرهم، وقد استضاف هؤلاء المشاركين العديد من المسؤولين والوزراء في الإمارات، ونقل الحفل مباشرة على قناة الإمارات الفضائية، وفي هذا العام بدأت مسابقة جائزة البردة[٥].

- ٢٠٠٥م:

١- احتفلت وزارتا العدل والشؤون الإسلامية والإعلام والثقافة

---

(١) يُنظر نص المرسوم الاتحادي بشأن العطلات الرسمية في الإمارات في موقع قانون الإمارات، الرابط: http://theuaelaw.com/vb/showthread.php?t=6389

(٢) يُنظر: جريدة الاتحاد، في ٢٥/ ٩/ ٢٠٠٨م، وجريدة الخليج، في ١٩/ ٣/ ٢٠٠٨م.

(٣) استخدمت التاريخ الميلادي هنا لأنه هو المعمول به في دولة الإمارات.

(٤) في عام ٢٠٠٦م ألغيت هاتان الوزارتان، لتصبح الأولى الهيئة العامة للشؤون الإسلامية والأوقاف بالإضافة إلى وزارة أخرى خاصة بالعدل، والثانية أصبحت وزارة الثقافة والشباب وتنمية المجتمع.

(٥) يُنظر تفاصيل هذا الاحتفال وفعالياته التي استمرت قرابة الأسبوع على موقع الحبيب عمر بن حفيظ الإليكتروني، الرابط: http://www.alhabibomar.com/Trip.aspx?SectionID=3&RefID=4

بالمولد النبوي، ودعي للحفل في هذه السنة محمد سعيد البوطي، والحبيب علي الجفري، وغيرهما[1].

٢- احتفلت دائرة الأوقاف والشؤون الإسلامية في دبي وعلى مدى أسبوعين بالمولد النبوي[2].

٣- أطلق الحبيب علي الجفري مؤسسة طابة في أبوظبي، بعد أن استقر بها[3].

- ٢٠٠٦م:

١- أحيت دولة الإمارات الاحتفال بالمولد النبوي بمناسبات دينية كبيرة، وحضر حفل وزارة الثقافة والشباب وزير الخارجية الشيخ عبدالله بن زايد، وعدد من الوزراء والمسئولين، بالإضافة إلى الحبيب علي الجفري[4].

٢- أقامت دائرة الشؤون الإسلامية والعمل الخيري في دبي احتفالات دينية بمناسبة ذكرى المولد النبوي[5].

٣- أقامت اللجنة الدينية بجمعية نهضة المرأة الظبيانية احتفالاً بمناسبة المولد النبوي حضره حشدٌ من السيدات والأمهات[6].

٤- أطلق الاتحاد النسائي العام برعاية رئيسته الشيخة فاطمة بنت مبارك أولى الندوات النسائية التي تنظمها الهيئة العامة للشؤون الإسلامية بمسرح الاتحاد، وقدم الندوة مفتي مصر الشيخ علي جمعة[7]، والحبيب علي الجفري[8].

---

(١) يُنظر: جريدة الاتحاد، في ٢١/ ٤/ ٢٠٠٥م.

(٢) يُنظر: جريدة الاتحاد، في ١٦/ ٤/ ٢٠٠٥م.

(٣) يُنظر: موقع الحبيب علي الجفري، الرابط: http://www.alhabibali.com

(٤) يُنظر: جريدة الاتحاد، في ١٢،١١/ ٤/ ٢٠٠٦م.

(٥) يُنظر: جريدة الاتحاد، في ٨/ ٤/ ٢٠٠٦م.

(٦) يُنظر: جريدة الاتحاد، في ٢٥/ ٤/ ٢٠٠٦م.

(٧) الشيخ علي جمعة صوفي أشعري، وهو من أشد المناوئين للدعوة السلفية، وله في ذلك كتاب كتاب «المتشددون»، وهو كتاب صغيرٌ في حجمه، عظيم في افتراءاته على السلفيين.

(٨) يُنظر: جريدة الاتحاد، في ٢٨/ ٩/ ٢٠٠٦م.

- ٢٠٠٧م:

١- أحيت الهيئة العامة للشؤون الإسلامية والأوقاف ليلة القدر بحضور الحبيب علي الجفري[(١)].

٢- احتفلت الهيئة العامة للشؤون الإسلامية والأوقاف بتخريج ١١٢ إماماً ومؤذنا، وفي هذا الحفل تم تنبيه الخطباء إلى أنه سيتم إرسال خطب الجمعة إليهم عبر البريد الإليكتروني، وقد حضر هذا الحفل الحبيب علي الجفري[(٢)].

٣- أقام الحبيب علي الجفري حفلاً تكريمياً للشيخ نوح القضاة، بمناسبة تعيينه مفتياً للأردن، وقد حضر الحفل الشيخ نهيان بن مبارك آل نهيان وزير التعليم العالي، ومحمد بن نخيرة الظاهري وزير العدل، وغيرهما من مسؤولي الإمارات[(٣)].

٤- ألقى الشيخ عبدالله بن بيه محاضرة في جامعة الإمارات عن «مقاصد الشريعة الإسلامية»، وقدّم لتلك المحاضرة الحبيب علي الجفري، وكانت في شهر مارس من عام ٢٠٠٧م[(٤)].

- ٢٠٠٨م:

١- أقامت وزارة الثقافة والشباب وتنمية المجتمع احتفالها السنوي لتكريم الفائزين بمسابقة البردة، والذي يصادف الاحتفال بالمولد النبوي، وقدم جائزة البردة في هذه الدورة وزير الخارجية الشيخ عبدالله بن زايد آل نهيان، وقد تم تكريم الحبيب علي الجفري في هذا الحفل من قبل الشيخ عبدالله بن زايد[(٥)].

٢- أُقيم في أبوظبي مهرجان جوائز المحبة في دورته الثانية، برعاية الشيخ محمد بن زايد ولي عهد أبوظبي، ومشاركة الحبيب علي الجفري،

---

(١) يُنظر: جريدة الاتحاد، في ٩/ ١٠/ ٢٠٠٧م.
(٢) يُنظر: جريدة الاتحاد، في ٤/ ٧/ ٢٠٠٧م.
(٣) يُنظر: جريدة الاتحاد، في ١٤/ ٣/ ٢٠٠٧م.
(٤) يُنظر: جريدة الاتحاد، في ٩/ ٣/ ٢٠٠٧م.
(٥) يُنظر: جريدة الاتحاد، في ٢١/ ٣/ ٢٠٠٨م.

ويهدف هذا المهرجان إلى تكريم الأعمال الفنية؛ من أغانٍ، وأناشيد، وأفلام وثائقية، وكتب، ورسم، وتصوير، والتي يكون موضوعها رسول الله ﷺ، وشهد هذا الحفل عروضاً غنائية للعديد من المطربين، وشارك فيه فرق غنائية من أمريكا وفرنسا واستراليا، وشارك في الحفل أيضاً العديد من رؤوس «الفن» المصري كأحمد بدير، ومحمد هنيدي، وسعيد صالح، ومنى عبد الغي، وغيرهم. وأكد عضو أمناء الجائزة الحبيب علي الجفري أن الهدف من إقامة هذا المهرجان هو أن تكون الجائزة بداية قصة حب جديدة بين المسلمين ونبيهم!![1].

٣- نظمت هيئة أبوظبي للثقافة والتراث أمسية رمضانية للموسيقى والسماع الصوفي، أحيتها فرقة ابن عربي المغربية[2].

٤- أحيت الهيئة العامة للشؤون الإسلامية ليلة دينية تحت شعار «ليلة الوفاء لزايد العطاء»، بمسجد الشيخ زايد الكبير بأبوظبي، وذلك بحضور وزير الخارجية الشيخ عبدالله بن زايد، والحبيب علي الجفري[3].

٥- في دبي تم إنتاج وعرض فيلم وثائقي بعنوان «المريد»، يحكي قصة الشيخ الصوفي عبد الرحمن المريد، والذي توفي في دبي عام ٢٠٠٧م، وقد حاول منتج الفيلم تسليط الضوء على مسألة: من سيخلف عبدالرحمن المريد في الزعامة؟[4].

٦- قامت مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم بترجمة الأعمال الصوفية للروائية البريطانية «دوريس لينسنج»[5].

٧- احتفلت وزارة التربية والتعليم بإنتاج فيلم وثائقي يعرض تاريخ الإمارات منذ ١٥٠ ألف عام، وقد حضر الحفل الدكتور سامي عنقاوي من

---

(١) يُنظر: جريدة الاتحاد، في ٢٣، ٢٦/٤/٢٠٠٨م. ويا ليت قصة الحب هذه بدأها الجفري بدعوتهم إلى التوبة مما هم فيه من فسق ومجون، وإلى العودة إلى اتباع هدي المصطفى ﷺ؛ ولكنّ فاقد الشيء لا يعطيه.

(٢) يُنظر: جريدة الخليج، في ٩/٩/٢٠٠٨م.

(٣) يُنظر: جريدة الاتحاد، في ٢٠/٩/٢٠٠٨م.

(٤) يُنظر: جريدة البيان، في ١٧/٤/٢٠٠٨م.

(٥) يُنظر: جريدة الاتحاد، في ٥/٩/٢٠٠٨م.

السعودية، والحبيب علي الجفري، والذي أشاد بالفيلم، ورأى أنه يذكر الشباب بأصالة وامتداد وطنهم[1].

- ٢٠٠٩م:

١- نظمت هيئة أبوظبي للثقافة والتراث حفلاً فنياً للموسيقى الصوفية تحت عنوان «في عالم الإسلام»، وقد أحيته فرقة للموسيقى الصوفية من تركيا[2].

٢- نظمت هيئة الثقافة والتراث «مهرجان ووماد للموسيقى» بأبوظبي، عامي ٢٠٠٩م، ٢٠١٠م، وأدرجت الموسيقى الصوفية ضمن فقراته[3].

٣- أحيت فرقة الدراويش الصوفية من تركيا عروضاً للموسيقى الصوفية، وذلك ضمن الفعاليات المصاحبة لمعرض «الإسلام عقيدة وعبادة»، والذي أقامته هيئة أبوظبي للثقافة والتراث[4].

٤- نظمت الهيئة العامة للشؤون الإسلامية والأوقاف احتفالاً بمناسبة الهجرة النبوية، وذلك بحضور مفتي مصر الشيخ علي جمعة، والحبيب علي الجفري[5].

٥- أقامت وزارة الثقافة والشباب وتنمية المجتمع الحفل السنوي بالمولد النبوي، وذلك في المسرح الوطني بأبوظبي، وتضمن الحفل كلمة للحبيب علي الجفري، وأناشيد دينية قدمها المطرب حسين الجسمي، ومحمد المازم وغيرهما من المغنين، بالإضافة إلى مشاركة فرقة إنشاد صوفي من الأردن، وتضمن الحفل أيضاً تكريم الفائزين في مسابقة البردة[6]، والتي بدأت منذ عام ٢٠٠٤م، ويُراد لها أن تكون الرائدة عالمياً[7].

---

(١) يُنظر: جريدة الخليج، في ٤/ ٥/ ٢٠٠٨م.
(٢) يُنظر: جريدة الاتحاد، في ٢٩/ ٣/ ٢٠٠٩م.
(٣) يُنظر: جريدة الاتحاد، في ٢٥/ ٤/ ٢٠٠٩م، ٢٤/ ٤/ ٢٠١٠م.
(٤) يُنظر: جريدة الاتحاد، في ٧/ ٩/ ٢٠٠٩م.
(٥) يُنظر: جريدة الاتحاد، في ١٧/ ١٢/ ٢٠٠٩م.
(٦) يُنظر: جريدة الإمارات اليوم، في ٩/ ٣/ ٢٠٠٩م.
(٧) يُنظر: جريدة الخليج، في ٩/ ٣/ ٢٠٠٩م.

٦- نظمت جامعة زايد بالتعاون مع جامعة كارولينا وثلاث جامعات اندونيسية بمشاركة مؤسسة طابة مؤتمراً في أبوظبي بعنوان «كلمة سواء: النظرية والتطبيق»، وشارك في المؤتمر الحبيب علي الجفري، وعبدالله فدعق من السعودية.[١]، وأشاد المشاركون في الندوة من المسلمين والمسيحيين بالنموذج المتسامح الذي تقدمه دولة الإمارات[٢].

٧- أقيم حفل صوفي في أبوظبي، أحياه مغنٍ صوفي أذري، وذلك بحضور السفير الأذربيجاني، وكان ذلك في ختام مهرجان موسيقى العالم[٣].

٨- أقامت الجامعة الأمريكية بالشارقة أمسية صوفية، أحيتها فرقة «حسن مؤنس» و«الدراويش» السورية[٤].

- ٢٠١٠م:

١- أعلنت هيئة أبوظبي للثقافة والتراث عن إطلاق «مركز العين للموسيقى في عالم الإسلام»، وشاركت في حفل افتتاح المركز فرق موسيقية من ألبانيا وإندونيسيا ونيجيريا، وأُنشدت فيه قصائد لابن عربي[٥]، عربي[٥]، ويُعد هذا المركز نتاج توصيةٍ قُدمت في مؤتمر أصلية الثقافي بالمغرب عام ٢٠٠٧م[٦].

٢- استضافت هيئة أبوظبي الكاتب الصحفي «سيمون بروتون» وذلك ضمن فعاليات مهرجان «أنغام الشرق»، وتحدث «سيمون» عن الصوفية، وقدم عرضاً لفيلمه الوثائقي عن الصوفية، والذي يحمل عنوان «الروح الصوفية» *Sufi Soul*[٧].

٣- أقام نادي تراث الإمارات، الذي يرعاه الشيخ سلطان بن زايد آل نهيان، برنامجاً دينياً رمضانياً على مدى ثلاثة أسابيع، وتضمن ذلك

---

(١) يُنظر: جريدة الاتحاد، ٢٩/ ٣/ ٢٠٠٩م.
(٢) يُنظر: جريدة الاتحاد، في ٣٠/ ٣/ ٢٠٠٩م.
(٣) يُنظر: جريدة الخليج، في ٢٨/ ٥/ ٢٠٠٩م.
(٤) يُنظر: جريدة البيان، في ٢٨/ ١٠/ ٢٠٠٩م.
(٥) يُنظر: جريدة الاتحاد، في ٢٨/ ٤/ ٢٠١٠م.
(٦) يُنظر: جريدة الاتحاد، في ٢٤/ ٧/ ٢٠١٠م.
(٧) يُنظر: جريدة الاتحاد، في ١٥/ ٥/ ٢٠١٠م.

البرنامج محاضرات للعديد من الدعاة الصوفيين، وعلى رأسهم الحبيب علي الجفري وعبدالله فدعق من السعودية، وغيرهما من الدعاة من مصر والمغرب، وتضمن البرنامج أيضـاً مهرجانات للإنشاد الصوفي[1].

٤- أقيمت في أبوظبي محاضرة بعنوان «التصوف ظاهرة عالمية»، قدمها الباحث المصري حمزة قناوي، وفيها تحدث عن أن التصوف والإبداع كلاهما موهبة ربانية، ولا تعارض بينهما[2]!

٥- أحيت المطربة المغربية عائشة رضوان ليلة من الغناء الصوفي، وذلك في مهرجان أنغام بأبوظبي[3].

٦- في الملتقى الثاني للتراث، والذي نظمته إدارة التراث بدائرة الثقافة والإعلام بالشارقة تحت عنوان «الفنون الشعبية والمعتقدات»، أقيمت محاضرتين؛ الأولى عن الإبداعات الفنية الشعبية بين طقس الزار والحضرة الصوفية، والثانية عن تراث المالد (المولد) في الإمارات[4].

- ٢٠١١م:

١- استضاف نادي تراث الإمارات ضمن فعاليات المهرجان الرمضاني السادس سفيرة الفن الصوفي والحضرة الشفشاونية المغربية أرحوم البقالي، والتي أحيت ضمن فرقتها النسوية (فتيات أعمارهن ما بين ١٦ إلى ٢٣عاما) أمسيتين من الغناء الصوفي والمديح النبوي، وذلك على مسرح أبوظبي بكاسر الأمواج[5].

٢- أقامت وزارة الثقافة والشباب حفلها السنوي لتسليم جائزة البردة، وذلك برعاية وزير الخارجية الشيخ عبدالله بن زايد آل نهيان[6].

٣- نظم المركز الثقافي الإعلامي لسمو الشيخ سلطان بن زايد آل نهيان، ممثل سمو رئيس دولة الإمارات، محاضرة للباحثة المصرية الدكتورة هالة

---

(١) يُنظر: جريدة الاتحاد، في ٨/ ٨/ ٢٠١٠م.
(٢) يُنظر: جريدة الإمارات اليوم، في ٢٠/ ٥/ ٢٠١٠م.
(٣) يُنظر: جريدة الخليج، في ١٦/ ٥/ ٢٠١٠م.
(٤) يُنظر: جريدة الخليج، في ٢١/ ١٠/ ٢٠١٠م.
(٥) يُنظر: جريدة الاتحاد، في ٢٥/ ٨/ ٢٠١١م.
(٦) يُنظر: جريدة الاتحاد، في ١٧/ ٢/ ٢٠١١م.

فوائد بعنوان «كيف نقرأ التصوف مجدداً؟»[1].

٤- أقامت وزارة الثقافة والشباب حفلاً إنشادياً بمناسبة المولد النبوي، وذلك بمسجد الشيخ زايد الكبير بأبوظبي، وحضر الحفل الحبيب علي الجفري[2].

٥- نظمت جامعة زايد بالتعاون مع الهيئة العامة للشؤون الإسلامية والأوقاف ومؤسسة طابة ندوة بعنوان «١٥ قرنا من المحبة والمودة»، وقد شارك فيها العديد من المسؤولين الإماراتيين، وعلى رأسهم وزير التربية والتعليم نهيان بن مبارك آل نهيان، وكذلك العديد من الدبلوماسيين، وبعض الشخصيات الرسمية والدينية؛ من مصر وإندونيسيا، بالإضافة إلى كل من القُمّص إسحق الأنبا بيشوي، راعي الكنيسة القبطية الأورثوذكسيةً في أبوظبي، والحبيب علي الجفري، والذي أكد في كلمته على الحاجة إلى تجديد الخطاب الديني الأصيل من الطرفين وذلك في مواجهة الخطاب المتطرف المتنطع، والذي يحاول -بحسب الجفري- جعل الاختلاف الطبيعي في العقائد مرتكزاً للصراعات في العالم[3]. وقد استعرضت الندوة دور المسيحيين وإسهاماتهم في الحضارة العربية والإسلامية[4].

٦- أقامت دائرة الشؤون الإسلامية والعمل الخيري في دبي حفلاً بمناسبة المولد النبوي[5].

٧- أقامت جمعية الاتحاد النسائية بالشارقة حفلاً نسائياً بمناسبة المولد النبوي.[6].

٨- نظم مركز ناشئة واسط التابع للمجلس الأعلى لشؤون الأسرة بالشارقة حفلاً بمناسبة المولد النبوي[7].

---

(١) يُنظر: جريدة الاتحاد، في ٥/ ٧/ ٢٠١١م.
(٢) يُنظر: جريدة الاتحاد، في ١٥/ ٢/ ٢٠١١م.
(٣) يُنظر: جريدة الاتحاد، في ١٢/ ١/ ٢٠١١م.
(٤) يُنظر: جريدة الخليج، في ١٨/ ١/ ٢٠١١م.
(٥) يُنظر: جريدة الخليج، في ١٥/ ٢/ ٢٠١١م.
(٦) يُنظر: المرجع نفسه.
(٧) يُنظر: جريدة الخليج، في ١٧/ ٢/ ٢٠١١م.

٩- نظمت بلدية إمارة العين بالتعاون مع الهيئة العامة للشؤون الإسلامية والأوقاف ندوتين بمناسبة المولد النبوي[١].

١٠- استضاف مركز وزارة الثقافة والشباب وتنمية المجتمع برأس الخيمة المهرجان الإنشادي العاشر بمناسبة المولد النبوي[٢].

١١- أقام «بيت الشِعر» في الشارقة ندوة وحواراً مفتوحاً بعنوان «الحلاج متصوفاً وشاعراً»[٣].

- ٢٠١٢م:

١- قدّم السيد علي الهاشمي، مستشار رئيس الدولة، والحبيب علي الجفري العزاء في وفاة البابا شنودة، وذلك في كاتدرائية الأنبا انطونيوس للأقباط الأرثوذكس المصريين بأبوظبي[٤].

٢- شارك السيد علي الهاشمي في عيد قُدَّاس القيامة، والذي أقامته الكنيسة القبطية الأرثوذوكسية المصرية بأبوظبي، والتي أشادت في ذلك القُدَّاس بسياسة دولة الإمارات في نشر ثقافة التسامح والتعايش الديني[٥].

٣- شاركت الإمارات بالفرقة الوطنية للفنون الشعبية المتخصصة في المالد (المولد) في «مهرجان سماع» للإنشاد والموسيقى الروحية في دورته الخامسة بالقاهرة[٦].

- ٢٠١٣م:

١- نظمت الهيئة العليا للشؤون الإسلامية والأوقاف احتفالها بذكرى المولد النبوي في كافة فروعها بدولة الإمارات[٧].

٢- أقامت وزارة الثقافة والشباب حفل توزيع جائزة البردة بمناسبة المولد النبوي، وكان ذلك تحت رعاية وزير الخارجية الشيخ عبدالله بن زايد[٨].

---

(١) يُنظر: المرجع نفسه.
(٢) يُنظر: المرجع نفسه.
(٣) يُنظر: جريدة الخليج، في ١٣/ ١/ ٢٠١١م.
(٤) يُنظر: جريدة الاتحاد، في ١٩/ ١٢/ ٢٠١٢م.
(٥) يُنظر: جريدة الاتحاد، في ١٦/ ٤/ ٢٠١٢م.
(٦) يُنظر: جريدة الخليج، في ٢٤/ ٧/ ٢٠١٢م.
(٧) يُنظر: جريدة الاتحاد، في ٢٤/ ١/ ٢٠١٣م.
(٨) يُنظر: جريدة الاتحاد، في ٣١/ ١/ ٢٠١٣م.

٣- أقامت دائرة الشؤون الإسلامية والعمل الخيري في دبي حفلاً بمناسبة المولد النبوي[١].

٤- احتفلت القرية العالمية في دبي بالمولد النبوي، والقرية تظم ٣٧ جناحاً تمثل أكثر من ٦٥ دولة[٢].

٥- شارك الشيخ نهيان بن مبارك آل نهيان وزير الثقافة والشباب، والمستشار السيد علي الهاشمي في عيد قداس القيامة الذي أقيم في الكنيسة القبطية الأرثوذوكسية المصرية بأبوظبي، وأشادت الكنيسة بتمسك دولة الإمارات بمنهج الوسطية والاعتدال والتعايش السلمي[٣].

وبعد، فما مضى إنما هي نماذج لما ظهر من التوجه الجديد في دولة الإمارات نحو تبني وإحياء التصوف، والله أعلم بما خفي من ذلك التوجه وبطن. وبقي هنا أن أشير إلى أمرين مهمين؛ هما:

الأمر الأول: أنَّ المجتمع الإماراتي يُعدُّ في مجمله مجتمعاً سلفياً محافظاً، ومدافعاً للتصوف وأباطيله، ويشير إلى وجود هذه المدافعة المقال الذي كتبه عبدالله الشويخ في جريدة «الإمارات اليوم» عن الحبيب الجفري، ومما جاء فيه قوله: «اليوم تلوح أزمة فكرية كبيرة في الأفق، بطلها هو الحبيب علي الجفري، الداعية المعروف، الذي له الكثير من الأنشطة على الساحة المحلية، ربما كان أبرزها جائزة «البردة»، ومهرجان المحبة، إضافة إلى إدارته مؤسسة طابة العلمية، وعلى الطرف الآخر من الأزمة يقف مخالفو الحبيب (فكرياً)، ومنهم أيضاً بعض الأسماء المعروفة التي لها وزن علمي لا يستهان به،..»[٤].

الأمر الثاني: أن الدعوة السلفية لم تَمُتْ في الإمارات، إذ لا تزال بدعاتها ومناشطها تقاوم السيل الصوفي الهادر، لاسيما وأن بعض الإمارات لا تزال تُراعي -إلى حد ما- سياسة التوازن الديني، وبالتالي لازالت فيها بعض مناشط الدعوة السلفية، كالمحاضرات ونحوها.

---

(١) يُنظر: جريدة الاتحاد، في ٢٤/ ١/ ٢٠١٣م.
(٢) يُنظر: جريدة الاتحاد، في ٢٦/ ١/ ٢٠١٣م.
(٣) يُنظر: جريدة الاتحاد، ، في ٦/ ٥/ ٢٠١٣م.
(٤) جريدة الإمارات اليوم، في ٥/ ٩/ ٢٠١١م، مقال بعنوان (شلون أودعك يالحبيب؟) لعبدالله الشويخ.

ثالثًا: التصوف في الجزائر بعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١م

بالرغم من التاريخ الانهزامي المعروف للطرق الصوفية في الجزائر؛ إذ مالأت الاستعمار الفرنسي، وأصبحت أداة من أدواته، إلا أن تلك الطرق الصوفية تعيش اليوم في ظل الحكومة الجزائرية الحالية أسعد أيامها!

ومن عجيب المفارقات أن الدعوة السلفية في الجزائر والتي تمثلت بشكل كبير في جمعية علماء المسلمين التي أسسها الشيخ عبدالحميد بن باديس -رحمه الله- عام ١٩٣١م، والتي كان لها اليد الطولى في منابذة الاستعمار الفرنسي ومنابذة الطرق الصوفية حليفة ذلك الاستعمار، باتت اليوم تُنابذ ويُضيَّق عليها، ويُراد لها أن تنحسر وتندثر أمام مشروع كبير ترعاه رسمياً الحكومة الجزائرية لإعادة إحياء التصوف!.

إن التوجه نحو إعادة إحياء التصوف في الجزائر أو ما يُسمى هناك بالإسلام «التقليدي» بدأ كما يذكر عبدالحق بوقلقول من ثمانينيات القرن الماضي، وذلك عندما أحسَّت السلطة الحاكمة بتعاظم حضور ونفوذ الحركة الإسلامية، والتي تقوم على التوجه السلفي، وبخاصة بعد أن نالت الجبهة الإسلامية للإنقاذ حق العمل السياسي في عام ١٩٨٩م. وكان من أبرز ثمار ذلك التوجه الحكومي نحو الصوفية في تلك الحقبة تأسيس «الجمعية الوطنية للزوايا» عام ١٩٩٠م. وأما الرئيس الحالي عبدالعزيز بوتفليقة فما أن تولى زمام السلطة في عام ١٩٩٩م إلا وسعى بقوة في تعزيز هذا الاتجاه نحو الصوفية، والذي يرى فيه تعزيزاً لنفوذه السياسي، وإطالة لعهده، وفي سبيل ذلك جرى تسريب إشاعة رسمية مفادها أن الرئيس من المنضوين تحت لواء إحدى الطرق الصوفية. وأصبح الرئيس بوتفليقة لا يترك مناسبة إلا ويزور فيها إحدى الزوايا الصوفية؛ موزعًا عليها مبالغ مالية، وطالبًا من شيوخها الدعاء له بأن يتمكن من استكمال ما بدأه من إصلاحات سياسية[1]، ويقول الكاتب حسين محمد: «استمر تهميش الزوايا

(١) يُنظر: عبدالحق بوقلقول، موقع المسلم، مقال بعنوان «الغرب يشجع التدين الصوفي في العالم الإسلامي..الجزائر نموذجاً»، ١٤٢٧/٨/٢٣هـ رابط المقال:
http://almoslim.net/node/85809

الصوفية إلى غاية انتخاب عبدالعزيز بوتفليقة رئيساً للجزائر في يوم ١٥ إبريل عام ١٩٩٩م (وهو ينتمي إلى الطريقة «الهبرية» في تلمسان)، فقام دون سابق إنذار بإعادة الاعتبار للزوايا، كما ساعد في ترميمها وبعثها إلى الحياة، وتجاهل كل انتقادات السلفيين بشأنها، فبدأت الزوايا تعود إلى نشاطها تدريجياً بعد سبات طويل، وأصبح التلفزيون الجزائري يغطي مختلف نشاطاتها من ندوات وأوراد جماعية و«دروس محمدية» وهي ملتقيات فكرية يحضرها أئمة زوايا من بلدان إسلامية عديدة وتبث نشاطاتها الروحية باستمرار»[١].

وأما بعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١م فقد التأم ذلك التوجه الظاهر من قبل السلطة الجزائرية نحو التصوف مع الاستراتيجية الأمريكية الجديدة القائمة على دعم التصوف ومواجهة السلفية، فزادت الحكومة الجزائرية من خطوات دعم التصوف، والاستماتة في جعله هو الوجه الحقيقي للتدين في الجزائر، وزادت أيضاً من التضييق على الاتجاه السلفي عبر ربطه الدائم بالعنف، والتضييق على مناشطه، وجاء في تقرير بثته وكالة الأنباء العالمية «رويترز» ما يلي: «بعد أن استخدمت غارات الشرطة والاعتقالات وتبادل إطلاق النيران في قتالها ضد المتشددين، تلجأ الجزائر الآن إلى سلاح أكثر دهاء، هو الصوفية المرتبطة بالتأمل وليس القتال، وتروج حكومة الجزائر المنتجة للنفط والغاز للصوفية بديلاً ألطف للسلفية التي يعتنقها الكثير من المتشددين الذين يقفون وراء العمليات المسلحة التي عانت منها الجزائر. وأنشأت السلطات الجزائرية قناة تلفزيونية وأخرى إذاعية للترويج للصوفية فضلاً عن إقامة «الزوايا» التي تقوم بتدريس تعاليمها وتمارسها فضلاً عن الظهور المنتظم لشيوخ صوفيين على قنوات أخرى،..»[٢].

ويضيف التقرير: «ولمنح الزوايا الصوفية دوراً أكثر محورية في المجتمع يجري تشجيعها لترتيب الزيجات والمساعدة في رعاية الأيتام وتحفيظ القرآن وتوزيع الصدقات»[٣]. ويقول الشيخ عبدالله جاب الله: «النظام

---

(١) جريدة الاتحاد الإماراتية، في ١٩/ ٩/ ٢٠١٠م.
(٢) وكالة رويتر العالمية للأنباء، نقلاً عن: جريدة الاتحاد الإماراتية، في ٩/ ٧/ ٢٠٠٩م.
(٣) المرجع نفسه.

الجزائري ينوع في محاربة المشروع الإسلامي والأحزاب الإسلامية على وجه التحديد، ومن أساليبه تشجيع الطرق الصوفية، وتمويلها وتمكين رجالها من المساجد، أما الأئمة الذين يحملون فكراً مختلفاً فقد تم إقصاؤهم من الإمامة في المساجد وفي مقدمتهم أصحاب الانتماءات الحزبية والسياسية»[١].

ويقول شبّوب أبو طالب: «منذ خمس سنوات عاد الاهتمام الرسمي إلى عالم المتصوفة والعمائم، وعادت الجزائر لتسترد ميراثها الصوفي. غير أن هذه الالتفاتة بدأت تغضب الجارة المغرب، حيث أنها طوال عقود مثّلت دور العاصمة الروحية لعشرات من ملتقيات الصوفية، وليس من الوارد أن تتخلى عن لقبها بسهولة»[٢]، ويضيف: «إلاّ أنَّ مفاجأةً حقيقية حلّت على التاريخ الصوفي بوصول الرئيس بوتفليقة إلى الحكم، وهو رجل يعتز بميوله الصوفية، ما جعله يطمح إلى مواءمة المؤسسة الرسمية مع التاريخ الصوفي، ومحاولة استغلال (اللوبيات الصوفية) في العالم الغربي، والتي يُشرف عليها جزائريون في الغالب. هكذا أعيد تجسير العلاقات مع كبرى الطرق الصوفية -الزاوية العلوية- واستعاد رئيسها الشيخ خالد بن تونس الرضا الرسمي، بل جرى الحديث بأن السلطات تحاول توظيف حظوته لدى وزير الداخلية الفرنسي نيكولا ساركوزي من أجل خدمة أهداف الدبلوماسية الجزائرية، بالموازاة مع ذلك فقد نشطت وزارتا الشؤون الدينية والثقافة الجزائرية في مصالحة الصوفيين والتقرب منهم. علاوة على ذلك فقد جرت عشرات الملتقيات لقراءة تاريخ الصوفية والاستفادة منه ما أمكن، كما أعلنت وزارة الثقافة عن تنظيم ملتقى دولي سنوي للاهتمام بعالم الصوفية،..»[٣].

---

(١) الجزيرة نت، في ٢٢/ ٨/ ١٤٣٠هـ- ١٥/ ٨/ ٢٠٠٩م، رابط الخبر:
http://www.aljazeera.net/news/pages/9d084844-ce29-4013-9b47-184f3e3abfa8

(٢) جريدة الشرق الأوسط، العدد ٨٩٤٣، في ٧/ ١٠/ ١٤٢٦هـ- ٩/ ١١/ ٢٠٠٥م.

(٣) المرجع نفسه. وخالد بن تونس، شيخ الطريقة العلوية في الجزائر يعيش في باريس! وله حظوة لدى السياسيين الفرنسيين، وبخاصة الرئيس الفرنسي السابق ساركوزي، وحدثني إيريك جوفروا أثناء زيارتي له في فرنسا بأنه أُستدعي هو وخالد بن تونس من قبل ساركوزي حينما كان وزيراً لداخلية فرنسا، وطلب منها أن يَنظمّا (كممثلَين للصوفية) إلى المجلس الفرنسي للديانة الإسلامية، والذي كان حينها في طور التأسيس تحت رعاية وزير الداخلية ساركوزي.

وفي ذات الاتجاه منعت السلطات الجزائرية الكتب التي تنتقد الصوفية، وحصل ذلك بوضوح في معرض الكتاب في الجزائر لعام ٢٠٠٦م[١]. وفي عام ٢٠٠٩م نظمت الطريقة العلوية وبدعم سخي من الحكومة الجزائرية احتفالات ضخمة على مدى سبعة أيام بمدينة مستغانم بمناسبة مرور مئة سنة على تأسيسها[٢]، وأكدت وزيرة الثقافة الجزائرية «خليدة تومي» لدى افتتاحها فعاليات الاحتفال بمئوية الطريقة الصوفية العلوية أن التراث الصوفي لا يزال قائماً في الجزائر خاصةً والمنطقة المغاربية عموماً، وذكر أيضاً وزير الأوقاف الجزائري «بوعبدالله غلام الله» أن الطرق الصوفية أصبحت مدرسة في التربية الروحية للمجتمع الجزائري ومن واجب الدولة التعريف بهذا الكنز وبإمكاناته اللامتناهية في تربية وتكوين الناشئة[٣]. وفي الأغواط، حيث مقر الطريقة التجانية، أنفقت الحكومة الجزائرية مبالغ ضخمة لبناء فنادق لاستيعاب زوار الطريقة التجانية وأضرحتها[٤].

وأما أبرز الإنجازات التي تحققت في فترة ما بعد ١١ سبتمبر فهي إنشاء «الاتحاد الوطني للزوايا الجزائرية» سنة ٢٠٠٤م، ويُعد هذا الاتحاد أبرز مشروع أعاد للتصوف حضوره السياسي في الجزائر، ويتلقى هذا الاتحاد الدعم المادي والمعنوي العلني من الحكومة، ففي عام ٢٠٠٨م -على سبيل المثال- أشرف وزير التضامن الوطني على مؤتمر الاتحاد الوطني للزوايا، وتعهَّد فيه بالدعم المادي لهذه الزوايا شريطة أن تبقى موحدة الصفوف[٥]. ومن جانبه بات الاتحاد يُعلن صراحة الولاء والدعم للرئيس الجزائري بوتفليقه في كل مرة يُرشِّح نفسه للرئاسة، وفي هذا العام (٢٠١٣م)

---

(١) جريدة الحياة، العدد ١٥٩٢٤ في ١٨/ ١٠/ ١٤٢٧هـ -٩/ ١١/ ٢٠٠٦م.

(٢) يُنظر: قناة الجزيرة الوثائقية، فيلم «الصوفية في الجزائر عبادة وسياسة»، ٢٠١١م، رابط الفيلم: http://www.youtube.com/watch?v=WOEYnh-z_7Y وللمزيد حول تلك الاحتفالات الكبيرة يُنظر: موقع جمعية الشيخ العلاوي لإحياء التراث الصوفي بالمغرب، الرابط: http://assoalawimaroc.com

(٣) يُنظر: جريدة إيلاف الإليكترونية، في ٣١/ ١/ ٢٠٠٩م، رابط الخبر: http://www.elaph.com/Web/Culture/2009/1/404981.htm

(٤) يُنظر: قناة الجزيرة الوثائقية، فليم« الصوفية في الجزائر»، مرجع سابق.

(٥) جريدة الشروق أون لاين الجزائرية، في ١١/ ٥/ ٢٠٠٨م،رابط الخبر: http://www.echoroukonline.com/ara/?news=3566

أعلن الاتحاد دعمه للرئيس بوتفليقة إذا ترشح لولاية رابعة![1]

وبعد، فمن خلال ما مضى يتبين أن الحكومة الجزائرية الحالية تتبنى صراحة دعم وإحياء التصوف، في مقابل التضييق العلني والصريح على الدعوة السلفية، وبهذا تكون قد انتظمت مع الاستراتيجية الأمريكية الجديدة التي تتبنى دعم الصوفية، ومحاربة السلفية.

رابعًا: التصوف في المغرب بعد ١١ سبتمبر

كانت الصوفية في المغرب تُعد في نظر الحكومة أحد مكونات النسيج الديني في المغرب، وكان التعامل معها ومع غيرها من الاتجاهات الدينية يقوم على سياسة التوازنات ومسك العصا من الوسط. هكذا كانت الحال حتى ١١ سبتمبر، وأما ما بعده فلم تكن المغرب بمعزل عما يراد للصوفية أن تكون في العالم الإسلامي، فبادرت الحكومة المغربية باتخاذ خطوات صريحة وواضحة في هذا الجانب. وكانت أول خطوة في هذا الجانب في عام ٢٠٠٢م حينما تم تعيين أحمد التوفيق -وهو أحد أتباع الطريقة البودشيشية- وزيراً للأوقاف، وذلك خلفاً لعبد الكبير العلوي المعروف بتعاطفه مع التيارات الإسلامية في المغرب، والذي قضى في المنصب ١٨ عاماً. وقد كانت تفجيرات الدار البيضاء في ١٦ مايو ٢٠٠٣م بمثابة المعزز القوي لتلك السياسة الجديدة نحو الصوفية، والتي سبق وأن بدأتها حكومة المغرب قبل هذا التاريخ. يقول الدكتور الطيب بوعزة: «تؤكد مجمل المعطيات المتعلقة بالحركية الصوفية أن السياسة الدينية في المغرب بعد أحداث ١٦ مايو اتجهت إلى أن يقوم الفاعل الصوفي بدور البديل للتوجهات السلفية من جهة، وأن يضطلع بنشر نموذج للتدين غير «المسيس»، وهو ما يعني أن يتقوى دوره داخل الحقل الديني على حساب الحضور الفاعل للحركة الإسلامية»[2].

---

(١) المرجع نفسه، في ٥/ ١٢/ ٢٠١٣م، رابط الخبر:
www.echoroukonline.com/ara/articles/187250.html

(٢) الجزيرة نت، مقال «الحالة الدينية في المغرب» للطيب بو عزة، في ٨/ ١١/ ١٤٣٠هـ- ٢٨/ ١٠/ ٢٠٠٩م، الرابط:
http://www.aljazeera.net/books/pages/5d48805f-0ed3-40df-a3cc-d7bda8440ea3

ويرى الدكتور رشيد مقتدر -الخبير في شؤون الحركات الإسلامية بالمغرب- «أن دعم الصوفية بالبلاد]المغرب[هي استراتيجية مخصصة أساساً لمحاربة التيارات الجهادية الداعية للعنف والتيارات الإسلامية المتشددة، مشيراً إلى أنها خطة-وإن كانت تُجسد استراتيجية داخلية- فإنها تنسجم مع استراتيجية الولايات المتحدة الأمريكية بعد تفجيرات الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م»[١].

ويضيف أيضاً بأن «أمريكا نهجت-علاوة عن المواجهات العسكرية- خطة سياسية ترتكز على البُعد الصوفي لمواجهة تنظيم القاعدة وفروعه في العالم الإسلامي، وهو ما طُبق من لدن العديد من البلدان العربية والإسلامية»[٢].

ويؤكد أيضاً الدكتور المغربي عباس بوغانم-الخبير في الشؤون الإسلامية والباحث في التصوف- «أن الدولة ترعى بشكل واضح الطرق والزوايا الصوفية»[٣]، ويضيف بأن «الدعم الرسمي للإسلام «الطُرقي» يرمي إلى تكريس التصوف سلوكاً تربوياً لدى المغاربة بغية مواجهة التيارات السلفية التقليدية والجهادية، باعتبار أن أتباع ومريدي الطرق الصوفية عادة لا يأبهون للسياسة وللشأن العام، حيث يفضلون الانغماس في طقوسهم وشعائرهم»[٤].

وأما عن مظاهر دعم السلطات المغربية للتصوف، فيرى الدكتور مقتدر بأن تعيين أحمد التوفيق وزيراً للأوقاف والشؤون الإسلامية هو أول تلك المظاهر، وهو الأمر الذي أدى إلى اتساع قاعدة مريدي الطريقة البودشيشية، التي ينتمي إليها أحمد التوفيق، ومن المظاهر أيضاً المِنَح السنوية التي تُقدمها الدولة عبر وزارة الأوقاف إلى الزوايا في المغرب، وأيضاً تنظيم لقاء «سيدي شيكر» المخصص لجميع الزوايا والصوفيين

---

(١) العربية نت، في ١٦/ ١١/ ١٤٣١هـ-٢٥/ ٩/ ٢٠١٠م، رابط الخبر:
www.alarabiya.net/articles/2010/09/25/120262.html

(٢) المرجع نفسه.

(٣) المرجع نفسه.

(٤) المرجع نفسه.

بالمغرب، والذي يُراد له أيضاً أن يكون عالمياً[1].

وفي ذات السياق يرى الدكتور بوغانم أن مظاهر دعم الدولة للتصوف ترقى إلى أعلى المستويات، ومنها: تنظيم الندوات الوطنية والدولية تحت رعاية الملك، وتنظيم مهرجانات غنائية تتضمن السماع الصوفي، أو مهرجان «الموسيقى الروحية»، الذي يُنظم في فاس كل سنة، وتبرز الرعاية الرسمية أيضاً من خلال الترويج الإعلامي الهائل للزوايا والطرق الصوفية، عبر تخصيص برامج إعلامية وتلفزيونية تبثها القنوات المغربية، تتضمن التعريف بالزوايا وبرموزها وشيوخها وذكر تاريخها ومريديها[2]، ويضيف أيضاً الدكتور بوغانم من تلك المظاهر الرسمية الهبات الملكية الخاصة العلنية لبعض الزوايا الصوفية، وأيضاً تجديد المراسيم القانونية الخاصة بمنح التوقير والاحترام للمتسبين إلى مؤسسات الزوايا، وتسليم الدولة قرارات التعيين لشيوخ الطرق الصوفية، علاوة على تدشين الإصلاحات في العديد من الأضرحة من أجل الإبقاء عليها وتطوير أنشطتها[3].

هذا، ويمكن أن نلمس الإحياء الرسمي المغربي للتصوف بعد ١١ سبتمبر في أربعة أمور رئيسية، وهي:

الأول: تعيين أحمد التوفيق عام ٢٠٠٢م وزيراً للأوقاف والشؤون الإسلامية، وبعد تعيينه، أُعيدت في عام ٢٠٠٣م هيكلة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، واستُحدث فيها مديريتين؛ واحدة للتعليم العتيق، والأخرى مختصة بالمساجد[4].

الثاني: إعلان ملك المغرب عام ٢٠٠٤م عن «خطة الإصلاح الديني»، والتي هي عبارة عن استراتيجية وصفها وزير الأوقاف بأنها تجديد للحقل الديني؛ وذلك بإنشاء مجالس علمية، وهيئة علمية للإفتاء، بالإضافة إلى

---

(١) يُنظر: المرجع نفسه.

(٢) يُنظر: المرجع نفسه.

(٣) يُنظر: إسلام أون لاين، في ٢٠/ ٣/ ٢٠١٢، رابط الخبر:

http://islamonline.net/reports/1515

(٤) الجزيرة نت، في ٥/ ٧/ ١٤٢٧هـ- ٥/ ٥/ ٢٠٠٦م، رابط الخبر:

http://www.aljazeera.net/news/pages/c11559d2-98bd-4e12-82a9-5ac90461ee6e في ٢٢/ ٢/ ١٤٢٣٥هـ

إدماج النساء في هذه التجربة، حيث دعا الملك إلى إنتاج خطاب ديني يستوعب واقع الحياة المعاصرة ويُحصّن الشباب من فقدان المرجعيات واستغلال الدخلاء والمتطرفين[1].

الثالث: إعلان ملك المغرب عام ٢٠٠٨م عن الفصل الثاني من «خطة الإصلاح الديني»، والتي شملت مضاعفة المجالس العلمية من ٣٠ إلى ٦٩ مجلساً علمياً، وإنشاء برنامج لتكوين العلماء والوعاظ والمرشدين والمرشدات، بالإضافة إلى تشكيل مجلس علمي أعلى للجاليات المغربية المقيمة بالخارج. وقد وصف وزير الأوقاف هذه الخطة بأنها تراعي الخصوصية المغربية[2].

الرابع: رعاية الدولة رسمياً، ممثلة في الملك، لملتقى «سيدي شيكر» للطرق والزوايا الصوفية، والذي بدأ انطلاقته منذ عام ٢٠٠٤م، والذي يراد له أن يكون عالمياً وسنوياً. وقد خصصت وزارة الأوقاف ميزانية كبيرة لإعادة ترميم قبر ومسجد «سيدي شيكر» أو «رباط شاكر»، بالإضافة إلى توجهها نحو تحويل «سيدي شيكر» إلى قرية صوفية، عبر الإعمار والزراعة والتنقيب عن آثاره، وذلك بعد أن تم تصنيفه ضمن دائرة الآثار المغربية[3].

هذه الأمور الأربعة الرئيسية وما دونها مما لا حصر له من مؤتمرات وملتقيات ومناشط تعليمية ودعوية ومواقع إنترنت..الخ؛ كلها تندرج تحت «خطة الإصلاح الديني»، والتي تقوم-كما أشار وزير الأوقاف- على مراعاة الخصوصية المغربية[4]، وهذه الخصوصية المغربية كما يقول الباحث عبد الحكيم أبو اللوز: محتواها العقيدة الأشعرية والمذهب المالكي والتصوف السني[5][6].

---

(١) يُنظر: جريدة الشرق الأوسط، العدد ٩٢٩٨، في ٢٣/ ٣/ ١٤٢٥هـ- ١٣/ ٤/ ٢٠٠٤م، والجزيرة نت، في ١٥/ ١٠/ ١٤٢٩هـ- ١٦/ ١٠/ ٢٠٠٨م، رابط الخبر:
www.aljazeera.net/news/pages/651aeea5-e6bc-4354-954e-c1315885cd46

(٢) يُنظر: المرجع نفسه (الجزيرة نت)، وجريدة الشرق الأوسط، العدد ١٠٨٩٨، في ٢٨/ ٩/ ١٤٢٩هـ- ٢٩/ ٩/ ٢٠٠٨م.

(٣) يُنظر: جريدة الشرق الأوسط، العدد ١٢١٧٣، في ٤/ ٥/ ١٤٣٣هـ- ٢٧/ ٣/ ٢٠١٢م.

(٤) يُنظر: الجزيرة نت، في ١٥/ ١٠/ ١٤٢٩هـ- ١٦/ ١٠/ ٢٠٠٨م، مرجع سابق.

(٥) يُنظر: مجلة إنسانيات، العدد ٣١، لعام ٢٠٠٦، الجزائر، بحث بعنوان «التوجهات الجديدة للسياسة الدينية في المغرب» لعبدالحكيم أبو اللوز، ص٣١-٤٣

(٦) تجدر الإشارة هنا إلى أن السادة علماء المالكية المتابعين للإمام مالك بريئون من العقيدة

وقد أشار الباحث إلى انه وبالرغم من هذه السياسة الجديدة في المغرب إلا أن العديد من الحركات الدينية ذات المذهبية المختلفة عن التوجهات الرسمية تمكنت من البروز من جديد، ومن أبرزها الحركات السلفية التي تعمل تحت ستار التنظيمات الجمعوية، وبالتالي استطاعت أن تعيد بناء شرعيتها داخل المجتمع الديني[1]. وهذا بالفعل ما وقفت عليه أثناء زيارتي للعديد من المدن المغربية عام ١٤٣٤هـ ولقائي كذلك بالعديد من المشايخ والدعاة السلفيين، فبالرغم من العقبات التنظيمية الجديدة التي حملتها «خطة الإصلاح الديني»، إلا أنهم ذلّلوا بعضها، واستفادوا منها بشكل قانوني[2].

هذا، ويقول الدكتور عبد الغني منديب في كتابه عن الدين والمجتمع في المغرب: «يُعد الاعتقاد في القدرات الخارقة للأولياء والتعلق بأضرحتهم أحد أبرز هذه الأشكال الدينية التي حظيت وتحظى بدعم أجهزة الدولة الرسمية لضمان استمراريتها والمحافظة على إشعاعها. ويمكننا التمييز بين ثلاثة أوجه لهذا الدعم نجملها فيما يلي: السماح بالوجود، تقديم المساعدات المالية، والاعتراف بشرعية الوجود»[3].

ثم شرع مفصلاً القول في هذه الأوجه الثلاثة للدعم. ومما قاله تحت «السماح بالوجود»: «يعتبر وجود هذه المنشآت الدينية والمعتقدات

الأشعرية، بل هم على ما كان عليه الإمام مالك -رحمه الله- من التزام عقيدة أهل السنة والجماعة، وهم كذلك من المحاربين لبدع التصوف ومنكراته. وللاطلاع على جهودهم، يُنظر: إبراهيم التهامي، جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة، مرجع سابق. ومصطفى باحو، علماء المغرب ومقاومتهم للبدع والتصوف والقبورية والمواسم، نشر جريدة السبيل-المغرب، ط١، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م. وأحمد ولد محمد ذي النورين، حماية علماء المالكية لجناب التوحيد، نشر مجلة البيان-الرياض، ط١، ١٤٣٤هـ.

(١) يُنظر: المرجع نفسه، (مجلة إنسانيات).

(٢) التقيت في تلك الرحلة العلمية بالعديد من المشايخ والدعاة ومنهم: حماد القباج في مراكش، وإبراهيم الطالب ومحمد وزّاضي، في الرباط وسلا، والشيخ محمد بوخبزة وطارق حمودي وعادل خيزرون وحامد الإدريسي في تطوان، والشيخ عبدالحميد عقرا في الدار البيضاء، وغيرهم، ولم يتسن اللقاء بالشيخ محمد المغراوي، والذي يُعد من رؤوس الدعوة السلفية في المغرب.

(٣) عبدالغني منديب، الدين والمجتمع: دراسة سوسيولوجية للتدين بالمغرب، دار أفريقيا الشرق-المغرب، ط١، ٢٠٠٦م، ص١٩١-١٩٢

والممارسات المرتبطة بها من منظور كل الجماعات الدينية الإصلاحية قديمها وحديثها (سلفية، تبليغية، عدلية ...) بدعة تمس جوهر العقيدة وتجانب الإسلام الصحيح. وبالرغم من هذا الاحتجاج «الأصولي» الذي يشكك في شرعية كافة التقاليد الدينية المحلية، فإن السلطات الرسمية تسمح لهذه المؤسسات الدينية بالبقاء وممارسة أنشطتها، في الوقت الذي تضيق فيه الخناق على بعض أنشطة الجماعات الإسلاموية. ويعتبر عدم تعرض الأضرحة للإقفال ومنع الأنشطة المرتبطة بها، أول مؤشر على دعم الدولة لهذه المؤسسات ولشبكة المعتقدات الدينية التي تعيش في كنفها»[1].

ومما ذكر تحت «العون المادي الملموس» قوله: «تخضع الأضرحة لوصاية وزارة الأوقاف باعتبارها منشآت دينية، وبناء على هذا الأساس فإنها ملزمة بتقديم المساعدات المالية لها. بيد أن هذه الوزارة تخص هذه المنشآت الدينية بامتيازات أخرى: فإذا كانت الوزارة في تسييرها للأحباس الموقوفة على بعض المساجد التابعة لها تُحوّل الفائض من مداخيلها إلى ميزانيتها، فإنها تكتفي في وصايتها على الأضرحة بإشراف عام لا يمنحها أي نصيب من مداخيل الضريح المالية، بينما تُلزم نفسها بضرورة التدخل لسد أي عجز مالي ممكن لتسييرها، كما تسارع لتقديم المنح المالية التي تهدف لتوسيع بناياتها أو صيانتها أو الرفع من مستوى تجهيزاتها،..»[2].

ومما ذكر تحت «الاعتراف بشرعية الوجود» قوله: «إن أقصى درجات هذا الدعم وأوضحها في الوقت نفسه هي تلك المتعلقة بتنظيم المواسم؛ التي يستقطب البعض منها عشرات الآلاف من الزوار الوافدين عليها من مختلف مناطق المغرب، بفضل الدعاية القوية التي تقام لها من قبل أجهزة الإعلام الرسمية. إذ أصبح لهذه التجمعات السنوية التي تقام حول أضرحة الأولياء الكبار مظهراً شبه رسمي، حيث يزورها وزراء وموظفون سامون. فقد تردد على موسم مولاي عبدالله أمغار، أكبر أضرحة منطقة

(١) المرجع نفسه، ص١٩٢
(٢) المرجع نفسه، ص١٩٣

دكالة على الإطلاق، بين سنة ٢٠٠٠م وسنة ٢٠٠٥م شخصيات سامية، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر مستشار جلالة الملك، واللواء قائد الدرك الملكي، ووزير الأوقاف والشؤون الإسلامية وعامل الإقليم،... وتعرض القناتان التَلفزَيتان الوطنيتان كل سنة صوراً من الحفلات التي يُقدم فيها مستشار عاهل البلاد أو وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية الهبات الملكية النقدية السخية للشرفاء الأمغاريين؛ وصوراً من حفلات الافتتاح التي يُقدم خلالها عامل الإقليم القربان الحيواني (ثور) والهبة المالية السنويتين لورثة الولي دفين الضريح. وقد انتقلت هذه السياسة الدينية المتجددة المعتمدة على دعم وتقوية الأضرحة وشبكة المعتقدات المرتبطة بها في مجموع البلاد؛ في المدن الكبرى كما في البوادي، من مجرد السماح بالوجود إلى الاعتراف الكامل بشرعية الوجود والعمل على تشجيع استمراريته»[1].

وبعد، فمن خلال ما مضى في هذا المبحث نستنتج أننا أمام صوفية اختارتها أمريكا لتكون حليفاً لها في العالم الإسلامي، وشريكاً معها في حربها ضد الإرهاب الذي بات -بزعمهم- يعني السلفية. وما مضى عرضه في هذا المبحث يؤكد ما حظيت به الصوفية من دعم وإحياء من قبل الولايات المتحدة، سواء أكان ذلك بشكل رسمي مباشر، أو بشكل غير مباشر، عبر انعكاس تلك الاستراتيجية في دول العالم الإسلامي، والتي وجدت بعض حكوماتها أن تلك الاستراتيجية الأمريكية تزيدها قوة ونفوذاً، والبعض الآخر منها لم يجد بداً من مسايرة تلك الرغبة الأمريكية، المربوطة بأمنها القومي!.

ومن جهة ثانية تبين من خلال ما مضى أننا أمام إقرار صوفي بحقيقة وجدية الاختيار الأمريكي للصوفية. ولكنهم إلى جانب الإقرار -كما بيّنت آنفاً- يُقللون من شأن ذلك الاختيار؛ لأن الصوفية -بزعمهم- صاحبة تاريخ مقاوم للاستعمار والهيمنة الغربية!! وهذا الزعم لا يشهد له الماضي الصوفي ولا الحاضر؛ فأما الماضي فقد بيَّنت في الفصل الثاني كيف أن

(١) المرجع نفسه، ص١٩٤

الصوفية قديماً مالأت العلمانية، منذ أن بدأت تتسرب إلى جسد العالم الإسلامي، وبيَّنت أيضاً ضعف الولاء والبراء عند الصوفية؛ كنتيجة حتمية لوحدة الوجود، وغيرها من معتقداتهم التي هي باطن تصوفهم، وبينّت أيضاً بعدهم عن الجهاد في سبيل الله، وانحرافهم في مفهوم القدر، والتوكل على الله، ومجموع هذا جعلهم أداة في يد الاستعمار الغربي الأوروبي! هذا هو حقيقة ماضيهم القريب، والذي يتفاخرون اليوم -زوراً- بضده! وأما حاضرهم، فلم يؤثر عنهم وقفةً حقيقية ضد الهيمنة الغربية المعاصرة، وبخاصة فيما بعد ١١ سبتمبر، بل الواقع يشهد بما لا يدع مجالاً للشك بأنهم يعيشون بعد ذلك التاريخ فترة ذهبية من الانتشار والتمدد والظهور، على عكس غيرهم ممن طالتهم يد الاتهام والتضييق الغربية. وبخلاف ما مضى من أمثلة ذلك الانتشار والظهور، فسوف يتضح أيضاً في المباحث التالية جوانب أخرى من واقع الصوفية الجديد، والذي ساعدت الاستراتيجية الأمريكية الجديدة على دعمه وتغييره وإبرازه.

هذا، وكما أكدت في بداية هذه الرسالة العلمية على أن الصوفية (المتصوفة) ليسوا سواء، فالعدل هنا يقتضي القول بأنهم تجاه هذه الاستراتيجية الأمريكية نحو التصوف ليسوا سواءً أيضاً؛ فمن المتصوفة -كما بان في هذا المبحث والذي قبله- من بات جندياً منفذاً لهذه الاستراتيجية، وناصحاً أميناً لأمريكا، ومنهم من لم يُدركها ولا يعرف عنها شيئاً، ولكنه ممن يعيش نعيمها وتسهيلاتها، وما بين هذا وذاك منازل وحالات.

المبحث الثاني

الدعم الإعلامي للصوفية

لقد بات من المسلَّم به في زماننا هذا بأن الإعلام -بكافة أشكاله- هو ركيزة أي مشروع أياً كان نوعه ومجاله. ولقد أدرك الغرب هذه الأهمية للإعلام منذ وقت مبكر، لاسيما وأنه منبع التطور الفني والتقني في مجال الإعلام الحديث، فبات يملك إمكانات إعلامية ضخمة، والتي يعُبّر عنها في بعض الحالات بـ«الإمبراطوريات الإعلامية». وفي العقد الأخير من القرن العشرين المنصرم والعقد الأول من القرن الذي يليه تقدم الإعلام في العالم الإسلامي بشكل كبير وملحوظ، ولا يعني هذا التقدم الإعلامي بالضرورة أنَّ ثمة نهضة في الثقافة والقيم الإسلامية! لاسيما وأن الواقع الإعلامي في العالم الإسلامي يسير -بشكل عام- عكس تلك النهضة المأمولة، كما هو مشاهد ومعلوم!

وبين أيدينا في هذا المبحث مشروعاً توافقت عليه إرادات عدة، ألا هو مشروع إعادة إحياء التصوف، فقد تواطأت فيه الرغبة الأمريكية الصريحة، مع الرغبات الصريحة من قبل العديد من الحكومات في العالم الإسلامي، بالإضافة إلى الرضا (الصريح أو الضمني) من قبل الـمُستهدفين بهذا المشروع، وهم المتصوفة. وقد ضربت أمثلة عديدة فيما مضى على مواقف هذه الجهات الثلاث.

ومن هنا فقد حظي مشروع الإحياء هذا بقوة إعلامية كبيرة لا تُخطئها العين، فمنذ أن تبنَّت أمريكا هذا المشروع وذلك بُعيد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، وتوافق معها في ذلك العديد من الحكومات في العالم الإسلامي، والحضور الإعلامي للتصوف يُسجِّل تصاعداً كبيراً، عاماً بعد عام. حتى إنه ليتعذر الإلمام بكل المشاريع الإعلامية الداعمة للتصوف، والتي لم تعد قاصرة على الإعلام في العالم الإسلامي، بل حتى في الإعلام العالمي. ولذلك سأقتصر في هذا المبحث على أبرز ملاح الإحياء الصوفي في الإعلام العربي، وتحديداً في أربعة مجالات إعلامية؛ وهي -بحسب قوة الانتشار والتأثير-: القنوات الفضائية، وشبكة الإنترنت، والصحافة، والإذاعة.

وتفصيل الإحياء الصوفي في هذه المجالات الإعلامية الأربعة على النحو الآتي:

أولاً: الإحياء الصوفي في القنوات الفضائية

إن أبرز ما يميز مشروع إحياء الصوفية بعد ١١ سبتمبر هو حضورها البارز في القنوات الفضائية، وذلك إما عبر قنوات فضائية صوفية خاصة، أو عبر الحضور الملفت لرموز الصوفية، ولمناشطها عبر القنوات الفضائية المتنوعة؛ وتفصيل هذا الأمر -بحسب تنوع القنوات- على النحو الآتي:

١ - القنوات الفضائية الصوفية:

لقد باتت القنوات الفضائية الصوفية أبرز ما يميز الحراك الصوفي الجديد، وما ذاك إلا للمكانة التي تبوأها الإعلام المرئي في عالم التأثير والتوجيه، وعلى الرغم من أنها لم تبدأ فعلياً إلا منذ عام ٢٠٠٨م، إلا أنها باتت علامة مميزة للحراك الصوفي الجديد.

لقد كان عام ٢٠٠٨م هو عام الانطلاقة الصوفية في عالم القنوات الفضائية؛ ففيه انطلقت «قناة الدعوة»، كأول قناة فضائية صوفية، حيث أطلقتها من دمشق جماعة زيد الصوفية[١]، ووافق ذلك فترة ذهبية كانت تعيشها تلك الجماعة، وذلك عقب زيارة الرئيس السوري بشار الأسد (على غير عادة الحكم السوري) لشيخها أسامة الرفاعي عام ٢٠٠٢م، الأمر الذي أعطاها ثقة واطمئناناً وعزز فيما بعد من أنشطتها وبرامجها[٢]،

---

(١) جماعة زيد هي حركة صوفية، أسسها في دمشق الشيخ عبدالكريم الرفاعي منذ منتصف القرن العشرين الماضي، وذلك انطلاقاً من مسجد زيد بن ثابت الذي كان إمامه الرفاعي، واستمرت بقيادة ابنه أسامة بعد أن توفي والده عام ١٩٧٣م. وكان من تبعات صدام النظام مع الإخوان المسلمين في الثمانينيات أن حوربت الجماعة وعُطِّلت نشاطاتها، واعتقل العديد من أتباعها، وغادر شيخها أسامة الرفاعي سوريا. وفي منتصف التسعينيات أراد حافظ الأسد التخفيف من احتقان التيار الإسلامي وكسب تأييدهم، وكان من نتاج ذلك أن عاد الشيخ أسامة إلى سوريا، وعادت الجماعة إلى سابق عهدها وأنشطتها، وازدهرت بعد زيارة بشار الأسد لشيخها عام ٢٠٠٢م. يُنظر: محمد أبو رمان، الإسلاميون والدين والثورة في سورية، ص٣٩-٤٠. ويُنظر: موقع جماعة زيد المسمى «صدى زيد»، رابط الموقع: http://www.sadazaid.com/

(٢) بعد اندلاع الثورة السورية عام ٢٠١١م حدث تحول نوعي في مسار الجماعة وذلك حينما رفض شيوخها انتقاد الاحتجاجات، بل على العكس من ذلك وجهوا انتقاداتهم للنظام السوري، وانتقدوا أساليب النظام في قمع وتعذيب المحتجين، مما أدى إلى اقتحام الأمن

ومنها إطلاق هذه القناة، والتي لم تدم طويلاً إذ توقف بثها عام ٢٠٠٩م لأسباب غير معلومة.

وفي عام ٢٠٠٨م وأثناء انعقاد مؤتمر «دور الصوفية في مواجهة التحديات العصرية» في جامعة الأزهر بالقاهرة أعلن شيخ الطريقة العزمية محمد علاء أبو العزايم أنه سيتم إطلاق قناة للصوفية في يناير ٢٠٠٩م، وذكر أنه سبق له أن اقترح فكرة القناة على المجلس الأعلى للطرق الصوفية قبل عامين ووافق على الفكرة بالإجماع[١]. ولكن أمر هذه القناة التي أعلن عنها أبو العزايم لم يتم، ولذلك أعاد أبو العزايم في ٢٠١٠م إعلان أن الطريقة العزمية تعتزم إطلاق قناة فضائية صوفية، وذلك لمواجهة ما وصفه بالمد السلفي والوهابي، وأن شخصيات سعودية غير رسمية عرضوا عليه المساهمة في تمويل القناة[٢]!

ولكن يبدو أن هذا الأمر لم يتم أيضاً، ثم في عام ٢٠١١م وأثناء زيارة وفد صوفي لإيران، يضم أحد عشر شيخاً من مشايخ الطرق الصوفية بمصر، طالب أبو العزايم (رئيس الوفد) أيرانَ بمساعدة الصوفية في إنشاء قناة فضائية صوفية! حيث قال: «إن الوهابية لديها ١٥ قناة فضائية تهدف لمحاربة حب آل البيت والبعد عنهم، ولذلك نطالب إيران بمساعدة الصوفية في إنشاء قناة فضائية صوفية معتدلة تجمع المسلمين وتقرب بين المذاهب ويتحدث فيها علماء السنة والشيعة»[٣]، وأجابه آية الله الطبطبائي،

=لمسجد زيد والاعتداء على المصلين وعلى شيخ الجماعة أسامة الرفاعي، وانتهى الأمر بإغلاق مسجد زيد وخروج شيخها الرفاعي من سوريا إلى تركيا، ومن هناك واصل صُحْبة أخيه الشيخ سارية الرفاعي أنشطة الجماعة، وذلك ضمن إطار المعارضة السورية للنظام، وأسَّسا رسمياً في تركيا مؤسسة زيد بن ثابت الأهلية. ينظر: المرجعين السابقين، بالإضافة إلى موقع مؤسسة زيد بن ثابت الأهلية على الرابط: http://www.zaidorg.net

(١) يُنظر: جريدة عكاظ، العدد٢٥٥٩، في ١٤/ ٦/ ١٤٢٩هـ-١٩/ ٦/ ٢٠٠٨م. ومجلة الصوفية، العدد ٩، رجب ١٤٢٩هـ- يوليو ٢٠٠٩م، مقال بعنوان «الفضائية الصوفية..لماذا؟ وإلى أين؟».

(٢) يُنظر: جريدة المصريون الإليكترونية، في ٢٣/ ٤/ ٢٠١٠م، رابط الخبر:
http://almesryoon.com/news.aspx?id=28574
وجريدة الشرق الأوسط، العدد ١١٤٧٢، في ١٢/ ٥/ ١٤٣١هـ-٢٦/ ٤/ ٢٠١٠م.

(٣) موقع إسلام أون لاين، في ٢٠/ ١١/ ٢٠١١م، رابط الخبر:
http://islamonline.net/reports/333

مستشار خامنئي، بأن إيران على استعداد لتقديم المساعدة في هذا الأمر ولكن بعد استقرار الوضع في مصر"[1][2].

وقد شهد عام ٢٠٠٩م إطلاق قناتين فضائيتين صوفيتين، وهما «قناة صوفية» و«قناة الصوفية»، وكانت الأولى مخصصة للدروس العلمية، والثانية للإنشاد الصوفي، وقد أطلقهما شيخ الطريقية الخطيبية الرواسية الرفاعية في الأردن ناصر الدين الخطيب (ت١٤٣٣هـ)، وقد توقفت الأولى عن البث، ولا زالت الثانية (الإنشادية) مستمرة إلى اليوم.

ثم توالى إطلاق القنوات الفضائية الصوفية، مثل «قناة المدح»، و«قناة المديح»، و«قناة مدني» (باللغة الأوردية وتتبع للطريقة البريلوية)، وغيرها.

وأما «قناة الإرث النبوي» فهي أبرز القنوات الصوفية، حتى الآن، على الرغم من حداثتها، إذ تم إطلاقها في عام ١٤٣٤ه-٢٠١٣م، وذلك في حفل كبير بالقاهرة بحضور مفتي مصر السابق الشيخ علي جمعة[3]. وهي تهتم بالمناشط العلمية للصوفية، وقد أسسها الداعية الصوفي محمد السقاف، وتظم في مجلسها الاستشاري الشيخ عبدالله بن بيه، ومفتي مصر السابق الدكتور علي جمعة، والحبيب عمر بن حفيظ وغيرهم. وقد كُتب في تعريف القناة على موقعها الإليكتروني: «الوسيلة الإعلامية الأولى لخدمة أهل السنة والجماعة، والخيار الأفضل للراغبين في تلقي الإرث النبوي»[4].

وبعد، فثمة ميزة تجمع هذه القنوات المذكورة آنفاً، وهي أنها تشترك في استهداف أكبر شريحة من المتابعين في العالم الإسلامي وخارجه، وليست ذات بعدٍ محلي كما هو الحال في القنوات التي سيأتي ذكرها في الفقرة التالية.

---

(١) يُنظر: المرجع نفسه.

(٢) الذي يظهر هنا أن أحد أبرز أسباب عدم تحقق أمنية أبو العزايم بإنشاء قناة صوفية هو بُعده عن التقية التي يتلبس بها الكثير من المتصوفة، وتبنيه علناً للموقف الصوفي الحقيقي من السلفية، الأمر الذي قد لا يُحبذه الكثيرون، مما قلل من فرصة حصوله على دعم للقناة.

(٣) يُنظر خبر الافتتاح في جريدة اليوم السابع، في ١٢/ ٢/ ٢٠١٣م، وقد جاء الخبر تحت عنوان «إطلاق قناة الإرث النبوي لمواجهة التشدد بمشاركة المفتي»، رابط الخبر:
http://www2.youm7.com/News.asp?NewsID=940005#.UsZrPvRdUnQ

(٤) يُنظر: موقع قناة الإرث النبوي، الرابط: *http://www.alerth.com/*

٢- القنوات الصوفية المحلية (الحكومية):

مضى في المبحث السابق الحديث عن الرعاية الرسمية التي أولتها كل من حكومتي الجزائر والمغرب للتصوف، وتجلت صورة تلك الرعاية في المغرب فيما عُرف بخطة الإصلاح الديني أو إعادة هيكلة الحقل الديني، والتي كان من ثمارها إطلاق قناة محمد السادس للقرآن الكريم (القناة السادسة)، بإشراف وتمويل وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، وذلك عام ٢٠٠٥م، وتبث برامجها باللغة العربية، والفرنسية، واللهجات المحلية (تامزيغت- تاشلحيث- تاريفيت)[١]. وفي عام ٢٠٠٦م شرعت وزارة الأوقاف في تركيب شاشات تلفزيونية مزودة بأجهزة استقبال في المساجد، وذلك لنقل برامج القناة السادسة إلى داخل المساجد[٢].

وأما في الجزائر فقد أطلقت الحكومة عام ٢٠٠٩م «قناة القرآن الكريم (٥)»، وذلك -كما بيَّنت آنفًا- في إطار توجهها البارز نحو تشجيع التصوف، ومحاربة المنهج السلفي[٣]، ونقل «موقع مغاربية»[٤] عن وزير الشؤون الدينية والأوقاف الجزائري بوعبدالله غلام الله قوله: «إن مهمة القناة تكمن في الحفاظ على المرجعية الدينية للدولة، والمتمثلة في المذهب المالكي، والتي أضحت مهددة نتيجة انتشار الفكر السلفي»[٥].

وأما في تونس فكانت هناك تجربة شبه حكومية عام ٢٠٠٨م، إذ أُطلقت في ذلك العام «قناة حنبعل الفردوس» الدينية، وذلك ضمن قنوات حنبعل

---

(١) يُنظر: موقع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب، الرابط: http://habous.net

(٢) يُنظر: الجزيرة نت، في ٢٢/ ٥/ ١٤٢٧هـ-٦-٢٠/ ٢٠٠٦م، رابط الخبر:
http://www.aljazeera.net/news/pages/46bb7b38-2a5e-4c0d-aca5-cc5a10cc05b0
وأثناء زيارتي للمغرب في ١٤٣٤هـ رأيت بالفعل هذه الشاشات داخل بعض مساجد الدار البيضاء، وسمعت من البعض عن فشل هذه الخطوة، حيث يُنظر إليها على أنها تحكمٌ ووصايةٌ عن بُعد!

(٣) يُنظر: الجزيرة نت، في ١٦/ ٧/ ١٤٣٠هـ-١٠/ ٧/ ٢٠٠٩م، رابط الخبر:
http://www.aljazeera.net/news/pages/ff2c6d0f-8bac-499f-8916-d08be2258ea5

(٤) موقع مغاربية -كما يُعرِّف عن نفسه-: «هو موقع ترعاه وزارة الدفاع الأمريكية. وقد صُمم لتزويد جمهور القراء عبر العالم ببوابة لولوج طائفة عريضة من المعلومات المتعلقة بمنطقة المغرب العربي»، رابط الموقع: http://magharebia.com

(٥) موقع مغاربية، في ١٥/ ٣/ ٢٠٠٩م، رابط الخبر:
http://magharebia.com/ar/articles/awi/features/2009/03/15/feature-01

المملوكة لأحد رجال الأعمال، وتقول وكالة رويترز في تغطيتها لخبر إطلاق تلك القناة: «أعلن يوم الاثنين في تونس إطلاق تلفزيون ديني في إطار خطط الحكومة لنشر الفكر الإسلامي المتسامح، وقطع الطريق أمام الفكر المتطرف، وأمام الفتاوى المثيرة للجدل التي تروجها فضائيات عربية»[1]. ولكن هذه القناة لم تدم طويلاً، إذ تم إيقاف بثها.

وبعد، فهذه القنوات الفضائية وما شابهها تختلف عن سابقتها التي في الفقرة الأولى بأنها ذات خطابٍ محلِّي، وتركيز على نقل المناشط والفعاليات الصوفية المحلية.

٣- القنوات الفضائية العامة (الحكومية والخاصة):

إن الحضور الصوفي المعاصر في الكثير من القنوات الفضائية أظهرُ من أن يحتاج إلى دليل، سواء أكان في الحكومية منها أم الخاصة (التجارية)، وسواء الإخبارية منها أم الدينية[2]، أم غير ذلك. وهذا الحضور الصوفي يتنوع ما بين برامج لرموزهم ودعاتهم، إلى نقل مناشطهم وأخبارهم، أو بث برامج وثائقية عنهم، إلى غير ذلك من أشكال الحضور المتنوع؛ حتى إن الطرق الصوفية التي تعتمد على الشعوذة والإيهام بإيذاء الجسد (ضرب الشيش) -والتي يزعمونها كرامات- نالها نصيبٌ من ذلك الحضور الفضائي، بل وعبر قناة علمية عالمية!، وهي «ناشونال جيوغرافيك»![3]

والعلامة المميزة لكل ذلك الحضور الصوفي في الكثير من القنوات الفضائية العامة أنه يندرج في إطار «الإبراز الإيجابي للتصوف ورموزه»، ولا تكاد تجد فيه نقداً للتصوف إلا بصورة نادرة، ومن ذلك النادر -على سبيل

---

(١) وكالة رويترز، في ١/ ٩/ ٢٠٠٨م، رابط الخبر:

http://ara.reuters.com/article/entertainmentNews/idARAOLR13337520080901

(٢) يُستثنى هنا من القنوات الدينية القنوات ذات الأُسُس السلفية، والتي تتحرى في برامجها اتباع الكتاب والسنة، والبعد عن البدع وأهلها؛ كقنوات المجد مثلاً.

(٣) يُنظر: قناة ناشونال جيوغرافيك-أبوظبي،« برنامج حقيقة أم خيال: قوى بشرية خارقة»، وفي ذلك البرنامج تم عرض شعوذات الطريقة الكسنزانية في العراق على أنها طاقة روحية صادرة عن الله!!، رابط البرنامج:

http://www.youtube.com/watch?v=GDj1X_WfyS0

المثال- حلقةٌ بثتها «قناة اقرأ»[1] عن الصوفية، وذلك ضمن حلقات برنامج «ضع بصمتك» الذي يقدمه الشيخ محمد العريفي، وكان عنوان الحلقة «التوحيد»، وتطرق فيها بمشاهد مصورة من اليمن إلى ما يقع عند القبور من الطواف حولها، والتمسح بها، ودعاء أهلها، مما يُنافي حقيقية توحيد الله بالعبادة[2]، وقد أثارت تلك الحلقة غضب الصوفية[3]، وأوضح الشيخ محمد العريفي في حسابه في «تويتر» عبر عدة تغريدات عن ما جرى من الحبيب الجفري أثناء بث تلك الحلقة وبعدها. وهذه بعض تغريداته تلك (بنصِّها وترتيبها): «(١) زارني الجفري فلم أدعُ أحداً معنا حاورته بأسلوب غير مباشر فتعصب لرأيه..بعدها بسنة قدمت حلقة (ضع بصمتك في التوحيد) فثاار. (٢) تحدثت الحلقة عن الطواف ع القبور..والتمسح بها.. ودعاء أهلها.. وعرضت نماذج.. فاتصل الجفري أثناء الحلقة طلب قطعها!! فما التفتوا إليه.. فماذا فعل. (٣) اتصل غاااضبا.. هدأته وطلبت نلتقي.. قال أنا ممنوع دخول السعودية ومصر وقطر وانطلق يدافع عمن يبنون الأضرحة ويسألون الموتى الحاجات من دون الله!. (٤) أحدث الجفري ضجة عظيمة منتقماً لعُبّاد القبور والطائفين عليها.. وحاول إيقاف برنامجي قناة اقرأ.. وتوسط بوزراء وأعيان.. فما التفتوا إليه.. واليوم. (٥) ليس بيني والجفري عداوة..بل أحب له الخير وأدعو له وهو لا يعلم..لكن زيارته للقدس بتأشيرة إسرائيلية واحتفاء اليهود به.. وتجاهله نهي العلماء. (٦) زيارتنا للقدس بحكم إسرائيل ذُل وتطبيع وتشجيع للسياحة الدينية عندهم. وعلماء فلسطين أعلم بواقعهم وهذا بيانهم عن الجفري. (٧) اللهم

---

(١) قناة اقرأ، قناة دينية، يظهر فيها السلفي والمتصوف وغيرهما، وتَسمع فيها الموسيقى، وتَرى فيها النساء المتبرجات؛ كل هذا يأتي في إطار مفهوم القناة للتعددية والوسطية والاعتدال!؛ ولا اعتدال إلا بالاتباع.

(٢) بُثت حلقة التوحيد من برنامج ضع بصمتك بتاريخ ٢١/ ٤/ ١٤٣٠هـ- ١٧/ ٤/ ٢٠٠٩م، رابط الحلقة: http://www.youtube.com/watch?v=qyjvheCyUyo

(٣) كان من نتاج ذلك الغضب الصوفي أن الحلقة لم يُعد بثها في وقت آخر كما جرت العادة، بل إن قناة اقرأ نشرت بدلاً من إعادة الحلقة إعتذاراً مكتوباً على شاشتها، هذا نصه «تعتذر قناة اقرأ لأئمة وعلماء حضرموت التي تُكن لهم الاحترام عن الإساءة التي صدرت بحقهم في حلقة الأسبوع الماضي من برنامج (ضع بصمتك) التي تمثل رأي قائلها ولا تمثل رأي القناة التي تحمل مبدأ الوسطية والاعتدال، والله الموفق».

وفقني والجفري للحق.. وأحينا بالتوحيد وأمتنا عليه.. واجمع قلبي وقلبه ع الخير.. ودعاة للإسلام الذي جاء به سيدي الرسول عليه الصلاة والسلام»[(١)].

وأما على الطرف الآخر (الإحيائي) فالأمثلة في القنوات العامة أكثر من أن تُحصر في مثل هذا الموضع، وسأكتفي منها ببضعة أمثلة، وهي:

- في ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م بثت خمس قنوات فضائية، من بينها إم بي سي والحياة المصرية، مسلسلاً بعنوان «الخواجة عبدالقادر»، وهو فيلم يتمحور حول التصوف، حيث يُسلِم ذلك الخواجة عبدالقادر على يد شيخ الطريقة في السودان، ويصبح من مريديه، ثم ينتقل إلى مصر وتظهر كراماته بين الناس،..الخ. وقد قام المركز الكاثوليكي للسينما المصرية بتكريم مسلسل «الخواجة عبدالقادر»، وذلك خلال ندوة أقامها لهذا الغرض تحت عنوان «دعوة إلى الحب الإلهي»[(٢)].

- في ١٤٣٤هـ/٢٠١٣م بثت عدة قنوات فضائية، منها قناتي دريم المصرية وإي آر تي، مسلسلاً بعنوان «خلف الله»، وهذا المسلسل كما قال كاتب نصه (السيناريو)، زكريا السيلي: دعوة للتصوف[(٣)].

- في ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م بثت قناتي إم بي سي مصر، وإم بي سي دراما مسلسلاً بعنوان «موجة حارة»، وهو يحكي قصة أمٍ صوفية تعيش في حي السيدة زينب (القاهرة)، وتنحدر من أسرة صوفية، ولها علاقة بالمسجد، وتستطيع احتواء ابنائها من الضياع[(٤)].

---

(١) موقع تويتر، د. محمد العريفي، في ١٠/ ٤/ ٢٠١٢م-١٨/ ٥/ ١٤٣٣هـ الرابط: https://twitter.com/MohamadAlarefe، وتُنظر هذه التغريدات مجموعة ومنسقة في موقع صوفية حضرموت، الرابط:

http://www.soufia-h.net/showthread.php?t=13904. والمنصف سيرى في هذه التغريدات أخلاق دعاة السلفية مع مخالفيهم.

(٢) يُنظر: موقع الصوفية، مقالٌ نقدي بعنوان «مسلسل الخواجة عبدالقادر: أبعاد الاحتفال الكاثوليكي والاحتفاء الغربي»، في ١٢/ ١/ ١٤٣٤هـ، رابط المقال:
http://www.alsoufia.com/main/articles.aspx?article_no=3684

(٣) يُنظر: جريدة الوفد المصرية، في ٢٩/ ٧/ ٢٠١٣م.

(٤) يُنظر: موقع قناة إم بي سي، دعاية لمسلسل موجة حارة، الرابط:
http://www.mbc.net/ar/programs/mawja-harra/news.html?currentPage=6

- في عام ٢٠٠٣م أُنتج في فرنسا فيلمٌ بعنوان «السيد إبراهيم وأزهار القرآن». وهو يحكي قصة مسلم تركي (صوفي) اسمه إبراهيم، تَبنّى صبياً يهودياً اسمه موسى «مومو». والفيلم -بحسب منتجيه- يحمل رسالة التسامح بين الأديان، على اعتبار أنها تتمثل في ذلك المسلم الصوفي. وأصل هذا الفيلم رواية للكاتب الفرنسي «إيريك إيمانويل شميت» تحمل ذات العنوان[١]. ومما جاء في تلك الرواية أن «مومو» رأى إبراهيم يشرب الكحول (الخمر) فقال له: كنت أعتقد أن المسلمين لا يشربون الكحول! فأجابه إبراهيم: صحيح، لكني صوفي[٢]. وقد حصل الفيلم على جوائز عالمية (فرنسية وأمريكية وإيطالية)، وكان محور ندوةٍ عقدت في الدوحة تحت عنوان «السينما وحوار الحضارات»[٣].

- في ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م بدأت مؤسسة قطر للتربية والعلوم وتنمية المجتمع في إنتاج فيلم سنمائي عن الشاعر الصوفي «جلال الدين الرومي»، وأوكلت إخراج الفيلم إلى المخرج الهندي مظفر علي، والإشراف على كتابة النص (السناريو) إلى الكاتب والمخرج الأمريكي «ديفيد وورد»[٤]. وقد تم بث الفيلم على شاشة قناة الجزيرة الوثائقية، في عام ٢٠١١م.

- في ١٤٣٢هـ-/ ٢٠١١م بثت قناة أبوظبي الأولى حلقة عن الصوفية، وذلك ضمن حلقات برنامج «العربي مع يسرا»، وتهدف الحلقة -بحسب الإعلان عنها- إلى: إظهار الوجه المتسامح للإسلام، وذلك بخلاف الصورة الذهنية لدى الغرب، وإظهار العلاقة بين الإسلام والفن الراقي، والتعريف بعالم الصوفية وتفاصيله، وإمتاع المشاهد والإضافة إلى معارفه[٥].

---

(١) يُنظر: جريدة الرياض، العدد١٣٦٥٥، في ١٠/ ١٠/ ١٤٢٦ه-١٢/ ١١/ ٢٠٠٥م، وجريدة الاتحاد الإماراتية، في ٢٦/ ٣/ ٢٠١٠م.

(٢) يُنظر: إيرك إيمانويل شميت، السيد إبراهيم وأزهار القرآن، ترجمة: خالد الجبيلي، ط ت بدون، ص١٤

(٣) يُنظر: جريدة الراية القطرية، في ١٧/ ٣/ ٢٠١٠م.

(٤) يُنظر: الجزيرة نت، في ١٥/ ٧/ ١٤٣٠ه-٩/ ٧/ ٢٠٠٩م، رابط الخبر: *http://www.aljazeera.net/news/pages/6ab9c0a9-45a2-45ac-8954-7acc1af1d88b*

(٥) يُنظر: جريدة الاتحاد الإماراتية، في ٧/ ٣/ ٢٠١١م.

وبعد، فمن خلال ما مضى يتضح حجم الدعم والإحياء الذي حظيت به الصوفية في ميدان القنوات الفضائية والإنتاج الإعلامي المرئي. وأظن - والله أعلم- أن ازدياد الأقمار الاصطناعية، وسهولة إجراءات إطلاق القنوات الفضائية، سيقود إلى أن تتجه كل طريقة صوفية إلى إطلاق قناة خاصة بها، وعندها سيشاهد عامة الناس ما يُدركه العلماء وطلبة العلم من حقيقة الصوفية، ومدى ما وصلوا إليه من خرافات وضلالات في الدين، تختلف من طريقة إلى أخرى!، وسيشاهدون حقيقة تفرق الصوفية، واختلافاتهم فيما بينهم. وحينها سينتهي الطور الإعلامي الصوفي الحالي، والذي يحاول فيه المتصوفة تلميع التصوف، وربطه بمرتبة الإحسان، وبأهل السنة والجماعة، وستظهر الأمور على حقيقتها.

ثانياً: الإحياء الصوفي عبر الإنترنت

تُعد شبكة الانترنت حالياً هي الميدان الأقوى في التأثير بعد القنوات الفضائية، وبما أن الاستفادة من شبكة الإنترنت سهلة وميسرة، وليست بحاجة إلى تكاليف مادية كبيرة؛ كحال القنوات الفضائية، فقد كان للصوفية كغيرهم المشاركة الفعالة في الإنترنت، إذ لا تكاد تجد طريقة صوفية إلا ولها موقع أو حضورٌ على الانترنت، ولا تكاد تجد رمزاً صوفياً إلا وله موقع أو حضور على الإنترنت، ولا تكاد أيضاً تجد منشطاً أو فعالية صوفية إلا ولها وجود في الإنترنت؛ سواءٌ أكان على هيئة موقع، أو منتدى، أو عبر حساب في شبكات التواصل الاجتماعي، وعلى رأسها «تويتر» و«فيس بوك»، أو غيرها من الوسائل الكثيرة التي أتاحتها شبكة الإنترنت. ويذكر الدكتور عزيز الكبيطي بأن الطريقة البودششية في أمريكا بدأت تستخدم برنامج الاتصال المرئي عبر الانترنت «سكايب» *Skype* في حضراتها (مجالس الذكر)، حيث بات بإمكان المريد حضور المجلس من أي مكان في الولايات المتحدة[1]!

وأثناء مطالعتي للحراك الصوفي عبر شبكة الإنترنت (وبخاصة في

---

(١) عزيز الكبيطي، التصوف الإسلامي في الولايات المتحدة، ص٢٦٤.

المتديات الصوفية)[1] لاحظت أنه يختلف عن الحراك الصوفي الذي في القنوات الفضائية بأن جميع فئات المتصوفة يشاركون فيه، العامة منهم والخاصة، وليس هنا العجب؛ وإنما العجب في أن هذا الأمر قلل من مستوى التَّقية التي نجدها في حراكهم عبر القنوات الفضائية! ولذلك فقد خرجت من تلك المطالعة بثلاث ملاحظات مهمة، وهي[2]:

الأولى: ستدرك مدى الكره الشديد والعداء الذي يُكنّه عامة الصوفية للسلفية (عامتهم وعلمائهم)، فتجد ذاك يرميهم بالخوارج، وآخر بالمجسمة، وثالث بالتشدد، وغير ذلك مما تلقفوه من رموزهم ودعاتهم؛ الذين يَلبسون ثوب الدعوة إلى التسامح والاعتدال تقيّةً حينما يظهرون أمام الجميع على شاشات القنوات الفضائية!

الثانية: ستلاحظ بجلاء الارتباط الشديد بين التصوف وعقيدة الأشاعرة والماتريدية، وفي ذلك رد على من يزعم (من الطرفين) أن الخلاف مع التصوف إنما هو في مسائل اجتهادية؛ كالمولد، وبعض الطقوس الصوفية. وقد تحدثت بالتفصيل في الفصل الثاني عن هذه المسألة، وأوردت أمثلة على طقوس صوفية (شركية وبدعية) مبنية في الأصل على أخطاء عقدية، وليس على اجتهادات فقهية (يسوغ في بعضها الخلاف).

الثالثة: ستجد بوضوح التعصب الصوفي الشديد للإمامين مالك والشافعي رحمهما الله، بينما هم يرمون السلفية زوراً بالتعصب للإمام أحمد، وهو أمر يرده واقع الفتوى والتعليم الفقهي في السعودية، والذي يُعتمد فيه القول الراجح الذي يسنده الدليل الصحيح، أيا كان قائله من أصحاب المذاهب الفقهية المعتبرة[3].

ومن هنا يمكن القول بأن الحراك الصوفي في الإنترنت وإن كان ساعد في نشر التصوف وإبرازه، إلا أنه في ذات الوقت أبان لنا الوجه الحقيقي

---

(١) يُعد موقعي رباط الفقراء إلى الله، وشبكة روض الرياحين من أقوى متديات الصوفية على شبكة الإنترنت. روابط الموقعين: http://www.rubat.com، http://cb.rayaheen.net

(٢) تكفي مطالعة الموقعين السابقين لإدراك هذه الملاحظات الثلاث.

(٣) نقلت في المبحث السابق كلاماً مهماً للشيخ صالح الحصين رحمه الله حول هذه المسألة.

للتصوف، والمتمثل في تأثيره على أتباعه؛ ففي الوقت الذي يَرمي دعاة التصوف السلفيةَ بنشر التشدد وزرع ثقافة الكره في الأتباع، نجدهم هم من يربون أتباعهم على تلك الأمور، وواقع أتباعهم في الإنترنت يشهد بذلك! وفي الوقت الذي يرمون السلفية بالجمود والتشدد الفقهي، نجدهم هم أهل التعصب الفقهي المذهبي دون منازع، وواقعهم في الإنترنت يشهد بذلك أيضاً!.

ثالثاً: الإحياء الصوفي في الصحافة

من الأمور التي ندركها جميعاً في عالمنا الإسلامي أن الصحافة ومنذ أن ظهرت في عالمنا الإسلامي وهي -في الغالب- بيد العلمانيين والليبراليين، سواء أكانت على شكل جرائد أم مجلات، وقد ظهر في تاريخنا القريب جرائد ومجلات ذات توجه إسلامي، ولكن كثيراً منها لم يستمر في الصدور، واليوم لا يمكن في العالم مقارنة حجم الصحافة الإسلامية بحجم الصحافة ذات التوجه العلماني أو الليبرالي، هذا من جهة، ومن جهة ثانية فهناك تفاوت في الطرح داخل الصحافة ذات الاتجاه العلماني والليبرالي؛ فهي -على سبيل المثال- أشد وضوحاً وعداءً للدين في دول المغرب العربي منها في دول الجزيرة العربية، حيث تَنزع ظاهرياً إلى المحافظة والمداراة، وإن كانت تسير على نفس الخُطى.

وثمة أمر آخر أيضاً بات يُدركه الجميع وهو أن الصحافة بأنواعها لم تعد في صدارة التأثير كما كان حالها في القرن العشرين الميلادي، إذ سبقتها القنوات الفضائية في الصدارة والمتابعة والتأثير، ونافستها شبكة الإنترنت في ميدان التواصل بين الناس (بالرأي والخبر)، الأمر الذي فقدت معه الصحافة الكثير من قوة التأثير والتوجيه الذي حظيت به على مدى عقود كثيرة في العالم الإسلامي.

لقد ساهمت الصحافة ذات التوجه الليبرالي والعلماني في عملية إحياء التصوف بعد ١١ سبتمبر، سواءٌ بشكل مباشر عبر نشر مقالات وآراء عن التصوف، وكذا نشر أخبار المناشط والفعاليات الصوفية، وأخبار المؤلفات الجديدة عن التصوف، ونحو ذلك. أو بشكل غير مباشر، عبر استكتاب

رموز التصوف أو نشر فتاويهم، أو نشر الأخبار والتحقيقات عن طقوسهم أو الأماكن التي يقدسونها، ويتبركون بها، ونحو ذلك.

وفيما يلي سأورد أمثلة ونماذج من إحياء التصوف في صحافة بعض دول الخليج العربي، ولن أتجاوزها إلى غيرها من الصحف، لأنه إذا وجد إحياء للتصوف في صحافة دول الخليج العربي فغيرها من صحافة بلدان العالم الإسلامي من باب أولى.

أمثلة ونماذج من إحياء التصوف في ١٥ جريدةً خليجية[١]:

- نشرت جريدة الرياض مقالاً بعنوان «حول التصوف»، زعم فيه كاتبه أن الاهتمام بالرقائق انحسر بسبب تنامي الصحوة وصعود السلفية الحديثة منذ منتصف الثمانينيات الميلادية[٢]!، ونَشَرتْ أيضـًا لنفس الكاتب مقالاً آخر بعنوان«شيخي الصوفي»؛ تحدث فيه عن أنه وجد سَلْوته مؤخراً في الموسيقى وبعض التراتيل الكنسية وقراءة المنشاوى وعبدالباسط، وبقي شوقه العارم-بحسب تعبيره- إلى شيخ طريقة يبوح له بأحزان روحه! ثم حاول فيه جاهداً الربط بين بعض عُبّاد نجد وبين التصوف[٣]!.

وفي عدد آخر من جريدة الرياض نجد قراءةً لإصدار جديد في عالم الكُتب، والمفاجأة الكبرى هي أن تلك القراءة كانت لكتاب «الآم الحلاج» للمستشرق الفرنسي «لويس ماسنيون»[٤]!!.

وفي عدد آخر نجد قراءة أخرى لكتاب المستشرق «هنري كوربان» (الخيال الخلاق في تصوف ابن عربي)[٥]!!.

٢- نشرت جريدة عكاظ حواراً مع الداعية الصوفي السيد عبدالله فدعق، واجتزأت من الحوار كلمة له وجعلتها عنوانـًا للحوار وهي قوله: «الصوفية دعوى دخل فيها ما ليس منها والانتساب لها ليس عاراً»[٦].

---

(١) هذه الأمثلة إنما هي لبيان وجود توجه صحفي لإحياء التصوف داخل جرائد الخليج، ولا تعني بالضرورة أنه لا يَرد فيها نقدٌ للتصوف.

(٢) يُنظر: جريدة الرياض، العدد١٤٧٧١، في ٢٣/ ٨/ ١٤٢٩هـ-٢٤/ ٨/ ٢٠٠٨م.

(٣) يُنظر: جريدة الرياض، العدد١٤٩٧٩، في ٥/ ٧/ ١٤٣٠هـ- ٢٨/ ٦/ ٢٠٠٩م.

(٤) يُنظر: جريدة الرياض، العدد١٣٨١٤، في ٢٢/ ٣/ ١٤٢٧هـ- ٢٠/ ٤/ ٢٠٠٦م.

(٥) يُنظر: جريدة الرياض، العدد١٤٩٢٧، في ١٢/ ٥/ ١٤٣٠هـ-٧/ ٥/ ٢٠٠٩م.

(٦) يُنظر: جريدة عكاظ، العدد١٨٣١، في ٢٦/ ٥/ ١٤٢٧هـ-٢٢/ ٦/ ٢٠٠٦م.

وفي مثال آخر؛ أوردت عكاظ خبراً لمحاضرة ألقاها الشيخ عبدالله بن بيه في مجلس عبدالله فدعق، وكان عنوان خبر تلك المحاضرة: «ابن بيه: التصوف لم يكن إشكالاً في العصور الماضية»[1].

٣- نشرت جريدة المدينة خبراً عن محاضرة أقامها نادي جدة الأدبي الثقافي بعنوان «المثقف والسلطة..الحلاج وفلسفة التصوف»، دون ذكر اسم الحلاج في عنوان خبر المحاضرة[2]، ثم أُعيد نشر الخبر مرة أخرى بعد عدة أيام مع التصريح باسم «الحلاج» في عنوان الخبر[3]! والملفت أيضاً أن الذي ألقى المحاضرة عن الحلاج من أصحاب التوجه الليبرالي.

٤- نشرت أيضاً جريدة الوطن السعودية خبر محاضرة نادي جدة الأدبي تلك، وذلك تحت عنوان «ليلةٌ لسرد مقولات المتصوفة وتجاهل النقد»[4]، وفي عدد آخر نشرت خبراً تحت عنوان «الإنشاد الديني يخطف أنظار جمهور المهرجان الدولي للتراث»، ويتحدث مضمون ذلك الخبر عن فرقة مصرية للغناء والرقص الصوفي، تسمى «فرقة التنورة» التراثية[5].

٥- في عام ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م نشرت جريدة السياسة الكويتية حواراً مع الشيخ يوسف الرفاعي، زعيم متصوفة الكويت، وكان ذاك الحوار عبارة عن شرح للتصوف ودعوة إليه! وفي ذلك الحوار هاجم الرفاعي الشيخين ابن باز وابن عثيمين رحمهما الله، واتهمهما زوراً بالتطرف والتكفير[6]. وقد أصدر في حينها سماحة المفتي الشيخ عبدالعزيز آل الشيخ بياناً مطولاً، ردَّ فيه على ما ورد في لقاء الرفاعي من افتراءات في حق الشيخين ابن باز وابن عثيمين، وردَّ فيه أيضاً بشكل عام على ما ورد في اللقاء من دعوة وتبرير لممارسات التصوف[7].

---

(١) يُنظر جريدة عكاظ، العدد٢٨٣٧، في ٢٧/ ٣/ ١٤٣٠هـ-٢٤/ ٣/ ٢٠٠٩م.
(٢) يُنظر: جريدة المدينة، في ٥/ ٢/ ١٤٣١هـ- ٢١/ ١/ ٢٠١٠م.
(٣) يُنظر: جريدة المدينة، في ١١/ ٢/ ١٤٣١هـ- ٢٧/ ١/ ٢٠١٠م.
(٤) يُنظر: جريدة الوطن السعودية، في ١٩/ ٨/ ١٤٣٢هـ-٢١/ ٧/ ٢٠١١م.
(٥) يُنظر: جريدة الوطن السعودية، في ٢/ ٩/ ١٤٣٢هـ-٢/ ٨/ ٢٠١١م.
(٦) يُنظر: جريدة السياسة الكويتية، في ١/ ٢/ ٢٠٠٦م.
(٧) بثت البيان وكالة الأنباء السعودية، ونقلته في حينها جميع الجرائد المحلية، يُنظر على سبيل المثال: جريدة عكاظ، العدد ١٨٧٢، في ٨/ ٧/ ١٤٢٧هـ-٢/ ٨/ ٢٠٠٦م. وقد نقلت في الفصل الثاني بعضاً من ردود الشيخ صالح الفوزان على افتراءات يوسف الرفاعي على علماء نجد.

٦- نشرت جريدة الأنباء الكويتية خبراً عن احتفالات المولد تحت عنوان «أنوار المولد النبوي تضيء الليالي»، وفيه ذكرت أن العالم العربي والإسلامي يُحيي هذه الذكرى وأن الاحتفالات بالمولد تعم البلدان[١]!

وفي عدد آخر نشرت خبراً (هو أشبه بالإعلان) عن الشيخ القبرصي ناظم حقاني، شيخ الطريقة النقشبندية، وكان الخبر تحت عنوان «شيخ صوفي في قبرص يجذب آلاف الزوار من كل العالم»![٢].

٧- نشرت جريدة القبس الكويتية مقالاً بعنوان «الهجمة السلفية على الصوفية»، وفيه تشجب كاتبة المقال مقالاً آخر نُشر في جريدة أخرى يستنكر بث إذاعة الكويت ابتهالاً لفرقة نقشبندية[٣].

٨- نشرت جريدة الرأي الكويتية مقالات عديدة تدعوا إلى التصوف وتشجعه، ومنها -على سبيل المثال- مقال «كرامات الصوفيين»[٤]، ومقال ومقال «التصوف في الكويت والخليج»[٥]، ومقال«جلال الدين مولوي.. الباحث عن الحقيقة في شعره وسلوكه»[٦]، وغيرها.

٩- نشرت جريدة الأيام البحرينية مقالاً يتحدث عن الرومي، تحت عنوان «مولانا جلال الدين الرومي»[٧].

١٠- نشرت جريدة الوسط البحرينية خبراً عن فعالية صوفية في البحرين تحت عنوان «الفنون الصوفية رسالة سلام من حضارتنا للحضارات الأخرى»[٨]، وخبراً في عددٍ آخر عن فعالية غنائية صوفية قدمتها مغنية مغربية تُدعى عائشة رضوان، وذلك تحت عنوان «رضوان تحيي روح التصوف بمركز الشيخ إبراهيم»[٩]، ونقلت كذلك في عدد آخر أخبار ندوة

(١) يُنظر: جريدة الأنباء الكويتية، في ٢٧/ ٢/ ٢٠١٠م.
(٢) يُنظر: جريدة الأنباء الكويتية، في ٢٩/ ١٠/ ٢٠١٣م.
(٣) يُنظر: جريدة القبس الكويتية، في ١٥/ ١٠/ ٢٠١٢م.
(٤) يُنظر: جريدة الرأي الكويتية، العدد١١٨٩٨، في ٢٨/ ١/ ٢٠١٢م.
(٥) يُنظر: جريدة الرأي الكويتية، العدد١١٩٠٠، في ٣٠/ ١/ ٢٠١٢م.
(٦) يُنظر: جريدة الرأي الكويتية، العدد١٢١٧٩، في ٤/ ١١/ ٢٠١٢م.
(٧) يُنظر: جريدة الأيام البحرينية، العدد٨٩٦٣، في ١٩/ ١٢/ ١٤٣٤هـ-٢٤/ ١٠/ ٢٠١٣م.
(٨) يُنظر: جريدة الوسط البحرينية، العدد٢٠١٥، في ٥/ ٣/ ١٤٢٩هـ-١٣/ ٣/ ٢٠٠٨م.
(٩) يُنظر: جريدة الوسط البحرينية، العدد٢٣٧٥، في ١١/ ٣/ ١٤٣٠هـ-٨/ ٣/ ٢٠٠٩م.

أقيمت في البحرين بعنوان «مسيرة الصوفية ومستقبلها»، والتي -بحسب الخبر- شارك فيها زعيم صوفية البحرين الشيخ راشد المريخي، وجعلت عنوان الخبر «الأب الروحي للصوفيين في البحرين المريخي: غالبية أهل الأرض منسوبون على التصوف»[1].

١١- نشرت جريدة العرب القطرية حواراً مع عميدة كلية الشريعة بجامعة قطر الدكتورة عائشة المناعي تحت عنوان «عائشة المناعي: التصوف قادني إلى البحث في النفس والروح وأشواقها»، وفي الحوار تحدثت الدكتورة عن نزعتها الصوفية[2]، وفي عدد آخر نشرت الجريدة خبراً خبراً لصدور كتاب جديد عن التصوف لمستشرق إيطالي، وكان الخبر يحمل نفس عنوان ذلك الكتاب وهو «تأملات في التصوف والحوار الديني»[3].

١٢- نشرت جريدة الراية القطرية مقالاً تحت عنوان «النزعة الإنسانية الدينية تتجسد في تيار التصوف الإسلامي»[4]، وفي عدد آخر نشرت خبراً تحت عنوان «حقيقة التصوف في ندوة بكلية الشريعة»، وهو عن ندوة علمية أقيمت بكلية الشريعة في جامعة قطر، وذلك -بحسب الخبر- للتعريف بالتصوف ولبيان أنه ليس غرساً غريباً عن الإسلام![5]، وفي عددٍ آخر نشرت الجريدة مقالاً عن الحلاج تحت عنوان «الحلاج، قالوا عنه جاهلاً يتعاقل ويتشح بلباس التصوف»[6].

١٣- نشرت جريدة الاتحاد الإماراتية مقالاً بعنوان «ابن عربي أكثر الأئمة إثارة للخلاف والشك»، ومما جاء في ذلك المقال: «الإمام ابن عربي أحد الأعلام الكبار وختام أئمة الأندلس وحفاظها وأشهر أقطاب التصوف الفلسفي في تاريخ الحضارة الإسلامية، بل ربما في تاريخ التصوف الإنساني

---

(١) يُنظر: جريدة الوسط البحرينية، العدد٢٦٣٠، في ١/ ١٢/ ١٤٣٠هـ-١٨/ ١١/ ٢٠٠٩م.
(٢) يُنظر: جريدة العرب القطرية، العدد٨٧٢٨، في ١٤/ ٦/ ١٤٣٣هـ-٥/ ٥/ ٢٠١٢م.
(٣) يُنظر: جريدة العرب القطرية، العدد٩١٠٦، في ٨/ ٧/ ١٤٣٤هـ-١٨/ ٥/ ٢٠١٣م.
(٤) يُنظر: جريدة الراية القطرية، في ٢/ ٧/ ٢٠٠٨م.
(٥) يُنظر: جريدة الراية القطرية، في ٢٩/ ٤/ ٢٠٠٩م.
(٦) يُنظر: جريدة الراية القطرية، في ١٩/ ١/ ٢٠١٣م.

على الإطلاق، ولذلك كان لقب «الشيخ الأكبر» عَلَماً عليه لدى العلماء والدارسين من كل الاتجاهات»[1]. وفي عددٍ آخر نشرت الاتحاد مقالاً بعنوان «الثعالبي قطب التصوف وعلوم الشريعة»[2]، وفي عدد آخر نشرت مقالاً بعنوان «القشيري إمام التصوف وزين الإسلام»[3].

١٤- نشرت جريدة البيان الإماراتية مقالاً بعنوان «التصوف سياحة روحية ومنهج حياة مستمد من الكتاب والسنة»[4].

١٥- نشرت جريدة الخليج الإماراتية مقالاً بعنوان «الطريقة والحقيقة» وتناول مضمون المقال آراء ابن عربي[5]. ونشرت مقالاً في عدد آخر بعنوان بعنوان «نمو الطرق الصوفية»، وتناول المقال نشأة وتطور الطرق الصوفية[6].

هذا، ولم يقتصر إحياء التصوف في جانب الصحافة على الجرائد العامة، كما مضى في الأمثلة السابقة، فهناك أيضاً المجلات الصوفية الخاصة؛ ولكنها لا تقارن من حيث العدد وسعة الانتشار بالجرائد العامة، ولهذا قدمت ذكر أمثلة إحياء التصوف في الجرائد على ذكر مجلات التصوف نفسه، والتي لا تزال تعتبر قليلةً ومحدودة.

ومن أمثلة المجلات الصوفية ما يلي:

١- مجلة التصوف الإسلامي، وهي مجلة شهرية تصدر عن المشيخة العامة للطرق الصوفية بمصر، منذ عام ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

٢- مجلة «الإسلام وطن» وهي مجلة شهرية، تصدرها مشيخة الطريقة العزمية في مصر، وكان أول عدد لها في رمضان ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م. وهذه المجلة لا يكاد يخلو عدد من أعدادها إلاّ وتجد فيه طعناً في الدعوة السلفية، أو هجوماً على علمائها ودعاتها.

---

(١) جريدة الاتحاد الإماراتية، في ١/ ١٠/ ٢٠١٠م.
(٢) يُنظر: جريدة الاتحاد الإماراتية، في ٣/ ٩/ ٢٠١٠م.
(٣) يُنظر: جريدة الاتحاد الإماراتية، في ١٢/ ٩/ ٢٠١٠م.
(٤) يُنظر: جريدة البيان الإماراتية، في ١٧/ ٨/ ٢٠١١م.
(٥) يُنظر: جريدة الخليج الإماراتية، في ٢٨/ ٨/ ٢٠٠٨م.
(٦) يُنظر: جريدة الخليج الإماراتية، في ٢٣/ ٨/ ٢٠١١م.

٣- مجلة المسلم، وهي مجلة شهرية صوفية تصدر عن العشيرة المحمدية بمصر، وقد عاودت الصدور من جديد منذ شهر محرم ١٤٣٤هـ بعد فترة من الانقطاع، علماً بأن أول صدور لها كان عام ١٣٧٠هـ/ ١٩٥٠م.

٤- مجلة البحوث والدراسات الصوفية، وهي مجلة دورية تصدر عن المركز العلمي بأكاديمية الإمام الرائد لدراسات التصوف وعلوم التراث، التابعة للعشيرة المحمدية بمصر. وقد صدر العدد الأول من المجلة في عام ٢٠٠٣م.

٥- مجلة قوت القلوب، وهي مجلة دورية تصدر عن «مركز الإمام الجنيد للدراسات والبحوث الصوفية المتخصصة»، بمدينة وجدة المغربية، والتابع للرابطة المحمدية للعلماء، والتي تأسست في محرم ١٤٢٧ه/ فبراير٢٠٠٦م في إطار خطة إصلاح الحقل الديني التي تحدثت عنها فيما سبق. وقد صدر العدد الأول من مجلة «قوت القلوب» في رجب ١٤٣٣هـ/ يونيو ٢٠١٢م.

٦- مجلة الكسنزان، وهي مجلة فصلية صوفية، تُصدرها الطريقة العلية القادرية الكسنزانية بالعراق، وقد صدر العدد الأول منها في خريف عام ٢٠٠٦م.

٧- مجلة رايات العز، وهي مجلة شهرية تابعة للطريقة البرهانية بالسودان، وقد بدأت في الصدور منذ عام ٢٠٠٢م، وتوقفت عام ٢٠١٠م.

رابعـًا: الإحياء الصوفي عبر الإذاعة

على الرغم من التقدم التقني في وسائل الإعلام المرئية (قنوات، انترنت، هواتف ذكية) إلا أن الإذاعة (الراديو) لا يزال لها حضورها ونشاطها وتوسعها ومتابعيها، ولذلك لم تكن هي أيضـًا بمعزل عن الحراك الصوفي، وإن كان بنسبة أقل عن الحراك الصوفي في غيرها من وسائل الإعلام الأخرى، وأيضـًا فإن ذلك الحراك في الإذاعة يتفاوت من دولة إلى أخرى

من دول العالم الإسلامي. وسأورد فيما يلي عدة نماذج من ذلك الحراك الصوفي الإذاعي:

١- في الجزائر تم تدعيم التوجه الحكومي الصريح نحو إحياء التصوف بإذاعة خاصة ذات توجه صوفي[١].

٢- في المغرب أيضاً وضمن التوجه الحكومي نحو إحياء التصوف، والذي أتى تحت شعار إعادة هيكلة الحقل الديني؛ تم تدعيم ذلك التوجه بافتتاح إذاعة محمد الخامس للقرآن الكريم، في عام ٢٠٠٤م[٢].

٣- في عام ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م أطلق صخر الماطري صهر الرئيس التونسي السابق زين العابدين بن علي إذاعة الزيتونة، كأول إذاعة دينية في تونس[٣]، وهي إذاعة تقوم على التصوف، وأتت في إطار توجه الحكومة آنذاك نحو إحياء التصوف تحت شعار «التسامح الديني». ولا تزال إذاعة الزيتونة تعمل حتى اليوم، مع توجه فيها نحو تبني تعددية الطرح، فبات للدعوة السلفية فيها مكان.

٤- في عام ٢٠٠٨م نشرت جريدة الوطن الكويتية مقالاً بعنوان «الصوفية.. بأموال كويتية»، للكاتب أحمد الفهد، ينتقد فيه إذاعة القرآن الكريم في الكويت، ويُصّرح بأنها أصبحت «حكراً على أتباع إحدى الطرق الصوفية في الكويت..، وأمست مغلقة على أتباعها لا يدخلها غيرهم، حتى لو كان غيرهم بمكانة شيخ الحرم المدني علي الحذيفي أو الشيخ محمد أيوب! فضلاً عن مشايخ الدعوة السلفية في الكويت، ومن لهم علاقة بالفكر السلفي..»[٤].

---

(١) يُنظر: : جريدة الاتحاد الإماراتية، في ٩/ ٧/ ٢٠٠٩م، والجزيرة نت، تقرير بعنوان «دعم الصوفية لمحاربة السلفية بالجزائر»، في ١٦/ ٧/ ١٤٣٠هـ-١٠/ ٧/ ٢٠٠٩م رابط التقرير:
http://www.aljazeera.net/news/pages/ff2c6d0f-8bac-499f-8916-d08be2258ea5

(٢) يُنظر: الجزيرة نت، في ٢٢/ ٥/ ١٤٢٧هـ-٢٠/ ٦/ ٢٠٠٦م، الرابط:
http://www.aljazeera.net/news/pages/46bb7b38-2a5e-4c0d-aca5-cc5a10cc05b0

(٣) يُنظر: موقع مغاربية، في ٣/ ٩/ ٢٠٠٨م، الرابط:
http://magharebia.com/ar/articles/awi/features/2008/09/03/feature-01

(٤) جريدة الوطن الكويتية، في ٢٤/ ١٢/ ٢٠٠٨م.

وبعد: فمن خلال ما مضى في فقرات هذا المبحث يتبين مدى ما حظيت به الصوفية في العالم الإسلامي خلال السنوات القليلة الماضية من دعم إعلامي كبير؛ سواءً في الإعلام المرئي، أو المسموع، أو المقروء، على تفاوت في ذلك بين دول العالم الإسلامي[1]. ولا يزال ذلك الدعم الإعلامي يساهم في إبراز الصوفية عاماً بعد عام، وهو كما أرى سيساهم في التنفير من الصوفية إن هي ظهرت للناس في الإعلام على حقيقة واقعها الطرقي؛ المتباين، والمتنافر، والبعيد حتى عن مقتضى العقل السليم، وهذا على ما يبدو هو ما يخشاه بعض المتصوفة الأذكياء؛ فباتوا يُروِّجون للصوفية تحت شعارات إسلامية أخرى جذابة، كأهل السنة والجماعة، وأهل الإحسان، ونحو ذلك، وهذا ما سأتناوله في المبحث القادم بالتفصيل. وبالله التوفيق.

---

(١) تأتي دول المغرب العربي (تونس، الجزائر، المغرب، موريتانيا) في مقدمة دول العالم الإسلامي التي قطعت شوطاً كبيراً في إحياء التصوف، سواءً في الجانب الإعلامي أو غير الإعلامي، وهذا ما حدا بتقرير وزارة الخارجية الأمريكية للحريات الدينية لعام ٢٠١٠م إلى الإشادة بهذه الدول الأربع، واعتبارها قد حققت تقدماً ملموساً في تشجيع التسامح والاعتدال ومحاربة التطرف. يُنظر: موقع مغاربية، خبر بعنوان «تقرير أمريكي يشيد بالمغرب الكبير لمكافحة التطرف»، في ٢٨/ ١١/ ٢٠١٠م، الرابط:
http://magharebia.com/ar/articles/awi/features/2010/11/28/feature-01

المبحث الثالث

الدعوة الصوفية المعاصرة

المطلب الأول : محدَّدات الدعوة الصوفية المعاصرة

لئن كان أهل التصوف يرفعون للتصوف شعار «تهذيب النفس والسلوك»؛ فإن التصوف في واقع أمره يحمل مضامين أبعد من ذلك بكثير، بل تتعارض في أحايين كثيرة مع ذلك الشعار! وتتباين أيضاً فيما بينها تبايناً كبيراً، ولا أدل على ذلك من «طرق التصوف»؛ التي لا حصر لعددها، ولا توقف لتوالدها إلى اليوم!

ولكنْ ثمة مضامين أخرى -سوى تهذيب النفس والسلوك- يمكن أن تكون قدراً مشتركاً بين طرائق التصوف المعاصر وأهله، وبها يمكن أن ندرك فيما بعد حدود الدعوة الصوفية المعاصرة. وهذه المضامين -وعددها ثمانية- هي:

الأول: أن التصوف وإن بدأ في أول أمره زهداً تعبدياً موافقاً للكتاب والسنة، إلا أنه غلا وانحرف عبر تاريخه، وانتهى اليوم،كما نرى بأعيننا ونسمع بآذاننا، إلى طقوس بدعية لا أصل لها في كتابٍ ولا سُنَّة[1]، ولا حصر لها أيضاً؛ إذ تَشكَّلت تلك الطقوس المختلفة في طرق متباينة، ولكل طريقة شيخها، ولكل شيخ سندٌ يُوصِل به طقوسه إلى رسول الله ﷺ! عدا أحمد التيجاني، فقد اختصر الضلالة وزعم أنه أخذ طريقته عن رسول الله ﷺ مباشرة!!. وعليه، فحتى شعار «تهذيب النفس والسلوك» لم يسلم أيضاً من الانحراف.

الثاني: أن العقيدة الأشعرية والماتريدية التقت مع التصوف عبر تاريخه، وباتت اليوم مكونه الأساسي، حتى لا تكاد تجد متصوفاً إلا وهو أشعري أو ماتريدي في العقيدة. وقد بيَّنت هذا الأمر بالتفصيل في الفصل الثاني.

الثالث: أن تعظيم القبور وسؤال أصحابها وبناء الأضرحة عليها، وحث الناس على قصدها للتعبد، بات من سمات التصوف اللازمة له. ولا حكم لمن شذ منهم في ذلك، إن وجد.

---

(١) الحكم هنا للأعم الأغلب، وإلا فيوجد ضمن التصوف ما هو موافق للكتاب والسنة.

الرابع: أن القول بوحدة الوجود (الاتحاد)، هي لب التصوف وغايته[1]، والمتصوفة في التعبير عنها مذاهب؛ فهم ما بين مصرح بها، وما بين مُعبِّرٍ عنها بعبارات أخرى، كالحضرة القدسية، أو السِّر الإلهي، أو الحب الإلهي[2]، وغير ذلك، وما بين هذا وذاك مذاهبٌ شتى في التعبير عنها[3].

الخامس: أن الغاية السابقة قادت المتصوفة إلى نظرة منحرفة مخالفة للكتاب والسنة نحو الأديان الأخرى (وتحديداً أهل الكتاب)، فهم ما بين مصحح لها، وما بين من لا يرى فيها بأساً، إلى غير ذلك مما يتعارض مع ما ورد صراحة في كتاب الله ﷻ وسنة رسوله ﷺ بشأن أهل الكتاب وغيرهم من الكفار والمشركين.

وقد ترد هنا مسألة انتشار الإسلام عن طريق التصوف، وهو زعم منهم يحتاج إلى دليل؛ ولو سلمنا لهم بذلك فدعوتهم لم تكن دعوة على هدي

---

(١) الاتحاد في شكله العام هو عينُ القول بوحدة الوجود، ولا فرق. وللمزيد حول هذه المسألة، يُنظر: محمد أحمد لوح، تقديس الأشخاص في الفكر الصوفي، مرجع سابق، ١/ ٤٦١-٤٦٤

(٢) يذكر محمد مصطفى حلمي وهو من المتصوفة الفلاسفة (ت١٩٦٩م) أن الحب الإلهي عند المتصوفة لا يقتصر على حب الله للإنسان، وحب الإنسان لله، وإنما أيضاً على حب الله أن ينظر إليه الناس، فأوجد الخلق لأجل ذلك، ومن هنا كان خلق العالم ثمرة من ثمرات الحب الإلهي!!، ولذلك قال في تعريف الحب الإلهي: «هو أن يأخذ الإنسان نفسه بالتصفية، وقلبه بالتنقية، وأن يتخلى عن الصفات المذمومة، ويتحلى بالصفات المحمودة، بحيث ينكشف عن عين قلبه حجاب الحس، وينفتح من دون قلبه باب القدس، فإذا هو يرى ما لا عين رأت، ويسمع ما لا أذن سمعت، ويذوق من الحقائق والدقائق والرقائق مالا يخطر على قلب بشر، وإنما يصبح الإنسان كذلك لأنه يحب الله، فهو يحيا في ظله، وينهل من فضله، وهو لا يصدر إلا عنه، ولا يرد أي شيء إلا إليه، ولا يستمد أي عون إلا منه، الذات الإلهية عنده هي المنبع الأسمى لكل ما في الوجود من آيات الحق والجمال، وهي المورد الأسنى لكل ما في الكون من دلالات الخير والجمال». وللقارئ أن يلاحظ نفحات الحلول والوحدة في هذا التعريف!.
ويقول عبدالرحمن بدوي: «وإذا كانت درجة الشوق تتناسب مع مكانة الموضوع المشتاق إليه، فأي شوق أقوى من الشوق إلى الاتحاد بالله عند الصوفي؟! وهذا مما يزيد في فوران الوجد، فهو وجدٌ غايته الاتحاد بالله، هذا كان عنصراً جوهرياً في تكوينه. والاتحاد بالله هنا يُقصد كاملاً. أعني أن يصير المحب والمحبوب شيئاً واحداً فعلاً: سواء في الجوهر والفعل. أي في الطبيعة والمشيئة والفعل الصادر منهما. فتكون الإشارة إلى الواحد عين الإشارة إلى الأخر؛ ثم تختفي الإشارة لانعدام المشير، فلا يصير ثمت غير واحدٍ أحد هو الكل في الكل».
المصدر: عبدالرحمن بدوي، شطحات الصوفية، مرجع سابق، ص١٤. ومحمد مصطفى حلمي، الحب الإلهي في التصوف الإسلامي، دار القلم-القاهرة، ط بدون، ١٩٦٠م، ص٢٧-٢٨

(٣) قد تجد من المتصوفة من ينكر وجدة الوجود وينفر منها، ولكنه يمارس طقوسها ويردد مضامينها من حيث يشعر أو لا يشعر، وذلك كالكشف (أي انكشاف حُجُب الغيب عن المتصوف)، أو الحب الإلهي، أو الحضرة القدسية، أوغير ذلك.

الكتاب والسنة وتحقيق عبادة الله وحده، وإنما حملت في طياتها تلك القبورية التي تقدح في إفراد الله بالعبادة، وحملت تلك الطقوس البدعية التي تُنتج ضلالة في الدين وخمولاً في الدنيا، بل إن بعض الطرق حملت في دعوتها غير المسلمين الكثير من الطوام؛ كتحليل الحرام، والتخفُّف من العبادات، فلاقت دعوتهم رواجاً في أوساط غير المسلمين! ويشهد لهذا كلام الدكتور خليل اينالجيك في تأريخه للدولة العثمانية، والذي أوردته في الفصل الثاني، وأُعيده هنا، إذ يقول: «لقد لعبت البكتاشية دوراً كبيراً في انتشار الإسلام بين السكان المسيحيين البلقان، فقد أدّت الطبيعة الانتقائية والمميزات الخاصة لهذه الطريقة الشعبية إلى أن يكون الإسلام مقبولاً أكثر بالنسبة إلى الفلاحين في البلقان، فقد كانت تنظر بتسامح إلى كل الأديان، وكانت تعطي الأهمية للجوانب الداخلية على المظاهر الخارجية، ولم تلح على تأدية بعض الشعائر كالصلاة والصوم ولم تحظر شرب الخمر، كما أنها لم تمنع النساء من الخروج دون حجاب والاختلاط مع الرجال في المجتمع، وقد لعبت الدعوة الناجحة التي يقوم بها آباء البكتاشية دورها في جذب المسيحيين إلى هذه الطريقة الغريبة والديمقراطية في آن واحد، التي كانت بالنسبة لهم لا تختلف كثيراً عن المسيحية»[1].

ويشهد له أيضاً كلام حسن القزويني (وهو شيعيٌ يعيش في أمريكا) إذ يقول وهو يتحدث عن الصوفية في أمريكا: «وبما أن الصوفية لا تخوض غمار السياسة إطلاقاً، وليس لديها نشاط رسمي ومدويّ كما هو الشأن في عامة المراكز السنية والشيعية، فهي لا تثير حفيظة الإعلام الغربي الذي لا يرى فيها تهديداً لنمط الحياة الأمريكية وعقيدتهم، ولا يُبدي حساسية مفرطة تجاه الصوفية، كما يُبدي تجاه سائر المذاهب الإسلامية الأخرى. أضف إلى ذلك، فإن تركيز الصوفية على الجانب الروحي الصرف وعلى تجلي العلاقة التي تربط العبد بربه وعدم إيلاءها للممارسات العبادية العامّة أهمية كبرى، جعلها محببة لدى بعض الأمريكيين الذين عاشوا حضارة ملؤها الطقوس الدينية، وهم يبحثون عن نمط جديد من الروحية

(١) اينالجيك، تاريخ الدولة العثمانية، مرجع سابق، ص٢٩٧-٢٩٨

اليوم، تملأ فراغهم الروحي، وتعفيهم في ذات الوقت من الممارسات العبادية التي يستثقلها البعض منهم»[1].

ويشهد لهذا أيضاً ما ذكرته «فيليبا فريدريك» شيخة الطريقة الجرّاحية الصوفيه في أمريكا في لقاء مع قناة الجزيرة، إذ تقول: «علينا اليوم أن نجلس معاً، لقد فتح الحادي عشر من سبتمبر الباب واسعاً لنتفق على أن أدياننا ليست مختلفة، إنه دين واحد في الواقع، فمبادئ الأديان جميعاً متشابهة، ولا شيء يختلف سوى الطقوس والعبادة، نعم يمكنك الالتحاق بهذه الطريقة دون التمسك ببعض العبادات الإسلامية التي تميزك»[2]!.

وإلى مثل هذا أيضاً يشير الأستاذان: محمد وقيع الله، وعثمان أبو زيد، في كتابهما عن الوجود الإسلامي في أمريكا؛ إذ يقولان: «بينما يُسجِّل المسلمون السُنِّيون أغلبية مسلمي أمريكا فإن هنالك طرائق كبيرة تتخلل الوجود الإسلامي الأمريكي وينشط دعاتها في نشر عقائد منافية لعقيدة التوحيد. وتتمثل أبرز هذه العقائد في ادعاءات وحدة الوجود والشهود، وإمكان ظهور أنبياء جدد للإسلام بعد محمد ﷺ، ومحاولات للدمج بين الإسلام والنصرانية أو اليهودية أو بهما معاً، والدعوة إلى تجديد الإسلام تجديداً ممسوخاً»[3].

وبعد هذا كيف يمكن لنا أن نقبل دعوى أن الصوفية هم من حمل لواء الدعوة إلى الله ونشر العقيدة في إندونيسيا وأفريقيا وغيرها من البلدان!؟[4].

---

(١) حسن القزويني، الشمس تشرق من الغرب، مؤسسة البلاغ-بيروت، ط١، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م، ص١٨١-١٨٢.

(٢) قناة الجزيرة الفضائية، برنامج سري للغاية، حلقة بعنوان «البحث عن الصوفية»، ٢٠٠٨م، رابط الحلقة: http://www.youtube.com/watch?v=LepWoCEIsUY . وللمزيد من ضلالات «الدعوة» الصوفية في أمريكا: يُنظر: عزيز الكبيطي، التصوف الإسلامي في الولايات المتحدة، مرجع سابق، الصفحات: ١٣٤، ١٣٥، ١٥٦، ١٥٩، ٢٥١، ٢٥٥، ٢٧٠، وغيرها. وهو شاهد من أهل التصوف.

(٣) عثمان أبو زيد عثمان ومحمد وقيع الله أحمد، الوجود الإسلامي في أمريكا: الواقع والأمل، رابطة العالم الإسلامي- سلسة دعوة الحق، السنة٢٢، العدد ٢١٢، ١٤٢٦هـ ص٨٣

(٤) للمزيد حول هذه المسألة يُنظر على سبيل المثال: محمد أمان بن علي جامي، الإسلام في أفريقيا عبر التاريخ، نشر الجامعة الإسلامية-المدينة المنورة، ط٤، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.

السادس: أن التصوف في طوره المعاصر، ما برح يذم الاشتغال بالسياسة ويحث على الابتعاد عنها وتركها لأهلها، الأمر الذي أعطى للعلمانيين الفرصة الكبيرة في بلاد المسلمين، وكان التصوف في حقيقة الأمر جسراً لعبور العلمانية وتوطيدها في كثير من بلدان العالم الإسلامي[1]؛ وقد بيّنت هذا الأمر بالتفصيل في الفصل الأول.

السابع: أن التصوف في أطواره القديمة والحديثة لا يُقيم وزنا للقتال في سبيل الله، وواقعهم قديماً وحديثاً خير شاهد على هذا، ومردُّ هذا ليس إلى الخذلان أو الجبن أو الضعف؛ بل هو نتيجةٌ طبيعية لمجموع انحرافاتهم العقدية؛ في القدَر والرضا والتوكل، وكذا قولهم بالإرجاء ووحدة الوجود،..الخ، وأما الزعم بأن أهل التصوف هم أهل الجهاد فهو زعم باطل. وقد ناقشت هذه المسألة أيضاً بالتفصيل في الفصل الأول.

الثامن: هناك خاصية تمتاز بها الدعوة الصوفية، وهي الطاعة المطلقة للشيخ، والتي تُزرع في المريد منذ أن يبايع شيخه[2]، وهذه الطاعة هي النُكتةُ الجوهرية التي صنعت للطرق الصوفية قوة وثقلاً في العالم الإسلامي، وليس الذي صنع قوتها هو سلامة ما تعتقد أو صحة ما تنتهج، فتأمل!.

وبعد، فهذه الثمانية هي أبرز محددات الدعوة الصوفية المعاصرة، وأهل التصوف وإن اتفقوا عليها إجمالاً إلا أنهم في غيرها من المضامين مذاهب وطرائق لا حصر لها، إذ لكل طريقة طقوسها وأورادها الخاصة بها.

---

(١) أنبه هنا إلى أنه لا يوجد في الإسلام فصل بين السياسة والدين على اعتبار أن السياسة من أمور الدنيا، بل السياسة كغيرها من مسائل الحياة عند المسلمين؛ كالتجارة والزراعة وغيرها، والتي يجري عليها أحكام الإسلام من الحلال والحرام وغير ذلك، فكما أن التاجر لا يجوز له الغش والكذب فكذلك الراعي (الزعيم السياسي) لا يجوز له ذلك، وهكذا، وبما أن السياسة تتعلق بمصالح الناس ومعاشهم، فقد اعتنى بضبطها علماء المسلمين، وبيّنوا فيها حقوق الراعي والرعية، لكي لا يطغى أحدهما على الآخر، إلى غير ذلك مما هو معلوم في موضعه.

(٢) أساس هذه الطاعة عند عامة الناس من المسلمين هو ما حباه الإسلامُ لأهل العلم من الفضل والتشريف بجعلهم ورثة الأنبياء؛ الأمر الذي أورث حبهم وإجلالهم والثقة بهم عند عامة الناس. وعلى هذا الأساس الصحيح زرع مشايخ التصوف تلك الطاعة المنحرفة في نفوس مريديهم، ولذلك تحولت بسبب تجاوزهم هدي الكتاب والسنة من طاعةٍ صحيحة (مقيدة باتباع الكتاب والسنة) إلى طاعة مطلقة للشيخ (في الحق والباطل). ولعل الله يُقيِّض لأولئك المخدوعين من يُنير لهم الدرب، ويبين لهم ألاّ طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وألاّ واسطة بينهم وبين الله في العبادة؛ لا «وليّ» حي، ولا «وليّ» ميت.

ولقد سارت الدعوة الصوفية -بعد تفكك العالم الإسلامي إلى دول- بهدوء؛ مدعومة برضا السياسي عنها، وداعمةً هي له في العديد من بلدان العالم الإسلامي[1]، وبعد أن تنامت الصحوة الإسلامية في كثير من دول العالم الإسلامي، ونالت قبولاً وقوة وانتشاراً كبيراً بين الناس؛ ناصبتها الدعوة الصوفية العداء، وزرعت في أتباعها من جديد كره السلفي «الوهابي». ولولا الدعم السياسي للطرق الصوفية لاضمحلّت في كثير من البلدان، حيث باتت أداة استعملها السياسي في مواجهة الصحوة السلفية، الأمر الذي أعاد للصوفية حيويتها بشكل عام، وحول هذا الأمر يقول الدكتور المتصوف إيريك جوفروا: «ابتداءً من ثمانينيات القرن العشرين، طال تسييس الحياة الإسلامية الأوساط الصوفية. ففي مواجهة تنامي الحركات الإسلامية، فهم بعض الدول الفائدة التي يمكن أن تجنيها من الارتكاز إلى الأوساط الصوفية. وهو الخط الذي اعتمده السادات في مصر، ثم خلفه في ذلك مبارك، وكذا فعل القذافي الذي بحث عن الاقتراب من مشايخ الطرق؛ وفطنت جزائر بن جديد مؤخراً إلى ذلك. فظهرت الطرق من جديد إلى السطح، بشكل من الأشكال، بعد أن كانت مضطرة إلى العمل في الخفاء. فإسلام الهدوء والانفتاح الذي ينادي به أغلب مشايخ التصوف هو بلا شك أفضل ترياق للمفاهيم الضيقة التي تسوّقها الحركات الإسلامية. ولكن إذا ما كانت السلطات تقدم هنا وهناك دعماً للطرق، فإن ذلك لا يمكن أن يمر دون ضرائب مشؤومة مثل ارتهان الروحانية للسياسة، وفي إطار صراع المصالح الذي يجب خوضه ضد التيارات الإسلامية، أنشأ المتصوفة مؤسسات ومدارس وشركات مالية كبرى وجرائد وقنوات تلفزية...الخ. وأنتج ذلك ظهور مجموعات ضغط خاصة، عبر «الجمعيات الإسلامية» أو «جمعيات العلماء» على سبيل المثال، وبدأوا يفاوضون

---

(١) إن حظر أتاتورك للطرق الصوفية في عام ١٩٢٥م، والتضييق الذي تعرضت له الطرق الصوفية -مثلاً- في الجزائر في عهد بومدين، أو في تونس في عهد بورقيبة، لم يكن في إطار محاربة التصوف، بل في إطار الخوف من القوة الجمعية التي تتمتع بها بعض الطرق الصوفية، والتي أتت من كثرة أعداد المريدين وطاعتهم المطلقة لشيخ الطريقة. ولذلك بقيت الصوفية حاضرة بفاعلية في تركيا بشكلها غير الطرقي، ولم يحاربها في دعوتها أحد، وكذلك أيضاً بقيت الصوفية حاضرة بطرقها في بقية بلدان العالم الإسلامي، بعد أن اطمأن السياسي لها، وأمن جانبها.

«تجيير» أصواتهم الانتخابية، ويموّلون الأحزاب السياسية، يظهر ذلك بجلاء في إندونيسيا والباكستان والسودان، وكان حزب الرفاه وزعيمه أربكان، الذي حكم تركيا في تسعينيات القرن الماضي، تحت تأثير النقشبندية، كما أن الرئيس التركي السابق ترغوت أوزال (ت١٩٩٣م) كان بدوره منخرطاً في هذه الطريقة، ولم يتمكن عدد من الرؤساء من إخفاء انتمائهم إلى التيار الصوفي، مثل عبدالرحمان وحيد الرئيس الأسبق لإندونيسيا، أو الراحل الحسن الثاني الذي كان منخرطاً في الطريقة التيجانية»[١].

ويقول فريدريك ويهري في مجلة الشؤون الخارجية :«وطوال أعوام، ناوأ القذافي الحركة الصوفية، ورأى أنها قد تهدد سلطته، ولكنه تراجع عن سياسة تهميشها، ودعم عمل الشبكة الصوفية الخيرية لدرء أخطار الحركة السلفية المتطرفة»[٢]، وشهد للقذافي بذلك شيخ الطريقة العزمية محمد أبو العزايم إذ قال: «لم يخدم الإسلام أحدٌ في أفريقيا مثل القذافي»[٣].

وبما أن الكثير من السياسيين في العالم الإسلامي لا يبتغي من وراء كل هذا سوى تحقيق منفعته السياسية، فقد عمد الكثير منهم إلى سياسة التوازنات، وذلك بالإبقاء على الجميع وإنْ بامتيازات متفاوته، فإنه في الوقت الذي يرى فيه أن من مصلحته دعم الصوفية، يرى أيضاً في ذات الوقت أن من مصلحته بقاء السلفية، حتى لا يجد نفسه أمام تيار واحد لا يمكن السيطرة عليه! وهذه السياسة انعكست سلباً -في العديد من البلدان- على استقرار الناس في دينهم ودنياهم.

والخلاصة هنا، أن الدعوة الصوفية المعاصرة استطاعت عبر مضامينها العقدية والسلوكية أن تشكل كيانات داخلية قوية (طرق)، وبعد أن تنامت الدعوة السلفية (الصحوة) في العالم الإسلامي وخارجه استطاع السياسي

---

(١) إيريك جوفروا، التصوف: طريق الإسلام الجوانية، ترجمة: عبدالحق الزموري، نشر هيئة أبوظبي للثقافة والتراث (كلمة)، ط١، ١٤٣١هـ-٢٠١٠م، ١٣٤-١٣٥

(٢) جريدة الحياة، العدد ١٧٥٠٥، في ٤/ ٤/ ١٤٣٢هـ- ٩/ ٣/ ٢٠١١م.

(٣) قناة الجزيرة مباشر مصر، لقاء مع الشيخ محمد علاء أبو العزايم، في ٢٠١١م، الرابط: *http://www.youtube.com/watch?v=h8jOMuGPrOU*

أن يستغل تلك الطرق ليكبح بها ذلك التنامي السلفي، فاستفاد منها، واستفادت من دعمه المادي والمعنوي لها. ولكنه لم يستطع أن يدعم شرعيتها، والتي لم تصمد أمام الدعوة السلفية التي ترفع شعار الاتباع لا الابتداع؛ الشعار الذي كان يهدد مصدر قوة تلك الطرق، وهو كثرة الأتباع (المطيعين)، إذ باتت الدعوة السلفية تلامس فطرة المسلمين، وتحيي فيهم العقل الذي عطّلته «الطاعة المطلقة»، وتهديهم إلى صراط الحق ﷺ.

ودام هذا الحال حتى وقعت أحداث ١١ سبتمبر، فتجددت وانتعشت الدعوة الصوفية، الأمر الذي قلب الموازين، وغير اتجاه التهديد! وهذا ما سأتناوله في المطلب التالي.

المطلب الثاني : الدعوة الصوفية بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م

تحدثت فيما مضى من مباحث عن ما حظيت به الصوفية بعد ١١ سبتمبر من دعم كبير ومتنوع، سواءٌ من مراكز البحوث الأمريكية، أو من الحكومة الأمريكية، أو من بعض الحكومات في العالم الإسلامي، وهنا سأتناول الدعوة الصوفية ذاتها، والمتغيرات التي طرأت عليها بعد ذلك التاريخ، وأنبه في البدء إلى أمر مهم وهو أن أمريكا ربطت بشكل قاطع وواضح بين الإرهاب والتطرف وبين المنهج السلفي، وعلى هذا الأساس تبنت دعم الصوفية، وتبنت بشكل عام «الحرب الفكرية»، والتي سأتحدث عنها في المبحث القادم.

لقد وجدت الدعوة الصوفية بين عشية وضحاها أنها محط اهتمام القوة العظمى في العالم، والتي اجتمع رئيسها بعد تسعة أيام فقط من أحداث ١١سبتمبر بالداعية الصوفي الشيخ حمزة يوسف بعد أن اختاره البيت الأبيض تحديداً لذلك الاجتماع، ووجدت أيضـاً فجأة أنها محط دعم وتأييد أمريكي ودولي؛ يشهد بذلك الواقع، ولا يُنكره المتصوفة، كما بيَّنت ذلك بالتفصيل فيما سبق.

هذه العناية والحفاوة والدعم أحدثت تغيراً وتطوراً في مسار الدعوة الصوفية وخطابها منذ الأيام الأولى التالية لأحداث سبتمبر، ويمكن ملاحظة بداية ذلك في مضمون خطاب الشيخ حمزة يوسف بعد تلك الأحداث مباشرة، ومنه حديثه إلى الجريدة الشهيرة «سان خوسيه ميركوري نيوز» بعد ١١ سبتمبر بخمسة أيام فقط، إذ قال في لقائها معه: «نحن كمسلمين علينا أن نسأل: لماذا فشلت القيادات الدينية عندنا في إيصال حقيقة الإسلام لهؤلاء الناس»[(١)] -أي الذين نفذوا هجمات ١١سبتمبر-. وبعد ذلك بأيام كان اجتماعه بالرئيس الأمريكي «بوش الابن»، وكان مما قاله للرئيس في ذلك الاجتماع: «حتى لو أن هناك بعض الناس ينتمون إلى الإسلام شاركوا في هذه العملية فإن الإسلام الحقيقي يبقى بريئـاً من هذه

---

(١) جريدة سان خوسيه ميركوري الأمريكية، في ١٦/ ٩/ ٢٠٠١م.

العملية ومن عملهم»[1]، وقال له أيضاً: «لا بد أن يعالج هذا التطرف الموجود في العالم بطريقة صحيحة لا بالحروب والقصف ولكن بالتثقيف والتعليم لأن التطرف هو نتيجة للجهل ونتيجة للظروف القائمة التي نزلت بالمسلمين، وقلت له إن الظلم الذي نجده في بعض البلاد الإسلامية والضغط على الشعوب إذا لم يُعالج سيجعل التطرف يتزايد يوماً بعد يوم»[2].

إن التطور الملحوظ -في هذه الكلمة الصوفية التي سمعها الرئيس الأمريكي- هو أنها تُشير بمنطوقها إلى أن هناك إسلام حقيقي يغفل عنه الأمريكان! وبمفهومها إلى أن هناك أيضاً نوع آخر من الإسلام، يحمل في طياته التطرف والإرهاب، وهو الذي فعل هذه الفعلة في أمريكا!!.

هذا التطور السريع والمباشر والمتعاطي مع الحدث في الخطاب الصوفي هو ما بات اليوم عماد الدعوة الصوفية!؛ إذ لم يعد مضمون الخطاب الصوفي اليوم يقتصر على الحديث عن الزهد وتهذيب النفس ونحو ذلك فقط، بل بات يتضمن الحديث عن «الإسلام الحقيقي». بل إنك لتجد بعض المتصوفة بات يُنازع حتى في مسمى السلفية، ويرى أنهم هم السلفية دون سواهم! وأنهم هم أهل السنة والجماعة، وأهل الحديث، ..الخ!!

لقد ذكرت في المطلب السابق أن رموز التصوف تجاه السلفية ما بين مخالف بدهاء، ولا يميل إلى الصدام مع السلفية، وما بين مجاهرٍ بدعوته الصوفية، وعداوته للسلفية؛ ولئن كان الشيخ حمزة يوسف يُمثل النوع الأول الهادئ، فإن شيخ الطريقة النقشبندية في أمريكا محمد هشام قباني يمثل النوع الثاني المجاهر، وهذا أنموذج من أحد لقاءات قباني في إحدى الجرائد:

«س: هل تقول إن الوهابية هي المصدر الرئيسي للإرهاب؟

(١) جريدة البيان الإماراتية، في ١٢/١/٢٠٠٢م، حوار مع الداعية الأمريكي حمزة يوسف هانسون.

(٢) المرجع نفسه.

ج: بالطبع نعم، فإن الإسلام ظلّ مسالماً ولا يسمح بالعدوان، إلا أن أصحاب المذهب الوهابي نشروا الأفكار المتطرفة ومولوها بأموال النفط. اليوم نجد الوهابية في كل مكان وليس فقط في السعودية، وإذا ذهبت إلى أي مسجد ستجد الكتب القادمة من السعودية عن محمد بن عبدالوهاب (مؤسس الوهابية) ولن تجد إلا الكتب التي كتبها علماء السعودية.

س: هل المسلمون على استعداد للقول بأن السعوديين يقفون وراء التطرف؟

ج: اسأل المختطفين التسعة عشر الذين شنوا هجمات انتحارية على الولايات المتحدة في سبتمبر ٢٠٠١م فالعديد منهم من مواليد السعودية، ولا داعي لتسألني هذا السؤال.

س: هل السبب الذي يجعل المعتدلين غير راغبين في الحديث هو أنهم لا يرغبون في الإفصاح عن الذين يقفون وراء التطرف؟

ج: نعم ذلك صحيح إلى حدٍ ما، ولكن هؤلاء أيضاً يواجهون التهديد، وهم خائفون لأنهم لن يجدوا من يدافعون عنهم»[(١)].

وبعد، فهذان النموذجان (حمزة، وقباني) يمثلان تطور خطاب الدعوة الصوفية بعد ١١ سبتمبر وموقفها من السلفية، وهو في حقيقته موقف واحد بأسلوبين (هادئ، ومجاهر بالعداء). وهذا الموقف الصوفي يقوم في محصلته على إثبات وتأكيد تهمة التطرف وإنتاج الإرهاب بحق الدعوة السلفية، وفي ذات الوقت الانسجام التام مع الاستراتيجة الأمريكية لمكافحة الإرهاب والتي تعني -في شقها الفكري- مكافحة السلفية، ودعم التصوف أو ما يُسمونه بالإسلام المعتدل أو التقليدي.

وهذا الموقف الصوفي من الدعوة السلفية والذي حدث داخل أمريكا هو ذات الموقف الذي حدث في العالم الإسلامي، وبنفس المسلكين (الهادئ والمجاهر)، ويمكن التمثيل على الموقف الهادئ بالشيخ عبدالله

---

(١) جريدة ستريتس تايم السنغافورية، في ١٢/ ١٢/ ٢٠٠٤م، ترجمة موقع إسلام ديلي، مرجع سابق.

بن بيه، وعلى المجاهر بشيخ الطريقة العزمية محمد علاء أبو العزايم، والذي لا شغل له إلا الطعن صراحة في الدعوة السلفية ورموزها، وسخّر لذلك جهداً كبيراً ذكرتُ طرفاً منه في أجزاء متفرقة من هذا البحث، وثمة من يُراوح بين الأسلوبين؛ كالحبيب علي الجفري، والذي لا يفتأ يقدح في الدعوة السلفية، تارة تلميحاً وأخرى تصريحاً[1].

هذا، ويمكن بالقول بأن الدعوة الصوفية بمضامينها الآنفة الذكر في المطلب الأول قد اتخذت بعد ١١ سبتمبر خطابين جديدين، هما:

الخطاب الأول: الدعوة إلى التصوف باعتباره «الإسلام الحقيقي»، الذي يحمل روح التعايش والتسامح والاعتدال، وهذا النوع من الخطاب متوجِّه في الغالب نحو الساسة (الغربيين بالدرجة الأولى).

الخطاب الثاني: الدعوة إلى التصوف باعتباره «جوهر الإسلام الحقيقي»، وأنه هو مرتبة الإحسان الواردة في حديث جبريل ﷺ. وهذا النوع من الخطاب متوجه في الغالب نحو عامة الناس.

فأما الخطاب الأول فقد بدأ مباشرة بعد الأيام الأولى من ١١ سبتمبر كما أوضحت آنفاً، ولا يزال على أشده إلى يومنا هذا، وهذا النوع من الخطاب لم يُضف شيئاً جديداً إلى مضمون التصوف؛ فالتصوف يحمل في طياته القبول بالأديان الأخرى، وهي درجة تفوق مجرد التعايش والتسامح والاعتدال، وهي النتيجة الطبيعية لوحدة الوجود التي هي غاية التصوف، كما يقول المستشرق «نيكلسون»: «وقد لزم عن القول بوحدة الوجود، أي القول بأن كل وجود وكل فكر وعمل هو في الحقيقة لله، لوازم لم يتحرج الصوفية من التسليم بها»[2].

ولم يُضف أيضاً جديداً إلى المعرفة الغربية بالتصوف، فشأنهم مرقومٌ في قواميس وموسوعات الغرب، وقد تحدثت عن هذه المسألة بالتفصيل في الفصلين الأول والثاني، ولكن الجديد أن تتبنى أمريكا هذا الخطاب الصوفي

---

(١) للمزيد عن فكر الحبيب الجفري يُنظر كتاب: النصيحة: مناقشة لفكر الحبيب الجفري، طباعة ونشر موقع الصوفية، ط١، ١٤٣١هـ-٢٠١٠م.

(٢) نيكلسون، في التصوف الإسلامي وتاريخه، ص٨٨

وتدعمه؛ باعتباره أداة رئيسية في مكافحة التطرف (السلفي)، الأمر الذي جعل الصوفية يُعلُون من شأن هذا الخطاب، سواء في أمريكا أو خارجها، بل ويصرِّحون بأن التصوف بما يحمله من تسامح واعتدال وتعايش هو علاج التطرف.

وفيما يلي سأورد نماذج متفرقة تبيِّن مدى حرص الصوفية على إدراج عبارة «التسامح والاعتدال» في خطابهم، والتصريح في ذات الوقت بأن التصوف هل الحل الناجع للتطرف:

١- نقل موقع «مغاربية»، التابع لوزارة الدفاع الأمريكية، أثناء تغطيته للملتقى الإقليمي للصوفية في موريتانيا، مقتطفات من كلمات بعض المشاركين، ومنها قول وزير الشؤون الإسلامية والتعليم الأصلي في موريتانيا: «في الوقت الذي تحاول فيه ثقافة الغلو والتطرف تمزيق بنيتنا الفكرية وتهديد أمننا واستقرارنا فمن الأحرى بنا أن نحيي فضاء التصوف الذي هو منبع السلم وصفاء القلوب»[1]، ومنها أيضاً قول مستشار الشؤون الدينية السنغالي: «الطريقة الصوفية في المنطقة لعبت ولا تزال تلعب دوراً كبيراً في ربط الشعوب الإفريقية بالعالم كله بهدف ترسيخ السلام العالمي وتحقيق الرفاه لكل الشعوب»[2]، وأيضاً قول الأمين العام لرابطة علماء موريتانيا: «التصوف هو البلسم الشافي ضد العنف والتطرف والغلو»[3].

٢- هناك أيضاً نماذج صوفية أكثر صراحة ووضوحاً في بيان منبع التسامح والاعتدال والتعايش في الفكر الصوفي، وغالباً ما تجد هذه الصراحة عند المتصوفة الغربيين، ومن ذلك ما ذكرته «فيلبيا فريدريك» شيخة الطريقة الجراحية في أمريكا، الذي أوردتُهُ سابقاً، وأعيده هنا لأهميته، إذ قالت: «علينا اليوم أن نجلس معاً، لقد فتح الحادي عشر من سبتمبر الباب واسعاً لنتفق على أن أدياننا ليست مختلفة، إنه دين واحد في الواقع، فمبادئ الأديان جميعاً متشابهة، ولا شيء يختلف سوى الطقوس

---

(١) موقع مغاربية، خبر بعنوان: ملتقى الصوفية يدعو إلى الاعتدال، في ٢٥/ ١٠/ ٢٠١٠م، رابط الخبر: *http://magharebia.com/ar/articles/awi/features/2010/10/25/feature-01*

(٢) المرجع نفسه.

(٣) المرجع نفسه.

والعبادة، نعم يمكنك الالتحاق بهذه الطريقة دون التمسك ببعض العبادات الإسلامية التي تميزك»[1]. وثمة نماذج أخرى صريحة مثل هذه، ذكرها عزيز الكبيطي في كتابه عن التصوف في أمريكا، وقد نقلت بعضاً منها في مواطن متفرقة من هذا البحث.

٣- وفي مثال آخر نجد أن منظمة «منهاج القرآن» التي أسسها في بريطانيا الداعية الصوفي الباكستاني الدكتور محمد طاهر القادري ترفع شعار الإسلام المعتدل والمتسامح لدعوتها الصوفية النشطة بشكل كبير في بريطانيا وأمريكا، وفي ذات الاتجاه أيضاً نجدها تقدم نصائح للحكومة البريطانية حول طرق مكافحة التطرف بين أبناء المسلمين[2].

وبعد، فلقد بلغ صدى هذا الخطاب الصوفي الداعي إلى التسامح الإعلام الأمريكي الناشط في العالم الإسلامي، بل بات ناشراً له، ومن ذلك من نقلتُهُ آنفاً عن موقع «مغاربية» الأمريكي، وكذلك أيضا ما جاء في تقرير مرئي بثته «قناة الحرة»[3] الأمريكية بعنوان «الصوفية لمحاربة التطرف في الجزائر»، إذ جاء في مطلعه ما يلي: «تزايد اهتمام ودعم السلطات الجزائرية بما يُعرف بأتباع التيار الصوفي، المعروف بالاعتدال والوسطية، في محاولة لتحجيم نشاط التيار السلفي المتشدد والذي يدعو إلى العنف والتطرف»[4].

هذا الخطاب الصوفي الصريح، والموجه للسياسي بالدرجة الأولى، والذي يحمل طياته التزكية للتصوف والطعن في السلفية، لم أجد له مثيلاً في تاريخ التصوف، لا من جهة تَقَرُّبه صراحةً للسياسي الغربي أو العربي[5]، ولا من جهة شدة عداوته للدعوة السلفية، ورميها عن قوس واحدة

---

(١) قناة الجزيرة الفضائية، برنامج سري للغاية، حلقة بعوان «البحث عن الصوفية»، ٢٠٠٨م، رابط الحلقة: http://www.youtube.com/watch?v=LepWoCEIsUY

(٢) جريدة الشرق الأوسط، العدد١١٩٨٨، في ٢٥/ ١٠/ ١٤٣٢هـ- ٢٤/ ٩/ ٢٠١١م.

(٣) قناة الحرة، -كما ورد في موقعها- هي قناة غير تجارية، ناطقة باللغة العربية، ويمولها الكونجرس الأمريكي. يُنظر: موقع قناة الحرة، الرابط: *www.alhurra.com*

(٤) قناة الحرة، تقرير بعنوان «الصوفية لمحاربة التطرف في الجزائر»، في يوليو ٢٠٠٩م، رابط التقرير: *http://www.youtube.com/watch?v=J7SCFOwbytU*

(٥) سيأتي المزيد حول الواقع الصوفي السياسي المعاصر في المبحث التالي.

بالتطرف والإرهاب؛ لاستعداء السياسي عليها، ولتنفير الناس منها![1]

وأما الخطاب الصوفي الثاني فهو أيضاً سابقة في تاريخ التصوف، والذي تجاوز فيه الصوفية خطاب «التصوف في الإسلام» أو «التصوف الإسلامي» إلى خطاب «التصوف هو الإسلام»، أو «التصوف هو جوهر الإسلام»، بل وأعلى مراتب الإسلام؛ وهو الإحسان!. يذكر المتصوف الفرنسي «إيريك جوفروا» أن مفتي سوريا السابق أحمد كفتارو اقترح تغيير اسم «التصوف» إلى «الإحسان»[2]. ويبدو أن هذا الاقتراح وجد طريقه إلى التطبيق بعد ١١ سبتمبر.

وبما أن التصوف بات عند أهله بهذا المعنى الشمولي (هو الإسلام) في عصر ما بعد ١١ سبتمبر، فقد طرأت على مسيرته الجديدة بعض التطورات البارزة، وذلك لكي يتناسب وهذه المرحلة الشمولية الجديدة التي يعيشها، هذه التطورات على سبيل الإجمال هي:

١. تأسيس مراكز علمية صوفية.

٢. تفعيل دور المرأة في الدعوة الصوفية.

٣. بروز «التصوف الجديد».

٤. تركيز الصوفية على مسألة «التسامح بين الأديان».

٥. انخراط الصوفية في مسألة «الإصلاح».

٦. كثرة المؤتمرات والملتقيات.

٧. تكوين الاتحادات الصوفية.

وبيان هذه التطورات بالتفصيل على نحو ما يلي:

(١) ما ورد في التاريخ بين الصوفية والسلفية (أهل السنة)، لم يعدو الخلافات العقدية والفقهية، والتي كانوا يستعدون السياسي على أهل السنة بها، كما وقع من فتنة ابن القشيري في بغداد، وما وقع منهم في حق شيخ الإسلام ابن تيمية.

(٢) إيريك جوفروا، التصوف طريق الإسلام الجوانية، ص١٣٦

أبرز التطورات التي ظهرت في الدعوة الصوفية بعد ١١ سبتمبر

أولاً: تأسيس مراكز علمية صوفية

من المعلوم أن أهل السنة والجماعة عبر التاريخ وحتى يومنا هذا هم أهل العناية بعلوم الشريعة؛ تحقيقاً وتأليفا، ولا يجاريهم أهل التصوف في ذلك، وبخاصة في هذا الزمان؛ والذي لا تكاد تجد فيه عالماً متفنناً إلا وهو من أهل الدعوة السلفية، وأما أهل التصوف فقد عُرفوا بالبعد عن تحقيق علوم الشريعة وتحصيلها، وبخاصة بعد أن غلبت عليهم الصِّبغة الطرقية، والتي ليس فيها سوى العناية بالطقوس البدعية والرقص والموالد، حتى بات شيخ الطريقة يتفنن في ابتداع أورادٍ وطقوسٍ تُميِّز طريقته عن الطرق الأخرى. وليس أدل على بعدهم عن التحقيق العلمي، من إهمالهم لكتاب إحياء علوم الدين، والذي يحتل منزلة عالية عندهم، حيث يتدارسونه ويعتنون بكل ما ورد فيه، ومع ذلك لم يُخرِّجوا أحاديثه عبر قرون متطاولة وحتى اليوم، على الرغم من تضمُّنه قرابة ألف حديث لا يصح[1]؛ قال الإمام الذهبي-رحمه الله-: «أما الإحياء ففيه من الأحاديث الباطلة جملة، وفيه خير كثير لولا ما فيه من آداب ورسوم وزهد من طرائق الحكماء ومنحرفي الصوفية، نسأل الله علماً نافعاً، تدري ما العلم النافع؟ هو ما نزل به القرآن، وفسَّره الرسول ﷺ قولاً وفعلاً، ولم يأت نهي عنه، قال عليه الصلاة والسلام: (من رغب عن سنتي، فليس مني)»[2]. والأدهى من ذلك أن تجد من رموز التصوف من يطعن في علماء الحديث وينتقصهم، وذلك كفعل الحبيب علي الجفري في حق محدِّث عصرنا الشيخ محمد ناصر

---

(١) في عام ١٤٣٢هـ-٢٠١١م وبمناسبة مرور ٩٠٠ سنة على وفاة الغزالي -رحمه الله- أصدرت دار المنهاج بجدة طبعة فاخرة محققة من كتاب إحياء علوم الدين، تقع في عشرة مجلدات، وتم مقابلتها على عشرين نسخة خطية، واستمر العمل فيها سبع سنوات. ولكنَّ أبرز ما يؤخذ على هذه الطبعة هو عدم التَّنبيه على المخالفات العقدية والسلوكية التي وردت في الإحياء، بالإضافة إلى عدم التعليق على الأحاديث الضعيفة والموضوعة إلا أحياناً. يُنظر: موقع الدرر السنية، عرض ونقد لطبعة دار المنهاج لإحياء علوم الدين، رابط الموضوع:
http: //www.dorar.net/art/1104

(٢) شمس الدين أبو عبدالله الذهبي، سير أعلام النبلاء، محقق بإشراف: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة-بيروت، ط٣، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ١٩/ ٣٣٩-٣٤٠

الدين الألباني، رحمه الله وأسكنه الفردوس الأعلى[1].

وأما بعدَ أن توجهت أنظار العالم إلى الصوفية بعد ١١ سبتمبر، وباتوا بين عشية وضحاها هم المقدَّمين وهم من يمثل الإسلام، كان من لوازم ذلك الالتفات إلى تأسيس محاضن علمية شرعية، يرعونها وينطلقون منها في هذه الحقبة الجديدة! وإلى هذا الأمر يُشير -مُحذِّراً- الشيخ المحدِّث أبو إسحاق الحويني، إذ يؤكد أن ظاهرةً في مصر قد بدأت؛ تُسمَّى بالصوفية العلمية، وذلك على الرغم -كما يقول الشيخ- من أن عناية الصوفية كانت طوال عمرها بالرَّقص والطبل والزمر والموالد! إلا أنَّ منهم من قال: لن نستطيع إيقاف المد السلفي إلا بأن نجادلهم بأصولهم العلمية؛ ثم يؤكد الشيخ بأن «الصوفية لا يستطيعون الحياة بدون الأحاديث الضعيفة والموضوعة»[2]، وصدق في هذا.

فإذا كان هذا الأمر لوحظ كظاهرة جديدة في مصر، والتي يصول فيها التصوف ويجول منذ قرون متطاولة، فما الظن في غيرها من البلدان!

إن هذا الاتجاه نحو إعادة تأطير التصوف ضمن محاضن علميه لو كان قائماً على القرآن الكريم وصحيح السنة النبوية لكان نوراً لا يَنبغي لعاقل أن يرفضه، لأنه سيقود التصوف بلا ريب من ضيق البدعة إلى سعة السُّنَّة، ومن ظلمة الابتداع إلى نور الاتباع؛ ولكنَّ ما تم تأسيسه من تلك المحاضن إلى اليوم يُشير إلى أنها مجرد إلباس للبدعة ثوب العلم الشرعي! ورفعٌ للقائمين عليها إلى مقام المشايخ والعلماء الحاذقين! وهذه أمثلة لبضعة مشاريع علمية صوفية نَشطت أو أُنشأت بعد ١١ سبتمبر:

---

(١) ومن ذلك قوله في لقاء معه بمدية جدة: «وأكثر الشباب الآن مشغولين بهذا الكلام: بالتشريك والتبديع والوضع والتصحيح، وباللخبطة التي كان الألباني يقوم بها: هذا موضوع هذا صحيح، وغيّر مقاييس كل علوم الحديث السابقة، وخان فيها وغش..». يُنظر: السيد حسن الحسني، النصيحة: مناقشة لفكر الحبيب الجفري، ص١٣٠

(٢) يُنظر: أبو إسحاق الحويني، كلمة صوتية بعنوان: التحذير من الخطر القادم: الصوفية العلمية، ٢٠١٠م، رابط الكلمة:

http://www.youtube.com/watch?v=6jWH-YDl2rw

١- في ربيع الأول ١٤٢٧هـ/ إبريل ٢٠٠٦م تم الإعلان في مصر عن إنشاء الأكاديمية العالمية لعلوم التراث ودراسات التصوف[١]، التي تتبع للعشيرة المحمدية، والتي يُطلق عليها أيضاً «أكاديمية الإمام الرائد لدراسات التصوف وعلوم التراث»، وهي -كما ذكرت جريدة الأهرام- «الأولى من نوعها في العالم الإسلامي»!، وتضم تلك الأكاديمية خمسة معاهد، وهي: المعهد العالي للدراسات الصوفية، ومعهد رواد التصوف، والمركز العلمي للتصوف، ومعهد اللغة العربية لتعليم غير الناطقين بها، ومعهد الدراسات الصوفية باللغات الأجنبية (الإنجليزية والفرنسية)[٢].

وعن أهداف الأكاديمية يقول المستشار الإعلامي لها الدكتور محمد مهنا أن «أولها وأهمها ترشيد التصوف، ورد ممارسات الصوفية إلى الكتاب والسنة، وثانياً، إيقاظ وإنقاذ الحضارة الإسلامية من مستنقع المادة التي طغت على كل نواحي الحياة وذلك من خلال استلهام الأعماق الغيبية لهذه العلوم، وثالثاً، وهو هدف مهم، إعادة طرح العلاقات الدولية على أساس التصوف»[٣]، وأما مناهج الأكاديمية فجاء في موقعها الإليكتروني: «روعي في مناهج الدراسة بالأكاديمية أن تستند في المقام الأول إلى نفس الأطر والمناهج المقررة بالأزهر الشريف مع استلهام الأعماق الغيبية والأبعاد الصوفية لهذه المناهج والعلوم»[٤].

٢- في سبتمبر ٢٠١٣م كشف عبدالناصر الحلمي أمين عام «اتحاد القوى الصوفية وآل البيت» في مصر عن إعداد الاتحاد لإنشاء قناة فضائية، وجامعة إسلامية بأسلوب الدراسة عن بعد، وذلك بهدف نشر الإسلام الوسطي في العالم![٥].

---

(١) يُنظر: جريدة الشرق الأوسط، العدد١٠٠٠٤، في ١٢/ ٣/ ١٤٢٧هـ-١٩/ ٤/ ٢٠٠٦م.

(٢) يُنظر: جريدة الأهرام، في ٢١/ ١٠/ ٢٠١٠م، لقاء مع المستشار الإعلامي للأكاديمية الدكتور محمد مهنا.

(٣) المرجع نفسه.

(٤) موقع العشيرة المحمدية، أكاديمية الإمام الرائد لدراسات التصوف وعلوم التراث، الرابط:
http:/asheera.sufiacademy.net/sufiacademy/about-sufiacademy.html#5

(٥) يُنظر: موقع وكالة أنباء آسيا، حوار مع أمين عام اتحاد القوى الصوفية، في ١٢/ ٩/ ٢٠١٣م، رابط الحوار: http://asianewslb.com/vdcftvdv.w6dt0aikiw.html

٣- في اليمن برزت محاضن التصوف بشكل قوي ومدعوم بعد ١١ سبتمبر، إذ عاودت جامعة دار العلوم الشرعية في الحديدة (جامعة مرعي)[(١)] نشاطها عام ٢٠٠٣م بعد استكمال أقسامها (كان بدء تأسيسها في ١٤١٣هـ-١٩٩٢م). وهذه الجامعة تقوم على منهج صوفي، وتهدف إلى تخريج قادة يمنيين يحملون الفكر الصوفي[(٢)]، وفي عام ٢٠٠٦م حضر الرئيس اليمني السابق علي عبدالله صالح حفل تخريج الدفعة السابعة لهذه الجامعة[(٣)].

وأما دار المصطفى في تريم، والتي يقوم عليها الحبيب عمر بن حفيظ، فبات لها شأنٌ في اليمن؛ حتى إنها أُستثنيت من قرار إغلاق المدارس الدينية في اليمن، والذي جاء عقبت أحداث ١١ سبتمبر[(٤)]! وعندما سئل الحبيب علي الجفري في لقاء تلفزيوني معه عن سبب إغلاق الحكومة اليمنية لثلاثمائة معهد ديني ومدرسة بعد ١١ سبتمبر وإبقائها على دار المصطفى في تريم؟ أجاب بأن الإغلاق كان لاعتبارات سياسية، والصوفية تقع خارج تلك المعادلة السياسية! وذلك -كما زعم- أن الحكومة اليمنية حينما كانت في صراع مع الجنوب الاشتراكي، كانت بحاجة إلى عقيدة أو فكر لمواجهة الشيوعية، ففُتِحت هذه المدارس![(٥)].

وهذه واحدة من فيض زلات الحبيب الجفري وتحاملاته على الدعوة السلفية، والتي أنسته في تلك اللحظة تاريخ الوحدة اليمنية (في ١٩٩٤م) واندحار الشيوعية في اليمن الجنوبي، والتي كانت قبل تاريخ إجابته لهذا السؤال (في ٢٠٠٤م) بعشر سنوات! بمعنى أن الحكومة اليمنية -بناءً على كلامه- اكتشفت بعد ١٠ سنوات من هزيمة الشيوعيين أنها ليست بحاجة

---

(١) نسبة إلى مؤسسها الشيخ الصوفي محمد علي يحى مرعي. لمطالعة سيرته يُنظر: موقع رابطة علماء اليمن، الرابط: http://yemenscholars.com/?q=articles/588

(٢) يُنظر: محمد عبدالله المقدي، التصوف بين التمكين والمواجهة، نشر موقع الصوفية، ط بدون، ١٤٢٩هـ، ص٤١

(٣) يُنظر: جريدة ٢٦ سبتمبر اليمنية، العدد ١٢٦٢، في ٢٤/ ٥/ ٢٠٠٦م.

(٤) جاء قرار الإغلاق تحت ذريعة عدم إقرار وزارة التربية والتعليم لمناهج تلك المدارس، وتحت شعار سعي الحكومة اليمنية إلى تحقيق الوسطية والاعتدال الإسلامي والأمن الوطني!، يُنظر: جريدة الشرق الأوسط، العدد ٩٣٤٦، في ١٣/ ٥/ ١٤٢٥هـ- ٣٠/ ٦/ ٢٠٠٤م.

(٥) يُنظر: قناة العربية، برنامج إضاءات، في ٣/ ١٢/ ٢٠٠٤م، مرجع سابق.

إلى المدارس السلفية، فأغلقتها! ويفهم من جوابه أيضاً أن الصوفية لم يكن لها دور في مناهضة الشيوعية، وقد كان ذاك واقعها الذي نطق به الجفري من حيث لا يَشعر.

٤- في ٢٠٠٣م تم تأسيس جمعية الإمام مالك بن أنس في دولة البحرين، وهي جمعية صوفية يرأسها الشيخ إبراهيم راشد المريخي، زعيم صوفية البحرين. ويقع ضمن أهداف تلك الجمعية: دعم الحركة العلمية الفقهية، وإقامة المحاضرات والندوات ذات العلاقة بالشريعة والفقه[1].

٥- في ٨/ ١/ ٢٠٠٤م أُعلن في العراق عن تشكيل «الأمانة العليا للإفتاء والتدريس والبحوث والتصوف الإسلامي» والتي من ضمن أهدافها: إنشاء المدارس الدينية، ودعم الطرق الصوفية الرصينة؛ البعيدة عن الفلسفات الغربية، والابتعاد عن الجمود الفكري والتطرف بجميع أشكاله[2].

٦- في كلية الدراسات الإسلامية بدولة قطر تم إدراج مقرر صوفي بعنوان «الصوفية: التاريخ والتحديات»[3].

٧- في عام ٢٠٠٩م افتُتحت في ولاية كاليفورنيا بأمريكا كلية الزيتونة، والتي قام بتأسيسها الشيخ حمزة يوسف[4] واثنين آخرين معه وهما: الشيخ الصوفي زيد شاكر[5]، والدكتور حاتم بازيان[6]؛ وهي امتداد وتطوير لمعهد

---

(١) يُنظر: جريدة الوسط البحرينية، العدد٣٨٢، في ٢٧/ ٧/ ١٤٢٤هـ-٢٣/ ٩/ ٢٠٠٣م. ومركز المسبار، الصوفية في السعودية والخليج، ص٥٦-٥٧

(٢) يُنظر: جريدة الشرق الأوسط، العدد٩١٧٣، في ١٧/ ١١/ ١٤٢٤هـ- ٩/ ١/ ٢٠٠٤م.

(٣) يُنظر: موقع كلية الدراسات الإسلامية في قطر، البرنامج الدراسي، الرابط:
http://www.qfis.edu.qa/home-ar

(٤) للمزيد عن أسس دعوة حمزة يوسف يُنظر: عزيز الكبيطي، التصوف الإسلامي في الولايات المتحدة، ص٢٨٠-١٨٦.

(٥) الشيخ زيد شاكر، أمريكي من أصول أفريقية، ولد عام ١٩٥٦م، واعتنق الاسلام عام ١٩٧٧م ١٩٧٧م أثناء عمله في القوات الجوية الأمريكية، درس لمدة سبع سنوات في «مُجمَّع الشيخ أحمد كفتارو» بدمشق (مجمع أبي النور سابقاً)، وهو مجمع أُسس بهدف تخريج الدعاة، أسَّسه مفتي سوريا السابق الشيخ أحمد كفتارو، وهو نقشبنديٌ أشعري، حمل في حياته همَّ «الحوار بين الأديان»، ومُجمَّعهُ يحمل صبغته. للمزيد عن هذا المجمَّع يُنظر: موقع مجمع الشيخ أحمد كفتارو: *http://www.abunour.net*

(٦) الدكتور حاتم بازيان فلسطيني المولد، ويعمل أستاذاً في قسم الشرق الأدنى والدراسات العرقية بجامعة كاليفورنيا، بركلي.

لمعهد الزيتونة الذي كان حمزة قد أسَّسه منذ عام ١٩٩٦م[١]، وهي كلية شرعية إسلامية تدرِّس اللغة العربية، والفقه على المذاهب الثلاثة ما عدا الحنبلي!![٢] وتدرس التصوف، وغير ذلك من العلوم. وتقبل الطلاب المتقدمين إليها ذكراناً وإناثاً، ومن أي ديانة ومعتقد[٣]، وتتم الدراسة في فصول مختلطة! وتضع الكلية ضمن أهدافها: توطين الإسلام في أمريكا[٤]!.

والمقصود من هذا التوطين ليس نشر الإسلام -المبني على الكتاب والسنة- في أمريكا، وإنما إعادة إنتاج إسلام بمواصفات أمريكية، أي: بمواصفات تتوائم مع الثقافة الأمريكية-كما يزعمون-، وهذه الصيغة (المنفتحة!) من الإسلام تلقى دعماً وترحيباً في أمريكا، حتى إن وزارة الخارجية الأمريكية تنشر خبر افتتاح كلية الزيتونة على موقعها الإليكتروني!

ومن وجهة نظري أن هذه الكلية هي أول محضنٍ علمي صوفي عبر تاريخ التصوف تتجلى فيه حقيقة التصوف ومخرجاته بوضوح، ويكفيك أن يجلس فيها الطلاب (ذكراناً وإناثا)، المسلم منهم والنصراني واليهودي والبوذي، جنباً إلى جنب، في قاعة واحدة، ليتلقوا علوم الشريعة الإسلامية!!. ولقد أشرت في موضع سابق بأن المتصوفة الغربيين يتميزون عن غيرهم بالصراحة في إظهار حقيقة معتقداتهم الصوفية، ولكن مشروع هذه الكلية يُضيف أيضاً بأنهم أكثر صراحة وجرأة في تطبيق حقيقة تلك المعتقدات على أرض الواقع، وتحت مظلة «كلية شرعية»!.

---

(١) يُنظر: موقع وزارة الخارجية الأمريكية، خبر بعنوان: علماء أمريكيون مسلمون يطلقون مشروع كلية إسلامية في كاليفورنيا، في ٢٧/ ٨/ ٢٠١٠م، رابط الخبر:
http://iipdigital.usembassy.gov/st/arabic/article/2010/08/20100827155304x0.7064739.html#axzz2qUlPUxAn

(٢) هذا الاستثناء للمذهب الحنبلي ذكَّرني بكلمة وردت في دائرة المعارف الإسلامية (الاستشراقية)، وهي: «لم ينكر مذهب من مذاهب أهل السنة البدعَ مثل ما أنكرها المذهب الحنبلي». دائرة المعارف الإسلامية، ترجمة إبراهيم خورشيد وآخرون، مصر، ١٣٥٣هـ-١٩٣٤م، المجلد الأول، العدد الخامس، مادة «أحمد بن حنبل»، ص٤٩٤.

(٣) يُنظر: موقع كلية الزيتونة، الرابط: *http://www.zaytunacollege.org/*

(٤) يُنظر: المرجع نفسه.

ثانياً: تفعيل دور المرأة في الدعوة التصوف

لقد برز تفعيل دور المرأة في الدعوة الصوفية بشكل ملحوظ بعد ١١ سبتمبر، ويتجلى ذلك التفعيل في أمرين، هما:

١- إشراك المرأة مباشرة في الدعوة إلى التصوف:

وأبرز مثال على ذلك برنامج «تكوين المرشدات الدينيات»، الذي أطلقته المغرب عام ٢٠٠٦م ضمن خطتها لإعادة هيكلة الحقل الديني، والتي بدأت في عام ٢٠٠٤؛ وفي حفل تخريج ٥٠ مرشدة عام ٢٠٠٦م قال وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب أحمد التوفيق: «إن الدارسات وعددهن ٥٠ تلقين دراسة مكثفة عصرية في مجالات عدة على رأسها القرآن الكريم والفقه والسنة ومناهج البحث والتصوف وتاريخ المسلمين والجغرافيا واللغات العربية والأجنبية»[١]، وأشار إلى أنه «تم تأهيلهن على أساس الالتزام بالعقيدة والمذهب المالكي وبسياسة الدولة»[٢].

وفي عام ٢٠٠٨م صرحت وزارة الأوقاف المغربية في بيان لها أنها تعتزم إرسال ١٦٧ إماماً و٩ مرشدات إلى أوروبا وأمريكا الشمالية، خلال شهر رمضان، وذكر البيان أن الهدف من هذه الخطوة يتمثل في صرف المهاجرين المغاربة عن أفكار التعصب والأصولية المتطرفة[٣]. هذا وقد أشاد تقرير الحريات الدينية الصادر عن وزارة الخارجية الأمريكية لعام ٢٠٠٩م ببرنامج تكوين المرشدات في المغرب، وقال إنه يُعزز التسامح ومشاركة النساء في الحقل الديني، وأكد التقرير أن المغرب يواصل جهوده الرامية إلى مكافحة التطرف وتشجيع التسامح والحوار بين المجموعات الدينية[٤].

ومن الأمثلة أيضاً تأسيس «دار النساء الصوفيات» في مصر عام

---

(١) الجزيرة نت، خبر بعنوان «المغرب يخرج مرشدات في خطة الإصلاح الديني»، في ٥/ ٤/ ١٤٢٧هـ-٥/ ٥/ ٢٠٠٦م، رابط الخبر:
http://www.aljazeera.net/news/pages/c11559d2-98bd-4e12-82a9-5ac90461ee6e

(٢) المرجع نفسه.

(٣) يُنظر: موقع مغاربية، في ٢٠/ ٧/ ٢٠٠٨م، رابط الخبر:
http://magharebia.com/ar/articles/awi/features/2008/07/20/feature-01

(٤) يُنظر: جريدة هسبريس الإليكترونية، في ٢٠/ ٦/ ٢٠١٠م، الرابط:
http://www.hespress.com/orbites/25168.html

١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م، والتي تضم في عضويتها زوجات شيوخ الطرق الصوفية في مصر، وكذلك زوجات المريدين. وتقول «ماجدة عيد» (مؤسِّسةُ الدار، وزوجة شيخ الطريقة الشهاوية): «لاحظت في الفترة الأخيرة انتشار الداعيات السلفيات على الفضائيات السلفية الدينية، وكونها غزت البيوت، ما كان له أثر في انتشار الفكر السلفي، ومن هذا المنطلق فقد أثَّرت هذه الفضائيات على النساء محدودي الثقافة، ولهذا وجدت أنه من الواجب علينا التحرك والمبادرة بعملٍ ما لمقاومة هذه التيارات والدفاع عن الصوفية في مواجهة الحملة التي تتعرضُ لها منذ فترة»[١].

٢- إقامة المحاضرات والندوات التي تتناول مسألة التصوف النسائي

ومن ذلك على سبيل المثال؛ المحاضرة التي نظمتها كلية الآداب والعلوم بجامعة قطر في عام ٢٠٠٩م، والتي حملت عنوان «التاريخ الاجتماعي والثقافي للنساء الصوفيات: نظرة مقارنة»، وقد زعمت المتحدثة فيها أن المرأة الصوفية المسلمة كان لها صوتٌ في المجال العام، وكان لها حلقات ذكر في الحرم المكي وغيره، ودروس يحضرها الرجال والنساء!![٢].

ومن ذلك أيضاً الملتقى الذي نظمته كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة القاضي عياض بمراكش، تحت عنوان «المرأة والتصوف»، في ١٢/ ٣/ ٢٠١٣م[٣].

هذا، وأتوقع أن تقود عملية إحياء التصوف بشكل عام، والتركيز على دور المرأة في التصوف بشكل خاص، إلى وصول المرأة إلى مشيخة الطرق الصوفية؛ وهو الأمر الذي لا يزال وجوده محدوداً في العالم الإسلامي[٤]،

---

(١) العربية نت، خبر بعنوان «تأسيس أول جمعية للنساء المتصوفات للدفاع عن التصوف»، في ٤/ ٩/ ١٤٣٠هـ-٢٥/ ٨/ ٢٠٠٩م، الرابط:
http://www.alarabiya.net/articles/2009/08/25/82855.html

(٢) ينظر: مجلة الحياة الجامعية، جامعة قطر، العدد ٦٠٢، في ٢٣/ ٣/ ٢٠٠٩م، الرابط:
http:/www.qu.edu.qa/newsletters/campustoday/article.php?id=428

(٣) يُنظر: موقع جامعة القاضي عياض بمراكش، الرابط:
www.uca.ma/site/events.php?id=57#.Ut6AIRCm34Y

(٤) يؤكد «إيريك جوفروا» بأن هذا التوجه نحو تنصيب المرأة زعيمة روحية موجودٌ في تركيا ولبنان وتونس وإيران والهند. يُنظر: مقدمة كتاب: التصوف الإسلامي في الولايات المتحدة، لعزيز الكبيطي، ص١٢. وبالفعل، فإن الطريقة القادرية العلية بتونس تتزعمها امرأة، وهي الشيخة حياة محمد البغدادي.

وأما في أمريكا، حيث بلغت فيها الدعوة الصوفية مبلغاً جريئاً وصريحاً فقد اعتبر الدكتور عزيز الكبيطي تَقلُّد المرأة لمشيخة الطرق الصوفية (الزعامة الروحية) من ضمن خصائص التصوف في الولايات المتحدة، وذلك لكثرة هذا الأمر وانتشاره في أمريكا[1]!

ثالثاً: بروز «التصوف الجديد»

من المعلوم أن التقدم المادي والتقني في هذه العقود التي نعيشها أورث الكثير من المتغيرات في حياة الناس وفي طبيعة تفكيرهم ومعيشتهم، وبخاصة في أوساط الشباب، الأمر الذي بات يهدد الطرق الصوفية التقليدية، فظهرت أصوات من داخل الصوفية تحذر بصراحة ووضوح من هذا الخطر على الدعوة الصوفية، ومن تلك الأصوات الدكتور «إيريك جوفروا» حيث تحدث مطولاً عن هذه المسألة في كتابه «التصوف طريق الإسلام الجوانية» تحت عنوان (مرض الطرقية)، وكان مما قاله: ««الحركات الإسلامية هي عدوة للإسلام»، ذلك ما درجنا على سماعه، وعلى نفس الشاكلة نفسها فإن الطُرقية تمثل بلا شك الخطر العظيم بالنسبة للتصوف. وأبرز المنتقدين ليسوا هم الوهابيون أو السلفيون، بل مشايخ الصوفية أنفسهم»[2].

وأضاف أيضاً: ««المتصوف ابن وقته» كما يقول المثل، وهو يستطيع أكثر من غيره تلمس الحكمة الإلهية في أي ظرف من الظروف. عليه أن يتخلى عن الأشكال التقليدية التي كانت تحمل قيمة في الماضي، والتي بدأت اليوم تمثل عائقاً حقيقياً أمام سلوك حقيقي»[3].

وأضاف أيضاً: «من البديهي أن التطلعات الروحانية تصبح ثانوية عندما ينشغل الذهن تماماً بالمشاكل المادية والقلق المعيشي، وعندما تشجع

---

(١) يُنظر: عزيز الكبيطي، التصوف الإسلامي في الولايات المتحدة الأمريكية، ص١٧٧-١٨١. وممن ذكرهن الكبيطي: الشيخة فرحة الجراحي، شيخة إحدى فروع الطريقة الجراحية الهلفيتية التركية في نيويورك، والشيخة باجي طيابة خانوم، شيخة مجموعة من الطرق الصوفية في فيلادلفيا (الإدريسية، الجشتية، القادرية)، ولها مريدين من الجنسين. وكذلك ذكر الشيخة «مريم كبير فايس»، و«ناهد أنغا»، «وللاه بختيار»، والعديد غيرهن.

(٢) إيريك جوفروا، التصوف طريق الإسلام الجوانية، ص١٨٦

(٣) المرجع نفسه، ص١٨٨

الأوضاع الدولية ووسائل الإعلام ظهور إيديولوجيات سهلة الاستهلاك، وعندما تُفخخ الأصوليةُ الأرضيةَ بطريقة من الطرق»[1]، ثم قال: «بعض المشايخ واعون بذلك، ويريدون كسر الأقفال الروتينية في الزوايا لتشجيع المريدين على اتباع طرق أخرى من العمل الروحي»[2]. ويمكن أن نلحظ هذا الوعي الصوفي الذي أشار إليه «جوفروا»، وكذلك السعي نحو دعوة صوفية جديدة (عصرية) في الأمثلة التالية:

١ - تبنِّي العديد من رموز ودعاة الصوفية لخطاب صوفي جديد؛ لا يلتزم بإطار الطرق الصوفية، ولا يدعو إلى التزام الطرق الصوفية، وإنما إلى المضامين الصوفية، ولكن بأساليب متعددة، بعيدة حتى عن مصطلح «الصوفية»، والذي يكاد يكون مفردة ثانوية عندهم، في مقابل إشباع خطابهم بمصطلحات أخرى؛ كالإحسان، أو أهل السنة والجماعة، أو أهل الإيمان، ونحو ذلك. وهؤلاء الذين وصفهم الباحث أحمد فهمي بـ«دعاة الاعتدال»، حيث يقول عنهم: «بدأ نجمهم في البزوغ في السنوات الأخيرة وخاصة بعد ١١ سبتمبر، وأهم صفتين تمثلان جواز المرور لهذه الفئة من الدعاة أنهم يتجاوزون نقاط الاختلاف الساخنة مع الغرب، ويقفزون على قضايا الولاء والبراء والقضايا العقدية إجمالاً[3]، كما أنهم لا يرتبطون غالباً بأي انتماءات لجماعات إسلامية عليها علامات استفهام غربية»[4]، ويأتي في مقدمة أصحاب هذا الخطاب «غير الطُرقي» والمغلف بشعار الإسلام الحقيقي، الحبيب علي الجفري، والشيخ حمزة يوسف، وهذا أيضاً هو الخطاب الذي تتبناه حالياً قناة «الإرث النبوي».

٢- التركيز بشكل خاص على دعوة الشباب إلى مضامين التصوف وفق

---

(١) المرجع نفسه، ص١٨٩

(٢) المرجع نفسه، ص١٩٠

(٣) هذا إذا وزنّا أعمالهم وأقوالهم بعقيدة أهل السنة والجماعة، وأما هم فلا أراهم يرون أن ما يقولونه أو يفعلونه يتجاوز معتقدهم. نعوذ بالله الضلال والخذلان.

(٤) أحمد فهمي، موقع المختصر، مقال بعنوان «عفواً ممنوع دخول السلفية والسلفيين»، في ٢٠/ ٤/ ١٤٣٤هـ-٢/ ٣/ ٢٠١٣م، الرابط:

http://www.almokhtsar.com/node/118735

الخطاب السابق، دون الإشارة بطبيعة الحال إلى مفردة« التصوف»؛ وذلك ضمن برامج تلفزيونية عديدة ومركّزة في هدفها؛ ومن أبرزها على سبيل المثال برنامج «يلا شباب»، الذي أنتجته قناة إم بي سي عام ٢٠٠٢م، (وفيه أُبرز الحبيب علي الجفري وغيره من الدعاة الجدد). ويرى أنور الخضري في كتابه عن ظاهرة «التدين الجديد» أن من مظاهر ذلك التدين «البرامج التي يقوم عليها شباب من الجنسين ليتناولوا مسائل دينية ونفسية وتربوية من منظور «إسلامي»، مع تبادل الحوار والطرافة والجلسة «الأخوية»! من مثل برنامج «يلا شباب» على الـ: *MBC*؛ وعليه فإن هذه البرامج تقدم أنموذجاً لطبيعة التواصل بين الفتيات والفتيان خارج الحدود الشرعية باسم الدين!»[1].

ومن تلك البرامج أيضاً برنامج «رحلة مع الشيخ حمزة يوسف»، والذي أنتجته أيضاً قناة أم بي سي، على عدة مواسم، وفي موسم عام ٢٠٠٤م سُجِّلت منه ٢٧حلقة في أمريكا، وتقوم فكرته على مرافقة عدة شباب (من السعودية!) للشيخ حمزة يوسف في رحلة إلى الغرب، يُريهم فيها الشيخ حمزة ثقافة الغرب وحياتهم وتعليمهم،..الخ، كل ذلك في جوٍ من الجذب والإبهار والقبول بكل ما يرونه هناك دون أدنى نكير! ولهذا تقول جريدة الرياض في خبرٍ لها عن هذا البرنامج: «يقوم الداعية حمزة يوسف مع مجموعة مذيعيٍ يلا شباب باستكمال رحلتهم واكتشاف الجانب الحقيقي للإسلام وإبرازه في صورته الأصلية كدين الوسطية والرحمة بين كافة الأديان»[2].

٣- التطوير «الدعوي» الذي طرأ على بعض الطرق الصوفية! ومن أمثلة ذلك الطريقة البودشيشية في المغرب، وفروعها في الغرب؛ والتي توصف بأنها زاوية حديثة تستقطب الشباب والطبقة المثقفة، ورجال الأعمال، وتقتحم المجالات الثقافية والإعلامية بصورة لا توجد عند غيرها من

(١) أنور قاسم الخضري، ظاهرة التدين الجديد وأثره في تمرير ثقافة التغريب، نشر مركز التأصيل للدراسات والبحوث-جدة، ط١، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م، ص٢٩

(٢) جريدة الرياض، العدد١٣٢٦٩، في ٥/ ٩/ ١٤٢٥-١٩/ ١٠/ ٢٠٠٤م.

الطرق في المغرب[1]، بالإضافة إلى أنها تسمح بالاختلاط بين الجنسين في حلقات الذكر، ولا تُلزم المريدات باللباس الشرعي[2]!

وأما أبرز الأمثلة على التطوير الطُرقي فهي الطريقة العلوية في الجزائر[3] وفروعها في الغرب؛ والتي تسمح بالاختلاط بين المريدين والمريدات، ولا تشترط الحجاب على المريدات، ويعيش شيخها الحالي خالد بن تونس حياة عصرية في باريس! ويرى التقارب بكل أشكاله وصوره مع الأديان الأخرى، حتى إنه طلب من قسٍ كاثوليكي أن يكتب له تمهيد كتابه «التصوف قلب الإسلام»، وقد فعل ذلك القس، وكتب في مطلع تمهيده: «إنه ليس بالأمر العادي أن يُجيز شيخ مسلم لقسيس فرنسي كاثوليكي كتابة تمهيدٍ لمؤلَفه هذا الذي سينشره، وإني اعترف بشعوري بالتشريف، وفي نفس الوقت أخشى أن لا أكون في مستوى الثقة والصداقة التي مُنحتُهما»[4]. ولهذه الطريقة أعاجيبٌ يطول ذكرها[5]، وأشير فقط إلى أن فرعها في أمريكا (وكعادة الغربيين في الوضوح والصراحة) يُعلن وحدة الأديان صراحة، حيث يزعم سمو الأديان وتماهيها، وأن اختلاف التشريع لا يعدو أن يكون مجرد قشور خارجية! ومن أبرز أتباع ذلك الفرع الأمريكي الفيلسوف الشيعي «سيد حسين نصر»، والذي استطاع أن يصوغ فكرة «وحدة الأديان» السابقة بطريقة إسلامية (مضللة)، جعلها تلقى رواجاً في الغرب[6].

وأيضاً نجد في السودان مثالاً آخر على التجديد الطرقي الذي لحق بالطريقة المكاشفية القادرية، فباتت تستقطب الأغنياء والشباب، حيث

---

(١) يُنظر: قناة الجزيرة الوثائقية، برنامج وثائقي بعنوان «الصوفية في المغرب»، ٢٠١٢م، رابط الحلقة: *http://www.youtube.com/watch?v=QVG4RFPwDKg*

(٢) يُنظر: عزيز الكبيطي، التصوف الإسلامي في الولايات المتحدة، مرجع سابق، ص٢٥١، ٢٥٥، ٢٧٠

(٣) وتُكتب أيضاً «العلاوية»، وهي نسبة إلى مؤسسها في -مستغانم الجزائرية- الشيخ أحمد بن مصطفى العلاوي (ت١٩٠٨م).

(٤) القس كريستيان دي لورم، تمهيدُ كتاب التصوف قلب الإسلام، لمؤلِفه خالد بن تونس، دار الجيل-بيروت، ط١، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م، ص١٤

(٥) للمزيد عن هذه الطريقة وشيخها يُنظر: مجلة الراصد، تقرير بعنوان «التصوف الفرنكو أمريكي الجديد في المغرب، جذوره وحقيقته»، العدد ٦٤، شوال ١٤٢٩هـ.

(٦) يُنظر: عزيز الكبيطي، التصوف الإسلامي في الولايات المتحدة، ص١٥٥

تجاوز شيخها الثري الشاب المتعلم (تخصص إدارة أعمال!) «علي الأمين» الكثير من الطقوس التقليدية للطرق الصوفية في السودان. يقول الباحث حسام تمام واصفاً ما رآه أثناء زيارته لزاوية هذه الطريقة: «حين تزور هذه الزاوية لا بد أن تراجع الصورة التقليدية عن زوايا الصوفية، فهي ليست -كما استقر في وعينا- المكان النائي البعيد الذي يشبه كثيراً من أديرة الرهبان، أو المكان الذي يأوي إليه الفقراء المعوزون أو قبلة المنصرفين عن الحياة الهاربين منها بحثاً عن النجاة، بل هناك صورة مختلفة تماماً إلى النقيض، فهي في حي من الأحياء الراقية، ملحقة بفيلا واسعة لشيخها الأمين، وتطل على ساحة كبيرة، وما تكاد تقترب حتى تفاجئك طوابير لأفخم السيارات، تشغل الشارع المؤدي إليها والشوارع الجانبية منه،..وتزداد الدهشة مع تصفح جمهور الحاضرين، فالغالبية العظمى من الشباب الذين تطل من وجوههم أمارات اليسر والنعيم والانتماء لعائلات وطبقات اجتماعية ميسورة ومميزة. تعرفت على بعضهم: مهندسون وأطباء ومحامون ورجال أعمال،..»[1].

وأضاف: «بعد الحضرة الصوفية التي تبدأ العصر وتنتهي أذان المغرب، يجلس الحضور في مربع يكمل ضلعه الرابع الشيخ الأمين ومن يستضيفهم من شيوخ الزاوية الكبار، وفي خلف الشيخ تجلس غير بعيد عنه النساء والفتيات في صحبة زوجته على الكراسي وليس على الأرض كالرجال. وكل الجمهور أو جلهم من الشباب تقريباً، وزوجته سيدة في منتصف العمر، حسنة المظهر، أنيقة الملبس، تحيط بها مريدات الشيخ كما الأميرة أو الملكة غير المتوجة، ويحرصن على التبرك بها،..»[2].

وتجدر الإشارة هنا إلى مثالٍ بارز على التطوير الصوفي (غير الطرقي) ولكنه سابق لـ ١١ سبتمبر، وهي حركة فتح الله كولن التركية، والتي تُعد أبرز

---

(١) حسام تمام، مع الحركات الإسلامية في العالم: رموز وتجارب وأفكار، مكتبة مدبولي- القاهرة، ط١، ٢٠٠٩م، ص٢٢-٢٣

(٢) المرجع نفسه، ص٢٤، وللمزيد أيضاً يُنظر: قناة الجزيرة الوثائقية، الصوفية في السودان، ٢٠١١م، الرابط: http://www.youtube.com/watch?v=tqZTA1cvX_E

الحركات الصوفية التي بلغت الغاية في الالتقاء مع المفاهيم العلمانية، والتساهل في مسألة الشريعة، مع التركيز الشديد في ذات الوقت على الجوانب الإيمانية (الروحانية) فقط. وقد نقلت في مواضع عديدة فيما سبق عن هذه الحركة ومؤسّسها، والتي تسير فكرياً وفق الخط الصوفي (المتصالح) الذي رسمه سعيد النورسي للنقشبندية بعد ظهور العلمانية التركية، وأوردت أيضاً ثناء المسؤولين الأمريكيين على كولن وحركته، وكذلك احتفاء مؤسسة راند في تقاريرها بكولن، والتي ترى فيه أنموذجاً يُحتذى به في تجديد الإسلام! وأضيف هنا أمرين عن هذه الحركة، يُناسبان هذا المقام:

الأمر الأول: ما ذكره الدكتور «زكي ساريتوبارك»[1] عن حركة كولن، وذلك في تقرير «فهم الصوفية»، الذي أصدرته مؤسسة نيكسون، إذ يقول: «لا يُعد مؤسس هذه الحركة «كولن» شيخاً أو زعيماً لطريقة صوفية، ومع ذلك فقد قام بتأليف العديد من الكتابات حول الصوفية، ونظراً لأنه لا توجد عضوية مرتبطة بهذه الحركة المدنية وليس ثمة بناء صوفي، فيمكن للإنسان أن يقول إنها حركة مدنية ذات توجه روحاني بفهم حديث للصوفية، وبكلمات أخرى يمكن فهمها كطريقة للصوفية أو الصوفية الجديدة»[2].

الأمر الثاني: حظيت حركة كولن بترويج كبير لها في العالم الإسلامي بعد ١١ سبتمبر، وبخاصة عن طريق المؤتمرات العديدة، ومن تلك المؤتمرات:

- المؤتمر الدولي الذي عُقد في مقر جامعة الدول العربية بالقاهرة في الفترة ١٩-٢١/ ١٠/ ٢٠٠٩م، وذلك تحت عنوان «مستقبل الإصلاح في العالم الإسلامي: خبرات مقارنة مع حركة فتح الله كولن التركية»، ثم نُشرت وقائع ذلك المؤتمر في كتاب يحمل ذات العنوان، ويقع في أكثر من

---

(١) زكي ساريتوبارك *Zeki Saritopark* أستاذ بقسم دراسات الأديان، بجامعة جون كارول الأمريكية.

(٢) مركز المصلحة الوطنية (نيكسون)، تقرير «فهم الصوفية ودورها المرتقب في سياسة الولايات المتحدة»، مرجع سابق، ص١٥

٥٠٠ صفحة[1].

- ومنها أيضاً مؤتمر «رؤى معاصرة للإصلاح الإسلامي ودورها في تعزيز السلام العالمي: تجربة فتح الله كولن التركية أنموذجاً»، والذي عُقد في العاصمة الأردنية عمان، في ١٦/ ١/ ٢٠١٠م، وقامت بتنظيمه «مجلة حراء» التابعة لحركة كولن، بالتعاون مع المنتدى العالمي للوسطية[2].

- وأيضاً مؤتمر «تجربة الإصلاح في تركيا: حركة فتح الله كولن نموذجاً»، والذي عُقد بجامعة الإسكندرية في ٣/ ١/ ٢٠١٢م، وقامت بتنظيمه الجمعية المصرية التركية للصداقة والثقافة واللجنة الثقافية بكلية الطب بجامعة الإسكندرية[3].

رابعاً: تركيز الصوفية على مسألة «التسامح بين الأديان»

لقد تصدرت مسألة التسامح والتعايش بين الأديان الخطاب الصوفي منذ ١١ سبتمبر وحتى يومنا هذا، ولكن هذا التسامح الصوفي لا ينطلق من هدي القرآن الكريم؛ كقوله تبارك وتعالى: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [الممتحنة :٨]، بل ينطلق من رؤيته المتقبِّلة للأديان الأخرى، والتي هي نتاج وحدة الوجود كما بيَّنت ذلك سابقاً بالتفصيل، ولذلك تجد الصوفية يُلبِسون هذه النظرة التسامحية لبوس المحبة، فكثيراً ما يقرنون دعوتهم للتسامح والتعايش بين الأديان بقولهم إن الإسلام دين المحبة، وهذا ما أدركه الحبر اليهودي «يوسي» أثناء حضوره لملتقى نظمته الطريقة المشيشية الشاذلية بمدينة طنجة المغربية، إذ «قال الحبر اليهودي «يوسي» الذي حضر من الولايات المتحدة: «العالم بات في حاجة إلى التصوف ومبادئه، بقدر ما هو محتاج إلى تركيزه على مبادئ التسامح، وقيم العيش المشترك. واعتبر «يوسي» أن نجاح فكرة التصوف تكمن في ابتعاد مبادئها عن التعقيدات الأيديولوجية،

---

(١) يُنظر: مستقبل الإصلاح في العالم الإسلامي: خبرات مقارنة مع حركة فتح الله كولن التركية، دار النيل-القاهرة، ط١، ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م.

(٢) يُنظر: موقع المنتدى العالمي للوسطية، الرابط: http://www.wasatyea.net

(٣) يُنظر: جريدة اليوم السابع الإليكترونية، في ٢/ ١/ ٢٠١٢م، الرابط:
http://www.youm7.com/News.asp?NewsID=667809&#.UtrxMhCm34Y

وتركيزها الشديد على المحبة والسلام والدعوة للحوار مع الآخر»[1]، ولم تكن هذه الدعوة لتلقى قبولاً ورواجاً عند الغرب لو كانت تنطلق من مثل الآية السابقة، والتي تحمل معاني العزة والكرامة للمسلم وتوجهه في ذات الوقت إلى التعامل بالبرِّ والقسط مع المسالمين من أتباع الأديان الأخرى، وذلك أبلغ من مجرد التعايش والتسامح.

ولكن الأمر الجديد والعجيب -وعجائب الصوفية لا تنقضي- أن يذهب الصوفية إلى الاستدلال على دعوتهم إلى التعايش والتسامح والحوار بقول الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[آل عمران :٦٤] ، وجهلوا أو تجاهلوا أن هذه الآية الكريمة هي محكمة في دعوة أهل الكتاب إلى عبادة الله وحدة، وليست للتعايش والتسامح -كما زعموا-! قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره لهذه الآية: «هذا الخطاب يعم أهل الكتاب من اليهود والنصارى، ومن جرى مجراهم (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة) والكلمة هنا تطلق على الجملة المفيدة كما قال هاهنا. ثم وصفها بقوله: (سواء بيننا وبينكم) أي: عدل ونَصَف، نستوي نحن وأنتم فيها. ثم فسرها بقوله: (ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً) لا وثناً، ولا صنماً، ولا طاغوتاً، ولا ناراً، ولا شيئاً بل نفرد العبادة لله وحده لا شريك له. وهذه دعوة جميع الرسل. قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾[الأنبياء:٢٥]. وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾[النحل:٣٦] »[2].

ثم أورد رحمه الله حديث أبي سفيان حينما دعاه هرقل إلى مجلسه، إلى أن قال أبو سفيان: ثم جيء بكتاب رسول الله ﷺ فقرأه، فإذا فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على

---

(١) موقع الصوفية، في ٢٧/ ١٠/ ١٤٢٩هـ الرابط:
http://alsoufia.com/main/articles.aspx?article_no=2672.

(٢) إسماعيل بن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة-الرياض، ط٢، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م، ٢/ ٥٥-٥٦

من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين، و﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[آل عمران:٦٤]»[١].

والعجب كل العجب أيضاً أن اليهود والنصارى هم من كان ينادي بحماسة إلى الحوار بين الأديان، ويدعوا المسلمين إلى ذلك، إلى أن جاء هذا اليوم الذي نعيشه(ما بعد ١١سبتمبر)، والذي تولى فيه الصوفية، وغيرهم «من المخدوعين» النداء إلى مثل هذا الحوارات، والتي زعموا أنها من أبجديات التعايش والتسامح والتقاء الحضارات..الخ. وأثناء تلك الحقبة الأولى من الدعوة إلى«الحوار بين الأديان»، أصدر الشيخ بكر أبو زيد –رحمه الله– كتابه «الإبطال لنظرية الخلط بين دين الإسلام وغيره من الأديان»، ومما جاء فيه قوله :«وواجب على المسلمين، الحذر من ارتداء الكفرة مُسُوحَ الحوار، وجلْب الشخصيات المتميعة ونحو ذلك من أساليبهم، التي هي بحق:«رجس من عمل الشيطان». وليعلم كل مسلم، أنه لا لقاء ولا وفاق بين اهل الإسلام والكتابيين وغيرهم من أمم الكفر إلا وفق الأصول التي نصت عليها الآية الكريمة: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:٦٤]. وهي: توحيد الله تعالى ونبذ الإشراك به وطاعته في الحكم والتشريع واتباع خاتم النبيين والمرسلين محمد ﷺ الذي بشَّرت به التوراة والإنجيل. فيجب أن تكون هذه الآية هي شعار كل مجادلة بين أهل الإسلام وبين أهل الكتاب وغيرهم، وكل جهد يُبذل لتحقيق غير هذه الأصول فهو باطل.. باطل.. باطل»[٢]

---

(١) المرجع نفسه، والحديث أخرجه البخاري في صحيحه، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ برقم (٧).

(٢) بكر بن عبدالله أبو زيد، الإبطال لنظرية الخلط بين دين الإسلام وغيره من الأديان، دار العاصمة-الرياض، ط١، ١٤١٧هـ ص١٠١

هذا، وقد بدأ تحريف الصوفية للمعنى الظاهر لهذه الآية الكريمة، من دعوة أهل الكتاب إلى توحيد الله ونبذ الشرك، إلى معنى التسامح والتعايش والحوار في عام ٢٠٠٦م؛ وذلك عندما تولى الحبيب علي الجفري وآخرين معه صياغة وثيقةٍ حملت عنوان «كلمة سواء بيننا وبينكم»، ووقَّع عليها عند إطلاقها ١٣٨ شخصاً، وصفهم موقع هذه الوثيقة الإليكتروني بأنهم يمثلون العلماء والمفكرين المسلمين من جميع المدارس والمذاهب الفكرية[1].

وجاء أيضاً في موقعها: «يُؤمَّل أن توفر هذه الوثيقة دستوراً مشتركاً للعديد من المنظمات البارزة والأفراد الأكفاء العاملين في مجال الحوار بين الأديان في جميع أنحاء العالم»[2]. ثم انطلق الحبيب الجفري ليعقد المؤتمرات والمحاضرات على أساس هذا الفهم الصوفي الجديد لآية «كلمة سواء»، ومن تلك المؤتمرات: مؤتمر «كلمة سواء» في جامعة ييل بالاشتراك مع جامعتي برنستن وهارفرد بأمريكا في ٢٤-٣١/ ٧/ ٢٠٠٨م، ومؤتمر «كلمة سواء» في لندن وكامبريدج في بريطانيا في ١٢-١٥/ ١٢/ ٢٠٠٨م، ومؤتمر «كلمة سواء: النظرية والتطبيق» في جامعة زايد بأبوظبي بالاشتراك مع جامعة جنوب كارولينا الأمريكية في ٢٧-٢٨/ ٣/ ٢٠٠٩م[3].

وبما أن هذه الدعوة الصوفية المعاصرة للتسامح والتعايش مع أهل الكتاب لم تنطلق من هدي الكتاب والسنة؛ فقد كانت مخرجاتها أيضاً بعيدة عن هدي الكتاب والسنة، تلك المخرجات -على سبيل المثال-:

١- مشاركة النصارى في أعيادهم وأفراحهم، والأمثلة في ذلك كثيرة، وقد سقت فيما مضى مثالاً لحضور متصوفة الإمارات لعيد قداس القيامة في الكنيسة الأورثوذكسية في أبوظبي. ومن ذلك أيضاً تهنئة الحبيب علي الجفري للنصارى عبر حسابه في «فيس بوك» بعيد الميلاد «الكريسمس» قائلاً: «أهنيء البابا تواضرس الثاني وسائر إخواننا المسحيين الأرثوذكس

---

(١) راجعت أسماء الموقعين على هذه الوثيقة، والذين بلغ عددهم -وقت مطالعتي لها- أكثر من أربعمائة، فلم أجد بينهم من ينتمي إلى الدعوة السلفية. يُنظر: موقع كلمة سواء الإليكتروني، الرابط: http://www.acommonword.com

(٢) المرجع نفسه.

(٣) يُنظر: موقع الحبيب علي الجفري، الرابط: http://www.alhabibali.com/biography/ln/ar

بعيد الميلاد المجيد»[1]، وحينما أنكر عليه بعض المشاركين تلك التهنئة رد قائلاً: «من كثر علمه قل إنكاره ومن قل علمه كثر إنكاره»[2]!!، ولئن كان المقصود هنا هو علم التصوف فقد صدق الجفري في مقولته هذه.

٢- مشاركة النصارى في أحزانهم ومآتمهم، وقد ذكرت آنفاً ذهاب الحبيب علي الجفري ومتصوفة الإمارات إلى الكنيسة الأورثوذكسية للتعزية في وفاة بابا الأرثوذكس «شنوده»، وأيضاً إصدار المجلس العالمي الصوفي لبيان نعى فيه «شنوده»[3]، إلى غير ذلك من صور التودد والتقرب إلى من لم يسلم المسلمون من أذاهم، سواء في مصر أو غيرها.

٣- إقامة الملتقيات والمؤتمرات الكثيرة التي تدعوا إلى التسامح والتعايش وفق الرؤية الصوفية، ومن ذلك مؤتمرات الحبيب الجفري التي ذكرتها آنفاً، ومنها أيضاً مؤتمرات مركز الدوحة الدولي لحوار الأديان في دولة قطر، والذي يُنظِّم مؤتمراً سنوياً لحوار الأديان، وفق الرؤية الصوفية في ذلك[4]. و«مجلة أديان» التي يُصدرها المركز تطفح بالرؤية الصوفية للأديان بكل أبعادها الفلسفية، وتصل في بعض المقالات إلى حدِّ التصريح بتصحيح الأديان![5]

٤- إحياء الحفلات الموسيقية (الموسيقى الدينية أو الروحية كما يسمونها)، وهي من الأساليب التي سلكها الصوفية مؤخراً في مسألة التقريب بين الأديان أو التقريب بين الشرق والغرب -كما يزعمون-، وقد باتت تقام بشكل كبير وملفت طيلة شهور السنة، والأمثلة في ذلك تعزُّ عن الحصر، وقد ذكرت طرفاً منها في المباحث السابقة، ولكن أبرز الأمثلة لها هو «مهرجان فاس للموسيقى الروحية»، والذي بات يقام سنوياً، ويحضره وزراء ومسؤلون من أنحاء العالم، ويشارك فيه أهل الموسيقى «الروحية»

---

(١) موقع فيس بوك، حساب الحبيب علي الجفري، رابط المشاركة:
https://www.facebook.com/alhabibali/posts/692763430763640

(٢) المرجع نفسه.

(٣) يُنظر: جريدة اليوم السابع الإليكترونية، في ١٨/ ٣/ ٢٠١٢م، الرابط:
http://www.youm7.com/News.asp?NewsID=629407

(٤) يُنظر: موقع مركز الدوحة الدولي لحوار الأديان، رابط المركز: *http://www.dicid.org*

(٥) يُنظر على سبيل المثال: مجلة أديان، العدد صفر، خريف ٢٠٠٩م.

من المسلمين واليهود والنصارى، ويهدف -بزعمهم- إلى تعزيز ثقافة التسامح! ونقل «موقع مغاربية» الأمريكي في تغطية للمهرجان عام ٢٠١٣م بعض أقوال المشاركين والمؤيدين، ومن ذلك قول الباحث السياسي رضوان بشيري: «الثقافة وسيلة مهمة لتعزيز التسامح ومواجهة التطرف، ويساهم مهرجان فاس للموسيقى الروحية في نشر العديد من القيم العالمية بين المواطنين، خاصة الشباب منهم، ومن خلال مختلف الشخصيات المدعوة يستطيع المهرجان المساهمة في الجمع بين الحضارات والثقافات»[١]. وقد أشاد تقرير الحريات الدينية الصادر عن وزارة الخارجية الأمريكية بمهرجان فاس للموسيقي الروحية، ووصفه بأنه يُشجع التسامح الديني[٢].

٥- في شهر جمادى الأولى من عام ١٤٣٣هـ قام الحبيب علي الجفري بزيارة المسجد الأقصى، وبعدها بأيام قام أيضاً الدكتور علي جمعة بزيارة أخرى مماثلة، وقد قوبلت هاتان الزيارتان باستنكار شديد من العلماء والدعاة في أنحاء العالم الإسلامي، ما عدا الصوفية والسلطة الفلسطينية[٣]، ورأى المنكرون لها بأنها تأتي في سياق التطبيع مع اليهود؛ لا سيما وأنها لم تتم إلا بتأشيرة دخول من دولة الاحتلال الإسرائيلي، ولو كانت مناصرة للقدس ولقضية الشعب الفلسطيني كما زعم الزائران لكانت لقطاع غزة المحاصر[٤].

---

(١) موقع مغاربية، خبر بعنوان «مهرجان الموسيقى الروحية في فاس يحتفي بالتنوع»، في ١٩/ ٦/ ٢٠١٣م، الرابط:

http://magharebia.com/ar/articles/awi/features/2013/06/19/feature-03

(٢) يُنظر: جريدة هسبريس الإليكترونية، في ٢٠/ ٦/ ٢٠١٠م، مرجع سابق.

(٣) يُنظر على سبيل المثال: مقال للسيد عبدالله فدعق بعنوان «قراءة هادئة حول زيارة القدس الشريف» في جريدة الوطن السعودية، في٦/ ٦/ ١٤٣٣هـ- ٢٨/ ٤/ ٢٠١٢م. ويُنظر: موقع سي إن إن/ العربي، خبر بعنوان «جدل واسع بعد زيارة الجفري للأقصى رغم فتاوى التحريم» في ٧/ ٥/ ٢٠١٢م. وموقع العربية نت، خبر بعنوان «الأزهر يدين زيارة مفتي مصر للمسجد الأقصى»، في ١٩/ ٤/ ٢٠١٢م، الروابط:

http://www.alarabiya.net/articles/2012/04/19/208852.html

http://arabic.cnn.com/2012/middle_east/4/7/jafri.visit

(٤) يُنظر: المرجعين الإخباريين السابقين.

وبالنظر إلى حُمّى دعوة «التسامح مع الأديان» التي يعيشها المتصوفة بعد ١١ سبتمبر فيمكن التأكيد على أن تلك الزيارتين تأتيان في إطار تعزيز تلك الدعوة التسامحية، ولكنها أتت هذه المرة بصورة مباشرة مع الدولة اليهودية المحتلة!

٦- في محرم ١٤٣٤هـ قام وفد من أئمة المساجد في فرنسا بزيارة إلى دولة الاحتلال الإسرائيلي برئاسة الشيخ الصوفي حسن شلغومي، إمام مدينة درانسي الفرنسية، والذي ينشط -بحسب الخبر- في مجال التقارب بين المسلمين واليهود في فرنسا[١]، ويقال هنا ما قيل في المثال السابق.

٧- في محرم ١٤٣٥هـ قام بعض ممثلي الطرق الصوفية وأئمة مساجدِ في السنغال بزيارة إلى دولة الاحتلال الإسرائيلي، واعتبر إمام مسجد فاس إمبابو عمر جانو، وهو أحد الداعين للتواصل مع إسرائيل أن الزيارة تسعى لتعزيز الحوار بين الأديان، وأضاف بأن سفارة إسرائيل بالسنغال تقوم بجهود معتبرة لخلق قنوات تواصل بين المسلمين واليهود، للعمل ضمن دائرة المشترك[٢].

خامساً: انخراط الصوفية في مسألة «الإصلاح»

بعد أن بدأت موجة الثورات العربية في أواخر عام ٢٠١٠م، والتي كانت تطالب بإصلاح الأوضاع، برزت مفردة «الإصلاح» أيضاً في الخطاب الصوفي، وقد تجلَّت تلك المفردة بوضوح في المؤتمر الصوفي الدولي -الأول من نوعه- والذي دعت إليه «أكاديمية الإمام الرائد لدراسات التصوف وعلوم التراث» التابعة للعشيرة المحمدية بمصر، وعُقد القاهرة تحت عنوان « التصوف: منهج أصيل للإصلاح»، في الفترة ٢٦-٢٨/ ١٠/ ١٤٣٢هـ الموافق ٢٤-٢٦/ ٩/ ٢٠١١م، وكان برئاسة شيخ الأزهر، ورعاية وزارة الأوقاف المصرية، ومشيخة الطرق الصوفية، والرابطة العالمية لخريجي الأزهر، ومؤسسة طابة للدراسات الإسلامية

---

(١) يُنظر: جريدة الحياة، في ١١/ ١٢/ ٢٠١٢م.

(٢) يُنظر: الجزيرة نت، ٧/ ١/ ١٤٣٥ه-١١/ ١١/ ٢٠١٣م، الرابط:
http://www.aljazeera.net/news/pages/123fc344-b63c-4d93-aa8e-3bb14fe56e54

بأبوظبي (التي يرأسها الحبيب الجفري). وقد حضره أكثر من ثلاثمائة شخص، وفدوا من خمسٍ وثلاثين دولة[1].

وعن أهمية عقد هذا المؤتمر يقول الحبيب علي الجفري: «الحاجة الماسة إلى بيان دواعي الإصلاح وضروراته وتحرير محل النزاع فيما يتعلق بإشكاليات الإصلاح، وبيان أهمية الخيار الصوفي في ضوء الخيارات المتاحة للإصلاح، وتوجيه وترشيد التصوف ورد الممارسات الصوفية إلى الكتاب والسنة بفهم العلماء الربانيين دون إفراط أو تفريط، ومن توجيه كل الطاقات الإيمانية نحو البناء والإصلاح على المنهج الرباني الروحي الأصيل بدلاً من الهدم والتفريق والتكفير الذي تنتهجه بعض الجماعات المتطرفة»[2].

هذا، وقد كانت التوصية الثانية -بعد التوصية الأولى بإقامة المؤتمر بصفة دورية- هي: «تأسيس هيئة صوفية عالمية تضم كافة الطرق والمؤسسات والتنظيمات الصوفية الشرعية تعمل على تنظيم الصف وتنسيق الجهود والأنشطة العلمية والسلوكية والدعوية والإعلامية وتوثيق الروابط بين الحركة الصوفية في العالم الإسلامي ومؤسسات التعليم الشرعي بقيادة الأزهر الشريف وذلك على الصعيد العالمي، ويكون مركزها الرئيسي القاهرة»[3].

ويبدو بالفعل أن هذا الخطاب الإصلاحي، وهذا المؤتمر الدولي قدا آتى ثماره في مصر بوضوح؛ إذ حصل فيها مالم يحصل في تاريخ التصوف في العالم العربي، حيث أُسِّست أحزابٌ سياسية صوفية! وبرز رموز مشايخ الطرق الصوفية مباشرة في الحراك السياسي في مصر. كل ذلك في أعقاب ثورة ٢٥ يوليو ٢٠١١م، وهذا الجانب السياسي الصوفي الجديد هو ما سأتناوله بالتفصيل في المبحث القادم.

---

(١) يُنظر: موقع الحبيب علي الجفري، تقرير مطول عن مؤتمر التصوف منهج أصيل للإصلاح، في ٢٨/ ١١/ ١٤٣٢هـ الرابط:
www.alhabibali.com/news_details/ln/ar/newsid/360

(٢) المرجع نفسه.

(٣) المرجع نفسه.

وأما عن الهيئة الصوفية العالمية التي أوصى بها المؤتمر، فقد أعلن الأزهر بعد المؤتمر بفترة وجيزة عن إنشاء اتحاد عالمي لعلماء الصوفية، يهدف إلى ترشيد حركة التصوف المعاصر، وفي المقابل أعلنت مشيخة الطرق الصوفية بمصر رفضها لهذا الاتحاد معتبرة أنه سعيٌ من الأزهر إلى فرض الهيمنة على التيار الصوفي![1].

سادساً: كثرة المؤتمرات والملتقيات

أصبحت المؤتمرات والملتقيات الصوفية من الأمور التي تميز الدعوة الصوفية بعد ١١ سبتمبر؛ وهي تارة ما تكون لمناقشة التصوف بشكل عام، وأخرى لمناقشة بعض مسائله، أو للتعريف بأحد رموزه السابقين كابن عربي والحلاج والرومي وغيرهم، وتارة ما تكون على المستوى المحلي للدولة، وأخرى على المستوى الدولي أو العالمي. وهذه المؤتمرات والملتقيات هي في المحصلة أسلوبٌ مهم في الترويج للتصوف، وبخاصة أنها تحظى بتغطيات إعلامية على الرغم من كثرتها. وقد أوردت بين ثنايا ما سبق العديد من أمثلة تلك الملتقيات والمؤتمرات. وأشير هنا بأن ثمة كتاباً متميزاً للسيد محمد بن عبدالله المقدي، بعنوان «التصوف بين التمكين والمواجهة»، رصد فيه العديد من أوجه الحراك الصوفي بعد ١١ سبتمبر، ومن أوجه ذلك الحراك الذي رصده «الملتقيات والمؤتمرات»[2]. وهناك أيضاً كتاب آخر من تأليف الدكتور محمد يسري إبراهيم، جمع فيه أيضاً الكثير من أمثلة الحراك الصوفي الجديد[3].

---

(١) يُنظر: وكالة أنباء الأناضول، خبر بعنوان «الأزهر يطلق اتحاداً عالمياً للصوفية وسط اعتراضات»، في ١١/ ١١/ ٢٠١١م، الرابط:
http://www.aa.com.tr/ar/rss/98903?utm_source=dlvr.it&utm_medium=twitter

(٢) يُنظر: محمد المقدي، التصوف بين التمكين والمواجهة، ص٣٩-٥٩، والسيد محمد المقدي يُشرف أيضاً على موقع الصوفية الإليكتروني، والذي يهدف إلى دعوة الصوفية؛ بأسلوبٍ علمي رصين، رابط الموقع: *http://www.alsoufia.com*

(٣) يُنظر: محمد يسري إبراهيم، قراءة في الاستراتيجية الغربية لحرب الإسلام بعد الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م/ ولتستبين سبيل المجرمين، دار الكتب المصرية-القاهرة، ط١، ١٤٣٢هـ-٢٠١١م، ص١٢٩-١٤٠

سابعـًا: تكوين الاتحادات الصوفية

من الأمور التي برزت مؤخراً وسط الحراك الصوفي المعاصر؛ المطالبة المتكررة بتوحيد الجهود الصوفية، وجمعها عبر اتحادات وروابط تجمع شتات الطرق الصوفية، ولذلك أمثلة عديدة برزت مؤخراً، منها الاتحاد العالمي لعلماء الصوفية الذي أعلن الأزهر عن تكوينه، وهناك أيضـًا «المجلس الصوفي العالمي»، الذي تأسس في لندن عام ٢٠٠٩م، ويرأسه الشيخ محمد الشهاوي، شيخ الطريقة البرهامية الشهاوية بمصر، ويهدف - بحسب موقعه- إلى نشر السلم والسلام والوعي الديني والثقافي، والدعوة إلى الإسلام ونبذ العنف والتشدد والتعصب[١]، ولهذا المجلس أربعة مكاتب حول العالم؛ في الأمريكيتين، وجاكرتا، والخرطوم، وافتتح مؤخراً فرعـًا خامسـًا بدولة الكويت، وتم اختار الشيخ يوسف الرفاعي شيخ الطريقة الرفاعية بالكويت رئيسـًا له، بالإضافة إلى اختياره أيضـًا أمينـًا عامـًا للمجلس[٢].

وهناك أيضـًا «الاتحاد العالمي للصوفية»، برئاسة الشيخ محمد علاء أبو العزايم، وقد أُعلن عن تأسيس هذا الاتحاد في ختام مؤتمر «الدور الصوفي في أمن واستقرار المجتمعات» الذي نظمته مشيخة الطريقة العزمية في العاصمة الفرنسية باريس في الفترة ٢-٤/ ١١/ ٢٠١٣م، وتم الاتفاق على أن يكون مقر الاتحاد في باريس، ومقره التنفيذي في القاهرة، وأن تكون مقرات الطرق الصوفية المشاركة في المؤتمر بمثابة مقرات فرعية للاتحاد في جميع دول العالم[٣]، وأشار أبو العزايم إلى أن الاتحاد يهدف إلى توضيح الصورة الحقيقية للتصوف وللتواصل بين جميع الطرق الصوفية بالعالم، وإقامة مجتمع إسلامي، ونشر الاعتدال ومواجهة الغلو، ونشر أهداف الإسلام السمحة[٤].

---

(١) يُنظر: موقع المجلس الصوفي العالمي، الرابط: *http://www.sia-sufism.org*

(٢) يُنظر: جريدة اليوم السابع الإلكترونية، في ١٢/ ٥/ ٢٠١٣م، الرابط:
http://www.youm7.com/News.asp?NewsID=1061642#.UtrJphCm34Y

(٣) يُنظر: جريدة الأهرام، في ٤/ ١١/ ٢٠١٣م.

(٤) يُنظر: جريد الوفد، في ١٨/ ١/ ٢٠١٤م.

هذه بعض الاتحادات الصوفية التي وقفت عليها، والتي تشير إلى أن الصوفية كما تفرقوا واختلفوا في طرقهم فكذلك الحال في اتحاداتهم! وتشير من جهة أخرى إلى مدى اهتمام الصوفية بالدور المنتظر منهم بعد ١١ سبتمبر-، وذلك بعد أن توجهت إليهم أنظار حكومات العالم الغربي والعربي، فكانت منهم هذه الاتحادات ليزدادوا قوة وتنظيما؛ ولكن الذي يبدو أنها لم تزدهم إلا فرقةً واختلافاً.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن ثمة سمة اصطبغت بها الدعوة الصوفية ولم أجد ضدها إلا ما ندر، وهي أنك لا تكاد تجد فيما بينهم أمراً بمعروف ولا نهياً عن منكر، على الرغم من الاختلافات والخلافات الكبيرة التي بينهم. ولا تكاد تسمع منهم من يقول مثلاً: ما تفعله تلك الطريقة محرم أو بدعة! ولعل كلمة الحبيب الجفري -الآنفة الذكر- «من كثر علمه قل إنكاره ومن قل علمه كثر إنكاره» لها نصيبها الواقعي في الداخل الصوفي، لا سيما وأن علمهم -في الغالب- غير مقيَّد بالكتاب والسنة، وإن زعموا خلاف هذا، وغاية ما وجدتُ عندهم عبارات فضفاضة؛ كقولهم «لقد دخل في التصوف من ليس من أهله»، أو «لقد دخل على التصوف ما ليس منه» أو «يحتاج التصوف إلى تنقيته مما ليس منه»! ولا تجد منهم من يبيِّن من هم أولئك الذين دخلوا على التصوف وهم ليسوا منه، أو يُخبر عن تلك الأشياء التي دخلت على التصوف وهي ليست منه!!، وإلى نحو هذا يُشير موفق العطار قائلاً: «قد يُقال بأن الاعتراض على الصوفية والصوفيين واستنكار أقوالهم وأفعالهم مبني -كما يقول أنصار الصوفية -على أقاويل دُسَّت عليهم، أو نُسبت إليهم ظلماً وبهتاناً، فالكلمات التي نُسبت لرابعة العدوية لا تمت إلى الحقيقة بصلة، والأقوال التي قالها أبو يزيد البسطامي أكثرها مدسوس عليه. لذلك؛ فإن كل النقد وكل الاتهامات لا يُمكن الاعتماد عليها، أو القبول بها؛ لأنها بُنيت على أقوال، ولم تُبنَ على حقائق وأدلة صحيحة، ولكن؛ يبدو أن هؤلاء المدافعين عن الصوفية قد نسوا -أو تناسوا- أن مثل هذه الأقوال وما تتضمنه من شطحات تلقى استجابة قوية، وعدم استنكار من عدد كبير من الصوفيين، ولم يصدر بشأنها إنكار شامل لها، أو استنكار

جامع لقائليها، بل بالعكس»[1]. وأضاف قائلاً: «ثم إن الاعتراض على الصوفية وفكرها لا ينصبُّ -فقط- على تلك الشطحات، وعلى من يمثلها، ولا على سلوك أصحابها، ولا على مضمون كلماتها وعباراتها، بل يتجه -إضافة إلى ذلك- إلى الفكر الصوفي نفسه، وما يحمله من آراء، وما ينقله من أفكار، وما أدخله من معتقدات ونظريات غريبة عن الدين، وبعيدة عن مفهومه الصحيح.

إنه الفكر الذي ابتدع ما أُطلق عليه الحقيقة، وفرَّق بينها وبين الشريعة.

إنه الفكر الذي أعطى أولياءه وأقطابه وعارفيه مقامات تعلو على مقام الأنبياء والمرسلين.

إنه الفكر الذي جعل ما أطلق عليه كرامات بمثابة معجزات يعجز الأنبياء والرسل عن القيام بها.

إنه الفكر الذي أعطى أصحابه الحق في تأويل النص القرآني اعتماداً على التفسير الباطني له، وضرب بعرض الحائط آراء أهل العلم أصحاب التفسير المبني على ظاهر النص كما فهمه العلماء والفقهاء.

إنه الفكر الذي أعطى أصحابه الحق في الغوص في متاهات الشطحات، التي مبعثها الوجد، والسُّكر، واللاوعي، أو السماع، الذي يقود إلى النشوة، والنشوة التي تقود إلى إطلاق اللسان دون أي نوع من الرقابة والورع.

إنه الفكر الذي حول الزهد الحقيقي الذي عرفه ومارسه الصحابة الكرام إلى مظاهر زائفة، وتقاليد بالية، وبدع غريبة، ورتب دينية مستحدثة.

إنه التصوف الذي حول ذكر الله إلى مجالس يستخدم القائمون عليها الآلات الموسيقية لإدخال حال من النشوة والطرب بدلاً من إضفاء الخشوع والرهبة في نفوس الذاكرين.

إنه التصوف الذي يدَّعي أصحابه بلوغ العلم بالإلهام الرباني، وليس بالتعلم الدنيوي، والذي يدَّعي أصحابه بلوغ المعرفة، ومشاهدة الحق،

---

(١) موفق صادق العطار، نظرية المؤامرة أوهم أم حقيقة؟ «الصوفية»، دار الأوائل-دمشق، ط١، ٢٠٠٦م، ص١٧٦

ونيل حالة القرب التي لم يبلغها الأنبياء والمرسلون»[1].

هذا، وقد استبشرت خيراً حينما قرأت عنوان كلمة الشيخ عبدالله بن بيه - وهو من الداعين إلى تجديد التصوف- في مؤتمر التصوف بسيدي شيكر في المغرب عام ٢٠٠٩م، والتي كان عنوانها «التأصيل الشرعي للتصوف»[2]، ولكنني تفاجأت أن مضمون الكلمة لم يكن إلا محاولةً لتبرير أخطاء وبدع التصوف، وذلك من خلال استعراض عشرة من المسائل التي تُؤخذ على التصوف؛ وهي-بحسب ترتيب الكلمة-: اسم «التصوف»، وتحديد أعداد الأوراد من الذكر والتلاوة، واستعمال السبحة، والاجتماع للذكر، والتوسل والتبرك، والاستغاثة، ومسألة الشيخ والمريد، وزيارة قبور الصالحين والسفر إليها، ومسألة الوجد والتواجد، والكشف والاطلاع على الأسرار والخوارق. ومن ثم جهد في أن يجعل لكل واحدة منها مخرجاً شرعيا!![3].

وحينما زرت الشيخ بن بيه في منزلة بجدة، عام ١٤٣٥هـ وبمجرد أن طرحت عليه سؤالاً حول هذه الكلمة بادرني قائلاً -قبل أن أكمل سؤالي-: «هي بحاجة إلى إعادة نظر»[4]!. وأيضاً عندما زرت الشيخ علي الريسوني (شيخ الزاوية الريسونية) في منزلة بمدينة شفشاون المغربية عام ١٤٣٤هـ، وهو أيضاً من الداعين إلى تجديد التصوف، زعم أيضاً أن التصوف ينطلق من الكتاب والسنة، ودار بيننا حوار طويل، لم أخرج منه بنتيجة!

---

(١) المرجع نفسه، ص١٧٦-١٧٧

(٢) لمطالعة الكلمة، يُنظر: موقع الشيخ عبدالله بن بيه، الرابط:
http://www.binbayyah.net/portal/research/622

(٣) لا شك بأن «اسم التصوف» و«استعمال السبحة» ليستا معقد الخلاف مع التصوف، ولا يمكن أن تقارنا بالكشف والاستغاثة والتبرك بالأضرحة، ونحو ذلك. وأشير إلى أن ثمة قراءة نقدية لمضمون هذه الكلمة، بعنوان: تعليق على كلام الشيخ عبدالله بن بيه في محاضرته عن التأصيل الشرعي للتصوف، لعبد العزيز مصطفى الشامي، في ٢٤/١٠/١٤٣٤هـ نُشرت بموقع الصوفية، على الرابط:
http://www.alsoufia.com/main/3825-1html

(٤) وهذا ما جعلني أصرف النظر عن السؤال التالي الذي كنت أنوي طرحه عليه، وهو عن قوله في كلمته تلك: «إن الصوفية تقدم أنواعاً شتى من الوسائل مستقاة من الكتاب والسنة والتجارب الروحية الخاصة». وسؤالي الذي لم أطرحه: متى كانت التجارب الروحية الخاصة مصدراً من مصادر العبادة؟!.

وعليه، فماذا يعني شعار «تجديد التصوف» إذا كان من يرفعه يدَّعي في ذات الوقت أن التصوف ينطلق من الكتاب والسنة، ويهتدي بهديهما؟!

وبعد، فالخلاصة في شأن الدعوة الصوفية المعاصرة بعد ١١ سبتمبر أنها باتت بكل مضامينها وتطوراتها في مواجهة الدعوة السلفية، وذلك بشكل واضح وصريح لا يقبل التأويل، منتظمة بذلك في الخط الأمريكي المواجه أيضـاً بصراحة ووضوح للدعوة السلفية؛ وفي هذا يقول الشيخ محمد بن شاكر الشريف: «وقد كان غريباً على المتابع لمجريات الأحداث في أمتنا أن يجد التعاون والتناصر بين فئات لم يكن يدور بخلد مسلم إمكانية اللقاء بينهم، نظراً لما في ظاهر أمرهم من التناقض الشديد والتباين الكامل، لكن عداوة تلك الفئات للمنهج السلفي جمعت بينهم وألفت بين أهوائهم. يحتشد في الصف المناوئ للسلفية الكفار من أهل الكتاب وعبدة الأوثان، بجانب أهل البدع الخارجين على منهج أهل السنة والجماعة، ولا يُدرى بأي مقياس يقيس هؤلاء عندما يتعاون من يصنفون أنفسهم في خانة المحبين لله ولرسوله ولآل بيته الأطهار، مع النصارى الذين يدعون مع الله إلها آخر، ويقفون صفـاً واحداً متعاونين في مواجهة أتباع المنهج السلفي الذين يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويجعلون من الكتاب والسنة وإجماع الأمة المصادر التي يرجعون إليها في تكوين عقائدهم وسلوكياتهم وأخلاقهم وعباداتهم، ويقيمون عليها صرحهم الفقهي»[1].

بقي أن أشير في الختام إلى أمرٍ مهم وهو أن الدعوة السلفية تحمل هَمَّ الدعوة إلى الإسلام الحقيقي القائم على هدي الكتاب والسنة، ذلك الإسلام الذي يُعلي من شأن العدل، ويأمر به في الأقوال والأفعال حتى مع العدو؛ فأنتج هذا العدلُ التسامحَ مع المسالمين من أتباع الديانات الأخرى في أكمل صورة ممكنة (البر والقسط)، يقول الدكتور لطف الله خوجه:

---

(١) محمد بن شاكر الشريف، مقال بعنوان «الصوفية في مواجهة السلفية»، موقع صيد الفوائد الإليكتروني، رباط المقال:

http://www.saaid.net/Doat/alsharef/68.htm

«فالمسلمون هم أولى الناس بالعدل، ومنه بُذل التسامح مع أتباع الديانات الأخرى،.. وهو ما طبقه المسلمون في تاريخهم، وفي حكمهم، وآية ذلك: بقاء كافة هذه الديانات التي عاشت تحت الحكم الإسلامي، لم تُعانِ إبادة، ولا استئصالاً، بل بقيت إلى اليوم وبقيت معابدها، كالبوذية، والهندوسية، والصابئة اليزيدية، وطوائف المسيحيين الأرثوذكس والكاثوليك، حتى اليهود.. كل هذه الملل جربت العيش الهادئ الآمن، والحرية الدينية في الإسلام»[1].

ثم بيَّن الدكتور خوجه بأن هذا التسامح مع باقي الأديان في إطار دولة الإسلام مقيدٌ بحدودهم الشخصية، دون الدعوة إليه؛ لأن من حق الإسلام أن يصبغ الحياة في الدولة الإسلامية بصبغة إسلامية ربانية، ولا ينافسه فيها دين آخر[2].

هذه هي الحرية الدينية وهذا هو التسامح على هدي الكتاب والسُّنَّة؛ والأسوة العملية الأولى لنا في ذلك هو حبيبنا المصطفى ﷺ، كما هو معلومٌ من سيرته في المدينة.

وإذا كان هذا التسامح وهذه الحرية مع الديانات الأخرى التي تعيش بين المسلمين وفي ديارهم، فكيف يُظن بالمسلم أو بالدعوة السلفية أن تدعو إلى غير هذا التعامل العادل مع غير المسلمين في بلدانهم، لا سيما وأن الله يأمرنا بأن ندعوهم بالحكمة والموعظة الحسنة، وأن نجادلهم بالتي هي أحسن. وأما افتراءات الصوفية على الدعوة السلفية فهي عارية عن الصحة ولا يسندها دليل حسيٌّ أو نظري، بل إن التسامح الذي يدعون إليه تسامح غير الذي ذكرته أعلاه، فتسامحهم لا ينطلق من هدي الكتاب والسنة، ولذلك فإن التسامح عندهم يعني القبول والرضا بالأديان الأخرى، فتجد الصوفي يقْبَل باليهودي والنصراني والوثني ويتعايش معه، ولا يقْبَل بالسلفي ولا يُحبه، بل يعاديه، وكتبهم تنضح بتكفير السلفية «الوهابية»؛ من لدن

---

(١) لطف الله خوجه، فلسفة الحرية الدينية: نظرة عقدية، رابطة العالم الإسلامي - سلسلة دعوة الحق، السنة٢٤، العدد ٢٣٠، ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م، ص١١٥-١١٦. وللمزيد يُنظر أيضاً: صالح الحصين، الحرية الدينية في السعودية، مرجع سابق. وله نسخة باللغة الإنجليزية جديرة بالنشر.

(٢) يُنظر: المرجع نفسه (فلسفة الحرية الدينية)، ص١١٦.

أحمد زيني دحلان في «الدرر السنية في الرد على الوهابية»، ومروراً بمحمد العربي التباني (أبو حامد مرزوق) في «براءة الأشعريين من عقائد المخالفين»، إلى أن نصل اليومَ إلى كتب الطريقة العزمية المليئة صراحةً بتكفير السلفية!.

هذا من الناحية النظرية، وأما الواقع فهو خير شاهد علي تطبيق ما في تلك الكتب من كره وتكفير؛ فقد ضمَّ الملك عبدالعزيز الحجاز وعلماء السلفية في سجون مكة، بسبب كيد الصوفية بهم، وعلى النقيض لم نسمع بعد ذلك بأن الدولة السعودية سجنت أحداً من رموزهم، أو طالب علماؤها بسجنهم كما فعلوا يوم أن كانت الدولة لهم.

وقد كتب المتصوف محمود عبدالغني صباغ بحثاً عن التصوف في الحجاز، ووضع لإحدى فقراته العنوان التالي: (عذابات الصوفية في العهد السعودي)، ولكن الواقع لم يسعفه ولو بحادثة واحدة واقعية لتلك العذابات التي زعمها؛ كتلك العذابات الحقيقية التي نالت علماء الدعوة السلفية على يد صوفية الحجاز قبل بضعة عقود قريبة! بل إنني اندهشت أنه بعد فقرة العذابات تلك سَرَد عشرات المجالس والحلقات العلمية الصوفية القائمة في الحجاز حتى عام ٢٠١١م!! فأين الإنصاف، وأين تلك العذابات المزعومة!![1].

وحول هذه المسألة يقول الدكتور الشريف حاتم العوني: «في الفترة التي كانت فيها الحجاز تُعدًّ ولاية من ولايات الدولة العثمانية، وبما أن الدولة العثمانية كانت تتبنى مذهباً صوفياً متطرفاً في الغالب، كانت الدعوة السلفية في الحجاز وغيرها من ولايات الدولة العثمانية محاربة بقوة وبغير تسامح، فهذا محمد بن محمد بن سليمان الرّوداني المغربي، والذي توفي

---

(١) هذا البحث عن الصوفية في الحجاز نشره مركز المسبار ضمن كتابه: التصوف في السعودية والخليج، مرجع سابق، ١٤٩-٢٥١. والجدير بالإشارة هنا هو أن مركز المسبار للدراسات والبحوث-ومقره دبي- ينشط منذ بضعة سنوات في إصدار كتب ترصد الوجود الصوفي في العالم الإسلامي، وتتناول موضوع التصوف بشكل إحيائي واضح. ومن أصداراته أيضاً في هذا الجانب كتاب «الإسلام النائم: التصوف في بلاد الشام»، و«التصوف المعاصر (أفغانستان، السودان، المغرب، العراق)» و«التصوف والحداثة في دول المغرب العربي»، وغيرها، وللمزيد يُنظر: موقع مركز المسبار، الرابط: *http://www.almesbar.net*

قبل مولد الشيخ محمد بن عبدالوهاب، حيث توفي سنة (١٠٩٤هـ)، وهو أحد علماء الحجاز الذين كانوا غير راضين عن كثير من بدع الاحتفالات الدينية التي كانت تقام في الحجاز حينها، وكان شديد النفرة من بناء القباب على القبور، ويصف ذلك بأنه من بدع الكفار المنكرة. بقي معتزلاً في بيته، لا يستطيع أن يطالب بما يعتقده ويدين الله تعالى به. حتى عرفه وزير الدولة العثمانية الأكبر، وأحبه وضمه، فولاّه النظر في الشؤون الدينية للحجاز، فمنع تلك الاحتفالات، وهدم القباب، ولكن ما إن توفي ذلك الوزير حتى عُزل الروداني من منصبه، وأوذي أشد الإيذاء، وطرد من مكة والحجاز بأسوأ معاملة، ثم أُعيدت الاحتفالات، وبُنيت القباب من جديد، فأين التسامح الديني في هذا الحادث التاريخي، الذي يدل على الواقع الذي كان يعيشه الحجاز في تلك الفترة، ومناهضته وعداوته للدعوة السلفية، وعدم تعايشه معها بأي وجه من وجوه التعايش، والتي وصلت إلى درجة الطرد والإبعاد من الحجاز.

وفي آخر حكم الأشراف كانت الدعوة السلفية محاربة بكل قوة؛ لتعلّق ذلك بالصراعات السياسية بين الحجاز ونجد، وما قصة العالم المكي السلفي أبي بكر بن محمد عارف بن عبدالقادر خوقير (ت١٣٤٩هـ) عنّا ببعيد؛ الذي أوذي أشد الإيذاء، حتى سُجن هو وابنه، وقُتل ابنه في السجن، وبقي هو في السجن إلى أن سقط حكم الأشراف في مكة المكرمة، كل ذلك من أجل معتقده السلفي، والذي لم يكن له فيه أتباع تُخشى شوكتهم في الحجاز، بل هو تيار مكبوت أتباعه، متفرقون، لا يجمعهم تنظيم، ولا يتكلم بلسانهم خطيب، ومع ذلك أوذي هذا العالم بكل تلك القسوة، وبهذا القدر الغالي في مصادرة الرأي الآخر، وكبتت الحريات الدينية، وكل من عرف الحجاز وتاريخها الأخير، يعرف مقدار ما كانت تواجه به الدعوة السلفية من العداء، وعدم السماح لصوتها بالظهور، بل للقلوب أن تنطوي عليها، لو كان ذلك في قدرتهم»[1].

(١) جريدة الرياض، في ١٩/٩/١٤٢٥هـ- ٢/١١/٢٠٠٤م، مقال الشريف حاتم بن عارف العوني، بعنوان «الحجاز والتسامح الديني».

وبعد، فهذه هي السلفية، وهذا هو تسامحها، وهذه هي الصوفية وفعائلها، واليوم هاهي تتحالف مع أمريكا لحرب الدعوة السلفية ورموزها ومناهجها، ولم يرتفع منهم صوتٌ عاقل واحد للتنديد بهذا الظلم والتشوية الذي وقع على الدعوة السلفية، بل باركوه وسايروه! فأي الدعوتين أحق بوصف التسامح والاعتدال وتمثيل الإسلام الحقيقي؟!.

المبحث الرابع

الواقع الصوفي السياسي المعاصر

مدخل:

لم تكن الصوفية يوماً من الأيام بمعزل عن الحراك السياسي العلماني الذي شهده العالم الإسلامي منذ سقوط دولة الخلافة العثمانية وحتى يومنا هذا، بل حتى قبل ذلك إبان ضعف الدولة العثمانية وانفتاحها على التغريب.

وفي هذا المبحث سأتناول طبيعة تلك العلاقة التي ربطت الصوفية بالسياسة، والتطورات السياسية الجديدة التي حدثت داخل الصوفية ذاتها، وجعلت ذلك في المطلب الأول، وفي المطلب الثاني سأتناول واقع الصوفية بشقيه: السياسي والدعوي في الاستراتيجية الأمريكية الجديدة نحو العالم الإسلامي بعد ١١ سبتمبر، والتي يمكن القول بأنها «حرب فكرية» جديدة ضد الإسلام، حلت محل «الحرب الباردة» القديمة ضد الشيوعية، والتي انتهت بسقوط الاتحاد السوفيتي. وهذا ما سيأتي بيانه وتفصيله، ومن الله أرجو العون والسداد..

المطلب الأول: الصوفية والسياسة بعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١م

السياسة في المفهوم الإسلامي هي إدارة شؤون الحياة وفق أحكام الإسلام، أو ما يُعبَّر عنه أيضاً بتطبيق الشريعة؛ لأن الشريعة في الإسلام هي منهج حياة، بمعنى أنها ترسم الخطوط العريضة لحياة المسلمين، لكي يبنوا حياتهم وحضارتهم وفق الإطار الشرعي، والذي يعني البعد عما حرم الله، والقرب مما يحبه الله ويرضاه. وهنا يكمن الفرق الجوهري بين الإسلام وبين المسيحية المحرفة في الغرب، والتي لم تكن قبل ظهور العلمانية ولا بعدها منهجاً للحياة، وإنما كانت مصدراً ثانياً من مصادر الظلم والاستبداد بعد الملوك الأوربيين الجائرين. ولذلك يمكن القول بلا تردد بأن العلمانية لم تسلب الشعوب الغربية جزءاً أصيلاً من حياتها كما فعلت في شعوب المسلمين، والذين سَلَبت منهم -إلا من عصم الله- صياغة حياتهم وفق الشريعة الربانية. وبعبارة أخرى يمكن القول بأن العلمانية كمنهج يفصل بين الدين وبين إدارة شؤون الحياة لم تعرفه أوروبا وفق هذه التصور مثلما عرفته بلاد المسلمين.

وقد بيَّنت في الفصل الثاني من هذه الدراسة أن الصوفية -بما تحمله من «فلسفة» البعد عن الحياة الدنيا- كانت الجسر الذي تسللت من فوقه العلمانية إلى جسد العالم الإسلامي؛ وبيَّنت أيضاً كيف أصبحت الطرق الصوفية بعد سقوط دولة الخلافة العثمانية أحد أهم المرتكزات التي عززت النبتة العلمانية، فبات قادة العلمانية يقصدون ودّها وينشدون دعمها، وبالتالي أخذت هي منهم المكانة والدعم؛ الأمر الذي حفظها ذخراً للاستقرار السياسي العلماني!

وأضيف هنا بأن العلاقة الصوفية العلمانية يمكن ملاحظتها من خلال أنموذجين صوفيين اثنين، وهما:

أولاً: النموذج الطرقي التقليدي: وفي هذا النموذج دعمت الصوفيةُ العلمانيةَ عبر شكلها الطرقي التقليدي، وذلك إما بمباركة الحكم العلماني أو بالسكوت عنه (وهي حالتها الطبيعية)، أو بتوجيه المريدين نحو دعم

مرشح علماني يحُدِّده شيخ الطريقة. وتُعد السنغال أبرز مثال على هذا النموذج، والذي يتكئ فيها الحكم العلماني (صراحة) على الطرق الصوفية، بل إن الرئيس السنغالي «السابق» عبدالله واد -وهو من مريدي الطريقة المريدية- يقول تعليقاً على إلغاء عقوبة القتل في السنغال: «يجب علي أن أوضح أن إلغاء حكم الإعدام ليس له علاقة بالشريعة، لأن من سيتم مقاضاتهم في بلدنا تتم مقاضاتهم طبقاً لقوانين علمانية للقانون الجزائي الذي أخذناه عن نابليون، وذلك ليس له أي علاقة بالشريعة، فأنا لا أتكلم عن الشريعة، هذه مشكلة أخرى لست بصددها الآن»[1].

وفي مثال آخر تتبين منه طبيعة العلاقة العميقة بين السياسي والطرق الصوفية، يقول الباحث حسام تمام: «وأذكر أنني في زيارة للشيخ حسن الترابي في منزله وجدت وفوداً من الطرق الصوفية تزوره، والرجل يجلس معها ويحدثها بنفس طريقتها، وعند انصرافهم ردد معهم الأذكار الصوفية وحياهم بطريقتهم!! ساعتها سألته مستغرباً عن موقفه المتشبه بالطرقية وهو أشهر زعماء الإسلام السياسي، فقال: «من يتجاوز الصوفية في السودان فليبحث عن بلد آخر، إذ لن يكون له مستقبل فيها»!»[2].

وفي الغرب أيضاً حيث يتسع أفق المعارضة السياسية دونما ضرر، نجد أيضاً أن الموقف الصوفي هو ذاته لم يختلف؛ فهاهو مروان خلف شيخ الطريقة النقشبندية الحقانية في بريطانيا يقول -عبر قناة الجزيرة-: «ربنا جل وعلا أعطى أمريكا الحول والقوة وعيَّن جورج بوش.. هو عيَّن توني بلير، وعيَّن السيد الملك عبدالله في الأردن وعيَّن الرئيس حسني مبارك في مصر.. ربنا عيَّنه»[3]، ويقول أيضاً «طوسون بيرق» شيخ الطريقة الخلوتية الجراحية

---

(١) الجزيرة نت، برنامج نقطة ساخنة (مكتوباً)، عنوان الحلقة «السنغال بين العلمانية والصوفية ج٢»، في ٢٧/ ١٠/ ١٤٢٦هـ-٣٠/ ١١/ ٢٠٠٥م، الرابط:
http://www.aljazeera.net/programs/pages/08386ed6-b831-49de-8ae1-f355cab4fd3f

(٢) حسام تمام، مع الحركات الإسلامية في العالم، مرجع سابق، ص٢١، وأنبه هنا إلى عدم الموافقة على عبارة «الإسلام السياسي» الواردة في النص المقتبس أعلاه، لأن الإسلام بجميع شؤونه شيء واحد، وهذه العبارة التي يُروِّج لها الإعلام إنما هي من نتاج الفكر العلماني.

(٣) قناة الجزيرة الفضائية، برنامج سري للغاية، حلقة بعنوان «البحث عن الصوفية»، ٢٠٠٨م، مرجع سابق.

في أمريكا: «السياسة كذب، وطريقتنا لا تُقحم نفسها في السياسة، ولكن كي نقف في وجه المستبدين أحيانا يكون من الأجدى أن نقدم الطعام لمن يُستبد بهم، فهذا عملٌ أكثر نشاطاً وفاعلية بدلاً من إلقاء القنابل وقتل الناس»[1]، وهذه الكلمة تُعد أيضاً تطوراً في الخطاب الصوفي الداعم للسياسة العلمانية، وذلك عبر حصر المسألة السياسية بين أن توافق على السياسة العلمانية أو أن تختار طريق العنف والقتل!! وما أقبح وأشنع مثل هذا القول.

ثانياً: النموذج الصوفي التركي: وهذا النموذج له شطران رئيسيان؛ الشطر الأول يمثله مشايخ الطرق الصوفية التقليديين، والذين باتوا بعد قرار أتاتورك عام ١٩٢٥م بدون طرق منظمة، ولكنهم لم يُحاربوا في دعوتهم أو في مريديهم، وهذا الشطر يماثل النموذج الأول في آلية دعمه للعلمانية، وله معها تاريخ يمتد إلى ما قبل سقوط الخلافة العثمانية. وأما الشطر الثاني فقد وضع أسسه الشيخ الصوفي «سعيد النورسي»[2]، صاحب عبارة «لعن الله الشيطان والسياسة»، والذي امتازت دعوته بالحث على البعد عن الجهاد!، وكذلك على البعد عن مسمَّى «التصوف»، مع بقاء مضمونه العقدي والسلوكي، وذلك حتى لا يثير غضب العلمانيين. وهذا المسار النورسي الجديد لقي استحسان ودعم العلمانيين حتى بات يشكل تكتلات صوفية كبيرة لا يستطيع السياسي تجاوزها. ومع قانون التعدد الحزبي التركي لعام ١٩٥٠م استخدمت النورسية «التصويت الانتخابي» لدعم الحزب الديمقراطي، وذلك بشكل سري في البداية، ثم بشكل علني في انتخابات ١٩٥٧م، ثم تطور الأمر إلى تأسيس حزب «النظام الوطني» عام ١٩٧٠م، بزعامة أحد تلاميذ المدرسة النورسية وهو نجم الدين أربكان، وهو أول حزب سياسي ذو جذور إسلامية (صوفية) في تركيا العلمانية[3]. وهكذا

---

(١) المرجع نفسه. وهذه الكلمة تُعد أيضاً تطوراً في الخطاب الصوفي الداعم للسياسة العلمانية، وذلك عبر حصر المسألة بين أن توافق على السياسة العلمانية أو أن تختار طريق العنف والقتل!! وما أقبح وأشنع مثل هذا القول.

(٢) سبق الحديث عن الشيخ سعيد النورسي ودعوته للصوفية الجديدة في الفصل الثاني.

(٣) يُنظر: رضا هلال، السيف والهلال: تركيا من أتاتورك إلى أربكان، ص١٠٦.

تطور هذا المسار الصوفي النورسي إلى أن بات اليوم يشكل ثقلاً لم يمكن للسياسي العلماني أن يتجاوزه، وفي ذات الوقت لا يمكن وصف ذلك المسار الصوفي بأنه حركة سياسية!. وتُعد حركة فتح الله كولن أبرز امتدادات ذلك المسار النورسي في الساحة التركية اليوم، فلها ثقل اجتماعي واسع، وبالتالي تأثيرها كبير على المجريات السياسية التركية، وهي في ذات الوقت تعلن تبرؤها من العمل السياسي، كحال مؤسسها الأول!.

وبعد، فهذان النموذجان، بالإضافة إلى موقف الصوفية من العلمانية - الذي سبق الحديث عنه- يوضحان بجلاء أن مناداة الصوفية بترك السياسة لأهل الدنيا والاشتغال عنها بالآخرة ما هي في الحقيقة إلا دعمٌ للسياسة العلمانية من وجه آخر! وأيّ شيء أنفع للعلماني من هذه المناداة! وقد وقع له النفع، فحَكَم وتمكَّن وأقصى الشريعة! وإلى الله المشتكى.

وبما أن هذا الموقف الصوفي من السياسة لم ينطلق من هدي الكتاب والسنة فقد أتى أيضاً بالمخرجات الطوام، وأعظمها دعم العلمانية، وأضيف هنا أيضاً بعض التطورات المعاصرة التي طرأت على النموذجين الصوفيين السابقين في الجانب السياسي:

أما النموذج الأول (الطرقي التقليدي) فقد طرأ عليه تطور في الميدان السياسي لم يُسبق إلى مثله في تاريخ التصوف في العالم العربي، ألا وهو تأسيس أحزابٍ سياسية صوفية في مصر، وذلك بعد ثورة ٢٥ يوليو ٢٠١١م؛ ففي سبتمبر ٢٠١١م وافقت لجنة الأحزاب السياسية بمصر على تأسيس حزب «التحرير المصري» وهو أول حزب صوفي في مصر. وفي أكتوبر ٢٠١١م تمت الموافقة أيضاً على تأسيس حزب «النصر» الشهير بـ«حزب النصر الصوفي»، والذي يضم أطيافاً عدة من الطرق الصوفية، أهمها الشاذلية والجعفرية. وثمة أحزاب سياسية صوفية أخرى تنتظر التدشين، كحزب «صوت الحرية» الذي دعى إلى تأسيسه طارق الرفاعي شيخ الطريقة الرفاعية، وحزب «شباب طيبة» الذي دعا لتأسيسه نضال المغازي شيخ الطريقة المغازية، هذا بالإضافة إلى قيام عدد من القيادات الشبابية الصوفية بتأسيس «ائتلاف الصوفيين المصرين» برئاسة مصطفى زايد

سكرتير الطريقة الرفاعية، كما أُعلِنت أيضاً ائتلافات أخرى على شبكات التواصل الاجتماعي؛ مثل «الائتلاف العام لشباب الصوفية» و«رابطة شباب الصوفية»، إلى غير ذلك من تطورات الحراك السياسي الصوفي الطرقي[(١)].

وأما لماذا هذا التطور المفاجئ والمناقض للأسس الصوفية؟! فقد صرح محمد أبو العزايم شيخ الطريقة العزمية ومؤسس حزب «التحرير المصري» قائلاً: «إن مساعي جماعة الإخوان المسلمين والجماعات السلفية للانخراط في العمل السياسي الرسمي تهدد التسامح الديني وتُلزم الصوفيين بأن ينحوا نفس المنحى»[(٢)]، ويقول الشيخ بيومي حسن، أحد أعضاء الطريقة العزمية: «أسَّسنا أحزاباً وائتلافات في الطرق الصوفية، وغيَّرنا من حوارنا الديني لمواجهة العبث برموزنا وأحوال المصريين، ومواجهة تطرف بعض قيادات التيار السلفي، لكن خطابنا لم يُخِف أحداً»[(٣)].

وأما محمد صلاح زايد رئيس حزب «النصر الصوفي» فقد صرح بأن حزبه يعتبر حزباً سياسياً، وأن التصاق كلمة «الصوفي» باسم الحزب فقط لأن مؤسِّسه صوفي، وصرح كذلك بأنه يعارض قيام الأحزاب في مصر على أساس ديني[(٤)]! علماً بأنه كان قبل هذا التصريح بأشهر يعتزم هو وحزب «التحرير المصري» وغيرهم من الصوفية الاندماج لتشكيل كتلة صوفية سياسية واحدة![(٥)].

---

(١) يُنظر: مجلة البيان، العدد ٢٩٧، جماد الأولى ١٤٣٣هـ- إبريل ٢٠١٢م، مقال بعنوان «تسييس التصوف في مصر الثورة»، لمصطفى شفيق علام.

(٢) وكالة رويترز، تقرير بعنوان «صوفيون مصريون يخشون تهديد إسلاميين بعد رحيل مبارك»، في ١٤/ ١/ ٢٠١١م، الرابط:
http://ara.reuters.com/article/topNews/idARACAE75D0EA20110614?pageNumber=1&virtualBrandChannel=0

(٣) جريدة الشرق الأوسط، العدد١٢٠٦٨، في ١٧/ ١/ ١٤٣٣هـ- ١٣/ ١٢/ ٢٠١١م

(٤) يُنظر: جريدة اليوم السابع الإليكترونية، خبر بعنوان «النصر الصوفي: لسنا حزباً دينياً ولدينا أعضاء مسيحيون»، في ٣١/ ١٢/ ٢٠١٣م، الرابط:
http://www1.youm7.com/News.asp?NewsID=1426786&#.Ut-JVxCm34Y

(٥) يُنظر: جريدة الأهرام، خبر بعنوان «تحالف سياسي بين الأحزاب الصوفية»، في ١/ ٣/ ٢٠١٢م

وحول هذه التطورات السياسية التي طرأت على المسيرة السياسية للصوفية (الطرقية) في مصر يقول الدكتور عمار علي حسن: «إن ثورة ٢٥يناير/ كانون الثاني ألقت حجراً كبيراً في بحيرة الطرق الصوفية المصرية الراكدة، فهاجت وماجت، ولن تعود إلى ما كانت عليه؛ فرغبة المتصوفة في التحرر والتحقق السياسي والاجتماعي باتت الآن أكبر من أي وقت مضى»[١].

بقي أن أشير إلى أن هذا التطور أتى متسقاً مع الموقف الصوفي القديم من العلمانية، إذ الواقع العملي لتلك الأحزاب والائتلافات الصوفية أثبت -حتى الآن- وقوفها العلني إلى جانب التيار العلماني والليبرالي واليساري، بصور شتى، أبرزها الدعم العلني للمرشحين العلمانيين والليبراليين في الانتخابات الرئاسية والبرلمانية[٢]، وبالتالي فالتطور كان في الشكل فقط ولم يمسَّ المضمون.

وأما النموذج الثاني (الصوفي التركي في شطره النورسي)، فقد طرأ عليه أيضاً تطور ملفت، حيث تمكن «حزب الرفاه» بزعامة نجم الدين أربكان من الفوز في انتخابات الحكومة عام ١٩٩٧م، وذلك بعد أن تحالف مع حزب «الطريق الصحيح» العلماني بزعامة «تانسو تشيللر»، وتولى أربكان رئاسة الحكومة التركية، وبذلك كان أربكان أول زعيم إسلامي (صوفي) يتولى رئاسة حكومة في تركيا العلمانية الحديثة، وحظيت تلك الحكومة بدعم أمريكي في ذلك الوقت، إذ عارضت أمريكا علناً نيّة الجيش التركي القيام بانقلاب عسكري ضد تلك الحكومة[٣]، الأمر الذي حدا بالجيش إلى

(١) عمار علي حسن، تقرير بعنوان «الدور السياسي للطرق الصوفية في مصر بعد ٢٥ يناير»، موقع مركز الجزير للدراسات، ٢٤/ ٩/ ٢٠١١م، الرابط:
http://studies.aljazeera.net/reports/2011/08/2011811052527608l3.htm

(٢) للمزيد حول هذه المسألة يُنظر: مجلة البيان، مقال «تسييس الصوفية في مصر الثورة»، مرجع سابق. هذا ولا تزال الأوضاع في مصر لم تستقر منذ ثورة ٢٥ يوليو ٢٠١١م وحتى لحظة كتابة هذه الأسطر، نسأل أن يعجل لها بالفرج، وأن يحفظها بالإسلام.

(٣) صرحت وزيرة الخارجية الأمريكية -في ذلك الوقت- «مادلين أولبرات» بأن أمريكا لن تساند انقلاباً عسكرياً للإطاحة بالحكومة الائتلافية بين الرفاه والطريق الصحيح برئاسة أربكان، وذكرت جريدة لوس أنجلوس تايم أن البيت الأبيض أوضح بصراحة معارضته لانقلاب عسكري في تركيا، وأن الإدارة الأمريكية اتصلت مرتين برئاسة الأركان التركية لإبعاد شبح الانقلاب. يُنظر: رضا هلال، السيف والهلال، مرجع سابق، ص٢٠١

أن يقوم بانقلاب مدني ضدها، وذلك عبر فرض شروط وإجراءات لم تستطع تلك الحكومة القيام بها، فتم حلّها، ثم حلّ حزب الرفاه، وأحيل أربكان للمحاكمة[1]؛ ثم خرج من عباءة أربكان شباباً أسّسوا حزباً سياسياً جديداً عام ٢٠٠١م، سمّوه «حزب العدالة والتنمية»[2]، ووصل هذا الحزب إلى الحكم عام ٢٠٠٢م، بقيادة رجب طيب أوردوغان، وقد وافق هذا الفوز التوجه الأمريكي الهادر نحو إيجاد صيغة إسلامية جديدة تحارب التطرف، فحظيت هذه الحكومة بدعم كبير من قبل أمريكا والغرب، حتى إن الرئيس الأمريكي «جورج بوش» اقترح على أوردوغان بأن تبادر تركيا إلى إرسال وعّاظ وأئمة إلى مختلف أنحاء العالم الإسلامي، لكي يتولوا التبشير بنموذج الاعتدال التركي! وكان هذا الاقتراح خلال اجتماعٍ بين «بوش» وأوردوغان عام ٢٠٠٤م، وفيه عرض الرئيس الأمريكي على أوردوغان مشروع «الشرق الأوسط الجديد»، والذي يجعل من تركيا العمود الفقري؛ بحيث تتولى تركيا الترويج لنموذجها الديمقراطي واعتدالها الديني[3]. وهذا الدعم الأمريكي الكبير لهذه الحكومة ذات الجذور الصوفية (النورسية)، قلل من إمكانية قيام الجيش بأي نوع من الانقلابات ضدها.

والمحصلة أن كلا النموذجين الصوفيين السياسيين؛ غير الطُرقي (في تركيا مثلاً)، والطرقي (في السنغال مثلاً)، يقعان ضمن الاهتمام الأمريكي بالصوفية من الناحية السياسية، وإلى هذا يشير بحثٌ بعنوان «التصوف بين التوظيف السياسي والثابت التاريخي»، والمنشور في مجلة التمدن الصادرة عن جامعة مالايا الماليزية، إذ جاء فيه: «يُراهن الكثيرون حالياً على قدرة المتصوفة في التعبير عن الشكل المستقبلي للإسلام، وهذا الرهان وتلك

---

(١) يُنظر: المرجع نفسه، ص١٩٣-٢١٦

(٢) حزب العدالة والتنمية، حزب سياسي يقوم على أُسس العلمانية التركية، وليس حزباً إسلامياً كما يعتقد البعض. للمزيد عن الحزب يُنظر: موقع حزب العدالة والتنمية التركي-الصفحة العربية، الرابط: *http://www.akparti.org.tr/arabic*

(٣) يُنظر: جريدة يني شفق التركية، في ٣٠/ ١/ ٢٠٠٤م، نقلاً عن: محمد المقدي، التصوف بين التمكين والمواجهة، ص٣٣

الرؤية الاستراتيجية لا تنبع من فراغ، بل تتأسس على جدل طويل دائر حول ما إذا كان التصوف الإسلامي ينطوي على حلول للأزمات السياسية المعاصرة أم لا؟ وما إذا كان فيه ما يقرب بين الإسلام والليبرالية؟ وما إذا كانت قيمه تساهم في التواصل الحضاري ونبذ العنف والتطرف والإرهاب. ويعول الأمريكيون كثيراً في تصورهم هذا على ما جادت به التجربة النقشبندية في تركيا، حيث استوعب المتصوفة قيم العلمانية، وطوروا رؤيتهم الدينية لتواكب العصر، وتتماشى مع النهج الديمقراطي على مستوى القيم والإجراءات. كما يعولون على تجربة التصوف مع السياسة في السنغال إحدى أهم الدول التي يتجلى فيها الدور السياسي للمدارس الصوفية، وهي وإن كانت فاعلة بشكل عميق في الساحة السياسية، إلا أنها لا ترى حرجاً في الجمع بين مرجعيتها الإسلامية وبين تبني سياسييها وقادتها للفكر العلماني الصرف على الطريقة الفرنسية، إذ يمثل الانتماء للطريقة وتردد السياسي على حلقات الذكر باستمرار جانباً محورياً في شخصيته وفي الوقت نفسه يتعايش بل ينافح ويكافح في سبيل فصل المبادئ التشريعية على القيم الروحية والعقدية التي يعيشها»[1].

وبعد، فمن خلال ما سبق يتبين لنا المدى البعيد والعميق الذي وصلته الصوفية المعاصرة في علاقتها مع السياسة العلمانية، سواء في شقها الطرقي، أم في شقها الآخر غير الطرقي. وقد حملت أحداث ١١ سبتمبر المزيد من العمق والتطور إلى تلك العلاقة، على ما بيَّنته آنفاً بالتفصيل.

(١) مجلة التمدن، جامعة مالايا-ماليزيا، المجلد٧، العدد١، لعام ٢٠١٢م، بحث بعنوان «التصوف بين التوظيف السياسي والثابت التاريخي»، طارق عبدالسلام لعجال، وأحمد زكي إبراهيم، ص١٦٨

المطلب الثاني :الصوفية و«الحرب الفكرية» الأمريكية

بما أن أمريكا دولة علمانية فإن دعمها المعاصر للصوفية لا يندرج ضمن الإطار الديني، وإنما ضمن الإطار السياسي؛ وفي هذا المبحث سأحاول أن أبيِّن أسباب وقوع الصوفية ضمن الإطار السياسي الأمريكي، بل ضمن حلفاء أمريكا الاستراتيجيين بعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١م.

إنَّ الاستراتيجية الأمريكية الجديدة نحو الإسلام لم تكن وليدة أحداث ١١ سبتمبر، وإنما كانت تلك الأحداث بمثابة المُعجِّل بها، هذا من جهة، ومن جهة أخرى كانت بمثابة المبرِّر لكثير من المخرجات الظالمة لتلك الاستراتيجية؛ بشِقيها: العسكري والفكري. وتفصيل هذه المسألة وفق سياقها التاريخي سيقرِّبنا -بإذن الله- من فهم الواقع على حقيقته. فأقول مستعيناً بالله:

إنَّ سقوط الاتحاد السوفيتي كان يعني -كما هو معلوم- انتهاء «الحرب الباردة»، والتي على الرغم من استنزافها للجهد والمال الأمريكي، إلا أنها كانت تحقق للولايات المتحدة فائدتين مهمتين:

الفائدة الأولى: ضمان استمرار استعراض القوة الأمريكية؛ وذلك أن استمرار الحرب يعني استمرار المزيد من الحلفاء «التابعين»، الذين كانت تُشكِّل بهم أمريكا ما عُرف حينها بـ «المعسكر الغربي»، ويعني استمرارها كذلك المزيد من استعراض القرارات القوية سياسياً واقتصادياً وعسكرياً، وهكذا.

الفائدة الثانية: ضمان الوحدة الداخلية؛ إذ إن العقلية الغربية تؤمن بأن وجود عدو خارجي أمرٌ مهم لتحقيق الوحدة والتماسك، فالعدو الخارجي كما يقول الدكتور محمد الأحمري «يصنع وحدة داخلية مطلوبة في الغرب، تحفظ لهم تماسكهم، ولو لم يحدث من المسلمين شيء بحجم أحداث نيويورك فإن الحاجة كانت موجودة للبحث عن طريقة للتدمير والنقمة، وكُتبت نصوص كثيرة في هذا السياق بعد سقوط روسيا، وهذه القاعدة منذ أيام «أفلاطون»[1]،

---

(١) أفلاطون: *Plato* (428-347) ق.م، فيلسوف يوناني. يُعد هو وسقراط واضعي الأسس الفلسفية للثقافة الغربية. معظم مؤلفاته محاورات، تحدث فيها عن السياسة، والتربية، والحب، والفضيلة. وأشهر محاوراته كتاب «الجمهورية». يُنظر: معجم أعلام المورد، ص٦٠.

و«مكافيلي»[1] راسخة في التفكير الغربي، إذ يَشترط بُناة الدول الغربيون وجود عدوٍ وجيشٍ وإيمانٍ لتماسك كيانهم، وذلك حقهم في بناء فلسفتهم وفلسفة دولهم، ولكن ليس حقاً لهم أن يجعلوا منًّا الهدف الذي يتدرب عليه كل من أراد القتل، أو يريد أن يجرب سلاحاً جديداً، أو يبني تماسكاً حزبياً، أو شهرة أو مجداً أو تاريخاً»[2].

ومن هنا فما أن انتهت المعركة الأمريكية/ الشيوعية (الباردة) في مطلع التسعينيات من القرن الميلادي المنصرم حتى توجهت الأنظار الأمريكية صوب العدو الجديد (الإسلام)، والذي كانت دياره في تلك الأثناء تعيش صحوة إسلامية هائلة، وتسير بخطوات حثيثة نحو إعادة المسلمين إلى هويتهم الإسلامية، وإلى سابق عزهم وحضارتهم الإيمانية والمادية، كل ذلك وأمريكا تُدرك أن من يحمل لواء تلك الصحوة هم السلفيون بكافة أطيافهم، وهم من بات يملك ثقة الناس ومحبتهم، وهم من ينادي بتطبيق الشريعة، والتي يعدُّها الغرب نذير الخطر على حضارته، فهم يُدركون تماماً أن الشريعة ليست مجرد عقوبات وإجراءات جزائية فقط، وإنما هي منهج حياة بالنسبة للمسلمين، وهي التي ستقودهم إلى القوة والاستقلال على الصعيد السياسي، وإلى النهضة والتطور المستقل عن النظام الرأسمالي على الصعيد الاقتصادي، وإلى التفوق في الجانب العسكري، والذي يأمر الله ﷻ ببذل الوسع في إعداده، ليكون حافظاً للمسلمين من أعدائهم.

إنَّ هذه النتائج الثلاث العظيمة لتطبيق الشريعة واتباع أمر الله كفيلة بترقية المسلمين في سلم الحضارة، ولذلك فهي بالنسبة للغرب محل رفضٍ وعداء، هي ومن يحمل همَّ الدعوة إليها[3].

---

(١) مكافيلي، نيقولو Niccolo Machiavelli (1469-1527م) فيلسوف سياسي إيطالي ولد في فلورنسا من أبوين فقيرين، تولى مناصب إدارية ودبلوماسية رفيعة في الجمهورية الفلورنسية، اشتهر بنظريته السياسية التي تُعرف بالمكيافلية، والتي بسطها في كتابه «الأمير». يُنظر: معجم أعلام المورد، ص٤٣١.

(٢) محمد حامد الأحمري، ملامح المستقبل، مكتبة العبيكان-الرياض، ط١، ١٤٢٦هـ ص٧٥

(٣) في عام ٢٠١٠م أصدر مركز بحثي أمريكي وهو «مركز السياسة الأمنية» تقريراً بعنوان

وبما أن الشريعة الإسلامية كانت هي لبُّ الصحوة الإسلامية في أرجاء العالم الإسلامي، فقد بادروا باتخاذ الاسلام عدواً، منذ أن سقطت الشيوعية، وقبل أن يكون هناك أي عمل مسلح ضد أمريكا أو مصالحها!!، يقول الدكتور مصطفى محمود -رحمه الله-: «حينما يصرح الساسة في الغرب بأنهم لا يُعادون الإسلام وأنهم ليسوا ضد الإسلام كدين فإنهم يكونون صادقين بوجه من الوجوه.. إذ لا مانع عندهم أبداً من أن نصلي ونصوم ونحج ونقضي ليلنا ونهارنا في التعبد والتسبيح والابتهال والدعاء ونقضي حياتنا في التوكل ونعتكف ما نشاء في المساجد ونوحد ربنا ونمجده ونهلل له، فهم لا يعادون الإسلام الطقوسي.. إسلام الشعائر والعبادات..والزهد..ولا مانع عندهم في أن تكون لنا الآخرة كلها فهذا أمر لا يهمهم ولا يفكرون فيه.. بل ربما شجعوا على التعبد والاعتزال وحالفوا مشايخ الطرق الصوفية ودافعوا عنهم..ولكن خصومتهم وعداءهم هي للإسلام الآخر.. الإسلام الذي ينازعهم السلطة في توجيه العالم وبنائه على مثاليات وقيم أخرى.. الإسلام الذي يريد أن يشق شارعاً ثقافياً آخر ويرسي قيماً أخرى في التعامل ونماذج من الفن والفكر.. الإسلام الذي يريد أن ينهض بالعلم والاختراع والتكنولوجيا ولكن لغايات أخرى غير التسلط والغزو والعدوان والسيطرة. الإسلام السياسي.. الإسلام الذي يتجاوز الإصلاح الفردي إلى الإصلاح الاجتماعي والإصلاح الحضاري والتغيير الكوني.. هنا لا مساومة.. ولا هامش سماح.. وإنما حرب ضروس، هنا سوف يطلق الكل عليك الرصاص.. وقد يأتيك الرصاص من قوى سياسية داخل بلدك الإسلامي نفسه.. النمط الغربي للحياة تحول الآن إلى قلعة مسلحة ترفض أي منافس أو بديل.. قلعة لها جاذبيتها.. ولها

=

«الشريعة: الخطر الذي يهدد أمريكا» (*Shariah: The Threat to America*). وقد أعد هذا التقرير مدير المركز «فرانك جافني» والذي سبق وأن تولى مناصب سياسية، منها مساعداً مساعد وزير الدفاع في وقت الرئيس ريغن. ومؤخراً قام بعض أعضاء الحزب الجمهوري في الكونجرس الأمريكي بتأييد مذكرة أعدت استناداً إلى هذا التقرير!. يُنظر: «خدمة إنتر بريس» الإخبارية، في ٢٢/ ١/ ٢٠١٤م، الرابط:

http://ipsnorthamerica.net/news.php?idnews=3286. وللمزيد عن التقرير ومؤلفه يُنظر: موقع «مركز السياسة الأمنية»، الرابط: *http://www.centerforsecuritypolicy.org*

مريدوها أحياناً من المسلمين أنفسهم»[1].

ولهذا فقد بدأ الحديث في أمريكا منذ الوهلة الأولى لسقوط الشيوعية عن الخطر الإسلامي، وعن صراع الحضارات، وعن الخطر القادم، والمارد الجديد،..الخ. يقول «جون إسبوزيتو»[2]: «حذر صامويل هنتنجتون في مقال مثير للجدل نُشر عام ١٩٩٣ بعنوان «صراع الحضارات؟»[3] من أن «صراع الحضارات سوف يهيمن على الحياة السياسية العالمية». وقد اعتبر الكثيرون في العالم الإسلامي أن هذا الأكاديمي الأمريكي وأحد قادة الرأي المهيمن، الذي تقلد أيضاً منصباً رفيعاً في حكومة بلاده، يُعبر عما كانوا يعتقدونه دوماً موقف الغرب تجاه الإسلام. وإذا كان بعض الأكاديميين والمسؤولين الحكوميين قد سارعوا إلى النأي بأنفسهم عن موقف هنتنجتون، فقد أظهرت أرقام مبيعات كتابه الذي أصدره لاحقاً وترجماته إلى العديد من اللغات، ثم العدد الكبير من المؤتمرات التي عالجت هذا الموضوع، أن هناك سوقاً رائجة لموضوع «الصراع»»[4].

ويضيف أيضاً: «خلُص هنتنجتون في كتابه الذي أصدره عام ١٩٩٧م توسعة للموضوع نفسه، إلى أن «الحدود الفاصلة للإسلام دموية، وأن مكوناته الداخلية دموية أيضاً». وتجاوزت إدانته الشاملة مسألة الأصولية الإسلامية لتشمل الإسلام نفسه؛ إذ يقول: «إن المشكلة الأساسية بالنسبة للغرب ليست الأصولية الإسلامية، بل هي في الإسلام نفسه الذي يُعتبر حضارة متباينة، أصحابها مقتنعون بتفوق ثقافتهم ويتملكهم هاجس

(١) مصطفى محمود، الإسلام السياسي والمعركة القادمة، دار أخبار اليوم-القاهرة، ط ت بدون، ص١٧-١٨

(٢) يعتبر الدكتور «جون إسبوزيتو» من الأصوات الأمريكية المعتدلة والمنصفة للعالم الإسلامي.

(٣) لم تأت هذه المقالة «صراع الحضارات» من فراغ؛ فهنتنجتون رجل سياسة، ويعرف ماذا يكتب وماذا يقول، وما الذي تتطلبه مرحلة مابعد الحرب الباردة، ولذلك يؤكد هنتنجتون بأن مقاله ذلك -الذي نشرته مجلة الشؤون الخارجية-: «قد حرك نقاشاً خلال ثلاث سنوات تفوق ما أثاره أي مقال نشروه منذ ١٩٤٠م إلى اليوم». نقلاً عن: عباس غالي الحديثي، نظريات السيطرة الاستراتيجية وصراع الحضارات، دار أسامة-الأردن، ط١، ٢٠٠٤م، ص٦٧

(٤) جون إسبوزيتو، الإسلام والغرب عقب ١١ أيلول/ سبتمبر: حوار أم صراع حضاري؟، نشر مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، أبوظبي،ط١، ٢٠٠٣م، ص١٣-١٤

الإحساس بدونية قوتهم»[1].

وجاء في تقرير لمؤسسة راند صدر عام ١٩٩٥م بعنوان «الشعور بالحصار: السياسة الجغرافية بين الإسلام والغرب»[2] ما يلي: «حقاً لقد بات مألوفاً منذ نهاية الحرب الباردة الدفع بالقول بأن الصراع الأيديولوجي العالمي المقبل قد يكون بين «الإسلام» و «الغرب». ويأتي هذا الدفع تأسيساً على اعتقاد بأنه لا بد، كضرورة مطلقة، أن يظهر فيما بعد «مذهب» ما يتخذ موقف التحدي من المجتمعات الغربية[3]. وهذا القول ليس عارياً تماماً من أي أسباب تبرره، ذلك أن القوة الرمزية والواقعية التي يمثلها الغرب –الولايات المتحدة بخاصة– على الساحات الثقافية والسياسية والاقتصادية والعسكرية، هي قوة مهولة اقتحامية»[4].

وقبل وقوع أحداث ١١ سبتمبر قال «ضياء الدين ساردار» في كتاب له، صدر عام ١٩٩٩م: «تتقبل ورقة صامويل هنتنغتون «صدام الحضارات»– قليلة الأهمية وذائعة الصيت في الوقت نفسه– انتصار التقدم الغربي. ولكن هذا الانتصار لا يستنفذ، على كل حال، إمكانيات الصراع، والنزاعات الممكنة في المستقبل بين الحضارات، وبين تلك الحضارات المعادية للغرب، في جوهرها، من جهة والغرب من جهة أخرى. من السهل إذن توقع المرشح المفضل لبدء هذا النزاع، أي «الإرهاب العالمي» الذي ينتظرنا في المستقبل. ومن هنا تصريح هنتنغتون بأن الإسلام هو ذلك المرشح الذي بدأ يهز الغرب»[5].

---

(١) المرجع نفسه، ص ١٤-١٥.

(٢) هذا التقرير أعده «جراهام فوللر» و «إيان ليسر»، وقد تُرجم إلى اللغة العربية ونُشر في كتاب يحمل عنوان «الإسلام والغرب بين التعاون والمواجهة»!

(٣) وهل كان هذا المذهب (العدو) الذي أشارت إليه مؤسسة راند إلا السلفية! أو «الإسلام المتطرف» كما يسمونها! وسيأتي بيان هذا.

(٤) جراهام فوللر و إيان ليسر، الإسلام والغرب بين التعاون والمواجهة، ترجمة: شوقي جلال، مركز الأهرام للترجمة والنشر، ط بدون، ت بدون، ص ١١

(٥) ضياء الدين ساردار، الاستشراق: صورة الشرق في الآداب والمعارف الغربية، ترجمة: فخري صالح، نشر هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة «مشروع كلمة»، ط١، ١٤٣٣هـ-٢٠١٢م، ص١٥١. ونشر الأصل باللغة الإنجليزية عام ١٩٩٩م.

ويمكن القول اليوم بأن كل ما حدث من أمريكا تجاه العالم الإسلامي في فترة ما قبل ١١ سبتمبر لم يكن سوى استفزازات عدائية صريحة، تارة بمؤلفاتٍ تتحدث عن صراع الحضارات ونهاية التاريخ[١]، وتارة بالتدخلات المباشرة، وتارة أخرى بفرض حصارٍ على بعض الشعوب المسلمة (كما وقع على أهل العراق)، وتارة بمواقف سياسية تثير غضب المسلمين، وخاصة فيما يتعلق بقضية فلسطين، الأمر الذي انتج استهدافاً للمصالح الأمريكية من بعض الجماعات التي ترفع راية الجهاد؛ وذلك في ظل انفصام نكد بين تلك الجماعات وبين علماء الأمة، الأمر الذي ضاعت معه الحكمة وسياسة تقدير المصالح والمفاسد!

بدأ ذلك الاستهداف وأمريكا تزداد في سياساتها التصعيدية سنة بعد سنة، وكأنها تريد المزيد من الاستهدافات لمصالحها، حتى وقع ذلك الاستهداف الكبير في ١١ سبتمبر ٢٠٠١م، الأمر الذي حقق لأمريكا الفائدة الثانية التي ذكرتها آنفاً، والتي كانت الحرب الباردة تحققها لها من قبل![٢]

ولذلك ما إن وقعت أحداث ١١سبتمبر حتى أعلن الرئيس «بوش الابن» عن تساؤله الشهير «لماذا يكرهوننا؟»، فانبرت عشرات الأقلام في العالم الإسلامي مجيبةً على ذلك التساؤل، والذي لم يكن في الحقيقة موجهاً لهم! وإنما كان موجهاً فقط للشعب الأمريكي (دافع الضرائب)، والذين لا يدرك أغلبهم ماذا يدور خارج أمريكا؛ فكان ذلك التساؤل الماكر بمثابة إعلامٍ لهم بأننا لسنا بين يدي حادثةٍ جنائية، وإنما بين يدي عدوٍ جديد يكرهنا، كما كانت الشيوعية تكرهنا من قبل!

يقول موفق العطار: «لقد شكل هذا الحدث]أي١١ سبتمبر[نقطة تحول كبير في السياسة الأمريكية تجاه العالم الإسلامي، فعقب الحادث مباشرة

(١) أحدثَ كتاب فرانسيس فوكوياما «نهاية التاريخ والإنسان الأخير» حينما صدر في ١٩٩٢م، ضجة في الأوساط العالمية، إذ كان يُؤسِّس لنظرية تقول بأن الحضارة الليبرالية الغربية و(تحديداً الأمريكية) بلغت غاية ما تسمو إليه البشرية لحل مشاكلها، سواء في شقها السياسي (الديمقراطي)، أو في شقها الاقتصادي (الرأسمالي)؛ وهذا الكتاب مع كتاب صراع الحضارات عبَّرا بوضوح -حينما صدرا- عن الرؤية المستقبلية الأمريكية القادمة بعد الحرب الباردة.

(٢) ما أسطره هنا ليس من باب التبرير أو القبول بقتل الأبرياء، وإنما هو من باب التفسير لواقع عايشناه جميعاً، ولا زلنا نعاني تبعاته حتى اليوم.

انطلقت الاتهامات رأساً ضد المسلمين، وأُلصِقت التهمة بمنظمة القاعدة، التي يرأسها أسامة بن لادن، وذلك قبل التحقق من صحة أو عدم صحة هذا الاتهام، وبدأت الكتابات تنهال ضد المسلمين، وبشَّر الرئيس الأمريكي بوش العالمَ بأن حرباً صليبية قد بدأت!!! وساهمت أجهزة الإعلام بتهيئة الرأي العام الأمريكي لمجابهة عدو جديد (الإسلام) بدلاً عن العدو القديم (الشيوعية)، وقفزت صورة الوجوه الملتحية في أعمدة الصحف والمجلات وشاشات التلفزيون الأمريكي بمختلف قنواته، واختفت منها إلى حين صور القادة الشيوعيين الملحدين، ونشطت حركة غريبة في الوسط الثقافي والسياسي الأمريكي تُركّز على وصف الإسلام بالإرهاب، وبرزت في الأوساط الأدبية كتابات عديدة تبنّت هذا الوصف (محاكمة الإسلام السياسي) للكاتب جيل كوبل، و(محاربة الإرهاب) للكاتب يونا ألكسندر، و(عصر الإرهاب المقدّس) الذي كتبه العضوان السابقان في مجلس الأمن القومي الأمريكي في عهد الرئيس بيل كليتون دانيال بنجامن وستيفن سايمون، وفيه يصفان بالإرهاب كُلاً من ابن تيمية وسيد قطب. وتعدّت ظاهرةُ العداء الرهيب للإسلام الوسطَ الثقافي والأدبي لتصل إلى الوسط الديني المسيحي، وأصبح حتى الدُعاة المسيحيون؛ مثل جيري فولويل وبات روبرتسون يهاجمون علناً وبكل وقاحة الإسلام، وحتى نبيه ﷺ. فجيري فولويل يُصرّح في مقابلة تلفزيونية أجريت معه بأن النبي محمد ﷺ هو إرهابي، وبات روبرتسون يقول بأن الإسلام أسوأ من هتلر، وأن الإرهابيين لا يُحرّفون الإسلام إنما يُطبّقون ما جاء فيه. أما فرانكلين جراهام المستشار الديني للرئيس بوش؛ فإنه يصف الإسلام بأنه دين غير مسالم. قد نعزي الموقف الرسمي للإدارات الأمريكية تجاه الحركات الإسلامية أو ما يرغب البعض تسميته بالصحوة الإسلامية إلى الرغبة الموجودة في المخيّلة الأمريكية بإنشاء إمبراطورية تشمل العالم كله، دون قيام أي منافس لها، سواء كان هذا المنافس في الشيوعية التي أزاحتها من طريقها، أو في الإسلام، الذي تعتقد أنه قد يُشكّل على المدى القريب حاجزاً هاماً، لابُدَّ وأن يعترض مخططاتها، أو يُقوّض أحلامها، أو على

الأقل؛ يُصعّب مسيرتها، ويحول دون إنجاز كامل مهمتها التي تسعى إليها»[1].

هذا، وقد بدأت تتكشف مع مرور السنوات التالية لأحداث ١١ سبتمبر بعض الحقائق التي تؤكد أن تلك الأحداث أتت في سياقها الأمريكي الباحث عن عدو جديد دائم، ولم تكن مفاجئة كما يُشاع ويُذاع؛ ففي عام ٢٠١٣م كشفت ضابطة اتصال وكالة المخابرات الأمريكية (*CIA*) «سوزان ليندوار»[2] عبر حلقات تلفيزيونية بثتها قناة «روسيا اليوم» عن معلومات تفصيلية كثيرة ومثيرة للدهشة حول أحداث ١١ سبتمبر، من أبرزها أن المخابرات الأمريكية كانت على علم بتلك الأحداث ولكنها لم تتخذ أي إجراء لمنع وقوعها، وأنها - ليندوار- سعت لإقناع المسؤولين الأمريكيين باتخاذ إجراءات وقائية، حتى أنها اقترحت عليهم وضع مضادات للطيران فوق البرجين اللذين دُمِّرا لاحقـًا، وأن المخابرات الإسرائيلية كذلك كانت على علم أيضـًا بوقوع الحدث! وأن من صور اللحظات الأولى للتفجير هم بعض عناصرها، ولذلك لم يكن يوجد في البرجين في ذلك اليوم أي موظف يهودي، بالإضافة إلى أن تاجراً يهودياً استأجر البرجين قبل التفجيرات ببضعة أشهر لمدة ٩٩ سنة، ثم أمَّنَ عليهما لدى شركات تأمين غير أمريكية، ثم حصل على تعويضات بعد التفجيرات بمليارات الدولارات، وأن أمريكا سعت جاهدة إلى ربط العراق بتنظيم القاعدة لتربط العراق بالتفجيرات، مع يقينها بعدم وجود علاقة بينهما! إلى غير ذلك من المعلومات المدهشة! وذكَرَتْ أيضـًا أنها اُعتقلت من قبل المباحث الفيدرالية (*FBI*) عندما طالبت بلقاء لجنة ١١/ ٩ المكلفة بالتحقيقات في الأحداث، وبقيت في السجن لمدة سنة ونصف دون توجيه أي تهمة لها[3]، وذلك طبقـًا لقانون «باتريوت

---

(١) موفق صادق العطار، العم سام والإسلام: مجابهة أم احتواء؟!، دار الأوائل-دمشق، ط١، ٢٠٠٨م، ص١٠٥-١٠٦ وما بين الحاصرتين من الباحث.

(٢) سوزان ليندوار *Susan Lindauer* ولدت في ١٩٦٣م، وهي صحفية وكاتبة أمريكية، عملت ضابطة اتصال لدى الاستخبارات الأمريكية، وعارضت الحرب الأمريكية، وهي مؤلفة كتاب «تحيز متطرف: القصة المرعبة لقانون الباتريوت والتكتيم عن أحداث ١١/ ٩ والعراق».

(٣) يُنظر: قناة روسيا اليوم، لقاء مع ضابط المخابرات الأمريكية «سوزان ليندوار»، في ١٨/ ٤/ ٢٠١٣م، الرابط: *http://arabic.rt.com/prg/telecast/658144*

آكت» أو «قانون مكافحة الإرهاب» الذي أصدرته أمريكا بعد ١١ سبتمر، والذي يعطي الحق للسلطات الأمنية أن تتصنت دون إذن مسبق، وأن تعتقل كذلك دون أذن مسبق أو حتى توجيه تهمة!،..الخ.

هذه الاعترافات تستدعي إلى الذهن أموراً بارزة وغريبة وقعت بعد تلك التفجيرات؛ من أبرزها توجيه أصابع الاتهام مباشرة للمسلمين من قبل الإدارة الأمريكية، وكذلك تَلَكُّؤ الرئيس «بوش الابن» في تشكيل لجنةٍ للتحقيق في تلك الأحداث، بل إنه أعلن أنه ضد تشكيلها! لأنها -كما زعم- تُشتِّت الحرب على الإرهاب[1]، ثم شُكِّلت تلك اللجنة بعد مرور سنة وشهرين من وقوع الأحداث!!، وعيَّن «بوش» على رأسها وزير الخارجية السابق «هنري كيسنجر»![2] ولكنه تراجع عن ذلك، وسط سيل من الاعتراضات، وعيَّن شخصاً آخر. ولكن «بوش الابن» أعلن الحرب على الإرهاب، وجعل العالم قسمين، إما مع أمريكا أو مع الإرهاب، ومن ثمَّ احتلت قواته أفغانستان ثم العراق؛ كل هذا وقع قبل أن تُعلن تلك اللجنة عن نتائج تحقيقها!![3]

ومن الأمور المريبة التي يستدعيها الذهن أيضاً أن لجنة ١١/ ٩ قالت في نتائجها أنه كان يمكن تلافي وقوع تلك الأحداث لولا أخطاء قاتلة ارتكبت من أعضاء في الإدارة الأمريكية، ومنهم مسؤولين كبار في البيت الأبيض! وكذلك فشل المخابرات في التنسيق بينها،..الخ![4].

---

(١) يُنظر: مجلة العصر الإليكترونية، مقال بعنوان «تقرير لجنة ١١-٩: إدانة لبوش أم دليل براءة!!» لأميمة عبداللطيف، في ١٨/ ٦/ ٢٠٠٤م، الرابط:
http://alasr.ws/articles/view/5435

(٢) هنري كيسنجر *Kissinger, Henry*، (١٩٢٣-)، سياسي أمريكي، ولد في ألمانيا من عائلة يهودية، ثم هاجرت عائلته إلى الولايات المتحدة، وحصل على جنسيتها عام ١٩٤٣م، عمل مستشاراً في السياسة الخارجية للرؤساء ايزنهاور وكينيدي وجونسون، ومستشاراً خاصاً لشؤون الأمن القومي للرئيس ريتشارد نيكسون. يُنظر: موسوعة السياسة للكيالي، ٥/ ١٢١

(٣) تشكلت لجنة التحقيقات المعروفة بـ«لجنة ١١/ ٩» في ٢٧/ ١١/ ٢٠٠٢م بينما بدأ احتلال أفغانستان في ٧/ ١٠/ ٢٠٠١م! وأعلنت اللجنة نتيجة التحقيقات في ٢٢/ ٧/ ٢٠٠٤م، بينما بدأ احتلال العراق في ٢٠/ ٣/ ٢٠٠٣م! وبالتالي وقع الاحتلالان قبل صدور نتائج التحقيق. فتأمل!

(٤) يُنظر: مجلة العصر الإليكترونية، مقال بعنوان «تقرير لجنة ١١-٩: إدانة لبوش أم دليل براءة!!»، مرجع سابق.

هذا الترابط بين اعترافات «ليندوار» مع ما وقع فعلياً من إدارة «بوش لابن» إذا ما أضفناه إلى إرهاصات ما قبل ١١ سبتمبر؛ بدءاً من شعار «صراع الحضارات» والحديث عن العدو الجديد بعد الشيوعية، ومروراً بما تلا ذلك من تداعيات ومناوشات؛ كل هذا يحملنا على التأكيد بأن أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م لم تكن أحداثاً مفاجئة لأمريكا، بل إنها حينما كانت تُصنع ويُخطط لها كانت أمريكا على علمٍ خفي بها ويحجمها، فهي لم تأمر بها ولم تسؤها (وإن أظهروا خلاف هذا)، بل كان وقوعها فرصةً تاريخية ليُعلن الأمريكان عن عدوهم الجديد، والذي بالفعل أُعطي الفرصة ليفعل داخل أمريكا ما لم تفعله الشيوعية! فكانت تلك الأحداث، وكان منهم الإعلان قبل أن ينقشع غبارها! وحسبنا الله ونعم الوكيل.

يقول «جون إسبوزيتو»: «توخى الرئيس الأمريكي جورج بوش (الابن) والعديد من صناع السياسة الحذر في الفترة التي تلت هجمات ١١ أيلول/ سبتمبر، وأكدوا أن الولايات المتحدة الأمريكية تشن حرباً ضد الإرهاب على النطاق العالمي وليس ضد الإسلام. وزار الرئيس بوش مسجداً كبيراً في واشنطن، واجتمع مع قادة الجالية الإسلامية، وأعاد تأكيد احترامه للدين الإسلامي والحاجة إلى التفرقة بين الدين الإسلامي وأفعال الإرهابيين. غير أن استمرار الولايات المتحدة الأمريكية في حربها الموسعة دولياً وداخلياً ضد الإرهاب، والخطاب الحماسي وسياسات الإدارة التي رافقت هذه الحرب أقنعت الكثير من المسلمين أن هذه الحرب هي في واقع الأمر حرب ضد الإسلام والمسلمين»[(١)].

وبعد، فهذا التسلسل الزمني لإعلان أمريكا عن «الاستراتيجية الأمريكية لمكافحة الإرهاب» (بشقيها العسكري والفكري)، يجعلنا نقول بأنها في الحقيقة ما هي إلا بمثابة إعلان عن حرب طويلة المدى -وبخاصة في الجانب الفكري- ضد عدو جديد (أخضر) حل محل العدو القديم (الأحمر)!.

---

(١) جون إسبوزيتو، الإسلام والغرب عقب ١١ أيلول/ سبتمبر، ص١٦-١٧

والذي يهمنا في هذا المطلب وله علاقة بموضوع البحث هو الشق الفكري من هذه الحرب، والذي أطلقوا عليه اسم «معركة الأفكار» ***Battle of Ideas***، أو «حرب الأفكار» ***War of Ideas***، وأنقل بدايةً بعض تصريحات المسؤولين الأمريكيين حول هذه الحرب الفكرية، والتي سنلاحظ أيضاً أن حديثهم عنها بدأ قبل صدور تقرير لجنة تحقيق ١١/٩، وكذلك تشبيههم لها بالحرب الباردة التي كانت ضد الشيوعية.

أمثلةٌ لتصريحاتٍ أمريكيةٍ رسمية حول الحرب الفكرية بعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١م:

المثال الأول: قال وزير الدفاع الأمريكي السابق «دونالد رامسفيلد» في لقاء له مع الإعلام الأمريكي بتاريخ ٢٧/ ١٠/ ٢٠٠٣م: «نحن نحتاج إلى حرب للأفكار حتى نرى أنه ليس هناك تحول مستمر للناس إلى عالم التطرف ليصبحوا متطرفين، بمعدلٍ يكون أسرع أو يساوي ما لو أننا قبضنا عليهم»[(١)].

المثال الثاني: في ٣٠/ ١٠/ ٢٠٠٣م ألقى مساعد وزير الدفاع «بول وولفيتز» محاضرة في جامعة جورج تاون بعنوان «الانتصار في معركة الأفكار: جبهة أخرى من الحرب على الإرهاب»، ومما ذكره فيها قوله: «من الضروري أن نحمل جميعاً قسماً من هذا العبء، فالحرب العالمية على الإرهاب هي حرب أفكار، وهي مثل الحرب الباردة، فنحن على موعد مع صراع طويل المدى كما قال الرئيس كينيدي»[(٢)].

المثال الثالث: في ١٧/ ١١/ ٢٠٠٣م تحدث وكيل وزارة الدفاع الأمريكي للشؤون السياسية «دوجلاس فايث» في كلمة ألقاها في «مجلس العلاقات الخارجية»[(٣)] بواشنطن عن استراتيجية الرئيس الأمريكي للحرب

---

(١) موقع وزارة الدفاع الأمريكية، رابط اللقاء:

http://www.defense.gov/transcripts/transcript.aspx?transcriptid=3623

(٢) موقع وزارة الدفاع الأمريكية، نص محاضرة مساعد وزير الدفاع، في ٣٠/ ١٠/ ٢٠٠٣م، الرابط:

http://www.defense.gov/speeches/speech.aspx?speechid=585

(٣) مجلس العلاقات الخارجية، مركز بحثي، سبق التعريف به.

على الإرهاب، وقال إنها تتكون من ثلاثة أجزاء؛ الأول: تعطيل نشاط الإرهابيين ثم تدميرهم مع بنيتهم الأساسية. والثاني: «معركة الأفكار». والثالث: حماية أمن الوطن[١].

وقال فيما يخص الجزء الثاني: «أما الجزء الثاني من استراتيجية الرئيس فإنها تتمثل في «معركة الأفكار» التي تستهدف عمليات تجنيد الإرهابيين وتلقينهم التعاليم»[٢]، وأضاف: «إن نوعية التطرف الذي يغذي الإرهاب يعتبر ظاهرة سياسية تحركها أيديولوجية، والأيديولوجيات كما نعرف يمكن هزيمتها مثلما حدث بالنسبة للشيوعية السوفيتية»[٣].

المثال الرابع: في ١٩/ ٨/ ٢٠٠٤م ألقت مستشارة الرئيس لشؤون الأمن القومي «كوندوليزا رايس» خطاباً في «المعهد الأمريكي للسلام»[٤] بواشنطن، تناولت فيه أهمية صراع الأفكار في الحرب على الإرهاب، حيث أكدت أن الانتصار في الحرب ضد الإرهاب سيحتاج إلى حرب إيدولوجية، وأشارت إلى أن «لجنة ١١/ ٩» دعت إلى ضرورة توفر استراتيجية تكون ذات طابع سياسي بقدر ما هي ذات طابع عسكري لشن صراع الأفكار لهزيمة الإرهاب الإسلامي[٥]، وأشارت إلى أن ذلك ما فعله الرئيس «بوش» منذ بداية الحرب على الإرهاب (أي قبل توصية لجنة ١١/ ٩)، حيث قالت: «إن الرئيس بوش وأعضاء حكومته لم يكونوا ليتفقوا أكثر من ذلك مع تلك الاستراتيجية وأن الرئيس بوش اعترف منذ بداية الحرب على الإرهاب بأن المسألة تتعلق في الرؤى بقدر ما هو صراع سلاح»[٦].

---

(١) موقع وزارة الخارجية الأمريكية، خبر بعنوان «المسؤول في وزارة الدفاع يحدد العوامل الرئيسة للحرب العالمية ضد الإرهاب» في ١٧/ ١١/ ٢٠٠٣م، الرابط:
http://iipdigital.usembassy.gov/st/arabic/texttrans ٢٠٠٤٠٤٠٥١٢٢٥٢٤/٠٤/٢٠٠٤/bsibhe w0٧٥٩٢٢٧٩..html#axzz2r9PKwx2E

(٢) المرجع نفسه.

(٣) المرجع نفسه.

(٤) المعهد الأمريكي للسلام، مركز بحثي، سبق التعريف به.

(٥) يُنظر: موقع وزارة الخارجية الأمريكية، مقال بعنوان «رايس تبحث أهمية صراع الأفكار في الحرب على الإرهاب»، في ٢٠/ ٨/ ٢٠٠٤م، الرابط:
http://iipdigital.usembassy.gov/st/arabic/texttrans/2004/08/20040820141026bsibhew0.4854242.html#axzz2r9PKwx2E

(٦) المرجع نفسه.

ثم قالت إن الرئيس بوش حوَّل أقواله إلى أفعال. ثم عددت بعض تلك الأفعال، وذكرت منها: «مواصلة دعم البث الإذاعي والتلفزيوني للشرق الأوسط عن طريق زيادة التمويل الفدرالي إلى ٤٠ مليون دولار، وإتْبَاعُ تأسيس راديو «سوا» باللغة العربية بخدمة راديو «فاردا» باللغة الفارسية، وشبكة تلفزيون الشرق الأوسط الجديد «الحرة»»[1]، وأضافت في سياق دعوتها إلى مشاركة المجتمع الأمريكي في حرب الأفكار وبخاصة الجامعات: «يتعين على الجامعات العظيمة أن تلقي نظرة على ما تقوم به للتفاعل مع العالم الإسلامي، وما تفعله لتشجيع الناس على دراسة هذه الثقافات، وما تفعله لتدريب الناس على هذه اللغات. وإنني على يقين تماما من أننا إذا قمنا كدولة بمواجهة هذه التحديات بهذه الطريقة التي اتبعناها في حرب الأفكار خلال الحرب الباردة، فسوف تكلل جهودنا بالنجاح»[2].

المثال الخامس: في ١٨/ ١٠/ ٢٠٠٥م قال مستشار الرئيس «بوش» للأمن القومي «ستيفن هادلي» في كلمة ألقاها في «مجلس العلاقات الخارجية»: «إن الولايات المتحدة وحلفاءها وأصدقاءها اعتبروا الحرب على الإرهاب، منذ البداية، معركة بالسلاح وفي نفس الوقت معركة أفكار»[3]، وأضاف: «يجب علينا (على المدى الطويل) أن ننتصر في معركة الأفكار بين «رؤياهم التوتاليتارية[4] المقيتة» التي تقف في مواجهة رؤية «العالم الحر الإيجابية من الحرية والديمقراطية»»[5]، وأضاف: «إن ضرورة ضرورة تشجيع المسلمين المعتدلين على تفنيد الرؤية المشوهة للإسلام

---

(١) المرجع نفسه.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) موقع وزارة الخارجية الأمريكية، خبر بعنوان «مستشار الأمن القومي يشدد على أهمية التصدي لرؤيا الإرهاب»، في ٢٠/ ١٠/ ٢٠٠٥م، الرابط:
http://iipdigital.usembassy.gov/st/arabic/texttrans/2005/10/20051020142850bsibhew0.8234304.html#axzz2r9PKwx2E

(٤) هذه الكلمة «توتاليتارية» هي ترجمة صوتية لكلمة *Totalitarianism*، وهي في العربية «الكليانية»، وتعني النظام السياسي لدولة ما، يتميز بالهيمنة الكلية على النشاطات الفردية من خلال تبنية لأيديولوجية معينة. يُنظر: الموسوعة السياسية للكيالي، ٥/ ١٣٦

(٥) المرجع نفسه.

كما يقدمها الإرهابيون تقع في صميم هذه المعركة»[1]، وأضاف أيضاً: «يجري حالياً صراع للفوز بروح الإسلام، صراع أيديولوجي لكسب دعم وولاء العالم الإسلامي. وسيتطلب الفوز في هذا الصراع تحدياً مباشراً داخل الإسلام للأصوات المتطرفة»[2].

المثال السادس: في ٢٠٠٨/٦/٢٤م نشرت جريدة وول ستريت جورنال مقالاً لوكيل وزارة الخارجية للدبلوماسية العامة والشؤون العامة «جيمس غلاسمان»، تحت عنوان «كيف ننتصر في حرب الأفكار»، ثم أعاد موقع وزارة الخارجية الأمريكية الإليكتروني نشر ذات المقال، ومما ذكره «غلاسمان» في ذلك المقال، قوله: «جاء في استراتيجية الرئيس بوش القومية لمحاربة الإرهاب قبل عامين، «إن الانتصار في الحرب على الإرهاب يعني، على المدى الطويل، الانتصار في معركة الأفكار»[3].

وقال أيضاً: «يتواجد الكثير من أشد مؤيدي التعاطي الإيديولوجي في وزارة الدفاع، بدءاً بالوزير روبرت غيتس، الذي ذكّر أعضاء مجلس الشيوخ في وقت سابق من هذا العام بأن الحرب الباردة كانت «حرب أفكار بنفس القدر الذي كانت فيه (صراع) قوة عسكرية». ومن المؤسف أننا لم نقم بما فيه الكفاية على هذه الجبهة منذ بروز الإرهاب المتقمص بالإسلام، ولكن الأمر آخذ الآن في التغير. وتَمرُّ حرب الأفكار حالياً في جميع الوكالات الحكومية والقطاع الخاص بحقبة نهضة مبكرة. والمتحمسون لها من الحزبين، ولدينا فرصة ترك إرث فعال للحكومة القادمة»[4]، ثم ذكر بعض أساليب حرب الأفكار؛ ومنها: برامج التبادل التعليمي، والتي يقول إنها تشجع الأجانب على تبني أفكاراً أكثر إيجابية عن الولايات المتحدة. ثم

---

(١) المرجع نفسه.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) موقع وزارة الخارجية الأمريكية، مقال بعنوان «كيف ننتصر في حرب الأفكار»، في ٢٠٠٨/٦/٢٤م، الرابط:

http://iipdigital.usembassy.gov/st/arabic/texttrans/2008/06/20080624181816ssissirdile0.0457117.html#axzz2r9PKwx2E

(٤) المرجع نفسه.

تحدث عن أسلوب مجابهة الإيديولوجيات المتطرفة والعنيفة، وقال إن أكثر الأصوات موثوقية في هذا الجانب هي أصوات المسلمين أنفسهم ولذلك يجب تشجيعها. وأما الأسلوب الآخر الذي تحدث عنه فهو الأسلوب الذي أطلق عليه «أسلوب التحويل»، ويعني به صرف المستهدفين عن العقائد التي تقود إلى الإرهاب. وهذا الأسلوب -بحسب وصْفِه- هو: «الأسلوب الأكثر فعالية على المدى الطويل».(١)

هذا المقال كان في عهد الرئيس «بوش الابن» حينما كان «غلاسمان» وكيلاً لوزارة الخارجية، وأما في عهد الرئيس «أوباما» وبعد أن أصبح «غلاسمان» أحد كبار باحثي معهد المشروع الأمريكي فقد أعادت مجلة السياسة الخارجية «FP» بتاريخ ١٠/ ٣/ ٢٠١٠م نشر ذات المقال وبنفس العنوان «كيف ننتصر في حرب الأفكار»، ولكن المضمون في هذه المرة أتى أوسع من سابقه في ذكر الأمثلة وأسماء الدول، وأيضاً أكثر تأكيداً على أهمية الجانب الدبلوماسي في معركة الأفكار(٢)، فتأمل!

المثال السابع: في ٢٣/ ٥/ ٢٠١٣م ألقى الرئيس «باراك أوباما» كلمة حول مستقبل مكافحة الإرهاب، ومما جاء فيها قوله: «لا يسعنا في عصر تنتقل فيه الأفكار والصور حول العالم في لحظة خاطفة أن نعوِّل على القوة العسكرية وحدها أو تنفيذ القانون بمفرده، فنحن نحتاج إلى جميع عناصر القوة لكسب معركة الإرادة ومعركة الأفكار»(٣).

وبعد، فمن خلال ما مضى من أمثلةِ تصريحاتِ المسؤولين الأمريكيين حول الحرب الفكرية الجديدة بعد ١١ سبتمبر يمكننا أن نستنتج ما يلي:

---

(١) يُنظر: المرجع نفسه.

(٢) جيمس غلاسمان، مجلة السياسة الخارجية، مقال بعنوان: «كيف ننتصر في حرب الأفكار *How to Win the War of Ideas*» بتاريخ ١٠/ ٣/ ٢٠١٠م، وقد ترجمه إلى العربية مركز الشرق العربي، تحت عنوان (كيف نكسب معركة الأفكار). الرابط:
http://www.asharqalarabi.org.uk/markaz/m_mutabaat-29-03-2010.htm

(٣) موقع وزارة الخارجية الأمريكية، كلمة الرئيس أوباما حول مستقبل مكافحة الإرهاب، في ٢٣/ ٥/ ٢٠١٣م، الرابط:
http://iipdigital.usembassy.gov/st/arabic/texttrans.٢٠١٣٠٥٢٤١٤٨٠٠١/٠٥/٢٠١٣/html#axzz2r9PKwx2E

أولاً: أن «حرب الأفكار» تم إعلانها مباشرة بعد أحداث ١١ سبتمبر، وقبل ظهور تقرير اللجنة المكلفة بالتحقيق «لجنة ١١/ ٩».

ثانياً: أن «لجنة ١١/ ٩» أوصت في تقريرها الذي صدر بعد قرابة ٣ سنوات من الأحداث بضرورة وجود حرب إيديولوجية (فكرية).

ثالثاً: أن المسؤولين الأمريكيين يقارنون ويربطون دائماً بين «حرب الأفكار» الجديدة، وبين «الحرب الباردة» ضد الشيوعية.

رابعاً: أنهم يصرحون بأن هذه الحرب الفكرية طويلة المدى.

خامساً: أن هذه الحرب الفكرية تستهدف العالم الإسلام، وليس فقط مواقع التنظيمات التي هي في حالة قتال مسلح مع أمريكا، ومع ذلك لا يكل المسؤولون الأمريكيون من ترديد عبارة «لسنا في حرب مع الإسلام»!.

سادساً: يتضح من أماكن إلقاء بعض الكلمات في الأمثلة السابقة مكانة مراكز البحوث الأمريكية في «الحرب الفكرية» الجديدة[1].

بقي أن نطرح هذا السؤال المهم: من هو المستهدف تحديداً بهذه الحرب الفكرية الأمريكية؟

إننا إذا ربطنا ما مضى من تصريحات واستنتاجات وسياق تاريخي مع موقف مراكز البحوث الأمريكية من السلفية نستنتج بوضوح أن المستهدف تحديداً بالحرب الفكرية الأمريكية هي الدعوة السلفية أو «الوهابية». ولئن كان السياسي الأمريكي يقف عند في تفسيره لتلك الحرب الفكرية بأنها لمحاربة الإسلام المتطرف والمتشدد، فإن مراكز البحوث الأمريكية تصرح بكل وضوح بأن الدعوة السلفية (الوهابية) هي التي تُنتج الإرهاب والتطرف والتشدد والعنف، كما بيَّنت هذا بالتفصيل في الفصل الثالث.

وبشكل عام، فإنه الربط بين فصول ومباحث هذه الدراسة يوصلنا إلى الجزم بأن «الحرب الفكرية» المعلنة اليوم على العالم الإسلامي لم تأت من فراغ، أو أنها وليدة الصدفة أو المفاجأة، بل إنها ثمرة سنين من المكر

---

(١) بيَّنت سابقاً في التمهيد مكانة مراكز البحوث الأمريكية في رسم سياسة الولايات المتحدة.

والبحث عن عدو جديد «دائم» بعد أن سقطت الشيوعية[1]. ويوصلنا أيضاً إلى الجزم بأن السلفية بمجتمعاتها وعلمائها ودعاتها هم جميعاً المستهدف بالحرب الفكرية الأمريكية، وأن أهم أدوات تلك الحرب هي دعم الصوفية وتقويتهم وفرض وجودهم الاجتماعي والديني والثقافي؛ ليس فقط في العالم الإسلامي، وإنما بين المسلمين في أقطار العالم. وأُذكِّر هنا بأمرٍ واحد فقط -ذكرته بالتفصيل سابقاً- وهو أن أول داعية تم اختياره -ممثلاً للمسلمين- للقاء الرئيس «بوش الابن» بعد أيام فقط من أحداث سبتمبر كان من الصوفية، وهو حمزة يوسف.

ومن ناحية أخرى، فما أن أُعلنت هذه «الحرب الفكرية» (طويلة المدى) حتى انبرت مراكز البحوث الأمريكية إلى اصدار المؤلفات والأبحاث التي تسند تلك الحرب وتُرشدها إلى أقوم السُبل في محاربة السلفية، ومن ذلك على سبيل المثال تقرير مؤسسة راند «بناء شبكات مسلمة معتدلة»، ٢٠٠٧م، والذي شحنته بالحديث عن الوهابية ومنبعها (السعودية)، وامتدادها في العالم! وخصَّصت فيه الفصل الثاني والثالث للحديث عن تجربة الحرب الباردة، وكيفية الاستفادة منها في الحرب الفكرية الجديدة؛ أي كيف نستفيد من خبرتنا السابقة مع الشيوعية في محاربة عدونا الجديد «السلفية»!

ومن الأمثلة أيضاً تقرير «حروب الأفكار وحرب الأفكار» *Wars of Ideas and War of Idea*، الذي أصدره «معهد الدراسات الاستراتيجية» التابع لكلية الجيش الحربي الأمريكي، حيث سعى فيه إلى توجيه مسار «الحرب الفكرية» الجديدة؛ من خلال استعراض أنواع حروب الأفكار، والتي جعلها أربعة أقسام: المناظرات الفكرية، والحروب الإيديولوجية (كالحرب الباردة)، والخلافات حول المعتقدات الدينية، والحملات الإعلامية. ثم أخذ في شرح كل واحدة من هذه الأربع، وكيفية تطبيقها على أرض الواقع الإسلامي؛ في إطار «حرب الأفكار» التي تم إعلانها رسمياً[2].

---

(١) وقد أكدت مؤسسة راند -في الاقتباس الذي ورد قبل صفحات- حاجة أمريكا إلى عدو بعد سقوط الشيوعية.

(٢) يُنظر: معهد الدراسات الاستراتيجية، تقرير «حروب الأفكار وحرب الأفكار»، ٢٠٠٨م.

وأما أبرز وأهم ما أُلِّف في شأن «الحرب الفكرية» الأمريكية إلى الآن فهو كتاب «القوة الناعمة» *SOFT POWER* لـ«جوزيف ناي»؛ مساعد وزير الدفاع الأمريكي للشؤون الأمنية الدولية في حكومة «بيل كلينتون»، وهذا الكتاب الذي صدر عام ٢٠٠٤م هو بمثابة الـمُرشد والدليل لهذه «الحرب الفكرية» الجديدة. يقول «ناي» في مقدمة الكتاب: «إن الأمريكيين وغيرهم يواجهون تحدياً لا سابق له من الجانب المظلم من العولمة، وخصخصة الحرب التي راحت ترافق التكنولوجيات الجديدة. وهذا هو التركيز المناسب لاستراتيجيتنا الجيدة للأمن القومي، الذي يُلخِّص أحيانا بالحرب على الإرهاب. وكما كانت عليه الحرب الباردة، فإن التهديدات التي تمثلها أشكال الإرهاب المختلفة لن يتم حلها بسرعة، وستلعب القوة العسكرية الصلبة دوراً حيوياً. ولكن الحكومة الأمريكية تصرف أربعمئة ضعف على القوة الناعمة. ومثل تحدي الحرب الباردة، فإن التحدي لا يمكن مجابهته بالقوة العسكرية وحدها. ولهذا من الجوهري أن يتفهم الأمريكيون وغيرهم القوة الناعمة ويطبقوها بصورة أفضل. أما القوة الذكية فهي ليست صلبة ولا ناعمة بل هي مزيج منهما معاً»[1].

وتحدث «ناي» بين ثنايا كتابه عن موارد القوة الناعمة فقال: «ترتكز القوة الناعمة لبلد ما على ثلاثة موارد، هي ثقافته (في الأماكن التي تكون فيها جذابة للآخرين)، وقِيَمهُ السياسية (عندما يطبقها بإخلاص في الداخل والخارج)، وسياسته الخارجية (عندما يراها الآخرون مشروعة وذات سلطة معنوية أخلاقية)»[2]، ثم انطلق مفصِّلاً لهذه الموارد الثلاثة؛ ومما ذكره في «الثقافة كمصدر للقوة الناعمة» قوله: «يتفق كثير من المراقبين على ان الثقافة الأمريكية العالية تنتج قوة ناعمة ذات أهمية للولايات المتحدة. وعلى سبيل المثال فقد قال وزير الخارجية كولن باول: «لا أستطيع أن أفكر في رصيد لبلدنا أثمن من صداقة قادة عالم المستقبل الذين تلقوا تعليمهم

---

(١) جوزيف س. ناي، القوة الناعمة: وسيلة النجاح في السياسة الدولية، ترجمة: محمد توفيق البجيرمي، مكتبة العبيكان-الرياض، ط٢، ١٤٣٣هـ-٢٠١٢م، ص١٦

(٢) المرجع نفسه، ص٣٢

هنا». ذلك أن الطلبة الدوليين يعودون إلى أوطانهم في العادة بتقدير أكبر للقيم والمؤسسات الأمريكية، وكما هو وارد في تقرير لمجموعة تعليمية دولية فإن «ملايين الناس الذين درسوا في الولايات المتحدة على مدى سنوات يشكلون خزاناً رائعاً للنوايا الحسنة تجاه بلدنا». وكثير من هؤلاء الطلبة السابقين ينتهي بهم الأمر إلى احتلال مراكز يستطيعون من خلالها التأثير على نتائج السياسة التي هي مهمة للأمريكيين»[1].

وهكذا ينطلق هذا الكاتب السياسي موجهاً ومرشداً لهذه الحرب الفكرية الجديدة، مستلهماً في ذلك تجربة الحرب الباردة، وكذلك تجربتي ألمانيا واليابان، والتي يرى أن أمريكا نجحت بقوتها الناعمة (بعد الصلبة) في هذين البلدين.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الجانب الثقافي هو أخطر الأدوات التي استخدمتها أمريكا في حربها الباردة ضد الاتحاد السوفيتي، ولقد كشفت الباحثة البريطانية «سوندرز» في كتابها (الحرب الباردة الثقافية) كيف استطاعت المخابرات الأمريكية أن تحشد ترسانة من: الصحف والمجلات والإذاعات والمؤتمرات ومعارض الفن التشكيلي والمهرجانات الفنية والمنح والجوائز..إلخ، في سبيل خدمة أمريكا، وكشفت أيضاً -بعد فحصها الكثير من الوثائق التي رُفعت عنها السرية- عن أسماء العديد من المفكرين وفناني تلك المرحلة ممن تم استخدامهم بعلمهم أو بدون علمهم في تلك المعركة، والتي كانت تهدف إلى عالم «القرن الأمريكي»[2]. وثمة كتابٌ لامس هذا الجانب الثقافي المهم من «الحرب الفكرية» وهو كتاب (التمويل الغربي وشراء الفكر في العالم العربي) لمؤلفه الهيثم زعفان، وهو جدير بأن يكون نواة مشروع ثقافي إسلامي لمجابهة الخطر الثقافي الداهم[3].

---

(١) المرجع نفسه، ص٧٧.

(٢) يُنظر: ف. س. سوندرز، الحرب الباردة الثقافية، ترجمة: طلعت الشايب، نشر المركز القومي للترجمة-القاهرة، ط٤، ٢٠٠٩م. وقد نُشرت النسخة الإنجليزية منه في عام ١٩٩٩م.

(٣) يُنظر: الهيثم زعفان، التمويل الغربي وشراء الفكر في العالم العربي، نشر المركز العربي للدراسات الإنسانية-القاهرة، ط بدون، ٢٠١٠م.

وبعد، فها نحن نعيش في عالمنا الإسلامي اليوم الكثير من آثار هذه «الحرب الفكرية» الجديدة، والتي لا زلنا في بدايتها! والتي طالت آثارها – حتى اليوم- الجوانب الدعوية، والإغاثية، والتعليمية، والإعلامية، والسلوكية، وغيرها من الجوانب، وفي المقابل أفرزت أنماطاً جديدة، ودَعمت أخرى قديمة، ليُشَّكل منهما عبر السنين وجه جديد للإسلام والمسلمين! وفي هذا السياق يأتي الحديث عن الصعود الصوفي الجديد!

وأختم هذا الفصل بهذه الخلاصة المهمة:

أولاً: أن الإسلام الحقيقي الذي هو محور الدعوة السلفية، بريءٌ مما رماه الغرب به؛ من التطرف والتشدد والعنف تجاه غير المسلمين، وتمالأ معهم في هذه الأوصاف الصوفيةُ وغيرهم! إذ كيف يكون ذلك صحيحاً والسلفية تدعوا صباح مساء إلى التمسك بالقرآن الكريم، والذي يأمر فيه الحق ﷻ بالبر والقسط مع من لم يقاتلنا أو يؤذنا من غير المسلمين، وذلك في قوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة :٨].

ثانياً: أؤكد هنا ما ذكرته في مواضع كثيرة من هذه الدراسة وهو أن التصوف وإن كان واحداً في مضمونه (بشكل عام) إلا أن المتصوفة ليسوا سواء، فمنهم المتحقق بتلك المضامين، ومنهم من ليس له من التصوف إلا اسمه، وما بين هذا وذاك درجات.

ثالثاً: أن رموز ودعاة التصوف أيضاً ليسوا سواء، فمنهم المجاهر بمضامين التصوف وبعدائه للدعوة السلفية، ومنهم الهادئ اللطيف في دعوته للتصوف، القريب أيضاً بأخلاقه من السلفية، وما بين هذا وذاك أيضاً درجات.

رابعاً: أن عموم المتصوفة بالنسبة لإدراك التوجه الأمريكي الجديد نحو دعم الصوفية أيضاً ليسوا سواء، إذ لا يمكن مساواة من يتنقل منهم بين الوزارات الأمريكية محذراً من السلفية ومباركاً دعم التصوف، بمن يبكي منهم عند قبر أو يتراقص في مولد، ولا يدري شيئاً غيرها. فالله أمرنا بالعدل، والتعميم في الحكم ليس من العدل.

خامساً: كما أنه لا يمكن الجزم بأن كل المتصوفة يدركون التوجه الأمريكي نحوهم، فأكاد أجزم أن غالب رموز التصوف يدركون ذلك التوجه، وبالتالي انسجموا معه مباشرة، وأعلوا في خطابهم من الشعارات التي تناسب ذلك التوجه؛ كالتسامح والاعتدال، ومنابذة السلفية.

سادساً: أنني طيلة دراستي هذه لم أقف على صوتٍ صوفيٍ واحد دافع عن السلفية (دعوة وأتباعاً)، إزاء ما تتعرض له من ظلم وتشويه ومحاربة، منذ ١١ سبتمبر ٢٠٠١م وحتى يومنا هذا، ولا غرو فقد وقع الحافر على الحافر!.

سابعاً: أن أمريكا بعد سقوط الاتحاد السوفيتي خسرت عدواً دائماً كان يوحِّدها تحت شعار «الحرب الباردة» على الشيوعية، ولكنها وخلال عشر سنوات تقريباً استطاعت أن تمهد لعدوٍ جديد آخر، وهو الإسلام الحق (ممثلاً بالدعوة السلفية)، وبالفعل نجحت في إعلان ذلك العدو الجديد الدائم، والذي اختارت لحربه شعار «حرب الأفكار»[١].

ثامناً: أن هذه الدراسة بفصولها ومباحثها تثبت بالدليل العلمي الواقعي، أن الصوفية باتت أقوى أدوات «الحرب الفكرية» الأمريكية ضد الدعوة السلفية.

---

(١) عداوة الغرب وحروبه ضد المسلمين قديمة (الحروب الصليبية)، والمقصود هنا تحديداً هو إعلان العداوة والحرب من قبل أمريكا، والتي تُعد -تاريخياً- دولة غربية حديثة.

الخاتمة

أولاً: النتائج

الحمد لله على توفيقه، وعلى عظيم منته وجزيل عطاياه، وأصلي وأسلم على المبعوث رحمة للعالمين، سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين إلى يوم الدين، أما بعد:

فقد توصلت في ختام رسالتي هذه إلى العديد من النتائج والحقائق، أبرزها ما يلي:

١- أنَّ مراكز البحوث الأمريكية المهتمة بالعالم الإسلامي لا تختلف في أهدافها ومضامينها عن الاستشراق التقليدي، بل إنها امتداد وتطور طبيعي له، وإن اختلفت الأسماء وتطورت بعض الآليات.

٢- أنَّ المستشرقين اعتنوا بالتصوف عناية فائقة، فبحثوا في تاريخه، واعتنوا بتراثه العلمي، فحقَّقوا الكثير منه، وترجموه إلى لغاتهم، وألَّفوا في التصوف وفي رموزه، حتى فاقت عنايتهم بالتصوف عناية المتصوفة أنفسهم.

٣- أنَّ عناية المستشرقين بالتصوف جاءت من فهمهم الدقيق لمآلات التصوف، وأهمها بالنسبة لهم التخاذل والتخذيل عن الجهاد، وإضعاف الولاء والبراء، والقبول بالأديان، الناتج عن القول بوحدة الوجود، إلى غيرها من المآلات المنحرفة عن هدي الكتب والسنة؛ والتي وجد الغرب فيها بغيته.

٤- أنَّ مراكز البحوث الأمريكية تقف من التصوف ذات الموقف الإيجابي الاستشراقي القديم، فهي في تقارير مراكز البحوث الأمريكية تعني الروحانية الإسلامية، وتعني الإسلام الشعبي أو الإسلام التقليدي المعتدل، الـمُهدد دائماً من التطرف السلفي!

٥- أنَّ مراكز البحوث الأمريكية تقف من السلفية ذات الموقف العدائي الاستشراقي القديم، وهي في تقارير مراكز البحوث الأمريكية تعني التطرف والعنف والإرهاب، وهذا الموقف ينبع من إدراكهم بأن

السلفية تعني العودة إلى إسلام القوة والحضارة، والذي يرى فيه الغرب مُهدِّداً -تاريخياً- له.

٦-أنَّ الصوفية تحمل إرثاً كبيراً من العداء للسلفية، ومنبع هذا العداء هو بعدهم عن هدي الكتاب والسنة (عقيدة وعبادة)، ولو التزموه لطوي ذلك العداء منذ القدم.

٧-أنَّ التصوف بعقائده وسلوكه، كان الجسر الذي عبرت من فوقه العلمانية إلى جسد العالم الإسلامي، إذ خدروا الأمة عن مقاومتها، حتى تمكَّنت، ولما تمكَّنت رضوا بها وصانعوها، ثم دعموها فدعمتهم، وقبلوا بها فقبلتهم، إلى أن بات بعض الصوفية اليوم يقود بنفسه زمام الحكم العلماني!

٨-أنَّ أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م حملت معها إعلانا أمريكياً عن «حرب فكرية» طويلة المدى ضد منابع الإرهاب والتطرف الإسلامي!

٩-أن مراكز البحوث الأمريكية كان -ولا يزال- لها الدور الكبير في ترشيد تلك الحرب الفكرية المعلنة، ودعمها بالأبحاث والتقارير، ومن خلال أبحاثها وتقاريرها رأينا بوضوح لا لبس معه بأن الحرب الفكرية الأمريكية إنما تستهدف الدعوة السلفية، والتي زعموا -زوراً- بأنها مصدر التطرف والعنف والإرهاب.

١٠-أنَّ الحكومة الأمريكية تبنَّت عملياً دعم وتشجيع الصوفية، وقد أوردت العديد من الأمثلة للدعم الأمريكي العلني للصوفية.

١١-أنَّ الصوفية لم يُنكروا التوجه الأمريكي نحوهم، بل اعترفوا به، ثم اختلفوا في تفسيره وتبريره؛ فبعضهم رأى فيه أمراً طبيعياً لا غضاضة فيه، وبعضهم قلَّل من شأنه، والبعض الآخر رأى أنه أمرٌ أملتهُ المصلحة فقط، إلى غير ذلك من الأقوال. إلا الحبيب علي الجفري فقد حاول إخفاء ذلك التوجه الأمريكي وإنكاره، إما

بنفسه أو بما تُصدره مؤسسته، مؤسسة طابه! وقد بيَّنت هذا الأمر بالتفصيل.

١٢-أنَّ العديد من الحكومات في العالم الإسلامي انسجمت تماماً مع ذلك التوجه الأمريكي، وباتت تُجاهر بدعم الصوفية، وتُعلن الحرب على السلفية.

١٣-أنَّ الدعم والتشجيع الأمريكي للصوفية أنتج حراكاً صوفياً كبيراً داخل العالم الإسلامي وخارجه، وذلك في جوانب كثيرة، يأتي في مقدمتها الجانب الإعلامي.

١٤-أنَّ الصوفية طورت من أساليبها الدعوية ومن خطابها العام، وذلك بما يتناسب والمرحلة الجديدة والدور المنتظر منها، فأعلت في خطابها من الشعارات التي تتطلبها مرحلة «الحرب الفكرية» الأمريكية؛ كالتسامح والتعايش بين الأديان، ومنابذة التطرف والغلو في أحكام الدين، والمتمثل -بزعمهم- في الدعوة السلفية، إلى غير ذلك من الشعارات.

١٥-أنَّ الدعوة السلفية هي المستهدف بالحرب الفكرية التي أعلنتها أمريكا بعد ١١ سبتمبر، وقد أثبت هذا الأمر بالأدلة والشواهد، وأثبت أيضاً أن الدعم الأمريكي للصوفية إنما هو دعم لأهم أداة من أدوات هذه الحرب الفكرية.

١٦-أنَّ المتصوفة بشكل عام ليسوا سواء في إدراك التوجه الأمريكي الداعم للصوفية، فمنهم العالم به، المساند له، ومنهم من لا يعلم عن هذا الأمر شيئاً؛ وإن كان هذا الواقع الصوفي العام لا يُغيِّر من حقيقة الأمر وخطورته، إلا أن الله أمرنا بالعدل في القول.

ثانيًا: التوصيات:

من خلال ما مضى من النتائج أرى التوصية بما يلي:

١-العناية بدراسة ما تصدره مراكز البحوث الأمريكية في شأن العالم الإسلامي، وذلك لأنها أصبحت أحد مكونات بناء السياسة الخارجية الأمريكية؛ وفي العناية بها تطبيق للأمر الرباني باستبانة السبيل وأخذ الحذر.

٢-العمل على تقوية الدعوة السلفية وتفعيلها، فهي المستهدفة بكل حراكٍ غربي ضد الإسلام، وحركُتها ونشاطها الدائم هو أكبر كسرٍ لذلك الاستهداف.

٣-التحذير على أوسع نطاق من خطر التحالف الأمريكي مع الصوفية، والذي بانت ملامحة، وظهر أمره، حتى أصبحت الصوفية أداة رئيسية من أدوات الحرب الفكرية الجديدة للسيطرة على الإسلام.

٤-عقد المحاضرات والمؤتمرات والندوات التي تتناول موضوع التسامح والتعايش مع الكفار وفق هدي الكتاب والسنة، وذلك درءاً لمخاطر الأنموذج الصوفي في ذلك على شبابنا، والذي يُلغي كثيراً من الحدود الفاصلة بين الإسلام وغيره من الأديان، ويُذيب أيضاء عقيدة الولاء والبراء.

٥-التركيز الشديد على دعوة عامة الصوفية، وذلك لانتشالهم أولاً من ظلمة الابتداع إلى نور الاتباع، وثانيـًا لانتشالهم أيضـًا من خطر التحالف مع أمريكا ضد أهل الإسلام ودعاته.

٦-التركيز على كشف ضلال رموز التصوف، فهم -عبر الطاعة العمياء- معقِد قوة التصوف، وكسرهم كسرٌ للبدعة بإذن الله.

٧-إعداد الدراسات المتخصصة التي تتناول أبعاد وأدوات ومخاطر «الحرب الفكرية» التي أعلنتها أمريكا بعد ١١سبتمبر ٢٠٠١م، ضد الدعوة السلفية أو «الإسلام المتطرف» كما يزعمون.

٨-إنشاء منافذ إعلامية متنوعة، لمجابهة «الحرب الفكرية» الجديدة، والعمل على رصد أدواتها وحراكها ومسارها داخل العالم الإسلامي، وتحذير المسلمين من خطرها، الذي يفوق خطر التغريب ومكره.

٩-تذكير الولاة والمسؤولين بما أوجبه الله عليهم من حفظ الدين والقيام به، لاسيما وأن التحالف الأمريكي الصوفي يستهدف الدعوة السلفية، والتي ما هي في الحقيقة إلا الدعوة إلى التزام هدي الكتاب والسنة في الإيمان بالله وفي كل جوانب الحياة؛ وما منازعتها إلا منازعة لإحياء دين الإسلام وتجديده وانتشاره.

وصلى الله وسلم على نبينا وحبيبنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

فهرس المصادر والمراجع

أولا: القرآن الكريم وتفسيره:

١. القرآن الكريم.
٢. إسماعيل بن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة-الرياض، ط٢، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.
٣. طنطاوي جوهري، الجواهر في تفسير القرآن، مطبعة مصطفى الحلبي-مصر، ١٣٤٦هـ.

ثانيا: الكتب المتعلقة بالسنة النبوية:

٤. أحمد بن الحسين البيهقي، السنن الكبرى، تحقيق: محمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٣، ١٤٢٤هـ.
٥. إسماعيل العجلوني، كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسن الناس، تحقيق: عبدالحميد بن هنداوي، المكتبة العصرية، ط١، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.
٦. سليمان بن أحمد الطبراني، المعجم الكبير، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية – القاهرة، ط٢، ١٤١٥-١٩٩٤م.
٧. سليمان بن الأشعث: أبو داود، السنن، تحقيق: شعَيب الأرنؤوط، ومحَمَّد كامِل قره بللي، دار الرسالة العالمية، ط١، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩م.
٨. المبارك ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، دار ابن الجوزي، ط١، ١٤٢١هـ.
٩. محمد الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، تحقيق: مصطفى عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م.
١٠. محمد ناصر الدين الألباني سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها، مكتبة المعارف، الرياض، ط بدون، ١٤١٥ه-١٩٩٥م.
١١. محمد ناصر الدين الألباني سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة، دار المعارف، الرياض، ط بدون، ١٤١٢ه-١٩٩٢م.
١٢. محمد ناصر الدين الألباني، صحيح وضعيف سنن أبي داود، مؤسسة غراس، الكويت، ط١، ١٤٢٣هـ.
١٣. ملا علي قاري، الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة (الموضوعات الكبرى)، تحقيق: محمد الصباغ، دار الأمانة/ مؤسسة الرسالة-بيروت، ط بدون، ت بدون.

١٤. يحيى بن شرف النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، دار إحياء التراث العربي-بيروت، ط٢، ١٣٩٢هـ.
١٥. يحيى بن شرف النووي، رياض الصالحين، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة-بيروت، ط٣، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.

ثالثا: المراجع العلمية الأخرى: (مرتبة على أحرف الهجاء)

١٦. إبراهيم البيجوري، تحفة المريد على جوهرة التوحيد، تحقيق: علي جمعة، دار السلام-القاهرة، ط١، ١٤٢٢هـ- ٢٠٠٢م.
١٧. إبراهيم التهامي، جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة، مؤسسة الرسالة-بيروت، ط١، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.
١٨. إبراهيم بن أبي بكر البقاعي، مصرع التصوف أو تنبيه الغبي إلى تكفير ابن عربي، تحقيق: عبدالرحمن الوكيل، مكتبة عباس أحمد الباز، مكة المكرمة، ط بدون، ت بدون.
١٩. أبو بكر جابر الجزائري، وجاءوا يركضون، مهلاً يا دعاة الضلالة، دار الحرمين-القاهرة-، ط بدون، ١٤١٣هـ.
٢٠. إحسان إلهي ظهير، البريلوية، عقائد وتاريخ، نشر إدارة ترجمان السنة-لاهور، ط١، ١٤٠٣م-١٩٨٣م.
٢١. إحسان إلهي ظهير، التصوف المنشأ والمصدر، إدارة ترجمان السنة - باكستان، ط١، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.
٢٢. أحمد القلشاني، تحرير المقالة في شرح الرسالة، تحقيق: الحبيب بن طاهر ومحمد المدنبني، مؤسسة المعارف-بيروت، ط١، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م.
٢٣. أحمد أمين، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، دار الكتاب العربي-بيروت، ط بدون، ت بدون.
٢٤. أحمد أمين، فجر الإسلام، دار الكتاب العربي-بيروت، ط١٠، ١٩٦٩م.
٢٥. أحمد بن حجر آل أبو طامي، الشيخ محمد بن عبدالوهاب عقيدته السلفية ودعوته الإصلاحية وثناء العلماء عليه، مطبوعات الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ط بدون، ت بدون.
٢٦. أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، الاستقامة، طباعة ونشر جامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض، ط٢، ١٤١١هـ.
٢٧. أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، تحقيق: عبدالقادر الأرناؤوط، دار البيان-دمشق، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.

٢٨. أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، درء تعارض العقل والنقل، تحقيق: محمد رشاد سالم، نشر جامعة الإمام محمد بن سعود-الرياض، ط٢، ١٤١١هـ-١٩٩١م.

٢٩. أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، مجموع الفتاوى، جمع وترتيب: عبدالرحمن بن قاسم، نشر مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف-المدينة المنورة، ط بدون، ١٤١٦هـ-١٩٩٥م.

٣٠. أحمد بن عبدالعزيز القصير، عقيدة الصوفية وحدة الوجود الخفية، مكتبة الرشد-الرياض، ط١، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.

٣١. أحمد بن عبدالله أبو نعيم الأصبهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار السعادة -مصر، ط بدون، ١٣٩٤هـ-١٩٧٤م.

٣٢. أحمد بن عجيبة الحسني، الفتوحات الإلهية، تحقيق: عبدالرحمن حسن محمود، عالم الفكر-القاهرة، ط بدون، ت بدون.

٣٣. أحمد رضا، معجم متن اللغة/ موسوعة لغوية حديثة، دار مكتبة الحياة بيروت، ط بدون، ١٣٨٠هـ-١٩٦٠م.

٣٤. أحمد زيني دحلان الفتوحات الإسلامية بعد مضي الفتوحات النبوية، مكتبة الحقيقة بإسطنبول حسين حلمي أيشيق سنة ١٩٧٥م.

٣٥. أحمد زيني دحلان، أسنى المطالب في نجاة أبي طالب، تحقيق: حسن السقاف، دار الإمام النووي-عمان، ط٢، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م.

٣٦. أحمد زيني دحلان، الدرر السنية في الرد على الوهابية، مكتبة الحقيقة-اسطنبول-، ط بدون، ٢٠٠٢م.

٣٧. أحمد زيني دحلان، فتنة الوهابية، مكتبة الحقيقة-اسطنبول-، ط بدون، ٢٠٠١م.

٣٨. أحمد سمايلوفتش، فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، ط بدون، ت بدون.

٣٩. أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي-بيروت، ط١، ١٩٩٧م.

٤٠. أحمد فريد، السلفية قواعد وأصول، دار العقيدة-الإسكندرية، ط١، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.

٤١. أحمد ولد محمد ذي النورين، حماية علماء المالكية لجناب التوحيد، نشر مجلة البيان-الرياض، ط١، ١٤٣٤هـ.

٤٢. إدوارد جوان، مصر في القرن التاسع عشر، تعريب: محمد مسعود، ط١، القاهرة سنة١٣٤٠هـ-١٩٢١م.

٤٣. إدوارد سعيد، الاستشراق/ المفاهيم الغربية للشرق، ترجمة: محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٠٦م.
٤٤. إدوارد سعيد، تغطية الإسلام، ترجمة: محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٠٥م.
٤٥. أسعد الخطيب، البطولة والفداء عند الصوفية، دار التقوى-دمشق، ط٥، ت بدون.
٤٦. إسماعيل أحمد ياغي، الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، مكتبة العبيكان-الرياض، ط٢، ١٩٩٨م.
٤٧. إسماعيل بن كثير، البداية والنهاية، تحقيق: عبدالله التركي، دار هجر، ط١، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.
٤٨. إسماعيل علي محمد، الاستشراق بين الحقيقة والتضليل/ مدخل علمي لدراسة الاستشراق، دار الكلمة، ط٣، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.
٤٩. إلهام محمد علي ذهني، جهاد الممالك الإسلامية في غرب أفريقيا ضد الاستعمار الفرنسي (١٨٥٠-١٩١٤م)، دار المريخ-الرياض، ط بدون، ١٩٨٨م.
٥٠. إمام فيصل عبدالرؤوف، رؤية إسلامية جديدة للغرب والمسلمين، ترجمة: محمد فاضل، مكتبة الشروق الدولية-القاهرة، ط١، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٩م.
٥١. آمنة الجبلاوي، الإسلام المبكر/ الاستشراق الأنجلوسكسوني الجديد، منشورات الجمل، ألمانيا، ط١، ٢٠٠٨م.
٥٢. الأمير سعد علي البرعي، التصوف الإسلامي في الفكر الاستشراقي، رسالة ماجستير (غير مطبوعة)، كلية أصول الدين- جامعة الأزهر.
٥٣. آنا ماري شيمل، الأبعاد الصوفية في الإسلام وتاريخ التصوف، ترجمة: محمد إسماعيل السيد ورضا حامد قطب، منشورات الجمل-ألمانيا، ط١، ٢٠٠٦م.
٥٤. أنور الجندي، أخطاء المنهج الغربي الوافد، دار الكتاب اللبناني- بيروت، ط١، ١٩٧٤م.
٥٥. أنور الجندي، العالم الإسلامي والاستعمار السياسي والاجتماعي والثقافي، دار الكتاب اللبناني، ط٢، ١٩٨٣م.
٥٦. أنور قاسم الخضري، ظاهرة التدين الجديد وأثره في تمرير ثقافة التغريب، نشر مركز التأصيل للدراسات والبحوث-جدة، ط١، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م.
٥٧. إيرك إيمانويل شميت، السيد إبراهيم وأزهار القرآن، ترجمة: خالد الجبيلي، ط ت بدون.

٥٨. إيريك جوفروا، التصوف: طريق الإسلام الجوانية، ترجمة: عبدالحق الزموري، نشر هيئة أبوظبي للثقافة والتراث (كلمة)، ط١، ١٤٣١ه-٢٠١٠م.
٥٩. باسل رؤوف الخطيب، المراكز الفكرية في الولايات المتحدة الأمريكية، نشر مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، ١٤٢٨هـ.
٦٠. بدر الدين محمود العيني، عقد الجُمَّان في تاريخ أهل الزمان/ عصر سلاطين المماليك، تحقيق: محمد محمد أمين، دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة، ط بدون، ١٤٣١ه-٢٠١٠م.
٦١. بدر بن محمد ناضرين، الشيخ أبو بكر بن محمد عارف خوقير وجهوده في تقرير عقيدة السلف والدفاع عنها، رسالة ماجستير (غير مطبوعة)، ١٤٢٤هـ جامعة أم القرى بمكة المكرمة.
٦٢. بديع الزمان النورسي، اللمعات، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، شركة سوزلر للنشر-القاهرة، ط بدون، ت بدون.
٦٣. بديع الزمان سعيد النورسي، سيرة ذاتية، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، شركة سوزلر للنشر-القاهرة، ط بدون، ت بدون.
٦٤. برنارد لويس، استنبول حضارة الخلافة الإسلامية، ترجمة وتعليق: سيد رضوان علي، الدار السعودية للنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.
٦٥. برنارد لويس، أين الخطأ؟ التأثير الغربي واستجابة المسلمين، ترجمة: محمد عناني، ترجمة ونشر سطور- القاهرة، ط١، ٢٠٠٣م.
٦٦. بكر أبو زيد، حكم الانتماء إلى الفرق والأحزاب والجماعات الإسلامية، دار ابن الجوزي-الدمام، ط٣، ١٤١٣هـ.
٦٧. التليلي العجيلي، الطرق الصوفية والاستعمار الفرنسي بالبلاد التونسية (١٨٨١-١٩٣٩م)، منشورات كلية الآداب بمنوبة، ط بدون، ١٩٩٢م.
٦٨. توفيق الطويل، التصوف في مصر إبان العصر العثماني، مكتبة الآداب-القاهرة، ط بدون، ت بدون.
٦٩. جان موريون، لويس ماسينيون، ترجمة منى النجار، المؤسسة العربية للدراسات والنشر-بيروت، ط١، ١٩٨١م.
٧٠. جراهام فوللر و إيان ليسر، الإسلام والغرب بين التعاون والمواجهة، ترجمة: شوقي جلال، مركز الأهرام للترجمة والنشر، ط بدون، ت بدون.
٧١. جورجي زيدان، مصر العثمانية، دار الهلال-القاهرة، ط بدون، ١٩٩٤م.
٧٢. جوزيف س. ناي، القوة الناعمة: وسيلة النجاح في السياسة الدولية، ترجمة: محمد توفيق البجيرمي، مكتبة العبيكان-الرياض، ط٢، ١٤٣٣هـ-٢٠١٢م.

٧٣. جولد تسيهر، العقيدة والشريعة في الإسلام، ترجمة: محمد موسى وعلي حسن وعبدالعزيز عبدالحق، دار الكتب الحديثة بمصر، ط٣، ت بدون.
٧٤. جيمس الآن سميث، سماسرة الأفكار، ترجمة مجدي عبدالكريم، مكتبة مدبولي-القاهرة، ط١، ١٩٩٤م.
٧٥. حسام تمام، مع الحركات الإسلامية في العالم: رموز وتجارب وأفكار، مكتبة مدبوبي-القاهرة، ط١، ٢٠٠٩م.
٧٦. حسن الضيقة، الدولة العثمانية/ الثقافة، المجتمع والسلطة، دار المنتخب العربي-بيروت، ط١، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م.
٧٧. حسن القزويني، الشمس تشرق من الغرب، مؤسسة البلاغ-بيروت، ط١، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م.
٧٨. حسن بن علي السقاف، السلفية الوهابية أفكارها الأساسية وجذورها التاريخية، دار الإمام الرواس-بيروت، ط بدون، ت بدون.
٧٩. حمود بن أحمد الرحيلي، العلمانية وموقف الإسلام منها، نشر الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، العدد ١١٥ لسنة ٣٤، ١٤٢٢هـ.
٨٠. خادم حسين إلهي بخش، أثر الفكر الغربي في انحراف المجتمع المسلم في شبه القارة الهندية، رسالة دكتوراه (غير مطبوعة)، جامعة أم القرى، ١٤٠٤-١٤٠٥هـ.
٨١. خالد الغامدي، نقض عقائد الأشاعرة والماتريدية، دار أطلس الخضراء-الرياض-، ط١، ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م.
٨٢. خالد القاسم، مفتريات وأخطاء دائرة المعارف الإسلامية (الاستشراقية)، دار الصميعي-الرياض، ط١، ١٤٣١هـ.
٨٣. خالد بن تونس، التصوف قلب الإسلام، دار الجيل-بيروت، ط١، ١٤٢٦ه-٢٠٠٥م.
٨٤. خالد كبير علال، الأزمة العقيدية بين الأشاعرة وأهل الحديث خلال القرنين ٥-٦ الهجريين، دار الإمام مالك-الجزائر، ط١، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.
٨٥. خلف بن دبلان الوذيناني، الدولة العثمانية والغزو الفكري حتى عام ١٣٢٧هـ-١٩٠٩م، نشر جامعة أم القرى، ط٢، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.
٨٦. خليفة بن بطاح الخزي، الليبراليون الجدد، دار الأوائل للطباعة والنشر-القاهرة، ط١، ١٤٢٣هـ-٢٠١١م.
٨٧. خليل اينالجيك، تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار، ترجمة: محمد الأرناؤوط، دار المدار الإسلامي-بيروت، ط١، ٢٠٠٢م.
٨٨. خير الدين الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين-بيروت، ط١٥، ٢٠٠٢م.

٨٩. دوجلاس ليتل، الاستشراق الأمريكي/ الولايات المتحدة والشرق الأوسط منذ ١٩٤٥م، ترجمة: طلعت الشايب، المركز القومي للترجمة-القاهرة، ط١، ٢٠٠٩م.
٩٠. دومينيك سورديل، الإسلام/ العقيدة.. السياسة.. الحضارة، ترجمة: علي مقلد، دار التنوير-لبنان، ط٢، ١٩٩٨م.
٩١. دونالد أبلسون، مراكز الفكر والسياسة الخارجية الأمريكية، جامعة ماكجيل كوين، ٢٠٠٦م، ترجمة: مازن مطبقاني.
٩٢. دونالد أبلسون، هل هناك أهمية للمؤسسات البحثية؟ تقويم تأثير معاهد السياسة العامة، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، ط١، ٢٠٠٧م.
٩٣. دي لاسي أوليري، الفكر العربي ومركزه في التاريخ، تعريب: إسماعيل البيطار، دار الكتاب اللبناني-بيروت، ط، ت بدون.
٩٤. ديفيد فروم، وريتشارد بيرل، نهاية الشر/ كيفية الانتصار على الإرهاب، ترجمة: فؤاد السروجي، الأهلية للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٠٤م.
٩٥. رايموند ليفشيز، تكايا الدراويش، الصوفية والفنون والعمارة في تركيا العثمانية، ترجمة: عبلة عودة، نشر هيئة أبوظبي للثقافة والتراث (كلمة)، ط١، ١٤٣٢هـ-٢٠١١م.
٩٦. رضا هلال، السيف والهلال: تركيا من أتاتورك إلى أربكان، دار الشروق-القاهرة، ط١، ١٤١٩هـ-١٩٩٩م.
٩٧. زهدي الفاتح، لورنس العرب على خطى هرتزل، دار النفائس-بيروت، ط٢، ١٤٠٦هـ.
٩٨. سالم بن محمد القرني، الرضا بالقضاء، بحث منشور بمجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها، المجلد (١٣)، العدد (٢١)، رمضان ١٤٢١هـ/ ديسمبر ٢٠٠٠م.
٩٩. ستيفن بوشه ومارتين روبو، مراكز الفكر أدمغة حرب الأفكار، ترجمة: ماجد كنج، دار الفارابي، ط١، ٢٠١٠م.
١٠٠. سعيد بن مسفر القحطاني، الشيخ عبدالقادر الجيلاني وآراؤه الاعتقادية والصوفية، ط١، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.
١٠١. سعيد محمد معلوي، وحدة الأديان في عقائد الصوفية، مكتبة الرشد-الرياض، ط١، ١٤٣٢هـ-٢٠١١م.
١٠٢. سعيد محمد موسى السلفي، الأربعون حديثًا النبوية في منهاج الدعوة السلفية، دار الإمام أحمد-القاهرة، ط١، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م.

١٠٣. سفر بن عبدالرحمن الحوالي، الأشاعرة عرض ونقض، نشر مجلة البيان، ط بدون، ١٤٣٠هـ.
١٠٤. سفر بن عبدالرحمن الحوالي، العلمانية نشأتها وتطورها وآثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة، دار الهجرة، ط بدون، ت بدون.
١٠٥. سفر بن عبدالرحمن الحوالي، ظاهرة الإرجاء في الفكر الإسلامي، مكتب الطيب-القاهرة، ط٢، ١٤١٨ه.
١٠٦. سفر بن عبدالرحمن الحوالي، منهج الأشاعرة في العقيدة، نشر الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ط بدون، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.
١٠٧. سليمان بن سحمان النجدي، الهدية السنية والتحفة الوهابية النجدية، مطبعة المنار-مصر، ط١، ١٣٤٢ه
١٠٨. سمير بن خليل المالكي، جلاء البصائر في الرد على كتابي شفاء الفؤاد والذخائر، ط بدون، ت بدون.
١٠٩. السيد أحمد فرج، جذور العلمانية، دار الوفاء-المنصورة، ط١، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.
١١٠. سير ت. و. أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ترجمة: حسن إبراهيم وعبدالمجيد عابدين وإسماعيل النحراوي، مكتبة النهضة المصرية-القاهرة، ط بدون، ت بدون، والطبعة الأولى الإنجليزية من الكتاب نُشرت بتاريخ ١٨٩٦م.
١١١. شمس السلفي الأفغاني، الماتريدية وموقفهم من توحيد الأسماء والصفات، مكتبة الصديق -الطائف، ط٢، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.
١١٢. شهاب الدين السهروردي، عوارف المعارف، المكتبة العلامية-القاهرة، ط بدون، ١٣٥٨هـ-١٩٣٩م.
١١٣. صابر طعيمة، التصوف والتفلسف، الوسائل والغايات، مكتبة مدبولي-القاهرة، ط١، ٢٠٠٥م.
١١٤. صابر عبده أبا زياد، لويس ماسينيون وجهوده في الفكر الفلسفي الإسلامي، دار الوفاء لدنيا الطباعة-الإسكندرية، ط بدون، ٢٠٠٤م.
١١٥. صادق سليم صادق، المصادر العامة للتلقي عند الصوفية/ عرضاً ونقداً، مكتبة الرشد، ط١، ١٤١٥هـ-١٩٩٤م.
١١٦. صالح بن عبدالرحمن الحصين، الحرية الدينية في السعودية، غيناء للنشر-الرياض، ط١، ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م.
١١٧. صالح بن عبدالعزيز آل الشيخ، هذه مفاهيمنا، طباعة وتوزيع الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، ت بدون.

١١٨. صالح بن عبدالله العبود، عقيدة الشيخ محمد بن عبدالوهاب السلفية وأثرها في العالم الإسلامي، نشر الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ط١، ١٤٠٨هـ.
١١٩. صالح بن عبدالله الغامدي، الإسلام الذي يريده الغرب، مركز الفكر المعاصر-الرياض، ط٢، ١٤٣٤هـ.
١٢٠. صالح بن فوزان الفوزان، البيان بالدليل لما في نصيحة الرفاعي ومقدمة البوطي من الكذب الواضح والتضليل، دار العاصمة-الرياض-، ط١، ١٤٢١هـ.
١٢١. صالح بن فوزان الفوزان، تعقيبات على كتاب السلفية ليست مذهباً، دار الوطن-الرياض، ط٢، ١٤١١ه
١٢٢. ضياء الدين ساردار، الاستشراق: صورة الشرق في الآداب والمعارف الغربية، ترجمة: فخري صالح، نشر هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة (كلمة)، ط١، ١٤٣٣هـ-٢٠١٢م.
١٢٣. طارق سري، المستشرقون ومنهج التزوير والتلفيق في التراث الإسلامي، مكتبة النافذة- القاهرة، ط١، ٢٠٠٦م.
١٢٤. عامر عبدالله فالح، معجم ألفاظ العقيدة، مكتبة العبيكان-الرياض، ط١، ١٤١٧ه-١٩٩٧م.
١٢٥. عباس غالي الحديثي، نظريات السيطرة الاستراتيجية وصراع الحضارات، دار أسامة-الأردن، ط١، ٢٠٠٤م.
١٢٦. عبد الرحمن بن عبد اللطيف بن عبد الله آل الشيخ، مشاهير علماء نجد وغيرهم، ط١، ١٣٩٢ه-١٩٧٢م.
١٢٧. عبدالخالق الغامدي، عبدالرحمن بدوي ومذهبه الفلسفي ومنهجه في دراسة المذاهب، مكتبة الرشد، ط١، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م.
١٢٨. عبدالرحمن ابن الجوزي، تلبيس إبليس، مؤسسة الكتب الثقافية -بيروت، ط٢، ١٤١٣هـ-١٩٩٢م.
١٢٩. عبدالرحمن الزنيدي، السلفية وقضايا العصر، دار اشبيليا-الرياض، ط١، ١٤١٨هـ-١٩٩٨م.
١٣٠. عبدالرحمن المحمود، موقف ابن تيمية من الأشاعرة، دار ابن الجوزي-الدمام، ط١، ١٤٣٣هـ.
١٣١. عبدالرحمن الوكيل، هذه هي الصوفية، دار الكتب العلمية-بيروت، ط٣، ١٩٧٩م.

١٣٢. عبدالرحمن بدوي، تاريخ التصوف الإسلامي، وكالة المطبوعات-الكويت، ط٢، ١٩٧٨م.
١٣٣. عبدالرحمن بدوي، دراسات إسلامية/ شخصيات قلقة في الإسلام، دار النهضة العربية-القاهرة، ط٣، ١٩٦٤م.
١٣٤. عبدالرحمن بدوي، شطحات الصوفية، وكالة المطبوعات-الكويت، ط بدون، ت بدون.
١٣٥. عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني، أجنحة المكر الثلاثة، دار القلم دمشق، ط٨، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.
١٣٦. عبدالرحمن عبدالخالق، الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة، مكتبة ابن تيمية-الكويت، ط٢، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.
١٣٧. عبدالرزاق بن عبدالمحسن البدر، القطوف الجياد من حكم وأحكام الجهاد، دار المغني-الرياض، ط١، ١٤٢٥هـ.
١٣٨. عبدالعزيز بن محمد العبداللطيف، دعاوى المناوئين لدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، دار طيبة-الرياض، ط بدون، ١٤٠٩-١٩٨٩م.
١٣٩. عبدالعظيم الديب، المنهج عند المستشرقين، ط بدون، ت بدون.
١٤٠. عبدالقادر حبيب الله السندي، ابن عربي الصوفي في ميزان البحث والتحقيق، دار البخاري-المدينة المنورة، ط١، ١٤١١هـ-١٩٩١م.
١٤١. عبدالكريم السمعاني، الأنساب، تحقيق: عبدالرحمن المعلمي وغيره، مجلس دائرة المعارف العثمانية-حيدر آباد، ط١، ١٣٨٢هـ-١٩٦٢م.
١٤٢. عبدالكريم بن هوازن القشيري، الرسالة القشيرية، تحقيق: عبدالحليم محمود، ومحمود بن الشريف، دار المعارف-القاهرة، ط بدون، ت بدون.
١٤٣. عبدالله أبو نصر السراج الطوسي، اللمع، تحقيق: عبدالحليم محمود، وطه عبدالباقي سرور، دار الكتب الحديثة بمصر، ط بدون، ١٣٨٠هـ-١٩٦٠م.
١٤٤. عبدالله الغصن، دعاوى المناوئين لشيخ الإسلام ابن تيمية، دار ابن الجوزي-الدمام، ط١، ١٤٢٤هـ.
١٤٥. عبدالله بن أحمد القادري، الجهاد في سبيل الله حقيقته وغايته، دار المنارة-جدة، ط٢، ١٤١٣هـ-١٩٩٢م.
١٤٦. عبدالله بن سليمان المنيع، حوار مع المالكي في رد منكراته وضلالاته، طبع ونشر الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية بالرياض، ط١، ١٤٠٣-١٩٨٣م.
١٤٧. عبدالله بن فريح العقلا، معوقات الجهاد في العصر الحاضر، مكتبة الرشد-الرياض، ط٢، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.

١٤٨. عبدالله بن محمد بن حميد، الدعوة إلى الجهاد في القرآن والسنة، دار البخاري-بريدة، ط بدون، ت بدون.
١٤٩. عبدالله دجين السهلي، الطرق الصوفية/ نشأتها وعقائدها وآثارها، دار كنوز إشبيليا-الرياض، ط١، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.
١٥٠. عبدالله عبدالرزاق إبراهيم، المسلمون والاستعمار الأوروبي لأفريقيا، عالم المعرفة-الكويت، ط بدون، ١٩٨٩م.
١٥١. عبدالمنعم الحفني، معجم مصطلحات الصوفية، دار المسيرة-بيروت، ط٢، ١٤٠٧هـ-١٩٧٨م.
١٥٢. عبدالوهاب الكيالي، الموسوعة السياسية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر-بيروت، ط بدون، ت بدون.
١٥٣. عثمان أبو زيد عثمان ومحمد وقيع الله أحمد، الوجود الإسلامي في أمريكا: الواقع والأمل، رابطة العالم الإسلامي- سلسة دعوة الحق، السنة٢٢، العدد ٢١٢، ١٤٢٦هـ.
١٥٤. عدنان محمد الوزان، الاستشراق والمستشرقون/ وجهة نظر، ط بدون، ت بدون.
١٥٥. عرفان عبدالحميد فتاح، نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها، دار الجيل-بيروت، ط١، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.
١٥٦. عز الدين بن عبدالسلام، أحكام الجهاد وفضائله، تحقيق: نزيه حماد، دار الوفاء-جدة، ط١، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.
١٥٧. عزيز الكبيطي إدريسي، التصوف الإسلامي في الولايات المتحدة الأمريكية، دار الكتب العلمية-بيروت، ط١، ٢٠١٣م.
١٥٨. علي بدوي علي سالمان، الطريقة القادرية والاستعمار الفرنسي في موريتانيا (١٩٠٣-١٩٦٠م)، رسالة علمية (ماجستير)، غير مطبوعة، جامعة القاهرة، ٢٠٠٣م.
١٥٩. علي بن إبراهيم النملة، إسهامات المستشرقين في نشر التراث العربي الإسلامي، ط١، ١٤١٧هـ-١٩٩٦م.
١٦٠. علي بن إبراهيم النملة، الاستشراق والدراسات الإسلامية، مكتبة التوبة، ط١، ١٤١٨هـ-١٩٩٨م.
١٦١. علي بن إبراهيم النملة، المستشرقون ونشر التراث، ط بدون، الرياض ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.
١٦٢. علي بن إبراهيم النملة، ظاهرة الاستشراق/ مناقشات في المفهوم والارتباطات، ط بدون، الرياض، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.

١٦٣. علي بن بخيت الزهراني، الانحرافات العقدية والعلمية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجري وآثارهما في حياة الأمة، دار طيبة-مكة المكرمة، ط٢، ١٤١٨ه
١٦٤. علي بن محمد بن أبي العز الحنفي، شرح العقيدة الطحاوية، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وعبدالله التركي، مؤسسة الرسالة-بيروت، ط١٠، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م.
١٦٥. علي بن نفيع العلياني، أهمية الجهاد في نشر الدعوة الإسلامية والرد على الطوائف الضالة فيه، دار طيبة للنشر والتوزيع-الرياض، ط٢، ١٤١٦هـ-١٩٩٥م.
١٦٦. علي سامي النشار، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، دار المعارف-القاهرة، ط٨، ت بدون.
١٦٧. علي عامر آل ثابت، عقائد النورسية، رسالة ماجستير (غير مطبوعة)، جامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض، ١٤٢٨-١٤٢٩هـ.
١٦٨. علي عزت بيجوفيتش، الإسلام بين الشرق والغرب، ترجمة: محمد يوسف عدس، مؤسسة بافاريا للنشر-ألمانيا، ط٢، ١٩٩٧م.
١٦٩. علي محمد الصلابي، الثمار الزكية للحركة السنوسية في ليبيا، دار الصحابة-الشارقة، ومكتبة التابعين-القاهرة، ط١، ١٤٢٢ه-٢٠٠١م.
١٧٠. علي محمود العمري، القدر في الفكر الصوفي، دار الفتح -عمّان، ط١، ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م.
١٧١. عمار علي الحسن، التنشئة السياسية للطرق الصوفية في مصر، دار العين للنشر-القاهرة، ط١، ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م.
١٧٢. عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٤هـ.
١٧٣. عمر عبدالله كامل، الإنصاف فيما أثير حوله الخلاف، الوابل الصيب للنشر-القاهرة، ط١، ٢٠١٠م.
١٧٤. عمر عبدالله كامل، الذخائر المحمدية للسيد الأستاذ الدكتور محمد بن علوي المالكي بين المؤيدين والمعارضين على ضوء الكتاب والسنة وأقوال علماء الأمة، مكتبة التراث الإسلامي-القاهرة، ط١، ٢٠٠٦م
١٧٥. ف. س. سوندرز، الحرب الباردة الثقافية، ترجمة: طلعت الشايب، نشر المركز القومي للترجمة-القاهرة، ط٤، ٢٠٠٩م. وقد نُشرت النسخة الإنجليزية منه في عام ١٩٩٩م.
١٧٦. فاطمة هدى نجا، نور الإسلام وأباطيل الاستشراق، دار الإيمان -لبنان، ط١، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.

١٧٧. الفرد بل، الفرق الإسلامية في الشمال الأفريقي من الفتح العربي حتى اليوم، ترجمة: عبدالرحمن بدوي، دار الغرب الإسلامي، ط٣، ١٩٨٧م.
١٧٨. فريد الدين آيدن، الطريقة النقشبندية بين ماضيها وحاضرها، دار العِبر للطباعة والنشر-اسطنبول، ط بدون، ١٩٩٧م.
١٧٩. فيليب حتى، الإسلام منهج حياة، ترجمة: عمر فروخ، دار العلم للملايين-بيروت، ط١، ١٩٧٢م.
١٨٠. كتاب أبو حامد الغزالي في الذكرى المئوية التاسعة لميلاده، نشر المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية بدمشق، ط بدون، ١٩٦١م.
١٨١. كتاب المؤتمر العالمي لبديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: أورخان البياتي وآخرون، نشر نيسل-إسطنبول، ط١، ١٩٩٦م.
١٨٢. كتاب مناهج المستشرقين في الدراسات الإسلامية، إصدار: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ومكتب التربية العربي لدول الخليج، تونس، ١٩٨٥م.
١٨٣. لطف الله خوجه، الإنسان الكامل في الفكر الصوفي، دار الهدي النبوي ودار الفضيلة، ط١، ١٤٣٠هـ.
١٨٤. لطف الله خوجه، فلسفة الحرية الدينية: نظرة عقدية، رابطة العالم الإسلامي- سلسة دعوة الحق، السنة٢٤، العدد ٢٣٠، ١٤٣٠ه-٢٠٠٩م.
١٨٥. لطف الله خوجه، وحدة الأديان في تأصيلات التصوف وتقريرات المتصوفة (بحث محكّم مطبوع)، ط١، ١٤٣٢هـ-٢٠١١م.
١٨٦. لطفي حداد، الإسلام بعيون مسيحية، الدار العربية للعلوم-بيروت، ط١، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.
١٨٧. لوثروب ستودارد، حاضر العالم الإسلامي، ترجمة: عجاج نويهض، وتعليق الأمير شكيب أرسلان، دار الفكر-بيروت، ط٤، ١٣٩٤هـ-١٩٧٣م.
١٨٨. لويس دوكورانسي، الوهابيون، تاريخ ما أهمله التاريخ، ترجمة: مجموعة من الباحثين، نشر رياض الريس للكتب والنشر-بيروت، ط ت بدون.
١٨٩. مازن مطبقاني، الاستشراق والاتجاهات الفكرية في التاريخ الإسلامي/ دراسة تطبيقية على كتابات برنارد لويس، نشر مكتبة الملك فهد الوطنية-الرياض، ١٤١٦ه- ١٩٩٥م.
١٩٠. مازن مطبقاني، بحوث في الاستشراق الأمريكي المعاصر، ط١، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.

١٩١. مازن مطبقاني، عبدالحميد بن باديس العالم الرباني والزعيم السياسي، دار القلم-دمشق، ط١، ١٤١٠هـ-١٩٨٩م.
١٩٢. مازن مطبقاني، وضعية دراسات الشرق الأوسط في الجامعات الأمريكية بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م، ط بدون، ت بدون.
١٩٣. ماسينيون، آلام الحلاج: شهيد التصوف الإسلامي، شركة قدمس للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٠٤م.
١٩٤. ماهر حسن فهمي، محمد توفيق البكري، دار الكتاب العربي-القاهرة، ط بدون، ١٩٦٧م.
١٩٥. مجموعة من العلماء، الدرر السنية في الأجوبة النجدية، جمع عبدالرحمن بن قاسم، ط بدون، ١٤١٧هـ-١٩٩٦م.
١٩٦. مجموعة من المستشرقين، وبعض تلاميذهم العرب، دائرة المعارف الإسلامية، ترجمة: إبراهيم خورشيد وعبدالحميد يونس وحسن عثمان، دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة، ط١، ١٩٨٤م.
١٩٧. محمد أبو الوفا الغنيمي التفتازاني، ابن سبعين وفلسفته الصوفية، دار الكتاب اللبناني-بيروت، ط١، ١٩٧٣م.
١٩٨. محمد أبو الوفاء الغنيمي التفتازاني، مدخل إلى التصوف الإسلامي، دار الثقافة للنشر والتوزيع-القاهرة، ط٣، ت بدون.
١٩٩. محمد أبو بكر الكلاباذي، التعرف لمذهب أهل التصوف، تحقيق أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية-بيروت، ط١، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.
٢٠٠. محمد أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، مكتبة كرياطة فوترا-إندونيسيا، ط بدون، ت بدون.
٢٠١. محمد أبو رمان، الإسلاميون والدين والثورة في سورية، نشر مؤسسة فريدريش ايبرت-مكتب الأردن، ط بدون، ٢٠١٣م.
٢٠٢. محمد أحمد لوح، تقديس الأشخاص في الفكر الصوفي، دار ابن القيم-الدمام، ط١، ١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م.
٢٠٣. محمد البهي، الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، مكتبة وهبة-القاهرة، ط١٤، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.
٢٠٤. محمد البيروني، تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، مطبوعات دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن-الهند، ط بدون، ١٣٧٧هـ-١٩٥٨م.

٢٠٥. محمد العبدة، التعصب الأوروبي أم التعصب الإسلامي: مئة مشروع لتقسيم الدولة العثمانية ١٢٨١هـ-١٩١٣م، الناشر بدون، ط١، ١٤١٦هـ-١٩٩٥م.
٢٠٦. محمد الفيروزابادي، القاموس المحيط، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة بإشراف: محمد نعيم العرقسُوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٨، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.
٢٠٧. محمد أمان بن علي جامي، الإسلام في أفريقيا عبر التاريخ، نشر الجامعة الإسلامية-المدينة المنورة، ط٤، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.
٢٠٨. محمد بشير السهسواني الهندي، صيانة الإنسان عن وسوسة الشيخ دحلان، طبع على نفقة محمد وعبدالعزيز العبدالله الجميح، ط٥، ١٣٩٥هـ-١٩٧٥م.
٢٠٩. محمد بن أبي بكر ابن القيم ، الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية، دار عالم الفوائد-مكة المكرمة، ط١، ١٤٢٨ه
٢١٠. محمد بن أبي بكر ابن القيم، إعلام الموقعين عن رب العالمين، تحقيق: مشهور حسن سلمان، دار ابن الجوزي -الدمام، ط١، ١٤٢٣هـ.
٢١١. محمد بن أبي بكر ابن القيم، الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، دار المعرفة-المغرب، ط١، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.
٢١٢. محمد بن أبي بكر ابن القيم، زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وعبدالقادر الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ط٢٦، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م.
٢١٣. محمد بن أبي بكر ابن القيم، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تحقيق: محمد البغدادي، دار الكتاب العربي-بيروت، ط٣، ١٤١٦هـ-١٩٩٦م.
٢١٤. محمد بن أبي بكر ابن القيم، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، دار ابن عفان-الخبر، ط١، ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م.
٢١٥. محمد بن أبي بكر الرازي، مختار الصحاح، مكتبة لبنان، ط بدون، ١٩٨٩م.
٢١٦. محمد بن أحمد الجوير، جهود علماء السلف في القرن السادس الهجري في الرد على الصوفية، مكتبة الرشد، ط١، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.
٢١٧. محمد بن أحمد الذهبي، سير أعلام النبلاء، محقق بإشراف: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة-بيروت، ط٣، ١٤٠٥ه/ ١٩٨٥م.

٢١٨. محمد بن أحمد الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: بشار معروف، دار الغرب الإسلامي-بيروت، ط١، ٢٠٠٣م.
٢١٩. محمد بن أحمد السفاريني، لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية، المكتب الإسلامي ودار الخاني، ط٣، ١٤١١هـ-١٩٩١م.
٢٢٠. محمد بن جميل زينو، الصوفية في ميزان الكتاب واالسنة، دار المحمدي-جدة، ط٤، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.
٢٢١. محمد بن صالح العثيمين، شرح الأربعين النووية، دار الثريا للنشر، ط بدون، ت بدون.
٢٢٢. محمد بن عبدالله القونوي، أخبار جلال الدين الرومي، ط١، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.
٢٢٣. محمد بن عبدالله المقدي، التيه الدلالي، بحث غير مطبوع، ت بدون.
٢٢٤. محمد بن عبدالله المقدي، الصوفية بين المواجهة والتمكين، نشر: موقع الصوفية، ط بدون، ١٤٢٩هـ.
٢٢٥. محمد بن عبدالوهاب، الرسائل الشخصية، تحقيق: صالح الفوزان ومحمد العيلقي، نشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية -الرياض-، ط بدون، ت بدون.
٢٢٦. محمد بن علوي المالكي، مفاهيم يجب أن تصحح، دار الكتب العلمية-بيروت، ط٢، ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م.
٢٢٧. محمد بن مكرم ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ.
٢٢٨. محمد حامد الأحمري، ملامح المستقبل، مكتبة العبيكان-الرياض، ط١، ١٤٢٦هـ.
٢٢٩. محمد حامد الفقي، أثر الدعوة الوهابية في الإصلاح الديني والعمراني في جزيرة العرب وغيرها، نشر المؤلف-مصر، ط بدون، ١٣٥٤ه
٢٣٠. محمد حسن زماني، الاستشراق والدراسات الإسلامية لدى الغربيين، ترجمة: محمد نور الدين عبدالمنعم، المركز القومي للترجمة-القاهرة، ط١، ٢٠١٠م.
٢٣١. محمد رشيد رضا، الوهابيون والحجاز، دار المنار-مصر، ط١، ١٣٤٤ه
٢٣٢. محمد زكي إبراهيم، السلفية المعاصرة إلى أين؟ ومن هم أهل السنة؟، مؤسسة إحياء التراث الصوفي، ط٢، ت بدون.
٢٣٣. محمد سعيد البوطي، الجهاد في سبيل الله كيف نفهمه؟ وكيف نمارسه؟، دار الفكر-دمشق، ط٨، ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م.

٢٣٤. محمد سعيد البوطي، السلفية مرحلة زمنية مباركة لا مذهب إسلامي، دار الفكر-دمشق، ط١١، ٢٠٠٩م.
٢٣٥. محمد سعيد القحطاني، الولاء والبراء في الإسلام، دار طيبة-الرياض، ط٣، ١٤٠٩هـ.
٢٣٦. محمد عبدالحي الكتاني، فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي-بيروت، ط٢، ١٩٨٢م.
٢٣٧. محمد عبدالرحيم مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، دار الشوق-القاهرة، ط٢، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.
٢٣٨. محمد عبدالرزاق خير الدين حبيب، دراسة المستشرقين للجوانب العقدية والفكرية في حركة الشيخ محمد بن عبدالوهاب (دراسة تحليلية نقدية)، رسالة ماجستير (غير مطبوعة)، جامعة الإمام محمد بن سعود-فرع المدينة المنورة (سابقاً)، ١٤١١هـ.
٢٣٩. محمد عبدالله الشرقاوي، الاتجاهات الحديثة في دراسة التصوف الإسلامي، دار الفكر العربي-القاهرة، ط بدون، ت بدون.
٢٤٠. محمد علي التهانوي، موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، تحقيق: علي دحروج، مكتبة لبنان، ط، ١٩٩٦م.
٢٤١. محمد فتح الله الزيادي، ظاهرة انتشار الإسلام وموقف بعض المستشرقين منها، المنشأة العامة للنشر والتوزيع- ليبيا، ط١، ١٩٨٣م.
٢٤٢. محمد فتح الله كولن، روح الجهاد وحقيقته في الإسلام، دار النيل-استنبول، ط٦، ١٤٣١هـ-٢٠١٠م.
٢٤٣. محمد فهر شقفة، التصوف بين الحق والخلق، الدار السلفية-الكويت، ط٣، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.
٢٤٤. محمد قطب، واقعنا المعاصر، دار الشروق، القاهرة، ط١، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.
٢٤٥. محمد كامل ضاهر، الصراع بين التيارين الديني والعلماني في الفكر العربي الحديث والمعاصر، دار البيروني-بيروت، ط١، ١٤١٤ه-١٩٩٤م.
٢٤٦. محمد محمد حسين، الإسلام والحضارة الغربية، دار الفرقان، ط بدون، ت بدون.
٢٤٧. محمد مصطفى حلمي، الحب الإلهي في التصوف الإسلامي، دار القلم-القاهرة، ط بدون، ١٩٦٠م.

٢٤٨. محمد مصطفى حلمي، الحياة الروحية في الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٢، ت بدون.
٢٤٩. محمد نعيم يس، أثر الإسلام في تكوين الشخصية الجهادية للفرد والجماعة، دار الأرقم-الكويت، ط١، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.
٢٥٠. محمد وقيع الله أحمد، الإسلام في المناهج الغربية المعاصرة، ط١، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م.
٢٥١. محمد ياسر شرف، فلسفة التصوف السبعيني، منشورات وزارة الثقافة السورية، ط١، ١٩٩٠م.
٢٥٢. محمد يسري إبراهيم، قراءة في الاستراتيجية الغربية لحرب الإسلام بعد الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م/ ولتستبين سبيل المجرمين، دار الكتب المصرية-القاهرة، ط١، ١٤٣٢هـ-٢٠١١م.
٢٥٣. محمود حمدي زقزوق، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، دار المعارف-القاهرة، ط بدون، ت بدون.
٢٥٤. مرسال عبدالله المحمادي، موقف المستشرقين من دعوة الإمام محمد بن عبدالوهاب (عرض ونقد)، رسالة ماجستير (غير مطبوعة)، ت بدون، جامعة أم القرى.
٢٥٥. المستر هنري مرغنتو، مذكرات سفير أمريكا في الأستانة، تعريب: فؤاد مروف، مكتبة العرب-القاهرة، ط بدون، ١٩٢٣م.
٢٥٦. مستقبل الإصلاح في العالم الإسلامي: خبرات مقارنة مع حركة فتح الله كولن التركية، دار النيل-القاهرة، ط١، ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م.
٢٥٧. مسعود الندوي، محمد بن عبدالوهاب مصلح مظلوم ومفترى عليه، ترجمة: عبدالعليم البستوي، طباعة ونشر وزارة الشؤون الإسلامية والأقاف السعودية، ط بدون، ١٤٢٠هـ
٢٥٨. مصباح الدين جنيد، الشيخ عثمان بن فودي الفلاني وعقيدته على ضوء الكتاب والسنة، رسالة ماجستير (غير مطبوعة)، جامعة أم القرى، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.
٢٥٩. مصطفى السباعي، الاستشراق والمستشرقون (ما لهم وما عليهم)، دار الوراق للنشر والتوزيع، ط بدون، ت بدون.
٢٦٠. مصطفى باحو، العلمانية المفهوم والمظاهر والأسباب، نشر جريدة السبيل-المغرب، ط١، ١٤٢٣هـ-٢٠١١م.
٢٦١. مصطفى باحو، علماء المغرب ومقاومتهم للبدع والتصوف والقبورية والمواسم، نشر جريدة السبيل-المغرب، ط١، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م.

٢٦٢. مصطفى حلمي، أعمال القلوب بين الصوفية وعلماء السنة (التصوف والاتجاه السلفي في العصر الحديث)، دار الدعوة-الإسكندرية، ط٢، ١٤١٠هـ-١٩٨٩م.
٢٦٣. مصطفى حلمي، السلفية بين العقيدة الإسلامية والفلسفة الغربية، دار الدعوة بالإسكندرية، ط٢، ١٤١١هـ-١٩٩١م.
٢٦٤. مصطفى حلمي، قواعد المنهج السلفي في الفكر الإسلامي، دار الكتب العلمية-بيروت، ط١، ٢٠٠٥م.
٢٦٥. مصطفى عبدالغني، المستشرقون الجدد/ دراسة في مراكز الأبحاث الغربية، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٤٢٨هـ.
٢٦٦. مصطفى محمود، الإسلام السياسي والمعركة القادمة، دار أخبار اليوم-القاهرة، ط ت بدون.
٢٦٧. منير البعلبكي، معجم أعلام المورد، دار العلم للملايين-بيروت، ط١، ١٩٩٢م.
٢٦٨. منيفة بنت خليف الشمري، أثر التصوف على مذهب الأشاعرة، رسالة ماجستير (غير مطبوعة)، جامعة الملك سعود-الرياض، ١٤٢٤هـ.
٢٦٩. مؤسسة طابة، توصيات بدعم التيارات المعتدلة في المجتمعات والجاليات المسلمة، ملخص تحليلي لتقرير مؤسسة راند (٢٠٠٧م)، نشر مؤسسة طابة- أبوظبي، ط بدون، ٢٠٠٧م.
٢٧٠. موفق صادق العطار، العم سام والإسلام: مجابهة أم احتواء؟!، دار الأوائل-دمشق، ط١، ٢٠٠٨م.
٢٧١. موفق صادق العطار، نظرية المؤامرة أوهم أم حقيقة؟ «الصوفية»، دار الأوائل-دمشق، ط١، ٢٠٠٦م.
٢٧٢. ناصر العقل، مباحث في عقيدة أهل السنة والجماعة وموقف الحركات الإسلامية المعاصرة منها، دار الوطن-الرياض-، ط١، ١٤١٢هـ.
٢٧٣. ناصر بن إبراهيم التويم، الشيخ محمد بن عبدالوهاب حياته ودعوته في الرؤية الاستشراقية (دراسة نقدية)، نسخة مصورة من الأصل، ط بدون، ت بدون.
٢٧٤. نجيب العقيقي، المستشرقون، دار المعارف- القاهرة، ط٣، ١٩٦٤م.
٢٧٥. الندوة العالمية للشباب الإسلامي، الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، دار الندوة العالمية للطباعة والنشر، ط٥، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.

٢٧٦. نذير حمدان، مستشرقون سياسيون- جامعيون- مجمعيون، مكتبة الصديق-الطائف، ط١، ١٤٠٨-١٩٨٨م.
٢٧٧. نوال بنت عبدالسلام فلاته، الجنيد بن محمد وآراؤه العقدية والصوفية، رسالة ماجستير (غير مطبوعة)، جامعة أم القرى، ١٤٢٩هـ.
٢٧٨. نيكلسون، الصوفية في الإسلام، ترجمة: نور الدين شريبه، مكتبة الخانجي-القاهرة، ط٢، ١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م.
٢٧٩. نيكلسون، في التصوف الإسلامي وتاريخه، لجنة التأليف والترجمة والنشر-القاهرة، ط بدون، ١٣٨٥هـ-١٩٦٩م.
٢٨٠. ه. س. أرمسترونج، الذئب الأغبر مصطفى كمال، دار الهلال-القاهرة، ط بدون، ١٣٧١هـ-١٩٥٢م.
٢٨١. هاملتون جب ولويس ماسينيون وآخرون، وجهة الإسلام، ترجمة: محمد عبدالهادي أبو ريدة، المركز القومي للترجمة-القاهرة، ط بدون، ٢٠٠٩م.
٢٨٢. هدى درويش، الإسلاميون وتركيا العلمانية -نموذج الإمام سليمان حلمي، دار الآفاق العربية-القاهرة، ط١، ١٤١٨هـ-١٩٩٨م.
٢٨٣. هدى درويش، العلاقات التركية اليهودية وأثرها على البلاد العربية، دار القلم-دمشق، ط١، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.
٢٨٤. الهيثم زعفان، التمويل الغربي وشراء الفكر في العالم العربي، نشر المركز العربي للدراسات الإنسانية-القاهرة، ط بدون، ٢٠١٠م.
٢٨٥. يوسف القرضاوي، فتاوى معاصرة، المكتب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٩٣م.
٢٨٦. يوسف بن السيد هاشم الرفاعي، نصيحة لإخواننا علماء نجد، دار إقرأ - دمشق، ط١، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.

رابعا: التقارير والأبحاث:

٢٨٧. تحليل سياسي بعنوان «التحول في مصر: هل المتطرفون في صعود؟»، معهد واشنطن، ٢٠٠٩م.
٢٨٨. تقرير «إحياء التقاليد التعددية الباكستانية لمحاربة التطرف»، مؤسسة التراث، ٢٠٠٩م.
٢٨٩. تقرير «إسلام حضاري ديموقراطي»، مؤسسة راند، (النسخة العربية)، ٢٠٠٤م.
٢٩٠. تقرير «الإسلام الديمقراطي المدني» (إسلام حضاري ديمقراطي)، مؤسسة راند، ترجمة: موقع إسلام ديلي، ٢٠٠٤م.
٢٩١. تقرير «الإسلام الراديكالي في شرق أفريقيا»، مؤسسة راند، ٢٠٠٩م.

٢٩٢. تقرير «الإسلام السياسي في جنوب الصحراء الأفريقية: الحاجة إلى دراسات جديدة وبرامج دبلوماسية»، معهد الولايات المتحدة للسلام، ٢٠٠٥م.
٢٩٣. تقرير «الأسلمة ليست القضية في تركيا»، معهد بروكنجز، ٢٠١٠م.
٢٩٤. تقرير «الإيديولوجيات الإسلامية المتطرفة وأمن الجنوب الآسيوي» مركز الدرسات الاستراتيجية والدولية، ٢٠٠٨م.
٢٩٥. تقرير «التحدي الأمريكي في قمة شنغهاي»، مؤسسة التراث، ٢٠٠٦م.
٢٩٦. تقرير «التصوف الفرنكو أمريكي الجديد في المغرب، جذوره وحقيقته»، مجلة الراصد، العدد ٦٤، شوال ١٤٢٩هـ.
٢٩٧. تقرير «التصوف في آسيا الوسطى: قوة لتحقيق الاعتدال أم حالة من التسييس؟»، معهد كارنيغي، ، ٢٠٠٧م.
٢٩٨. تقرير «الحكم والتشدد في منطقة البنجاب بجنوب باكستان»، مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية ، ٢٠١١م.
٢٩٩. تقرير «الدور السياسي للطرق الصوفية في مصر بعد ٢٥ يناير»، إعداد: عمار علي حسن، موقع مركز الجزير للدراسات.
٣٠٠. تقرير «السلفية وسياسة التطرف في جزائر ما بعد الصراع»، مؤسسة كارنيغي، ٢٠٠٨م.
٣٠١. تقرير «السنة في العراق IRAQ: The Sunnis»، مجلس العلاقات الخارجية، ٢٠٠٣م.
٣٠٢. تقرير «الصوفية في شمال نيجيريا: قوة في مواجهة التطرف؟»، معهد الدراسات الاستراتيجية، ٢٠١٠م.
٣٠٣. تقرير «العالم المسلم بعد ١١/ ٩»، مؤسسة راند، ٢٠٠٤م.
٣٠٤. تقرير «القلوب والعقول والدولارات»، مجلة أخبار أمريكا، في ١٧/ ٤/ ٢٠٠٥م، ترجمة موقع إسلام ديلي.
٣٠٥. تقرير «المدارس الفكرية في الإسلام»، معهد الشرق الأوسط ، ٢٠١٢م.
٣٠٦. تقرير «باكستان»، مؤسسة التراث، ٢٠١١م.
٣٠٧. تقرير «بناء شبكات مسلمة معتدلة»، مؤسسة راند، نسخة معربة بواسطة الباحث، ٢٠٠٧م.
٣٠٨. تقرير «تحدي السلفية لجهاد تنظيم القاعدة»، معهد الشرق الأوسط، ٢٠١١م.
٣٠٩. تقرير «تحدي بناء الأمن في شرق ليبيا»، مؤسسة كارنيغي، ٢٠١٢م.

٣١٠. تقرير «حركة جيش رجال الطريقة النقشبندية والتمرد القادم في العراق»، معهد واشنطن، ٢٠١١م.
٣١١. تقرير «حروب الأفكار وحرب الأفكار»، معهد الدراسات الاستراتيجية، ٢٠٠٨م.
٣١٢. تقرير «رد فعل الإسلاميين تجاه القمع: هل ستلجأ الجماعات الإسلامية السائدة إلى التطرف؟»، معهد بروكنجز الدوحة، ٢٠١٠م.
٣١٣. تقرير «شبكة العلاقات العامة في بلاد الحرمين وأدواتها» إعداد هيئة التحرير بموقع آل البيت الإليكتروني، ١٤٢٨هـ.
٣١٤. تقرير «ظهور الصوفية من جديد في السعودية» جريدة واشنطن بوست، ٢/٥/٢٠٠٦م.
٣١٥. تقرير «غضب السلفيين في ليبيا»، مؤسسة كارنيغي، ٢٠١٢م.
٣١٦. تقرير «فهم الصوفية ودورها المرتقب في سياسة الولايات المتحدة»، مركز المصلحة الوطنية (نيكسون سابقاً)، ترجمة: مازن مطبقاني، ٢٠٠٤م.
٣١٧. تقرير «ماذا يمكن أن تتعلم قطر من باكستان» What Qatar Can Learn From Pakistan، مجلس العلاقات الخارجية، ٢٠١٢م.
٣١٨. تقرير «مراكز الفكر وبرنامج المجتمعات المدنية»، إعداد: جيمس ماكقان، ترجمة: محمد سليم قلاقلة، والتقرير من إصدارات معهد بحوث السياسات الخارجية، ٢٠٠٧م.
٣١٩. تقرير «مكافحة التطرف القائم على العنف: نقاش حول مكافحة التحول إلى الراديكالية في عام ٢٠١١م» معهد واشنطن، ٢٠١١.
٣٢٠. تقرير«وهم استبعاد الإسلاميين المعتدلين في العالم العربي»، معهد بروكنجز، ٢٠١٠م.
٣٢١. التقرير السنوي حول الحرية الدينية الدولية، وزارة الخارجية الأمريكية، لعام ٢٠٠٥م.
٣٢٢. التقرير السنوي حول الحرية الدينية الدولية، وزارة الخارجية الأمريكية، لعام ٢٠٠٩م.
٣٢٣. التقرير السنوي حول الحرية الدينية الدولية، وزارة الخارجية الأمريكية، لعام ٢٠١١م.
٣٢٤. التقرير السنوي للجنة الأمريكية للحرية الدينية الدولية، الولايات المتحدة الأمريكية، لعام ٢٠٠٤م.
٣٢٥. التقرير السنوي للجنة الأمريكية للحرية الدينية الدولية، الولايات المتحدة الأمريكية، لعام ٢٠٠٤م.

٣٢٦. التقرير السنوي للجنة الأمريكية للحرية الدينية الدولية، الولايات المتحدة الأمريكية، لعام ٢٠٠٤م.
٣٢٧. التقرير السنوي للجنة الأمريكية للحرية الدينية الدولية، الولايات المتحدة الأمريكية، لعام ٢٠٠٨م.
٣٢٨. التقرير السنوي للجنة الأمريكية للحرية الدينية الدولية، الولايات المتحدة الأمريكية، لعام ٢٠١٣م.
٣٢٩. تقرير «السلفيون والصوفيون في مصر»، مؤسسة كارنيغي، ٢٠١١م.

خامسًا: المراجع الصحفية:

٣٣٠. جريدة ٢٦ سبتمبر، اليمن.
٣٣١. جريدة الاتحاد، الإمارات.
٣٣٢. جريدة الاقتصادية، السعودية.
٣٣٣. جريدة الإمارات اليوم، الإمارات.
٣٣٤. جريدة الأنباء، الكويت.
٣٣٥. جريدة الانتباهة، السودان.
٣٣٦. جريدة الأهرام، مصر.
٣٣٧. جريدة الأيام، البحرين.
٣٣٨. جريدة البيان، الإمارات.
٣٣٩. جريدة الحياة، لندن.
٣٤٠. جريدة الخليج، الإمارات.
٣٤١. جريدة الرأي، الكويت.
٣٤٢. جريدة الراية، قطر.
٣٤٣. جريدة الرياض، السعودية.
٣٤٤. جريدة السياسة، الكويت.
٣٤٥. جريدة الشرق الأوسط، لندن.
٣٤٦. جريدة الشروق الجديد، مصر.
٣٤٧. جريدة الشروق أون لاين، الجزائر.
٣٤٨. جريدة الصحافة السودانية، السودان.
٣٤٩. جريدة الصحراء المغربية، المغرب.
٣٥٠. جريدة العرب، الأردن.
٣٥١. جريدة العرب، قطر.
٣٥٢. جريدة الفتح، القاهرة.

٣٥٣. جريدة القبس، الكويت.
٣٥٤. جريدة المصريون الإليكترونية، مصر.
٣٥٥. جريدة الوسط، البحرين.
٣٥٦. جريدة الوطن، السعةدية.
٣٥٧. جريدة الوطن، الكويت.
٣٥٨. جريدة الوفد، مصر.
٣٥٩. جريدة اليوم السابع الإليكترونية، مصر.
٣٦٠. جريدة إيلاف الإلكترونية، لندن.
٣٦١. جريدة ديلي إكسبرس، لندن.
٣٦٢. جريدة زمان، تركيا.
٣٦٣. جريدة سان خوسيه ميركوري، أمريكا.
٣٦٤. جريدة ستريتس تايم، سنغافورة.
٣٦٥. جريدة صنداي ستريت تايمز، سنغافورة.
٣٦٦. جريدة عكاظ، السعودية.
٣٦٧. جريدة نيويروك بوست، أمريكا.
٣٦٨. جريدة نيويورك صن، أمريكا.
٣٦٩. جريدة هسبريس الإليكترونية، المغرب.
٣٧٠. جريدة، وول ستريت جورنال، أمريكا.
٣٧١. مجلة «فصلية الشرق الأوسط»، تصدر عن منتدى الشرق الأوسط، أمريكا.
٣٧٢. مجلة أديان، قطر.
٣٧٣. مجلة الأصالة، الأردن.
٣٧٤. مجلة التايم الأمريكية، أمريكا.
٣٧٥. مجلة التمدن الإسلامي، ماليزيا.
٣٧٦. مجلة الحياة الجامعية، جامعة قطر.
٣٧٧. مجلة الشؤون الخارجية «فورين بوليسي»، أمريكا.
٣٧٨. مجلة العصر الإليكترونية.
٣٧٩. مجلة المجتمع، الكويت.
٣٨٠. مجلة المجلة، لندن.
٣٨١. مجلة المنار الجديد، القاهرة.
٣٨٢. مجلة إنسانيات، الجزائر.
٣٨٣. مجلة جامعة أم القرى، مكة المكرمة.
٣٨٤. مجلة حراء، تركيا.

سادساً: المواقع الالكترونية:

٣٨٥. موقع الصوفية: *www.alsoufia.com*

٣٨٦. موقع الدرر السنية: *www.dorar.net*

٣٨٧. موقع التصوف الإيراني: http://sufi.ir

٣٨٨. موقع رباط الفقراء إلى الله: www.rubat.com

٣٨٩. موقع روض الرياحين: http://cb.rayaheen.net

٣٩٠. موقع جمعية الشيخ العلاوي لإحياء التراث الصوفي بالمغرب: http://assoalawimaroc.com

٣٩١. موقع صدى زيد: www.sadazaid.com

٣٩٢. موقع مجمع الشيخ أحمد كفتارو: http://www.abunour.net

٣٩٣. موقع مؤسسة زيد بن ثابت الأهلية: www.zaidorg.net

٣٩٤. موقع جهاد ووتش: www.jihadwatch.org

٣٩٥. موقع مركز ديفيد هورويتز للحرية: www.horowitzfreedomcenter.org

٣٩٦. موقع الحبيب علي الجفري: www.alhabibali.com

٣٩٧. موقع الحبيب عمر بن حفيظ: www.alhabibomar.com

٣٩٨. موقع آل البيت: www.alalbayt.com

٣٩٩. موقع الأشراف أون لاين: www.ashraf-online.com

٤٠٠. موقع كلمة سواء: www.acommonword.com

٤٠١. موقع مركز المدينة المنورة لدؤاسات وبحوث الاستشراق: madinacenter.com

٤٠٢. موقع مركز الدوحة الدولي لحوار الأديان: www.dicid.org

٤٠٣. موقع تقرير واشنطن: www.taqrir.org

٤٠٤. موقع مؤسسة الكونجرس الحر: www.freecongress.org

٤٠٥. موقع حزب العدالة والتنمية التركي: www.akparti.org.tr/arabic

٤٠٦. موقع معهد بحوث السياسة الخارجية : www.fpri.org

٤٠٧. موقع إسلام ديلي: www.islamdaily.org/AR

٤٠٨. موقع الاتحاد مع إسرائيل: www.unitedwithisrael.org

٤٠٩. موقع الألوكة:www.alukah.net

٤١٠. موقع محمد ماضي أبو العزائم:
www.mohamedmadyabuelazayem.com
٤١١. موقع جمعية نهضة العلماء في إندونيسيا: www.nu.or.id
٤١٢. موقع الموسوعة العربية المسيحية:
www.christusrex.org/www1/ofm/1god
٤١٣. موقع مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية: www.csis.org
٤١٤. موقع معهد الولايات المتحدة للسلام: www.usip.org
٤١٥. موقع معهد بروكنجز: www.brookings.edu
٤١٦. موقع معهد واشنطن لسياسة الشرق الأدنى:
www.washingtoninstitute.org
٤١٧. موقع منتدى الشرق الأوسط: www.meforum.org
٤١٨. موقع الجبهة الوطنية والقومية والإسلامية: www.jabha-wqs.net
٤١٩. موقع الجزيرة نت: www.aljazeera.net
٤٢٠. موقع مركز الجزيرة للدراسات: http://studies.aljazeera.net
٤٢١. موقع صيد الفوائد: www.saaid.net
٤٢٢. موقع تويتر، حساب الشيخ محمد العريفي:
https://twitter.com/MohamadAlarefe
٤٢٣. موقع فيس بوك، حساب الحبيب علي الجفري:
/https://www.facebook.com/alhabibali/posts
٤٢٤. موقع الشيخ محمد ناصر الدين الألباني: www.alalbany.net
٤٢٥. موقع الشيخ عبدالله بن بيه: www.binbayyah.net
٤٢٦. موقع قناة الإرث النبوي: www.alerth.com
٤٢٧. موقع العربية نت: www.alarabiya.net
٤٢٨. موقع العشيرة المحمدية: asheera.sufiacademy.net
٤٢٩. موقع القيادة العليا للجهاد والتحرير: http:hcjl.ws
٤٣٠. موقع المسلم: www.almoslim.net
٤٣١. موقع مشروع القرن الأمريكي الجديد:
www.newamericancentury.org
٤٣٢. موقع معهد راند قطر للسياسات: www.rand.org/qatar.html
٤٣٣. موقع أون إسلام: www.onislam.net
٤٣٤. موقع إسلام أون لاين: http://islamonline.net
٤٣٥. موقع إيريك جوفروا: www.eric-geoffroy.net

٤٣٦. موقع جامعة القاضي عياض بالمغرب: www.uca.ma
٤٣٧. موقع جامعة كلارك: www.clarku.edu
٤٣٨. موقع جمعية التراث القانوني اليهودي: www.mishpativri.org.il
٤٣٩. موقع دانيال بايبس: ar.danielpipes.org .www
٤٤٠. موقع مؤسسة راند: www.rand.org
٤٤١. موقع فتح الله كولن: www.ar.fgulen.com
٤٤٢. موقع معهد كولن: www.guleninstitute.org
٤٤٣. موقع مؤسسة كارنيغي للسلام الدولي:
www.carnegieendowment.org
٤٤٤. موقع كاثوليك أون لاين: www.catholic.org
٤٤٥. موقع كولمان باركس: www.colemanbarkc.com
٤٤٦. موقع كلية الزيتونة: www.zaytunacollege.org
٤٤٧. موقع كلية الدراسات الإسلامية في قطر: www.qfis.edu.qa
٤٤٨. موقع المجلس الوطني الكردستاني بسوريا: www.kurdnas.com
٤٤٩. موقع المجلس الإسلامي الأعلى في أمريكا:
www.islamicsupremecouncil.org
٤٥٠. موقع المجلس الصوفي العالمي: www.sia-sufism.org
٤٥١. موقع مؤسسة السنة في أمريكا: /http://sunnah.org
٤٥٢. موقع مجلة البيان: www.albayan.co.uk
٤٥٣. موقع رابطة علماء اليمن: http://yemenscholars.com
٤٥٤. موقع مجلس العلاقات الخارجية: www.cfr.org
٤٥٥. موقع مركز التعددية الإسلامية: www.islamicpluralism.org
٤٥٦. موقع مركز الشرق العربي: www.asharqalarabi.org.uk
٤٥٧. موقع مركز المصحلة الوطنية (نيكسون سابقاً) : cftni.org.www
٤٥٨. موقع مركز مراقبة التهديدات:
rapidrecon.threatswatch.org.www
٤٥٩. موقع معهد الشرق الأوسط: www.mei.edu
٤٦٠. موقع مركز السياسة الأمنية: www.centerforsecuritypolicy.org
٤٦١. موقع قاموس أكسفورد: www.oxforddictionaries.com
٤٦٢. موقع مكتبة الحقيقة: www.hakikatkitabevi.net
٤٦٣. موقع منظمة التجديد الطلابي: www.orema.ma
٤٦٤. موقع قانون الإمارات: http://theuaelaw.com

٤٦٥. موقع منظمة اليونسكو: www.unesco.org
٤٦٦. موقع منظمة شنغهاي: www.sectsco.org
٤٦٧. موقع مؤسسة الدفاع عن الديمقراطيات:
www.defenddemocracy.org
٤٦٨. موقع مدونة الباحث أسامة شحادة:
www.osamash.maktoobblog.com
٤٦٩. موقع مجلة النقشبندية: www.nkshabandmgz.com
٤٧٠. موقع جيش رجال الطريقة النقشبندية بالعراق:
www.nkshabandmgz.net
٤٧١. موقع مؤسسة طابة: www.tabahfoundation.org
٤٧٢. موقع البيت الأبيض: www.whitehouse.gov
٤٧٣. موقع وزارة الخارجية الأمريكية: http://www.state.gov/
٤٧٤. موقع وزارة الخارجية الأمريكية (باللغة العربية) :
http://iipdigital.usembassy.gov/arabic
٤٧٥. موقع وزارة الدفاع الأمريكية: http://www.defense.gov/
٤٧٦. موقع مطبوعات الحكومة الأمريكية: http://www.gpo.gov
٤٧٧. موقع اللجنة الأمريكية للحرية الدينية الدولية: uscirf.gov
٤٧٨. موقع الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية: www.usaid.gov
٤٧٩. موقع مركز المسبار: www.almesbar.net
٤٨٠. موقع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
بالمغرب:http://habous.net
٤٨١. موقع موسوعة ويكيبيديا الإليكترونية: www.wikipedia.org
٤٨٢. موقع مؤسسة التراث: www.heritage.org
٤٨٣. موقع المنتدى العالمي للوسطية: www.wasatyea.net
٤٨٤. موقع منظمة مبادرة قرطبة: www.cordobainitiative.org
٤٨٥. موقع الموسوعة العربية العالمية: www.mawsoah.net
٤٨٦. موقع الدكتورة مارسيا هيرمانسن:
www.homepages.luc.edu/~mherman
٤٨٧. موقع صوفية حضرموت: www.soufia-h.net
٤٨٨. موقع وكالة أنباء الأناضول: www.aa.com.tr/ar
٤٨٩. موقع وكالة رويترز للأنباء: ara.reuters.com
٤٩٠. موقع وكالة أنباء آسيا: http://asianewslb.com

٤٩١. موقع بي بي سي/ العربي: www.bbc.co.uk/arabic
٤٩٢. موقع سي إن إن/ العربي: http://arabic.cnn.com
٤٩٣. موقع مغاربية: http://magharebia.com
٤٩٤. موقع قناة الحرة: www.alhurra.com
٤٩٥. موقع قناة إم بي سي: www.mbc.net
٤٩٦. موقع مجلة وتنسس بايونير: www.witness-pioneer.net
٤٩٧. موقع «خدمة إنتر بريس» الإخبارية: http://ipsnorthamerica.net
٤٩٨. موقع المختصر للإخبار: www.almokhtsar.com
٤٩٩. موقع التواصل الاجتماعي المرئي «يوتيوب»: www.youtube.com

سابعًا: المراجع المرئية والصوتية:

٥٠٠. قناة اقرأ، برنامج ضع بصمتك، حلقة بعنوان «التوحيد»، بتاريخ ٢١/ ٤/ ١٤٣٠هـ- ١٧/ ٤/ ٢٠٠٩م.
٥٠١. قناة الجزيرة الوثائقية، فيلم «الصوفية في الجزائر عبادة وسياسة»، ٢٠١١م.
٥٠٢. قناة الجزيرة الوثائقية، فيلم بعنوان «الصوفية في السودان»، ٢٠١١م.
٥٠٣. قناة الجزيرة الوثائقية، فيلم وثائقي بعنوان «الصوفية في المغرب»، ٢٠١٢م
٥٠٤. قناة الجزيرة مباشر مصر، لقاء مع الشيخ محمد علاء أبو العزايم، ٢٠١١م.
٥٠٥. قناة الجزيرة، برنامج سري للغاية، حلقة بعنوان «البحث عن الصوفية»، ٢٠٠٨م.
٥٠٦. قناة الجزيرة، تقرير بعنوان «جدل بشأن علاقة الصوفية بالسياسية»، تاريخ البث ١٨/ ٨/ ٢٠١٠م.
٥٠٧. قناة الحرة، تقرير بعنوان «الصوفية لمحاربة التطرف في الجزائر»، ٢٠٠٩م.
٥٠٨. قناة العربية ، برنامج إضاءات، لقاء مع الحبيب علي الجفري، في ٣/ ١٢/ ٢٠٠٤م.
٥٠٩. قناة العربية، برنامج إضاءات، لقاء مع السيد عبدالله فدعق بتاريخ ٩/ ٦/ ٢٠٠٦م.
٥١٠. قناة إم دي تي في mdtv، برنامج «هاش خليجي»، الحلقة٢، مع الحبيب علي الجفري، بتاريخ ٦/ ٢/ ٢٠١٣م.
٥١١. قناة روسيا اليوم، لقاء مع ضابط المخابرات الأمريكية «سوزان ليندوار»، في ١٨/ ٤/ ٢٠١٣م.
٥١٢. قناة ناشونال جيوغرافيك-أبوظبي، برنامج «حقيقة أم خيال: قوى بشرية خارقة»، ٢٠١٠م.

٥١٣. كلمة صوتية مسجلة بعنوان «التحذير من الخطر القادم:الصوفية العلمية»، للشيخ أبو إسحاق الحويني، ٢٠١٠م.

ثامناً: أبرز اللقاءات والزيارات العلمية:

٥١٤. زيارة للشيخ عبدالله بن بيه، في منزله بمدينة جدة، في ١١/ ٢/ ١٤٣٥هـ الموافق ١٤/ ١٢/ ٢٠١٣ه

٥١٥. زيارة الدكتور إيريك جوفروا في منزله بمدينة ستراسبورغ الفرنسية، في ٢٦/ ١/ ١٤٣٥هـ الموافق ٢٩/ ١١/ ٢٠٠٣م.

٥١٦. زيارة الشيخ علي الريسوني في منزله بمدينة شفشاون المغربية، في ١٧/ ٥/ ١٤٣٥ه الموافق ٢٩/ ٣/ ٢٠١٣م.

٥١٧. لقاء عبر البريد الإليكتروني مع الدكتورة مارسيا هيرمانسن، الأستاذة بجامعة لويولا شيكاغو الأمريكية، بتاريخ ١٠/ ١/ ١٤٣هـ الموافق ١٣/ ١١/ ٢٠١٣م.

فهرس المحتويات

الدار العربية للطباعة والنشر
ARABIAN PRINTING & PUBLISHING HOUSE
الجوال / +٩٦٦ ٥٦٣ ١١٠ ٥٦٣